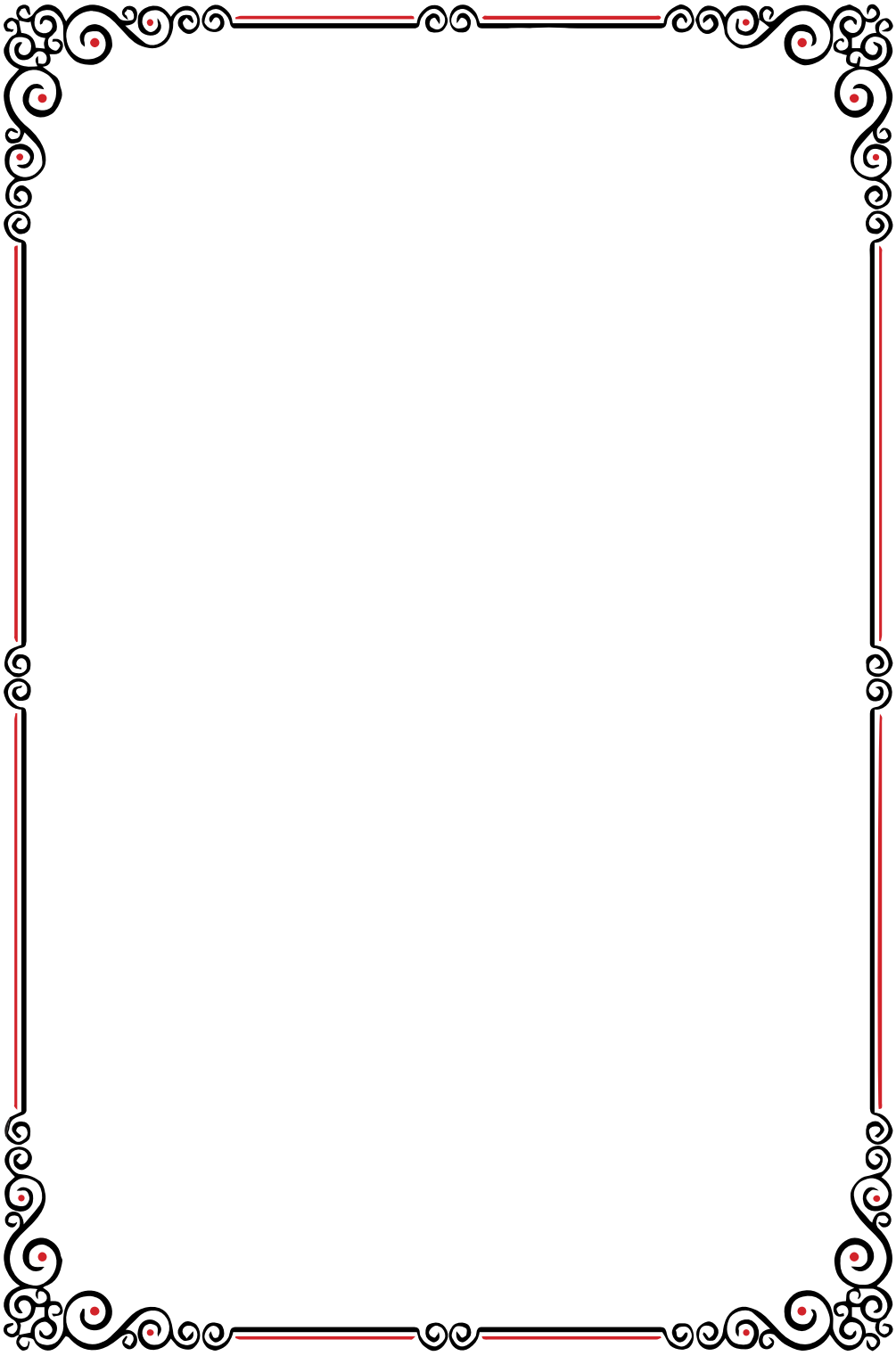

هداية الرحمن الرحيم
لعلاج القلب السقيم



هداية الرحمن الرحيم
لعلاج القلب السقيم

جمع وترتيب الشيخ

أبي عبد الله عادل الشوربجي

حفظه الله

نسخة مجانية لا تباع ولا تشترى

وقف لله تعالى


بسم الله الرحمن الرحيم



الحمد لله، نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه وسلم تسليمًا.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢].

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: ١].

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالىٰ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أما بعد:

فسبحان من جعل محل نظره مضغة بصلاحها يصلح العبد ويسعد، وبمرضها يفسد ويشقىٰ ويحرم، فتأتي أهميتها من كونها محل نظر الرب جل وعلا، قال ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم**»(١).

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٥٦٤)، من حديث أبي هريرة.

والقلب للأعضاء كالملك بالنسبة للجنود الذين يأتمرون بأمره، وينتهون بنهيه، فبصلاحه تصلح الجنود وتسعد، وبفساده تفسد الجنود وتشقىٰ، فكذلك القلب به تصلح الأعضاء، وبه تفسد فتنصلح بانصلاحه، وتفسد بفساده، قال ﷺ: «... **ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت، صلح الجسد كله، وإذا فسدت، فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(١).

ولما كانت لها هذه الأهمية، كان ينبغي علىٰ صاحبها أن يسعىٰ للحفاظ عليها من كل آفةٍ تعلق بها حتىٰ يقبل بها علىٰ خالقه سليمة بيضاء من كل مرض، وتصفو وتثقل، فلا يعلق بها نكتة، ولا يعلوها ران، فيستحق حينها نظرة رضا ورحمة، فيسعد دنيا وآخرة.

قال رسول الله ﷺ: «**تُعرَض الفتن علىٰ القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأي قلب أشربها، نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها، نكت فيه نكتة بيضاء، حتىٰ تصير علىٰ قلبين، علىٰ أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادًّا كالكوز مُجخِّيًا، لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، إلا ما أُشْرب من هواه**»(٢).

فغاية أهل الإيمان الحفاظ عليها مقتدين بخليل الرحمن -جلَّ وعلا- إبراهيم عليه السلام لما أثنىٰ عليه ربه، فقال: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٤]، وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

قال الإمام السعدي رحمه الله: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ من الشرك والشبه،

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٢)، «صحيح مسلم» (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير.

(٢) «صحيح مسلم» (١٤٤) من حديث حذيفة.

والشهوات المانعة من تصور الحق، والعمل به، وإذا كان قلب العبد سليمًا، سلم من كل شرٍّ، وحصل له كل خير، ومن سلامته أنه سليم من غش الخَلق وحسدهم، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق[(١)].

فهو سليم من كل مرض، سليم من كل شبهة، سليم أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة، خاشعًا منيبًا لخالقه ومحبوبه الذي يطمع في أن تكون النظرة نظرة رضا ورحمة، ومحبة وقرب.

قال ابن القيِّم: «والسليم: هو السالم، وجاء علىٰ هذا المثال؛ لأنه للصفات، كالطويل والقصير والظريف، فالسليم: القلب الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له؛ كالعليم والقدير، وأيضًا فإنه ضد المريض والسقيم والعليل، وقد اختلفت عبارات الناس في معنىٰ القلب السليم.

والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم في محبته مع تحكيمه لرسوله في خوفه ورجائه والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريقٍ، وهذه هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده.

فالقلب السليم: هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيها شركة بوجهٍ ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالىٰ؛ إرادةً، ومحبةً، وتوكلًا، وإنابةً، وإخباتًا، وخشيةً، ورجاءً، وخلص عمله وأمره كله لله، فإن أحبَّ أحبَّ في الله، وإن أبغض، أبغض في الله، وإن أعطىٰ أعطىٰ لله، وإن منع منع لله، ولا يكفيه هذا حتىٰ يسلم من الانقياد والتحكم لكلِّ

(١) «تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن» (ص٧٠٥).

مَنْ عدا رسول الله ﷺ، فيعقد قلبه معه عقدًا محكمًا علىٰ الائتمام والاقتداء به وحده دون كل أحدٍ في الأموال والأعمال: من أقوال القلب، وهي العقائد، وأقوال اللسان، وهي الخبر عمَّا في القلب، وأعمال القلب وهي الإرادة والمحبة والكراهية وتوابعها، وأعمال الجوارح، فيكون الحكم عليه في ذلك كله دقِّه وجِلِّه لما جاء به الرسول ﷺ، فلا يتقدم بين يديه بعقيدةٍ، ولا قولٍ، ولا عملٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، أي: لا تقولوا حتىٰ يقول، ولا تفعلوا حتىٰ يأمر»[(١)].

فتأمَّل -رحمني الله وإياك- أهمية القلب كما دلَّ علىٰ ذلك نصوص الوحيين، ومنها:

أنه محل تصديق الأخبار، قال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾ [ق: ٣٢، ٣٣]، راجعًا عائدًا لمن امتلأ بحبه لما عرفه وتعلم من هو بأسمائه وصفاته.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: رجَّاع تائب مقلع، ﴿حَفِيظٍ﴾، أي: يحفظ العهد فلا ينقضه، ولا ينكثه»[(٢)].

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: هذه الجنة وما فيها، مما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، هي التي وعد الله كل أوابٍ، أي: رجَّاع إلىٰ الله في جميع الأوقات بذكره وحبه، والاستعانة به، ودعائه، وخوفه، ورجائه.

---

(١) «التفسير القيم = تفسير القرآن الكريم لابن القيم» (ص٤١٥).

(٢) «تفسير ابن كثير»، ت: سلامة» (٧/ ٤٠٦).

﴿حَفِيظٍ﴾، أي: يحافظ علىٰ ما أمر الله به، بامتثاله علىٰ وجه الإخلاص والإكمال له، علىٰ أكمل الوجوه، حفيظ لحدوده»(١).

وهو محور الاعتبار والعقل، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧]، أي: كان له قلب سليم صحيح، فينتفع بالموعظة، فيتذكر حينما تحيط به الأهواء والأمراض والشبهات والدنيا ووسواس الشيطان.

قال الإمام السعدي: «﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾، أي: قلب عظيم حي، ذكي، زكي، فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله، تذكَّر بها، وانتفع فارتفع، وكذلك من ألقىٰ سمعه إلىٰ آيات الله، واستمعها استماعًا يسترشد به، وقلبه ﴿شَهِيدٌ﴾، أي: حاضر، فهذا له أيضًا ذكرىٰ وموعظة، وشفاء وهدىٰ.

وأما المعرض الذي لم يلق سمعه إلىٰ الآيات، فهذا لا تفيده شيئًا؛ لأنه لا قبول عنده، ولا تقتضي حكمة الله هداية مَن هذا وصفه ونعته(٢).

ولمَّا عُوتب أهل الإيمان في قوله تعالىٰ: ﴿۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦]، علموا مدىٰ أهميته عند خالقهم ومحبوبهم، واستحقاقه كمال الخشوع له، وتخليص القلوب من كل ما يعكر صفو هذه العلاقة لا سيما أن ضرب لهم مثلًا للتحذير، فقال: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ حتىٰ لا تغلظ القلوب، وتكون صلبة لا تلين، فبين هنا أن الامتثال لأوامره ووحيه، والانشغال بذكره، سبيلٌ لجعلها غضةً رطبةً لينةً، ثم يمنُّ برحمته علىٰ مَن أدرك هذه الحقيقة، وقد عاين قسوة وصلابة أنه مهما بلغت سوء الحال بقلبه، فإن الذي يحيي الأرض

---

(١) «تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن» (ص٨٠٧).

(٢) «تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن» (ص٨٠٧).

بعد موتها قادر علىٰ إنبات الإيمان في هذا القلب؛ لأن الإيمان في القلب كالحياة في الأرض، ففيه حسن الرجاء وفتح باب للإقبال عليه سبحانه مثال مشاهد تعاينه القلوب الحية بأبصار كشف غطاؤها، فقال مخاطبًا هذه القلوب: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٧﴾ [الحديد: ١٧]، تدبرها؛ سبحانه ودود رؤوف رحيم.

أن القلب محل العقل:

والعقل غريزة أودعها الله في قلوب الممتحنين من عباده تعرف بآثارها علىٰ الجوارح، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد: ٢٤]، فبين أنه محل التدبُّر والفهم.

جاء عند الطبري عن خالد بن معدان، قال: «ما من آدميٍّ إلا وله أربع أعين: عينان في رأسه لدنياه وما يصلحه من معيشته، وعينان في قلبه لدينه، وما وعد الله من الغيب، فإذا أراد الله بعَبْدٍ خيرًا، أبصرت عيناه اللتان في قلبه، وإذا أراد الله به غير ذلك، طمس عليهما، فذلك قوله: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾»[(١)].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩]، غلفت بأهوائها ودرنها، ففسدت، فلا يعي ولا يعقل، ولا يستجيب، فقال عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾.

القلب كثير التقلُّب، فمن علم ذلك، كان الخوف وصفًا ملازمًا له، وهذا وصف القرآن لأهل الإيمان، وهذا الخوف هو الحامل لهم للتخلص من الأدران.

---

(١) «تفسير الطبري = جامع البيان». ت: شاكر (٢٢/ ١٧٩).

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠]، وقال تعالىٰ: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ [المدثر: ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة: ١٦]، وقال: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤]، وقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: ٥١]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد: ٢١]، وقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٧]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥]، وغيرها.

قال أنسٌ: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلِّب القلوب، ثبِّت قلبي علىٰ دينك**»، فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم، إنَّ القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء**»(١)، فالقلب محل الخوف، فإن كان هذا وصف حال نبينا، فكيف ينبغي أن يكون حالنا.

القلب محل القسوة والغلظة التي تنعكس علىٰ الجوارح:

قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: ٧٤].

والقلب محل الرحمة واللِّين مع من تدعوهم إلىٰ دعوة الحق:

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢١٠٧)، والترمذي في «سننه» (٢١٤٠)، وقال الألبانيُّ: صحيح. «الصحيحة» (٢٠٩١).

قال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

القلب محل أشد أنواع العقوبة في الدنيا:

قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٤، ١٥] حجب يوم القيامة نتيجة لإعراضٍ تبعه رانٌ، وحجب عن نور هدايته في الدنيا، فاللهم سلِّم سلِّم منها.

قال ابن الجوزي: «أشد أنواع العقوبة علىٰ المعاصي: سلب الإيمان، ولذة الإيمان، ونسيان القرآن، وإهمال الاستغفار - عقوبات علىٰ القلب...

أعظم المعاقبة: ألَّا يحس المعاقب بالعقوبة، وأشد من ذلك أن يقع السرور بما هو عقوبة؛ كالفرح بالمال الحرام، والتمكُّن من الذنوب، ومَن هذه حاله، لا يفوز بطاعة.

وإنِّي تدبَّرت أحوال أكثر العلماء والمتزهدين، فرأيتهم في عقوباتٍ لا يحسُّون بها، ومعظمها من قِبَلِ طلبهم للرئاسة، فالعالم منهم يغضب إن رد عليه خطؤة، والواعظ متصنِّع بوعظه، والمتزهد منافق أو مُراء.

فأول عقوباتهم: إعراضهم عن الحق شغلًا بالخلق، ومن خفي عقوباتهم: سلب حلاوة المناجاة، ولذة التعبد إلا رجال مؤمنون، ونساء مؤمنات، يحفظ الله بهم الأرض، بواطنهم كظواهرهم؛ بل أجلىٰ، وسرائرهم كعلانيتهم؛ بل أحلىٰ، وهممهم عند الثريا[1]، بل أعلىٰ، إن عرفوا تنكروا، وإن رئيت لهم كرامة أنكروا، فالناس في

(١) مجموعة من النجوم.

غلاتهم، وهم في قطع فلاتهم[(١)]، تحبهم بقاع الأرض، وتفرح بهم أملاك السماء، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ التوفيق لاتباعهم، وأن يجعلنا من أتباعهم»[(٢)].

فما ضرب عبد بعقوبةٍ أعظم من قسوة القلب، وسمعته يقول (مالك بن دينار): إن لله تعالىٰ عقوبات فتعاهدوهنَّ من أنفسكم في القلوب والأبدان، وضنك في المعيشة، ووهن في العبادة، وسخطة في الرزق»[(٣)].

القلب محل أعلىٰ درجات النعيم والسعادة:

سئل العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما هي الحياة الطيبة؟

الجواب: الحياة الطيبة هي انشراح الصدر، وطمأنينة القلب حتىٰ ولو كان الإنسان في أشد بؤسٍ، فإنه مطمئن القلب، منشرح الصدر، قال النبي ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»[(٤)(٥)]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

القلب محل التزكية، وهي النماء والتطهير من العقائد الفاسدة، والأخلاق السيئة:

فهو -إذن- أساس كل خيرٍ، وأخبر الله بمنِّه علىٰ المؤمنين بإرساله الرسول

---

(١) الأرض الجرداء، والمعنىٰ: أن هؤلاء الرجال في سفرٍ إلىٰ الجنة، ولا يجعلون من الدنيا وزينتها شاغلًا لهم عن ذلك.

(٢) «صيد الخاطر» (ص٢٧).

(٣) «صفة الصفوة» - ط المعرفة. ت: فاخوري وقلعجي (٣/ ٢٨٧).

(٤) رواه مسلم/ كتاب الزهد والرقائق/ باب المزمن أمره كله خير/ برقم (٢٩٩٩).

(٥) «مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين» (٢٦/ ٦٩).

لذلك، فقال: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾ [البقرة: ١٥١].

ولمَّا علم أنبياء الله ذلك، قال خليله في دعائه: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقال: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢﴾ [الجمعة: ٢].

فلهذا وأكثر؛ تأتي أهمية سلامة القلب، والحرص علىٰ تطهيره وتنقيته؛ ليصلح أن يجيء به الإنسان دخولًا إلىٰ ربه، فيستحق نظرة الرضا، فيسعد دنياه وآخرته.

فمَنَّ الله علىٰ أهل العلم السائرين علىٰ طريق السلف الصالح من الصحابة والتابعين بالاعتناء بسلامة القلب وتطهيره، وذكر الشوائب التي قد تتعلق به، فيهلك صاحبه، ويؤتىٰ من حيث لا يشعر، فواجب علىٰ العاقل كما قال حذيفة: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني»، وكما قال الشاعر:

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

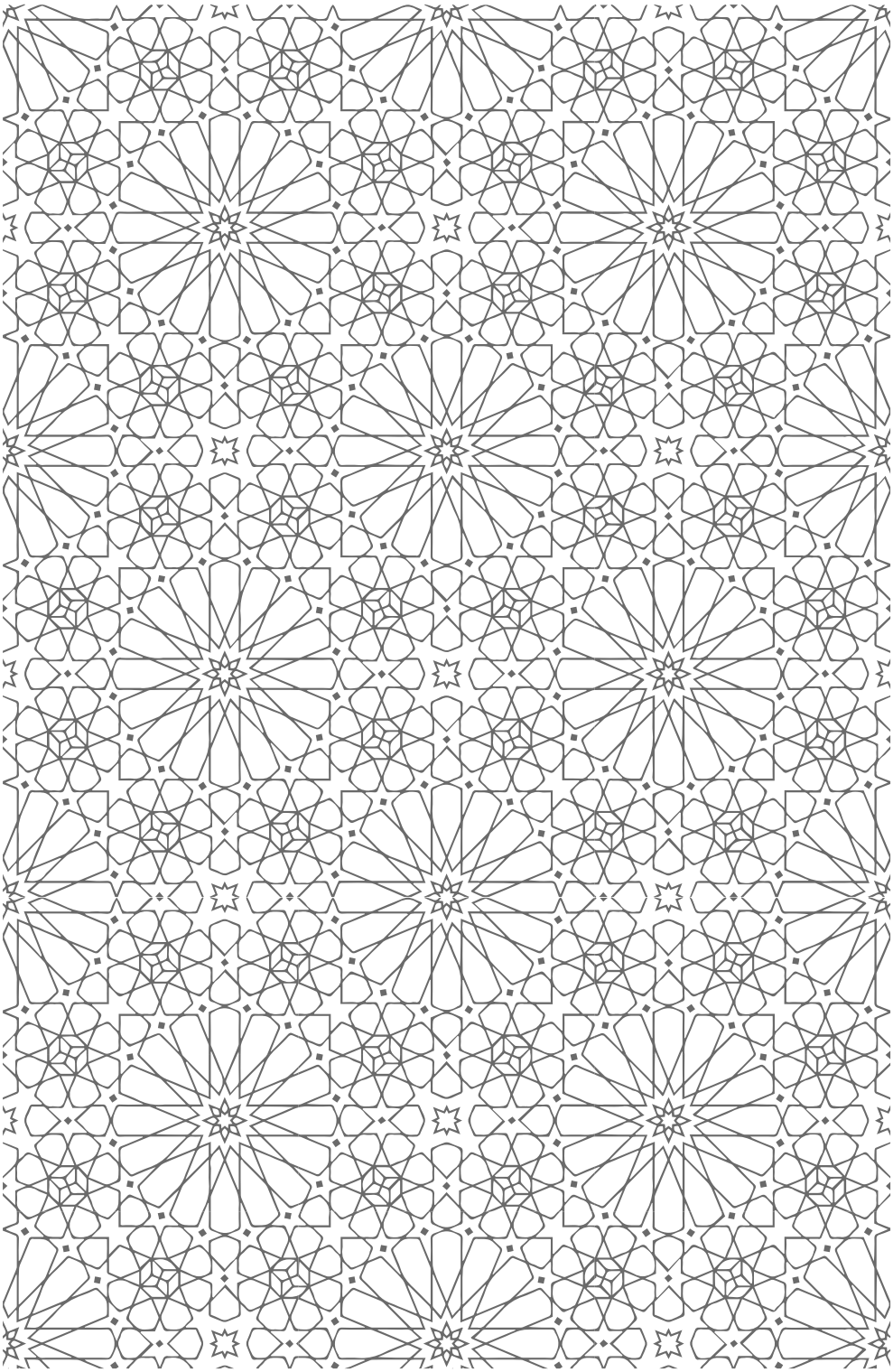
وأن ينظر ويتأمل ويعقل ما جمعوه من هذه العوائق التي تكون في الطريق الموصلة لقلبه حتىٰ يتخلص منها، فتصفو له الحياة الحقيقية، فيرىٰ ما كان علىٰ ما كان دون لبسٍ أو اشتباهٍ؛ لصفاء قلبه، وخشوعه، وإنابته، وتوكله علىٰ من يخافه

ويحبه ويخشاه ويرجوه، ويطمع في رضاه مع تقصيره؛ لأنه علم أنه جبار يجبر القلوب المنكسرة إليه، ودود قريب سميع مجيب رحمن رحيم.

فها هي رسالة جمعت فيها مجموعة من الأمراض التي تضعف وقد تقتل المضغة التي هي محل نظر الرب، وعلاج تلك الأمراض بالطريقة الشرعية.

فنسأل الله أن يجعلها إعانةً للسالك علىٰ تنقية قلبه ليذوق طيب الحياة.





القسم الأول

مقدمة حول أمراض القلوب

وفيها أحد عشر فصلًا:

الفصل الأول: خطة البحث.

الفصل الثاني:

أولًا: أنواع المرض باعتبار ما يصاب به.

ثانيًا: العلاقة بين القلب وأعضاء البدن.

الفصل الثالث: أنواع القلوب.

الفصل الرابع: أنواع مرض القلب.

الفصل الخامس: العلاقة بين مرض البدن ومرض القلب.

الفصل السادس: ذكر مرض القلب.

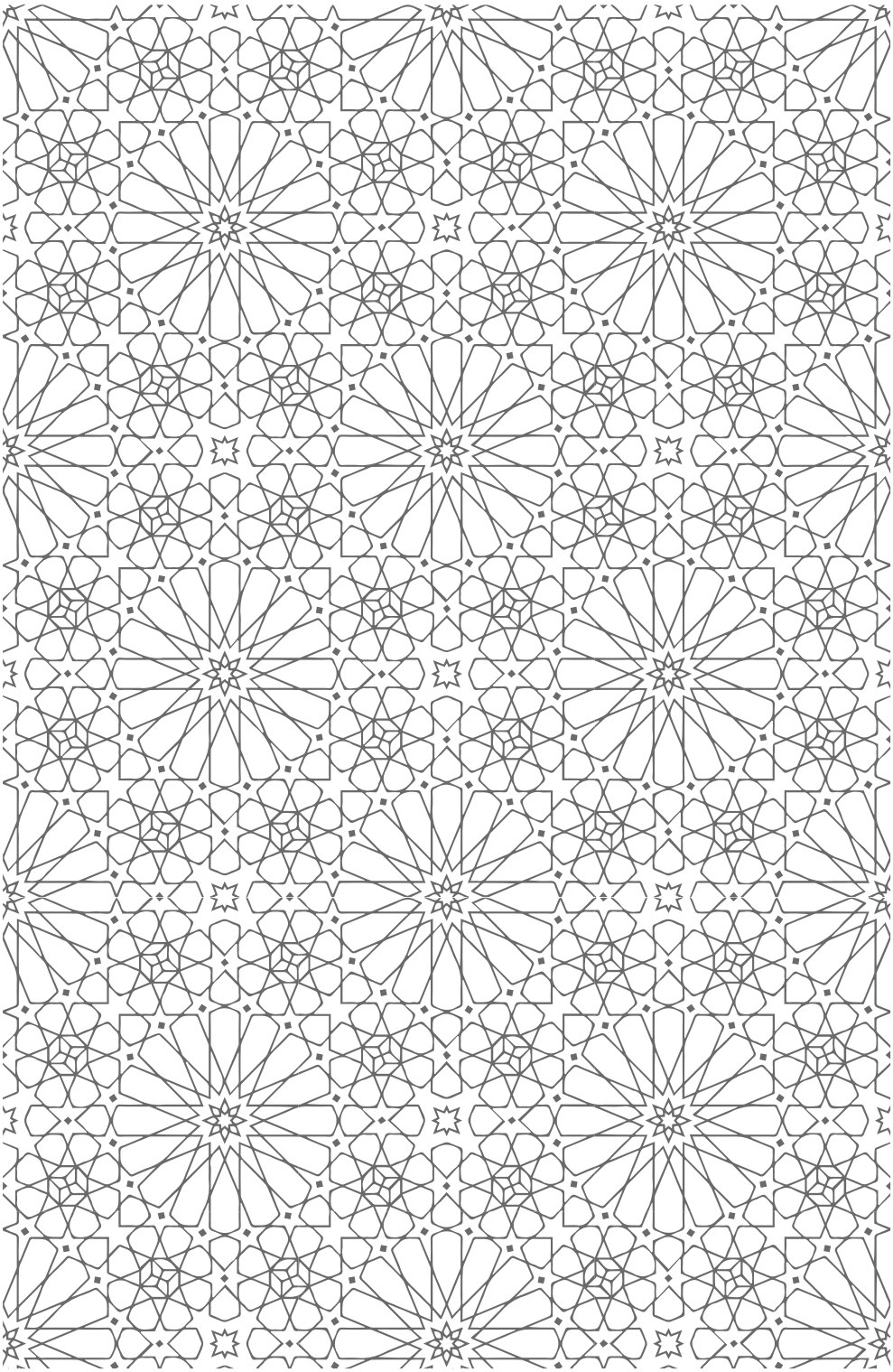
الفصل السابع: علاقة القلب بالجوارح.

الفصل الثامن: أسباب مرض القلب علىٰ العموم.

الفصل التاسع: تقسيم أمراض القلوب باعتبار الشعور بها.

الفصل العاشر: أسباب صحة القلب وعلامات صحته وسلامته.

الفصل الحادي عشر: أصول مهمة قبل دراسة أمراض القلوب.



الفصل الأول

خطة البحث

تدور الشريعة حول توحيد المولىٰ ﷻ بإفراده سبحانه بكل أنواع العبادة، وبأسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا وبالربوبية، وعلىٰ اتباع النبي ﷺ، وعلىٰ التزكية، كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: ٢]، والتزكية هي مسائل أمراض القلوب، ومراعاة أصول التربية ونحوها، وهي التي نحن بصددها في هذا المبحث.

وسيتم -إن شاء الله تعالىٰ- ذكر اسم المرض والأدلة الشرعية التي تذمُّ هذا المرض وتعريفه ووصفه، أي: تشخيصه، وذكر أعراضه ومظاهره، والأسباب التي تؤدي إلىٰ حدوثه، وكيفية علاجه.

الفصل الثاني

أنواع المرض باعتبار ما يصاب به.

العلاقة بين القلب وأعضاء البدن.

أولًا: أنواع المرض باعتبار ما يصاب به:

يقول ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: «المرض نوعان: مرض القلوب، ومرض الأبدان، وهما مذكوران في القرآن.

ومرض القلوب نوعان: مرض شبهة وشك، ومرض شهوة وغي، وكلاهما في القرآن، قال تعالىٰ في مرض الشبهة: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

وأما مرض الشهوات، فقال تعالىٰ: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وأما مرض الأبدان، فقال تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١]»[(١)].

ثانيًا: العلاقة بين القلب وأعضاء البدن:

قال شيخ الإسلام: «وعن أبي هريرة قال: القلب ملك، والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث خبثت جنوده، وقول أبي هريرة تقريب، وقول النبي ﷺ أحسن بيانًا، فإن الملك وإن كان صالحًا فالجند لهم اختيارٌ، قد يعصون به ملكهم وبالعكس، فيكون فيهم صلاحٌ مع فساده، أو فساد مع صلاحه، بخلاف

---

(١) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٤/ ٦).

القلب؛ فإن الجسد تابع له، لا يخرج عن إرادته قط، كما قال النبي ﷺ: «**إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد**».

فإذا كان القلب صالحًا بما فيه من الإيمان علمًا وعملًا قلبيًّا، لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر، والعمل بالإيمان المطلق، كما قال أئمة أهل الحديث»[(١)].

قال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: «القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود، الذي تصدر كلها عن أمره، ويستعملها فيما شاء، فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله، قال النبي ﷺ: «**ألا وإنَّ في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله**»، فهو ملكها، وهي المنفذة لما يأمرها به، القابلة لما كان يأتيها من هديته، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتىٰ تصدر عن قصده ونيته، وهو المسؤول عنها كلها؛ لأنَّ كل راعٍ مسؤول عن رعيته، كان الاهتمام بتصحيحه وتسديده أولىٰ ما اعتمد عليه السالكون، والنظر في أمراضه وعلاجها أهم ما تنسَّك به الناسكون». اهـ[(٢)].

ولقد وقف علىٰ هذه العلاقة الوثيقة بين القلب وبقية أعضاء البدن إبليس لعنه الله، لذلك أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إليه، وزين له من الأقوال والأعمال ما يصده عن الطريق، وأمدَّه من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل ما إنْ سلم من الوقوع فيها، وقع في بعضها، ولم يسلم من أن يحصل له بها التعويق عن سلوك سبل الاستقامة، فلا نجاة للعبد من مصائده ومكائده إلا بدوام الاستعانة بالله تعالىٰ، والتعريض لأسباب مرضاته،

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ١٨٧).

(٢) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ٥).

والتجاء القلب إليه، وإقباله عليه في حركاته وسَكَناته، والتحقُّق بذل العبودية الذي هو أَولىٰ ما تلبَّس به الإنسان ليحصل له الدخول في ضمان ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشياطين، وحصولها يسبب تحقيق مقام العبودية لرب العالمين، وإشعار القلب إخلاص العمل، ودوام اليقين، فإذا أشرب القلب العبودية والإخلاص، صار عند الله من المقربين، وشمله استثناء ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٤٠][(١)].

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ٦).

الفصل الثالث

أنواع القلوب

تنقسم قلوب بني آدم باعتبار الصِّحَّة والمرض إلىٰ ثلاثة أقسام:

الأول: القلب السليم.

الثاني: القلب المريض.

الثالث: القلب الميت.

أولًا: القلب السليم:

قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

وقال تعالىٰ في معرض الثناء علىٰ خليله إبراهيم: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤].

قال الرازي: «المراد منه سلامة القلب عن الجهل والأخلاق الرذيلة، وذلك لأنه كما أن صحة البدن وسلامته عبارة عن حصول ما ينبغي من المزاج والتركيب والاتصال، ومرضه عبارة عن زوال أحد تلك الأمور، فكذلك سلامة القلب عبارة عن حصول ما ينبغي له وهو العلم والخلق الفاضل، ومرضه عبارة عن زوال أحدهما، فقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ أن يكون خاليًا عن العقائد الفاسدة، والميل إلىٰ شهوات الدنيا ولذاتها.

فإن قيل: فظاهر هذه الآية يقتضي أن مَن سلم قلبه كان ناجيًا، وأنه لا حاجة فيه إلىٰ سلامة اللسان واليد.

فجوابه: أن القلب مؤثر، واللسان والجوارح تبع، فلو كان القلب سليمًا، لكانا سليمين لا محالة، وحيث لم يسلما، ثبت عدم سلامة القلب». اهـ.[(١)] من «التفسير الكبير».

قال الطبري: «سلامة القلب من الشك في توحيد الله، والبعث بعد الممات»[(٢)].

قال ابن كثيرٍ: «قال محمد بن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث مَن في القبور»[(٣)].

وصف القلب السليم وتعريفه:

قال ابن القيِّم رحمه الله تعالىٰ: «هو القلب الذي قد سلم من كل شهوةٍ تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهةٍ تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم من محبة غير الله معه، ومن خوفه ورجائه والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حالٍ، والتباعد من سخطه بكل طريقٍ»[(٤)].

وكذلك سلم من كل إرادةٍ تزاحم مراده (أي: مراد الله تعالىٰ)، وسلم من كل قاطعٍ يقطع عن الله.

فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا، وفي جنة في البرزخ، وفي الجنة يوم المعاد.

---

(١) «تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير» (٢٤/ ٥١٧).
(٢) «تفسير الطبري = جامع البيان». ت: شاكر (١٩/ ٣٦٦).
(٣) «تفسير ابن كثير». ت: سلامة (٦/ ١٤٩).
(٤) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ٧).

ولا تتمُّ له سلامته مطلقًا حتىٰ يسلم من خمسة أشياء: من شركٍ يناقض التوحيد، وبدعةٍ تخالف السُّنة، وشهوةٍ تخالف الأمر، وغفلةٍ تناقض الذِّكر، وهوًىٰ يناقض التجريد والإخلاص.

وهذه الخمسة حجب عن الله، وتحت كل واحدٍ منها أنواع كثيرة تتضمن أفرادًا لا تنحصر»[(١)].

فهو القلب الذي سلم لله تعالىٰ، والتسليم ضد المنازعة. والمنازعة إما بشبهة فاسدة تعارض الإيمان بالخبر عمَّا وصف الله به نفسه من صفاته وأفعاله، وما أخبر به عن اليوم الآخر، وغير ذلك، فالتسليم له ترك منازعته بشبهات المتكلمين الباطلة.

وإمَّا بشهوةٍ تعارض أمر الله عَزَّوَجَلَّ، فالتَّسليم للأمر بالتخلُّص منها.

أو إرادة تعارض مراد الله من عبده، فتعارضه إرادة تتعلق بمراد العبد من الرب، فالتسليم بالتخلص منها.

أو اعتراض يعارض حكمته في خلقه وأمره بأن يظن أن مقتضىٰ الحكمة خلاف ما شرع، وخلاف ما قضىٰ وقدر، فالتسليم التخلص من هذه المنازعات كلها[(٢)].

والمعصوم مَن عصمه الله تعالىٰ، وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده.

فالقلب السليم: هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجهٍ ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالىٰ؛ إرادةً ومحبةً، وتوكلًا، وإنابةً، وإخباتًا، وخشيةً، ورجاءً،

---

(١) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء» (ص١٢٢).

(٢) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (٢/ ١٤٧).

وخلص عمله لله، فإن أحبَّ أحبَّ في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطىٰ أعطىٰ لله، وإن منع منع لله، ولا يكفيه هذا حتىٰ يسلم من الانقياد والتحكيم لكل مَن عدا رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم، فيعقد قلبه معه عقدًا محكمًا علىٰ الائتمام والاقتداء به وحده، دون كل أحدٍ في الأقوال والأعمال من أقوال القلب، وهي العقائد، وأقوال اللسان؛ وهي الخبر عما في القلب، وأعمال القلب، وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها، وأعمال الجوارح، فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دقِّه وجلِّه هو ما جاء به الرسول صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم، فلا يتقدم بين يديه بعقيدةٍ، ولا قولٍ، ولا عملٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [الحجرات: ١]، أي: لا تقولوا حتىٰ يقول، ولا تفعلوا حتىٰ يأمر». اهـ(١).

وعليه، فالقلب السليم لا توجد فيه أي شبهةٍ تجاه الأخبار الواردة في الكتاب أو السُّنة، بل يصدق تصديقًا جازمًا بكلِّ خبرٍ جاء في الكتاب أو السُّنة، أو فيهما، ويظهر أثر هذا التصديق علىٰ الجوارح بالعمل، والاستقامة علىٰ الشريعة، فيصدق بعذاب القبر، وأنه يقع علىٰ البدن والروح؛ قُبِرَ الميت أو لم يقبر طالما أنه للعذاب أهلٌ، ويصدق بنزول عيسىٰ ابن مريم، وأنه سينزل في آخر الزمان يحكم بشريعة النبي العدنان، ويكسر الصليب والأوثان، وهكذا في كل ما ورد وصحت به الأخبار، وكذلك سلم من كل شهوةٍ تخالف الأمر الشرعي، فيسلم من شهوة أكل الحرام، ويسلم من شهوة النظر إلىٰ الحرام، وإنْ وقع في شيءٍ من ذلك، يعجل بالتوبة إلىٰ الله تعالىٰ، وعلىٰ الجملة فالقلب السليم ينقاد للخبر تصديقًا واستيقانًا، وللطلب إذعانًا وامتثالًا.

---

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ٨).

ثانيًا: القلب المريض:

قال ابن القيِّم رحمه الله تعالىٰ: «هو قلب له حياة، وبه علة؛ فله مادتان، تمده هذه مرةً، وهذه أخرىٰ، وهو لما غلب عليه منهما، ففيه من محبة الله تعالىٰ، والإيمان به، والإخلاص له، والتوكل عليه: ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها، والحرص علىٰ تحصيلها، والحسد والكبر والعجب، وحب العلو والفساد في الأرض بالرياسة ما هو مادة هلاكه وعطبه، وهو ممتحنٌ بين داعيين؛ داع يدعوه إلىٰ الله ورسوله والدار الآخرة، وداع يدعوه إلىٰ العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا، وأدناهما إليه جوارًا، فالقلب المريض هو الضعيف المنحل الذي لا تثبت فيه صورة الحق، فإن غلب عليه مرضه، التحق بالميت القاسي، وإن غلبت عليه صحته، التحق بالسليم»[(١)].

ثالثًا: القلب الميت:

قال ابن القيِّم رحمه الله تعالىٰ: «هو القلب الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقفٌ مع شهواته ولذاته؛ ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه، رضي ربه أم سخط، فهو متعبد لغير الله؛ حبًّا، وخوفًا، ورجاءً، ورضًا، وسخطًا، وتعظيمًا، وذلًّا، إن أحبَّ أحبَّ لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطىٰ أعطىٰ لهواه، وإن منع منع لهواه، فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه، فالهوىٰ إمامه، والشهوة قائده، والجهل سائقه، والغفلة مركبه، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبسكرة الهوىٰ وحب العاجلة مخمور، ينادىٰ إلىٰ الله وإلىٰ الدار الآخرة من مكانٍ بعيدٍ، فلا يستجيب

---

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ١٠).

للناصح، ويتبع كل شيطانٍ مريد، الدنيا تسخطه وترضيه، والهوىٰ يصمُّه عمَّا سوىٰ الباطل ويُعْميه، فهو في الدنيا كما قيل في ليلىٰ:

عــدو لمــن عــادت، وســلم لأهلهــا ومــن قربــت ليلــىٰ أحــب وأقربــا

فمخالطة صاحب هذا القلب سقم، ومعاشرته سم، ومجالسته هلاك[(١)].

فالقلب الميت لا يفرق بين الحسن والقبيح، كما قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله تعالىٰ عنه: «هلك مَنْ لم يكن له قلب يعرف به المعروف، وينكر به المنكر».

وعلىٰ الجملة، فالقلب الأول حي مخبت لين واع، والثاني مريض، فإما إلىٰ السلامة أدنىٰ، وإما إلىٰ العطب أدنىٰ، والثالث يابس ميت.

وقد جمع الله سبحانه بين هذه القلوب الثلاثة في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: ٥٢ - ٥٤].

قال ابن القيِّم رحمه الله تعالىٰ: «فجعل الله ﷻ القلوب في هذه الآيات ثلاثةً: قلبين مفتونين، وقلبًا ناجيًا، فالمفتونان: القلب الذي فيه مرض، والقلب القاسي. والناجي: القلب المؤمن المخبت إلىٰ ربه، وهو المطمئن إليه، الخاضع له، المستسلم المنقاد.

---

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ٩).

وذلك أن القلب وغيره من الأعضاء يراد منه أن يكون صحيحًا سليمًا لا آفة به، يتأتىٰ منه ما هُيِّئ له، وخُلق لأجله، وخروجه عن الاستقامة إما ليبسه وقساوته، وعدم التأتِّي لما يراد منه؛ كاليد الشلَّاء، واللسان الأخرس، والأنف الأخشم، وذكر العنين والعين التي لا تبصر شيئًا، وإما بمرضٍ وآفةٍ فيه تمنعه من كمال هذه الأفعال، ووقوعها علىٰ السداد، فلذلك انقسمت القلوب إلىٰ هذه الأقسام الثلاثة.

فالقلب الصحيح السليم: ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوىٰ إدراكه، فهو صحيح الإدراك للحق، تام الانقياد، والقبول له.

والقلب الميت القاسي: لا يقبله، ولا ينقاد له.

والقلب المريض: إن غلب عليه مرضه، التحق بالميت القاسي، وإن غلبت عليه صحته، التحق بالسليم.

فما يُلْقيه الشيطان في الأسماع من الألفاظ، وفي القلوب من الشُّبه والشكوك: فيه فتنة لهذين القلبين، وقوة للقلب الحي السليم؛ لأنه يرد ذلك، ويكرهه ويبغضه، ويعلم أن الحق في خلافه، فيخبت للحق قلبه، ويطمئن وينقاد، ويعلم بطلان ما ألقاه الشيطان، فيزداد إيمانًا بالحق، ومحبةً له، وكفرًا بالباطل، وكراهةً له، فلا يزال القلب المفتون في مريةٍ من إلقاء الشيطان، وأما القلب الصحيح السليم فلا يضره ما يلقيه الشيطان أبدًا»[(١)].

قوله تعالىٰ: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هي لام التعليل علىٰ بابها، وهذا الاختبار والامتحان مظهرٌ لمختلف القلوب الثلاثة، فالقاسية

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ١٠).

والمريضة ظهر خبؤها من الشَّك والكفر، والمخبتة ظهر خبؤها من الإيمان والهدىٰ وزيادة محبته وزيادة بغض الكفر والشِّرك والنُّفرة عنه، وهذا من أعظم حكمة هذا الإلقاء.

شبهة وجوابها:

روىٰ ابن أبي شيبة (٣٧٣٩٥) بسند صحيح موقوفًا[(١)] علىٰ حذيفة بن اليمان قال: «القلوب أربعة: فقلب أجرد فيه مثل السراج أزهر، وذلك قلب المؤمن، وسراجه فيه نوره، وقلب أغلف مربوط علىٰ غلافه، فذلك قلب الكافر، وقلب منكوس وذلك قلب المنافق، عرف ثم أنكر، وقلب مصح، وذلك قلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها ماء طيب، ومثل النفاق كمثل القرحة يمدها القيح والدم، فأي المِدَّتَيْنِ غلبت علىٰ صاحبتها غلبت عليه، وراه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا، ولا يصحُّ»[(٢)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقوله: قلب أجرد، أي: متجرد مما سوىٰ الله ورسوله، فقد تجرَّد وسلم ممَّا سوىٰ الحق، وفيه سراجٌ يزهر، وهو مصباح الإيمان، فأشار بتجرُّده إلىٰ سلامته من الشُّبهات، كما قال تعالىٰ حاكيًا عن اليهود: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ﴾ [البقرة: ٨٨]. وهو جمع أغلف، وهو الداخل في غلافه؛ كقلف وأقلف، وهذه الغشاوة هي الأكنة التي ضربها الله علىٰ قلوبهم، عقوبةً لهم علىٰ رد الحق، والتكبر عن قبوله، فهي أكنة علىٰ القلوب، ووقر في الأسماع، وعمىٰ في الأبصار، وهي الحجاب المستور عن العيون في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا

(١) قال الألبانيُّ في تحقيق «الإيمان» لابن تيمية (ص١٠٦): ضعيف مرفوعًا، والصحيح موقوفًا.
(٢) رواه أحمد (١١١٢٩).

مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦]، فإذا ذكر لهذه القلوب تجريد التوحيد وتجريد المتابعة، ولَّىٰ أصحابها علىٰ أدبارهم نفورًا.

وأشار بالقلب المنكوس -وهو المكبوب- إلىٰ قلب المنافق، كما قال تعالىٰ: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾ [النساء: ٨٨]، أي: نكسهم وردهم في الباطل الذي كانوا فيه بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة، وهذا شر القلوب وأخبثها، فإنه يعتقد الباطل حقًّا، ويوالي أصحابه، والحق باطلًا، ويعادي أهله، فالله المستعان.

وأشار بالقلب الذي له مادتان إلىٰ القلب الذي لم يتمكَّن فيه الإيمان، ولم يزهر فيه سراجه، حيث لم يتجرد للحق المحض الذي بعث الله به رسوله، بل فيه مادة منه، ومادة من خلافه، فتارةً يكون للكفر أقرب منه للإيمان، وتارةً يكون للإيمان أقرب منه للكفر، والحكم للغالب، وإليه يرجع»[(١)].

الجواب عن الشبهة: أن حذيفة -رضي الله تعالىٰ عنه- فصل ما أجمل، وقلب الكافر كقلب المنافق سواء في كونهما ميتين.



(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ١٣).

الفصل الرابع

أنواع مرض القلب

بعض الأدلة الشرعية علىٰ ثبوت مرض القلب: وأمراض القلوب علىٰ اختلافها وتنوُّعها وتعدُّدها لا تخرج في أصلها عن نوعين: مرض شبهة، ومرض شهوة.

قال تعالىٰ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة: ١٠]، نوع المرض: مرض شبهة.

وقال تعالىٰ: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة: ٥٢]، نوع المرض: مرض شبهة وشهوة.

وقال تعالىٰ: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال: ٤٩]، نوع المرض: مرض شبهة.

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٥]، نوع المرض: مرض شبهة.

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: ١٢]، نوع المرض: مرض شبهة.

وقال تعالىٰ: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٢]، نوع المرض: مرض شهوة.

وقال تعالىٰ: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب: ٦٠]، نوع المرض: مرض شبهة.

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾ [محمد: ٢٠]، نوع المرض: مرض شبهة.

وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ [محمد: ٢٩]، نوع المرض: مرض شبهة وشهوة، وغيرها من الآيات الدالة دلالة قاطعة علىٰ ثبوت مرض للقلب.



الفصل الخامس

العلاقة بين مرض البدن ومرض القلب

لمَّا تكلم ابن القيِّم -رحمه الله تعالىٰ- عن مرض القلب، تكلم أولًا عن مرض البدن علىٰ وجه العموم، فقال: مرض البدن؛ كارتفاع درجة الحرارة، أو ارتفاع ضغط الدم، يطابق مرض القلب الذي نريد أن نتكلم عنه، وهو أيضًا محسوس، أي: أقرب إلىٰ الناس في فهمه، لذا نذكر -إن شاء الله تعالىٰ- خلاصة العلاقة بينهما من كلام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الماتع «إغاثة اللهفان».

ذكر مرض البدن:

مرض البدن: تعريفه: هو خلاف صلاحه واستقامته، أو: خلاف ما كان عليه قبل أن يعتريه ما اعتراه.

وسببه: فسادٌ يعرض للبدن، وأنواع الفساد كثيرة.

أعراض مرض البدن علىٰ وجه الإجمال:

- فساد إدراكه.
- فساد حركته الطبيعية.

وفساد الإدراك نوعان:

- يذهب إدراكه بالكلية؛ كالعمىٰ والصمم والشلل.
- خلل في الإدراك، وهو قسمان أيضًا:

أ. أن يُدْرك الأشياء علىٰ غير حقيقتها؛ كأن يرىٰ الشيء مقلوبًا، فيدرك الحلو مُرًّا، والخبيث طيبًا، والطيب خبيثًا.

ب. ألَّا يدركها إدراكًا كاملًا؛ كأن يصبح غير قادرٍ -مثلًا- علىٰ رؤية شيءٍ علىٰ بُعْد خمسة أمتارٍ بعد أن كان يرىٰ علىٰ بُعْد عشرين مترًا.

خلل في حركته الطبيعية:

وهي المتعلقة بجوف الإنسان، مثال ذلك: أن تضعف قوته الهاضمة، أو الماسكة، أو الدافعة أو الجاذبة، فيحصل له من الألم بحسَب خروجه عن الاعتدال، ولكن مع ذلك لم يصل إلىٰ حدِّ الموت والهلاك، بل فيه نوع قوة علىٰ الإدراك والحركة.

- وسبب هذا الخروج عن الاعتدال:
- إما فساد في الكمية.
- أو في الكيفية.

فالأول: إما لنقص في المادة، فيحتاج إلىٰ زيادتها، وإما لزيادة فيها، فيحتاج إلىٰ نقصانها.

والثاني: إما بزيادة الحرارة، أو البرودة، أو الرطوبة، أو اليبوسة، أو نقصانها عن القدر الطبيعي، فيُدَاوىٰ بمقتضىٰ ذلك.

أسباب صحة البدن:

أسباب صحة البدن علىٰ وجه الإجمال أيضًا: وهي في علم الطب كله علىٰ اختلافه لا تخرج عن ثلاثة أمورٍ[(١)]:

(حفظ القوة - الحمية عن المؤذي - استفراغ المواد الفاسدة).

---

(١) وهذه الأصول الثلاثة هي أصول الطب التي يستقي منها الأطباء فروع الطب حتىٰ الآن.

وقد جاءت جميعها في شريعة الإسلام، فسبحان الله العظيم، وبيان المقصود من هذه الأمور هو كما يأتي:

١) **حفظ القوة:** منه ما أشارت إليه الشريعة من جواز أو استحباب الفطر في نهار رمضان للمسافر أو المريض، وهذا الأمر قد يصل إلىٰ الوجوب، وهذا لا شك مما يحفظ قوته، إذ إن السفر مظنة التعب والمرض من باب أولىٰ، فإن الصوم يزيد المريض ضعفًا، والمسافر يحتاج إلىٰ توفير قوته عليه لمشقة السفر، والصوم يضعفها.

وقد فعل هذا النبي ﷺ كما في حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ خرج عام الفتح إلىٰ مكة في رمضان، فصام حتىٰ بلغ كراع الغميم[(١)]، فصام الناس -وفي روايةٍ: فبلغه أن الناس قد شق عليهم الصيام[(٢)] -، فدعا بقدحٍ من ماء، فرفعه حتىٰ نظر الناس إليه، ثم شرب، فقيل له بعد ذلك: إن بعض الناس قد صام، فقال: «**أولئك العصاة، أولئك العصاة**».

٢) **الحمية عن المؤذي:** أي: حماية البدن عما يؤذيه، فإنه سبحانه حمىٰ المريض عن استعمال الماء البارد في الوضوء والغسل إذا كان يضره، وأمره بالعدول إلىٰ التيمم؛ حميةً له عن ورود المؤذي عليه من ظاهر بدنه، فكيف بالمؤذي له في باطنه.

دليل ذلك ما رواه أبو داود عن عمرو بن العاص، قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «**ياعمرو، صلَّيت بأصحابك وأنت جنب؟!**»،

---

(١) كراع الغميم موضع بين مكة والمدينة.

(٢) النسائي (٢٢٧٥)، وصحَّحها الألبانيُّ في «صحيح وضعيف سنن النسائي» (٢٢٦٣).

فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت: إنِّي سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء: ٢٩]، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئًا[(١)].

ومنه أيضًا عن عبدالله بن عباس قال: أصاب رجلًا جرح في عهد رسول الله ﷺ، ثم احتلم، فأمر بالاغتسال، فاغتسل فمات، فبلغ رسول الله ﷺ فقال: «**قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال**»[(٢)]. والعي هنا هو الجهل، وسمَّاه النبي ﷺ مرضًا، وهو بالفعل مرض، ومن أعظم الأمراض.

٣) **استفراغ المواد الفاسدة:** كمَنْ يظل يأكل حتىٰ لا يستطيع أن يتنفس، فلابدَّ حينئذٍ من تفريغ ما في جوفه من طعامٍ، ومن هذا القبيل ما ورد في حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: أتىٰ علىٰ النبي ﷺ زمن الحديبية -وفي روايةٍ: ونحن مُحْرمون[(٣)]-، والقمل يتناثر علىٰ وجهي، فقال: «**أيؤذيك هوام رأسك؟**». قلت: نعم. قال: «**فاحلق وصم ثلاثة أيامٍ، أو أطعم ستة مساكين، أو انسك نسيكة**»[(٤)]، وهذا هو استفراغ المواد الفاسدة.

ومنها أيضًا الحجامة، فعن أنس بن مالكٍ أن النبي ﷺ قال: «**ما مررت ليلة أُسْري بي بملإ** -وفي روايةٍ: من الملائكة[(٥)]- **إلا قالوا: يا محمد، مُرْ أمتك بالحجامة**»[(٦)].

---

(١) أبو داود (٣٣٤)، وأحمد (١٧٨٤٥)، وصححه الألبانيُّ في «صحيح وضعيف أبي داود» (٣٣٤).

(٢) أبو داود (٣٣٦)، وابن ماجه (٦١٥)، وأحمد (٣٠٥٧)، وصححه الألبانيُّ في «صحيح وضعيف الجامع الصغير» (٧٨١٢).

(٣) البخاري (٤١٩١).

(٤) البخاري (٤١٩٠)، ومسلم (٢٩٣٤).

(٥) الترمذي (٢١٩٠)، وصححه الألبانيُّ في «صحيح وضعيف سنن الترمذي» (٢٠٥٢).

(٦) ابن ماجه (٣٦٠٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح وضعيف سنن ابن ماجه» (٣٤٧٩).

وروىٰ الشيخان أن جابر بن عبد الله عاد المقنع، ثم قال: لا أبرح حتىٰ تحتجم، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ فيه شفاءً**»(١).

«قوله: عاد المقنع»، هو بفتح القاف والنون المشددة، هو ابن سنان، تابعي.

قول جابر: «لا أبرح»، أي: لا أذهب من مكاني، ولا أخرج.

وروىٰ مسلم أيضًا عن عاصم بن عمر بن قتادة، قال: جاءنا جابر بن عبد الله في أهلنا، ورجل يشتكي خراجًا به، أو جراحًا، فقال: ما تشتكي؟ قال: خراج بي قد شق عليَّ، فقال: يا غلام، ائتني بحجام، فقال له: ما تصنع بالحجام يا أبا عبد الله؟ قال: أريد أن أعلق فيه محجمًا، قال: والله، إن الذباب ليصيبني، أو يصيبني الثوب، فيؤذيني ويشق عليَّ، فلما رأىٰ تبَرُّمه من ذلك قال: إنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن كان في شيءٍ من أدويتكم خير، ففي شرطة محجمٍ، أو شربةٍ من عسلٍ، أو لذعةٍ بنارٍ**»، قال رسول الله ﷺ: «**وما أحب أن أكتوي**»، قال فجاء بحجام فشرطه، فذهب عنه ما يجد(٢).

قوله: «أعلق فيه محجمًا»، هو بكسر الميم وفتح الجيم، وهي الآلة التي تمص الدم، ويجمع بها.

وروىٰ مسلم عن جابرٍ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لكل داءٍ دواء، فإذا أصيب دواء الداء، برأ بإذن الله** عَزَّوَجَلَّ»(٣).

قال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: «قوله: «**لكل داءٍ دواء**»، علىٰ عمومه حتىٰ يتناول الأدواء القاتلة، والأدواء التي لا يمكن لطبيبٍ أن يبرئها، ويكون الله عَزَّوَجَلَّ قد جعل لها

---

(١) البخاري (٥٦٩٧)، ومسلم (٢٢٠٥).

(٢) رواه مسلم (٢٢٠٥).

(٣) رواه مسلم (٢٢٠٤).

أدوية تبرئها، ولكن طوىٰ علمها عن البشر، ولم يجعل لهم إليه سبيلًا؛ لأنه لا علم للخلق إلا ما علمهم الله، ولهذا علَّق النبي ﷺ الشفاء علىٰ مصادفة الدواء للداء، فإنه لا شيء من المخلوقات إلا له ضد، وكل داءٍ له ضد من الدواء يعالج بضده، فعلق النبي ﷺ البرء بموافقة الداء للدواء، وهذا قدر زائد علىٰ مجرد وجوده، فإن الدواء متىٰ جاوز درجة الداء في الكيفية، أو زاد في الكمية علىٰ ما ينبغي نقله إلىٰ داءٍ آخر، ومتىٰ قصر عنها لم يفِ بمقاومته، وكان العلاج قاصرًا، ومتىٰ لم يقع المداوي علىٰ الدواء، أو لم يقع الدواء علىٰ الداء، لم يحصل الشفاء، ومتىٰ لم يكن الزمان صالحًا لذلك الدواء، لم ينفع، ومتىٰ كان البدن غير قابلٍ له أو القوة عاجزة عن حمله، أو ثَمَّ مانع يمنع من تأثيره، لم يحصل البرء؛ لعدم المصادفة، ومتىٰ تمت المصادفة، حصل البرء بإذن الله ولا بد»[(١)].

ثم قال رحمه الله تعالىٰ: «وقد روي في أثرٍ إسرائيليٍّ أن إبراهيم الخليل قال: يا رب، ممن الداء؟ قال: مني. قال: فممن الدواء؟ قال مني. قال: فما بال الطبيب؟ قال: رجل أرسل الدواء علىٰ يديه»[(٢)].

وروىٰ الشيخان من حديث أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**في الحبَّة السوداء شفاء من كل داءٍ إلا السام**»[(٣)].

وروىٰ النسائي من حديث طارق بن شهاب قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله لم ينزل داءً إلا أنزل له شفاءً إلا السام**»[(٤)].

---

(١) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٤/ ١٣).
(٢) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٤/ ١٥).
(٣) البخاري (٥٦٨٨)، ومسلم (٢٢١٥).
(٤) رواه النسائي في «الكبرىٰ» (٧٥٢١).

قال العراقي: «قوله: إلا السام» يقتضي أن السام -وهو الموت- داء، والمعروف أنه ليس داءً، وإنما هو عدم وفناء، فيحتمل أوجهًا:

أحدها: أنه سمَّاه داءً علىٰ طريق المبالغة، فإنه أشد من المرض؛ لأن المرض داء يضعف، والموت يعدم.

ثانيها: أنه استثناء منقطع، أي: لكن السام لا دواء له كما قال، وداء الموت ليس له دواء.

ثالثها: أنه المراد بالمرض الذي عند الموت، وفراغ الأجل، فلا ينفع فيه الدواء، والله أعلم»[(١)].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال القاضي: في هذه الأحاديث جملٌ من علوم الدين والدنيا، وصحَّة علم الطِّبِّ، وجواز التَّطبيب في الجملة واستحبابه بالأمور المذكورة في هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم، وفيها ردٌّ علىٰ مَنْ أنكر التداوي من غلاة الصُّوفية، وقال: كل شيء بقضاء وقدر، فلا حاجة إلىٰ التداوي، وحجة العلماء هذه الأحاديث، ويعتقدون أن الله تعالىٰ هو الفاعل، وأن التداوي هو أيضًا من قدر الله، وهذا كالأمر بالدعاء، وكالأمر بقتال الكفار وبالتحصن، ومجانبة الإلقاء باليد إلىٰ التهلكة مع أن الأجل لا يتغير، والمقادير لا تتأخر ولا تتقدم عن أوقاتها، ولا بد من وقوع المقدرات، والله أعلم»[(٢)].

قال ابن القيِّم: «وذاكرت مرةً بعض رؤساء الطب بمصر بهذا، أي: بأنواع الأدوية

---

(١) «طرح التثريب في شرح التقريب» (٨/ ١٨٥).

(٢) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٤/ ١٩١).

السابقة، فقال: والله، لو سافرت إلىٰ الغرب في معرفة هذه الفائدة لكان سفرًا قليلًا، أو كما قال»[(١)].

قال ابن القيِّم: «وذكر الله ﷻ مرض البدن في الحج والصوم والوضوء لسرٍّ بديعٍ يبين لك عظمة القرآن، والاستغناء به لمن فهمه وعقله عن سواه، وذلك أن قواعد طب الأبدان ثلاثة: حفظ الصحة، والحمية عن المؤذي، واستفراغ المواد الفاسدة، فذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة في هذه المواضع الثلاثة.

فقال في آية الصوم: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، فأباح الله ﷻ الفطر للمريض لعذر المرض، وللمسافر طلبًا لحفظ صحته وقوته؛ لئلا يذهبها الصوم في السفر لاجتماع شدة الحركة، وما يوجبه من التحليل، وعدم الغذاء الذي يخلف ما تحلل، فَتَخُور القوة، وتضعف، فأباح للمسافر الفطر؛ حفظًا لصحته وقوته عما يضعفها.

وقال في آية الحج: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]، فأباح للمريض، ومَنْ به أذىٰ من رأسه من قمل أو حكة أو غيرهما أن يحلق رأسه في الإحرام؛ استفراغًا لمادة الأبخرة الرديئة التي أوجبت له الأذىٰ في رأسه باحتقانها تحت الشعر، فإذا حلق رأسه، تفتحت المسام، فخرجت تلك الأبخرة منها، فهذا الاستفراغ يُقَاس عليه كل استفراغٍ يؤذي انحباسه.

والأشياء التي يؤذي انحباسها ومدافعتها عشرة: الدم إذا هاج، والمني إذا تبيغ -المراد: إذا تردد وتحير في مجراه- والبول، والغائط، والريح، والقيء، والعطاس، والنوم، والجوع، والعطش، وكل واحدٍ من هذه العشرة يوجب حبسه داءً من الأدواء بحسبه.

---

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ١٧).

وقد نبَّه سبحانه باستفراغ أدناها، وهو البخار المحتقن في الرأس علىٰ استفراغ ما هو أصعب منه، كما هي طريقة القرآن التنبيه بالأدنىٰ علىٰ الأعلىٰ.

وأما الحمية، فقال تعالىٰ في آية الوضوء: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣]، فأباح للمريض العدول عن الماء إلىٰ التراب؛ حميةً له أن يصيب جسده ما يؤذيه، وهذا تنبيه علىٰ الحمية عن كل مؤذٍ له من داخلٍ أو خارجٍ، فقد أرشد سبحانه عباده إلىٰ أصول الطب ومجامع قواعده»[(١)].

وقال أيضًا: «وقد اتفق الأطباء علىٰ أنه متىٰ أمكن التداوي بالغذاء، لا يعدل عنه إلىٰ الدواء، ومتىٰ أمكن بالبسيط، لا يعدل عنه إلىٰ المُركَّب.

قالوا: وكل داءٍ قدر علىٰ دفعه بالأغذية والحمية، لم يحاول دفعه بالأدوية.

قالوا: ولا ينبغي للطبيب أن يولع بسقي الأدوية، فإنَّ الدواء إذا لم يجد في البدن داءً يحلله، أو وجد داءً لا يوافقه، أو وجد ما يوافقه فزادت كميته عليه، أو كيفيته، تشبث بالصحة وعبث بها»[(٢)].

فائدة:

قال القرطبي في التفسير: «ويذكر أنَّ هارون الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق، فقال الطبيب لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأديان، وعلم الأبدان. فقال له عليٌّ: كذبت، قد جمع الله الطب كله في نصف آيةٍ من كتابنا. فقال له: ما هي؟ قال: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا

(١) «الطب النبوي» - الكتاب العربي (ص٣٥).

(٢) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٤/ ١٠).

﴿سُرِفُوٓاْ﴾، فقال النصراني: ولا يؤثر عن رسولكم شيء من الطب. فقال عليٌّ: كذبتَ، جمع رسول الله ﷺ الطب في ألفاظٍ يسيرةٍ، قال: ما هي؟ قال: «**المعدة بيت الأدواء، والحمية رأس كل دواءٍ، وأعط كل جسدٍ ما عودته**»، فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبًّا[(١)].

تعليق على الفائدة: حديث: «المعدة بيت الأدواء، والحمية رأس كل دواءٍ، وأعط كل جسدٍ ما عودته»، لا يصحُّ عن النبي ﷺ، بل هو من كلام الحارث بن كلدة أطب العرب، ويحل محله وأفضل منه ما رواه الحاكم من حديث المقدام بن معدي كرب الكندي رضي الله عنه يقول: سَمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**ما ملأ آدمي وعاء شرًّا من بطنه، حَسْب ابن آدم ثلاث أكلاتٍ يُقِمْنَ صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث طعام، وثلث شراب، وثلث لنفسه**»[(٢)].

(١) «تفسير القرطبي» (٧/ ١٩٢).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٧٩٤٥)، وصححه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٦٧٤).

الفصل السادس

ذكر مرض القلب

ينبغي أن يُعْلَم أن القلب له جانب معنوي، وجانب حسي، فأما الجانب المعنوي فهو غيبٌ بالنسبة لنا لا ندري كيفيَّته، وبعض العلماء يسمُّونه العقل أو الرُّوح، وأمَّا الجانب الثاني فهو تلك العضلة المرئية لنا التي تضخُّ الدم في الجسم.

وعلىٰ ذلك، فمَرضُ القلب نوعان: مرض حسي، أي: المرتبط بالجانب الحسي من القلب، وهو اختصاص أهل الطب، ولا يعنينا هنا في بحثنا. ومرض معنوي، أي: المرتبط بالجانب المعنوي من القلب، وهو سبب البلاء، وعنه الكلام في هذا المبحث إن شاء الله تعالىٰ.



الفصل السابع

علاقة القلب بالجوارح

القلب هو المتحكم الوحيد في جوارح العبد، وهذا ثابتٌ بالدليل الشرعي والعرفي والمنطقي، ومن أجل ذلك كان الاهتمام الشديد بعلوم القلوب والتزكية.

عن النعمان بن بشير أن النبي ﷺ قال: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(١)، وهذا خبر يلزمه التصديق ولا شك(٢).

وأي حركةٍ للجوارح اختيارية لا بد أن تمر بخمس مراحل قبل أن تظهر لنا علىٰ أرض الواقع، هذه المراحل هي:

الهاجس: هو شعور في النفس بأمرٍ من أمور الخير أو الشر، يأتي وينصرف سريعًا، وليس للعبد دخلٌ في مجيئه، ولا ذهابه.

الخاطر: هو كالهاجس تمامًا إلا أنه يطول، والخاطر والهاجس كلاهما لا يحاسب الله عَزَّوَجَلَّ العبد عليه حتىٰ لو كانا عن كفرٍ صراحٍ.

حديث النفس: هو أمرٌ من أمور الخير أو الشر يُحدِّث العبد به نفسه، ويتردد في تغليب أحد جانبي الخير أو الشر علىٰ الآخر، ثم ينصرف هذا الشعور ولم ينتهِ العبد

---

(١) البخاري (٥٢)، ومسلم (٤١٧٨).

(٢) ومعلوم أن الشريعة ما هي إلا خبرٌ من الله عَزَّوَجَلَّ، أو رسوله ﷺ، يلزمه منا التصديق الذي يظهر أثره علىٰ الجوارح، أو أمر يلزمه منا التنفيذ.

إلىٰ تغليبٍ، فمثلًا: يُحدِّث نفسه بالصدقة، هل يخرجها أم لا، ويظل هكذا في تردد حتىٰ ينصرف عنه الفكر ولم يخلص إلىٰ نتيجةٍ.

وفي هذه المرحلة يثيبنا الله ﷻ علىٰ ما نُحدِّث به أنفسنا من خيرٍ، ولا يحاسبنا علىٰ الشر، فمثلًا: إن حدَّث نفسه بقتل امرئٍ لا يحاسب علىٰ ذلك، وإن حدَّث نفسه بالعمرة أثابه الله تعالىٰ علىٰ ذلك منةً وفضلًا من الله تعالىٰ.

الهم: فيه تغليب أحد الجانبين من خير أو شرٍّ علىٰ الآخر، ولكن لا يصل إلىٰ العزم. وفي هذه المرحلة إذا هَمَّ العبد بحسنةٍ ولم يعملها، كتبها الله ﷻ له حسنةً، وإنْ هَمَّ بسيئةٍ، فحال بينه وبينها شيء فتركها، لم تُكْتب له، وإنْ كان تركها خوفًا من الله تعالىٰ، فإنها تُكْتَب له حسنة.

العزم: هو كالهَمِّ، ولكن يصل إلىٰ مرحلة العمل، بحيث لو لم يمنعه مانعٌ خارجيٌّ لعمل. وفي هذه المرحلة إذا عزم العبد علىٰ حسنةٍ ولم يعملها، كتبها الله ﷻ له حسنةً، وإن عزم علىٰ سيئةٍ، فحال بينه وبينها شيء، فتركها، تكتب له سيئة، وإن كان تركها خوفًا من الله تعالىٰ، فإنها تُكتب له حسنة.

وهذه المراحل تتردد بين منطقتين في القلب، هما: منطقة الكسب، ومنطقة حديث النفس، فالهواجس تتطوَّر إلىٰ خواطر، ثم إلىٰ أحاديث نفسٍ، وكل ذلك في منطقة حديث النفس، ولا يحاسب الله ﷻ عليه، ثم يتطور ذلك إلىٰ هَمٍّ ثم إلىٰ عزمٍ وإرادةٍ للفعل، وهما في منطقة الكسب، وعليهما حساب، ثم إنَّ هذه الإرادة مع القدرة التامة تتحرك الجوارح.

والفاصل بين هاتين المنطقتين هو العقل، فهو الذي ينقي ويحكم علىٰ ما في منطقة حديث النفس، ويُمرِّره أو لا يُمرِّره إلىٰ منطقة الكسب. وعلىٰ قدر قوة العقل

وما فيه من معلوماتٍ، تكون قدرته علىٰ حجب ما في منطقة حديث النفس من شرٍّ متغلبًا علىٰ الشهوات والشبهات، وما في القلب من أمراضٍ، وإلا غلب ما في القلب من مرضٍ، وأثر علىٰ الجوارح.

لذا، فإن معتقد أهل السنة والجماعة في العلاقة بين عمل القلب وعمل الجوارح: أن عمل الجوارح لازم، ومترتب علىٰ عمل القلب، بينما عمل الجوارح لا يلزم منه عمل القلب، فمن كان لقلبه عمل، كان لجوارحه عمل، ومن كان لجوارحه عمل، قد يكون لقلبه عمل أو لا.

لذا، يستدل علىٰ عدم وجود عمل للقلب بعدم وجود عمل للجوارح، بينما لا يمكن الاستدلال بعمل الجوارح علىٰ عمل القلب، فالمنافقون -مثلًا- كانت جوارحهم تعمل، وقلوبهم خربة، عياذًا بالله.



الفصل الثامن

أسباب مرض القلب على العموم

مرض القلب خلاف صحته واستقامته، لذا يكون سببه فسادًا يعرض للقلب تمامًا مثل مرض البدن، وهذا الفساد يتلخص في أمرين رئيسيين لا ينحرف عبدٌ في سلوكه ولا اعتقاده إلا بسببٍ واحدٍ منهما أو كليهما بإجماع أهل العلم، وهذان الأمران هما:

شبهة تعرض للمرء فيصدقها، وترسخ في قلبه، فينحرف كما في قول تعالىٰ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة: ١٠]، وهي الأخطر.

شهوة تطمع فيها النفس وتستحسنها، فيخالف المرء النص الشرعي لأجلها ولأجل لذتها العاجلة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٢].

ومن الأمراض ما يجمع بين الأمرين كما في مرض الكبر مثلًا، ففيه الشهوة التي يتكبر ويتعالىٰ بها العبد علىٰ الناس، وفيه الشبهة التي بها يظن أنه يحقُّ له ذلك؛ لأنه أعلىٰ من الناس، وأكثر منهم مالًا مثلًا، أو جاهًا، أو قوةً، وهكذا.

ومن أجل هذا، لا يصل العبد إلىٰ الاستقامة إلا بالتخلُّص من هذين الأمرين، ولا سبيل للتخلُّص منهما إلا من خلال تحقيق عبادتين مهمتين، هما: الصبر واليقين، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

[السجدة: ٢٤]، لذلك كان شيخ الإسلام ابن تيمية كثيرًا ما يكرر: «بالصبر واليقين تُنَال الإمامة في الدين»[(١)]، فالصبر يعالج الشهوات، واليقين يعالج الشبهات.

أعراض أمراض القلب علىٰ وجه العموم:

من أعراضها:

إدراك الأشياء علىٰ غير حقيقتها:

فإذا أدرك القلب الأشياء علىٰ غير حقيقتها، كان ذلك دليلًا علىٰ وجود المرض في القلب، فمثلًا: مَن أدرك الأشياء علىٰ غير حقيقتها مثل أن يرىٰ المرء ما أمر به الشرع، ورغب فيه قبيحًا، أو استحسان ما نهىٰ عنه الشرع، كان ذلك علامة أكيدة علىٰ مرض القلب.

يدلُّ علىٰ ذلك ما رواه مسلمٌ عن حذيفة، قال: كنا عند عمر، فقال: أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن؟ فقال قومٌ: نحن سمعناه، فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره؟ قالوا: أجل. قال: تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن أيكم سمع النبي ﷺ يذكر التي تموج موج البحر؟ قال حذيفة: فأسكت القوم، فقلت: أنا. قال: أنت؟ لله أبوك. قال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تعرض الفتن علىٰ القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأي قلبٍ أشربها، نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها، نكت فيه نكتة بيضاء، حتىٰ تصير علىٰ قلبين، علىٰ أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادًّا كالكوز مُجخِّيًا، لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، إلا ما أشرب من هواه**»[(٢)].

---

(١) «قاعدة في الصبر» (ص٩٤).

(٢) رواه مسلم (١٤٤).

والفتن التي في الحديث هي الابتلاءات والمحن والذنوب، وأي شبهةٍ أو شهوةٍ.

قال أهل العلم: تعرض كما ينسج الحصير عودًا تلو عود تلو عود، أي: فتنة وراء فتنة وراء فتنة.

وقالوا أيضًا: إنها تؤثر في القلب كما يؤثر الحصير في البدن إذا نام عليه الرجل.

والشاهد من الحديث: قوله ﷺ: «**لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه**»، فهذا فسد إدراكه حتىٰ صار يرىٰ المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا.

ملحوظة:

قوله ﷺ: «**عودًا عودًا**»، قال النووي: «هذان الحرفان مما اختلف في ضبطه علىٰ ثلاثة أوجهٍ، أظهرها وأشهرها: «**عودًا عودًا**»، والثاني: «**عَوْذًا عَوْذًا**»، بفتح العين وسكون الواو، والثالث: «**عودًا عودًا**»، ومعنىٰ: «**عودًا عودًا**»، أي: تعاد وتكرر شيئًا بعد شيء.

قال ابن سراج: ومَن رواه بالذال المعجمة، فمعناه سؤال الاستعاذة منها كما يقال: «غفرًا غفرًا»، و«غفرانك»، أي: نسألك أن تعيذنا من ذلك، وأن تغفر لنا. وقال الأستاذ أبو عبد الله بن سليمان: معناه: تظهر علىٰ القلوب، أي: تظهر لها فتنة بعد أخرىٰ. وقوله: «**كالحصير**»، أي: كما ينسج الحصير عودًا عودًا، وشظية بعد أخرىٰ. قال القاضي: وعلىٰ هذا يترجح رواية ضم العين، وذلك أن ناسج الحصير عند العرب كلما صنع عودًا، أخذ آخر ونسجه، فشبه عرض الفتن علىٰ القلوب واحدة بعد أخرىٰ بعرض قضبان الحصير علىٰ صانعها واحدًا بعد واحدٍ. قال القاضي: وهذا معنىٰ الحديث عندي، وهو الذي يدلُّ عليه سياق لفظه، وصحة تشبيهه، والله أعلم»[(١)].

---

(١) «شرح النووي علىٰ مسلم» (٢/ ١٧١).

عدم الإدراك، أي: عدم إدراك حسن الشريعة من خلال النظر في التكليفات الشرعية، فلا يدرك حسن العفاف والاحتشام، ولا حسن الحجاب، ولا حسن تعدد الزوجات، ولا حسن قطع يد السارق، ولا حسن رجم الزاني المحصن الحر حتىٰ الموت، وغير ذلك من محاسن الشريعة التي كلها محاسن.

قال العلاء بن الحضرمي للمنذر بن ساوىٰ ملك البحرين: هذا هو النبي ﷺ الأمي الذي -والله- لا يستطيع ذو عقلٍ أن يقول: ليت ما أمر به، نهىٰ عنه، أو ما نهىٰ عنه أمر به، أو ليته زاد في عفوه، أو نقص من عقابه، إن ذلك منه علىٰ أمنية أهل العقل، وفكر أهل البصر(١).

قال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: «فيفسد المرض تصور القلب للحق، وإرادته له، فلا يرىٰ الحق حقًّا، أو يراه علىٰ خلاف ما هو عليه، أو ينقص إدراكه له، وتفسد به إرادته له، فيبغض الحق النافع، أو يحب الباطل الضار، أو يجتمعان له، وهو الغالب»(٢).

ومن أعراض مرض القلب:

أن صاحب القلب المريض يبغض الحق ويحب الباطل، وأحق شيء يوصف بالحق النافع هو ما جاءت به الشريعة من تكليفاتٍ، فمن أبغض التكليفات الشرعية وإن عجز عن العمل بها، فهو صاحب قلبٍ مريضٍ، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩﴾ [محمد: ٨، ٩].

---

(١) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة»، - ط: عالم الفوائد (٢/ ٨٧٤).

(٢) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ١٧).

أن القلب المريض لا يفرق بين الحسن والقبيح، بل ربما إن وصل لهذه المرحلة يلحق بالقلب الميت.

أن القلب لا يقوم بالمهمة التي من أجلها خُلِقَ، وهي أن يعرف ربه ويحبه، ويشتاق إليه، ويؤثر ذلك علىٰ كل شيءٍ.

يقول ابن القيِّم رحمه الله تعالىٰ: «كل عضوٍ من أعضاء البدن خُلِقَ لفعلٍ خاصٍّ به، كماله في حصول ذلك الفعل منه، ومرضه أن يتعذر عليه الفعل الذي خُلِقَ له حتىٰ لا يصدر منه، أو يصدر مع نوعٍ من الاضطراب، فمرضُ اليد أن يتعذر عليها البطش، ومرضُ العين أن يتعذر عليها النظر والرؤية، ومرضُ اللسان أن يتعذر عليه النطق، ومرضُ البدن أن يتعذر عليه حركته الطبيعية أو يضعف عنها، ومرضُ القلب أن يتعذر عليه ما خُلِقَ له من المعرفة بالله، ومحبته، والشوق إلىٰ لقائه، والإنابة إليه، وإيثار ذلك علىٰ كل شهوته، فلو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه، فكأنه لم يعرف شيئًا، ولو نال كل حظٍّ من حظوظ الدنيا ولذاتها وشهواتها، ولم يظفر بمحبة الله، والشوق إليه، والأنس به، فكأنَّه لم يظفر بلذةٍ، ولا نعيمٍ، ولا قرة عين»[(١)].

ملحوظة مهمة:

يقول ابن القيِّم رحمه الله تعالىٰ: «قد يمرض القلب، ويشتدُّ مرضه، ولا يعرف به صاحبه؛ لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح، ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة، فإن القلب إذا كان فيه حياة، تألَّم بورود القبيح عليه، وتألَّم بجهله بالحق بحسَب حياته»[(٢)].

---

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ٦٨).

(٢) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ٦٨).

يظهر من كلام ابن القيم السابق أن من أعراض مرض القلب: أنه لا يتألَّم إذا فعل صاحبه معصيةً، أو كان جاهلًا بالحق المُتعيَّن عليه.

ملحوظة مهمة:

قد يمرض القلب ويشعر صاحبه بمرضه، ويعلم به، ولكن لا يتحمل مرارة الدواء، ويؤثر المرض وبقاءه علىٰ مرارة الدواء الذي يكمن في مخالفة الهوىٰ.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: «وقد يشعر بمرضه، ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء، والصبر عليها، فهو يُؤْثر بقاء ألمه علىٰ مشقة الدواء، فإنَّ دواءه في مخالفة الهوىٰ، وذلك أصعب شيءٍ علىٰ النفس، وليس لها أنفع منه، أي: ليس للنفس البشرية أنفع من أن تخالف هواها.

وتارةً يُوطِّن نفسه علىٰ الصبر، ثم ينفسخ عزمه، ولا يستمرُّ معه لضعف علمه وبصيرته وصبره؛ كمَن دخل في طريقٍ مخوفٍ مُفْضٍ إلىٰ غاية الأمن، وهو يعلم أنه إن صبر عليه، انقضىٰ الخوف، وأعقبه الأمن، فهو محتاج إلىٰ قوة صبر، وقوة يقين بما يصير إليه، ومتىٰ ضعف صبره ويقينه، رجع من الطريق، ولم يتحمَّل مشقتها، ولا سيما إن عدم الرفيق، واستوحش من الوحدة، وجعل يقول: أين ذهب الناس، فلي بهم أسوةٌ. وهذه حال أكثر الخَلق، وهي التي أهلكتهم، فالصابر الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق، ولا من فقده إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الأول الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، فتفرُّد العبد في طريق طلبه دليل علىٰ صدق طلبه»[(١)].

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ٦٩).

ومن أعراضها: أن صاحب القلب المريض يترك الأدوية النافعة، ويذهب إلىٰ الأدوية الضارة.

يقول ابن القيِّم رحمه الله تعالىٰ: «من علامات أمراض القلوب: عدولها عن الأغذية النافعة الموافقة لها إلىٰ الأغذية الضارة، وعدولها عن دوائها النافع إلىٰ دوائها الضار، فهنا أربعة أمورٍ: غذاء نافع، ودواء شافٍ، وغذاء ضار، ودواء مهلك.

فالقلب الصَّحيح يؤثر النافع الشافي علىٰ الضار المؤذي، والقلب المريض بضدِّ ذلك، وأنفع الأغذية: غذاء الإيمان، وأنفع الأدوية: دواء القرآن، وكلٌّ منهما فيه الغذاء والدواء»[(١)].

ومن أعراضها: أن صاحب القلب المريض يؤثر الدنيا ويستوطنها حتىٰ يصير من أهلها.



(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ٧٠).

الفصل التاسع

تقسيم أمراض القلوب باعتبار الشعور بها

تنقسم أمراض القلوب باعتبار الشعور بها من عدمه إلىٰ قسمين:

أمراض يشعر بها المرء.

أمراض لا يشعر بها.

يقول ابن القيِّم رحمه الله تعالىٰ: «مرض القلب نوعان: نوع لا يتألَّم به صاحبه في الحال، وهو النوع المتقدم؛ كمرض الجهل، ومرض الشبهات والشكوك، ومرض الشهوات، وهذا النوع هو أعظم النوعين ألمًا، ولكن لفساد القلب لا يحسُّ بالألم، ولأن سكرة الجهل والهوىٰ تَحُول بينه وبين إدراك الألم، وإلا فألمُهُ حاضر فيه، حاصل له، وهو متوارٍ عنه باشتغاله بضده، وهذا أخطر المرضين وأصعبهما، وعلاجه إلىٰ الرسل وأتباعهم، فهم أطباء هذا المرض.

والنوع الثاني: مرض مؤلم له في الحال، كالهمِّ والغمِّ والحزن والغيظ، وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية، كإزالة أسبابه، أو بالمداواة بما يضادُّ تلك الأسباب، ويدفع موجبها مع قيامها، وهذا كما أن القلب قد يتألَّم بما يتألم به البدن، ويشقىٰ بما يشقىٰ به البدن، فكذلك البدن يتألَّم كثيرًا بما يتألَّم به القلب، ويشقيه ما يشقيه، فأمراض القلب التي تزول بالأدوية الطبيعية من جنس أمراض البدن، وهذه قد لا توجب وحدها شقاءه وعذابه بعد الموت.

وأما أمراضه التي لا تزول إلا بالأدوية الإيمانية النبوية، فهي التي توجب له

الشقاء والعذاب الدائم، إن لم يتداركها بأدويتها المضادة لها، فإذا استعمل تلك الأدوية، حصل له الشفاء»[(١)].

تأثير مرض القلب علىٰ وجه العموم علىٰ القلب وعلىٰ البدن:

يقول ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: «ولمَّا كان البدن المريض يؤذيه ما لا يؤذي الصحيح؛ من يسير الحرِّ، والبرد، والحركة، ونحو ذلك، فكذلك القلب إذا كان فيه مرض آذاه أدنىٰ شيء من الشبهة أو الشهوة، حيث لا يقدر علىٰ دفعهما إذا وردا عليه، والقلب الصحيح القوي يطرقه أضعاف ذلك، وهو يدفعه بقوته وصحته.

وبالجملة، فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه، زاد مرضه، وضعفت قوته، وترامىٰ إلىٰ التلف ما لم يتدارك ذلك بأن يحصل له ما يقوي قوته، ويزيل مرضه»[(٢)].

في «جامع معمر بن راشد» قال: أخبرنا عبد الرزاق، عن معمر، قال: كنت عند ابن طاوس، وعنده ابنٌ له، إذ أتاه رجل يقال له: صالح، يتكلم في القدر، فتكلم بشيءٍ فتنبه، فأدخل ابن طاوس إصبعيه في أذنيه، وقال لابنه: «أدخل أصابعك في أذنيك واشدد، فلا تسمع من قوله شيئًا، فإن القلب ضعيف»[(٣)].



(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ١٩).

(٢) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ١٨).

(٣) «جامع معمر بن راشد» (١١/ ١٢٥)، و«الإبانة الكبرىٰ» لابن بطة (٤٠٠).



الفصل العاشر

أسباب صحة القلب وعلامات صحته وسلامته

أولًا: أسباب صحة القلب:

صحة القلب علىٰ الإجمال تكون بثلاثة أمورٍ كالتي ذكرناها في الوقاية من مرض البدن:

حفظ قوة القلب: وذلك يكون بالإيمان، وأوراد الطاعات، كما قال الخليفة الراشد عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو طهرت قلوبكم، ما شبعت من كلام ربكم»[(١)].

وقد دلَّت الأدلة الشرعية والتجربة أيضًا علىٰ أن القلب -والجسد عمومًا- يعتاد علىٰ ما يعوده عليه صاحبه.

الحمية عن المؤذي، وذلك باجتناب الآثام والمعاصي، وأنواع المخالفات.

استفراغ المواد الفاسدة: وذلك بالتوبة النصوح، واستغفار غافر الخطيئات، وهو الله عَزَّوَجَلَّ.

فالقلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة، فقد استفرغ من تخليطه، فتخلَّصت إرادة القلب وإرادته للخير، فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة، والمواد الرديئة- زكا ونما، وقوي واشتد، وجلس علىٰ سرير ملكه، ونفذ حكمه في رعيته، فسمعت له وأطاعت، فلا سبيل له إلىٰ زكاته إلا بعد طهارته.

---

(١) «فضائل الصحابة» لأحمد بن حنبل (١/ ٤٧٩): ضعيفٌ لانقطاعه.

ثانيًا: علامات صحة القلب وسلامته:

يقوم القلب الصحيح بالمهمة التي من أجلها خُلِقَ، وهي معرفة الله تعالىٰ، ومحبته، والشوق إليه، والأنس به، وإيثار ذلك علىٰ كل شيءٍ.

صاحب القلب الصحيح يؤثر النافع الشافي علىٰ الضار المؤذي، وأنفع الأغذية: غذاء الإيمان، وأنفع الأدوية دواء القرآن.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: «صاحب القلب الصحيح يرتحل عن الدنيا حتىٰ ينزل بالآخرة، ويحل فيها حتىٰ يبقىٰ كأنه من أهلها وأبنائها، جاء إلىٰ هذه الدار غريبًا يأخذ منها حاجته، ويعود إلىٰ وطنه كما قال النبي -عليه الصلاة والسلام- لعبد الله بن عمر: «**كُنْ في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعدَّ نفسك من أهل القبور**»[(١)].

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الدنيا قد ترحلت مدبرةً، وإن الآخرة قد ترحلت مقبلةً، ولكلٍّ منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل»[(٢)].

وكلَّما صحَّ القلب من مرضه، ترحل إلىٰ الآخرة وقرب منها حتىٰ يصير من أهلها.

صاحب القلب الصحيح يحثُّ صاحبه دائمًا علىٰ الإنابة والتوبة، والرجوع إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: «من علامات صحة القلب: أنه لا يزال يضرب علىٰ صاحبه حتىٰ ينيب إلىٰ الله، ويخبت إليه، ويتعلق به تعلُّق المحب المضطر إلىٰ

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٨/ ٨٩).

محبوبه الذي لا حياة له، ولا فلاح، ولا نعيم، ولا سرور إلا برضاه وقربه، والأنس به، فَبِهِ يطمئن، وإليه يسكن، وإليه يأوي، وبه يفرح، وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجو، وله يخاف، فذِكْرُهُ قوته وغذاؤه ومحبته، والشوق إليه حياته ونعيمه ولذته وسروره، والالتفات إلىٰ غيره والتعلق بسواه داؤه، والرجوع إليه دواؤه، فإذا حصل له ربه، سكن إليه، واطمأنَّ به، وزال ذلك الاضطراب والقلق، وانسدَّت تلك الفاقة، فإنَّ في القلب فاقة لا يسدها شيء سوىٰ الله تعالىٰ أبدًا، وفيه شعث لا يلمه غير الإقبال عليه، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له، وعبادته وحده، فهو دائمًا يضرب علىٰ صاحبه حتىٰ يسكن ويطمئن إلىٰ إلٰهه ومعبوده، فحينئذٍ يباشر روح الحياة، ويذوق طعمها، ويصير له حياة أخرىٰ غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الأمر الذي له خُلِقَ الخَلْق، ولأجله خُلقت الجنة والنار، وله أُرْسلت الرسل، ونزلت الكتب، ولو لم يكن جزاء إلا نفس وجوده، لكفىٰ به جزاءً، وكفىٰ بفوته حسرةً وعقوبةً»[(١)].

ومن علامات صحة القلب: ألَّا يفتر عن ذكر ربه، ولا يسأم من خدمته، ولا يأنس بغيره إلا بمَنْ يدله عليه، ويذكره به، ويذاكره بهذا الأمر.

ومن علامات صحة القلب: أنه إذا فاته وِرْده، وجد لفواته ألمًا أعظم من تألُّم الحريص بفوات ماله وفَقْده.

مثال ذلك: ما رواه الإمام أحمد بسند صحيح من حديث سعد بن أبي وقاص قال: مررت بعثمان بن عفان في المسجد فسلمت عليه، فملأ عينيه مني، ثم لم يرد عليَّ السلام، فأتيت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فقلت: يا أمير المؤمنين، هل حدث في الإسلام شيء؟ مرتين. قال: لا، وما ذاك؟ قال: قلت: لا، إلا أني مررت

---

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ٧١).

بعثمان آنفًا في المسجد، فسلمت عليه، فملأ عينيه مني، ثم لم يرد عليَّ السلام. قال: فأرسل عمر إلىٰ عثمان فدعاه، فقال: ما منعك ألَّا تكون رددت علىٰ أخيك السلام؟ قال عثمان: ما فعلت. قال سعد: قلت: بلىٰ. قال: حتىٰ حلف وحلفت، قال: ثم إن عثمان ذكر، فقال: بلىٰ، وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بي آنفًا وأنا أُحدِّث نفسي بكلمةٍ سمعتها من رسول الله ﷺ، لا والله، ما ذكرتها قط إلا تغشىٰ بصري وقلبي غشاوة (حاصل الأمر أن النبي ﷺ حدث الصحابة بحديثٍ بدأ فيه، ثم جاء أعرابي فشغله ولم يكمله، وانصرف مع الأعرابي، فحزن عثمان وتأسف علىٰ ما فاته من العلم، فكلما تذكر ذلك تغشىٰ بصره وقلبه غشاوة، فلا يرىٰ، ولا يسمع)، قال: قال سعد: فأنا أنبئك بها، إنَّ رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة، ثم جاء أعرابي فشغله حتىٰ قام رسول الله ﷺ، فاتبعته، فلما أشفقت أن يسبقني إلىٰ منزله، ضربت بقدمي الأرض، فالتفت إليَّ رسول الله ﷺ فقال: «**من هذا؟ أبو إسحاق؟**». قال: قلت: نعم يا رسول الله. قال: «**فمه**». قال: قلت: لا والله، إلا أنك ذكرت لنا أول دعوةٍ، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك، قال: «**نعم، دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت**: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧]، **فإنه لم يَدْع بها مسلم ربه في شيءٍ قطُّ إلا استجاب له**»(١).

ومن علامات صحة القلب: أنه يشتاق إلىٰ الخدمة، كما يشتاق الجائع إلىٰ الطعام والشراب، والمراد بالخدمة هنا: طاعة الله تعالىٰ علىٰ اختلافها.

ومن علامات صحة القلب: أن يكون همُّه واحدًا، وأن يكون في الله، روىٰ الترمذي بسند صحيح عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كانت**

(١) «مسند أحمد». ت: شاكر (٢/ ٢١٧)، وصححه العلامة أحمد شاكر.

الآخرة همه، جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومَنْ كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له»(١).

ومن علامات صحة القلب: أنه إذا دخل في الصلاة، ذهب عنه همُّه وغمُّه بالدنيا، واشتد عليه خروجه منها، ووجد فيها راحته ونعيمه، وقرة عينه، وسرور قلبه، روىٰ أبو داود بسند صحيح عن رجل من خزاعة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يا بلال، أقم الصلاة، أرحنا بها**»(٢).

ومن علامات صحة القلب: أن يكون أشحَّ بوقته أن يذهب ضائعًا من أشد الناس شُحًّا بماله، روىٰ البخاري عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصِّحَّة والفراغ**»(٣).

قال ابن بطال: «قال بعض العلماء: إنما أراد ﷺ بقوله: «**الصِّحَّة والفراغ نعمتان**»، تنبيه أُمَّته علىٰ مقدار عظيم نعمة الله علىٰ عباده في الصِّحَّة والكفاية؛ لأنَّ المرء لا يكون فارغًا حتىٰ يكون مكفيًّا مؤنة العيش في الدنيا، فمَنْ أنعم الله عليه بهما، فليحذر أن يغبنهما، وممَّا يستعان به علىٰ دفع الغبن أن يعلم العبد أن الله تعالىٰ خَلق الخَلْق من غير ضرورةٍ إليهم، وبدأهم بالنعم الجليلة من غير استحقاقٍ منهم لها، فمَنَّ عليهم بصحة الأجسام وسلامة العقول، وتضمَّن أرزاقهم، وضاعف لهم الحسنات، ولم يضاعف عليهم السيئات، وأمرهم أن يعبدوه، ويعتبروا بما ابتدأهم به من النعم الظاهرة والباطنة، ويشكروه عليها بأحرفٍ يسيرةٍ، وجعل مدة طاعتهم في الدنيا

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦٥)، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» برقم (٩٤٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥)، وصححه الألبانيُّ في «الجامع» برقم (٧٨٩٢).

(٣) رواه البخاري (٦٤١٢).

منقضية بانقضاء أعمارهم، وجعل جزاءهم علىٰ ذلك خلودًا دائمًا في جناتٍ لا انقضاء لها مع ما ذخر لمَنْ أطاعه مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشرٍ، فمن أمعن النظر في هذا، كان حريًّا ألا يذهب عنه وقتٌ من صحته وفراغه إلا وينفقه في طاعة ربه، ويشكره علىٰ عظيم مواهبه، والاعتراف بالتقصير عن بلوغ كُنْه تأدية ذلك، فمَنْ لم يكن هكذا، وغفل وسها عن التزام ما ذكرنا، ومرَّت أيامه عنه في سهوٍ ولهوٍ وعجزٍ عن القيام بما لزمه لربه تعالىٰ، فقد غبن أيامه، وسوف يندم حيث لا ينفعه الندم»[(١)].

ومن علامات صحة القلب: أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل، فيحرص علىٰ الإخلاص فيه، والنصيحة والمتابعة والإحسان، ويشهد مع ذلك منَّة الله عليه فيه، وتقصيره في حقِّ الله.

قال ابن القيِّم رحمه الله تعالىٰ: «وبالجملة، فالقلب الصحيح هو الذي همُّه كله في الله، وحبه كله له، وقصده له، وبدنه له، وأعماله له، ونومه له، ويقظته له، وحديثه والحديث عنه أشهىٰ إليه من كل حديثٍ، وأفكاره تحوم علىٰ مراضيه ومحابِّه، والخلوة به آثر عنده من الخلطة إلا حيث تكون الخلطة أحب إليه، أي: أحب إلىٰ الله، وأرضىٰ له، قرة عينه به، وطمأنينته وسكونه إليه، فهو كلما وجد من نفسه التفاتًا إلىٰ غيره، تلا عليها ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

فهو يُردِّد عليها الخطاب بذلك ليسمعه من ربه يوم لقائه، فينصبغ القلب بين يدي إلهه ومعبوده الحق بصبغة العبودية، فتصير العبودية صفةً له، وذوقًا لا تكلفًا، فيأتي بها تودُّدًا وتحببًا وتقربًا، كما يأتي المحب المتيم في محبة محبوبه بخدمته وقضاء أشغاله،

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ١٤٦، ١٤٧).

فكلما عرض له أمرٌ من ربه، أو نهيٌ، أحس من قلبه ناطقًا ينطق: لبيك وسعديك، إني سامع مطيع ممتثل، ولك عليَّ المنة في ذلك، والحمد فيه عائد إليك.

وإذا أصابه قدر، وجد من قلبه ناطقًا يقول: أنا عبدك ومسكينك وفقيرك، وأنا عبدك الفقير العاجز الضعيف المسكين، وأنت ربي العزيز الرحيم، لا صبر لي إن لم تصبرني، ولا قوة لي إن لم تحملني وتقوني، لا ملجأ لي منك إلا إليك، ولا مستعان لي إلا بك، ولا انصراف لي عن بابك، ولا مذهب لي عنك.

فينطرح بمجموعه بين يديه، ويعتمد بكُلِيَّته عليه، فإن أصابه بما يكره قال: رحمة أهديت إلي، ودواء نافع من طبيب مشفق، وإن صرف عنه ما يحب قال: شرًّا صرف عني:

وكم رمت أمرًا خرت لي في انصرافه ... وما زلت بي مني أبر وأرحما

فكل ما مسَّه به من السراء والضراء، اهتدىٰ بها طريقًا إليه، وانفتح له منه باب يدخل منه عليه، كما قيل:

ما مسني قدر بكره أو رضا ... إلا اهتديت به إليك طريقَا

أمض القضاء عليَّ الرضا به ... مني به إني وجدتك في البلاء رفيقَا

فلله هاتيك القلوب وما انطوت عليه من الضمائر، وماذا أودعته من الكنوز والذخائر، ولله طيب أسرارها، ولا سيما يوم تبلىٰ السرائر.

سيبدو لها طيب ونور وبهجة ... وحسن ثناء يوم تبلىٰ السرائر

تالله، لقد رفع لها علم عظيم فشمرت له، واستبان لها صراط مستقيم فاستقامت عليه، ودعاها ما دون مطلوبها الأعلىٰ، فلم تستجب له، واختارت علىٰ ما سواه، وآثرت ما لديه»[(١)].

---

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ٧٣، ٧٤).

وعلىٰ الجملة، يقول ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: «فأما طب القلوب، فمسلم إلىٰ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ولا سبيل إلىٰ حصوله إلا من جهتهم، وعلىٰ أيديهم، فإن صلاح القلوب أن تكون عارفةً بربها، وفاطرها، وبأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وأحكامه، وأن تكون مؤثرةً لمرضاته ومحابِّه، متجنبةً لمناهيه ومساخطه، ولا صحة لها ولا حياة البتة إلا بذلك، ولا سبيل إلىٰ تلقِّيه إلا من جهة الرسل، وما يظن من حصول صحة القلب بدون اتباعهم، فغلط ممَّن يظن ذلك، وإنَّما ذلك حياة نفسه البهيمية الشهوانية، وصحتها وقوتها، وحياة قلبه وصحته، وقوته عن ذلك بمعزلٍ، ومَنْ لم يميز بين هذا وهذا، فليبكِ علىٰ حياة قلبه، فإنه من الأموات، وعلىٰ نوره، فإنه منغمسٌ في بحار الظلمات»[(١)].



(١) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٤/ ٧).

الفصل الحادي عشر

أصول مهمة قبل دراسة أمراض القلوب يجب مراعاتها والاهتمام بها

أولًا: عليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العوام:

والمعني بذلك ألَّا يكون تصرف المرء حين يتعلم ويتعرف علىٰ مرض القلب وأعراضه ومظاهره وأسبابه وغير ذلك أن ينشغل بغيره، فيسقط الكلام عليهم، ويترك نفسه، وإنما ينبغي علىٰ المرء أن يسقط ما يجد في هذا المبحث من أمراض علىٰ نفسه، ويجعل الخطاب لنفسه لا لغيره، فإن وَجَد مرضًا في قلبه، فليحمد الله تعالىٰ أَنْ قيَّض له من بصره بمرض قلبه، فالعيب ليس في كون القلب مريضًا فقط، إنما العيب أن يعرف الإنسان أن في قلبه مرضًا، ثم يشمخ بأنفه ويكابر ويأبىٰ أن يعترف بذلك، ولا يعالجه، والمرء الذي من هذا الصنف لن يأتي من ورائه خير، بل هو عضو فاسد ينبغي أن يُسْتأصل من جذره، فنحن المقصودون من هذه العلوم لا غيرنا، فلينشغل كلٌّ منَّا بنفسه، فإننا إن فعلنا حتمًا ستنصلح أمورنا، ورحم الله الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «المؤمن في الدنيا كالغريب، لا ينافس في عزِّها، ولا يجزع من ذُلِّها، للناس حالٌ، وله حالٌ، الناس منه في راحةٍ، ونفسه منه في شغل»[(١)].

وقد يخالف البعض هذا الكلام تحت حجة دعوة الناس وتربيتهم، لذلك ينبغي أن ننبه علىٰ أن الهدف الأساسي من علم أمراض القلوب وغيره من العلوم هو العمل بهذا العلم، ثم بعد ذلك إِنْ قدر الله عَزَّوَجَلَّ واستقام الحال، فلتبدأ في دعوة الناس[(٢)]،

---

(١) «محاسبة النفس» لابن أبي الدنيا (٧٨).

(٢) وليس معنىٰ هذا أن تمتنع عن البلاغ مطلقًا لأجل أنك لا تعمل، إنما المقصود أنه لابد من الموازنة =

فالغرض من العلوم الشرعية التي ندرسها عامةً هي تحقيق العبودية لله ﷻ من خلال العمل بهذا العلم أولًا، أمَّا وعظ الغير بعد ذلك، فهو أمر سهل، قد يكون بكلمات يسيرات تؤثر في الناس حين تخرج من قلب سليم، فالأساس هو العمل أولًا، ثم دعوة الناس بعد ذلك، ولا تجعل كل همِّك أن تتعلم لتُعلِّم الناس هذا العلم[(١)]، وأنت إن كان همك العمل والناس ترىٰ أثر هذا العلم عليك، ستجدهم يأتونك هم ليتعلموا منك، لذلك قال عمر بن ذرٍّ لأبيه: يا أبت، ما لك إذا تكلمت أبكيت الناس، وإذا تكلم غيرك لم يبكهم؟ فقال: يا بني، ليست النائحة الثكلىٰ مثل النائحة المستأجرة[(٢)].

وبالفعل، ليست النائحة كالثكلىٰ، فالنائحة يعطيها القوم بعض الأموال حتىٰ تهيج الناس، فكلامها من لسانها فقط، أما قلبها فبعيدٌ كل البعد، أما الثكلىٰ فقلبها من الداخل مشتعل.

ثانيًا: الصدق مع النفس أول خطوة علىٰ الطريق المستقيم:

بعد أن ننزل هذه المواعظ علىٰ أنفسنا، علينا أن يصارح كل واحدٍ منا نفسه، ويعترف بما فيها من عوار ومرض -إن وجد ذلك- ثمَّ يستعين بالله ﷻ، ويأخذ بالأسباب المشروعة، وسيشفيه الله ﷻ -إن شاء جلَّ وعَلَا- من كل مرضٍ، فكون المرء صادقًا مع نفسه هو أهم شيءٍ، وهو قطب الرحىٰ في هذ المبحث، والاعتراف بالذنب وبوجود المرض -وهذا بالطبع يكون بين المرء وربه جلَّ وعلا- يمثل تسعين بالمائة من العلاج، وما يتبقىٰ بعد ذلك لا يحتاج -بعد الاستعانة بالله ﷻ -

---

= بين الأمرين.

(١) وهذا مأجورٌ أيضًا -إن شاء الله تعالىٰ- مع إخلاص النية، ولكنه أخطأ المقصد الأساسي.

(٢) «عيون الأخبار» (٢/ ٣٢١)، دار الكتب العلمية.

إلا لهمةٍ عاليةٍ لينتهي الأمر، ويعالج المرض، أما أن يغالط الإنسان نفسه، ويكذب عليها حتىٰ يصدق أن قلبه خالٍ من الأمراض وهو مليء بها، فهذا لن ينجح، ولن يفلح، فأولىٰ خطوات الرجوع إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ التوبة، وهي الاعتراف بالذنب، ثم بعد ذلك يسهل كل شيءٍ.

لذلك، كان من ديدن السلف أن الواحد منهم يجعل في كل يوم ربع ساعة، أو نصف ساعة، أو ساعة كاملة، أو غير ذلك من وقته يحاسب فيه نفسه، وينظر ما في قلبه من علل وأسقام؛ لأنه قَلَّ أن يوجد الناصح الجريء في هذه الأيام، وينبغي علىٰ المرء منا أيضًا أن يفعل ذلك عندالمساء مثلًا، أو حين ينتهي من أعماله، أو حين يذهب إلىٰ فراشه.

روىٰ البيهقي في «الشُّعب»، عن وهب بن منبه، قال: «في حكمة آل داود: حق علىٰ العاقل ألَّا يشغل عن أربع ساعاتٍ: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يقضي فيها إلىٰ إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه، ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحلُّ ويجمل، فإن هذه الساعة عونٌ علىٰ هذه الساعات، وإجمامٌ للقلوب، وفضلٌ يلقاه»[(١)].

ملحوظة: المراد بالساعة في قوله: «أربع ساعات»: فترة زمنية محدودة، وليس المراد الساعة المعلومة لدينا.

ثالثًا: ضرورة متابعة المرء لنفسه:

ممَّا سبق نرىٰ أنه لابد من رقابة من نفسك علىٰ نفسك وسلوكك حتىٰ تلحظ أيَّ عارض يظهر عليك قد يدل علىٰ مرضٍ في القلب، ولترىٰ ما في قلبك من انحرافٍ

(١) «شعب الإيمان» (٤٣٥٢)، طبعة مكتبة الرشد، قال محققه: إسناده رجاله ثقات.

واعوجاجٍ، ولا شك أن المرء قد يقع مرات في الذنوب والمعاصي، فالأصل فينا الزلل، ولكن علىٰ المرء حينئذٍ أن ينهض بسرعةٍ من زلته قبل أن يطأه الشيطان.

واعلم أنَّ أمراض القلوب -شأنها شأن أمراض البدن- إذا تركها العبد بلا علاجٍ، استفحلت وتمكنت وترعرعت حتىٰ إذا أراد أن يتخلص منها، عزَّ ذلك عليه، ولكن إن أدركها من أول وهلةٍ، فالعلاج سهل إن شاء الله تعالىٰ، لذلك لا بد أن نتابع قلوبنا؛ إذ لن يتابعها أحد لنا، وأن ننظر في سرائرنا، فلن يطَّلع عليها أحدٌ غيرنا.

وكذلك الأمراض يولد بعضها بعضًا، فإذا دبَّ في القلب مرضٌ، ولم ينتبه إليه صاحبه أو أهمله، ولم يحاول -مستعينًا بالله عَزَّوَجَلَّ- علاجه، فإن هذا المرض يتفاقم، ويأتي بغيره من الأمراض، فلا تستهن بأي مرضٍ، فالمرض يولد المرض الأخطر.

وهذا يشبه ما قاله سهل بن عبد الله التستري -عليه رحمة الله- وغيره من أئمة السلف: «من أكل الحرام، عصت جوارحه شاء أم أبىٰ، علم أو لم يعلم»، فيجد نفسه يأكل الحرام رغمًا عنه؛ لأن الحرام تغلغل في قلبه، وتمكَّن منه، ونحن نعلم أن القلب للأعضاء بمثابة الملك لجنوده.

لذلك، تجد السلف -رحمهم الله تعالىٰ- دائمًا ما يتهمون إلا أنفسهم لكي يلزموها بالاستقامة علىٰ الجادة، فمثلًا: روي أن أُمَّ الربيع بن خثيم كانت تنادي ابنها الربيع، فتقول: يا بني، يا ربيع، ألاتنام؟ فيقول: يا أمه، مَن جنَّ عليه الليل وهو يخاف البيات، حقَّ له ألَّا ينام، فلما بلغ ورأت ما يلقىٰ من البكاء والسهر، نادته فقالت: يا بني، لعلك قتلت قتيلًا؟ فقال: نعم يا أماه، قد قتلت قتيلًا. قالت: ومن هذا القتيل يا بني حتىٰ يتحمل علىٰ أهله فيعفون؟ والله، لو يعلمون ما تلقىٰ من البكاء والسهر بعد لقد رحموك، فيقول: يا والدة، هي نفسي، أي: قتلتها بمعصية الربِّ جلَّ وعلا[1].

---

(١) «حلية الأولياء» (١/ ٢٥٦)، و«صفة الصفوة» (١/ ٣١٤).

رابعًا: لا تنخدع بمجاملات الناس:

فإشكاليَّة الوقت الحاضر -نظرًا لعوامل عدة- أن أغلب القوم يجامل بعضهم بعضًا، ويثني بعضهم علىٰ بعضٍ، ويمدح بعضهم بعضًا حتىٰ وَإِنْ كان هذا الثناء -وهو الغالب- وهذا المدح علىٰ خلاف الواقع، وفي غير محله، لذلك: إنْ جاملك أحد، وأثنىٰ عليك، لا تنخدع بما قال، إنما الذي يصدق هو ذمهم وقدحهم، فكلام الناس لن ينفعك، ولن يُغيِّر من مكانتك عند الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما يمدحك المرء بما ليس فيك لتمدحه أنت أيضًا، ولأنه لو تكلم عن عوارك، ستتكلم أنت أيضًا عن عواره، حتىٰ قلَّ مَن يوجه النصيحة الأمينة لأخيه، وإن وَجَّهها لا يقبلها الطرف الآخر، بل قد يردها بأقبح الكلام، وهذا الأمر بالطبع لم يكن له وجودٌ عند السلف، فقد كانوا يوصي بعضهم بعضًا، وينصح بعضهم بعضًا بالأدب والرفق واللين، بل إن حدث من أحدهم هذا التخاذل سرعان ما ينكرون عليه، كما صحَّ أن عبد الله بن عمر لقي ناسًا خرجوا من عند مروان بن عبد الملك، فقال: من أين جاء هؤلاء؟ قالوا: خرجنا من عند الأمير مروان. قال: وكل حقٍّ رأيتموه تكلمتم به، وأعنتم عليه، وكل منكرٍ رأيتموه أنكرتموه ورددتموه عليه؟ قالوا: لا والله، بل يقول ما ينكر، فنقول: قد أصبت أصلحك الله، فإذا خرجنا من عنده قلنا: قاتله الله، ما أظلمه وأفجره. قال عبدالله: كنا بعهد رسول الله ﷺ نعدُّ هذا نفاقًا لمن كان هكذا(١).

روىٰ الإمام أحمد بسندٍ صحيحٍ عن الأقرع بن حابس أنه نادىٰ رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، فقال: يا محمد، إنَّ حمدي زين، وإن ذمي شين، فقال: «**ذاكم الله عَزَّوَجَلَّ**»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٥٣٧٣)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط في «تعليقه».

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٩٩١)، قال الألبانيُّ في «صحيح وضعيف سنن الترمذي» برقم

لذلك، علينا أن نتخلص من هذه الآفة التي انتشرت بيننا، فنمنع المجاملات والمداهنات فيما بيننا، فإن رأىٰ أحدٌ من أخيه زلةً، بذل له النصيحة، وإن وجد منه منقبةً، لم يحدثه بها حتىٰ لا يفتنه، فإننا بين أمرين: إما أن نرضىٰ بهذا الواقع المر، ولا نتعلم، ولا نتقدم، أو أن نستعين بالله ﷻ، ونتغلب علىٰ هذه الصعاب بأن يكون كل منَّا صادقًا مع نفسه، ومع الآخرين.

خامسًا: ضرورة تطبيق هذه العلوم علىٰ أنفسنا:

العلوم الشَّرعيَّة عامةً تنقسم باعتبار الحاجة إليها إلىٰ قسمين:

الأول: علوم لا يحتاج إليها المرء علىٰ الدوام؛ كعلم مصطلح الحديث، وأحكام المواريث، وفقه الحج والعمرة، وفقه الزكاة، وما شابه ذلك، فهذه العلوم يدرسها الإنسان ثم يتركها حتىٰ يحتاج إليها، ولا يستخدمها إلا علىٰ فتراتٍ متباعدةٍ، وقد لا يستخدمها مطلقًا كبعض صور المواريث التي تقع نادرًا.

الثاني: علوم تدوم الحاجة إليها، مثل: العلوم المختصة بالنفس البشرية والتربية والقلوب، فهذه يحتاج إليها المكلف في كل وقتٍ وحينٍ، فإن جاءت عليه ساعة، استغنىٰ فيها عن هذه العلوم، فقد وقع في مخالفةٍ، وابتعد عن طريق الحق، وهذه العلوم هي التي نحن بصددها الآن.

كذلك لا شكَّ أن كل واحدٍ فينا عند سماعه أي مادةٍ علميةٍ يريد تحقيق ذروة الاستفادة منها، وهذا لا يكون إلا بتطبيق هذا العلم، فلا يرسخ علمٌ في ذهن المرء إلا إذا ذاكره ومارسه أيضًا، فهذه طبيعة البشر، لذلك من الممكن أن ينسىٰ المرء بعض العلوم المتعلقة بالعبادات والمعاملات مثلًا -كما في أحكام الحج أوالمواريث- لأنه

= (٣٢٦٧): صحيح.

لا يحتاجها، أو لا يطبقها إلا عند الحاجة، وهذا يكون علىٰ فترات متباعدة، أما علم الوضوء مثلًا، فلا ينساه أحد؛ لأنه يحتاجه ويمارسه علىٰ الأقل في اليوم مرتين مثلًا.

كذلك علوم التربية والقلوب لكي نستفيد منها كما ينبغي لزامًا علينا أن نستعين بالله عَزَّوَجَلَّ، ونطبقها أولًا بأول، وأن نعمل بها علىٰ وجه التمام، أما إن تأخر المرء، وانشغل بغيره عن نفسه مثلًا، فلن يستفيد من هذه العلوم بشيء أبدًا، وسنبقىٰ كما يقول الشاعر:

كالعير في البيداء يقتلها الظمأ ... والماء فوق ظهورها محمول

سادسًا: أهمية العمل بالعلم:

علىٰ المرء -حتىٰ يقال: إنه تعلَّم بالفعل- أن يحقق أمرين أساسيين، هما:

الأوَّل: هو حفظ المعلومة واستظهارها.

والثاني: هو العمل بهذه المعلومة، فإن انتفىٰ أحد الأمرين، فما زال وصف الجهل قائمًا بهذا الشخص، ودليل ذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ لسان نبيه يوسف بن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: ٣٣]، ففي الآية دليل صريح علىٰ أن المرء لو عصىٰ ربه، كان جاهلًا؛ لأنه لم يعمل بالعلم الذي عنده.

وروىٰ الإمام أحمد في «الزهد» بسند صحيح موقوفًا علىٰ ابن مسعود أنه قال: «**إن الناس قد أحسنوا القول كلهم، فمن وافق قوله فعله، فذاك الذي أصاب حظه، ومن خالفه فإنما يؤبخ نفسه**»[(١)].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٧٥)، وأحمد في «الزهد» (٨٨٧).

وكان الإمام مالك -عليه رحمة الله- يقول: تعلَّمنا العلم لنعمل به، فلما عملنا به احتاج الناس إلينا.

لذلك، إذا صدر أي انحرافٍ في سلوك أي مكلف، يجب عليه أن ينظر في قلبه قبل أن ينظر إلىٰ الانحراف ذاته، فإنه سيجد علةً في القلب أدت إلىٰ الذنب وهو لا يشعر، وحينئذٍ يسهل العلاج، فأول ما يأتي الزلل والقصور والنقص للعبد، يأتيه من قلبه، ثم منه إلىٰ الجوارح، ولن يستقيم عبد بجوارحه علىٰ شريعة الله ﷻ إلا إذا استقام قلبه، ولن يستقيم قلبه إلا إذا سلم من الأمراض، قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، فالإشكال كله في القلب، فإن سلم القلب وانضبط، فستسلم الجوارح إن شاء الله تعالىٰ، وبعدم انضباط القلب حتمًا ستنحرف الجوارح، وهذا أمرٌ مطبق عليه بين أهل الأرض علىٰ اختلاف شرائعهم ومذاهبهم، ونحن إذا نظر الواحد منَّا إلىٰ نفسه، رأىٰ تناقضًا عجيبًا بين علمه وسلوكه، وهذا عيبٌ وشَينٌ كبيرٌ، لذلك علينا أن ننظر في مدىٰ تأثير هذا العلم علينا حتىٰ لا يكون بلا قيمةٍ، بل حجة علينا، وزيادة في مسئوليتنا أمام ربنا ﷻ، وفسادًا لأخلاقنا، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

سابعًا: الموازنة في طلب العلم:

عن وهب بن منبه قال: «العلم كالغيث -أي: كالمطر- ينزل من السماء حلوًا صافيًا، فتشربه الأشجار بعروقها، فتحوله علىٰ قدر طعومها، فيزداد المرُّ مرارةً، والحلو حلاوةً، فكذلك العلم تحفظه الرجال، فتحوله علىٰ قدر هممها وأهوائها»[(١)].

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٤٨).

أي: فيزداد القلب المريض مرضًا، والسليم سلامةً، ولو طلب العبد العلم وفي قلبه مرض، زاد ذلك المرض مرضًا.

وقيل: «علم بلا أدبٍ، كَنَارٍ بلا حَطَبٍ»، فإن تَلَقِّي العلم مع الغفلة عن مرض القلب شيء خطير جدًّا، ويترتب عليه من المحظورات الشرعية ما يكاد يقتل صاحبه، فمثلًا مَن تكلم قبل التأهل والإعداد الكافي، قد يعتريه شيء من الغرور، أو العجب، أو الكبر، أو غير ذلك من أمراض القلوب الكثيرة، إذ يتكلم فيسمع ثناء الناس وإعجابهم، من أجل هذا تجد الرجل اللامع -بمقاييس الناس بالطبع- إذا وجه إلىٰ حقٍّ، أو استدرك عليه أمر مثلًا، تجده يشمخ بأنفه، ويرفع عقيرته ويقول: مَن أنت حتىٰ ترد عليَّ؟! وحينئذٍ كَبِّر عليه أربعًا، فقد صار لا يرجىٰ من ورائه خير البتة.

من أجل ذلك قالوا بأن طلب العلم لا بد فيه من الموازنة؛ لأن علوم الآلة -مثل: أصول الفقه والمصطلح- تطغي النفس، فلا بد -إذًا- أن ننظر علىٰ الجانب الآخر إلىٰ جانب التربية والقلوب، والإشكال عندنا أننا نهتمُّ بعلوم الآلة وسائر العلوم الشرعية دون علوم القلب، ونتبحَّر فيها، وننسىٰ قلوبنا، فإن كنت ولا بد ستغلب جانبًا علىٰ آخر، فغلب جانب التربية والقلوب علىٰ جانب العلوم الشرعية، فدراسة علم أمراض القلوب أهم من دراسة أي علم آخر من علوم الشريعة المتنوعة.

ولزامًا علىٰ كل مسلم أن يتعلمه قبل أي علمٍ آخر، أما العلوم الشرعية الأخرىٰ فيمكن أن تقتصر فيها علىٰ سؤال أهل العلم مثلًا، وهذا هو الفارق بيننا وبين المتقدمين من أهل العلم، وبالطبع ليس معنىٰ هذا -في وقتنا الحاضر- أن يتوقف المسلم عن كل علمٍ حتىٰ ينتهي من دراسة علوم القلوب[1]، ولكن لا بدَّ من الموازنة

(١) وإن كان هذا فعل المتقدمين إلا أنهم كان لديهم الكوادر، وكانت أحوالهم مستقرةً، أما نحن الآن =

بينهما كما قلنا حتىٰ تكون شخصية المرء متزنةً لا اعوجاج فيها، ولا شطط، ولا انحراف.

ثامنًا: لا تيأس من نفسك:

من الأمور المهمة أيضًا التي ينبغي أن ننبه عليها: التحذير من تطرق اليأس إلىٰ المرء، فإذا استحكم مرضٌ في قلب المرء -كالرياء أو الحسد أو الكبر مثلًا- فلا ينبغي أن يظن أو يخطر علىٰ باله أن هذا المرض لا علاج له، أو أنه يستحيل أن يبرأ منه، فكل ما كلَّفنا به ربنا ﷻ إنما هو في الاستطاعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**فإذا أمرتُكُم بشيءٍ، فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيءٍ فدعوه**»(١).

فالتكليفات الشرعيَّة إمَّا مأمور به يفعل، أو منهي عنه يترك، فأما المأمور به، ففعله مقرونٌ بالاستطاعة، فمثلًا من قال بأنه لا يستطيع الإطالة في الصلاة، أو لا يستطيع صلاة النوافل، أو غير ذلك، فهذا مقبول منه(٢)، وأما ما نهىٰ عنه الشارع، فتركه كله في مقدور العبد؛ كترك الزنا مثلًا، فلا يحل لعبدٍ أن يتعذر بعدم الاستطاعة، ومن قال بأنه لا يستطيع الترك والبعد عن هذه المحظورات، فهو كاذب لا محالة، فإذا قيل: انتهِ عن الكبر مثلًا، فلا بد أن أبدأ في التخلص منه مباشرةً مستعينًا بالله ﷻ.

= فلدينا فجوات كبيرة، وخلل في مراتب الدعوة وأساليبها، بل في منهج الدعوة نفسه، فصار حبس الرجل علىٰ علوم التربية حتىٰ ينتهي منه، ثم ينطلق بعد ذلك في باقي العلوم صار سببًا لترك المكان فارغًا أمام أهل البدع، فأصبحنا -من باب الضرورة- نقتحم هذا المجال، ونتكلم في نفس الوقت الذي نتعلم ونتربَّىٰ فيه.

(١) أخرجه مسلم (١٣٣٧).

(٢) ولكن إذا سمعت الحكم الشرعي بالأدلة الصحيحة، لابد أن يكون شغلك الشاغل كيف تؤديه، أما أن يكون همُّك التهرب منه، فهذه مصيبة كبيرة، ولن تَسلم لك بذلك قدم علىٰ طريق الله المستقيم.

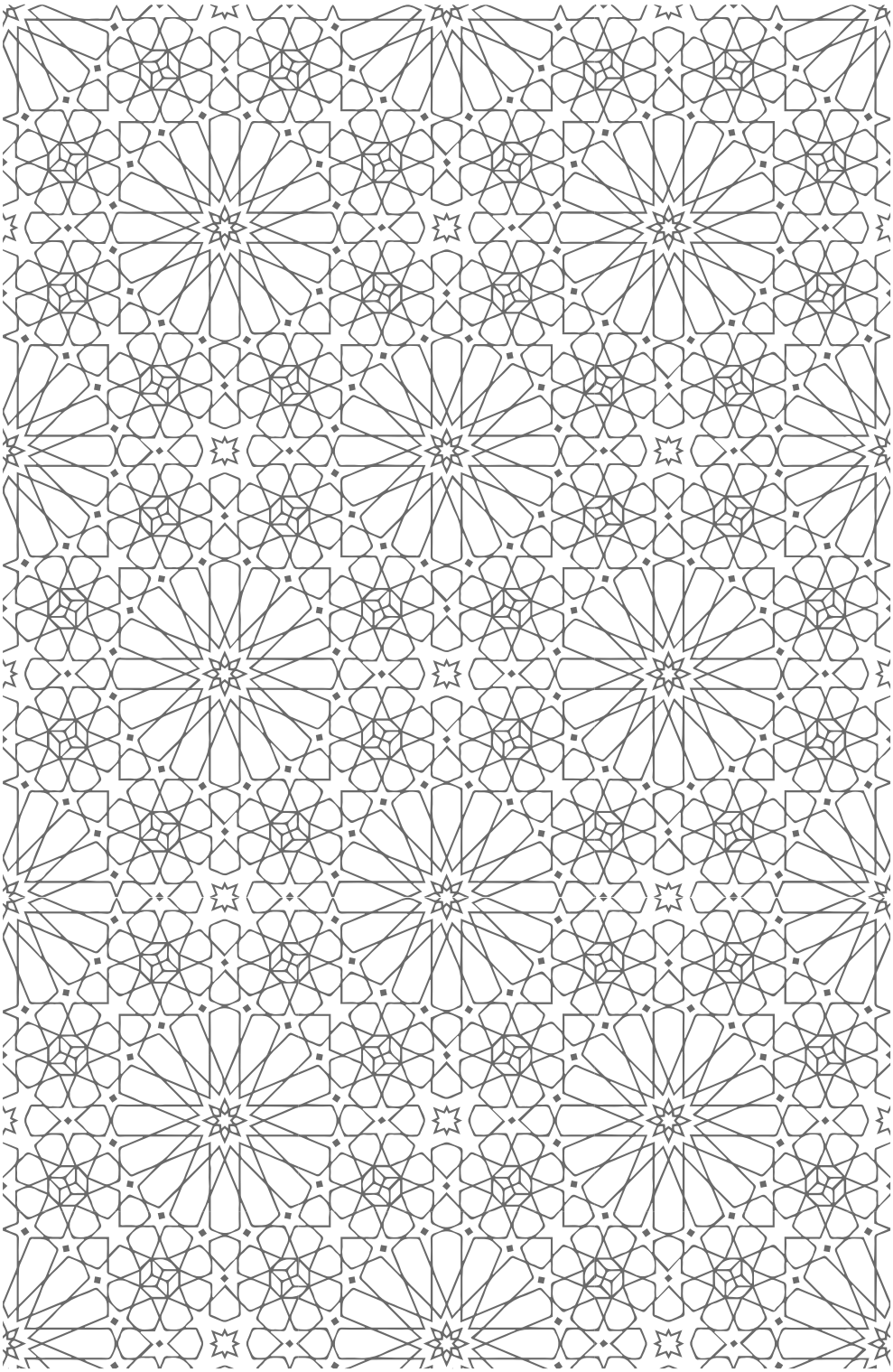
فالمسلم ليس ضعيف الشخصية أمام المرض أو أمام أي عقبةٍ، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خيرٍ، احرص علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان**»[(١)].

فلا مستحيل عند علاج المرض، وطالما كان المرء خاضعًا خاشعًا ذليلًا مفتقرًا إلىٰ الله من أعماق قلبه، سيتولاه ربه، لذلك لا تشمخ بأنفك بينك وبين ربك، ولا تغرك كثرة المعلومات الشرعية التي عندك، ولكن ادع الله في سجودك أن يطهر قلبك، فالمعلومات بمفردها لن تكفي للتخلص من مرض القلب، ولكن لا بد من اللجوء إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

واعلم أنَّ المرض الذي له في القلب عشر سنين أو أكثر لن يزول في يومٍ أو اثنين، ولكن يحتاج ذلك إلىٰ ممارسةٍ وصَبْرٍ، فعلاج أمراض القلوب بالذات فيه صعوبة؛ لأن تسعين بالمائة من علاجها معنوي غير محسوس، مبني علىٰ المعلومات التي تتعلمها، وينبغي أن تأخذها بمحمل الصدق واليقين حتىٰ تؤثر في قلبك، فلا يتطرق إلىٰ قلبك اليأس أو الاستسلام، فقط حَدِّد المرض وأعراضه وطرق علاجه، ثم ابدأ العلاج، ولا بأس أن تضع لعلاجك خطةً، بل قد تكون الخطة طويلة الوقت.



(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).



القسم الثاني

ذكر أمراض القلوب وعلاجها

الباب الأول: مرض الكبر.

الباب الثاني: مرض العجب.

الباب الثالث: مرض الغرور.

الباب الرابع: مرض سوء الظن.

الباب الخامس: مرض الحسد.

الباب السادس: مرض الرياء.

الباب السابع: مرض الغضب.

الباب الثامن: مرض الحقد.

الباب التاسع: مرض النفاق.

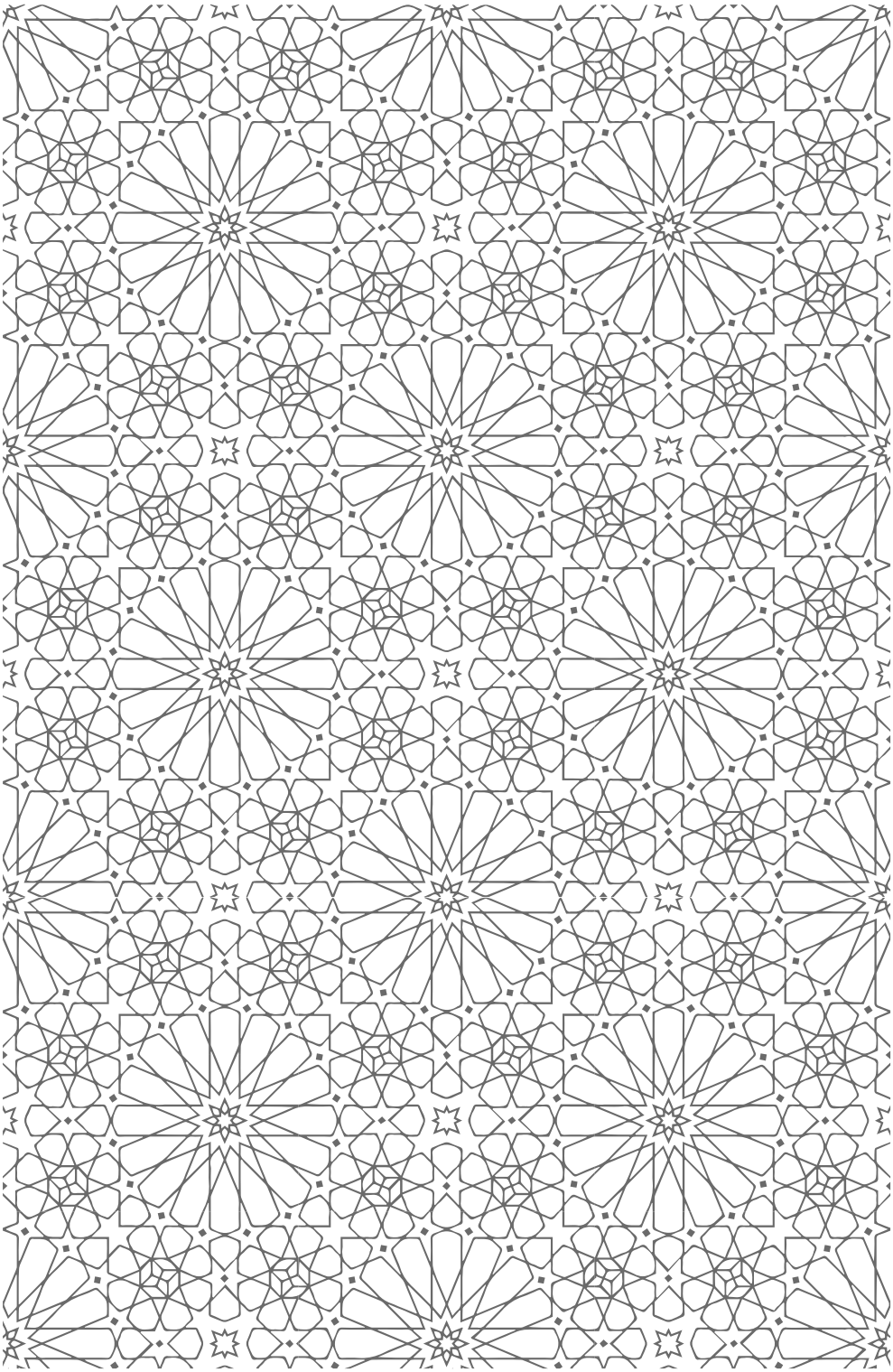
الباب العاشر: مرض الوسوسة.

الباب الحادي عشر: مرض اتباع الهوىٰ.

الباب الثاني عشر: مرض طول الأمل.

الباب الثالث عشر: مرض الشح والبخل.

الباب الرابع عشر: التطير.



الباب الأول

مرض الكبر

وفيه عشرة فصول:

الفصل الأول: تعريف مرض الكبر.

الفصل الثاني: التَّحذير من مرض الكبر.

الفصل الثالث: الآثار المترتبة علىٰ تلبس العبد بالكبر في الدنيا، وفي الآخرة.

الفصل الرابع: كيف يتطرق الكبر إلىٰ قلب العبد؟

الفصل الخامس: أركان الكبر.

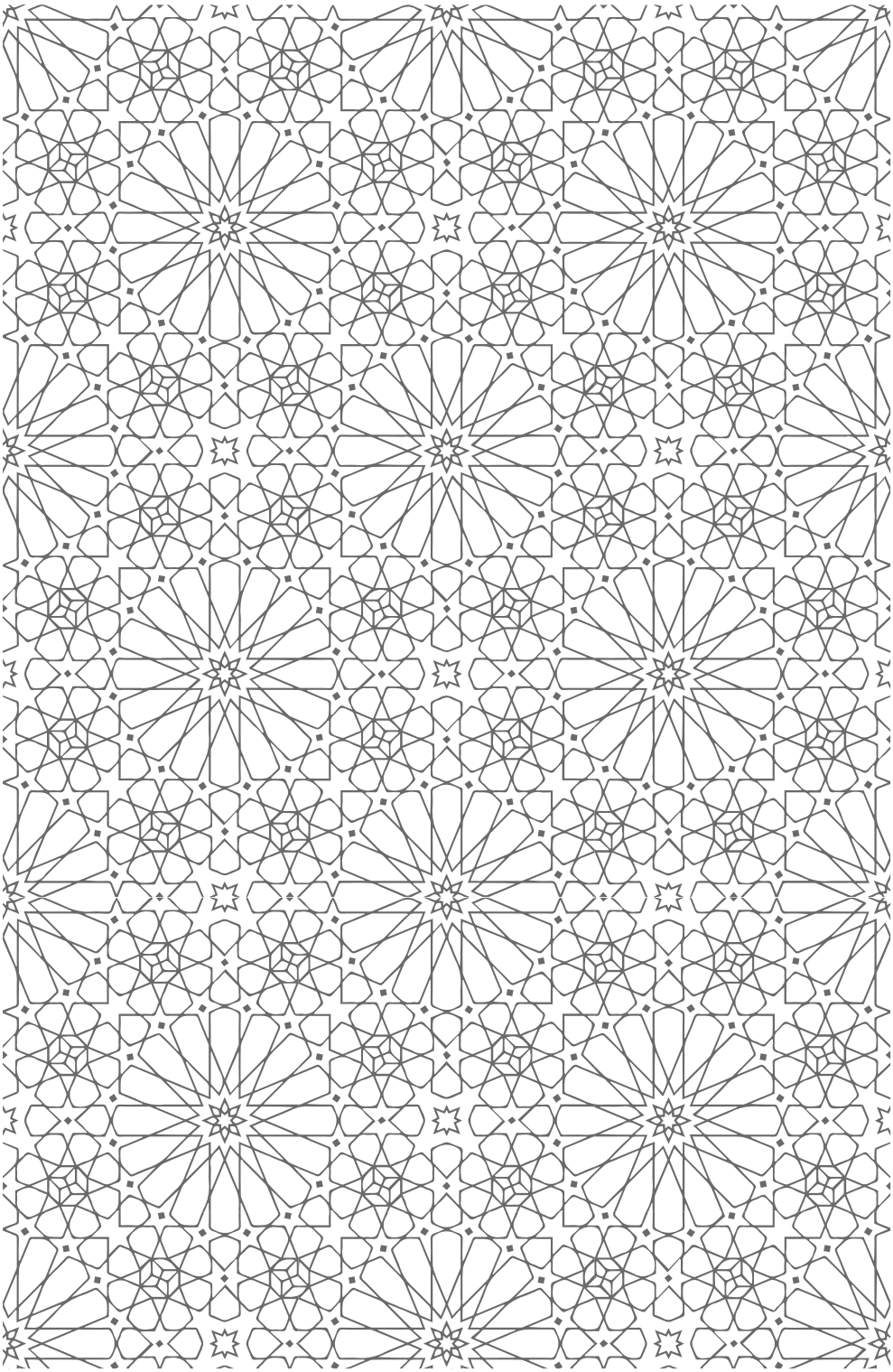
الفصل السادس: أنواع المتكبر به.

الفصل السابع: التكبر بالكمال الديني، وعلامته، وعلاج ذلك.

الفصل الثامن: التكبر بالأسباب الدنيوية.

الفصل التاسع: الأدوية النافعة لعلاج الكبر: الوقوف علىٰ فضيلة التواضع الذي هو الاستسلام للحق، وترك الاعتراض في الحكم.

الفصل العاشر: خاتمة الكلام عن الكبر.



مرض الكبر

مقدمة عن مرض الكبر[١]:

الكبر مرض معنوي غير محسوسٍ، موطنه القلب، لا ندركه بحواسنا، ولكن تظهر آثاره علىٰ الجوارح، لذا يستدل العلماء علىٰ وجود هذا المرض في القلب من خلال بعض تصرُّفات مَنْ به كبرٌ.

والكبر مرض خطير يطول فيه الكلام نظرًا لأهميته وخطورته، والواحد منا إن استطاع أن يتخلص من هذا المرض يشعر بتحسنٍ كبيرٍ في حياته الخاصة والعامة أيضًا، ولكن إشكالية هذا المرض أنه في غالب الأحيان لا يشعر به المرء، فكون الكبر في القلب في حد ذاته ليس بإشكالٍ كبيرٍ، ولكن الإشكال الحقيقي -كما مرَّ في المقدمة- أن يكون المرض متربعًا في القلب، وتظهر آثاره علىٰ جوارح العبد، ثم لا يعترف صاحبه بذلك.

---

(١) ثلاثة أمراضٍ بين طلبة العلم في أيامنا (١٤٤٠ هجرية) هذه، خربوا مصر خرابًا ما بعده خراب، هي: الكبر والرياء والحسد، فهذه الأمراض هي أخطر ما يبتلىٰ به طالب العلم من مرضٍ، وهي في طلبة العلم أخطر من العوام، فالمفترض أن يكون لطلبة العلم منزلة ومكانة أخرىٰ، ومهام ووظائف أسمىٰ، ولكن مثل هذه الأمراض أقرب إلىٰ طلبة العلم من غيرهم، كما جاء عن ابن عباس أنه قال: خذوا العلم حيث وجدتموه، ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم علىٰ بعضٍ، فإنهم يتغايرون كما تتغاير التيوس في الزريبة. «إحياء علوم الدين» (١/ ٤٥)، ومثله عن مالك بن دينار، قال: تجوز شهادة القُرَّاء في كل شيء إلا شهادة بعضهم علىٰ بعضٍ، فإنهم أشد تحاسدًا من التيوس في الزرب، وهي جمع الزريبة. «حلية الأولياء» (٢/ ٣٧٨).

الفصل الثالث

تعريف مرض الكبر[١]

الكبر لغةً: اسمٌ كالكبرياء بمعنىٰ العظمة، وهو مأخوذ من مادة (ك ب ر) التي تدل علىٰ خلاف الصغر.

وفي الشرع: فقد عرَّفه النبي ﷺ، فعن ابن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «**لا يدخل الجنَّة مَنْ كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كِبْرٍ**». قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنًا. قال: «**إنَّ الله جميلٌ يحب الجمال، الكبر بطر الحقِّ، وغمط الناس**»[٢]. وفي روايةٍ صحيحةٍ: «**وغمص الناس**»[٣].

إذًا، فتعريف الكِبْر يدور علىٰ محورين: بطر الحق، وغمط الناس.

وبطر الحقِّ، أي: دفع الحق وصده، وعدم قبوله، وهذه هي الإشكالية الكبيرة عند مَن بدأوا يحصلون العلوم الشرعية، فلا تغلف الكبر بغلاف الدين، فيكون الحكم واضحًا جليًّا، ثم تقول: أنا أتبع الإمام الفلاني مثلًا، وإن كان قول الإمام عاريًا عن الدليل، أو استدل بقواعد أصولية تخالف الدليل[٤]، لذا فكلُّ مَن عرض عليه

---

(١) وللتوسع عليك بهذه الكتب: «الترغيب والترهيب» للمنذري بتحقيق الشيخ الألبانيِّ، وكتاب «الزواجر في النهي عن اقتراف الكبائر» للإمام ابن حجر الهيتمي، وأيضًا موسوعة «نضرة النعيم».

(٢) رواه مسلم (٩١).

(٣) رواه الترمذي (١٩٩٩)، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٦٢٦).

(٤) وإذا خالفت القواعد الأصولية -مع كونها مُستلَّة من الأدلة الشرعية- إذا خالفت النص الشرعي، فلا يعول عليها بحالٍ، ولا يُعمل بها، ولكن يرجع إلىٰ النص، وكذلك مع القواعد الحديثية، والقواعد الفقهية.

الحق -ولا يوجد علىٰ وجه الأرض حق أحق من الكتاب والسنة- فلم يقبله، وكان الحق واضحًا لا لبس فيه، ولا غموض، وليس عند المستمع شبهة[١]، فذلك هو الكبر.

وغمط الناس: هو أن يحتقر الناس ويزدريهم، ويظن أنه خير منهم، فهذا متكبرٌ وإن قال غير ذلك.

قال أبو حامد الغزالي: «فكلُّ مَن رأىٰ أنه خيرٌ من أخيه، واحتقر أخاه وازدراه، ونظر إليه بعين الاستصغار، أو رد الحق وهو يعرفه، فقد تكبَّر فيما بينه وبين الخَلْق، ومن أنف من أن يخضع لله تعالىٰ، ويتواضع لله بطاعته، واتباع رسله، فقد تكبَّر فيما بينه وبين الله تعالىٰ ورسله».

وفرَّق العلماء بين الكبر والمتكبر، فقالوا: الكبر مرض في القلب، فإذا استقر الكبر في القلب وتمكَّن، نقول: هذا الشخص في قلبه كبر، فلو أثر الكبر علىٰ الجوارح نقول عن هذا الشخص: متكبر.



(١) وإنَّما يرد الحق بدون سَبَبٍ، فمثلًا يقول بقولٍ لم يقل به أحدٌ من السلف قطُّ، ويستحيل أن يمرَّ الحق علىٰ كل السلف، ثم تدركه أنت، هذا مستحيل نقطع باستحالته.

الفصل الثاني

التحذير من مرض الكبر

نذكر مستعينين بالله بعض النصوص الواردة في التحذير من الكبر[١]:

ورد الكثير من النصوص الشرعية في الكتاب والسنة، وآثار عن السلف في التحذير من مرض الكبر، وهذه النصوص لا بد أن نستحضرها جيدًا، ونكررها علىٰ أذهاننا[٢] حتىٰ يتحرك القلب، ونتخلَّص ممَّا فيه من مرض الكبر، ومن جملة هذه النصوص:

أولًا: النصوص الشرعية من القرآن الكريم التي تدلُّ علىٰ ذم الكبر، والتحذير منه:

قال الله تعالىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: ١٧٢، ١٧٣].

---

(١) اعلم أن النفس البشرية لا ترتدع ولا تنزجر إلا بالترهيب مع الترغيب، وإن حاولت أن تهذب نفسك بغير هذين الأمرين، فلن تفلح، بل ذكر العلماء أن المرء كلما كان في سعةٍ ووفرةٍ من الصحة والمال والجاه، كان لزامًا عليه أن يغلب جانب الترهيب علىٰ الترغيب، ولا يفعل العكس إلا عند قدومِهِ علىٰ الموت مثلًا، فإنه حينئذٍ يغلب جانب الترغيب علىٰ الترهيب، أي: جانب الرجاء علىٰ الخوف.

(٢) فلا تقتصر علىٰ الوعظ والسماع الوقتي، ولكن داوم علىٰ القراءة والسماع فيما يُرقِّق قلبك، مثل وَصْف الجنة والنار وعرصات يوم القيامة، والتَّحذير من الذُّنوب والكبائر، والتحذير من آثار الذنوب والمعاصي، فهذا كله مما يُحرِّك القلب. ولا يظن عاقلٌ أن النَّبيَّ ﷺ حدَّث الصحابة رضي الله عنهم بكل النصوص المحذرة من الكبر مثلًا مرةً واحدةً، ولكنه كان يتخوَّلهم بالموعظة الحين بعد الحين، فأَدِمْ تذكير نفسك بالموعظة حتىٰ يعينك هذا -بعد الله تعالىٰ- علىٰ التغيير إلىٰ الأفضل.

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف: ٣٦].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف: ٤٠، ٤١].

وقال تعالىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قال الزجاج: «أي: أجعل جزاءهم الإضلال عن هداية آياتي. قال: ومعنىٰ ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾، أي أنهم يرون أنهم أفضل الخَلْق، وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم، وهذه الصفة لا تكون إلا لله خاصةً؛ لأنَّ الله ﷻ هو الذي له القدرة والفضل الذي ليس لأحدٍ مثله»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوًى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [النحل: ٢٨، ٢٩].

وأخبرنا الله ﷻ في أكثر من موضع ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [النحل: ٢٣].

وقال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [المؤمنون: ٦٤ - ٦٧].

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٣٧٦).

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٥٥ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٥٧ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٩ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ٦٠﴾ [الزمر: ٥٥- ٦٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٢٧﴾ [غافر: ٢٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾ [غافر: ٣٥].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾ [غافر: ٥٦].

وقال عزَّ من قائل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: ٦٠].

وقال الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ١٥ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ١٦﴾ [فصلت: ١٥، ١٦].

وقال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠﴾ [الأحقاف: ١٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وقال تَعالَىٰ في وَصْف المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾ [المنافقون: ٥].

وقال تعالىٰ في وَصْف أحد الكافرين وهو: الوليد بن المغيرة ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر: ١١ - ٣٠].

ثانيًا: النصوص الشرعية من السنة الصحيحة التي تدل علىٰ ذم الكبر، والتحذير منه:

عن أبي هريرة قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «**تحاجَّت الجنة والنار**[(١)]، **فقالت النار: أُوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم. قال الله -تبارك وتعالىٰ- للجنة: أنتِ رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنتِ عذابي، أعذب بكِ من أشاء من عبادي، ولكل واحدةٍ منهما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتىٰ يضع رجله فتقول: قط قط قط، فهنالك تمتلئ، ويزوىٰ بعضها إلىٰ بعض، ولا يظلم الله عَزَّوَجَلَّ من خلقه أحدًا، وأما الجنة فإن الله عَزَّوَجَلَّ ينشئ لها خلقًا**»[(٢)].

---

(١) وقد ذكر النبي ﷺ أن هذه تكلمت، وهذه تكلمت، ونحن نؤمن بهذا الخبر، وأنه وقع، ونصدقه، ولكن لا ندري ما كيفيته، وهذا معتقد السلف في الغيبيات، فنحن نثبت ما جاء في النصوص من معانٍ، وما خبئ عنَّا من الكيفيات نكِلُها إلىٰ الله تعالىٰ.

(٢) البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٧٣٥٤).

وفي رواية أنس بن مالك: «**لا تزال جهنم تقول: هل من مزيدٍ؟ حتىٰ يضع فيها رب العزة -تبارك وتعالىٰ- قدمه، فتقول: قط قط، وعزتك، ويزوىٰ بعضها إلىٰ بعضٍ**»[(١)(٢)].

وعن حارثة بن وهب الخزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبي ﷺ قال: «**ألا أخبركم بأهل الجنة؟**». قالوا: بلىٰ. قال: «**كلُّ ضعيفٍ متضعف**[(٣)]**، لو أقسم علىٰ الله لأبرَّه**»، ثم قال: «**ألا أخبركم بأهل النار؟**». قالوا: بلىٰ. قال: «**كل عُتُلٍّ** -وهو الجبار- **جواظ** - وهو الغليظ الجافي- **مستكبر**»[(٤)].

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: التقىٰ عبدالله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص علىٰ المروة، فتحدثا، ثم مضىٰ عبدالله بن عمرو، وبقي عبد الله بن عمر يبكي، فقال له رجل: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: هذا -يعني: عبد الله بن عمر- زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**مَن كان في قلبه مثقال حبة من خردلٍ من كِبْرٍ، أكبَّه الله علىٰ وجهه في النار**»[(٥)]، وبالفعل هذا الحديث مَن تدبره منَّا، تزلزل قلبه، فمن منَّا يسلم؟!

---

(١) ونثبت لله عَزَّوَجَلَّ صفة الرجل، وصفة القدم، ولا ندري ما كيفيتها أيضًا، وكذا سائر الصفات، وهذه الأمور الاعتقادية لابد من الانتباه لها، والحذر منها؛ لأن الزلل فيها يُخرج العبد من الفِرقة الناجية إلىٰ الفِرق الهالكة.

(٢) البخاري (٦٦٦١)، ومسلم (٧٣٥٦).

(٣) وذلك بمقياس الناس، ينظرون إليه فلا يأبهون به، كما روي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**رُبَّ أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم علىٰ الله لأبرَّه**»، مسلم (٦٨٤٨)، وهذا دليل أكيد علىٰ أن بعض مقاييس الناس تختلف عن الحقيقة، وهذا سيأتي عند الكلام عن كيفيَّة وقوع الإنسان في الكبر.

(٤) البخاري (٤٩١٨)، ومسلم (٧٣٦٦).

(٥) أحمد (٧٢١١)، وحسنه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٩٠٩).

وعن عبدالله بن عمرٍو أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ نبي الله نوحًا ﷺ لمَّا حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية، آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين: آمرك بـ «لا إله إلا الله»**[(١)]**، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة، رجحت بهنَّ لا إله إلا الله**[(٢)]**، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلاالله، وسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شيءٍ، وبها يرزق الخَلْق**[(٣)]**، وأنهاك عن الشرك والكبر**»[(٤)(٥)].

---

(١) قد أقرَّ النبي ﷺ هذه الوصية، بل من السُّنة أن يأتي العبد في اليوم الواحد بـ «لا إله إلا الله» -أي: التهليل- مئة مرة، فهذا ثبت عن النبي ﷺ، فعلىٰ العبد أن يشغل وقته بالذكر وقت فراغه، وأثناء سيره، ونحوه.

(٢) وهذا الكلام لا يجوز، ولا يصح -وهو الاقتصار علىٰ قول لا إله إلا الله بلا عمل-، فإنَّ ذلك بَتْر للنصوص، وتقطيع للشريعة، ويجعلنا مع المرجئة، فلابدَّ أن تجمع باقي النصوص كلها لكي نفهم حقيقة الإيمان، وحقيقة قول «لا إله إلا الله».

(٣) **قال ابن القيِّم**: وحضرت شيخ الاسلام ابن تيمية مرةً صلىٰ الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالىٰ إلىٰ قريبٍ من انتصاف النهار، ثم التفت إليَّ، وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي، أو كلامًا قريبًا من هذا. «الوابل الصيب» (١/ ٦٣)، فشتان بين ما يمدك الله به من قوةٍ حين تذكره، وما تتزود أنت به من طعامٍ وشرابٍ وغيره.

(٤) ومعلوم أن الإنسان عند الموت يأتي بخبرة حياته كلها، وبكل الخير الذي يعلمه ليوصي به، وهذا نبي الله نوح عاش ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا، بل قال أهل العلم: إنها كانت سنين الدعوة فقط، أي أنه تخطىٰ الألف، وها هو قد استخلص خبرته وذكرها لابنه، ومن رحمة الله ﷻ أَنْ أَوْحاها لنبيه محمد ﷺ، فنقلها إلينا. وهذا الحديث من أخبار مَن تقدم، جاء بالسند الصحيح، وذكره النبي ﷺ في معرض الإقرار، فهو يعتبر من شريعتنا.

(٥) رواه أحمد (٦٥٨٣)، والبخاري في «الأدب» (٥٤٨)، وصححه الأرنؤوط في تعليقه علىٰ المسند، والألبانيُّ في «الصحيحة» (١٣٤).

وعن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ مات وهو بريءٌ من ثلاثٍ (الكبر والغلول والدَّين)، دخل الجنة**»(١).

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة مَنْ كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر**»(٢).

وروىٰ الطبراني في «الكبير» بسندٍ صحيحٍ إلىٰ عبد الله بن سلام مرَّ في السوق علىٰ رأسه حزمة من حطب، فقيل له في ذلك، فقال: إنِّي أردت أن أدفع الكبر، فإني سمعتُ رسول الله -صلىٰ الله عليه وآله وسلم- يقول: «**لا يدخل الجنة رجلٌ في قلبه مثقال حبة من خردل من الكبر**»(٣).

وروىٰ الترمذي بسندٍ حسنٍ عن جابرٍ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ من أحبكم إليَّ، وأقربكم منِّي مجلسًا يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقًا، وإنَّ أبغضكم إليَّ، وأبعدكم منِّي مجلسًا يوم القيامة: الثرثارون والمتشدِّقون والمتفيهقون**»، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: «**المتكبرون**»(٤).

وروىٰ الطبراني في «الأوسط» بسندٍ رجاله ثقات، عن عبد الله بن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والكبر، فإن الكبر يكون في الرجل وإن عليه العباءة**»(٥).

قال المناوي في «فيض القدير»: «قوله ﷺ: «**فإنَّ الكبر يكون في الرجل**»، أي:

---

(١) رواه الترمذي (١٦٦٧)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح وضعيف سنن الترمذي» (١٥٧٢).

(٢) رواه مسلم (٢٧٧).

(٣) «المعجم الكبير» للطبراني (١٤٩٤٦).

(٤) «سنن الترمذي». ت: بشار برقم (٢٠١٨)، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٧٩١).

(٥) «المعجم الأوسط» (٥٤٣)، وضعفه الألبانيُّ في «ضعيف الجامع الصغير» (٢٢٠٩).

الإنسان «**وإن عليه العباءة**» من شدة الحاجة، وضنك المعيشة، وقلة الشيء، ولا يمنعه رثاثة حاله عن النظر في عاقبته وماله[(١)].

وروىٰ مسلمٌ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثةٌ لا يُكلِّمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم** -قال أبو معاوية: ولا ينظر إليهم- **ولهم عذابٌ أليمٌ: شيخ زان، ومَلِك كذاب، وعائل مستكبر**»[(٢)].

فائدة مهمة:

قال النووي: «قال جمهور المفسرين: لا يكلمهم كلامًا ينفعهم ويسرهم، ومعنىٰ: لا يزكيهم: لا يطهرهم من دنس ذنوبهم. العائل هو الفقير، وأما تخصيصه ﷺ في الرواية الأخرىٰ: (الشيخ الزاني، والملك الكذاب، والعائل المستكبر) بالوعيد المذكور، فقال القاضي عياض: سببه أن كل واحدٍ منهم التزم المعصية المذكورة مع بُعْدها منه، وعدم ضرورته إليها، وضعف دواعيها عنده وَإنْ كان لا يعذر أحدٌ بذنبٍ، لكن لمَّا لم يكن إلىٰ هذه المعاصي ضرورة مزعجة، ولا دواعي معتادة، أشبه إقدامهم عليها المعاندة والاستخفاف بحق الله تعالىٰ، وقصد معصيته لا لحاجةٍ غيرها، فإن الشيخ لكمال عقله، وتمام معرفته بطول ما مرَّ عليه من الزمان، وضعف أسباب الجماع والشهوة للنساء، واختلال دواعيه، لذلك عنده ما يريحه من دواعي الحلال في هذا، ويخلي سره منه، فكيف بالزنا الحرام، وإنما دواعي ذلك الشباب، والحرارة الغريزية، وقلة المعرفة، وغلبة الشهوة؛ لضعف العقل، وصغر السن، وكذلك الإمام لا يخشىٰ من أحدٍ من رعيته، ولا يحتاج إلىٰ مداهنته ومصانعته، فإن

---

(١) «فيض القدير» (٣/ ١٣٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٧).

الإنسان إنما يداهن ويصانع بالكذب وشبهه مَن يحذره، ويخشىٰ أذاه ومعاتبته، أو يطلب عنده بذلك منزلةً أو منفعةً، وهو غنيٌّ عن الكذب مطلقًا، وكذلك العائل الفقير قد عدم المال، وإنما سبب الفخر والخيلاء والتكبُّر والارتفاع علىٰ القرناء الثروة في الدنيا؛ لكونه ظاهرًا فيها، وحاجات أهلها إليه، فإذا لم يكن عنده أسبابها، فلماذا يستكبر ويحتقر غيره، فلم يبق فعله وفعل الشيخ الزاني والإمام الكاذب إلا لضربٍ من الاستخفاف بحقِّ الله تعالىٰ، والله أعلم»[(١)].

فالفقير من شأنِهِ أن يخفض الجَناح، ولا يستكبر مع فقره إلا مَن ازداد لديه خُلُق الكبر زيادةً جعلته منطمس البصيرة عن إدراك واقعه الذي يقتضي منه ألَّا يكون مستكبرًا، فهو مع فقره يستكبر علىٰ الناس، فدل الكبر هنا علىٰ أنه شيء تأصل فيه، وأنه بالغ في ذلك الوصف حتىٰ نسي نفسه، ونسي أنه فقير محتاج. انتهىٰ.

وروىٰ الإمام أحمد بسندٍ صحيحٍ، عن عبد الله بن عمرٍو، قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فجاء رجلٌ من أهل البادية عليه جبة سيجان مزرورة بالديباج، فقال: «**ألا إنَّ صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس**». قال: يريد أن يضع كل فارس ابن فارس، ويرفع كل راع ابن راع. قال: فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته، وقال: «**ألا أرىٰ عليك لباس مَن لا يعقل**»، ثم قال: «**إنَّ نبيَّ الله نوحًا ﷺ لمَّا حضرته الوفاة قال لابنه: إنِّي قاص عليك الوصية: آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين، آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع، والأرضين السبع، لو وُضعت في كفة، ووُضعت لا إله إلا الله في كفة، رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع، والأرضين السبع كن حلقةً مبهمةً، قصمتهن لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شيءٍ، وبها**

---

(١) «شرح النووي علىٰ مسلم» (٢/ ١١٧).

يرزق الخَلْق، وأنهاك عن الشرك والكبر». قال: قلت -أو قيل- يا رسول الله، هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر؟ قال: الكبر أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟ قال: «**لا**». قال: هو أن يكون لأحدنا حُلَّة يلبسها؟ قال: «**لا**». قال: الكبر هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ قال: «**لا**». قال: أفهو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: «**لا**». قيل: يا رسول الله، فما الكبر؟ قال: «**سفه الحق، وغمص الناس**»(١).

وروىٰ ابن ماجه بسندٍ صحيحٍ عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول اللهُ سبحانه: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمَنْ نازعني واحدًا منهما، ألقيتُهُ في النار**»(٢).

قال الأصبهاني في «مشكل الحديث»: «واعلم أن معنىٰ قوله: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري**»، أي: ذلك صفة من صفاتي، وأنا المختص به دون غيري، فمن نازعني في ذلك بأن تكبَّر وتعظَّم علىٰ الناس، أدخلته النار»(٣).

قال الحافظ: «ليس المراد الثياب المحسوسة، لكن المناسبة أنَّ الرداء والإزار لمَّا كانا متلازمين للمخاطب من العرب، عبَّر عن العظمة والكبرياء بهما»(٤).

ومثل هذه النصوص الشرعية من كتاب الله وسنة نبيِّه ﷺ التي تخبر بأن المتكبر في النار، ولا يدخل الجنة، ونحوها يقول فيها أهل السنة والجماعة: أَمرُّوها كما جاءت، أي: نتركها كما هي، لا نُأوِّلها، ولا نأخذ منها الخلود في النار، وإنما تترك كما

---

(١) «مسند أحمد». ت: شاكر (٦٥٨٣)، وصححه العلامة أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) «سنن ابن ماجه» (٤١٧٣)، وصححه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٨٩٩).
(٣) «مشكل الحديث وبيانه» (ص٣١٦).
(٤) «فتح الباري» لابن حجر (١٣/ ٤٣٢).

هي للزجر والردع مع كون اعتقاد أهل السنة والجماعة معلومًا في المسلم حين يموت مُصرًّا علىٰ ذنبٍ دون الشرك، فهو تحت المشيئة؛ إن شاء الله عذَّبه بذنوبه، وإن شاء غفر له، ثم هو لا يخلد في النار إن دخلها، وإنما نهايته إلىٰ الجنة بقوله: لا إله إلا الله[(١)]، لذا لا بدَّ من الإتيان بالنصوص كلها وجمعها، ولا تحكم من خلال نصٍّ واحدٍ.

قال المسيح عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الزرع ينبت في السهل ولا ينبت علىٰ الصفا»، كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع، ولا تعمل في قلب المتكبر، ألا ترون أن من شمخ برأسه إلىٰ السقف شجَّه، ومن طأطأ أظلَّه وأكنَّه»[(٢)].

ثالثًا: من أقوال السَّلف في ذمِّ الكبر، والتحذير منه:

قال النُّعمان بن بشيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا علىٰ المنبر: «إن للشيطان مصالي -مصالي جمع مِصْلاة بكسر الميم وسكون الصاد، وهي شرك ينصب للصيد، المقصود بها: ما يصيد الشيطان به الناس من الآفات التي يستفزهم بها من زينة الدنيا وشهواتها- وفخوخًا، فخوخه البطر بأنعم الله، والفخر بإعطاء الله له، والكبر علىٰ عباد الله، واتباع الهوىٰ في غير ذات الله»[(٣)].

---

(١) فأهل السُّنة والجماعة دائمًا وسط بين الإفراط والتفريط، فأصحاب فكر التكفير -مثلًا- يحتجون بمثل هذه الأحاديث، فيقولون: هذا الشخص كفر بالله تعالىٰ، ومخلد في النار، وعليه أن يجدد إيمانه إن تاب، والمرجئة يحتجُّون بمثل حديث وصية نبي الله نوح التي مرَّت، فيقولون: هذا هو الأساس عندنا، يكفي قول: «لا إله إلا الله» دون صلاةٍ، ولا صيامٍ، ولا غيرهما، والاثنان خطأ، فالصحيح ما دلَّت عليه الأدلة بمجموعها أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، وأنَّ ترك عمل الجوارح بالكليَّة مع القدرة علىٰ العمل، كفر مخرج عن الملة.

(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٣٦٤).

(٣) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٣٩).

قال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عندما رأىٰ رجلًا يختال في مِشْيتِهِ، ويجرُّ إزاره، فقال: «إن للشيطان إخوانًا»(١).

قال الأحنف بن قيس: «عجبًا لابن آدم، يتكبَّر وقد خرج من مجرىٰ البول مرتين»(٢).

ملحوظة: هذا القول من الأحنف باعتبار الظاهر، فمعلوم أن مخرج ابن آدم غير مخرج البول في الأنثىٰ، أما في الذكر فالمخرج واحد.

وعن مطرف بن عبد الله بن الشخير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه رأىٰ المهلب وهو يتبختر في جبة خز، فقال: يا عبد الله، هذه مِشْية يبغضها الله ورسوله، فقال له المهلب: أما تعرفني؟ فقال: بلىٰ أعرفك، أوَّلك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة، فمضىٰ المهلب، وترك مِشْيته تلك(٣).

وروي أن عمر بن عبد العزيز حجَّ قبل أن يستخلف، فنظر إليه طاوس وهو يختال في مِشْيته، فغمز جنبه بأصبعه، ثم قال: «ليست هذه مِشْية مَن في بطنه خراء»(٤).

قال محمد بن علي بن الحسين بن علي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك؛ قلَّ أم كثر»(٥).

قال وهب بن منبه رَحِمَهُ اللَّهُ: «لما خلق الله جنة عدن، نظر إليها، فقال: أنتِ حرام علىٰ كل متكبر»(٦).

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٥٩).
(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٥٨).
(٣) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٥٩).
(٤) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٤٠).
(٥) «حلية الأولياء» (١/ ٤٧٣)، و«صفة الصفوة» (٢/ ١٠٨).
(٦) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٥٨).

ورأىٰ محمد بن واسع ولده يختال، فدعاه وقال: «أتدري مَن أنت؟ أما أمك فاشتريتها بمائتي درهم، وأما أبوك فلا أكثر الله في المسلمين مثله»(١).

قال أبو علي الجوزجاني: «النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد، فمَنْ أراد الله تعالىٰ هلاكه، منع منه التواضع والنصيحة والقناعة، وإذا أراد الله تعالىٰ به خيرًا، لطف به في ذلك، فإذا هاجت في نفسه نار الكبر، أدركها التواضع من نصرة الله تعالىٰ، وإذا هاجت نار الحسد في نفسه، أدركتها النصيحة مع توفيق الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا هاجت في نفسه نار الحرص، أدركتها القناعة مع عون الله عَزَّوَجَلَّ»(٢).

قال الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الكبر والإعجاب يسلبان الفضائل، ويكسبان الرذائل، وليس لمَن استوليا عليه إصغاء لنصح، ولا قبول لتأديب؛ لأنَّ الكبر يكون بالمنزلة، والعجب يكون بالفضيلة، فالمتكبِّر يجلُّ نفسه عن رتبة المتعلمين، والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأدبين»(٣).

وما أحسن ما قاله ابن عوف رَحِمَهُ اللَّهُ:

عجبتُ من معجبٍ بصورته ... وكان بالأمس نطفة مذرَهْ
وفي غدٍ بعد حسن صورته ... يصير في اللحد جيفةً قذرَهْ
وهو علىٰ تيهه ونخوته ... ما بين ثوبيه يحمل العذرَهْ(٤).

ووصف بعض الشعراء الإنسان، فقال:

يا مظهر الكبر إعجابًا بصورته ... انظر خلاك فإن النتن تثريبُ

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٥٩)
(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٤٣).
(٣) «أدب الدنيا والدين» (ص٢٣٦).
(٤) «أدب الدنيا والدين» (ص٢٣٧).

لـــو فكـــر النـــاس فيمـــا في بطـــونهم ... مـــا استشـــعر الكبـــر شـــبانٌ ولا شـــيبُ
هـــل في ابـــن آدم مثـــل الـــرأس مكرمـــة ... وَهـــو بخمـــسٍ مـــن الأقـــذار مضـــروبُ
أنـــف يســـيل وأذن ريحهـــا ســـهك ... والعـــين مرفضـــة والثغـــر ملعـــوبُ
يـــا ابـــن التـــراب ومـــأكول التـــراب غـــدًا ... أقصـــر فإنـــك مـــأكول ومشـــروبُ[(١)]

وهذه الأقوال مهمة، فإن هؤلاء القوم قد أجرىٰ الله الحقَّ علىٰ ألسنتهم، وكذلك قد أجمع أهل العلم علىٰ أنَّ الكبر كبيرة من الكبائر[(٢)]، وخطر كونها من الكبائر يتضح حين تسمع حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**الصَّلوات الخمس، والجمعة إلىٰ الجمعة، ورمضان إلىٰ رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر**»[(٣)].

---

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص٢٣٨).

(٢) **فائدة**: استدل العلماء علىٰ انقسام الذنوب إلىٰ كبائر وصغائر بقول الله تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، وقالوا أيضًا: إن ضابط الكبيرة أنها كل ذنبٍ له عقوبة مقدرة في الدنيا -وهي الحدود- أو وعيد شديد خاص في الآخرة؛ كلعنٍ أو خروجٍ من الشريعة، أو وعيد بالنار، أو أن يصدر القول فيه بالبَراءة من الإسلام، أو بالغضب، أو بقوله: ليس منَّا، وهكذا. وضابط الصغيرة أنها كل ذنبٍ دون الحدين، أي: ليست لها عقوبة مقدرة في الدنيا، أو وعيد شديد خاص في الآخرة.

واتفق أهل العلم -وبالاستقراء أيضًا- أن العبد إذا تلبَّس بصغيرةٍ، واقترنت بالصغيرة واحدة من أمور ستة، تعظم الصغيرة، ويزداد خطرها -حتىٰ لا يرضىٰ أحد بكونه علىٰ صغيرةٍ، ويستهين بذلك- وهذه الستة هي: (الإصرار - الفرح والاستبشار بالذنب - الاغترار بحِلم الله - الأمن من مكر الله - المجاهرة - أن يكون صاحب الصغيرة ممن يُقتدىٰ به، قال تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وإذا اقترنت واحدة من هؤلاء بكبيرةٍ، زاد الجرم والإثم عند الله عَزَّوَجَلَّ.

(٣) رواه مسلم (٥٧٤).

فقد قال العلماء: أي أنها تكفر الصغائر بشرط اجتناب الكبائر[١]، والكبائر هنا لفظ عام يشمل جميع الكبائر الظاهرة والباطنة، فلو أن إنسانًا فعل كبيرةً مع الصغائر ما كفرت صغائره بهذه الأعمال المذكورة في الحديث.

ومن ذلك أيضًا قول النبي ﷺ عن صيام يوم عرفة، وصيام يوم عاشوراء، أن الأول يكفر ذنوب سنتين ماضية ومستقبلة، والثاني يكفر سنة ماضية.

وأيضًا ما رواه أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «**مَن حج هذا البيت، فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه**»[٢].

وهكذا تكون كل هذه النصوص مقيدةً بشرط اجتناب الكبائر كما اتفق عليه العلماء، فالكبائر تحتاج إلىٰ توبةٍ خاصةٍ بها بضوابطها وشروطها، فإذا كانت بين العبد وربه تحتاج إلىٰ الإقلاع عن الذنب والندم والعزم علىٰ عدم العود، وهي أشياء لا يعلم حقيقتها إلا الله عَزَّوَجَلَّ، فإن استطعت أن تخدع الناس، فلن تخيل خدعتك علىٰ ربك عَزَّوَجَلَّ، وإن كانت فيها حقوق العباد؛ كالظلم والغيبة والنميمة وظلم الماديات- فتحتاج بالإضافة إلىٰ ما سبق إلىٰ ردِّ المظالم إلىٰ أهلها، أو استحلالها من العباد.

قال الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة رَحِمَهُ اللَّهُ: «تبيَّن لنا أن الكبر من أقبح الانحرافات الأخلاقية وأسوئها، وأنه قد يدفع بصاحبه إلىٰ جحود خالقه، والاستكبار علىٰ طاعته، كما فعل إبليس لعنه الله، ولذلك شدد الإسلام في تحريم الكبر، وحذر منه، وشدد اللائمة علىٰ المستكبرين، وأوعدهم بالعقاب الشديد، كما رغب بالتواضع، وحث عليه، ومجَّد المتواضعين، وأثنىٰ عليهم، ووعدهم بالثواب الجزيل»[٣].

---

(١) فشرطا تكفير هذه الأعمال لذنوب العبد هما: (أن تكون هذه الذنوب صغائر - أن يجتنب العبد الكبائر).

(٢) رواه البخاري (١٨١٩)، ومسلم (٣٣٥٧).

(٣) الحديث الموضوعي - جامعة المدينة (ص٣٥٨).

الفصل الثالث

الآثار المترتبة على تلبس العبد بالكبر في الدنيا وفي الآخرة[١]

أولًا: في أرض المحشر:

عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ، قال: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذرِّ في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكانٍ، فيساقون إلىٰ سجنٍ في جهنم يسمىٰ: بولس، تعلوهم نار الأنيار، يُسْقون من عصارة أهل النار طينة الخبال**»[٢].

وهذا مصداق لسُنَّة كونية أخبرنا الله ﷻ بها في كتابه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

وذكرها الإمام ابن القيِّم عليه الرحمة والرضوان، قال ابن القيم: «دل الشرع والقدر علىٰ أن الجزاء من جنس العمل.

---

(١) تلاحظ في كثيرٍ من النصوص الشرعية في الكتاب والسنة يذكر الله ﷻ أو النبي ﷺ بعض الآثار المترتبة علىٰ الذنب، وفي بعض الأحيان يذكر الذنب ولا يذكر الأثر المترتب عليه، والله ﷻ لا يُسأل عما يفعل -وإن كان ﷻ لا يفعل إلا لحكمةٍ قد تخفىٰ علىٰ الكثير- وفي الأمرين كليهما علىٰ الإنسان أن يستعين بالله ﷻ ويبتعد عن الذنب، ولكن عندما يذكر الأثر، يزداد فحش الذنب ويزداد قبحه حتىٰ إذا نظر الإنسان إلىٰ الأثر تنزجر وترتدع نفسه، ومثال ذلك لما تكلم العلماء عن أسباب عذاب القبر، قالوا: أسباب عذاب القبر قسمان: سبب عام، وهو مخالفة الشرع، وسبب خاص مثل عدم التنزُّه من البول والنميمة بين الناس، فيبتعد المسلم عن الذنب باعتبارين: لأنه ذنب، ولأنه يوجب عذاب القبر، وكذلك تساعد الآثار المترتبة علىٰ التلبُّس بالكبر التي ذكرها النبي ﷺ علىٰ ترك الكبر.

(٢) رواه الترمذي (٢٤٩٢)، وأحمد (٦٦٧٧)، وحسَّنه الألبانيُّ في «المشكاة» (٥١١٢/ التحقيق الثاني).

فهذا كان يتكبَّر على الناس، ويتعالى عليهم، ويتغطرس، وينظر إليهم بعين الازدراء والاحتقار، فكان من المناسب أن يحشر بهذه الصورة المُزْرية التي تتناسب مع عمله الذي عمل في الدنيا»[(١)].

ثانيًا: في الحياة الدنيا:

تعجيل العقوبة: والدليل على ذلك حديث سلمة بن الأكوع أن رجلًا من الأعراب -ذكر الإمام ابن منده أن هذا الرجل اسمه: ابن راعي العير الأشجعي- أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال له النبي ﷺ: «**كُلْ بيمينك**». قال الأعرابي: لا أستطيع، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «**لا استطعت، ما منعه إلا الكبر**». يقول سلمة: فما رفعها إلى فيه، أي: شلت يمين الرجل[(٢)].

فهذه عقوبة قدرية عاجلة لمخالفة أمر الله، والعقوبة القدرية لا نعرف موعد نزولها، فقد يعجل الله عَزَّوَجَلَّ بإنزالها على العبد، وقد يمهله، وقد لا تنزل أصلًا، فهذا تقدير الله عَزَّوَجَلَّ الذي لا يخرج عن الحكمة، ولو أن كل مَن تكبر أو عصى نزلت عليه العقوبة القدرية، للجأ الناس كلهم إلى الشريعة خوفًا من العقوبة العاجلة، وهذا ينافي حكمة الله عَزَّوَجَلَّ في خلقه.

---

(١) وكذلك دلَّ الشرع على أن العاصي الذي يموت على معصيةٍ وهو مصرٌّ عليها يُحْشر في أرض المحشر على هيئةٍ تتناسب مع معصيته، ففي أعمالٍ معينةٍ أخبرنا الله بذلك، وليس في كل الأعمال، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقال النبي ﷺ كما عند مسلم عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**المُؤذِّنون أطول الناس أعناقًا يوم القيامة**»، فهذا كله نثبته، ونستخلص من ذلك أيضًا أن مَن مات وهو مصرٌّ على الذنب، يحشر على هيئة معينة تتناسب مع الذنب، وذلك إن لم يتب، وكذلك إن ختم الله له بالطاعة، يحشر يوم القيامة على هيئةٍ تتناسب مع هذه الطاعة، هذا في أرض المحشر، أما الآخرة -أي: الجنة والنار- فأمرٌ آخر.

(٢) رواه مسلم (٢٠٢١).

واعلم أنه لما قال: «لا أستطيع»، أطلع الله نبيَّه علىٰ ما في قلب الرجل؛ لأنه من الوارد ألَّا يستطيع الرجل هذا فعلًا، ولا تكليف إلا بمقدورٍ، وإذا عجز المكلف عن واجبٍ، سقط عنه كما هو مقررٌ عند أهل العلم، لكن في هذه الحالة أطلع الله نبيَّه علىٰ أن هذا الرجل يستطيع، ولكن منعه الكبر، وكأنه يقول: كيف أمتثل كلام أحدٍ[(١)]، وهذا يظهر عند طلبة العلم، وقد يكون الكبر هو الذي حمله علىٰ عدم الاستجابة للحكم الشرعي، ولكنه يغلف الكبر بغلاف الدين، وهذا الذي يفعله يخيل علىٰ الخَلْق، ولكنه لا يخيل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

مسألة: والكبر ينقسم إلىٰ قسمين باعتبار موطنه في الآدمي:

الأول: باطن. الثاني: ظاهر.

قال أبو حامد الغزالي في «الإحياء»: «اعلم أن الكبر ينقسم إلىٰ باطنٍ وظاهرٍ، فالباطن هو خلق في النفس، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح.

واسم الكبر بالخلق الباطن أحق، وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق، وخلق الكبر موجبٌ للأعمال، ولذلك إذا ظهر علىٰ الجوارح يقال: تكبَّر، وإذا لم يظهر يقال: في نفسه كبر»[(٢)].

---

(١) يقول العبد الصالح أبو عثمان النيسابوري رَحِمَهُ اللَّهُ وهو من فقهاء الشافعية: «والله، ما ترك أحد شيئًا من السنة إلا لكبرٍ في نفسه»، ولذلك كما أخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ أنه لما أمر إبليس بالسجود قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، فأبىٰ واستكبر، فكانت النتيجة: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨]، فانظر كيف كان في أعلىٰ الدرجات، ولكن لما تلبَّس بهذه الكبيرة كان مآله إلىٰ النار.

فائدة: أصلٌ من أصول الإيمان عند أهل السنة أنَّ: «فعل المأمور أعظم عند الله -أي: في الثواب- من تَرْك المحظور»؛ لأنَّ إبليس ترك المأمور به، فكفر بالله وهلك، وآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فعل المحظور -أي: فعل المنهي عنه- ثم تاب، فتاب الله عليه.

(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٤٣).

الفصل الرابع

كيف يتطرق الكبر إلى قلب العبد؟

هذه الجزئية مهمَّة جدًّا، فالإنسان خلقه الله ﷻ خاليًا من كل سقمٍ[(١)]، فكيف يصل إليك هذا المرض ويتمكن منك؟ فأنت إذا علمت كيف يأتي إلىٰ نفسك المرض، سَهل عليك التخلص منه؛ لتمنع وتتقي زيادته وكثرته في قلبك.

ولا يدخل الكبر إلىٰ قلب المكلف إلا من خلال ثلاث مراحل متتابعة، تحدث الواحدة منهم تلو الأخرىٰ، وهذه المراحل هي:

المرحلة الأولىٰ: أن يتخيَّل العبد لنفسه منزلةً ورتبةً:

يتخيل المنزلة والرتبة لنفسه بالعلم والفقه، أو بالجاه والمعارف، أو النسب، وغير ذلك مما يكون به الكبر.

المرحلة الثانية: أن يجعل العبد لغيره منزلةً ورتبةً:

ومن هنا يبدأ الخلل، فلو افترضنا أنك وضعت بالفعل لنفسك منزلةً ورتبةً بما تعرفه عن نفسك من عملٍ للطاعات، وغير ذلك مما خيل لك أنه حسن، أو قلة اقتراف السيئات، فهل تعرف كل شيءٍ عن الغير، فإنك مهما كانت ملازمتك لرجلٍ أو صديقٍ إياك أن تجزم أنك تعرف عنه كل شيءٍ، حتىٰ زوجتك لن تستطيع أن تعرف عنها كل شيءٍ، فإن قلت: إنك تعلم، فأنت واهمٌ.

---

(١) والمقصود هنا هو الأسقام المعنوية، وليست الحسية، فقد يخلق أعمىٰ أو أعرج أو غير ذلك، ولكن الأمراض المعنوية كالكبر والغل والحسد والعجب وغير ذلك يخلق الإنسان وهو خالٍ منها، لا يعلم عنها شيئًا.

وعلىٰ الجملة، فلا تحدث هذه المرحلة إلا إذا استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفةً من صفات الكمال، وجماع ذلك يرجع إلىٰ كمالٍ ديني أو دنيوي، فالديني هو العلم والعمل، والدنيوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار.

المرحلة الثالثة: أن تجعل منزلتك ورتبتك أعلىٰ من منزلته ورتبته:

وهذه هي المرحلة الأخيرة، فهنا يتولَّد الكبر، مثل رجلٍ يعيش في بلدٍ، ويقصده الناس في قضاء حوائجهم، فيقضيها لهم، فيظن الرجل أنَّ له منزلةً ومرتبةً بين الناس، ثم بمجيء الناس له يظن أنَّ مرتبته أعلىٰ من مرتبتهم، فهنا يتولد الكبر.

خطأ مَن ظن أن منزلته أعلىٰ من الآخرين:

لو تفكَّرت في المرحلتين الثانية والثالثة، تجد أن صاحبهما مخطئٌ بلا نزاعٍ؛ لأن أحدنا لا يعرف عن الغير الكثير، فمقدار معرفتك بالغير لا تُخوِّل لك أن تقدر منزلته، وذلك أن كثيرًا من أركان الإيمان موطنها وأساسها في القلب، فالأركان والأعمال الظاهرية لا بد أن تفعل علىٰ سبيل الحتم والإلزام، وعلىٰ الملأ، ويعلمها الناس، أما مسألة التصديق واليقين والثقة بما عند الله عَزَّوَجَلَّ، موطنها القلب، فلا يستطيع أحد أن يعلمها فيحكم من خلالها، وهذا من باب حسن الظن بالناس، وليس تقليلًا من المعصية، فلذلك لا تستطيع أن تقدر منزلة أحدٍ بحقٍّ لتعلم أن منزلتك أعلىٰ من منزلته.

وما أحسن ما قاله بكر بن عبد الله المزني عليه رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا رأيت شيخًا كبيرًا، أقول: هذا -والله- خيرٌ مني أو أفضل مني؛ لأنه عبد الله أكثر مني[(١)]، وإذا رأيت شابًّا

(١) وذلك بافتراض الاستقامة في أي مسلمٍ، فالأصل أنه استقام منذ أن كلف، وأنا استقمت منذ أن كلفت، =

صغيرًا أقول: هذا أيضًا -والله- خير مني؛ لأنني عصيت الله أكثر منه»، فكلما حدَّثتك نفسك بشيءٍ من التعالي أو العجب، أو أنك أفضل من غيرك، تذكر هذه الجزئية، فهذه الهواجس والخواطر تأتي إلىٰ النفس، وتتطلب أن يكون المرء كَيِّسًا فطنًا يقظًا، يحاول بسرعةٍ أن يبعدها، وسَلْ نفسك: وما أدراك أنك خيرٌ منه؟ فإن كانت معاصيه ظاهرةً أنت تراها، وأنت معاصيك سترها الله عليك، فلعلَّ ما لا يراه منك من المعاصي أشد بكثيرٍ مما تراه أنت منه من معاصٍ، ولعل عنده من اليقين والثقة في وَعْد الله في قلبه خيرًا مما عندك، فتذكَّر ذلك حتىٰ ينكسر الشموخ والعجب الذي في القلب حتىٰ تستقيم وتنصلح حياتك؛ لأنَّ عواقب الكبر -كما تقدم- خطيرة شديدة، وليس معنىٰ ذلك التهوين من المعاصي، كلَّا، فالمعاصي مما يبغض الله تعالىٰ، والمسلم يبغض ما يبغضه الله تعالىٰ.



= فهو عبد الله أكثر مني ولو كان بساعةٍ.

الفصل الخامس

أركان الكبر

مرض الكبر لا يتحقَّق إلا بثلاثة أركانٍ، إذا سقط ركنٌ منها، انعدم المرض في القلب، وهي: (المتكبر - المتكبر عليه - المتكبر به).

أولًا: المتكبر: وهو الآدمي المكلف الذي نحذر أن نكون هو.

ثانيًا: المتكبر عليه: وينقسم إلىٰ ثلاثة أقسامٍ: (تكبر علىٰ الله - علىٰ الأنبياء والمرسلين - علىٰ خَلْق الله).

ثالثًا: المتكبر به: وهو سبعة أشياء: (العلم - العمل - الحسَب والنسب - الجمال - القوة - كثرة الأنصار والأتباع - المال).

أقسام المتكبر عليه:

الأول: أن يتكبَّر العبد علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ:

وهو كفرٌ ولا شك، ولا يشك أحدٌ قط أن مرتكبه أضل من البهائم، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: «**العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذَّبته**»(١)، أي: مَنْ نازع الله عَزَّوَجَلَّ في صفة الكبرياء، فهذا -عياذًا بالله- تكبر، وعياذًا بالله خرج من الملة، فالمتكبر من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ.

والتكبر علىٰ الله غير التكبر عن عبادته جلَّ وعلا، هذه جزئية، وهذه أخرىٰ، وعجيب أن يتكبَّر العبد علىٰ ربِّه، فهو أمرٌ لا تدركه العقول، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ قدَّر أن يحدث مثل هذا من خلق الله عَزَّوَجَلَّ، ومن ذلك:

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠).

النمروذ بن كنعان: فإن الروايات تقول: إنه فكَّر أن يحارب ربه ﷻ، وهذا ولا شك كِبْرٌ على الله ﷻ.

وأيضًا ما حدث من الخبيث الهالك فرعون: لمَّا حدث منه ما حدث، وتغطرس وتعالىٰ علىٰ خَلْق الله ﷻ، أرسل الله له نبيه ورسوله وكليمه موسىٰ بن عمران، فقال له موسىٰ عليه وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام: يا فرعون، آمن ولك ملكك[(١)]، فقال له فرعون: حتىٰ أشاور، فذهب إلىٰ مَن هو مثله، إلىٰ هامان، وشاوره، وذكر له ما قال موسىٰ، وأنه لا يريد منهم ملكًا، ولا مالًا، وإنما يريد أن يؤمنوا بالله تعالىٰ، ويستقيموا علىٰ شرعه، فقال له هامان: أبعد أن كنت إلهًا تُعْبد تصبح عبدًا يعبد[(٢)]، فاستمرَّ فرعون علىٰ غطرسته وتكبره.

الثاني: أن يتكبَّر العبد علىٰ أنبياء الله ﷻ ورسله:

وهذا النوع لا يقلُّ عن النوع الأوَّل، أي: التكبُّر علىٰ الله ﷻ، فصاحبه يخرج عن الملة أيضًا[(٣)]، وهو موجود، وقصَّ علينا ربُّنا ﷻ من نبإ هؤلاء الكثير[(٤)]، فذكر ربنا

---

(١) وهذه دعوة الرسل دائمًا، لا ينظرون إلىٰ حطام الدنيا في شيءٍ، كل ما في الأمر أنهم يريدون من الناس أن يسلموا قِيَادهم لله ﷻ، أما ما عندهم من الأموال فلا يريدون منها شيئًا إلا بحق الله ﷻ، وتأكيدًا لذلك إذا ترك أي نبيٍّ مالًا فلا يورث، بل هو صدقة للمسلمين. في «الصحيحين» وغيرهما عن جمعٍ غفيرٍ من الصحابة، قال رسول الله ﷺ: «**لا نورث، ما تركنا صدقة**».

(٢) لذَلكَ نقول: إنَّ أخطر ما يُبْتلىٰ به القادة: البطانة السيئة، فإيَّاك أن تكون منهم، وقَلِّل علاقتك بهم؛ لأن دخول أماكنهم ورؤيتهم تؤثر في القلب، وقَلَّ من يثبت حينئذٍ.

(٣) وحُكْمنا عليه بالكبر يتضح من تعريف الكبر، ومن قول الله تعالىٰ في كتابه: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، ومعنىٰ الاصطفاء هو اختيار الأحسن، فحينما يصطفي الله ﷻ رسلًا من البشر، فهؤلاء هم القمة في الكمال البشري، فإذا ظن الإنسان أنه أفضل منهم في أي نوعٍ من أنواع الفضائل، فقد كذب الله ﷻ في كلامه، ومن كذب الله ﷻ، فلا شك في كفره.

(٤) ما يُسمِّيهم، ولكن يذكر أقوالهم، وهذا من قمة بلاغة القرآن إذ يذكر الوصف ولا يذكر المسمىٰ، حتىٰ

عَزَّوَجَلَّ من شأن هؤلاء ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون: ٤٥ - ٤٧]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن غيرهم إنهم قالوا لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، كأنهم يقولون: كيف تصبحون رسلًا ونحن لا! وقالوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]، يقصدون الوليد بن المغيرة أو أبا مسعود الثقفي، وهذا كله من الكبر، كيف لا ينزل إلا علىٰ يتيم بني هاشم، أو يتيم بني عبد المطلب؟!

ومن ذلك ما ذكره ابن كثيرٍ في «البداية والنهاية» -والخبر سنده صحيح- أن الأخنس بن شريق، وأبا جهل بن هشام، وأبا سفيان بن حرب، في بداية الجهر بالدعوة كانوا يسترون خلف ستار الكعبة يستمعون إلىٰ القرآن من النبي ﷺ، يرقبون وقت صلاته، فيخرج كلُّ واحدٍ منهم متخفيًا عن الآخر يستتر خلف ستار الكعبة، ويستمع إلىٰ القرآن[1]، وكل مرةٍ ينتهون من الاستماع، ويخرجون يلتقون في

= ينطبق الوصف علىٰ كل أحدٍ يتصف به، ويأخذ نفس الحكم.

(١) فالأخنس بن شريك وأبو جهل وهؤلاء القوم كانوا يسمعون ويستمعون القرآن، فيجدون له حلاوةً؛ لأنهم كانوا أهل فصاحة ولغة، فكان القرآن يشبع ما عندهم من حب اللغة، واعلم أن عدم تأثرنا بالقرآن كما تأثر به المتقدمون دليلٌ أكيدٌ وبرهانٌ واضحٌ علىٰ شدة جهلنا باللغة العربية، فانظر -مثلًا- إلىٰ القصة التي رواها البخاري من حديث جبير بن مطعم بن عدي عن أبيه مطعم أنه قال: ذهبت إلىٰ المدينة لأكلمهم في ابني الأسير، فوافيت النبي ﷺ وهو يصلي المغرب، فإذا به يقرأ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الطور: ٣٥-٣٧]، يقول مطعم: فكاد قلبي أن ينخلع. وكان وقتها كافرًا، ولكن تأثر لأنه كان يفهم اللغة والحوار، فالجهل بالعربية مشكلتنا كلنا إلا النزر اليسير، ويسعىٰ إليها الغرب باستمرارٍ، يسعون جاهدين أن يصرفونا عن اللغة حتىٰ إذا ما قرأت القرآن، أو السنة، أو كتب السلف لا تفهم شيئًا، فلن تعمل به، لذا اهتم بتعلم لغة العرب، فهي المحور الأساسي الذي يعمل عليه =

الخارج، وينكشف أمرهم، فيتعاهدون ويعطون المواثيق ألَّا يعودوا لمثلها، وتكرر الأمر مرةً وأخرىٰ وأخرىٰ، حتىٰ إذا كانت آخر مرة، قام الأخنس بن شريق إلىٰ أبي جهل فقال: يا أبا الحكم، لا يوجد في هذا المكان إلا أنا وأنت، فاصدقني القول، أيكذب محمد؟ قال: لا ورب هذه البنية، لا يكذب، فقال له الأخنس بن شريق: فما منعك أن تتبعه؟ فقال له: كنا وبنو عبد المطلب نتسابق فيما بيننا في فعل الخيرات - أي: نتنافس علىٰ خدمة الناس بغية كسب قلوبهم، والمنزلة عندهم- سقوا -يعني: سقوا الحجيج- فسقينا، وأطعموا فأطعمنا، وقاموا علىٰ خدمة البيت فقمنا علىٰ خدمة البيت، يقول: حتىٰ صرنا نحن وهم كفرسي رهانٍ، ثم قالوا: عندنا نبي، فمن أين نأتيهم بنبيٍّ، والله لا أؤمن به أبدًا[(١)].

فالقضية -إذًا- لم تكن قضية تكذيب، ولكن الأمر كان تكبرًا علىٰ هذا النبي ﷺ.

الثالث: أن يتكبَّر العبد علىٰ خَلْق الله وعباده:

وهذا محل البحث، ومحل الكلام؛ لأن النوعين الأولين نادران في زماننا هذا.

= الغرب، ينشرون الأمية، وينشرون العامية، فانتبه لذلك.

(١) «البداية والنهاية». ط: الفكر (٣/ ٦٤).



الفصل السادس

أنواع المتكبر به

حين يظنُّ المرء أنَّ مرتبته أعلىٰ من مرتبة الغير، يظن أن منزلته وصلت إلىٰ درجة الكمال، أو هي أقرب إلىٰ الكمال من منزلة غيره -وهذا في اعتقاده فقط، وإلا فلَنْ يصل إلىٰ الكمال الحق قط- والكمال علىٰ كثرته وتنوُّعه لا يخرج عن نوعين:

(١) كمال ديني.

(٢) وكمال دنيوي.

والكبر يتطرَّق إلىٰ أصحاب الكمالين سواء بسواء، فيجب أن تعلم: هل وصلت إلىٰ الكمال حقًّا أم لا؟ وإن كنت وصلت، فهل هذا الأمر في يدك مستحوذ عليه أم من الممكن أن يسلب منك؟

وذكر العلماء أن ما يتكبر العبد به (المتكبر به) ينحصر في سبعة أشياء، هي أسباب الكمال الديني والدنيوي، لو أن واحدةً منهم في حوذتك حقًّا، متمكن منها، فتكبر كما تشاء وهذا من باب التنزُّل مع المخاطب، وإلا فالكبر محرم في كل الحالات، وهذا مستحيل كما سيأتي، فليس في يدك شيء من هذه الأشياء قط، وإن كان الظاهر أنها في يدك، فإنما هي حالة عارضة تطرقت إليك، وساقها الله إليك ليختبرك؛ تحقيقًا لحكمته ﷻ، وإن قال قائل: أنا أتكبَّر طالما هي معي، نقول له: لا تضمن إلىٰ متىٰ ستبقىٰ معك، أضف إلىٰ ذلك أنك تأثم بهذا التكبر[(١)].

---

(١) وهذا هو الفرق بيننا وبين الكافر، فهذه الأمراض قد تكون عند الكافر، ولكن ليست بشيءٍ بعد كفره، وإن كان ذلك غير مقبولٍ منه أيضًا.

والكمال الديني: يكمن في أمرين: (العلم - العمل).

والكمال الدنيوي: يكمن في: (المال - الحسب والنسب - القوة - الجمال - كثرة الأنصار والأتباع)، ويندر أن تجتمع هذه الأشياء كلها في مكلف واحد.

والمطلوب هو أن نفصل في كل واحدةٍ من هذه الأشياء السبعة حتىٰ نعلم بإنصافٍ: هل يحق لك فعلًا أن تتكبَّر بهذه الأشياء؟ وكيف يأتيك الكبر من خلالها؟ وكيف تعالج الكبر بها؟



الفصل السابع

التكبر بالكمال الديني، وعلامته، وعلاج ذلك

أولًا: التكبر بالعلم:

يقول كعب الأحبار: «إن للعلم سلطانًا أكبر -أو أكثر- من سلطان المال».

فبتتبع التاريخ والواقع نجد أن سلطان العلم أكبر من سلطان المال والجاه، ومن كل سلطانٍ، وأخطر شيء في التكبر بالعلم أن الرجل قد يتكبَّر به وهو لا يشعر، وهذا هو أخطر شيءٍ كما تقدم، ولذلك ما يتأتَّىٰ لك التواضع إلا بالتجرد من حظوظ النفس تمامًا، ونسيان شأن النفس، فإنه لو تجرد، سيعلم ما فيه من خلل، ثم يبدأ في العلاج.

والكبر يتطرق إلىٰ صاحب العلم سريعًا، فيرىٰ نفسه أفضل من غيره، ثم يبدأ يخاف من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ من أجل ذنوب الناس أكثر مما يخاف من ذنوبه، بل ويأمن من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ إياه بسبب نفسه -وفي هذه المرحلة يكون قد وصل إلىٰ الكبر فعلًا- ثم بعد ذلك يتعالىٰ علىٰ خَلْق الله بعلمه؛ لأنه بمجرد تحصيله لبعض العلوم، يبدأ يتحرك في نفسه أنه أفضل من غيره، وأعظم منهم.

أسباب تكبر العبد بعلمه:

حقيقة الأمر أنه يستحيل أن يطلب المسلم العلم الشرعي الصحيح ثم يتكبر، بل يأتيه الكبر من وجهين أثناء الطلب، هما:

الوجه الأول: أنَّ العلم الذي طلبه ليس في الحقيقة علمًا شرعيًّا:

فالعلم الشرعي الصحيح هو الذي يعرف العبد بربه، ويعرفه حقيقة نفسه وحقيقة ربه، فإذا عرف البون الشاسع بينهما (أي: بين العلم الذي حصله ومعرفته لربه ﷻ)،

حقَّق العبودية الصحيحة لله عَزَّوَجَلَّ، ومن أجل هذا قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، أي: إذا تعلم العبد العلم، وترتب علىٰ هذا العلم خشية لله عَزَّوَجَلَّ، وتقوىٰ له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذل وخضوع، فهذا هو العلم الصحيح.

قال الرازي: «الخشية بقدر معرفة المخشي، والعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه، وهذا دليل علىٰ أن العالم أعلىٰ درجةً من العابد؛ لأن الله تعالىٰ قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾»(١).

قال ابن كثيرٍ: «عن ابن عباس قال: العالم بالرحمن مَنْ لم يشرك به شيئًا، وأحل حلاله، وحرم حرامه، وحفظ وصيته، وأيقن أنه ملاقيه، ومحاسب بعمله»(٢).

لذلك، لما تكلم العلماء في ماهية العلم، قالوا: إنه -باختصارٍ شديدٍ- حفظ لبعض المعلومات في القلب، وكلما كثر حفظ الإنسان للمعلومات، وصف بالعلم، كما أن وصف العالم لا ينطبق علىٰ مَنْ حفظ العلم إلا إذا عمل بعلمه»(٣).

إذًا، فالمعلومات التي حفظها إذا رسخت في قلبه، ثم ازداد بها كبرًا، فلا يزال جاهلًا؛ لأنه لم يعمل بها، فالعلم لا بد له من مرحلتين: الحفظ والعمل، ومن تعلم فقط ولم يعمل، لا بد له أن يتكبر.

---

(١) «تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير» (٢٦/ ٢٣٦).

(٢) «تفسير ابن كثير». ت: سلامة (٦/ ٥٤٤).

(٣) لذلك، فرَّق العلماء بين العلوم الشرعية والعلوم الكونية -مثل: الكيمياء والرياضيات والهندسة- قالوا: إنَّ تعلُّم العلم الشرعي واجب بقدر احتياج المرء إليه، أما العلوم الكونية، فلا يسمُّونها علومًا، وإنما يسمُّونها صنعات، فيقولون: صنعة الطب، وصنعة الهندسة، وصنعة الرياضيات، وهكذا؛ لأن هذه الأشياء قَلَّ أن تؤثر في القلب، بل يستحيل أن تؤثر في القلب إلا النزر اليسير، وذلك حين تكون مغلفةً بالعلم الشرعي، فيطوعها المرء به، ويظهر الآيات الباهرة والمعجزات العظيمة في بدن الآدمي، أو في كون الله عَزَّوَجَلَّ مثلًا، ثم يسندها إلىٰ ربه عَزَّوَجَلَّ.

مَنْ علم ولم يعمل، فإنه والجاهل سواء:

والدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ علىٰ لسان نبيه يوسف: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: ٣٣]، وكما هو معلومٌ أن نقيض العلم الجهل، فوصف نفسه بالجهل إذا مال إليهنَّ ولم يعمل بعلمه، فحفظ المعلومات فقط لا ينطبق من خلاله وَصْف العلم علىٰ المرء، ولكن لا بدَّ من العمل بالعلم أيضًا، فإن عمل بعلمه، أصبح عالمًا حقًّا.

وتدبَّر هذا المثال لتفهم المراد: رجل أُتِيَ بكأسين، في أحدهما سم زعاف، وفي الآخر ماء زمزم، فمد يده فشرب من السم -وهو يعلم أنه سُمٌّ- فمات، فلا شك أنه في هذه الحالة لم ينفعه علمه بكون السُّمِّ في الكأس؛ لأنه ما عمل به، ولم يؤثر في سلوكه، فهو والجاهل سواء.

وجلَّىٰ النبي ﷺ هذا الأمر غاية التجلية كما ثبت في «الصحيحين» من حديث أسامة بن زيد: أن النبي ﷺ قال: «**يؤتىٰ بالرجل يوم القيامة، فيلقىٰ في النار، فتندلق أقتاب بطنه** -أي: تخرج أمعاؤه- **فيدور بها كما يدور الحمار بالرحىٰ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان، ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف، وتنهىٰ عن المنكر؟ فيقول: بلىٰ، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهىٰ عن المنكر وآتيه**»[(١)].

فتخيل -مثلًا- أنك خطبت خطبةً عن ذنبٍ ما وأنت مقيم عليه وترتكبه، كيف ستكون نظرتك لنفسك[(٢)]؟

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٩).

(٢) واعلم أن حرص الإنسان أن يكون بينه وبين نفسه كبيرًا يرفعه في أعلىٰ عليين، وأما إنْ حرص أن يكون في أعين الناس كبيرًا وهو صغير في عين نفسه، فوالله لن يفلح.

الوجه الثاني: أن يتعلَّم الإنسان وفي قلبه مرض:

وهذا السبب أهم من الأول، وهو أن يتعلم المرء العلوم الشرعية وعنده في قلبه من الخبث والدخن والسوء الكثير والكثير، فنفسه لا تكون نظيفةً ابتداءً، ولكن بها انحراف واستعداد له، فإذا حصل العلوم، زاد الانحراف[(١)].

لذلك، قال ابن المبارك: «نحن إلىٰ قليلٍ من الأدب -يعني: التربية- أحوج منه إلىٰ كثيرٍ من العلم»[(٢)]؛ لأن العلم إذا تطرق إلىٰ القلب وليس فيه أدبٌ، أصبحت آثاره عكسية، فيزداد العبد شموخًا وكبرًا، وهذا هو الفرق بيننا وبين السلف، فقد كان السلف يتعلمون فيزداد المتعلم تواضعًا وخضوعًا لله عَزَّوَجَلَّ، ثم لإخوانه، وكلما ازداد علمًا، ازداد تواضعًا، وكلما ازداد يقينًا، ازداد خضوعًا لإخوانه؛ لأنهم طهَّروا قلوبهم قبل أن يتعلموا، طهروها من كل ضغينةٍ وسوءٍ، فجاء العلم علىٰ أساس متين سليم نقي، فازدادوا بالعلم تواضعًا، أما المتكبر فيدخل العلم علىٰ أساس غير سليم، فيزداد تكبرًا.

وهذا الذي أشار إليه وهب بن منبه، والأثر ذكرناه قبل، قال: «العلم كالغيث، ينزل من السماء حلوًا صافيًا فتمتصه الأشجار بعروقها، وتحوله علىٰ قدر طعومها، فيزداد الحلو حلاوةً، والمر مرارةً، كذلك العلم، ينزل علىٰ قلوب الرجال، فيتحول العلم علىٰ قدر ما في القلب، فيزداد المريض مرضًا، والسليم سلامةً[(٣)]، فتجد

---

(١) كرجلٍ عنده شموخ ونَعْرة كاذبة، ولكن الآليات التي تساعده علىٰ هذا الكبر غير موجودةٍ، فبمجرد أن تأتيه يزداد الكبر ويظهر؛ لأن الأساس الذي استقبل هذه الآليات خبيث غير طاهر.

(٢) «المحدث الفاصل بين الراوي والواعي» (١/ ٥٥٩).

(٣) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٤٨).

أحدهم يتعلم فيصبح متواضعًا، وآخر يتعلم فيشمخ بأنفه كأنه الكبر ذاته، فالفرق هنا في المستقبل، فالمفترض قبل أن يتعلم المرء العلوم الشرعية أن ينظر إلىٰ قلبه نظرة إنصافٍ ليرىٰ: هل في قلبه أمراض؟ هل هو متكبر أو عنده عجب أو شيء من الحرص علىٰ مرضاة الناس، وعلىٰ مجاملات الناس؟ لأنَّ الإشكالية الكبرىٰ أن تطوع هذه الأشياء العلم لما يريد صاحبه وهو لا ينتبه لذلك.

ما يحتاجه العبد قبل طلب العلم:

مما سبق نجد أن العبد إذا طلب العلم لا بد له من شيئين مهمَّين:

أن يعرفه هذا العلم بربه عَزَّوَجَلَّ، وأن يعمل به، فإن لم يعمل به فسيزداد كبرًا، وسيكون العلم حجةً عليه.

لا بد أن تكون النفس البشرية -والقلب كذلك- نقية نقاءً تامًّا حتىٰ يؤثر فيه العلم كما ينبغي.

وهذا الذي ذكره سفيان، قال: «كان الرجل إذا أراد أن يطلب الحديث، تأدب قبله عشرين سنةً، يهذب نفسه، ويضبط سلوكه حتىٰ يكون عنده شيء من الخضوع والخنوع، ثم يجلس بعدها أمام ابن المبارك أو الأعمش أو شعبة -مثلًا- ليتعلم، فيدخل العلم علىٰ قلبٍ نقيٍّ، فيزداد تواضعًا وخضوعًا، أما إن دخل العلم علىٰ نفسٍ شامخةٍ وقلبٍ به كبر، فسيزداد كبرًا»[(١)].

---

(١) وهذا الذي نلاحظه الآن وكلنا نصطلي بناره، فيكون أحدهم ما قلمت أظفاره في شريعة الله، ثم يجعل من نفسه مجتهدًا وحكمًا علىٰ كل مَن في الأرض ينظر في الأدلة، ويضعف ويصحح، وهذا كله نشأ من أن النفس عندما طلبت العلم لم تكن علىٰ القدر اللازم من الطهارة والنقاء والصفاء، فاعلم هذا جيدًا لكي تتعلم الشريعة علىٰ الطريق الصحيح.

علامات تكبُّر العبد بعلمه:

وضع أهل العلم حين تكلموا عن الكبر بالعلم ضوابط في منتهىٰ الدقة لا يمكن التهرُّب منها، هذه الضوابط إذا تحقَّقت في العبد، كان متكبراً وإن قال ما قال[(١)]:

العلامة الأولىٰ: عدم قبول الحق إذا عُرِضَ عليه:

فالإنسان الذي يدعي أنه لا يتكبر، ثم إذا عرض عليه الحق لا يقبله، فلا شك أن دعواه باطلة، وأنه من المتكبرين، فإن الإنسان إذا تجرد من حظوظ النفس، ومن الهوىٰ، ثم عرض عليه الحق من أيِّ مخلوقٍ، فإنه يقبله، فإن قبله فليعلم حينئذٍ أنه متجرد عن حظوظ النفس.

فائدة مهمةٌ: من الممكن أن يغلف الشيطان لك عدم قبولك للحق في ثوب الحقِّ وأنت لا تنتبه، وتكون لآذانك في الكبر وأنت لا تعلم، وهذه مسألة دقيقة لا ينتبه إليها إلا المخلص الصادق مع الله عَزَّوَجَلَّ، المتجرد عن حظوظ النفس، فمثلًا: تعرض عليك المسألة بالأدلة الشرعية، وبكلام أهل العلم، فيجيئك شيطانك فيقول لك: لا، الحق في غير هذا، ففلان قال كذا، واستدل بكذا، وهو الصواب، وأنت تعلم أن الذي استندت إليه عارٍ عن الصحة، وعارٍ عن الدليل، ولكن المسألة حينئذٍ مسألة كبرٍ[(٢)]، فعليك أن تقبل الحق إذا عرضه عليك أي أحدٍ، حتىٰ لو كان علىٰ غير الإسلام، وقد

---

(١) لما ننظر وندقق فيما جاءت به الشريعة، نجد أن أي عملٍ من أعمال القلوب جعل له المشرع علامةً تظهر علىٰ الجوارح حتىٰ لا يكذب كل أحدٍ، ويدَّعي ما يشاء، فمن يقول: إن قلبه كذا وكذا، فبالطبع هذا أمر لا يعلم حقيقته إلا الله عَزَّوَجَلَّ، ولكننا نأخذ بالشواهد الظاهرة علىٰ الجوارح.

(٢) وهذا انتشر بين الكثيرين منَّا اليوم، فجعل كل واحدٍ منا نفسه رأسًا، لا يسمع لأحدٍ، ثم الذين يدفعون الثمن هم أهل السنة، وليست الشيعة، ولا الصوفية، ولا سائر أهل البدع، فلا يصح من أهل السنة أن يصدر عنهم هذا الخبث.

قال النبي ﷺ كما عند البخاري من حديث أنسٍ: «**اسمع وأطع ولو لحبشيٍّ كأن رأسه زبيبة**»[(١)].

فلا يعنيك مَنْ جاءك بالحق، عليك أن تقبل الحق، ولا ترغ روغان الثعالب، ولا تلو أعناق الأدلة، وتطرح الشبهات؛ لتنتصر لرأيك أو لرأي شيخك[(٢)]، فإن هذا هو الكبر بعينه، وروغانك هذا وَإِنْ خال علىٰ إخوانك، فلن يخيل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فاصدق مع نفسك، فأنت أعلم بما في قلبك، وَإِيَّاك أن تَغْتَرَّ بوساوس الشيطان، فالاعتراف بالحقِّ لا ينقص من قدرك، بل يرفع من قدرك عند الله عَزَّوَجَلَّ، وعند الناس أيضًا.

فعن قتيلة بنت صيفي الجهنية، تقول: أتىٰ حبر من الأحبار -أي: من أحبار اليهود- رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، نِعْم القوم أنتم لولا أنكم تشركون، فقال النبي ﷺ: «**سبحان الله! وما ذاك؟**»، قال: تقولون إذا حلفتم: والكعبة، تقول قتيلة: فأمهل -أي: فسكت- رسول الله ﷺ شيئًا، ثم قال: «**فمَنْ حلف، فليحلف بربِّ الكعبة**»، ثم قال اليهودي: يا محمد، نِعْم القوم أنتم لولا أنكم تجعلون لله ندًّا، فقال: «**سبحان الله! وما ذاك؟**»، قال: إذا قال أحدكم: تقولون: ما شاء الله وشئت، فأمهل رسول الله ﷺ شيئًا، ثم قال: «**فمَنْ قال: ما شاء الله، فليفصل بينهما: ثم شئت**»، أي: فليقل: ثم شئت، أو ثم شاء فلان[(٣)(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٦٩٦).

(٢) وقد ظهر ظهورًا شديدًا في الوقت الحاضر في بعض إخواننا الذين أعمىٰ حبهم مشايخهم قلوبهم أن أحدهم لا يرىٰ إلا شيخه، وإذا عرض عليه الحق من غيره لا يقبله، فحبه للشيخ أعماه وأصمه، لذلك لا تسلم قِيَادك لأحدٍ من البشر، ولكن أسلم قِيَادك لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وسُنَّة النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم.

(٣) يأتي بحرف «ثم» بدلًا عن حرف الواو؛ لأن «ثم» تفيد التراخي، أما الواو فتفيد المباشرة، وتفيد المشابهة بين الأول والآخر، وهذا لا يليق في حق الله عَزَّوَجَلَّ.

(٤) والحاكم (٤/ ٢٩٧)، رواه أحمد (٢٧٠٩٣)، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح. وقال =

فالشاهد في الحديث: أن الحق عرض من يهوديٍّ علىٰ النبي ﷺ، وهو خير خَلْق الله، وقَبِلَه، فحينما يعرض عليك الحق ولا تقبله، فاعلم أن هذا علامة من علامات الكِبْر البيِّن.

العلامة الثانية: عدم الرجوع عن الخطأ إذا دلَّ عليه:

وذلك بأن يخبر المرء عن قولٍ قاله أنه خطأ، ولم يسبق إليه، وليس له فيه سلف، وينصح أن يرجع عنه ثم لا يرجع[(١)]، وهذا هو المحكُّ، وإن وقعت فيه فمن الصعب أن تقوم مرة أخرىٰ، فمثلًا: إن كنت تتكلم في معلومة أو خطبة، فسبق لسانك وزللت، فنبهك بعض الإخوة، وقد علمت أن معه الحق، ولكن هاج ما في قلبك، وعزَّ عليك أن تقبل الحقَّ، فقد سقطت حينئذٍ، وَقَلَّ أن يعود عليك هذا الاختبار مرةً أخرىٰ.

وفي حياة سلفنا الصالح أمثلةٌ كثيرةٌ ممتعةٌ يذكر فيها رجوعهم عن الخطأ لما بُيِّن لهم، من ذلك:

يقول عبد الله بن وهب: حضرت مجلسًا للإمام مالك بن أنس، فجاءه رجل وسأله عن تخليل الأصابع في الوضوء، ما حكمه؟ فردَّ الإمام مالك علىٰ السائل فقال: ليس ذلك علىٰ الناس.

يقول عبد الله بن وهب: فانتظرت حتىٰ خف المجلس -وهذا من الأدب العالي الذي لا بد أن نراعيه- ثمَّ اقتربت من الإمام، فقلت له: كيف تفتي الناس بما سمعت من عدم التخليل، وفيه عندنا سُنَّة؟ قال الإمام مالك: وما ذاك؟

= الألبانيُّ: صحيح. «الصحيحة» (٣/ ١٥٤/ ١١٦٦).

(١) أما النقطة السابقة، فهي أن يعرض علىٰ المرء الحق، فيخبر أن كذا وكذا من الدين، وتسرد عليه الأدلة، ثم لا يقبل هذا الحق.

قال عبد الله بن وهب: حدثنا الليث بن سعد، حدثنا يزيد بن عمرو المعافري، حدثنا أبو عبد الرحمن الحبلي -قال: حدثنا المستورد بن شداد أنه رأىٰ النبي ﷺ يدلك بخنصره بين أصابعه، فرد الإمام مالك علىٰ عبد الله بن وهب، فقال: هذا حديثٌ حسنٌ، ووالله ما سمعت به إلا الساعة.

يقول عبد الله بن وهب: فكان بعد ذلك إذا سئل، أفتىٰ بما سمع مني[(١)].

فانظر إلىٰ تصرُّف الإمام مالك الذي يدل علىٰ التواضع والخضوع للدليل الشرعي، فهو لم يدخل معه في نقاشٍ؛ لأن معنىٰ قوله: «عندي سُنَّة»، أي: عندي دليل يقول بالتخليل، أما الإمام مالك فقد أفتىٰ بالأصل الذي عند علماء الأصول، وهو أن الذمة بريئة من أيِّ تكليف حتىٰ يأتي الدليل، فأفتىٰ بأنَّ ذلك ليس علىٰ الناس، أي: لا يُخلِّلون، لا سُنَّة، ولا فريضة، فلما جاءه الدليل، وساق عبد الله بن وهب السند، استمع الإمام له وقدَّمه.

ذكر الإمام أبو بكر بن العربي في «أحكام القرآن» قصةً طريفةً عن محمد بن قاسم العثماني أنه قال: نزلت بلاد مصر لأستمع إلىٰ أبي الفضل الجوهري (ت ٢٦٢هـ)، فحضرت مجلسه، فإذا به يُحدِّث الناس ويقول لهم: طلَّق النبي ﷺ، وآلَىٰ النبي ﷺ، وظَاهَرَ النبي ﷺ.

يقول محمد بن قاسم العثماني: فانتظرت حتىٰ انتهىٰ الدرس، وخرج الشيخ من المسجد إلىٰ الدار ومعه رفقةٌ فاتبعتها[(٢)]، فدخلوا بيت الشيخ، فدخلت معهم، فنظر

---

(١) «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» (٢٤/ ٢٥٩).

(٢) فهو لا يستطيع السكوت عن هذا الخطأ، وهناك حالات لا تسكت فيها، وتتكلم مباشرةً، وفي حالاتٍ أخرىٰ تتمهل حتىٰ ينتهي الأمر، وتنفرد بالمتكلم، وفي أخرىٰ لا تتكلم أصلًا، فإن كان الأمر سبق لسان، فتمهل عليه ثم نبِّهه، وأمَّا إن كان الأمر كله تخريبًا في الاعتقاد، وهدمًا للدين، فلك أن تبعث إليه

إليه أبو الفضل الجوهري، ووجد عليه شارة الغربة -أي: علامة غربته، وأنه ليس من البلد- فقال له أبو الفضل الجوهري: أراك غريبًا، ألك حاجة؟ قال: نعم، لي حاجةٌ. قال: تكلم. قال: بيني وبينك. فقال أبو الفضل الجوهري: خَلُّوا بيني وبين الرجل، فقص عليه أنه جاء ليسمع منه ويراه، وأنه أتىٰ المجلس ليتبرك بدعائه وعلمه، وكذا وكذا، ثم قال: وسمعتك تقول: طلَّق النبي ﷺ، وصدقت، وآلَىٰ النبي ﷺ، وصدقت، وظَاهَرَ النبي ﷺ، كيف يكون ذلك، والله يقول عن الظهار: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٢]، فلا يقول ذلك النبي ﷺ؛ لأنَّ الظهار محرم، فإن قال الرجل لامرأته: أنتِ عليَّ كظهر أمي، فإنه يأثم بذلك، ثم عليه الكفارة كما قال أهل العلم، فالله عَزَّوَجَلَّ سمىٰ الظهار منكرًا من القول وزورًا؛ لأن فاعله شبَّه الحلال بالذي حرم عليه علىٰ التأبيد.

فلمَّا انتهىٰ محمد بن قاسم العثماني يقول: فقام الشيخ وضمَّني بين صدره، وقبَّل بين عيني، وقال: جزاك الله عني خيرًا، أستغفر الله إنِّي تائبٌ عما قلتُ، وراجعٌ إلىٰ الحق.

يقول محمد بن قاسم العثماني: فتركتُ الشيخ وانصرفتُ وأنا في غاية السعادة، ثم بكرت في اليوم الثاني[(١)]، فلما ذهبت، إذا بالمسجد مكتظٌّ عن آخره، وإذا بالشيخ جالسٌ في أصل المنبر، فلمَّا رآني داخلًا من الباب صاح بأعلىٰ صوته، وقال: أفسحوا لشيخي.

= ورقةً تنبهه فيها لخطئه، فإن لم يرجع فلا يصح السكوت حينئذٍ؛ لأن الأمر أمر اعتقاد، وليست أمور فقهٍ يسع الخلاف فيها الجميع.

(١) أي: ذهب مبكرًا؛ لأن المرة الأولىٰ لم يجد مكانًا، وكان الشيخ قديمًا يعطي من عشرة إلىٰ خمسة عشر درسًا في اليوم، فالحافظ ابن حجر -مثلًا- كان له أحد عشر درسًا في اليوم، والإمام الشوكاني كان له أربعة عشر درسًا في اليوم ما بين إلقاءٍ واستماعٍ.

يقول محمد بن قاسم: فما فجئت إلا وأنا أُحْمل علىٰ الأعناق حتىٰ وصلت إلىٰ المنبر، ولا أدري أين أنا، وتَصبَّب العرق من كلِّ جسمي حياءً من الشيخ، فلم يكن يتوقع ذلك، فأجلسه إلىٰ جواره، وقال: أنا شيخكم، وهذا شيخي، وقال: حدث بالأمس كذا وكذا، وأنا تائبٌ مما قلتُ، وراجعٌ إلىٰ الحق[(١)].

واعلم أن أهل العلم لما يذكرون هذه القصة، يذكرونها في مناقب أبي الفضل الجوهري[(٢)]، وليس في مناقب محمد بن قاسم العثماني، حتىٰ إن أبا بكر بن العربي علَّق علىٰ هذه القصة وقال: «فانظروا -رحمكم الله- إلىٰ هذا الدين المتين، والاعتراف بالعلم لأهله علىٰ رءوس الملإ من رجلٍ ظهرت رياسته، واشتهرت نفاسته لغريبٍ مجهولِ العينِ لا يعرف مَنْ، ولا من أين، فاقتدوا به ترشدوا[(٣)].

فمن الممكن أن يكون الذي ينبهك للحق رجلًا مغمورًا، فاعلم أن ذلك اختبار ساقه الله إليك علىٰ يد هذا الرجل، والويل لك إن رسبتَ.

ومن ذلك أيضًا في «تاريخ بغداد»، قال عبد الرحمن بن مهدي: كنا في جنازةٍ فيها عبيد الله بن الحسن العنبري، وهو يومئذٍ قاضي البصرة، وموضعه في قومه، وقدره عند الناس، فلما وضع السرير جلس، وجلس الناس حوله، قال: فسألتُهُ عن مسألةٍ، فغلط فيها، فقلت: أصلحك الله، القول في هذه المسألة كذا وكذا، إلا أنِّي لم أُرِدْ هذه، إنما أردتُ أن أرفعك إلىٰ ما هو أكبر منها، فأَطرق ساعةً، ثم رفع رأسه، فقال: إذًا،

---

(١) «أحكام القرآن» لابن العربي. ط: العلمية (١/ ٢٤٩).

(٢) ومن جميل كلام أبي الفضل الجوهري أنه كان يقول: إذا أمسكت الميزان من حلقته بيدك اليمني بالسبابة والإبهام، ورفعت الثلاثة، تقرأ: الله، فيجب عليك حينما تنظر إليها أن تتذكَّر أن الله ﷻ مطلعٌ عليك، ومثل هذه الدقائق يفتحها الله علىٰ العبد، ويرشده إليها حين يعلم منه الإخلاص لله ﷻ.

(٣) «أحكام القرآن» لابن العربي. ط: العلمية (١/ ٢٤٩).

أرجع وأنا صاغرٌ، إذًا أرجع وأنا صاغرٌ؛ لأن أكون ذَنَبًا في الحق، أحب إليَّ من أن أكون رأسًا في الباطل[(١)].

الاعتراف بالحق، والرجوع عن الباطل، يرفع من قَدْر المرء:

واعلم أن سُنَّة الله قد جرت في خَلْقه أن كل مَن رجع إلىٰ الحق، علا شأنه، وسما نجمه، وأن كل مَن أصرَّ علىٰ ما هو فيه من باطلٍ، انطفأ نجمه، ودحضت منزلته، فليس من العيب أن يزلَّ الإنسان فنحن بشرٌ، ولن نخرج عن بشريَّتنا مهما أُوتينا، ولكن إذا زللتَ، وجاءك الحق فاقبله، وكن رجَّاعًا إلىٰ الحق، وهذا يستحيل أن ينقص من قدرك، وإنما الذي ينقص من قدرك الاستمرار علىٰ الباطل، والجدال فيه، وهذا ليس من الدين في شيءٍ، وقد قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: والله، ما ألقيت الحجة علىٰ أحدٍ وقبلها إلا علا في نظري.

فالواحد منَّا إن لم يتابع نفسه ويعالجها باستمرارٍ، ويُعوِّدها علىٰ الرجوع إلىٰ الحق وعدم التمادي في الباطل، فستشمخ نفسه، وسيظل علىٰ باطله حتىٰ يلقىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وحينئذٍ لن ينفعه الندم ولا الرجوع، فينبغي أن يكون عند المرء شيءٌ من الليونة، والأخذ والرد بأدبٍ، وفي حدود كلام أهل العلم والأصول العلمية، أما أن يُنْكر أحدنا المسألة بغير سببٍ، فإنه ليس برسولٍ، ولا مُوحًىٰ إليه.

لذلك، لمَّا كانوا يحتجون علىٰ كلام أحمد بن حنبل بكلام ابن المبارك، يقول لهم الإمام: لم ينزل ابن المبارك من السماء[(٢)].

فلا بد أن تتسع صدورنا، ونسمع ولا نرفض الحقَّ، أما هذه العزة بالإثم فما

---

(١) «تاريخ بغداد وذيوله». ط: العلمية (١٠/ ٣٠٧).

(٢) «طبقات الحنابلة» (١/ ٣٢٩).

عهدناها إلا في هذا الزمن، وقد كثرت بشدةٍ في زماننا (١٤٤١ من الهجرة)، حتىٰ يكون المرء في الخطأ لآذانه، ثم إذا عرض عليه الحق تململ، وراغ روغان الثعالب.

كيفيَّة علاج الكِبْر الناشئ عن العلم:

قال أبو حامدٍ الغزالي في «إحيائه»: «اعلم أن الكِبْر من المهلكات، ولا يخلو أحدٌ من الخَلق عن شيءٍ منه، وإزالتُهُ فرضُ عينٍ، ولا يزول بمجرد التمني، بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له»[(١)].

وينقسم العلاج إلىٰ شقين: (علمي - عملي):

الجانب العلمي: وهو عبارة عن عدة محاور:

المحور الأول: أن يعلم المتكبِّر بعلمه أن حجة الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ العالم أكبر وأشد من حجته علىٰ الجاهل، وقد يتسامح في حق الجاهل ما لا يتسامح في عُشره في حِّق العالم:

قال الله عَزَّوَجَلَّ في التنزيل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩]، وهو سؤال استنكاري وجوابه: لا يستوون، لا في النعيم، ولا في العذاب، فلو أنَّ رجلين استويا في إخلاص العمل وفي العبادات، ولكن أحدهما عالِم والآخر جاهل، فإنَّهما لن يستويا في النعيم، وكذلك لو انحطَّ رجلان أحدهما عالِم والآخر جاهل، لن يستويا في الجحيم أيضًا.

المحور الثاني: أن يعلم أن الكِبْر لا يليق إلا بالله عَزَّوَجَلَّ:

فمثلًا -ولله المثل الأعلىٰ- إن لبست ثوبًا كبيرًا عليك، ثم خرجت علىٰ الناس بهذا الثوب، لا شكَّ أنك ستكون أضحوكةً وسخريةً أمام الناس، ويستحيل أن تفعل

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٥٨).

ذلك مرةً أخرىٰ، وقد قال الله ﷻ والحديث في مسلمٍ من رواية ابن مسعود: «**العزُّ إزاري، والكبرياء ردائي، فمَن نازعني فيهما عذَّبته**».

المحور الثالث: أن يخشىٰ علىٰ نفسه من سوء الخاتمة، فكما أن هدايته للإسلام ليست بيديه، كذلك حسن خاتمته ليست بيديه(١):

والأمثلة كثيرة لأناسٍ وصلوا إلىٰ السُّدة في العلم، ولكنهم -والعياذ بالله- من كلاب جهنم، فلا تركن إلىٰ علمك، وإياك أن تأمن بعلمك من سوء الخاتمة، فوالله ما أَمِنَ أحدٌ علىٰ إيمانه من السلب إلا سُلِبَ منه، والواقع خير شاهدٍ، وهذه النقطة بمفردها تكسر الشموخ في القلب، وبها تخضع وترجع إلىٰ الرب، وتسأله أن يحسن لك الخاتمة.

ومن الأمثلة الواقعية من القرآن(٢)، وممَّا قصَّه السلف:

قال الله ﷻ في التنزيل: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

وهل في خَلْق الله أخس من الكلب؟ فإنه لو وضع فمه في الإناء نغسله سبعًا، والثامنة بالتراب، ولو كان هناك أخس من الكلب لأتىٰ به، وهذا رجل تعلم العلم الكثير حتىٰ قال بعض أهل التفسير: إنه كان يعلم اسم الله الأعظم -ولكننا نأخذ بنصِّ

---

(١) وهذه النقطة خطيرةٌ ومهمةٌ، فاتق الله وانتبه.

(٢) وقد جاء الله بهذه القصص في صيغة الخبر، فلزامًا علينا أن نصدقه.

الآية- فقد قال الله عنه: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾، ومع ذلك لمَّا تغطرس وعرض عليه الحق فلم يقبله، ونبَّه إلىٰ ما هو عليه من خطأ فلم ينزجر، كانت النتيجة ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِۖ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾.

وضرب الله ﷻ مثلًا لأقوامٍ شرفهم الله ﷻ بحمل كتابٍ من كتبه -أي: بحفظه- فلمَّا لم يحملوها -أي: لم يعملوا بها- شبههم الله ﷻ بالحمير، قال الله ﷻ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ [الجمعة: ٥].

ومن هذه الأمثلة أيضًا ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوىٰ» عن واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيدٍ، وهذان الرجلان كان عند كل واحدٍ منهما خمسة أنواعٍ من البدعة تكفي الواحدة منهم أن يقذف في جهنم، ومع ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن واصل بن عطاء هذا: «وكان فصيحًا لا يُبَارىٰ في فصاحته وعلمه».

وقال: «وقف واصل بن عطاء يخطب في الناس، فلما سمعه عمرو بن عبيد قام، وأقسم لو أن الله ﷻ أحيا نبيًّا من الأنبياء ما استطاع أن يقول مثل هذا».

وذكر أيضًا من فصاحة واصل بن عطاء هذا -وكان ألثغ لا يستطيع نطق الراء- أنه كان إذا خطب لا يأتي بأي كلمةٍ فيها حرف الراء، وذلك ارتجالًا.

ومما اشتهر أن رجلًا أراد أن يظهر عجزه عن نطق الراء، فقال له: يا واصل، قل: أمر أمير الأمراء أن يحفر بئر علىٰ قارعة الطريق؛ ليشرب منه الوارد والصادر.

فقال واصل علىٰ الفور: حكم حاكم الحُكَّام الفخام أن ينبش جب علىٰ جادة الممشىٰ، فيسقىٰ منه الصادي والغادي، فغيَّر كل لفظٍ برديفه، وهذا من عجيب الاقتدار.

فانظر إلىٰ فصاحته وبلاغته، ومع هذا كله إذا ذكرنا الآن واصل بن عطاء - وكذلك عمرو بن عبيد- نقول: عليه لعائن الله إلىٰ قيام الساعة، مع ما وصلا إليه من العلم والفصاحة والبلاغة.

المحور الرابع: كما أن الهداية ليست بيدك، فإن حسن الخاتمة أيضًا ليست بيدك، فعن عبدالله قال: حدَّثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق، وفيه: «**إنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها**»[(١)]، لذلك كان السلف يخافون بشدةٍ من سوء الخاتمة.

قال ابن إسحاق: حدَّثني عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة، عن عبد العزيز بن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أُمِّه أم عبد الله بنت أبي حثمة، قالت: والله، إنَّا لنترحَّل إلىٰ أرض الحبشة، وقد ذهب عامرٌ في بعض حاجاتنا، إذ أقبل عمر بن الخطاب حتىٰ وقف عليَّ وهو علىٰ شركه -قالت: وكنا نلقىٰ منه البلاء أذًىٰ لنا، وشدةً علينا- قالت: فقال: إنه للانطلاق يا أم عبد الله.

قالت: فقلت: نعم والله، لنخرجنَّ في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتىٰ يجعل الله مخرجًا. قالت: فقال: صحبكم الله، ورأيتُ لهُ رقَّةً لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه -فيما أرىٰ- خروجنا. قالت: فجاء عامرٌ بحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبد الله، لو رأيت عمر آنفًا ورقَّته وحزنه علينا. قال: أطمعت في إسلامه؟

قالت: قلت: نعم. قال: فلا يُسْلم الذي رأيت حتىٰ يُسْلم حمار الخطاب. قالت:

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣٢)، ومسلم (٢٦٤٣).

يأسًا منه، لما كان يرىٰ من غلظته وقسوته عن الإسلام[١]، فالقلوب بيد الله تعالىٰ يقلبها كيف يشاء.

المحور الخامس: أن يخشىٰ علىٰ العلم أن يُسلب منه:

قال الشيخ أبو القاسم هبة الله بن سلامة بن نصر المفسر المقري رَحِمَهُ اللَّهُ: وروىٰ عن عبد الله بن مَسْعودٍ قال: أقرأني رسول الله ﷺ آيةً -أو قال: سورةً- فحفظتها وكتبتها في مُصْحفي، فلمَّا كان الليل، رجعتُ إلىٰ مضجعي، فلم أرجع منها إلىٰ شيءٍ، فغدوتُ إلىٰ مصحفي، فإذا الورقة بيضاء، فأخبرت رسول الله ﷺ، فقال: «**يا ابن مسعودٍ، تلك رُفعَت البارحة**»، أي: نُسخَت، بالرغم من أنه كتبها وحفظها في قلبه[٢].

وروىٰ الشيخان من حديث أبي موسىٰ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**تَعاهَدوا القرآن، فوالذي نفسي بيده، لَهو أشدُّ تفصيًا من الإبل في عقلها**»[٣].

فإذا كان العلم في قلبك، وتحفظه، واستظهرته، فمن الممكن أن يُسْلَب منك فَجْأةً، فَبأَيِّ حقٍّ تتكبَّر بشيءٍ ليس لك عليه سلطانٌ، وليس في يدك وقد سُلبَ منك، ولا تعرف متىٰ سُلِبَ، ولا تستطيع ردَّه؟[٤].

---

(١) «فضائل الصحابة» لأحمد بن حنبل (١/ ٢٧٩).

(٢) «الناسخ والمنسوخ» للمقري (ص٢١).

(٣) رواه البخاري (٥٠٣٣)، ومسلم (٧٩١).

(٤) ومن أوضح البراهين علىٰ أن العلم ليس في يدك: أنك تجد المرء كانت حالته وصحته جيدة، ثم فجأةً إذا رآك يقول لك: مَن أنت؟ هذه أول مرة أراك فيها، فيصاب بفقدان الذاكرة، ولا نعلم كيف حدث هذا، حتىٰ الأطباء لا يعلمون، فكل خلايا المخ تظل كما هي، ولكن المعلومات مسحت فجأةً، فلا تجد للمعلومات أي تأثيرٍ حسِّيٍّ علىٰ المخ، بمعنىٰ أن المخ هو هو؛ سواء كان لعالمٍ، أو لجاهلٍ.

إذًا، فمجموعة المعلومات التي تتكبَّر بها علىٰ الناس يمكن أن يسلبوا منك في أيِّ لحظة، ولا تستطيع ردها، وذلك حتىٰ بدون أي تغيُّر في البدن، وبدون أن تعرف متىٰ سُلبت، ولا حتىٰ تشعر بفقدانها من عقلك، فكما أنك إذا حفظت المعلومات لا تشعر بشيءٍ دخل عقلك، فإنك إن نَسيتَها لا تشعر بشيءٍ خرج، فليس لك عقلًا -فضلًا عن شرعًا- أن أتكبَّر بشيءٍ ليس في حوزتي، وليس في مقدوري، وإنْ كان في مقدوري بعض الوقت فديمومته ليست في يدي، وهذا لا نقاش فيه، فالذي أعطاك العلم من الممكن أن يسلبك إياه.

الجانب العملي:

والمعنيُّ بذلك علاج ما قصده النبي ﷺ في قوله: «**وغمط** -أو: وغمص- **الناس**»، وهو احتقار الناس وازدراؤهم، وهو أيضًا عبارة عن عدَّة محاور:

المحور الأول: أن يعلم المتكبِّر أنه لن يستطيع حصر علم أحدٍ:

إذا ظننت أن منزلتك أعلىٰ من منزلة أحدٍ في العلم، فلا بد أن تطرح أولًا هذا السؤال: هل أستطيع أن أحصر علمه؟ هذا مستحيل، فمَن جزم أنه حصر علم أحدٍ، فهو واهمٌ؛ لأنَّ العلم مخبوءٌ في الصدر، ولا يطَّلع عليه إلا الرب.

أضف إلىٰ ذلك أن المقصود ليس هو المادة العلمية فقط، بل والعمل بهذا العلم أيضًا، فحتىٰ إن افترضنا أنك تحفظ من المعلومات أكثر بكثيرٍ منه، فما مقدار عملك بها؟ وباتفاق أهل الأرض لو أن إنسانًا حاز كل العلوم، أو أوشك علىٰ ذلك، وغيره حاز معشارها ولكنه يعمل به، فهو خيرٌ من الأول.

المحور الثاني: أن يعلم أن أعمال القلوب أهم من أعمال الجوارح:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية كلامًا ماتعًا ومتينًا، ولكنه محرجٌ، لا يكاد يدع

واحدًا فينا إلا أسقطه، يقول -ونذكر معنىٰ كلامه: «والله عَزَّوَجَلَّ كلَّفنا بعباداتٍ وأعمالٍ، وتنقسم هذه العبادات والأعمال باعتبار مصدرها إلىٰ قسمين:

(١) أعمال القلوب.

(٢) أعمال الجوارح.

ويَنْبغي علىٰ المُكلَّف أن يأتي بأعمال القلوب[(١)] علىٰ وجه التمام -أي: كما أمَر الله ورسوله- فإن نقص منها شيءٌ، دلَّ علىٰ نقص في الإيمان، أما أعمال الجوارح فحسب الاستطاعة»، قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

فمن الممكن أن أقوم بعمل الجوارح فيه بعض الخلل، ولكن يبقىٰ إيماني جيدًا؛ لأن أعمال الجوارح مقرونة بالاستطاعة، أما أعمال القلوب فلا ترتبط بالاستطاعة؛ إذ ليس لأحدٍ علىٰ القلب سلطان.

فالعمل ينقسم إلىٰ إلىٰ قسمين باعتبار مصدره:

(١) عمل القلوب. (٢) وعمل الجوارح.

فلا يستطيع أحدٌ أن يحكم علىٰ الآخر بظاهر سمته وعبادته؛ لأن هناك جزءًا آخر أهم خفي عنه، وهو عمل القلب، ولا تدري أقصَّر فيه أم أتىٰ بها علىٰ وجه التمام.

ويقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «إغاثة اللهفان»[(٢)]: «وقد يقصر العبد في عملٍ من أعمال القلوب، ويأتي بمعشاره من أعمال الجوارح، ويستحي أن يتركه وقد ترك

---

(١) مثل التوكُّل والاستعانة واليقين بالله، وحسن الظن بالله، وعقيدة أهل السنة والجماعة أن الإيمان قول وعمل: قول القلب، وقول اللسان، وعمل القلب، وعمل الجوارح.

(٢) في موضعٍ آخر ذكر أنها من كلام ابن تيمية: فقد يفرط العبد في عملٍ من أعمال القلوب، ويستحي أن يفرط في معشاره من أعمال الجوارح. وفي موضعٍ آخر في مرض سوء الظن، ذكر الكلام الأول علىٰ أنه كلام ابن القيم، وأنه ذكر بين كلامه كلام ابن تيمية، وهو الثاني.

أعظم منه من أعمال القلوب»، بمعنىٰ أنه لو قصَّر في سُنَّةٍ رَاتِبَةٍ مثلًا، يلوم نفسه لومًا شديدًا علىٰ هذا التقصير، وهو في نفس الوقت مقصرٌ في أعمال القلوب بما يعادل أضعاف أضعاف هذا العمل الذي استحيا من تركه، ولام نفسه عليه، وهذا خللٌ في الفهم، فتراه يهتمُّ بدلِّه وسمته، وهذه الأمور، ويستحي إن قصَّر فيها -وهذا محمود علىٰ الجملة- تجده من ناحية أعمال القلوب خربًا، وهذا هو الإشكال[١].

---

(١) ولذلك، تجد أن سلوك الصحابة بجوارحهم كان متناسبًا مع ما في قلوبهم دائمًا، أما نحن فالمسألة معكوسة، فتجد الرجل منَّا إذا نظرت إليه وإلىٰ زوجه في الاستقامة الظاهرية، ولكن عند أول محكٍّ يسقط، وهذا كله ناشئٌ عن خللٍ في أعمال القلوب عندنا، أما هم فكان التركيز علىٰ أعمال القلوب، كل أعمال القلوب التي أمَر بها الشارع، فكان الواحد منهم يقع في المأزق والشدة والكرب وهو ثابتٌ كالجبل الأشم، كما في قصة جعفر بن أبي طالبٍ وهو في الحبشة حين وقف أمام النجاشي لمَّا قال عمرو بن العاص: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسىٰ ابن مريم قولًا عظيمًا، فأرسل إليهم، فسَلْهم عما يقولون فيه. قالت (أي: أم سلمة رضي الله تعالىٰ عنها): فأرسل إليهم ليسألهم عنه. قالت (أي: أم سلمة رضي الله تعالىٰ عنها): ولم ينزل بنا مثلها قط، فاجتمع القوم، ثم قال بعضهم لبعضٍ: ماذا تقولون في عيسىٰ ابن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول -والله- ما قال الله، وما جاءنا به نبينا، كائنًا في ذلك ما هو كائن. قالت: فلما دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون في عيسىٰ ابن مريم؟ قالت: فقال جعفر بن أبي طالبٍ: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ، يقول: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلىٰ مريم العذراء البتول. قالت: فضرب النجاشي بيده إلىٰ الأرض، فأخذ منها عودًا، ثم قال: واللهِ، ما عدا عيسىٰ ابن مريم ما قلت هذا العود. قالت: فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي -والشيوم: الآمنون- مَن سبَّكم غرم، ثم قال: مَن سبَّكم غرم، ثم قال: مَن سبَّكم غرم، ما أحب أن لي دبرًا من ذهبٍ، وأني آذيت رجلًا منكم. قال ابن هشام: ويقال: دبرًا من ذهبٍ، ويقال: والدبر بلسان الحبشة: الجبل- ردُّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فو الله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليَّ ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيَّ فأطيعهم فيه. قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دارٍ، مع خير جارٍ.

وهذا علىٰ سبيل المثال، ففيها يظهر عمل القلب، وأنه يستحيل أن يلجأ عبدٌ إلىٰ ربه لجوءًا يقينيًّا صادقًا، ثم يتخلىٰ عنه ربه، وهذا نقطع باستحالته، ولا نقول: إن الأمر مجرب؛ لأن الشرع لا يخضع للتجربة، فإن أغلقت الدنيا أمام وجهك، فلعل هذا هو الخير، فالسعادة ليست في الأموال، ولا الترقي

المحور الثالث: أن يُعوِّد نفسه علىٰ قبول الحق، والرجوع عن الباطل، وهذا قد مضىٰ فيه الكلام بما يكفي في مظاهر التكبُّر بالعلم.

ثانيًا: التكبُّر بالعمل:

والمعنيُّ بالعمل، أَيْ: العبادات(١) التي يقوم بها المكلف بكلِّ ما تشمله هذه الكلمة من معانٍ، ومن إطلاقاتٍ، فالإشكال أن العبد إذا أعانه الله ﷻ علىٰ شيءٍ من العبادات، وشيءٍ من الأعمال المَرضيَّة له ﷻ، يبدأ يتطرَّق الكبر إلىٰ قلب العبد من خلال هذا العمل الذي وفَّقه له الله ﷻ.

مظاهر التكبُّر بالعمل(٢):

وجد العلماء باستعراض النصوص أن الإنسان إذا تكبَّر بالعمل، ظهر أثر هذا الكبر من وجهين اثنين:

الوجه الأول: أن يظن أنه أفضل من غيره، فيتمنىٰ أن يوقِّره الناس ويُبجِّلونه ويحترمونه ويقدِّمونه في المجالس علىٰ غيره، ويتفانون في قضاء حوائجه، وإذا رأىٰ من الناس شيئًا من الفتور أو عدم الاهتمام به، يحزن قلبه، ويشمئزُّ من الناس.

= في المناصب، ولا الزواج من الحسناوات، فراجع أعمال قلبك بين الحين والحين، فإن اعترتك أزمة، أو نزل بك كرب، أو محنة، فانظر: هل إذا نزلت بك لا تهتز، ولا تتأثر، ويبقىٰ ما في قلبك كما هو، أم تبدأ في التقهقر والرجوع إلىٰ الوراء؟ ولا نُقلِّل من أعمال الجوارح، بل هي تدخل في مُسمَّىٰ الإيمان، وهي من الإيمان، ولكن علىٰ الجانب الآخر إياك أن تنسىٰ أعمال القلوب.

(١) والعبادة -كما عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية عليه رحمة الله- هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ﷻ ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

(٢) تذكر أنه لن يستطيع المرء التعرف علىٰ ما في قلبه من كبر إلا إذا صدق مع نفسه، فمسألة القلوب وما يدخل فيها، ويخرج منها -كما قلنا- لا يعلمها إلا الله ﷻ، ثم العبد نفسه، فأنا لا أستطيع الحكم علىٰ قلبك وأنت كذلك، أمَّا أن يجامل العبد نفسه ويداهنها، فقضيةٌ أخرىٰ تخصُّ المرء نفسه، ولن يتجرَّع كأس مرارتها إلا هو.

واعلم أن هذا الشعور لن يراه الناس، ولكنك أنت فقط الذي تعرفه، فلنصدق مع أنفسنا فيه، فمثلًا: إذا ذهبت إلىٰ مصلحة حكومية لتقضي شيئًا من مصالحك، وبعض الناس في هذه المصلحة يعرفونك، والبعض لا يعرفك، ثم تطرَّق إلىٰ قلبك أنهم ينبغي عليهم أن يسارعوا في خدمتك، وينهوا لك حاجتك لتنصرف إلىٰ شئونك، فهذا هو عين الكبر.

ومن الممكن أن يدخل عليك الشيطان من مدخلٍ قَلَّ من ينتبه إليه، فيقول لك: ليس لك الوقوف في هذا الموقف، فجُلُوسك في المكتبة -مثلًا- أو بين طلبة العلم، وفي التدريس، أنفع للمسلمين، فيجب علىٰ هؤلاء القوم أن ينتبهوا لك، ويُعجِّلوا بقضاء حاجاتك، وهذا كثيرًا ما يحدث، وهو نوعٌ من أنواع الكبر أيضًا.

ومن الممكن أيضًا -في مجتمعاتنا هذه- أن يصدر منك تصرف، أو تتأفف عن فعل شيءٍ لشموخٍ وكبرٍ في نفسك، ولكن يغلفه لك الشيطان أن منزلتك لا تجيز لك ذلك، فتتكبر وأنت لا تشعر، كأن يطلب منك شراء بصل مثلًا، فتقول في نفسك: أنزل أشتري بصلًا وأنا الشيخ الفلاني، ناصر السُّنة، وقامع البدعة؟! فاعلم حينئذٍ أن هذا هو الكبر بعينه.

لذلك، في القصة المشهورة أن عمر بن الخطاب جمع الناس كلهم في المسجد يومًا، ثم صعد المنبر، فحمد الله وأثنىٰ عليه بما هو أهله، ثم قال: يا قوم، لقد رأيتني وأنا صغير أرعىٰ الغنم... وصار يزري بنفسه أمام الناس، ثم قال لهم: انصرفوا يرحمكم الله، ثم نزل، فقال له عبد الرحمن بن عوف: ما هذا يا أمير المؤمنين؟! ما زدت علىٰ أنك أزريت بنفسك -أي: قلَّلتَ من شأنك- قال: لأجل هذا فعلت، حدثتني نفسي أني أمير المؤمنين.

الوجه الثاني: أن ينظر العبد للنَّاس بعين الازدراء والاحتقار، وبتقليلٍ من شأنهم، وأن يعتبر نفسه أعلم منهم، وأقرب إلىٰ الله منهم:

وَوَرد في هذا الوجه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ، قال: «**إذا قال الرجل: هلك الناس، فهو أَهْلَكُهُم**»(١)، بضم الكاف في «**أهلكهم**» وبفتحها، ولكلٍّ وجه تفسيرٍ.

فالمقصود في الحديث: هو مَن يتحسر ويتململ ويتأسىٰ علىٰ ما وصل إليه الناس، فيتفوَّه بهذه الكلمات، ويظن أن كلَّ الناس هَلْكىٰ إلا هو، وأنَّ ما وقع بالبلاد والعباد من ضنكٍ في المعيشة، وتضييقٍ في الرزق، وتسلُّط من السلطان الغاشم الظالم، وتسلُّط من الأعداء، أن كلَّ هذا بسبب أعمال الناس، أما هو فهو بعيدٌ.

وكلمة «أهلكُهُم» بضم الكاف -وهو الأشهر والأصوب- أي: هو أشدُّهم هلاكًا، ومَنْ قال بالفتح -أي: «أهلَكَهم» - فمعناها أنه هو الذي تسبَّب في هلاكهم، وهم لم يهلكوا حقيقةً، ولكن الأصوب الرفع.

وقال العلماء: إن كلمة «هلك الناس» من الممكن أن تقال وتكون محمودةً، ومن الممكن أن تكون مذمومةً، فمحلُّ الذم هو الذي ذكرناه، أن ينسلَّ بنفسه من بقيَّة الناس ويقول: إنَّ الهلاك نزل علىٰ الناس بسببهم، أمَّا هو فلا دخل له؛؛ لأنه منضبطٌ سليمٌ، وليت الناس معشاره، فهذا الوجه مذموم ولا شك، أمَّا إن قال هذا علىٰ سبيل الإزراء لكلِّ الناس وهو منهم، فهي محمودةٌ، فالذَّمُّ جاء من إخراج النفس عن هذه الفئة، فإن أدخل نفسه فيها عن اعتقادٍ ويقينٍ(٢) تكون محمودةً.

---

(١) مسلم (٢٦٢٣).

(٢) لأنه سيأتينا عند الكلام عن الرياء أن كثيرًا من الناس يتكلم بكلماتٍ ليوهموا الناس أنهم متواضعون ومخلصون، وهم في الحقيقة يريدون أن يرفعوا من شأنهم، وهذه مسائلُ دقيقةٌ قَلَّ أن ينتبه إليها أحدٌ.

ومن خصائص المتكبِّر أن يحبَّ قيام الناس له.

قال ابن قدامة المقدسي: «والقيام علىٰ ضربين:

قيام علىٰ رأسه وهو قاعد، فهذا منهي عنه، قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «**مَنْ أَحبَّ أن يتمثَّل له الرجال قيامًا، فليتبوَّأ مَقعده من النار**»(١)، وهذه عادة الأعاجم والمُتكبِّرين.

الثاني: قيام عند مجيء الإنسان، فقد كان السلف لا يكادون يفعلون ذلك.

قال أنسٌ: لم يكن شخصٌ أحب إلينا من رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا؛ لما يعلمون من كراهته لذلك»(٢).

ومن خصال المتكبِّر:

ألَّا يمشي إلا ومعه أحدٌ يمشي خلفه.

ومنها: ألَّا يزور أحدًا؛ تكبرًا علىٰ الناس.

ومنها: أن يستنكف من جلوس أحدٍ إلىٰ جانبه، أو مشيه معه.

وقد روىٰ أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كانت الأَمَة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فتنطلق به في حاجتها(٣).

وقال ابن وهبٍ: جلستُ إلىٰ عبد العزيز بن أبي رواد، وإن فخذي لَتمسُّ فخذه، فنحَّيت نفسي عنه، فأخذ ثيابي، فجرَّني إليه وقال: لِمَ تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة، وإني لا أعرف منكم رجلًا شرًّا مني(٤)؟!

---

(١) «سنن الترمذي». ت: بشار (٢٧٥٥)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الترغيب والترهيب» (٢٧١٧).

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٢٣٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٠٧٢).

(٤) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٢٣١).

ومنها: ألَّا يتعاطىٰ بيده شغلًا في بيته، وهذا بخلاف ما كان عليه رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

روىٰ البخاري: حدثنا آدم، قال: حدثنا شعبة، قال: حدثنا الحكم، عن إبراهيم، عن الأسود، قال: سألت عائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله -تعني: خدمة أهله- فإذا حضرت الصلاة، خرج إلىٰ الصلاة»[(١)].

والمراد بقولها: «خدمة أهله»، أي: يساعدهنَّ فيما هنَّ عليه من عمل.

وفي روايةٍ: «قالت عائشة: كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته»[(٢)].

ومنها: ألَّا يحمل متاعه من سوقه إلىٰ بيته:

وقد اشترىٰ رسول الله -صلىٰ الله عليه وآله وسلم- شيئًا وحمله، وكان أبو بكرٍ رضي الله عنه يحمل الثياب إلىٰ السوق يتَّجر فيها، واشترىٰ عمر رضي الله عنه لحمًا فعلقه بيده، وحمله إلىٰ بيته، واشترىٰ عليٌّ رضي الله عنه تمرًا، فحمله في ملحفة، فقال له قائلٌ: أحمل عنك؟ قال: لا، أبو العيال أحقُّ أن يحمل.

وأقبل أبو هريرة رضي الله عنه يومًا من السوق وقد حمل حزمة حطبٍ، وهو يومئذ خليفة مروان، فقال لرجلٍ: أوسع الطريق للأمير[(٣)].

ومَنْ أراد أن ينفي الكبر عنه، ويستعمل التواضع، فعليه بسيرة رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٧٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٣٤١)، حديث صحيح.

(٣) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٢٣١).

كيفيَّة علاج هذا الداء[١]:

أصلٌ مهمٌّ في علاج أمراض القلوب:

علاجُ كل عِلَّةٍ: حسم مادتها، وإزالة أسبابها، ولا بد من معرفة أسباب المرض أولًا، ثم العلاج بإزالة أسبابه.

يتمُّ علاج الكِبْر المتولد من العبادة من خلال عدَّة محاور:

المحور الأوَّل: أن يعلم العبد أنَّ بداية الهداية، ودوامها، ونهايتها لله ﷻ، وليست له، وأن يعلم أنَّ خاتمته بيد الله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨]، وقال الله ﷻ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧]، فقبل أن تمنَّ علىٰ خَلْقِ الله، اعلم أن المنَّة الحق لله ﷻ، فبداية استقامتك علىٰ طريق الله ليس لك فيها حولٌ البتة، ودوام الاستقامة -وهو أعزُّ من البداية- لله ﷻ، ونهايتها -وهي أعزُّ من الأوليين- لله ﷻ أيضًا، فَلِمَ تتكبر بشيءٍ ليس في يدك؟

لذلك، كل من يتدبر في حسن الخاتمة وسوئها، وينظر في ذلك بشيءٍ من الدقة، يتعكر عليه صفو حياته؛ لأنه لا يدري كيف يختم له، هل يختم له بخيرٍ أم بشرٍّ؟

فليخف كلٌّ منَّا من سوء الخاتمة، وقَدْ تكلَّمنا عليها في الكبر بالعلم، وستأتي

---

(١) أي: كيف ينجو العبد بنفسه من مرض الكبر إذا تطرق إليه عن طريق العمل؟ وهذه مسألة مهمة جدًّا في الوقت الذي نحن فيه، فنحن في زمن الغربة، وكثير من الناس ظاهرهم التفلُّت، فمن الممكن أن يتحرك في نفس العبد شيءٌ إذا كان في بيئةٍ ظاهرها التفلُّت، كأن يكون في أسرةٍ من أبٍ وأُمٍّ ظاهرهما التفلُّت مثلًا، أو في حيٍّ ليس فيه أحد متمسك بالسُّنة إلا هو، فالواقع الذي نحن فيه يجعل كثيرًا منَّا يُصَاب بالكبر بالعمل، وهو لا يشعر، لذا نريد أن نستعين بالله ﷻ، وننظر بشيءٍ من الدقة والتفصيل في علاج هذا الأمر.

معنا في كلِّ مبحثٍ إن شاء الله تعالىٰ، وكما قلنا: إن أي إنسانٍ يركن إلىٰ إيمانه، أو إلىٰ علمه أو عمله، حتمًا سيسلب منه مهما زاد أو كثر، فاركن إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ والجأ إليه كما كان النبي ﷺ يدعو، ويكثر من الدعاء، فعن أنسٍ قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مُقلِّبَ القلوب، ثبِّت قلبي علىٰ دينك**»(١)، ويقول كما عند مسلمٍ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: «**اللَّهمَّ مُصرِّف القلوب، صَرِّف قلوبنا علىٰ طاعتك**».

ومن الأحاديث والآثار في هذا الباب:

عن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وهو جزء من حديث الصادق المصدوق، نستلُّ منه محل الشاهد فقط- أنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**».

وفي روايةٍ لهذا الحديث في الصحيح -أي: في البخاري- يقول النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم: «**إنَّ الرجل لَيعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس**»، «**وإنَّ الرجل ليعمل عمل أهل النَّار فيما يبدو للناس**»(٢).

- قصَّة الرجل الذي خرج مع النَّبيِّ ﷺ يجاهد، لا يدع لهم شاذةً ولا فاذةً إلا اتبعها يضربها بسيفه حتىٰ إن بعض الصحابة قال: ما أجزأ منا اليوم أحدٌ كما أجزأ فلان، فأخبروا النبي ﷺ بخبره، فقال: «**أما إنه من أهل النار**»، فقال بعض الصحابة:

---

(١) رواه الترمذي (٢١٤٠)، وأحمد (١٢١٠٧)، وقال الشيخ الأرناؤوط عليه رحمة الله: إسناده قوي علىٰ شرط مسلم، وصححه الألبانيُّ في «صحيح الترمذي» (٢١٤٠).

(٢) رواه البخاري (٣٣٣٢)، ومسلم (٢٦٤٣).

أنا صاحبه -يعني: سأرقبه لأعلم كيف يفعل كل هذه الأفعال ويكون من أهل النار- فجرح الرجل جرحًا شديدًا، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض، وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل علىٰ سيفه، فقتل نفسه، فَخَرج الرجل إلىٰ رسول الله ﷺ، وأخبره، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**الله أكبر، أشهد أني عبد الله ورسوله**»(١).

فانظر كيف كان هذا في أعلىٰ مراتب العمل، وذروة سنام الإسلام وهو الجهاد، ثم كانت الخاتمة سوءًا، عياذًا بالله.

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله** ﷻ -أي: كلمة محرمة- **لا يلقي لها بالًا**(٢)، **فيهوي بها في النار سبعين خريفًا، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله** ﷻ **لا يلقي لها بالًا، يرفعه الله بها الدرجات**»(٣).

فمن الممكن أن يتكلَّم العبد بكَلِمَةٍ هي مُحرَّمة، ويعلم أنها محرمة، ولكن لا يهتمُّ بخبثها وشناعتها، فتضيع عبادة سنوات طويلة، ويلقىٰ في النار، فهذا يدل أيضًا علىٰ أن قضية العمل لا تستقيم للعبد، ولا يليق بالعبد أن يتكبَّر بها.

ذكر الإمام أبو حامدٍ الغزالي في «إحياء علوم الدين» قصة مشهورة من الإسرائيليات التي لا تصدق، ولا تكذب، ولا يترتب عليها حكمٌ شرعيٌّ(٤)، حاصل

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢).

(٢) أي: لا يعرف غب معصيتها وشؤمها وشناعتها وخطورتها، ولكنه يعلم أنها حرامٌ.

(٣) رواه البخاري (٦٤٧٨)، ومسلم (٢٩٨٨).

(٤) **فائدة**: أخبار من سبقنا -أي: كان قبل بعثة النبي ﷺ- تنقسم باعتبار وصولها إلينا إلىٰ ثلاثة أقسام:

١) ما جاء ذِكْره في القرآن الكريم؛ كقصة البقرة وغيرها، وما صحَّ سنده إلىٰ النبي ﷺ، وهذا نقطع بصدقه وحدوثه، مثل قصة قاتل التسعة والتسعين نفسًا.

=

القصة أن رجلًا من بني إسرائيل كان قد وصل إلىٰ السدة في العبادة حتىٰ إنه كان إذا مشىٰ ظللته غمامة -وهذه كرامة وليست علىٰ الله بعزيزةٍ- وعلىٰ الجانب الآخر كان رجلٌ آخر من بني إسرائيل مسرفٌ علىٰ نفسه في المعاصي، وبقدر الله عَزَّوَجَلَّ مرَّ هذا الرجل العاصي علىٰ العابد وفوقه الغمامة تُظلِّله، فرقَّ قلب العاصي لما رأىٰ العابد(١)، فانتهز الفرصة، وقال: هلَّا جلستُ بجوار هذا العابد لعلَّ الله يرحمني بجلوسي معه، فجلس معه ليكلمه، فتحركت نفس العابد عجبًا وكبرًا وقال: أنا عابد بني إسرائيل، وهذا خليع بني إسرائيل يجلس بجواري(٢)، قُمْ إليك عني حتىٰ لا تنزل عليَّ وعليك سخطةٌ من السماء، فقام الرجل مكسور الخاطر ومشىٰ، فأوحىٰ الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ نبيِّ زمانهم أَنْ قل لهما: «ليستأنفا العمل -أي: فليبدأ كلٌّ منهما صفحةً

= ٢) ما صحَّ سنده إلىٰ قائله، مثل قول كعب الأحبار، أو عائشة، أو عمر، ففعلًا قائله من هؤلاء، ولكن سمعه ممن سبقنا، فنسنده إلىٰ قائله.

٣) ما لم يصح سنده إلىٰ قائله: وهذا النوع يطرح، ولا يقال.

- وتنقسم أخبار مَن قبلنا باعتبارها شريعة لنا أو لا إلىٰ ثلاثة أقسام أيضًا:

١) ما كان في شريعة مَنْ قبلنا، وجاء في شريعتنا، موافقٌ له، فهو شرعٌ لنا.

٢) ما كان في شريعة مَنْ قبلنا، وجاء في شريعتنا، ناسخ له، فلا يعمل به.

٣) ما كان في شريعة مَن قبلنا، ولم يأت في شريعتنا، لا ناسخ له، ولا مؤكد له، فهذا متوقفٌ فيه، والراجح أنه لا يعمل به.

(١) اعلم أنَّ مشكلة العاصي في أنه لا يجد مَن يعينه، ويأخذ بيده، أو يجد الجميع يداهنونه، ولا ينكرون عليه، وإن أنكر أحدهم مرةً، لا يكرر عليه الإنكار بحجة أنه لا يستجيب، فيجلس معه، ولا ينكر عليه، مع أنَّ الجلوس معه أثناء المعصية إقرارٌ بلسان الحال، ولا يحلُّ.

(٢) فالشريعة أمَرت ببغض المعصية، وببغض العاصي حين يفعل المعصية، أما الكبر عليه، والتعالي عليه، فمَرفوضٌ لعدة اعتباراتٍ ذكرناها من قبل، ومن أهمِّها: أن هذا الذنب الذي يفعله، وكشف الله السِّتر عنه، فرأيته أنت عندك من الذنوب ما يماثله، أو أكثر، ولكن الفرق أن الله أسبل الستر عليك، وكشف الستر عنه، فالله نسأل أن يسبل علينا ستره في الدنيا والآخرة.

جديدةً- فقد غفرتُ للخليع، وأحبطتُ عمل العابد»[(١)]، وهذا كله من الكبر، فإياك إياك أن تعجب بعملك، وتتكبَّر علىٰ خَلْق الله بعملك[(٢)].

المحور الثاني: سَلْ نفسك: مَن أنا وما هي عبادتي؟ فقبل أن تنظر للناس بعين الإزراء والاستصغار، وبشيءٍ من الكبر والعجب بعملك، انظر إلىٰ عملك أولًا: هل هو منضبطٌ أم لا؟ هل هو صحيحٌ أم لا؟ وانظر إلىٰ عبادتك التي تتكبَّر بها علىٰ أي شيءٍ قِسْتها؟ ومَنْ أراد أن يقيس، فَلْيَقس علىٰ المقياس الحق، يقيس إتقانه للعلوم الشرعية علىٰ العلماء لا علىٰ الرُّويبضة، فهذا قياس مع الفارق قياس فاسد مرفوض، وَلْيَقِس عبادته علىٰ عبادة الأكابر لا علىٰ أصحابه مثلًا، أما أن يقرأ بربعٍ في الركعة ثم يتكبر به، فهذا سلوك لا يصحُّ.

ومن أجل ذلك نذكر بعض الأمثلة والنماذج التي ثبتت عن السلف في عبادتهم حتىٰ تربع علىٰ نفسك، وتعلم قدرك جيدًا قبل أن تتكبَّر علىٰ الناس، والخلق بعبادتك:

عن جسرة بنت دجاجة قالت: سمعت أبا ذرٍّ يقول: قام النبي ﷺ حتىٰ أصبح بآيةٍ، والآية قوله تعالىٰ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[(٣)] [المائدة: ١١٨].

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٥٠).

(٢) وهذا يجب الانتباه إليه، فكل منَّا له زلات وسقطات، فلا تنسها حتىٰ لا تنسىٰ قَدْر نفسك، لذلك من أقوال السلف الطيبة: «رب معصية أورثت ذلًّا وانكسارًا، خير من طاعةٍ أورثت عزًّا واستكبارًا»، ولابد أن نفهم هذه المقولة كما ينبغي، فليس معنىٰ ذلك أننا نرغب في المعاصي، ولكن إذا وقعت في زلةٍ، فأمهلك الله عَزَّوَجَلَّ، وحلم عليك وسترك، ثم رأيت أحدهم بعد ذلك علىٰ نفس الزلة، فلا تحملنك رؤيتك إياه علىٰ أن تنسىٰ ما فعلت، فالفارق بينك وبينه أنَّ الله سترك أنت، أمَّا هو فكشف ستره عنه لحكمةٍ يعلمها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(٣) رواه النسائي (١٠١٠)، وابن ماجة (١٣٥٠)، وأحمد (٢١٣٢٨)، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده حسن، وحسنه الألبانيُّ في «المشكاة» (١٢٠٥).

وثبت بالسند الصحيح عن سلام بن مسكين قال: سمعت محمد بن سيرين قال: لما أطافوا بعثمان يريدون قتله، قالت امرأته: «إن تقتلوه أو تتركوه، فقد كان يحيي الليل كله بركعةٍ يختم فيها القرآن»[(١)(٢)].

أمَّا عبد الله بن الزبير -عليه رحمة الله- فكان لا يُبارَىٰ في ثلاثٍ: في العبادة، والأدب، والفصاحة، والحقُّ أنه لا يبقىٰ بعد ذلك شيءٌ.

ويقول عنه مسلم بن نياق: دخلنا المسجد، فإذا بعبد الله بن الزبير راكع في صلاةٍ، فوالله لقد ركع فقرأنا بالبقرة وآل عمران والنساء والمائدة ووالله ما رفع ركوعه.

العبد الصالح الإمام الأوزاعي -عليه رحمة الله- إمام أهل السنة في زمانه، قال عنه الذهبي: «كانوا يمتحنون الناس بالأوزاعي، فمَن أحبه، علمنا أنه من أهل السنة، ومن أبغضه علمنا أنه من أهل البدعة».

وكان يقول: «مَن أطال قيام الليل، هَوَّن الله عليه قيام يوم القيامة»[(٣)].

وذات مرة دخلت امرأةٌ لها صلة بامرأة الأوزاعي بيتَه، فبينما هم جلوس في البيت -أي: في حجرة من الدار- تَحسَّست المرأة مكانًا معينًا، فوجدت فيه بلالًا، فقالت لامرأة الأوزاعي: ما هذا؟ قالت: هذا مُصلَّىٰ الشيخ. قالت: أراك قد غفلتِ

---

(١) رواه عمر بن شبة في كتابه «تاريخ المدينة» (٤/ ١٢٧٢)، والآجري في «الشريعة» (٤/ ١٧٤٨).

(٢) وهذا لا يتعارض مع قول النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص: «**لا تقرأه في أقل من ثلاثٍ**»؛ لأنَّ هذا معلق علىٰ عدم الفقه والفهم، وعثمان بن عفان صحابي جليل أمرنا بالاقتداء به، ولكن ضعيف الهمة دائمًا ما يتعلق بمثل هذه الأشياء، أما عالي الهمة، فيسعىٰ للوصول لمثل هذه الأعمال.

(٣) «تحفة العلماء بترتيب سير أعلام النبلاء» (٣٣٨)، ويروىٰ هذا القول لحسان بن عطية. انظر: «صفة الصفوة» (٤/ ٢٢٢).

حتىٰ تبوَّل الصبيان في مصلىٰ الشيخ. فقالت: والله، ما غفلتُ، وما تبولوا، إنها دموع الشيخ كل ليلةٍ.

العبد الصالح عبد الرحمن بن الأسود بن يزيد النخعي ذهب إلىٰ مكة معتمرًا، فاعتلت رِجْله -أَيْ: مرض في رِجْله- فوقف يصلي الليل كله علىٰ قدمٍ واحدةٍ.

العبد الصالح بلال بن سعد، وهو من أئمة التابعين، قال عنه الذهبي في «السير»: بلغنا عنه شيء من العبادة ما نطيقه، وما علمنا أحدًا يطيقه، كان وِرْده في اليوم والليلة ألف ركعةٍ.

وثبت بالسند الصحيح من حديث عبد الله ابن الإمام أحمد في «زوائده علىٰ المسند» قال: كان وِرْد أبي في اليوم والليلة ثلاثمائة ركعةٍ، فلما ضعف من الأسواط التي ضُرب بها، كان وِرْدُهُ في اليوم والليلة مائةً وخمسين ركعةً[1]، هذا بداهةً من غير الفريضة.

العبد الصالح صفوان بن سليم، توفي سنة اثنتين وثلاثين بعد المائة الأولىٰ من الهجرة، من مآثره أنه وهو يطوف مرةً حول البيت، وكان الخليفة في البيت، فنظر فرأىٰ صفوان -وكان نسكه ودلُّه وسمته يشبه الصحابة- فسأل: من هذا؟ فقالوا: صفوان بن سليم، فدخل في قلبه، فأعطىٰ غلامه سُرَّةً فيها بعض الدنانير الذهبية، وقال: أعطها له، وقل له: الخليفة يُقْرئك السلام، ويقول لك: خُذْ هذه، فذهب ففعل كما أمر، فقال له صفوان: أي خليفة؟ قال: أمير المؤمنين فلان بن فلان. قال: ويعرفني؟ قال: نعم، ألست فلان بن فلان؟ قال: بلىٰ، أرسلك إليَّ؟ قال: نعم. فقال: يا بني، اذهب إليه، وخذ السُّرة معك، وسَلْه وتأكد منه، فأنا لا أعرفه، ثم تعال، فإن

(١) «مسند أحمد». ت: شاكر (١/ ٨٠).

وجدتني، أخذتها منك، فاستجاب الغلام وذهب، فترك صفوان مكة وخرج، وكان يقول: «ليأتين علىٰ الناس زمانٌ همة الرجل بطنه -يسأل عن الغداء قبل أن يفطر- ومعبوده هواه».

هذا العبد الصالح يقول عنه سفيان: «كان صفوان بن سليم يصلي بالليل علىٰ السطح، وفي الصيف تحت السقف؛ ليوقظ نفسه ببرد الشتاء، وحر الصَّيف، وآلىٰ علىٰ نفسه ألَّا يضع جنبه الأرض حتىٰ يرىٰ مقعده في الجنة، فمكث ثلاثين سنةً لا يضع جنبه الأرض».

ولا تنظر إلىٰ مثل هذه الأشياء باستغرابٍ، فالإمام النووي أُثِرَ عنه أنه كان ينام علىٰ الكتب، يغفو عليها ثم يستيقظ ليستكمل عمله، وصاحب الهمة العالية يسعىٰ لمثل ذلك، يقول سفيان: «فلما مرض صفوان مرض الوفاة، واشتد به النزع وهو لا يزال جالسًا، قالت له ابنته: يا أبي، ضَعْ جنبك علىٰ الأرض إنك في السياق. فقال لها: يا بنية، إذن ما وفيت بما أخذته علىٰ نفسي، يقول: فلما صعدت روحه، وضعوه علىٰ الأرض، يقول سفيان: فأخبرنا النباش أنهم حفروا قبره بعد مائتي سنةٍ لإصلاحاتٍ، فوجدوا أثر السجود في الجمجمة».

فانظر إلىٰ عبادة هؤلاء الأكابر، وَقِسْ عبادتك عليها، ثم انظر مَن أنت؟ وما هي عبادتك؟ أما أن تأتي بعبادةٍ مخدوشةٍ الله أعلم بها، ولا دخل لك بها، بل الله هو الذي وفَّقك لها، ثم تتكبَّر علىٰ الخَلق، فهذا مسلكٌ غير مرضيٍّ.

واعلم أنَّك إذا نظرت إلىٰ عبادة المتقدمين، ثم لم تشعر بالقزامة، فإن الكبر قد عشش في قلبك[(١)]، فإذا استشعرت هذه المعاني وفهمتها جيدًا، قلت بلسان حالك:

(١) والعجيب أنَّك حين تقرأ في سير هؤلاء الصالحين، وخاصةً تراجم الصحابة، وتقرأ في كثرة عبادتهم

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

وعلىٰ الجملة، قال أبو حامد الغزالي في «الإحياء»: «العلماء والعُبَّاد في آفة الكبر علىٰ ثلاث درجات:

الدرجة الأولىٰ: أن يكون الكبر مستقرًّا في قلبه، يرىٰ نفسه خيرًا من غيره إلا أنه يجتهد ويتواضع، ويفعل فِعْلَ مَنْ يرىٰ غيره خيرًا من نفسه، وهذا قد رسخ في قلبه شجرة الكبر، ولكنه قطع أغصانها بالكلية.

الدرجة الثانية: أن يظهر ذلك علىٰ أفعاله بالترفُّع في المجالس، والتقدم علىٰ الأقران، وإظهار الإنكار علىٰ مَن يقصر في حقه، وأدنىٰ ذلك في العالم أن يُصعِّر خدَّه للناس كأنه معرض عنهم، وفي العابد أن يعبس وجهه، ويقطب جبينه كأنه مُنزه عن الناس، مستقذرٌ لهم أو غضبان عليهم، وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتىٰ تقطب، ولا في الوجه حتىٰ يعبس، ولا في الخد حتىٰ يصعر، ولا في الرقبة حتىٰ تطأطأ، ولا في الذيل حتىٰ يضم، إنما الورع في القلوب، فإذا كان في القلب حقًّا ورع، فلا بد أن يظهر أثره علىٰ الجوارح.

= وتهجدهم وازدرائهم لأنفسهم يحيرك شيء، وهو أن هؤلاء الصحابة مقطوعٌ لهم بدخول الجنة - وهذا الذي نعتقده ونَدين الله به، فكل صحابيٍّ تحقق فيه تعريف ابن حجر للصحابي في «الإصابة» مقطوع له بالجنة- ومع ذلك كانوا يأتون بعبادة مَن رآهم عليها، يقول: هؤلاء اقترفوا أكبر الكبائر، ويعبدون الله عبادةً إذا أخبر أحدهم أنه سيموت، وسيقابل الله غدًا ما يزيد عليها، فَلِمَ ذلك؟ فعثمان بن عفان -مثلًا- مآله إلىٰ الجنة بأكثر من نصٍّ، فَلِمَ يأتي بالليل كله قيامًا؟ السرُّ في ذلك شيء واحد فقط، وهو أن السلف وصلوا إلىٰ مرحلةٍ سمَّاها أهل العلم: (مرحلة التلذذ بالعبادة)، وهذا ما قاله ثابت البناني وعتبة الغلام، قالا: «كابدنا العبادة عشرين سنةً، ثم تلذذنا بها عشرين سنةً».
ومن الكلام الطيب لأبي مسلم الخولاني -عليه رحمة الله- يقول: «أيظنُّ أصحاب محمدٍ أن يسبقونا إليها؟ والله، لأعبدنَّ الله في الأرض كما تعبده الملائكة في السماء حتىٰ يعلم أصحاب محمدٍ أنهم خلفوا خلفهم رجالًا».

الدرجة الثالثة: وهو الذي يظهر الكبر على لسانه حتى يدعوه إلى الدعوى، والمفاخرة، والمباهاة، وتزكية النفس، وحكايات الأحوال والمقامات، والتشمر لغلبة الغير في العلم والعمل.

أما العابد، فإنه يقول في معرض التفاخر لغيره من العُبَّاد مَن هو، وما عمله، ومن أين زهده، فيطول اللِّسان فيهم بالتنقُّص، ثم يُثْني على نفسه، ويقول: إنِّي لم أفطر منذ كذا وكذا، ولا أنام الليل، وأختم القرآن في كل يومٍ، وفلان ينام سحرًا ولا يكثر القراءة، وما يجري مجراه، وقد يزكي نفسه ضمنًا، فيقول: قصدني فلان بسوءٍ، فهلك ولده، وأُخذ ماله، أو مرض، أو ما يجره مجراه يدَّعي الكرامة لنفسه.

وأما مباهاته، فهو أنه لو وقع مع قومٍ يصلون بالليل، قام وصلى أكثر مما كان يصلي، وإن كانوا يصبرون على الجوع، فيكلف نفسه الصبر ليغلبهم، ويظهر لهم قوته وعجزهم، وكذلك يشتد في العبادة خوفًا من أن يقال: غيره أعبد منه، أو أقوى منه في دين الله.

وأما العالم، فإنه يتفاخر ويقول: أنا متفنن في العلوم، ومطلع على الحقائق، ورأيت من الشيوخ فلانًا وفلانًا، ومن أنت؟ وما فضلك؟ ومن لقيت؟ وما الذي سمعت من الحديث؟ كل ذلك ليصغره، ويعظم نفسه.

وأما مباهاته، فهو أنه يجتهد في المناظرة أن يغلب ولا يغلب، ويسهر طول الليل والنهار في تحصيل علومٍ يتجمل بها في المحافل؛ كالمناظرة والجدل وتحسين العبارة وتسجيع الألفاظ وحفظ العلوم الغريبة ليغرب بها على الأقران، ويتعظم عليهم، ويحفظ الأحاديث ألفاظها وأسانيدها حتى يرد على مَن أخطأ فيها، فيظهر فضله، ونقصان أقرانه، ويفرح مهما أخطأ واحدٌ منهم ليرد عليه، ويسوء إذا أصاب وأحسن خيفةً من أن يرى أنه أعظم منه.

فهذا كله أخلاق الكبر وآثاره التي يثمرها التعزز بالعلم والعمل، وأين مَن يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه، فليت شعري من الذي عرف هذه الأخلاق من نفسه، وسمع قول رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنَّة مَنْ في قلبه مثقال حَبَّةٍ من خردلٍ من كِبْرٍ**».

كيف يستعظم نفسه ويتكبَّر علىٰ غيره، ورسول الله ﷺ يقول: إنه من أهل النار، وإنما العظيم مَن خلا عن هذا، ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظيم وتكبُّر، والعالم هو الذي فهم أنَّ الله تعالىٰ قال له: إنَّ لك عندنا قدرًا ما لم ترَ لنفسك قدرًا، فإن رأيت لها قدرًا، فلا قدر لك عندنا.

ومَن لم يعلم هذا من الدين، فاسم العالم عليه كذب، ومَن علمه لزمه ألَّا يتكبر، ولا يرىٰ لنفسه قدرًا.

فهذا هو التكبر بالعلم والعمل»[(١)]. انتهىٰ من «الإحياء» بتصرفٍ يسيرٍ.



(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٥١).



الفصل الثامن

التكبُر بالأسباب الدنيوية

أثناء الكلام عن الأسباب الدنيوية للكبر، إياك أن تنسىٰ تعريف الكبر، فالكبر عبارة عن شقين «**بطر الحقِّ، وغمط الناس**»، فعند التكلُّم عن الكبر بالحسَب والنسب أو الجمال أو القوة أو المال أو كثرة الأنصار والأتباع، قد يشكل علىٰ البعض أنَّ هذه الأشياء إذا تلبَّس بها العبد قد لا تمنعه من قبول الحقِّ، والرجوع عن الخطأ، وبيان ذلك أن المرء إذا تلبَّس بالكِبْرِ بسبب هذه الأشياء، فإنَّه يَتَعالَىٰ علىٰ خَلْق الله بأن يزدري الآخرين ويحتقرهم، أي: بالشق الثاني من تعريف الكبر، وليس من شرطها ألَّا يقبل الحق، وفي الغالب أيضًا لا يقبل الحق إذا عرض عليه.

أولًا: التكبُّر بالحسَب والنَّسَب، والمراد من ذلك.

قال أبو حامد في «إحيائه»: «إن الذي له نسب شريف يستحقر مَن ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملًا وعلمًا، وقد يتكبر بعضهم فيرىٰ أن الناس له أموال وعبيد، ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم، وثمرته علىٰ اللسان التفاخر به، فيقول لغيره: يا نبطي، يا هندي، ويا أرمني، مَن أنت؟ ومن أبوك؟ فأنا فلان ابن فلان، وأين لمثلك أن يكلمني أو ينظر إليَّ، ومع مثلي تتكلم، وما يجري مجراه.

وذلك عِرقٌ دفينٌ في النفس لا ينفك عنه نسيب وإن كان صالحًا وعاقلًا، إلا أنه قد لا يترشَّح منه ذلك عند اعتدال الأحوال، فَإِنْ غلبه غضبٌ، أطفأ ذلك نور بصيرته، وترشَّح منه[(١)].

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٥٢).

والفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، مذمومٌ وكبيرةٌ من الكبائر فضلًا عن كونه من أسباب الكبر.

برهان ذلك: روىٰ مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**اثنتان في الناس هما بهم كفرٌ: الطعن في النسب، والنياحة علىٰ الميت**»(١).

وروىٰ الشيخان من حديث أبي ذر قال: كان بيني وبين رجلٍ من إخواني كلام، وكانت أمه أعجمية، فعيَّرته بأمه، فشكاني إلىٰ النبي ﷺ، فلقيت النبي ﷺ، فقال: «**يا أبا ذرٍّ، إنك امرؤٌ فيك جاهلية**»(٢).

وفي «الشعب» للبيهقي أنه قال له: «يا ابن السوداء»(٣).

قال الحافظ في «الفتح»: «قوله ﷺ لأبي ذرٍّ: «**فيك جاهلية**»، أي: خصلة جاهلية مع أن منزلة أبي ذرٍّ من الإيمان في الذروة العالية، وإنما وبَّخه بذلك علىٰ عظيم منزلته عنده؛ تحذيرًا له عن معاودة مثل ذلك؛ لأنه وإن كان معذورًا بوجهٍ من وجوه العذر، لكن وقوع ذلك من مثله يستعظم أكثر ممَّن هو دونه»(٤).

والرجل الذي عيَّره أبو ذر هو بلال بن رباح رضي الله تعالىٰ عن الصحابة أجمعين.

وروىٰ البرماوي أنه لما شكاه بلال إلىٰ رسول الله ﷺ، قال له: «**شتمت بلالًا وعيَّرته بسواد أمه؟**». قال: نعم. قال: «**حسبت أنَّه بقي فيك شيءٌ من كبر الجاهلية**»، فألقىٰ أبو ذرٍّ خدَّه علىٰ التراب، ثم قال: لا أرفع خدي حتىٰ يطأ بلالٌ خدي بقدمه.

زاد ابن الملقن: «فوطئ خده»(٥).

---

(١) رواه مسلم (٦٧).

(٢) رواه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١).

(٣) «شعب الإيمان» (٤٧٧٢).

(٤) «فتح الباري» لابن حجر (١/ ٨٥).

(٥) «اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح» (١/ ٢٠٧).

قال ابن بطال: «قوله ﷺ: «**إنَّك امرؤٌ فيك جاهليةٌ**»، يريد أنك في تعييره بأُمِّه علىٰ خُلق من أخلاق الجاهلية؛ لأنهم كانوا يتفاخرون بالأنساب، فجهلت وعصيت الله في ذلك، ولم تستحقَّ بهذا أن تكون كأهل الجاهلية في كفرهم بالله تعالىٰ»(١).

وروىٰ الإمام أحمد بسند حسن عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ في أُمَّتي أربعًا من أمر الجاهلية ليسوا بتاركيهن: الفخر بالأحساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة علىٰ الميت، فإنَّ النائحة إن لم تتب قبل أن تموت فإنها تقوم يوم القيامة عليها سرابيل من قطران، ثم يغلي عليها درعٌ من لهب النار**»(٢).

وقوله ﷺ: «**الفخر بالأحساب**»، أي: التعاظم بالآباء، والأحسابُ جمع حسبٍ، وهو ما تعدُّه من مفاخر آبائك(٣).

وقوله ﷺ: «**والطعن في الأنساب**»، أي: أنساب الناس بأن يقال: هذا ليس بابن فلانٍ(٤).

وروىٰ أبو داود بسند حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله عَزَّوَجَلَّ قد أذهب عنكم عُبيَّة الجاهلية، وفخرها بالآباء، الناس رجلان: مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوامٍ، إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون علىٰ الله من الجعلان(٥) التي تدفع بأنفها النتن**»(٦).

---

(١) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (١/ ٨٥).

(٢) أخرجه أحمد بسند صحيح (٢٢٩٠٤).

(٣) «عون المعبود شرح سنن أبي داود» (ط. المكتبة السلفية) (٩/ ٢٣٩٤).

(٤) «التيسير بشرح الجامع الصغير» (١/ ٤٧٦).

(٥) «**الجِعْلان**»: بكسر الجيم وسكون العين، جمع جُعَل، بضم ففتح: دويبة سوداء تدير الأوساخ بأنفها.

(٦) «سنن أبي داود» (٥١١٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الترغيب والترهيب» (٢٩٦٥).

وفي روايةٍ عند الإمام أحمد: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قَدْ أذهب عنكم عُبيَّة الجاهليَّة، وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، والناس بنو آدم، وآدم من ترابٍ، لينتهينَّ أقوام فخرهم برجالٍ، أو ليكونن أهون عند الله من عدتهم من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن**»(١).

قال المناوي في «فيض القدير»: «قوله ﷺ: «**لينتهين**» اللام في جواب القسم، أي: والله لينتهين «**قوم يفتخرون بآبائهم أو ليكونن**» عطف علىٰ «**لينتهين**»، والضمير الفاعل العائد إلىٰ أقوامٍ هو واو الجمع المحذوف من «ليكونن»، يعني: والله إن أحد الأمرين واقع لا محالة؛ إما الانتهاء أو كونهم «**أهون علىٰ الله من الجعلان**»، وهي دويبة سوداء قُوتُها الغائط، فإن شمت ريحًا طيبةً ماتت، فليحذر كل عاقل من الاتكال علىٰ شرف نفسه، وفضيلة آبائه، فإن ذلك يورث النقص والانحطاط عن معالمهم، فنهايته الحسرة والندامة، وغايته العداوة؛ إذ كل يظهر مثالب الآخر، ويثبت مفاخر نفسه، فيؤدي لذلك، فلا ينبغي لعاقلٍ الإعجاب بنفسه ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾»(٢).

وعلىٰ الجملة، أحد الأمرين واقع ألبتة؛ إما الانتهاء عن الافتخار، أو كونهم أذل عند الله تعالىٰ من الجعلان الموصوفة(٣).

قال العلامة الدميري في «حياة الحيوان»: «الجعل كصرد ورطب، وجمعه جعلان بكسر الجيم والعين ساكنة، وهو يجمع الجعر اليابس ويدخره في بيته، وهو دويبة معروفة تعض البهائم في فروجها فتهرب، شديد السواد، في بطنه لون حمرة،

---

(١) «مسند أحمد». ت: شاكر (٨٧٢١) بسندٍ صحيحٍ.

(٢) «فيض القدير» (٥/ ٣٧).

(٣) «عون المعبود» و«حاشية ابن القيم» (١٤/ ١٧).

يوجد كثيرًا في مراح البقر والجواميس ومواضع الروث، ومن شأنه جمع النجاسة وادخارها.

ومن عجيب أمره أنه يموت من ريح الورد وريح الطيب، فإذا أعيد إلىٰ الروث عاش.

ومن عادته أن يحرس النيام، فمَن قام لقضاء حاجته تبعه، وذلك من شهوته للغائط؛ لأنه قُوتُه»[(١)].

علاج الكبر المتولَّد بالحسب والنسب، وذلك من خلال عدة محاور:

المحور الأول: أن يعلم أنه ليس لأحدٍ اختيارٌ في حسبه ونسبه، فالإنسان فينا ولد ليس له اختيارٌ في أبيه وأمه، فلا يليق أبدًا أن يتكبَّر أحد بشيءٍ لا دخل له فيه، ولا قدرة عليه.

المحور الثاني: أن ينظر إلىٰ حقيقة حسبه ونسبه، فبالنظرة الحقيقة إلىٰ أصل الآدمي وإلىٰ حسبه ونسبه، يجد الإنسان شيئًا عجيبًا، فالأصل الأول لنا يوطأ بالأقدام وهو التراب، وأصلنا الثاني تغسل منه الأبدان وهو المني، فقد أمَرنا الشارع إذا خرج من المكلف بشروطٍ معينةٍ أن يغتسل منه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣]، فلا يليق بعاقلٍ أن يكون هذا أصله، ثم يتكبر علىٰ خَلق الله عَزَّوَجَلَّ، ففخر الإنسان بحسبه ونسبه مرفوضٌ عند العقلاء، فضلًا عن الأدلة الشرعية.

المحور الثالث: أن ينظر في تحذير الشرع من هذا الأمر:

فقد وردت نصوصٌ عن النبي ﷺ مُحذِّرة من هذا الأمر، منها:

عن أُبيِّ بن كعبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: انتسب رجلان علىٰ عهد رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان، فمَنْ أنت لا أُمَّ لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «**انتسب رجلان**

---

(١) «عون المعبود شرح سنن أبي داود» (ط. المكتبة السلفية) (٩/ ٢٣٩٦).

علىٰ عهد موسىٰ عليه السلام...»، وكأنَّ النبي ﷺ أراد أن يلقن للصحابة درسًا ممن سبقنا من باب أخذ العبرة والعظة «**... فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان** -حتَّىٰ عدَّ تسعةً- **فمن أنت لا أم لك؟ قال: أنا فلان بن فلان، ابن الإسلام. قال: فأوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ عليه السلام أن هذين المنتسبين، أما أنت أيها المنتمي** -أو المنتسب- **إلىٰ تسعةٍ في النار، فأنت عاشرهم، وأما أنت يا هذا المنتسب إلىٰ اثنين في الجنة، فأنت ثالثهما في الجنة**»(١).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله عز وجل قَدْ أذهب عنكم عُبيَّة الجاهلية، وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، وفاجر شقي، والناس بنوآدم، وآدم من تراب، لينتهينَّ أقوام فخرهم برجال، أو ليكونن أهون عند الله من عدتهم من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن**»(٢)(٣).

---

(١) رواه أحمد (٣٥/ ١٠/ ٢١١٧٨)، وقال الشيخ الأرناؤوط عليه رحمة الله: رجاله ثقات، رجال الشيخين، وصحَّحه الألبانيُّ في «السلسلة» (٣/ ٢٦٥/ ١٢٧٠)، وقال: وهذا إسناد صحيح، ورجاله كلهم ثقات رجال الشيخين غير يزيد بن زياد بن أبي الجعد، وهو ثقة.

(٢) رواه أحمد (١٤/ ٣٤٩/ ٨٧٣٥)، وقال الشيخ الأرناؤوط عليه رحمة الله: إسناده حسن، وأخرجه أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (٢/ ٦٠)، والبيهقي في (الشعب) (٥١٢٧)، و(٥١٢٨) من طريق سفيان الثوري، والبيهقي في (السنن) (١٠/ ٢٣٢)، وفي (الشعب) (٥١٢٦)، وفي (الآداب) (٤٢٢)، وأخرجه أبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٦)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣٤٥٨)، وحسنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع الصغير» (١/ ٣٦٧/ ١٧٨٢).

(٣) [الشرح]: «**عُبيَّة الجاهليَّة**»، أي: فخرها وتكبُّرها ونخوتها. «مؤمن تقي وفاجر شقي»، قال الخطابي: معناه أن الناس رجلان، مؤمن تقي، فهو الخير الفاضل وإن لم يكن حسيبًا في قومه، وفاجر شقي، فهو الدني وإن كان في أهله شريفًا رفيعًا. انتهىٰ. وقيل: معناه: أن المفتخر المتكبِّر إما مؤمن تقي، فإذن لا ينبغي له أن يتكبر علىٰ أحدٍ، أو فاجر شقي، فهو ذليل عند الله، والذليل لا يستحق التكبر، فالتكبُّر منفي بكل حالٍ، «أنتم بنو آدم، وآدم من ترابٍ»، أي: فلا يليق بمَنْ أصله التراب النخوة والكبر، «لينتهين»، أي: والله ليتركن، «أو ليكونن» المعنىٰ: ليصيرن، «أهون»، أي: أذل علىٰ الله، أي: عنده «من الجعلان»: دويبة سوداء تدير الخراء بأنفها «التي تدفع بأنفها النتن»، أي: العذرة.

المحور الرابع: أن يعلم أن الذي سينفعه عند الله عَزَّوَجَلَّ هو عمله:

فهذه النعرة الموجودة بكثرةٍ في أيامنا هذه تؤدي إلىٰ التراخي والتكاسل والفتور، وإلىٰ كل قبيحٍ، خاصةً إذا كان حسب الشخص ونسبه حقًّا له شأن، فيظل المرء يتكلم عن أمجاد أجداده، ويبكي علىٰ أطلالهم، ثم لا يقدم شيئًا، وهذا الذي أشار إليه النبي ﷺ، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ وفيه: «**ومَنْ بطَّأ به عمله، لم يسرع به نسبه**»(١)، أي: إذا أبطأ بك العمل، وتأخرت عن المسير علىٰ الصراط، وعن اللحوق بالرَّكب، فاعلم أن نسبك لن يُلحقك بمن سبقوك، فلنحذر جميعًا من هذا الداء الخطير، فالناس كما قال النبي ﷺ: «**مؤمن تقي، وفاجر شقي**»(٢)، وصدق مَن قال:

إذا افتخر الإنسان بآباءٍ لهم نسب ... قلنا نعم ولكن بئس ما ولدوا

ثانيًا: التكبُّر بالجمال وعلاجه:

وهذا الأمر يكثر عند النساء، وتتولد عنه الغيبة والسب والشتم والتحقير والسخرية والازدراء.

قال أبو حامد الغزالي في «إحيائه»: «وعلامة المتكبر بالجمال: أن يطلب التجمل إذا رآه الناس، ولا يبالي إذا انفرد بنفسه كيف كان.

وعلامة طالب الجمال: أن يحب الجمال في كل شيءٍ ولو في خلوته، وحتىٰ في سنور داره، فذلك ليس من التكبُّر»(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) رواه الترمذي (٣٩٥٥)، وأبو داود (٥١١٦)، وحسنه الألبانيُّ.

(٣) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٥٦)، راجع تحقيق دار المعرفة - بيروت.

وعلاج ذلك من خلال المحاور الآتية:

المحور الأول: أن يعلم العبد أن الشرع حذر من هذا الأمر أبلغ التحذير:

فعن عائشة قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا، قال بعض الرواة: تعني قصيرةً، فقال ﷺ: «**لقد قلتِ كلمةً لو مُزجَت بماء البحر لمزجته...**». الحديث[(١)].

وهذه المواقف يقدر الله وقوعها لكي نتعلم منها ونعتبر، وهذا من أبلغ التحذير من أن ينتقص الرجل الآخرين، أو يتعالىٰ عليهم بجماله أو بقوته.

المحور الثاني: أن يعلم أن جمال العبد وحسن هندامه أمرٌ نسبيٌّ:

أي أن ما يراه بعض الناس جميلًا، قد يراه البعض الآخر قبيحًا، وهذا أمرٌ غرزه الله في العباد لتستقيم الأمور، ويتآلف الناس، فلو كان الجمال ليس له إلا منظور واحد لتغيرت الحياة، وتقلَّبت، ولعزَّت علينا الحياة الهنية، ولكن تجد إنسانًا يرىٰ الجمال في كذا، والآخر يرىٰ الجمال في عكسه تمامًا، هذه سُنَّة الله تعالىٰ في خلقه، فمسألةُ الجمال نسبيةٌ، فكيف تتكبَّر بشيءٍ ما ثبت بمقياسٍ عند البشر؟ فلعلَّ الشخص أو المرأة ترىٰ نفسها جميلةً وهي عند جل الناس في غاية الدمامة، والعكس.

المحور الثالث: أن ينظر فيما جعله الله فيه من سوءاتٍ:

فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد قدَّر علينا أشياء، مَن أمعن النظر فيها لا يمكن أن يتكبَّر، وهي ما يخرج من بطنك وبدنك إذا أردت أن تقضي حاجتك[(٢)]، ومن ذكر السلف لذلك ما

---

(١) رواه أحمد (٢٥٥٦٠)، وعند أبي داود (٤٨٧٥)، وصحَّحه الألبانيُّ في «المشكاة» (٤٨٥٣-٤٨٥٧)، «غاية المرام» (٤٢٧).

(٢) ولكن الإشكاليَّة أن إلف العادة وكثرة ممارسة هذا الأمر جعل الناس ينسونه، وأيضًا بدأ الغرب والعلم

يحكىٰ أن العبد الصالح طاوس كان يمشي مرةً مع عمر بن عبد العزيز قبل أن يتولىٰ عمر الخلافة، فمشىٰ عمر مشيةً ما ينبغي لمكلفٍ أن يمشيها، فغمزه طاوس وقال: «ما ينبغي لمَن في بطنه الخراءة أن يمشي هذه المشية».

ومن ضمن الأشياء التي علىٰ الإنسان أن يعتبر وينتبه لها: أن أي شيءٍ حسن جميل مقبول الشكل والرائحة يخالط الآدمي، يتحول إلىٰ قبيحٍ منتنٍ وإن اختلفت مدة التحول، ومثال ذلك: ثياب المرء يلبسه نظيفًا جميلًا، وبعد ساعاتٍ قد تكدر من بدن صاحبه.

وقالوا: «لا يليق بآدمي يمسح الخراءة عن استه في اليوم مرة أو مرتين أن يتكبر».

ومنها: ما قاله مطرف بن عبد الله بن الشخير لما رأىٰ المهلب بن أبي صفرة - وكان الثاني أميرًا علىٰ البلاد- يمشي مشيةً ما ينبغي لمكلفٍ أن يمشيها، فقال: يا عبد الله، هذه مشيةٌ يبغضها الله ورسوله، فقال له: أما تعرفني؟ قال: «بلىٰ أعرفك، أوَّلك نطفة مذرة[1]، وآخرك جيفة قذرة، وأنت بين ذلك في جوفك العذرة».

= عمومًا -بقصدٍ أو بغير قصدٍ- يستحدث أشياء لا تجعل الإنسان يفطن لهذه العملية، فقديمًا كان الوضع مختلفًا عن الآن، فكان حتمًا، ولا بد أن يرىٰ الإنسان ما ينزل منه، وأن يتعامل معه بيساره، وأن يشمَّ رائحته، أما العلم الآن فيحاول جاهدًا أن يَحُول بين الإنسان وبين هذا الشيء حتىٰ لا يتخيَّل الإنسان أنه يخرج منه مثل هذا، وهذا جعلنا نتناسىٰ، أو نغفل عن حقيقتنا، فلا تترك هذا الأمر يغيب عنك حتىٰ لا يتمكن منك داء العجب أو الكبر.

(١) «نطفة نذرة»، أي: عند الالتقاء بما أحل الله ﷻ، وكما قالت هند بنت عتبة بن ربيعة زوج أبي سفيان بن حرب لمَّا بايع النبي ﷺ النساء بأواخر سورة الممتحنة: ألا يشركن بالله شيئًا، ولا يسرقن، ولا يزنين، قالت هند، وصدقت فيما قالت: «يا رسول الله، ما أقبحه حلالًا، فكيف به حرامًا». **قال أبو الفرج الجوزي (ت ٥٩٧) في «صيد الخاطر»**: ولما كانت صورة النكاح تأباها النفوس الشريفة من كشف العورة، وملاقاة ما لا يستحسن لنفسه، جعلت الشهوة تحثُّ عليه؛ ليحصل المقصود، فالعاقل الكَيِّس يفقه هذا الأمر، فإنَّ الشرع أمَرك أن تتطهَّر من الجنابة، وكأنَّ الإنسان أصبح =

وبهذه النظرة -ناهيك عن الأدلة الشرعية- لا يتعالىٰ الإنسان علىٰ أحدٍ، ولا يترفع علىٰ مخلوقٍ.

وعلىٰ الجملة، قال أبو حامد الغزالي في «**إحيائه**»: «التكبر بالجمال، ودواؤه أن ينظر إلىٰ باطنه نظر العقلاء، ولا ينظر إلىٰ باطنه نظر البهائم».

ومهما نظر إلىٰ باطنه، رأىٰ من القبائح ما يُكدِّر عليه تعزُّزه بالجمال، فإنَّ به الأقذار في جميع أجزائه؛ الرجيع في أمعائه، والبول في مثانته، والمخاط في أنفه، والبزاق في فيه، والوسخ في أذنيه، والدم في عروقه، والصديد تحت بشرته، والصنان تحت إبطه، يغسل الغائط بيده، كل يوم دفعة أو دفعتين، ويتردد كل يومٍ إلىٰ الخلاء مرة أو مرتين؛ ليخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلًا عن أن يمسه أو يشمه، كل ذلك ليعرف قذارته وذله، هذا في حال توسطه.

وفي أول أمره خُلق من الأقذار الشنيعة الصور، من النطفة ودم الحيض، وأخرج من مجرىٰ الأقذار؛ إذ خرج من الصلب، ثم من الذكر مجرىٰ البول، ثم من الرحم مفيض دم الحيض، ثم خرج من مجرىٰ القذر.

قال أنسٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: كان أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخطبنا، فيقذر إلينا أنفسنا، ويقول: خرج أحدكم من مجرىٰ البول مرتين، ولو ترك نفسه في حياته يومًا لم يتعهدها بالتنظيف والغسل، لثارت منه الأنتان والأقذار، وصار أنتن وأقذر من الدواب المهملة التي لا تتعهد نفسها قط، فإذا نظر أنه خلق من أقذارٍ، وأسكن في أقذارٍ، وسيموت، فيصير جيفةً أقذر من سائر الأقذار، لم يفتخر بجماله الذي هو كخضراء الدمن، وكلون الأزهار في البوادي، فبينما هو كذلك، إِذْ صار هشيمًا تذروه الرياح،

= بها غير صالحٍ لفعل بعض أنواع العبادات.

كيف ولو كان جماله باقيًا، وعن هذه القبائح خاليًا، لكان يجب ألَّا يَتكبَّر به علىٰ القبيح؛ إذ لم يكن قبح القبيح إليه، فينفيه، ولا كان جمال الجميل إليه حتىٰ يحمد عليه، كيف ولا بقاء له، بل هو في كل حينٍ يتصور أن يزول بمرض، أو جدري، أو قرحة، أو سبب من الأسباب، فكم من وجوهٍ جميلةٍ قد سمجت بهذه الأسباب، فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمَن أكثر تأمَّلها»[(١)]. اهـ. من «الإحياء».

المحور الرابع: أن يعلم أنه بفعله هذا يعيب خَلْق الله عَزَّوَجَلَّ، فقد ذكر العلماء أن الإنسان إذا تعالىٰ علىٰ خَلق الله بجماله، واحتقرهم لدمامتهم، فقد عاب خَلق الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا حدث مع عبد العزيز الكناني المكي -وكان دميم الخِلقة حتىٰ إنهم سمَّوه من شدة دمامته بالغول- لما أتىٰ في حضرة الخليفة المأمون ليناظر بِشرًا المريسي، فلما دخل مجلس الخليفة، قال أحدٌ من الناس: يا أمير المؤمنين، حسبك منه دمامة خلقته، فلمَّا انتهىٰ الأمر الذي أتىٰ له، قال عبد العزيز للخليفة: لقد سمعت مَنْ قال كذا وكذا، ولا أدري مَن هو، وما يعيبني من صنعة ربي؟[(٢)]، يعني: ما وجه العيب في أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ خلقني علىٰ هذا.

المحور الخامس: أن يتذكَّر أن هذا الجمال لم يكتسبه العبد بنفسه، فلا دخل للعبد بهذا الأمر مطلقًا، فهو لم يكتسب حسن المنظر والهندام بعكس العلم والعبادة، وإن كان بالنظر الدقيق هو لم يكتسبهما أيضًا، فالتوفيق من الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٦١، ٣٦٢).

(٢) «الحيدة والاعتذار في الرد علىٰ من قال بخلق القرآن» (ص٣١)، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.

المحور السادس: أن يعلم أن الشرع جاء بالتحذير من المبالغة في هذا الأمر، فقد وردت النصوص الشرعية بالتحذير من الاهتمام بهذا الأمر والمبالغة فيه.

عن أبي أمامة، قال: ذكر أصحاب رسول الله ﷺ يومًا عنده الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «**ألا تسمعون، ألا تسمعون، إن البذاذة من الإيمان، إن البذاذة من الإيمان**»، يعني: التقحل.

«قحل»: إذا التزق جلده بعظمه من الهزال والبلىٰ[(١)]، «والبذاذة»: هي رثة الهيئة، وعدم الاهتمام بالمظهر، وعدم المبالغة فيه، فعن عبدالله بن بريدة، أنَّ رجلًا من أصحاب النبي ﷺ رحل إلىٰ فضالة بن عبيد وهو بمصر، فقدم عليه، فقال: أما إنِّي لم آتك زائرًا، ولكنِّي سمعت أنا وأنت حديثًا من رسول الله ﷺ رجوت أن يكون عندك منه علمٌ، قال: وما هو؟ قال: كذا وكذا، قال: فما لي أراك شعثًا وأنت أمير الأرض؟ قال: «إن رسول الله ﷺ كان ينهانا عن كثيرٍ من الإرفاه»، قال: فما لي لا أرىٰ عليك حذاءً؟ قال: «كان النبي ﷺ يأمرنا أن نحتفي أحيانًا»[(٢)].

«والإرفاء»: هو المبالغة في حسن الهندام والمظهر، فنهي عن ذلك؛ لئلَّا يتطرق إلىٰ قلب المكلف شيء من الكبر، والتعالي علىٰ الخلق به، لذلك ما كان يعير أئمتنا الكرام وسلفنا الصالح هذا الأمر أي اهتمامٍ أبدًا، ولو نظرت إليهم جميعًا، وتدبرت سِيَرهم، لا تجد أحدًا منهم لفته هذا الأمر قط.

---

(١) رواه أبو داود (٤١٦١)، وابن ماجة (٤١١٨)، وأحمد (٣٩/ ٤٩٣)، وقال الشيخ الأرناؤوط عليه رحمة الله: إسناده حسن، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٣٤١).

(٢) رواه أبو داود (٤١٦٠)، والنسائي (٥٠٥٨)، والبيهقي (٦٠٤٩)، وأحمد (٢٣٩٦٩)، وقال الشيخ الأرناؤوط عليه رحمة الله: إسناده صحيح، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٥٠٢).

ثالثًا: التكبُّر بالقوة:

وهذا كثيرٌ عند الشباب، تجده يزدري الناس، ويتعالىٰ عليهم بقوته، وربما مارس شيئًا من الجبروت علىٰ خَلق الله، وعلاج ذلك في الآتي:

١. أن يعلم العبد أن الله عَزَّوَجَلَّ أقدر عليه منه علىٰ الناس، فالله عَزَّوَجَلَّ علىٰ كل شيءٍ قدير، وبكل شيءٍ عليم، وفعال لما يريد.

فعن أبي مسعودٍ الأنصاري، قال: كنت أضرب غلامًا لي بالسوط، فسمعت صوتًا من خلفي: «**اعلم أبا مسعودٍ**»، فلم أفهم الصوت من الغضب، قال: فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ، فإذا هو يقول: «**اعلم أبا مسعودٍ، اعلم أبا مسعودٍ**»، قال: فألقيت السوط من يدي، فقال: «**اعلم أبا مسعودٍ أن الله أقدر عليك منك علىٰ هذا الغلام**»، قال: فقلت: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا.

وفي لفظٍ: «فالتفتُّ، فإذا هو رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، هو حُرٌّ لوجه الله، فقال: «**أمَا لَوْ لم تفعل، للفحتك النار**»، أو: «**لمسَّتك النار**»[(١)]، وهذه تربية عملية، وكأنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول له: انظر إلىٰ فعلك بهذا الغلام وكيف هو صامت ليس له سلطانٌ أن يدفع عن نفسه ما تفعله به، ولا يجرؤ أن يتكلم، كذلك -ولله عَزَّوَجَلَّ المثل الأعلىٰ- اعلم أن الله أقدر عليك منك علىٰ هذا الغلام.

٢. أن يخشىٰ من ذهاب صحته وقوته:

ففي عصرنا هذا بالذات تجد أن الله عَزَّوَجَلَّ يُحدث للبشرية من الأمراض والأسقام ما يفوق تقنيتهم وعلمهم، وهذا مشاهدٌ محسوسٌ، وتجد أن أكثر الأمراض فتكًا بالإنسان -علىٰ حد كلامهم- يقولون: إن سببها فيروسات في منتهىٰ الضآلة، لا ترىٰ

---

(١) رواه مسلم (١٦٥٩)، وأبو داود (٥١٥٩).

إلا بالمجهر الإلكتروني، ولكنها إذا حلت بالبدن، فتكت بصاحبه، وصدق الله ﷻ إذ يقول: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٨].

قال أبو حامد الغزالي في «إحيائه»: «التكبر بالقوة والأيدي، ويمنعه من ذلك أن يعلم ما سلط عليه من العلل والأمراض، وأنه لو توجع عرقٌ واحدٌ في يده، لصار أعجز من كل عاجزٍ، وأذل من كل ذليلٍ، وأنه لو سلبه الذباب شيئًا لم يستنقذه منه، وأن بقةً لو دخلت في أنفه، أو نملةً دخلت في أذنه، لقتلته، وأن شوكةً لو دخلت في رجله لأعجزته، فمَن لا يطيق شوكةً، ولا يقاوم بقةً، ولا يقدر علىٰ أن يدفع عن نفسه ذبابةً، فلا ينبغي أن يفتخر بقوته، ثم إن قوي الإنسان فلا يكون أقوىٰ من حمارٍ، أو بقرةٍ، أو فيلٍ، أو جملٍ، وأي افتخارٍ في صِفَةٍ يسبقك فيها البهائم»[(١)].

٣. أن يعلم أنَّ الله ﷻ قد أهلك مَن هُمْ أشد منه قوةً، ولم يعجزوه:

فإن الله ﷻ أراد أن يضرب لنا مثلًا عن هؤلاء، فقال -وقوله الحق- عن قوم عادٍ وهو يصفهم ﷻ: ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر: ٨]، وهي قبيلة من القبائل في الأزمان الغابرة، وصل بهم الحال أنهم تبجَّحوا علىٰ الخَلق، وصاحوا ورفعوا عقيرتهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فمهما كثرت قوتك، فلن تعجز الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: ١٥]، فكانت نتيجتهم: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت: ١٦]، وقال سبحانه عن قوم ثمود: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء: ١٤٩]، وهم أيضًا لم يعجزوا الله ﷻ، فتكبر الإنسان علىٰ خَلق الله ﷻ بقوته تصرفٌ مذمومٌ شرعًا وعقلًا.

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٦٢).

رابعًا: التكبُّر بكثرة الأتباع والأنصار:

ويدخل فيه التكبُّر بالقرب من السَّلاطين، والتمكُّن من جهتهم:

قال أبو حامدٍ الغزالي في «إحيائه»: «هذا أقبح أنواع الكِبْر، فإنَّ المُتكبِّر بماله كأنه متكبِّر بفرسه وداره، ولو مات فرسه، وانهدمت داره، لعاد ذليلًا، والمتكبر بتمكين السلطان وولايته لا بصفةٍ في نفسه، بنىٰ أمره علىٰ قلبٍ هو أشد غليانًا من القِدر، فإن تغير عليه كان أذل الخَلق، وكل مُتكبِّر بأمرٍ خارجٍ عن ذاته، فهو ظاهر الجهل، كيف والمتكبر بالغنىٰ لو تأمل لرأىٰ في اليهود مَن يزيد عليه في الغنىٰ والثروة والتجمل، فأُفٍّ لشرفٍ يسبقك به اليهودي، وأُفٍّ لشرفٍ يأخذه السارق في لحظةٍ واحدةٍ، فيعود صاحبه ذليلًا مفلسًا، فهذه أسبابٌ ليست في ذاته، وما هو في ذاته ليس إليه دوام وجوده، وهو في الآخرة وبالٌ ونكالٌ، فالتفاخر به غاية الجهل، وكل ما ليس إليك فليس لك، وشيء من هذه الأمور ليس إليك، بل إلىٰ واهبه إن أبقاه لك، وإن استرجعه زال عنك، وما أنت إلا عبد مملوك لا تقدر علىٰ شيءٍ، ومن عرف ذلك لا بد وأن يزول كِبْره»[(١)]. انتهىٰ من «الإحياء».

وعلىٰ مَنْ يتكبَّر بكثرة أتباعه وأنصاره أن يعلم الآتي:

١. أنَّ هذا الذي يتكبَّر به ليس من كَسْبه، بل هو خارجٌ عن ذاته:

لذلك قال أهل العلم عن هذا النوع من الكبر: إنه من أقبح أنواع الكبر، فلو أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أحيا مَن يتكبَّر بهم العبد، لمَنوا عليه وقالوا: ما تتكبر إلا بنا نحن، ونحن سندك، فهذا لا يصح عقلًا.

٢. أن يعلم أن سلطان مَن ينصرونه لا يدوم:

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٦٢).

فالإنسان يعتز ويتكبر علىٰ الناس بكثرة الأتباع والأنصار من أجل سلطانهم، وأنت إذا أمعنت النظر في السلطان علىٰ وجه الأرض -وبالذات في الديار المصرية- تجد أنه ما من صاحب سلطانٍ إلا ويخاف علىٰ سلطانه؛ لأنه لا يدوم، فأنت تتكبر بأناسٍ سلطانهم لن يدوم، وليس في يد أحدهم، بَلْ يرحل عنهم رغم أنفك، وأنت تنظر إليه وتتحسَّر، ولا تستطيع أن تتكلم، فكيف تتكبَّر به؟ وهذه النقطة نقولها في كلِّ أسباب الكبر، فكثرة الأتباع والأنصار من تكبر بها واهمٌ، ويتكبر بشيءٍ سرعان ما يزول.

لا يحملنك حرصك علىٰ مصلحة الدعوة علىٰ القرب من السلطان، فهذا مدخل يدخل منه الشيطان إلىٰ العبد، ولا بد أن ننبه عليه، فبعض الناس يتودد إلىٰ أصحاب المناصب، ويغلف له الشيطان هذا التودد بغلاف الشريعة، بعنوان: «مصلحة الدعوة»، أي: لكي يستغل صاحب السلطان في تسهيل الدعوة، وأكثر ما يأتي الشيطان لطلبة العلم والدعاة والعلماء من طريق الدين ومصلحة الدعوة، فيستغل كثيرٌ من الناس كثرة الأتباع والأنصار في هذا الأمر، وهذا أمرٌ ممنوعٌ شرعًا إلا بقيودٍ وشروطٍ عزَّ أن تتحقق.

وهنا أصل لا بد أن نأصله، ولا نحيد عنه إلا لضرورةٍ، وهو أن الأصل في طالب العلم، أو الداعي، أو العالم: ألَّا يتطرق إلىٰ السلطان مطلقًا، وبرهان ذلك:

ما رواه الإمام أحمد وأبو داود بسند صحيح عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «**مَن سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتىٰ أبواب السلطان افتتن**»[(١)]، حتمًا ولا بد.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٨٣٦)، والترمذي (٢٢٥٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الترغيب» (٢٢٤٠).

ولكن فَرقٌ بين أمرين: بين أن يدعوك السلطان ليأمرك، أو ينهاك، أو يستفتيك مثلًا، وبين أن تفرض أنت نفسك عليه، شتان بين الأمرين، فإن استدعيت فلا بأس، وإلىٰ الله المشتكىٰ، وأما أن تفرض نفسك مرةً ومرتين وعشرةً، وتفتح بينك وبينهم قنوات، فالأصل في ذلك المنع؛ لأنَّ الدخول علىٰ السلاطين -أي صاحب منصب، وأيًّا كان منصبه- فتنة ولا شك.

قال السيوطي: «مَن سكن البادية جفا»، أي: غلظ طبعه، وصار جافيًا بعد لطف الأخلاق؛ لفقد من يروضه ويؤدبه.

«ومن اتبع الصيد غفل»؛ لأنه إذا كان مهتمًّا به، غفل عن مصالحه، وعن الطاعة والعبادة ولزوم الجماعة والجمعة.

«ومن أتىٰ أبواب السلطان افتتن»، ضُبط بالبناء للفاعل والمفعول.

قال ابن الخازن: «سبب فتنته: أنه يرىٰ سعة الدنيا والخير هناك، فيحتقر نعمة الله عليه، وربما استخدمه، فلا يكاد يسلم في تصرُّفه من الإثم في الآخرة، أو العقوبة في الدنيا، ويجوز أن يكون سبب الافتتان أنه لا يمكنه أن ينكر ما يجب إنكاره»[(١)].

وفي روايةٍ: قال ﷺ: «**مَنْ لزم السُّلطان** -أي: لازمه- **افتتن، وما ازداد عبدٌ من السُّلطان دُنُوًّا** -بضمَّتين وتشديد الواو، أي: قربًا- **إلا ازداد من الله بُعْدًا**»[(٢)].

وعلىٰ الجملة، فالداخل عليهم من غير ضرورةٍ ملجئةٍ، وفتيا من عالِمٍ، إما أن يلتفت إلىٰ تنعمهم فيزدري نعمة الله عليه، أو يهمل الإنكار عليهم، فيفسق فتضيق صدورهم بإظهار ظلمهم، وبقبيح فعلهم، وإمَّا أن يطمع في دنياهم، وذلك هو السحت، ولأنه إن وافقه في مراده، فقد خاطر بدينه، وإن خالفه خاطر بروحه.

---

(١) «قوت المغتذي علىٰ جامع الترمذي» (٢/ ٥٤٧).

(٢) «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٦/ ٢٤١١).

واعلم أن الله ﷻ ناصرٌ دينه، بنا أو بغيرنا، فلا يحملنك استعجالك لنصرة الدين علىٰ أن تسلك مسالك غير شرعية، وفتنة مصلحة الدعوة يفتتن بها الكثير، لكي تفتح لهم المساجد، ويسمح لهم بالدروس، وغير ذلك، وهذا من وجهة نظرهم، أما القوم فعندهم قوانين ونظم لا يحيدون عنها، ولو علىٰ أعناقهم، فَكُنْ علىٰ حذرٍ، وإياك أن تزلَّ قدمك، فمهمتنا إنما هي سلوك المسالك الشرعية التي أجازها لنا الشارع فقط[(١)]، والمتتبع لسيرة النبي ﷺ يجد هذا الأمر أوضح من شمس النهار.

فلا تُقْحم نفسك في هذا البحر الذي لا خضم له، وأنت لست أهلًا له؟ فالسلامة في البعد عنه؛ لأن السلطان له بريق خلَّاب يجذب النفس، وقَلَّ من يسلم منه، ولا حول ولا قوة إلا بالله ﷻ.

خامسًا: التكبُّر بكثرة المال:

المال كما عرَّفه أهل العلم: هو كلُّ ما ينتفع به، مثل: السيارات والأراضي والمواشي والذهب والفضة والأوراق النقدية في عصرنا، كلُّ هذا من المال، فإذا تكبَّر الإنسان علىٰ الخَلق بماله، فعليه أن يعلم الآتي حتىٰ يتخلَّص من الكبر بالمال:

أولًا: أن هذا المال زائل غير باقٍ:

فإنَّ سُنَّة الله قد جرت أن العبد إن لم يتركه ماله، فسيتركه هو، وهذا يبين أن المتكبر بالمال من أشدِّ خَلق الله غباءً.

---

(١) لأن الوسائل في دين الله لها أحكام المقاصد، فإن كان المقصد شرعيًّا، فلا بد أن تستخدم وسيلة شرعية للوصول إليه، أما إن كان المقصد شرعيًّا، ثم سلكت مسلكًا غير شرعي، فالعمل مردود علىٰ صاحبه، فالوسائل لها أحكام المقاصد، فانتبه.

قيل لبعض الحكماء: إن فلانًا جمع مالًا. قال: وهل جمع أيامًا لينفقه فيها؟ قالوا: لا. قال: ما جمع شيئًا[(١)].

فهذه هي النظرة السليمة للمال، كما أن موعد الافتراق بينك وبين مالك يأتيك فجأةً، ولا تعلمه، وليس معنىٰ هذا أن يزهد الإنسان في جمع المال، فمن الصحابة - رضوان الله عليهم- مَنْ كان من أكثر الناس مالًا، مثل: عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وعثمان بن عفان وغيرهم، ولكن المحظور أن يحمل المال الإنسان علىٰ ألَّا يقبل الحق إذا عرض عليه، أو يحمله علىٰ ازدراء الناس والتعالي عليهم، واحتقارهم واستصغارهم، أما الجمع فلا شيء فيه إن كان من طريقٍ مشروعٍ، ولم يعارض واجبًا شرعيًّا، ويؤدي حق الله فيه.

ثانيًا: أن يعلم أنه مسئول عن هذا المال يوم القيامة:

يقول معاذ الرازي -عليه رحمة الله- وهذا من أعجب ما قيل في هذا الأمر: «ما من مسلم يموت إلا ويصاب بمصيبتين بعد موته، لا يصاب بهما أحد غيره، أما الأولىٰ: فإنه يترك ماله كله. وأما الثانية: فإنه يُسْأل عنه كله»[(٢)].

فلو أنَّ الأمر أنِّي أترك المال فقط، لكان هَيِّنًا، ولكن الإشكال أنك ستسأل عنه كله سؤالين:

الأوَّل: من أين اكتسبت هذا المال.

الثاني: فيم أنفقت هذا المال.

ولا بد أن يكون الجواب موافقًا لما أراده الله تعالىٰ شرعًا.

---

(١) «مجموع رسائل ابن رجب» (١/ ٦٥).

(٢) «صفة الصفوة». ط: المعرفة. ت: فاخوري وقلعه جي (٤/ ٩١).

الفصل التاسع

التواضع من الأدوية النافعة لعلاج الكبر

فمن الأدوية النافعة لعلاج الكبر: الوقوف علىٰ فضيلة التواضع الذي هو الاستسلام للحق، وترك الاعتراض في الحكم.

وللتواضع ثلاث درجات:

الدرجة الأولىٰ: التواضع للدين، وهو ألَّا يعارض بمعقولٍ منقولًا، ولا يتهم للدين دليلًا، ولا يرىٰ إلىٰ الخلاف سبيلًا. والتواضع للدين هو الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ، والاستسلام له والإذعان، وذلك بثلاثة أشياء:

الأوَّل: ألَّا يعارض شيئًا مما جاء به بشيءٍ من المعارضات الأربع السارية في العالم، المسماة بـ: المعقول، والقياس، والذوق، والسياسة.

الثاني: ألَّا يتهم دليلًا من أدلة الدين بحيث يظنه فاسد الدلالة، أو ناقص الدلالة، أو قاصرها، أو أنَّ غيره كان أَوْلَىٰ منه، ومتىٰ عرض له شيء من ذلك، فَلْيتَّهم فهمه، وليعلم أن الآفة منه، والبليَّة فيه، كما قيل:

وكم من عائب قولًا صحيحًا ... وآفته من الفهم السقيم

ولكن تأخذ الأذهان منه ... علىٰ قدر القرائح والفهوم

وهكذا في الواقع حقيقةً: أنه ما اتهم أحد دليلًا للدين إلا وكان المتهم هو الفاسد الذهن، المأفون في عقله وذهنه، فالآفة من الذهن العليل لا في نفس الدليل، وإذا رأيت من أدلة الدين ما يُشْكل عليك، وينبو فهمك عنه، فاعلم أنه لعظمته وشرفه استعصىٰ عليك، وأن تحته كنزًا من كنوز العلم، فلم تؤت مفتاحه بعد، هذا في حق نفسك.

وأما بالنسبة إلىٰ غيرك، فَاتَّهم آراء الرجال علىٰ نصوص الوحي، وليكن ردُّها أيسر شيءٍ عليك للنصوص، فما لم تفعل ذلك، فلست علىٰ شيءٍ.

قال الشافعي: «أجمع المسلمون علىٰ أنَّ مَن استبانت له سُنَّة رسول الله ﷺ، لم يحلَّ له أن يدعها لقول أحدٍ»(١).

الثالث: ألَّا يجد إلىٰ خلاف النص سبيلًا ألبتة، لا بباطنه، ولا بلسانه، ولا بفعله، ولا بحاله، بل إذا أحس بشيءٍ من الخلاف فهو كخلاف المقدم علىٰ الزنا، وشرب الخمر، وقتل النفس، بل هذا الخلاف أعظم عند الله من ذلك، وهو داعٍ إلىٰ النفاق، وهو الذي خافه الكبار والأئمة علىٰ نفوسهم.

الدرجة الثانية: أن ترضىٰ بما رضي الحق به لنفسه عبدًا من المسلمين أخًا، وألَّا ترد علىٰ عدوك حقًّا، وأن تقبل من المعتذر معاذيره.

ومعنىٰ: «ألَّا ترد علىٰ عدوك حقًّا»، أي: لا تصح لك درجة التواضع حتىٰ تقبل الحق ممن تحب وممن تبغض، فتقبله من عدوك، كما تقبله من وليِّك.

الدرجة الثالثة: أن تتضع للحق، فتنزل عن رأيك وعوائدك في الخدمة، ورؤية حقك في الصحبة، وعن رسمك في المشاهدة.

وحاصل ذلك: أن تعبد الحق سبحانه بما أمرك به علىٰ مقتضىٰ أمره، لا علىٰ ما تراه من رأيك، ولا يكون الباعث لك داعي العادة، وألَّا يكون باعثك علىٰ العبودية مجرد رأي وموافقة هوىٰ ومحبة وعادة، بل الباعث مجرد الأمر، والرأي والمحبة والهوىٰ والعوائد منفذة تابعة، لا أنها مطاعة باعثة، وأمَّا نزوله عن رؤيةٍ حقةٍ في الصحبة، فمعناه ألَّا يرىٰ لنفسه حقًّا علىٰ الله لأجل عمله، فمتىٰ رأىٰ لنفسه عليه حقًّا، فسدت الصحبة. انتهىٰ من «نضرة النعيم».

---

(١) «مختصر الصواعق المرسلة». ط: دار الفكر (ص٧٧٠).

وهناك فرق كبير بين التواضع والذل والمهانة:

فالتواضع يتولَّد من بين العلم بالله سبحانه، ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله، وبين معرفته بنفسه وتفاصيلها، وعيوب عملها وآفاتها، فيتولَّد من ذلك كله خُلقٌ هو التواضع، وهو انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة لعباده، فلا يرىٰ له علىٰ أحد فضلًا، ولا يرىٰ له عند أحد حقًّا، بل يرىٰ الفضل للناس عليه، والحقوق لهم قبله، وهذا خُلقٌ إنما يعطيه الله عَزَّوَجَلَّ من يحبه ويكرمه ويقربه.

وأمَّا المهانة (الذل)، فهي الدَّناءة والخسَّة وبذل النفس، أو ابتذالها في نَيل حظوظها وشهواتها؛ كتواضع السفل في نيل شهواتهم، وتواضع طالب كل حظٍّ لمن يرجو نَيل حظه منه، فهذا كله ضعةٌ لا تواضع، والله سبحانه يحب التواضع، ويبغض الضعة والمهانة.

والتواضع علىٰ نوعين:

النوع الأول: تواضع العبد عند أمر الله امتثالًا، وعند نهيه اجتنابًا، فإن النفس لطلب الراحة تتلكأ في أمره، فيبدو منها نوع إباء وشرود هربًا من العبودية، وتثبت عند نهيه طلبًا للظفر بما منع منه، فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه، فقد تواضع للعبودية.

النوع الثاني: تواضع لعظمة الرب وجلاله وخضوعه لعزته وكبريائه، فكلما شمخت نفسه، ذكر عظمة الرب تعالىٰ، وتفرده بذلك، وغضبه الشديد علىٰ من نازعه ذلك، فتواضعت إليه نفسه، وانكسر لعظمة الله قلبه، واطمأنَّ لهيبته، وأخبت لسلطانه، فهذا غاية التَّواضع، وهو يستلزم الأول من غير عكسٍ، والمتواضع -حقيقةً- مَن رُزِقَ الأمرين معًا.

فمن فضائل التواضع:

روىٰ مسلم عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، قال: «**ما نقصت صدقة من مالٍ، وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله**»(١).

قال النووي: «قوله ﷺ: «**وما تواضع أحدٌ لله إلارفعه الله**» فيه وجهان:

أحدهما: يرفعه في الدنيا، ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلةً، ويرفعه الله عند الناس، ويجلُّ مكانه.

والثاني: أنَّ المراد ثوابه في الآخرة، ورفعه فيها بتواضعه في الدنيا. قال العلماء: وهذه الأوجه في الألفاظ الثلاثة موجودة في العادة معروفة، وقد يكون المراد الوجهين معًا في جميعها في الدنيا والآخرة، والله أعلم»(٢).

روىٰ الترمذي بسندٍ حسنٍ عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن ترك اللِّباس تواضعًا لله وهو يقدر عليه، دعاه الله يوم القيامة علىٰ رءوس الخلائق حتَّىٰ يُخيِّره من أيِّ حلل الإيمان شاء يلبسها**»، هذا حديث حسن، ومعنىٰ قوله: «**حلل الإيمان**»، يعني: ما يعطىٰ أهل الإيمان من حلل الجنة(٣).

قالت عائشة رضي الله تعالىٰ عنها: «تغفلون أفضل العبادة: التواضع»(٤).

وقال عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَن تواضع لله تخشعًا، رفعه الله يوم القيامة، ومن تطاول تعظمًا، وضعه الله يوم القيامة»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٨).

(٢) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٦/ ١٤٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٨١)، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٧١٧).

(٤) أخرجه وكيع في «الزهد» (٢/ ٤٦٣)، ورجاله ثقات، وإسناده صحيح.

(٥) أخرجه وكيع في «الزهد» (٢/ ٤٦٧).

قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «رأس التواضع أن تضع نفسك عند مَن دونك في نعمة الدنيا حتىٰ تُعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضلٌ، وأن ترفع نفسك عمَّن هو فوقك في الدنيا حتىٰ تُعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضلٌ»[(١)].

ومن فوائد التواضع:

(١) التواضعُ خُلق كريمٌ من أخلاق المؤمنين، ودليل محبة رب العالمين.

(٢) وهو طريق موصل إلىٰ مرضاة الله، وإلىٰ جنته.

(٣) وهو السبيل إلىٰ القرب من الله، ومن ثَمَّ القرب من الناس.

(٤) التواضع عنوان سعادة العبد في الدارين.

(٥) يحب الله المتواضعين، ويكلؤهم برعايته، ويحيطهم بعنايته.

(٦) المتواضعون آمنون من عذاب الله يوم الفزع الأكبر.

(٧) وهو دليلٌ علىٰ حُسْن الخاتمة، وعلىٰ حُسْن الخُلُق.

(٨) التواضع يؤدِّي إلىٰ حصول النصر والبركة في المال والعمر[(٢)].

ومن الأدوية النافعة لعلاج الكبر: الوقوف علىٰ آفاته، ومنها:

(١) طريق موصل إلىٰ غضب الله وسخطه.

(٢) دليل سفول النفس وانحطاطها.

(٣) يورث البعد عن الله، والبعد عن الناس.

(٤) الشعور بالعزلة وضيق النفس وقلقها.

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٤٣).

(٢) «نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم» (٤/ ١٢٦٨).

(٥) اشمئزاز الناس منه، وتفرقهم من حوله.

(٦) استحقاق العذاب في النار.

(٧) هلاك النفس، وذهاب البركة من العمر.

(٨) الكبر من الأسباب التي تُبعد المتكبر عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

(٩) جزاء المتكبر الطرد من رحمة الله.

(١٠) المُتكبِّرون يصرفهم الله عَزَّوَجَلَّ عن آياته، فتعمىٰ بصائرهم، ولا يرون الحقَّ[١].



(١) «نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم» (١١/ ٥٣٨٠).

الفصل العاشر

خاتمة الكلام عن الكبر

أسباب الكمال الديني والدنيوي التي ذكرناها بالتفصيل: (العلم - العمل - المال - الحسَب والنسَب - الجمال - القوة - كثرة الأتباع والأنصار)، هي التي وجد العلماء باستقراء الواقع أن المرء يتكبَّر بها، فانظر فيها، وسَلْ نفسك: هل هذه الأشياء السبعة فعلًا في مقدوري وحوزتي، وأستطيع أن أتحكم فيها، فلا يستطيع أحدٌ أن يسلبها مني إلا بإذني وإرادتي؟

ولَا شكَّ أنَّ الجواب: لا، فبأيِّ حقٍّ أتكبَّر؟ يستحيل أن تجد لذلك جوابًا مقنعًا، فأصبح لزامًا عليك أن تخضع وتخشع لشريعة الله عَزَّوَجَلَّ، ولقبول الحق.

واعلم أن الصِّدق مع النفس -خاصةً في أمور القلوب- هو الذي يأتي بالثمار، واعلم أنك طالما بدأت في مسلك طلب العلم، فلا بدَّ أنَّ الشيطان سيدخل لك، وسيغلف لك الشبهة والدَّاء الفتَّاك بغلاف الشريعة، فمَنْ أخلص النية لله، وأراد فعلًا أن ينقي قلبه من كل مرضٍ هو الذي سيفطن وينجو، أما أن تسير في هذا الطريق دون أن تنظر في هذه الأمور، فكم من عَالِمٍ ارتفع علىٰ أقرانه ونظائره، ثم كانت نهايته أن أكبَّه الله علىٰ مناخره في النار؛ لأنه لم يطهر قلبه، ولم يتابع نفسه.

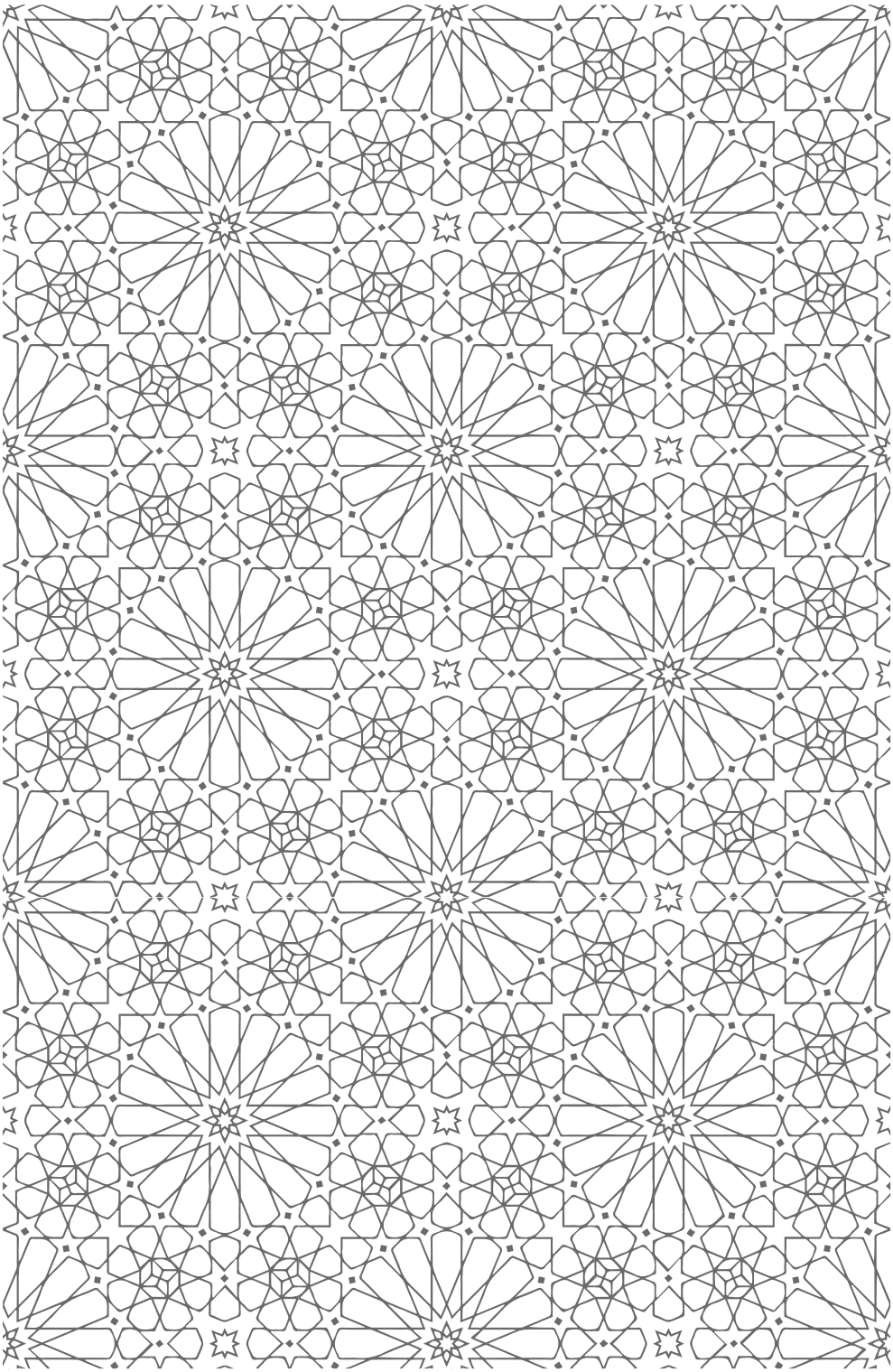
الباب الثاني: مرض العجب

وفيه ثلاثة فصولٍ:

الفصل الأول: تعريف مرض العجب، وذكر الأدلة الشرعية علىٰ ذمِّه.

الفصل الثاني: خطر العجب.

الفصل الثالث: سبب العجب، وعلاج تلك الأسباب.



الفصل الأول

تعريف مرض العجب، وذكر الأدلة الشرعية على ذمِّه

العجب لغةً:

قال ابن منظور: «العجب: الزهو. ورجل معجب: مزهوٌّ بما يكون منه؛ حسنًا كان أو قبيحًا، وأصله في اللغة: أن الإنسان إذا رأىٰ ما ينكره ويقل مثله، قال: قد عجبت من كذا، وإنما يتعجب الإنسان من الشيء إذا عظم موقعه عنده، وخفي عليه سببه»[(١)].

العجب اصطلاحًا:

العجب في الاصطلاح: هو استعظام النعمة، والركون إليها مع نسيان إضافتها إلىٰ المنعم عَزَّوَجَلَّ[(٢)].

الفرق بين العجب والكبر:

ذهب كثير من العلماء إلىٰ أنه لا فرق بين الأمرين، وأنهما شيء واحد، ولكن ذهب المُحقِّقون إلىٰ أن بينهما فرقًا؛ لأنَّ الكبر خُلُق باطن يصدر عنه أعمالٌ، وذلك الخُلُق هو رؤية النفس فوق المتكبر عليه، والعجب يتصور ولو لم يكن أحدٌ غير المعجب، والمتكبِّر يرىٰ نفسه أعلىٰ من الغير، فتحصل له هزةٌ وفرحٌ وركونٌ له إلىٰ ما اعتقده[(٣)].

---

(١) «لسان العرب» (١/ ٥٨١).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٧٠).

(٣) «غذاء الألباب» (٢/ ٢٢٢).

وقال الماوردي: «الكبر يكون بالمنزلة، والعجب يكون بالفضيلة، فالمتكبر يجل نفسه عن رتبة المتعلمين، والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأدبين»(١).

وقال أبو هلالٍ: «الفرق بين العجب والكبر: أن العجب بالشيء: شدة السرور به حتىٰ لا يعادله شيء عند صاحبه، يقال: هو معجبٌ بنفسه إذا كان مسرورًا بخصالها، ولهذا يقال: أعجبه، كما يقال: سُرَّ به، وليس ذلك من الكبر في شيءٍ. وقال بعضهم: العجب: عقد النفس علىٰ فضيلةٍ لها ينبغي أن يتعجب منها، وليست هي لها»(٢).

قال أبو حامدٍ الغزالي: «اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالىٰ، وسُنَّة رسوله ﷺ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾، ذكر ذلك في معرض الإنكار»(٣).

قال ابن جريرٍ: «قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، كانوا ذلك اليوم اثني عشر ألفًا، قال رجل من المسلمين من أصحاب رسول الله ﷺ: لن نغلب اليوم من قلة، فأخبرهم -تبارك وتعالىٰ- أنَّ النصر بيده، ومن عنده، وأنه ليس بكثرة العدد، وشدة البطش، وأنه ينصر القليل علىٰ الكثير إذا شاء، ويخلي الكثير والقليل، فيهزم الكثير»(٤).

وقال ﷻ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾، فردَّ علىٰ الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم، وقال تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾، وهذا أيضًا يرجع إلىٰ العجب بالعمل.

---

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٣١).

(٢) «الفروق اللغوية» لأبي هلال العسكري (ص٢٤٣).

(٣) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٦٩).

(٤) «تفسير الطبري = جامع البيان». ت: شاكر (١٤/ ١٧٩).

وقد يعجب الإنسان بعمل هو مخطئٌ فيه كما يعجب بعملٍ هو مصيب فيه.

وقال تعالىٰ: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، والمنُّ نتيجة استعظام الصدقة، واستعظام العمل هو العجب(١).

روىٰ الشيخان من حديث أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ، أو قال أبو القاسم ﷺ: «**بينما رجلٌ يمشي في حُلَّة، تعجبه نفسه، مُرجِّل جمته، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلىٰ يوم القيامة**»(٢).

وفي روايةٍ عند مسلم: عن أبي هريرة قال: سَمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إن رجلًا ممَّن كان قبلكم يتبختر في حُلَّةٍ يمشي في بُرْديه قد أعجبته نفسه، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلىٰ يوم القيامة**»(٣).

قال النووي: «يتجلجل بالجيم، أي: يتحرك وينزل مضطربًا. قيل: يحتمل أن هذا الرجل من هذه الأمة، فأخبر النبي ﷺ بأنه سيقع هذا. وقيل: بل هو إخبار عمن قبل هذه الأمة، وهذا هو الصحيح، وقد صرح به في رواية مسلمٍ المتقدمة»(٤).

وروىٰ أبو يعلىٰ الموصلي في «مسنده» بسند ضعيف عن كريب قال: «كنت أقود ابن عباس في زقاق أبي لهب، فقال: يا كريب، بلغنا مكان كذا وكذا؟ قلت: أنت عنده الآن، فقال: حدثني العباس بن عبد المطلب قال: بينا أنا مع النبي ﷺ في هذا الموضع إذ أقبل رجل يتبختر بين بُردين، وينظر في عطفيه قد أعجبته نفسه، إذ خسف الله به الأرض في هذا الموطن، فهو يتجلجل فيها إلىٰ يوم القيامة»(٥).

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٨٨).

(٤) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٤/ ٦٤).

(٥) «مسند أبي يعلىٰ الموصلي» (١٢/ ٥٧)، قال حسين سليم أسد: إسناده ضعيف.

قال العراقي: «في روايةٍ: «قد أعجبته نفسه»، وفي الأخرىٰ: «قد أعجبته جمته وبرداه».

قال أبو العباس القرطبي: إعجاب الرجل بنفسه هو ملاحظته لها بعين الكمال والاستحسان مع نسيان منة الله تعالىٰ فإن رفع نفسه علىٰ الغير واحتقره فهو الكبر المذموم ويفيد هذا الحديث ترك الأمن من تعجيل المؤاخذة علىٰ الذنوب، وأن عجب المرء بنفسه وثوبه وهيئته حرام وكبيرة»[(١)].

قال الحافظ: «ذكر السهيلي في «مبهمات القرآن» في سورة: (والصافات) عن الطبري أن اسم الرجل المذكور هو «الهيزن»، وأنه من أعراب فارس، وجزم الكلاباذي في معاني الأخبار بأنه قارون. وروىٰ الطبري في «التاريخ» من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: ذكر لنا أنه يخسف بقارون كل يومٍ قامة، وأنه يتجلجل فيها لا يبلغ قعرها إلىٰ يوم القيامة. ومعنىٰ «يتجلجل في الأرض»، أي: ينزل فيها مضطربًا متدافعًا، ومقتضىٰ هذا الحديث أن الأرض لا تأكل جسد هذا الرجل، فيمكن أن يلغز به، فيقال: كافرٌ لا يبلىٰ جسده بعد الموت، مَن هو؟». انتهىٰ[(٢)] من «فتح الباري» بتصرف.

روىٰ البزار بسند صحيح من حديث أبي الأعور الأسلمي قال رسول الله ﷺ: **«ما أخافُ علىٰ أُمَّتي إلا ثلاثًا: شح مطاع، وهوىً متبع، وإمام ضلال»**[(٣)].

---

(١) «طرح التثريب في شرح التقريب» (٨/ ١٦٩).

(٢) «فتح الباري» لابن حجر (١٠/ ٢٦١).

(٣) قال الألبانيُّ في «الصحيحة» (٣٢٣٦)، أخرجه البزار في «مسنده» (٢/ ٢٣٨/ ١٦٠٢)، والدولابي في (الكنىٰ) (١/ ١٦)، وابن منده في (المعرفة) (٢/ ٦٢/ ٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق»، وهذا إسناد صحيح.

وروىٰ البزار بسندٍ جيدٍ من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو لم تُذنبوا، لخشيت عليكم ما هو أكبر منه؛ العجب**[(١)] **العجب؟!**»، فجعل العجب أكبر الذنوب.

وروىٰ الترمذي بسندٍ حسنٍ من حديث أبي أمية الشعباني، قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني، فقلت له: كيف تصنع بهذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]، قال: أمَا -والله- لقد سألت عنها خبيرًا، سألت عنها رسول الله ﷺ، فقال: «**بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر حتىٰ إذا رأيت شحًّا مطاعًا، وهوًىٰ متبعًا، ودنيا مؤثرةً، وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودَع العوام، فإنَّ من ورائكم أيامًا الصبر فيهن مثل القبض علىٰ الجمر، للعامل فيهنَّ مثل أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عملكم**»[(٢)].

فائدة: روىٰ هذا الحديث الطحاوي في «شرح المشكل» من حديث قيس بن أبي حازم، قال: «قرأ أبو بكرٍ رضي الله عنه هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]، ثم قال: إنَّ الناس يضعون هذه الآية علىٰ غير موضعها، ألا وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا علىٰ يديه** -أو قال: المنكر، فلم يغيروه- **عمَّهم الله عز وجل بعقابه**»[(٣)].

قال الطحاوي: «معنىٰ قول أبي بكرٍ رضي الله عنه: أن الناس يضعون هذه الآية في غير موضعها، يريد بها سيعملونها في غير زمنها، وأنَّ زمنها الذي يستعمل فيه هو الزمن الذي وصفه رسول الله ﷺ في حديث أبي ثعلبة بما وصفه به، ونعوذ بالله عز وجل منه،

---

(١) المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٥٧١)، وقال: رواه البزار بإسناد جيد.

(٢) «سنن الترمذي». ت: بشار (٣٠٥٨)، قال الألبانيُّ في «صحيح وضعيف الترمذي» (١٠٥٨): ضعيف، لكن بعضه صحيح، فانظر حديث (٣٠٥٧).

(٣) «شرح مشكل الآثار» (٣/ ٢١١).

وأن ما قبله من الأزمنة، فإن فرض الله ﷻ فيه علىٰ عباده الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتىٰ تعود الأمور إلىٰ ما أمَر الله ﷻ أن يكون الناس عليه من امتثال ما أمَرهم الله به ﷻ، والانتهاء عمَّا نهاهم عنه»[(١)].

فائدة أخرىٰ:

روىٰ البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**بُعِثْتُ من خير قرون بني آدَم، قرنًا فقرنًا حتَّىٰ كنتُ من القرن الذي كنت فيه**»[(٢)].

قال الحافظ: «اقتضت الأحاديث أن تكون الصحابة أفضل من التابعين، والتابعون أفضل من أتباع التابعين، لكن هل هذه الأفضلية بالنسبة إلىٰ المجموع، أو الأفراد محل بحثٍ، وإلىٰ الثاني نحا الجمهور، والأول قول ابن عبد البر، والذي يظهر أن مَن قاتل مع النبي ﷺ، أو في زمانه بأمره، أو أنفق شيئًا من ماله بسببه، لا يعدله في الفضل أحد بعده، كائنًا من كان، وأما من لم يقع له ذلك، فهو محل البحث، والأصل في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ﴾ الآية[الحديد: ١٠]، واحتجَّ ابن عبد البر بحديث: «**مَثَل أمتي مَثَل المطر، لا يُدْرىٰ أوَّله خير أم آخره**»، وهو حديث حسن، له طرق قد يرتقي بها إلىٰ الصحة»[(٣)].

وقال الحافظ: «وروىٰ ابن أبي شيبة من حديث عبد الرحمن بن جبير بن نفير أحد التابعين بإسنادٍ حسنٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليدركن المسيح أقوامًا إنهم لمثلكم، أو خير، ثلاثًا، ولن يخزي الله أُمَّةً أنا أولها، والمسيح آخرها**».

---

(١) «شرح مشكل الآثار» (٣/ ٢١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٥٧).

(٣) «فتح الباري» لابن حجر (٧/ ٦).

وروىٰ أبو داود والترمذي من حديث أبي ثعلبة رفعه: «**تأتي أيَّامٌ للعامل فيهنَّ أجر خمسين**». قيل: منهم أو منَّا يا رسول الله؟ قال: «**بَلْ منكم**»، وهو شاهد لحديث: «**مَثَل أمتي مَثَل المطر**».

وروىٰ أحمد والدارمي والطبراني من حديث أبي جمعة قال: قال أبو عبيدة: يا رسول الله، أأحدٌ خير منا؟ أسلمنا معك، وجاهدنا معك. قال: «**قومٌ يكونون من بعدكم يؤمنون بي، ولم يروني**»، وإسناده حسن، وقد صححه الحاكم.

واحتج أيضًا بأن السبب في كون القرن الأول خير القرون أنهم كانوا غرباء في إيمانهم؛ لكثرة الكفار حينئذٍ، وصبرهم علىٰ أذاهم، وتمسُّكهم بدينهم، قال: فكذلك أواخرهم إذا أقاموا الدين، وتمسَّكوا به، وصبروا علىٰ الطاعة حين ظهور المعاصي والفتن كانوا أيضًا عند ذلك غرباء، وزكت أعمالهم في ذلك الزمان، كما زكت أعمال أولئك، ويشهد له ما رواه مسلم عن أبي هريرة رفعه: «**بدَأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطُوبَىٰ للغرباء**».

والَّذي ذهب إليه الجمهور: أنَّ فضيلة الصحبة لا يعدلها عملٌ لمشاهدة رسول الله ﷺ، وأما من اتفق له الذب عنه، والسبق إليه بالهجرة، أو النصرة، وضبط الشرع المتلقىٰ عنه، وتبليغه لمن بعده، فإنه لا يعدله أحدٌ ممن يأتي بعده؛ لأنه ما من خصلةٍ من الخصال المذكورة إلا وللذي سبق بها مثل أجر مَن عمل بها من بعده، فظهر فضلهم، ومحصل النزاع يتمحض فيمَنْ لم يحصل له إلا مجرد المشاهدة كما تقدم، فإن جمع بين مختلف الأحاديث المذكورة كان متجهًا علىٰ أن حديث: «**للعامل منهم أجر خمسين منكم**»، لا يدلُّ علىٰ أفضليَّة غير الصَّحابة علىٰ الصَّحابة؛ لأنَّ مجرد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة.

وأيضًا، فالأجر إنما يقع تفاضله بالنسبة إلىٰ ما يماثله في ذلك العمل، فأما ما فاز به من شاهد النبي ﷺ من زيادة فضيلة المشاهدة، فلا يعدله فيها أحدٌ، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء»[(١)].

قال الطيبي: «فيه تأويلان:

أحدهما: أن يكون أجر كل واحدٍ منهم علىٰ تقدير أنه غير مبتلىٰ، ولم يضاعف أجره.

والثاني: أن يراد أجر خمسين منهم ممَّن لم يبتلوا ببلائه»[(٢)].

قال الشيخ كمال الدين الزملكاني: «فإن قيل: كيف يجمع بين هذا الحديث، وبين قوله ﷺ: «**خير القرون قرني، ثمَّ الذين يلونهم، ثمَّ الذين يلونهم**»؟

قلنا: هذا لا يمنع تفضيل الأوَّلين علىٰ هؤلاء؛ لأنَّ غاية ما في هذا أنَّ هؤلاء الأخيرين يعملون علىٰ مشقةٍ شديدةٍ، إذ القابض علىٰ دينه كالقابض علىٰ الجمر، فيضاعف ثواب العامل منهم علىٰ عمله لقلة مَنْ يعمل ذلك العمل، ولا يلزم من ذلك أفضليَّته علىٰ من تقدَّم، بل يكون ذلك العمل الخاص الذي عمله هذا المتأخر مضاعف الثواب؛ لقلَّة الأعوان عليه، كما قال ﷺ: «**إنكم تجدون علىٰ الخير أعوانًا، ولا تجدون علىٰ الشر أعوانًا**».

ويمتاز المتقدم بأمورٍ لا يجدها المتأخر توازي هذه المضاعفة في هذه الأعمال الخاصة، وتفضلها بأضعافٍ كثيرةٍ، كيف وقد قال النبي ﷺ في حقِّ الأوَّلين: «**لو أنفق أحدكم مثل أُحُدٍ ذهب ما بلغ مُدَّ أحدهم، ولا نصيفه**»، فصح أن خير القرون قرن النبي ﷺ؛ لرؤيتهم له، وصلاتهم خلفه، وغزوهم بين يديه وغير ذلك». انتهىٰ[(٣)].

---

(١) «فتح الباري» لابن حجر (٧/ ٧).

(٢) «قوت المغتذي علىٰ جامع الترمذي» (٢/ ٧٦١).

(٣) «قوت المغتذي علىٰ جامع الترمذي» (٢/ ٧٦٢).

وقال الشيخ عز الدين ابن عبد السلام: «حمل هذا الحديث علىٰ الإطلاق خطأ، بل هو مبنيٌّ علىٰ قاعدتين:

إحداهما: أن الأعمال تشرف بثمراتها.

الثانية: أنَّ الغريب في أوَّل الإسلام هو كالغريب في آخره، وبالعكس لقوله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود كما بدأ، فطوبىٰ للغرباء من أمتي**»، أي: المتفردين بالتقوىٰ دون أهل زمانه.

إذا تقرَّر ذلك فنقول: الإنفاق في أوَّل الإسلام أفضل؛ لقوله ﷺ لخالدٍ: «**لو أنفق أحدكم مثل أُحُد ذهبًا، ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه**»، أي: مُدَّ الحنطة، وسبب ذلك أنَّ تلك النفقة أثمرت في فتح الإسلام وإعلاء كلمة الله ما لا تثمره غيرها، وكذلك الجهاد بالنفوس لا يصل المُتأخِّرون فيه إلىٰ فضل المتقدمين، وقلة أنصارهم، فكان جهادهم أفضل؛ لأنَّ بذل النفس مع النصرة، ورجاء الحياة ليس كبذلها مع عدمها.

ولذلك، قال عليه الصلاة والسلام: «**أفضل الجهاد كلمة حقٍّ عند سلطان جائر**»؛ لأنه أَيِسَ من حياته، وأما النهي عن المنكر بين ظهور المسلمين وإظهار شعائر الإسلام، فإنَّ ذلك شاقٌّ علىٰ المتأخرين؛ لعدم المعين، وكثرة النكير، فهم كالمنكر علىٰ الملك الجائر.

ولذلك، علَّل -عليه الصلاة والسلام- بكون القابض علىٰ دينه كالقابض علىٰ الجمر، والقابض علىٰ الجمر لا يستطيع دوام ذلك؛ لمزيد المشقة، فكذلك المتأخر في دينه، وأما المتقدمون فليسوا كذلك؛ لكثرة المعين، وعدم المنكر، فعلىٰ هذا ينزل الحديث»[(١)]. انتهىٰ.

---

(١) «قوت المغتذي علىٰ جامع الترمذي» (٢/ ٧٦٣).

قال الصنعاني في «سبل السلام»: «للصحبة فضيلة ومزية لا يوازيها شيء من الأعمال، فلمَنْ صحبه ﷺ فضيلتها وإن قصر عمله وأجره باعتبار الاجتهاد في العبادة، وتكون خيريتهم علىٰ مَنْ سيأتي باعتبار كثرة الأجر لا بالنظر إلىٰ ثواب الأعمال، وهذا قد يكون في حق بعض الصحابة.

وأمَّا مشاهير الصحابة، فإنهم حازوا السبق من كل نوعٍ من أنواع الخير، وبهذا يحصل الجمع بين الأحاديث. وأيضًا فإن المفاضلة بين الأعمال بالنظر إلىٰ الأعمال المتساوية في النوع، وفضيلة الصُّحبة مختصة بالصحابة لَمْ يكن لمَن عداهم شيء من ذلك النوع»[(١)]. انتهىٰ.

قال الحافظ: «حديث: «**للعامل منهم أجر خمسين منكم**»، لا دلالة فيه علىٰ أفضلية غير الصحابة علىٰ الصحابة؛ لأنَّ مجرد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة»[(٢)].

والمعنىٰ العام لحديث أبي ثعلبة يعني كون الإنسان يستمسك بدينه في مثل الظُّروف التي تكثر فيها الفتن، ويقلُّ فيها الموافق والمعين، له أجر خمسين، وخمسين من الصحابة، ولكن هل معنىٰ هذا أنه يفضل أحدًا من الصحابة من كل وجهٍ؟ أبدًا، شرف الصحبة والثواب المترتب عليها لا يدركه أحد ممَّن جاء بعد الصحابة، يعني: شرف الصحبة بمفرده لا يدركه أحد، كما جاء في الحديث الصحيح من حديث أبي سعيدٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تسبُّوا أصحابي، فو الَّذي نفسي بيده، لو أنفق أحدُكُم مثل أُحُد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم، ولا نصيفه**»، متفق عليه،

---

(١) «سبل السلام» (٢/ ٥٨١).

(٢) «فتح الباري» لابن حجر (٧/ ٧).

وهذا ظاهر، يعني: التفضيل من وجهٍ لا يقتضي التفضيل المطلق، يعني: كون العبد من الصحابة أفضل ممَّن لم يتصف بهذا الوصف من هذه الحيثية بأنَّ له أجرين، أو الصحابي الذي كان كتابيًّا له أجران أيضًا كما في هذا الحديث، لا يعني أنه أفضل من كل وجهٍ من بعض الصحابة.

عودًا إلىٰ الآثار الواردة في ذم العجب:

قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الإعجاب آفة الألباب»[(١)].

قال مسروق رَحِمَهُ اللَّهُ: «كفىٰ بالمرء علمًا أن يخشىٰ الله، وكفىٰ بالمرء جهلًا أن يعجب بعلمه»[(٢)].

قال الماورديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الكبر والإعجاب يسلبان الفضائل، ويكسبان الرذائل، وليس لمَن استوليا عليه إصغاء لنصحٍ، ولا قبول لتأديبٍ؛ لأن الكبر يكون بالمنزلة، والعجب يكون بالفضيلة، فالمتكبر يجلُّ نفسه عن رتبة المتعلمين، والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأدبين»[(٣)].



(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٥٧١).
(٢) «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٢٠).
(٣) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (٢٣١).

الفصل الثاني

خطورة العجب

وتكمن خطورة العجب فيما يلي:

أولًا: يدعو إلىٰ الكبر؛ لأنه أحد أسبابه، فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفىٰ، هذا مع العباد.

ثانيًا: مع الله تعالىٰ، فالعجب يدعو إلىٰ نسيان الذنوب وإهمالها، فبعض ذنوبه لا يذكرها، ولا يتفقدها؛ لظنه أنه مستغنٍ عن تفقدها فينساها، وما يتذكره منها فيستصغره، ولا يستعظمه، فلا يجتهد في تداركه وتلافيه، بل يظن أنه يغفر له[(١)].

روىٰ البخاري عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «**إنَّكم لتعملون أعمالًا هي أدقُّ في أعينكم من الشعر إن كنَّا لنعدُّها علىٰ عهد النبي ﷺ من الموبقات**»[(٢)].

وروىٰ ابن ماجه بسند صحيح عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «**إيَّاكم ومحقرات الأعمال، فإنَّ لها من الله طالبًا**»[(٣)].

وفي روايةٍ في المسند بسندٍ صحيحٍ عن عبد الله بن مسعودٍ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن علىٰ الرجل حتىٰ يهلكنه**»[(٤)].

و«المحقرات» جمع «محقرة»، وهي الذنوب التي يحتقرها فاعلها.

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٢).

(٣) رواه ابن ماجة (٤٢٤٢)، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٧٣١).

(٤) رواه أحمد «مسند أحمد». ط: الرسالة (٣٨١٨)، وصححه الألبانيُّ في «الترغيب» (٢٤٧٠).

ثالثًا: أما العبادات والأعمال، فإنه يستعظمها ويتبجح بها، ويمنُّ على الله بفعلها، وينسىٰ نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها، ثمَّ إذا عجب بها، عَمِيَ عن آفاتها، ومَن لم يتفقد آفات الأعمال، كان أكثر سَعْيه ضائعًا، فإنَّ الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصةً نقيةً عن الشوائب، قلَّما تنفع، وإنما يتفقَّد غير المعجب الذي يغلب عليه الإشفاق والخوف[(١)].

رابعًا: المعجب يغترُّ بنفسه وبرأيه[(٢)].

خامسًا: المعجب يأمن مَكْر الله وعذابه[(٣)].

سادسًا: المعجب يظن أنه عند الله بمكانٍ، وأن له عند الله مِنَّةً وحقًّا بأعماله التي هي نعمةٌ وعطيةٌ من عطاياه[(٤)].

سابعًا: المعجب يخرجه العجب إلىٰ أن يثني علىٰ نفسه ويحمدها ويزكيها، وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة، ومن الاستشارة والسؤال، فيستبد بنفسه ورأيه، ويستنكف من سؤال مَن هو أعلم منه، وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له، فيفرح بكونه من خواطره، ولا يفرح بخواطر غيره، فيصرُّ عليه، ولا يسمع نصح ناصحٍ، ولا وعظ واعظٍ، بل ينظر إلىٰ غيره بعين الاستجهال، ويصرُّ علىٰ خطئه، فإن كان رأيه في أمرٍ دنيويٍّ فيحقق فيه، وإن كان في أمرٍ دينيٍّ لا سيما فيما يتعلق بأصول العقائد فيهلك به، ولو اتهم نفسه، ولم يثق برأيه، واستضاء بنور القرآن،

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٧٠).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٣٧٠).

(٣) المصدر السابق (٣/ ٣٧٠).

(٤) المصدر السابق (٣/ ٣٧٠).

واستعان بعلماء الدين، وواظب علىٰ مدارسة العلم، وتابع سؤال أهل البصيرة، لكان ذلك يوصله إلىٰ الحق[١].

ثامنًا: المعجب من أعظم آفاته أن يفتر في السعي؛ لظنه أنه قد فاز، وأنه قد استغنىٰ، وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه.

قال الماوردي (ت٤٥٠): «قال بعض الحكماء: عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله، وليس إلىٰ ما يكسبه الكبر من المقت حدٌّ، ولا إلىٰ ما ينتهي إليه العجب من الجهل غاية، حتىٰ إنه ليطفئ من المحاسن ما انتشر، ويسلب من الفضائل ما اشتهر، وناهيك بسيئةٍ تحبط كل حسنةٍ، وبمذمةٍ تهدم كل فضيلةٍ، مع ما يثيره من حنقٍ، ويكسبه من حقدٍ»[٢].

وقال أيضًا: «للإعجاب أسبابٌ: فمن أقوىٰ أسبابه: كثرة مديح المتقربين، وإطراء المتملقين الذين جعلوا النفاق عادةً ومكسبًا، والتملق خديعةً وملعبًا، فإذا وجدوه مقبولًا في العقول الضعيفة، أغروا أربابها باعتقاد كذبهم، وجعلوا ذلك ذريعةً إلىٰ الاستهزاء بهم»[٣].

علاج العجب منوطٌ بالتخلص من سببه، ولا يتم التخلص من السبب إلا بعد معرفته.



(١) المصدر السابق (٣/ ٣٧١).
(٢) «أدب الدنيا والدين» (ص٢٣٧).
(٣) «أدب الدنيا والدين» (ص٢٣٩).



الفصل الثالث

سبب العجب وعلاج تلك الأسباب

وسبب العجب في الحقيقة: هو الجهل المحض، ويحصل العجب بما يحصل به الكبر:

الأول: أن يعجب ببدنه في جماله وهيئته وقوته وحسن صوته.

علاجه: أن يعلم يقينًا أن هذا كله وغيره من الله تعالىٰ تفضلًا من غير استحقاقٍ من العبد، وهذا كله عرضة للزوال في أيِّ وقتٍ شاءه الله تعالىٰ، والواقع خير شاهدٍ، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت: ١٥، ١٦].

وأيضًا: التفكُّر في أقذار باطنه في أوَّل أمره، وفي آخره، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة كيف تمزَّقت في التراب، وأنتنت في القبور حتىٰ استقذرتها الطباع.

الثاني: العجب بالعقل والكياسة والتفطُّن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا، وثمرته: الاستبداد بالرأي، وترك المشورة، واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه، ويخرج إلىٰ قلة الإصغاء إلىٰ أهل العلم إعراضًا عنهم بالاستغناء بالرأي والعقل.

علاجه: أن يشكر الله تعالىٰ علىٰ ما رزق من العقل، ويتفكَّر أنه بأدنىٰ مرضٍ يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن بحيث يضحك منه، فلا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به، ولم يقم بشكره، ويستقصر علمه وعقله.

وليعلم أنه ما أُوتِيَ من العلم إلا قليلًا وإن اتسع علمه، وأنَّ ما جهله مما عرفه الناس أكثر ممَّا عرف، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالىٰ؟ وأن يتهم عقله، وينظر إلىٰ الحمقىٰ كيف يعجبون بعقولهم، ويضحك الناس منهم، فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري، فإن القاصر العقل لا يعلم قصور عقله، فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه، ومن أعدائه لا من أصدقائه، فإنَّ مَن يداهنه يثني عليه، فيزيده عجبًا، وهو لا يظنُّ بنفسه إلا الخير، ولا يفطن لجهل نفسه، فيزداد به عجب.

الثالث: العجب بالنَّسَب الشريف حتىٰ يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه، ونجاة آبائه، وأنه مغفور له.

علاجه: أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم، وظنَّ أنه ملحقٌ بهم، فقد جهل، وإن اقتدىٰ بآبائه، فما كان من أخلاقهم العجب، بل الخوف ومذمَّة النفس، ولقد شرفوا بالطَّاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنَّسَب، فليشرف بما شرفوا به.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فمن عَلِمَ أن شرفه بقدر تقواه، وقد كان من عادة آبائه التواضع، اقتدىٰ بهم في التقوىٰ والتواضع، وإلا كان طاعنًا في نسَب نفسه بلسان حاله مهما انتمىٰ إليهم، ولم يُشْبههم في التواضع والتقوىٰ والخوف والإشفاق.

الرَّابع: العجب بنسَب الأمراء وأعوانهم دون نسب العلم والدين، وهذا غاية الجهل.

علاجه: أن يتفكَّر في منكراتهم، وما جرُّوا علىٰ الناس من المحظورات، فيشكر الله أَنْ عَصَمه من تبعاتهم.

الخامس: العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والعشيرة والأقارب.

علاجه: أن يتفكَّر في ضعفه وضعفهم، وأن كلهم عَجَزة لا يملكون لأنفسهم ضرًّا، ولا نفعًا، ثم كيف يعجب بهم وهم سيفارقونه حتمًا ولا بد إذا مات ودفن وحده ذليلًا مهانًا، ويسلمونه إلىٰ البلىٰ والحيات والعقارب، ولا يغنون عنه شيئًا، ويهربون منه يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ [عبس: ٣٤-٣٦]، فكيف تعجب بمَن يفارقك في أشدِّ أحوالك، ويهرب منك، وكيف تتكل علىٰ مَن لا ينفعك، وتنسىٰ نِعَم من يملك نفعك وضرك؟

السادس: العجب بالمال.

علاجه: أن يتفكَّر في آفات المال، وكثرة حقوقه، وإلىٰ أنَّ في اليهود مَن يزيد عليه في المال، وينظر إلىٰ فضيلة الفقراء، وخفة حسابهم. وكيف يتصوَّر من المؤمن أن يعجب بماله، ولا يخلو من تقصيرٍ في القيام بحقوق المال من أخذه من حِلِّه، ووضعه في حقه، وأن مآل المتهور في الجمع والمنع إلىٰ الخزي والبوار.

السابع: العجب بالرأي الخطأ.

علاجه: أن يتهم رأيه أبدًا، فلا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتابٍ، أو سُنَّةٍ، أو دليل عقلي صحيح جامع لشرط الأدلة، ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلا بقريحةٍ تامةٍ، وعقلٍ ثاقبٍ، وجدٍّ وتشمرٍ في الطلب، وممارسةٍ للكتاب والسُّنة، ومجالسةٍ لأهل العلم طول العمر، ومدارسةٍ للعلوم، ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في بعض الأمور، والصواب لمَن لم يتفرغ لاستغراق عمره في العلم ألَّا يخوض في المذاهب، بل يشتغل بالتقوىٰ، واجتناب المعاصي، وأداء الطاعات، والشفقة علىٰ المسلمين.

نسأله تعالىٰ العصمة من الضلال، ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال[(١)].

فالمعجب بجماله، أو قُوَّته، أو نسبه، وما لا يدخل تحت اختياره من فرط جهله إنما يعجب بما ليس إليه؛ لأن كلَّ ذلك من فضل الله، وإنما هو محلٌّ لفيضان جوده تعالىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

فإنَّ العبد وعمله وأوصافه كلها من عند الله تعالىٰ، نعمة ابتدأه بها قبل الاستحقاق، وهذا ينفي العجب والإدلال، ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١][(٢)].

روىٰ الشَّيخان من حديث أبي هريرة أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**ما من أَحَدٍ يدخله عمله الجنَّة**»، فقيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنَا، إلَّا أن يَتغمَّدني ربي برحمةٍ**»[(٣)].

فإذا غلب الخوف علىٰ القلب، شغله خشية سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها، وأنَّىٰ لذي بصيرةٍ أن يعجب بعمله، ولا يخاف علىٰ نفسه، فهذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب[(٤)].

فالله نسأل أن يُطهِّر قلوبنا من كلِّ ما يغضبه ﷻ.

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٧٤ - ٣٧٨).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٧٣).

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

(٤) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٧٤).

الباب الثالث

مرض الغرور

وفيه ثمانية فصولٍ:

الفصل الأول: الغرور في الاصطلاح.

الفصل الثاني: النصوص الشرعية الواردة في ذم الغرور.

الفصل الثالث: الأسباب التي تؤدِّي إلىٰ المعصية، ومن ثَمَّ إلىٰ الغفلة، فتضر بالعبد.

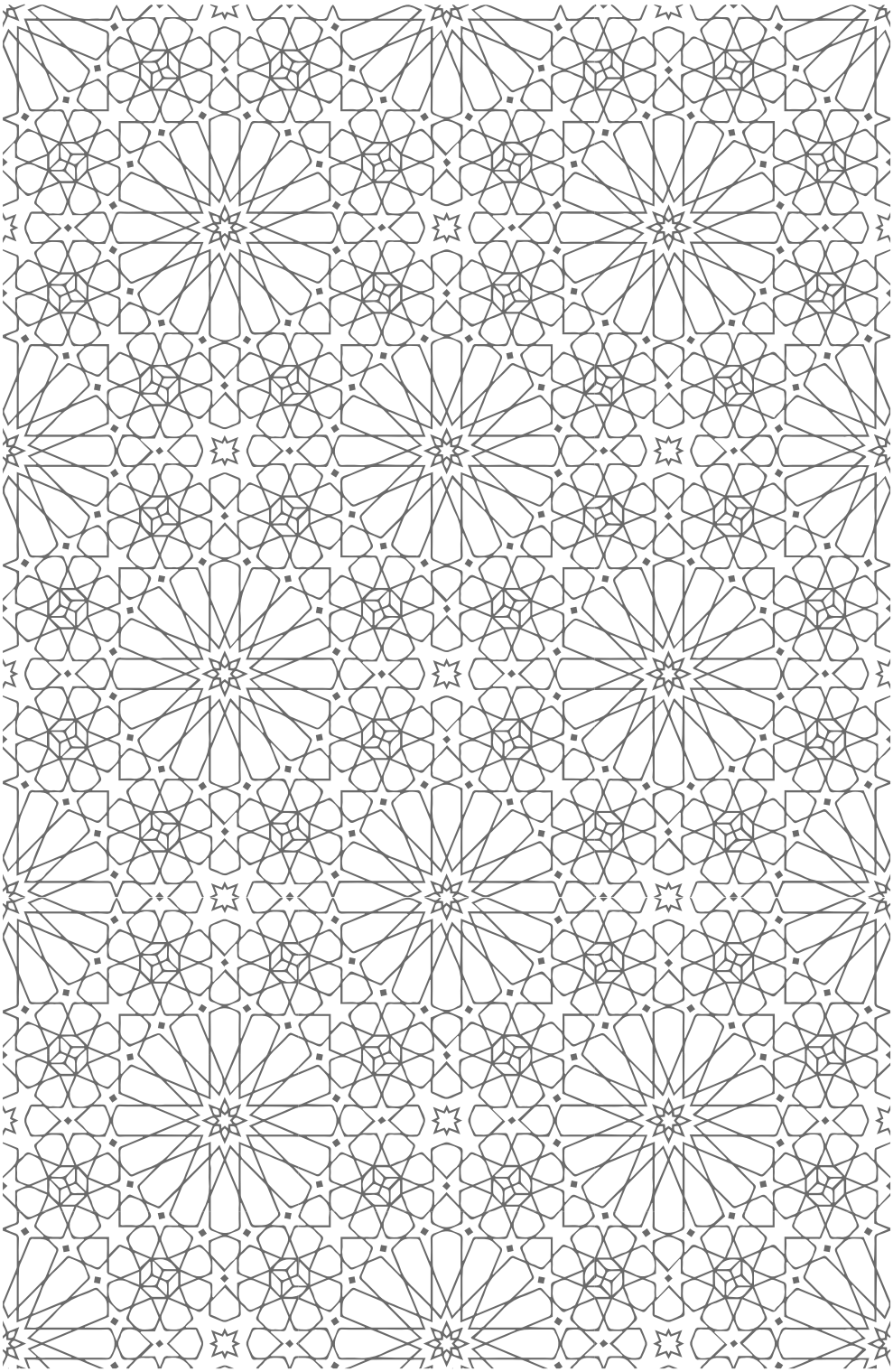
الفصل الرابع: أسباب تخلُّف العبد عن العمل.

الفصل الخامس: ذكر أمثلةٍ لبعض المغترين وشبههم.

الفصل السادس: ما يكون به الغرور، وذكر بعض أصناف المغترين.

الفصل السابع: بم ينجو العبد من الغرور؟

الفصل الثامن: كيف يتخلص العبد من الغرور؟



الفصل الأول

الغرور في الاصطلاح

قال الجرجاني: «هو سكون النفس إلىٰ ما يوافق الهوىٰ، ويميل إليه الطبع»(١).

ويَتَولَّد عن شبهةٍ وخدعةٍ من الشيطان، فمن اعتقد أنه علىٰ خيرٍ؛ إما في العاجل، أو في الآجل عن شبهةٍ فاسدةٍ، فهو مغرور، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير، وهم مخطئون فيه، فأكثر الناس -إذًا- مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم(٢).

وقال الكفوي: «الغرور: هو تزيين الخطإ بأنه صواب»(٣).

«الغَرور» بالفتح: الشيطان. والغُرُور بالضم: ما اغتر به من متاع الدنيا(٤).

(١) «التعريفات» للجرجاني (ص١٦٧)، و«التوقيف علىٰ مهمات التعاريف» لابن المناوي (ص ٢٥١).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٤٠٠).

(٣) «الكليات» للكفوي (ص ٦٧٢).

(٤) «نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم» (١١/ ٥٠٤٧).

الفصل الثاني

النصوص الشرعية الواردة في ذم الغرور

أولًا: من القرآن:

قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وقال تعالىٰ: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا ۖ وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَـَٔامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ وَلَـَٔامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ [النساء: ١١٧- ١٢١].

وقال تعالىٰ عن الكفار: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران: ٢٤].

وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾ [الانفطار: ٦].

قال ابن كثير: «هذا تهديدٌ، لا كما يتوهَّمه بعض الناس من أنه إرشادٌ إلىٰ الجواب؛ حيث قال: ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ حتىٰ يقول قائلهم: غرَّه كرمه، بل المعنىٰ في هذه

الآية: ما غرَّك يا ابن آدم بربك الكريم -أي: العظيم- حتىٰ أقدمتَ علىٰ معصيته، وقابلته بما لا يليق؟»[(١)].

ثانيًا: من السُّنة المطهرة:

روىٰ الترمذي وابن عبد البر من حديث أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «**يخرج في آخر الزمان رجالٌ يختلون الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، ألسنتهم أحلىٰ من السكر، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: أَبِي يغترُّون، أم عليَّ يجترئون؟ فبي حلفتُ لأبعثنَّ علىٰ أولئك منهم فتنةً تدع الحليم منهم حيرانًا**»[(٢)].

بَوَّب البخاري فقال: باب قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٦]، جمعه: سُعُر. قال مجاهد: الغَرور: الشيطان[(٣)].

ثمَّ روىٰ بسنده إلىٰ حمران بن أبان قال: أتيت عثمان بن عفان بطهورٍ وهو جالسٌ علىٰ المقاعد، فتوضَّأ، فأحسن الوضوء، ثمَّ قال: رأيت النَّبيَّ ﷺ توضأ وهو في هذا المجلس، فأحسن الوضوء، ثم قال: «**مَن توضأ مثل هذا الوضوء، ثم أتىٰ المسجد، فركع ركعتين، ثمَّ جلس، غفر له ما تقدَّم من ذنبه**». قال: وقال النَّبيُّ ﷺ: «**لا تغترُّوا**»[(٤)].

---

(١) «تفسير ابن كثير». ت: سلامة (٨/ ٣٤٢).

(٢) «سنن الترمذي» (٤/ ٢٤٠٢) سنده ضعيف، ويشهد له حديث ابن عمر رضي الله عنهما، رقم (٢٤٠٥)، وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٣) «صحيح البخاري» (٨/ ٩٢).

(٤) رواه البخاري (٦٤٣٣).

قال الحافظ: «والغرور: كل ما يغر الإنسان، وإنما فسر بالشيطان؛ لأنه رأس في ذلك»[(١)].

قوله ﷺ: «**لا تغترُّوا**»، **قال الحافظ**: «لا تحملوا الغفران علىٰ عمومه في جميع الذنوب، فتسترسلوا في الذنوب؛ اتِّكالًا علىٰ غفرانها بالصلاة، فإن الصلاة التي تكفر الذنوب هي المقبولة، ولا اطلاع لأحدٍ عليه، وظهر لي جواب آخر، وهو أن المكفر بالصلاة هي الصغائر، فلا تَغتَرُّوا، فتعملوا الكبيرة بناءً علىٰ تكفير الذُّنوب بالصلاة، فإنه خاص بالصغائر، أو: لا تستكثروا من الصغائر، فإنها بالإصرار تعطىٰ حكم الكبيرة، فلا يكفرها ما يكفر الصغيرة، أو أنَّ ذلك خاص بأهل الطاعة، فلا يناله مَن هو مرتبكٌ في المعصية، والله أعلم»[(٢)]. انتهىٰ من «الفتح».

قال ابن مسعودٍ: «كفىٰ بخشية الله علمًا، وكفىٰ بالاغترار بالله جهلًا»[(٣)].

وقال عون بن عبد الله: «إذا عصتك نفسك فيما كرهت، فلا تطعها فيما أحبت، ولا يغرنك ثناء مَن جهل أمرك»[(٤)].

---

(١) «فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٢٥٠).
(٢) «فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٢٥١).
(٣) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٤١١).
(٤) «أدب الدنيا والدين» (ص٢٣٠).

الفصل الثالث

الأسباب التي تؤدي إلى المعصية ومن ثمَّ إلى الغفلة فتضر بالعبد

قال ابن القيِّم رحمه الله تعالىٰ: «من أهمِّ الأمور: أن يعرف العبد أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته ولا بد، ولكن تغالطه نفسه ببعض الشبهات؛ منها:

أولًا: الاتِّكال علىٰ عفو الله ومغفرته.

ثانيًا: التسويف بالتوبة.

ثالثًا: الاستغفار باللسان.

رابعًا: بفعل المندوبات.

خامسًا: العلم.

سادسًا: الاحتجاج بالقدر.

سابعًا: الاحتجاج بالأشباه والنظراء.

ثامنًا: الاقتداء بالأكابر.

تاسعًا: التعلُّق بمسألة الجبر، وأن العبد لا فعل له البتة، ولا اختيار، وإنما هو مجبورٌ علىٰ فعل المعاصي.

عاشرًا: التعلُّق بالإرجاء، وأنَّ الإيمان هو مجرد التصديق، والأعمال ليست من الإيمان، وإيمانُ أفسق الناس كإيمان جبريل وميكائيل.

حادي عشر: من يغترُّ بمحبة الفقراء والمشايخ والصالحين، وكثرة التردد إلىٰ

قبورهم، والتضرع إليهم، والاستشفاع بهم، والتوسل إلىٰ الله بهم، وسؤاله بحقهم عليه، وحرمتهم عنده.

ثاني عشر: من يغتر بآبائه وأسلافه، وأنَّ لهم عند الله مكانةً وصلاحًا، فلا يدعون أن يخلصوه.

ثالث عشر: من يغتر بأنَّ الله ﷻ غنيٌّ عن عذابه، وأن عذابه لا يزيد في ملكه شيئًا، ورحمته له لا ينقص من ملكه شيئًا، فيقول: أنا مضطرٌّ إلىٰ رحمته، وهو أغنىٰ الأغنياء، ولو أن فقيرًا مسكينًا، مضطرًّا إلىٰ شربة ماءٍ عند مَن في داره شط يجري، لَمَا منعه منها؛ فالله أكرم وأوسع، فالمغفرة لا تنقصه شيئًا، والعقوبة لا تزيد في ملكه شيئًا.

رابع عشر: من يغتر بفهمٍ فاسدٍ فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسُّنة، فاتكلوا عليه كاتكال بعضهم علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحىٰ: ٥]، قالوا: وهو -أي: النبي ﷺ- لا يرضىٰ أن يكون في النار أحدٌ من أمته! وهذا من أقبح الجهل، وأبين الكذب عليه، فإنه يرضىٰ بما يرضي ربه ﷻ، والله تعالىٰ يرضيه تعذيب الظلمة والفسقة والخونة والمصرِّين علىٰ الكبائر، فحاشا رسوله ألَّا يرضىٰ مما يرضىٰ به ربه تبارك وتعالىٰ.

خامس عشر: من يغتر بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، ولم يقيد، ولم يخصص، ولا خلاف أنَّ هذه الآية في حقِّ التائبين، فإنه يغفر كل ذنبٍ للتائب، أي ذنبٍ كان، ولو كانت الآيةُ في حقِّ غير التائبين لَبَطلت نصوص الوعيد كلها، وأحاديث إخراج قومٍ من المُوحِّدين من النار بالشفاعة.

وهذا إنَّما أُتِيَ صاحبه من قلة علمه وفهمه، فإنه سبحانه ههنا -أَيْ: في آية الزمر- عمَّم وأطلق، فعلم أنه أراد التائبين، وفي سورة النساء خصص وقيد، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا

﴿يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فأخبر سبحانه أنه لا يغفر الشرك، وأخبر أنه يغفر ما دونه، ولو كان هذا في حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره.

سادس عشر: من يغتر بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار: ٦]، فيقول: كرمه! وقد يقول بعضهم: إنه لقن المغتر حجته، وهذا جهلٌ قبيحٌ، وإنما غرَّه بربه الغرور -وهو الشَّيطان- ونفسه الأمَّارة بالسُّوء، وجهله، وهواه.

وأتىٰ سبحانه بلفظ الكريم، وهو السَّيِّد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاغترار به، ولا إهمال حقه، فوضع هذا المغتر الغرور في غير موضعه، واغتر بمَنْ لا ينبغي الاغترار به.

سابع عشر: مَن يغتر بقوله تعالىٰ في النار: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾ [الليل: ١٥، ١٦]، وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝٢٤﴾ [البقرة: ٢٤].

ولم يدرِ هذا المغتر أن قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤﴾ [الليل: ١٤] هو لنارٍ مخصوصةٍ من جملة دركات جهنم، ولو كانت جميع جهنم، فهو سبحانه لم يقل: لا يدخلها، بل قال: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥﴾، ولا يلزم من عدم صليها عدم دخولها، فإن الصلي أخص من الدخول، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم.

ثامن عشر: مَن يغترُّ بصوم يوم عاشوراء، أو يوم عرفة حتىٰ يقول بعضهم: يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها، ويبقىٰ صوم يوم عرفة زيادة في الأجر، ولم يدرِ هذا المغتر أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجلُّ من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء، وهي إنما تكفر ما بينها إذا اجتنبت الكبائر، فرمضان إلىٰ رمضان، والجمعة إلىٰ الجمعة يقوىٰ علىٰ تكفير الصغائر مع انضمام ترك الكبائر إليها، فيقوىٰ مجموع الأمرين علىٰ تكفير الصغائر، فكيف يكفر صوم يوم تطوع كل كبيرةٍ عملها العبد،

وهو مُصرٌّ عليها، غير تائبٍ منها؛ هذا محالٌ، علىٰ أنه لا يمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء مكفرًا لجميع ذنوب العام علىٰ عمومه، ويكون من نصوص الوعد التي لها شروطٌ وموانع، ويكون إصراره علىٰ الكبائر مانعًا من التكفير، فإذا لم يُصرَّ علىٰ الكبائر، تساعد الصوم وعدم الإصرار وتعاونا علىٰ عموم التكفير، كَمَا كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين علىٰ تكفير الصغائر، مع أنه سبحانه قد قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

فعلم أنَّ جعل الشيء سببًا للتكفير لا يمنع أن يتساعد هو وسببٌ آخر علىٰ التكفير، ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوىٰ وأتم منه مع انفراد أحدهما، وكلما قويت أسباب التكفير، كان أقوىٰ وأتم وأشمل.

تاسع عشر: مَن يغتر بقوله ﷺ حاكيًا عن ربه: «**أنا عند ظَنِّ عبدي بي، فليظنَّ بي ما شاء**»، يعني: ما كان في ظنه، فإنِّي فاعله به.

ولا ريب أنَّ حسن الظَّنِّ إنما يكون مع الإحسان، فإنَّ المحسن حسن الظن بربه أنه يجازيه علىٰ إحسانه، ولا يخلف وعده، ويقبل توبته، وأما المسيء المصرُّ علىٰ الكبائر والظلم والمخالفات، فإنَّ وحشة المعاصي والظلم والإجرام تمنعه من حسن الظن بربه، وهذا موجودٌ في الشاهد، فإن العبد الآبق المسيء الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به، ولا يجامع وحشة الإساءة إحسان الظن أبدًا، فإنَّ المسيء مستوحشٌ بقدر إساءته، وأحسن الناس ظنًّا بربه أطوعهم له، كما قال الحسن البصري: «إن المؤمن أحسن الظن بربه، فأحسن العمل، وإن الفاجر أساء الظن بربه، فأساء العمل»، فكيف يكون محسن الظَّنِّ بربِّه مَن هو شاردٌ عنه، حالٌّ مرتحلٌ في

مساخطه، وما يغضبه، متعرض لِلَعْنته، قد هان حقه وأمره عليه، فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه، وأصرَّ عليه!

وكيف يحسن الظن به مَن بارزه بالمحاربة، وعادىٰ أولياءه، ووالىٰ أعداءه، وجحد صفات كماله، وأساء الظَّنَّ بما وصف به نفسه، ووصفته به رسله، وظن بجهله أنَّ ظاهر ذلك ضلالٌ وكفرٌ، أي: ظاهر نصوص القرآن والسُّنَّة.

وكيف يُحْسن الظَّن به مَن يظنُّ أنه لا يتكلم، ولا يأمر، ولا ينهىٰ، ولا يرضىٰ، ولا يغضب، وقد قال تعالىٰ في حقِّ من شكَّ في تعلُّق سمعه ببعض الجزئيات، فأخبر ربهم عنهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾، وهو السِّرُّ من القول: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ٢٣]، فهؤلاء لمَّا ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيرًا مما يعملون، كان هذا إساءةً لظنهم بربِّهم، فأرداهم ذلك الظن، وهذا شأن كل من جحد صفات كماله، ونعوت جلاله، ووصفه بما لا يليق به، فإذا ظنَّ هذا أنه يدخله الجنة، كان هذا غرورًا وخداعًا من نفسه، وتسويلًا من الشيطان، لا إحسان ظنٍّ بربه، فتأمل هذا الموضع، وتأمل شدة الحاجة إليه!

وكيف يجتمع في قلب العبد تيقُّنه بأنه ملاقٍ الله، وأن الله يسمع كلامه، ويرىٰ مكانه، ويعلم سرَّه وعلانيته، ولا يخفىٰ عليه خافيةٌ من أمره، وأنه موقوفٌ بين يديه، ومسؤولٌ عن كل ما عمل، وهو مقيمٌ علىٰ مساخطه، مضيعٌ لأوامره، معطلٌ لحقوقه. وهو مع هذا محسن الظن به؟ وهل هذا إلا من خدع النفوس وغرور الأماني[1]؟

روىٰ الإمام أحمد والبزار بسندٍ صحيحٍ، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال:

---

(١) «الجواب الكافي لمَن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء» (ص٢٢ - ٢٦).

دخلت أنا وعروة بن الزبير علىٰ عائشة، فقالت: لو رأيتما نبي الله ﷺ ذات يومٍ في مرضٍ له وكانت له عندي ستة دنانير، أو سبعة، قالت: فأمرني أن أُفرِّقها، فشغلني وجع رسول الله ﷺ حتىٰ عافاه الله، قالت: ثم سألني عنها، فقلت: لا والله، قد كان شغلني وجعك، قالت: فدعا بها، فوضعها في كفه، ثم قال: «**ما ظن نبي الله لو لقي الله وهذه عنده؟**»[(١)]، وفي لفظٍ: «**ما ظن محمدٍ بربه لو لقي الله وهذه عنده؟**».

قال ابن القيِّم: «فيالله! ما ظن أصحاب الكبائر والظلمة بالله إذا لقوه، ومظالم العباد عندهم؟ فإن كان ينفعهم قولهم: حسنا ظنوننا بك، لم يعذب ظالم ولا فاسق، فليصنع العبد ما شاء، وليرتكب كلَّ ما نهاه الله عنه، وليحسن ظنَّه بالله، فإن النار لا تمسه! فسبحان الله، ما يبلغ الغرور بالعبد! وقد قال إبراهيم لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات: ٨٦، ٨٧]، أي: فما ظنكم به أن يفعل بكم إذا لقيتموه، وقد عبدتم غيره؟

ومن تأمَّل هذا الموضع حقَّ التأمل، علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه، فإن العبد إنما يحمله علىٰ حسن العمل حسن ظنه بربه أن يجازيه علىٰ أعماله، ويثيبه عليها، ويتقبلها منه، فالذي حمله علىٰ العمل حسن الظن، وكلَّما حسن ظنه، حسن عمله، وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوىٰ عجز.

كما روىٰ الترمذي (٢٤٥٩) بسندٍ حسنٍ عن شداد بن أوس، عن النبي ﷺ قال: «**الكيِّس مَن دان نفسه، وعَمِلَ لما بعد الموت، والعاجز مَن أتبع نفسه هواها، وتمنَّىٰ علىٰ الله**».

---

(١) رواه أحمد (٢٤٧٣٣)، وحسنه الألبانيُّ في «الصحيحة» برقم (١٠١٤).

وعلىٰ الجملة: فحسن الظَّنِّ إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاح، وأما مع انعقاد أسباب الهلاك، فلا يتأتَّىٰ إحسان الظَّنِّ.

شبهة وجوابها: فإن قيل: بل يتأتَّىٰ حسن الظن، ويكون مستند حسن الظن سعة مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده، وأنَّ رحمته سبقت غضبه، وأنه لا تنفعه العقوبة، ولا يضره العفو.

الجواب: الأمر هكذا، والله فوق ذلك، وأجلُّ وأكرم وأجود وأرحم، ولكن إنَّما يضع ذلك في محلِّه اللائق به، فإنَّه سبحانه موصوفٌ بالحكمة، والعزة، والانتقام، وشدة البطش، وعقوبة من يستحق العقوبة.

فلو كان معول حسن الظَّنِّ علىٰ مجرَّد صفاته وأسمائه، لاشترك في ذلك البر والفاجر، والمؤمن والكافر، ووليه وعدوه، فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته، وقد باء بسخطه وغضبه، وتعرَّض للعنته، وأوضع في محارمه، وانتهك حرماته؟ بل حسن الظن ينفع مَن تاب، وندم، وأقلع، وبدل السَّيِّئة بالحسنة، واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة، ثم حسن الظن، فهذا حسن الظن، والأول غرور، والله المستعان»[(١)].

ثم قال ابن القيِّم رحمه الله تعالىٰ: «ففرق بين حسن الظن بالله، وبين الغرة به.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٨]، فجعل هؤلاء أهل الرجاء بعد الإيمان والهجرة والجهاد لا البطالين والفاسقين.

---

(١) «الجواب الكافي لمَن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء» (ص٢٧).

وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل: ١١٠]، فأخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء -الهجرة بعد الفتنة، والثبات والجهاد والصبر- غفورٌ رحيمٌ لمن فعلها.

فالعالِم يضع الرجاء مواضعه، والجاهل المغتر يضعه في غير مواضعه.

وكثيرٌ من الجهال اعتمدوا علىٰ رحمة الله وعفوه وكرمه، وضيَّعوا أَمْره ونهيه، ونسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يردُّ بأسه عن القوم المجرمين.

ومَن اعتمد علىٰ العفو مع الإصرار علىٰ الذنب فهو كالمعاند»[(١)].

وما أحسن ما قاله أبو الوفاء علي بن عقيلٍ: «قال: احذره ولا تغتر، فإنه قطع اليد في ثلاثة دراهم، وجلد الحد في مثل رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت امرأةٌ النار في هرةٍ، واشتعلت الشملة نارًا علىٰ مَن غلَّها، وقد قتل شهيدًا»[(٢)].

بيان وتوضيح لكلام أبي الوفاء علي بن عقيل:

أولًا: قطع اليد في ثلاثة دراهم: روىٰ الشيخان من حديث عائشة، قال النبي ﷺ: **«تُقطَع اليدُ في ربع دينارٍ فصاعدًا»**[(٣)].

وفي روايةٍ من حديث ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ قطع سارقًا في مجن قيمته ثلاثة دراهم»[(٤)].

---

(١) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي»، العلمية (ص١٥).

(٢) «الجواب الكافي لمَن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء» (ص٣٤).

(٣) رواه البخاري (٦٧٨٩)، ومسلم (١٦٨٤).

(٤) رواه مسلم (١٦٨٦).

قال النوويُّ: «وأمَّا رواية: أنه ﷺ قطع سارقًا في مجن قيمته ثلاثة دراهم، فمحمولة علىٰ أن هذا القدر كان ربع دينارٍ فصاعدًا»(١).

ثانيًا: روىٰ مسلم عن أنس بن مالكٍ «أن النبي ﷺ أُتِيَ برجل قد شرب الخمر، فجلده بجريدتين نحو أربعين»، قال: وفعله أبو بكرٍ، فلما كان عمر، استشار الناس، فقال عبد الرحمن: أخفُّ الحدود ثمانين، فأمر به عمر(٢).

ثالثًا: روىٰ الشيخان من حديث أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**دخلت امرأةٌ النارَ من جرَّاء هِرَّةٍ لها** -أو هرٍّ- **ربطتها، فلا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها ترمرم من خَشاش الأرض حتىٰ ماتت هزلًا**»(٣).

رابعًا: روىٰ الشيخان من حديث أبي هريرة، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ يوم خيبر، فلم نغنم ذهبًا، ولا فضةً إلا الأموال والثياب والمتاع، فأهدىٰ رجل من بني الضبيب يقال له: رفاعة بن زيدٍ لرسول الله ﷺ غلامًا يقال له: مدعم، فوجه رسول الله ﷺ إلىٰ وادي القرىٰ، حتىٰ إذا كان بوادي القرىٰ، بينما مدعم يحط رحلًا لرسول الله ﷺ، إذا سهمٌ عائرٌ فقتله، فقال الناس: هنيئًا له الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «**كلَّا، والذي نفسي بيده، إنَّ الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه نارًا**»، فلما سمع ذلك الناس، جاء رجلٌ بشراكٍ -أو: شراكين- إلىٰ النبي ﷺ فقال: «**شِرَاكٌ من نارٍ**»، أو: «**شراكان من نارٍ**»(٤).

---

(١) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١١/ ١٨٢).

(٢) رواه مسلم (١٧٠٦).

(٣) رواه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٦١٩)، واللفظ له.

(٤) رواه البخاري (٤٢٣٤)، ومسلم (١١٥).

ثمَّ قال رحمه الله تعالىٰ: «وأعظم الخلق غرورًا: مَن اغتر بالدنيا وعاجلها، فآثرها علىٰ الآخرة، ورضي بها من الآخرة حتىٰ يقول بعض هؤلاء: الدنيا نقد، والآخرة نسيئة، والنقد أنفع من النسيئة! ويقول بعضهم: ذرة منقودة، ولا درة موعودة! ويقول آخر منهم: لذَّات الدنيا متيقنة، ولذات الآخرة مشكوك فيها، ولا أدع اليقين للشك.

الرَّدُّ علىٰ من قال ذلك واعتقده: هذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله، والبهائم العجم أعقل من هؤلاء، فإنَّ البهيمة إذا خافت مضرة شيءٍ، لم تُقْدم عليه ولو ضربت، وهؤلاء يقدم أحدهم علىٰ عطبه، وهو بين مُصدِّقٍ ومُكذِّبٍ، فهذا الضرب إن آمن أحدهم بالله ورسوله ولقائه والجزاء، فهو من أعظم الناس حسرةً؛ لأنه أقدم علىٰ عِلْمٍ، وإن لم يؤمن بالله ورسوله، فأبعد له.

وقول هذا القائل: «النقد خيرٌ من النسيئة»، فجوابه: أنه إذا تساوىٰ النقد والنسيئة، فالنقد خيرٌ، وإن تفاوتا وكانت النسيئة أكثر وأفضل، فهي خيرٌ، فكيف والدنيا كلها من أوَّلها إلىٰ آخرها كنفسٍ واحدٍ من أنفاس الآخرة»[(١)].

روىٰ مسلم عن المستورد بن شداد، قال رسول الله ﷺ: «**وَاللهِ، ما الدُّنيا في الآخرة إلَّا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه**[(٢)] **في اليمِّ، فلينظر بِمَ ترجع؟**»[(٣)].

فإيثار هذا النقد علىٰ هذه النسيئة من أعظم الغبن، وأقبح الجهل، وما سبق نسبة الدنيا بمجموعها إلىٰ الآخرة، فما مقدار عمر الإنسان بالنسبة إلىٰ الآخرة؟ فأيما أَوْلَىٰ بالعاقل: إيثار العاجل في هذه المدة اليسيرة، وحرمان الخير الدائم في الآخرة، أم ترك

---

(١) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء» (ص٣٦).

(٢) رواه مسلم (٢٨٥٨).

(٣) "وأشار يَحْيىٰ بالسبابة"... هو يَحْيىٰ بن يَحْيىٰ أحد رواة الحديث.

شيءٍ حقير صغير منقطع عن قرب ليأخذ ما لا قيمة له، ولا خطر له، ولا نهاية لعدده، ولا غاية لأمده.

وأما قول القائل: «لا أترك متيقنًا لمشكوكٍ فيه»، فيقال له: إما أن تكون علىٰ شكٍّ من وعد الله ووعيده، وصدق رسله، أو تكون علىٰ يقينٍ من ذلك، فإن كنت علىٰ يقينٍ، فما تركت إلا ذرة عاجلة منقطعة فانية عن قربٍ لأمرٍ متيقنٍ لا شك فيه، ولا انقطاع له.

وإن كنت علىٰ شكٍّ، فراجع آيات الرب تعالىٰ الدالة علىٰ وجوده وقدرته ومشيئته ووحدانيَّته، وصدق رسله فيما أخبروا به عنه، وتجرد وقم لله ناظرًا، أو مناظرًا حتىٰ يتبين لك أن ما جاءت به الرسل عن الله فهو الحق الذي لا شكَّ فيه»[(١)].

نكتة مهمة جدًّا:

قال ابن القيم: «فإن قيل: كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا شكَّ فيه بالمعاد والجنة والنار، ويتخلَّف العمل؟ وهل في الطباع البشرية أن يعلم العبد أنه مطلوبٌ غدًا إلىٰ بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة، أو يكرمه أتمَّ كرامة، ويبيت ساهيًا غافلًا، لا يتذكر موقفه بين يدي الملك، ولا يستعد له، ولا يأخذ له أُهْبته.

قيل: هذا -لعمر الله- سؤال صحيح وارد علىٰ أكثر هذا الخلق، واجتماع هذين الأمرين -أي: التَّصديق الجازم بالمعاد، وتخلُّف العمل- من أعجب الأشياء»[(٢)].

---

(١) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء» (ص٣٧).

(٢) المصدر السابق (ص٣٨).

الفصل الرابع

أسباب تخلُّف العبد عن العمل

وتخلُّف العمل له أسبابٌ:

الأوَّل: ضعف العلم ونقصان اليقين، ومَنْ ظنَّ أن العلم لا يتفاوت، فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها.

وقد سأل إبراهيم الخليل ربه أن يريه إحياء الموتىٰ عيانًا بعد علمه بقدرة الرب علىٰ ذلك، ليزداد طمأنينةً، ويصير المعلوم غيبًا شهادةً.

الثاني: غلبات الهوىٰ.

الثالث: استيلاء الشهوة.

الرابع: تسويل النفس.

الخامس: غرور الشيطان.

السادس: استبطاء الوعد.

السابع: طول الأمل.

الثامن: رقدة الغفلة.

التاسع: حب العاجلة.

العاشر: رخص التأويل.

الحادي عشر: إلف العوائد.

وجماع هذه الأسباب يرجع إلىٰ ضعف البصيرة، وضعف اليقين والصبر.

وعليه، فالفرق بين حسن الظن والغرور: أن حسن الظن إن حمل علىٰ العمل، وحث عليه، وساق إليه، فهو صحيحٌ، وإن دعا إلىٰ البطالة والانهماك في المعاصي، فهو غرورٌ.

وحسن الظن هو الرجاء، فمَن كان رجاؤه حاديًا له علىٰ الطاعة، زاجرًا له عن المعصية، فهو رجاءٌ صحيحٌ، ومَنْ كانت بطالته رجاءً، ورجاؤه بطالةً وتفريطًا، فهو المغرور.

قال العلماء[(١)]: من رجا شيئًا طلبه، ومن خاف شيئًا هرب منه، ومن رجا الغفران مع الإصرار، فهو مغرور.

ولو أن رجلًا له أرض يؤمل أن يعود عليه من مغلها ما ينفعه فأهملها، ولم يبذرها، ولم يحرثها، وأحسن ظنه بأنه يأتي من مغلها ما يأتي من حرثٍ وبذرٍ، وسقىٰ، وتعاهد الأرض، لعدَّه الناس من أسفه السفهاء، وكذلك لو حسن ظنه، وقوىٰ رجاءه بأن يجيئه ولدٌ من غير زواجٍ وجماعٍ، أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلبٍ للعلم، وحرصٍ تامٍّ عليه، وأمثال ذلك، فكذلك من حسن ظنه، وقوىٰ رجاءه في الفوز بالدرجات العلىٰ والنعيم المقيم من غير طاعةٍ، ولا تقربٍ إلىٰ الله تعالىٰ بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه[(٢)]، وبالله التوفيق. انتهىٰ من «الداء والدواء» لابن القيم بتصرف.



(١) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء» (ص٣٨، ٣٩).

(٢) من كلام مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٢٩٢).

الفصل الخامس

ذكر أمثلة لبعض المغترين وشبههم

ذكر ابن القيم أمثلة لبعض المغترين وشبههم، فقال:

«قال لي رجلٌ من المنتسبين إلىٰ الفقه: أنا أفعل ما أفعل، ثم أقول: سبحان الله وبحمده مائة مرة، وقد غفر ذلك أجمعه، كما صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ قال في يومٍ: سبحان الله وبحمده مائة مرةٍ، حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر**».

وقال لي آخر من أهل مكة: نحن أحدنا إذا فعل ما فعل، اغتسل وطاف بالبيت أسبوعًا، وقد مُحِيَ عنه ذلك.

قال لي آخر: قد صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**أذنب عبدٌ ذنبًا، فقال: أي ربِّ، أصبتُ ذنبًا فاغفره لي، فغفر له، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبًا آخر، فقال: أي ربِّ، أصبتُ ذنبًا، فاغفره لي، فغفره له، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبًا آخر، فقال: أي ربِّ، أصبتُ ذنبًا، فاغفره لي، فقال الله** ﷻ: **عَلِمَ عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، فليصنع ما شاء**». قال: وأنا لا أشكُّ أن لي ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ به».

ثم **قال ابن القيم**: «وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص الرجاء، واتكل عليها، وتعلَّق بها بكلتا يديه، وإذا عُوتب علىٰ الخطايا، والانهماك فيها، سرد لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته، ونصوص الرجاء.

وللجُهَّال من هذا الضرب من الناس في هذا الباب غرائب وعجائب؛ كقول بعضهم:

وكثر ما استطعت من الخطايا إذا كان القدوم على كريم

وقول الآخر: التنزُّه من الذنوب جهل بسعة عفو الله. وقول الآخر: ترك الذنوبُ جراءةٌ علىٰ مغفرة الله، واستصغارٌ لها.

وقال أبو محمد ابن حزم: رأيت بعض هؤلاء يقول في دعائه: اللهم إني أعوذ بك من العصمة!»[(١)]، وهذا كثيرٌ في زماننا (١٤٤٠ هجرية)، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.



(١) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء» (ص٢٢).

الفصل السادس

ما يكون به[1] الغرور وذكر بعض أصناف المغترين

فمنهم فرقةٌ أحكموا العلوم الشرعية والعقلية، وأهملوا تفقُّد الجوارح، وحفظها عن المعاصي، واغتروا بعلمهم، وظنوا أنهم عند الله بمكانٍ لا يعذب مثلهم.

علاج هؤلاء: اليقين بأن كل علمٍ يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل، وقد ورد فيمن لا يعمل بعلمه ما فيه أشد الترهيب؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٧]، وكقوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]، فأي خزيٍ أعظم من التمثيل بالكلب والحمار؟

وفرقة أخرىٰ أحكموا العلم والعمل، فواظبوا علىٰ الطاعات الظاهرة، وتركوا المعاصي، إلا أنَّهم لم يتفقَّدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات الذميمة من الكبر والحسد والرياء وطلب العلا وإرادة السوء للأقران والنظراء وطلب الشهرة في البلاد والعباد، فهؤلاء زينوا ظواهرهم، وأهملوا بواطنهم.

علاج هؤلاء: اليقين بأن القلب هو الأصل؛ إذْ لا ينجو إلا مَن أتىٰ الله بقلبٍ سليمٍ، ومثال هؤلاء قبور الموتىٰ: ظاهرها مزين، وباطنها جيفة.

وفرقة اقتصروا علىٰ علم الفتاوىٰ في الحكومات والخصومات، وتفاصيل المعاملات

---

(١) «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» (ص٢٦٠).

الدنيوية الجارية بين الخَلق لمصالح العباد، وخصصوا اسم الفقه بها، وربما ضيعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة، فلم يتفقدوا الجوارح؛ كاللسان عن الغيبة، ولا البطن عن الحرام، ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر المهلكات.

علاج هؤلاء: اليقين بأن الفقه هو الفقه عن الله، ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة؛ ليستشعر القلب الخوف، ويلازم التقوىٰ.

وفرقة اشتغلوا بالوعظ والتذكير والتكلم في أخلاق النفس والزهد والإخلاص، وهم مغرورون، يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات، ودَعَوا الخَلق إليها، فقد صاروا موصوفين بها، وهم منفكون عنها عند الله؛ لحرصهم علىٰ السمعة، وحسدهم لمَن يتقدَّمهم من أقرانهم، وغيظهم علىٰ مَن يثني علىٰ معاصريهم، وجمعهم لحُطَام الدنيا، فهؤلاء أعظم الناس غرةً[(١)].

وعلاجهم: يكمن في استشعار قول النبي ﷺ فيما رواه مسلم عن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يؤتىٰ بالرجل يوم القيامة، فيلقىٰ في النَّار، فتندلق أقْتابُ بطنه**[(٢)]**، فيدور بها كما يدور الحمار بالرَّحىٰ، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان، ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف، وتنهىٰ عن المنكر؟ فيقول: بلىٰ، قد كنت آمُرُ بالمعروف، ولا آتيه، وأنهىٰ عن المنكر وآتيه**»[(٣)].

وروىٰ الطبراني في «معجمه الصغير» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «**أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة: عالِم لم ينفعه علمه**»[(٤)].

---

(١) «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» (ص٢٦١).

(٢) صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٠) ذكر محمد فؤاد عبد الباقي في التعليق، فقال: «قال أبو عبيد: الأقتاب الأمعاء، قال الأصمعي: واحدها قتبة، وقال غيره: قتب، وقال ابن عيينة: هي ما استدار في البطن وهي الحوايا والأمعاء، وهي الأقصاب واحدها: قصب، والاندلاق خروج الشيء من مكانه».

(٣) رواه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٤) «المعجم الصغير» للطبراني (١/ ٣٠٥)، قال الألبانيُّ في «ضعيف الجامع» (٨٦٨): ضعيف جدًّا.

وفرقةٌ منهم قنعوا بحفظ كلام الزُّهاد وأحاديثهم في ذمِّ الدنيا، فهم يحفظون الكلمات، ويؤدُّونها من غير إِحَاطَةٍ بمعانيها، ولو في الأسواق مع الجلساء، وكلٌّ منهم يظن أنه إذا حفظ كلام الزُّهاد، فقد أفلح، ونال الغرض، وصار مغفورًا له.

علاج هؤلاء: يكون بمجاهدة النفس في حفظ الباطن عن الآثام[(١)].

وفرقة اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة، واغتروا به، وزعموا أنهم قد غفر لهم، وأنهم من علماء الأمة، فأفنوا أعمارهم في ذلك، وأعرضوا عن معرفة معاني الشريعة والعمل بها؛ كمَن ضيع عُمُره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن، واقتصر عليه وهو غرورٌ، إذ المقصود من الحروف المعاني، وإنما الحروف أدوات لمعرفة المعاني، والعمل بها.

علاج هؤلاء: معرفة الفرق بين الوسائل والغايات، فعلم النحو واللغة ومخارج الحروف وسائل لمعرفة المعاني والعمل بها، فلا يليق أن تكون الوسائل غايات، وتهمل الغايات.

وفرقة اغتروا بالحج، فيخرجون إلىٰ الحج من غير خروجٍ عن المظالم، وقضاء الديون، واسترضاء الوالدين، وطلب الزاد الحلال، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الإسلام، ويُضيِّعون في الطريق الصلاة والفرائض، ولا يحذرون من الرفث والخصام، ثم يحضر البيت بقلبٍ ملوثٍ بذميم الأخلاق، لم يقدم تطهيره علىٰ حضوره، وهو مع ذلك يظن أنه علىٰ خيرٍ من ربه، فهو مغرور[(٢)].

علاج هؤلاء: العلم بأنَّ من الذنوب ما لا يغفر إلا بالتوبة النصوح، فلا تؤثر فيها حج، ولا عمرة.

---

(١) «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» (ص٢٦١).

(٢) «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» (ص٢٦٣).

وفرقة زهدت في المال، وقنعت من اللباس والطعام بالدُّون، ومن المسكن بالمساجد، وظنَّت أنها أدركت رتبة الزُّهاد، وهو مع ذلك راغبٌ بالرياسة والجاه؛ إما بالعلم، أو بالوعظ، أو بمُجرَّد الزُّهد، فقد ترك أهون الأمرين، وباء بأعظم المهلكين، فهذا مغرورٌ إذ ظنَّ أنه من الزُّهاد في الدنيا(١).

علاج هؤلاء: اليقين بأنَّ خير الهدي هدي النبي محمدٍ ﷺ.

وفرقة اغتروا واكتفوا، واعتنوا غاية الاعتناء بالهدي الظاهري من إعفاء اللحية، وتقصير الثياب، وغض البصر، وأهملوا كثيرًا من أوامر الشريعة كهجر المبتدع.

علاج هؤلاء: اليقين بأنَّ الشريعة كلٌّ لا يتجزأ، فالذي أمر بإعفاء اللحية هو الذي هجر العاصي، والذي أمر بتقصير الثياب هو الذي نهىٰ عن الحسد والكبر.

وفرقة يحرصون علىٰ بناء المساجد وما يظهر للناس ليتخلَّد ذكرهم، أو يذيع صيتهم وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك(٢).

علاج هؤلاء: فيما رواه الإمام أحمد عن عمرو بن شعيبٍ، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «**مَن بنىٰ لله مسجدًا، بني له بيت أوسع منه في الجنة**»(٣)، والله تعالىٰ لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه.

وفرقة ينفقون الأموال في الصَّدقات علىٰ المساكين، ويطلبون به المحافل الجامعة، ومن المنفقين مَن عادته الشكر، وإفشاء المعروف، ويكرهون التصدُّق في السِّرِّ، ويرون إخفاء الفقير لما يأخذه منهم جنايةً عليهم وكفرانًا، وربما يحرصون

---

(١) «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» (ص٢٦٣).

(٢) «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» (ص٢٦٥).

(٣) رواه أحمد، وصحَّحه العلَّامة أحمد شاكر (٧٠٥٦).

علىٰ إنفاق المال في الحج، فيحجون مرةً بعد أخرىٰ، وربما تركوا جيرانهم جياعًا.

ولذلك، قال ابن مسعودٍ: «في آخر الزمان يكثر الحاج بلا سببٍ، يهون عليهم السفر، ويبسط لهم في الرزق، ويرجعون محرومين مسلوبين، يهوي بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور إلىٰ جنبه لا يواسيه»[(١)].

علاج هؤلاء: كما سبق، إخلاص العمل لله تعالىٰ.

حكاية: قال أبو نصر التمار: «إن رجلًا جاء يودع بشر بن الحارث، وقال: قد عزمت علىٰ الحج، فتأمرني بشيءٍ؟ فقال له: كم أعددت للنفقة؟ قال: ألفي درهم. قال بشر: فأي شيءٍ تبتغي لحجتك؛ تزهدًا أو اشتياقًا إلىٰ البيت، أو ابتغاء مرضاة الله؟ قال: ابتغاء مرضاة الله. قال: فإن أصبتَ مرضاة الله تعالىٰ وأنتَ في منزلك، وتنفق ألفي درهمٍ، وتكون علىٰ يَقِينٍ من مرضاة الله تعالىٰ، أتفعل ذلك؟ قال: نعم. قال: اذهب فأعطها عشرة أنفسٍ: مديونًا يقضي دينه، وفقيرًا يرم شعثه، ومعيلًا يحيي عياله، ومربي يتيمٍ يفرحه، وإن قوي قلبك تعطيها واحدًا فافعل، فإن إدخالك السرور علىٰ قلب مسلم، وإغاثة اللهفان، وكشف الضر، وإعانة الضعيف، أفضل من مائة حجةٍ بعد حجة الإسلام، قُمْ فأخرجها كما أمرناك، وإلا فقل لنا ما في قلبك، فقال: يا أبا نصر، سفري أقوىٰ في قلبي، فَتبسَّم بشرٌ -رحمه الله تعالىٰ- وأقبل عليه، وقال له: «المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات، اقتضت النفس أن تقضي به وطرًا، فأظهرت الأعمال الصالحات، وقد آلىٰ الله علىٰ نفسه ألَّا يقبل إلا عمل المتقين»[(٢)].

وفرقة اغترت بصلاح الآباء والأمهات، وذلك نهاية الغرور، فإن آباءهم مع صلاحهم وورعهم كانوا خائفين، ونظم قياسهم الذي سوَّل لهم الشيطان: مَن أحب

---

(١) «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» (ص٢٦٥).

(٢) «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» (ص٢٦٥).

إنسانًا أحب أولاده، فإنَّ الله قد أحب أباكم، فهو يحبكم، فلا تحتاجون إلىٰ الطاعات، فاتكلوا علىٰ ذلك، واغتروا بالله.

علاج هؤلاء: أن يعلموا أن نوحًا عليه السلام أراد أن يحمل ولده في السفينة فمنع، وأغرقه الله تعالىٰ بأشد ما أغرق به قوم نوحٍ عليه السلام، وإنَّ نبينا محمدًا ﷺ استأذن في زيارة قبر أمه، وفي الاستغفار، فأذن له في الزيارة، ولم يؤذن في الاستغفار لها، قال تعالىٰ: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٣٦ - ٤١].

ومَن ظنَّ أنه ينجو بتقوىٰ أصله كمَن ظن أنه يشبع بأكل أبيه، أو يروىٰ بشراب أبيه، والتقوىٰ فرض عينٍ، لا يجزي فيها والد عن ولده.

وفرقة اغترَّت بفعل الحسنات، وظنَّت أن الطاعات أكثر من المعاصي، وإذا عمل طاعة حفظها، واعتدَّ بها كالذي يستغفر بلسانه، أو يسبح في الليل والنهار -مثلًا- مائة مرة، أو ألف مرة، ثم يغتاب المسلمين، وتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار، ويلتفت إلىٰ ما ورد في فضل التسبيح، ويغفل عما ورد في عقوبة المغتابين والكذابين والنمامين والمنافقين، وذلك محض الغرور، فحفظ لسانه عن المعاصي آكد من تسبيحاته.

وغير ذلك كثيرٌ من أصناف المغرورين، وفيما ذكر كفاية لمَن كان له قلبٌ، أو ألقىٰ السمع وهو شهيدٌ.

الفصل السابع

بم ينجو العبد من الغرور؟

ينجو العبد بثلاثة أمورٍ مجتمعة: بالعقل والعلم والمعرفة، فهذه ثلاثة أمورٍ لا بد منها:

أما العقل، فالمعنيُّ به الفطرة الغريزية، والنور الأصلي الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء؛ لأن أساس السعادات كلها العقل والكياسة.

وأما المعرفة، بأن يعرف نفسه وربه، ويعرف الدنيا والآخرة، فإذا عرف ذلك، ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها، ويصير أهمُّ أموره ما يوصله إلىٰ الله تعالىٰ، وينفعه في الآخرة، وإذا غلبت هذه الإرادة علىٰ قلبه، صحَّت نيَّته في الأمور كلها، واندفع عنه كل غرورٍ منشؤه تجاذب الأغراض، والنزوع إلىٰ الدنيا والجاه والمال، وما دامت الدنيا أحب إليه من الآخرة، وهوىٰ نفسه أحب إليه من رضاء الله تعالىٰ، فلا يمكنه الخلاص من الغرور.

وأما العلم، نعني به العلم بما يُقرِّبه من الله، وما يبعده عنه، فيعرف من العبادات شروطها فيراعيها، وآفاتها فيتقيها، ومن العادات أسرار المعايش، وما هو مضطرٌّ إليه فيأخذه بأدب الشرع، وما هو مستغنٍ عنه فيعرض عنه، ومن المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة في طريق الله، فإنَّ المانع من الله الصفات المذمومة في الخلق، فيعلم المذموم، ويعلم طريق علاجه، ويعرف من المنجيات الصفات المحمودة التي لا بدَّ وأن توضع خلفًا عن المذمومة بعد محوها، وأصل ذلك كله أن يغلب حب الله علىٰ القلب، ويسقط حب الدنيا منه حتىٰ تقوىٰ به الإرادة، وتصحُّ به النية، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها[(١)].

---

(١) «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» (ص٢٦٧).

الفصل الثامن

كيف يتخلص العبد من الغرور؟

فنقول مستعينين بالله: إنَّ من الأدوية للتخلص من الغرور: الوقوف علىٰ أضراره، ومنها:

(١) غرور الكفار والفساد والعصاة من أشد أنواع الغرور إلحاقًا للأذىٰ.

(٢) الغرور دليل فساد النفس، وخبث الطويَّة.

(٣) الغرور بعفو الله يوقع في الهلاك.

(٤) غرور العلماء بعلمهم يلهيهم عن العمل.

(٥) غرور العباد يفسد ثواب عملهم.

(٦) الغرور يؤدي إلىٰ الطغيان والكفر، أو الفسق والفجور.

(٧) الغرور فيه جرأةٌ عظيمةٌ علىٰ الله ﷻ.

(٨) هو خسران في الدنيا، وعذاب في الآخرة.

(٩) فيه جهالةٌ بحقيقة النفس، وأن الإنسان قد خُلِقَ من صلصالٍ من حمأ مسنونٍ.

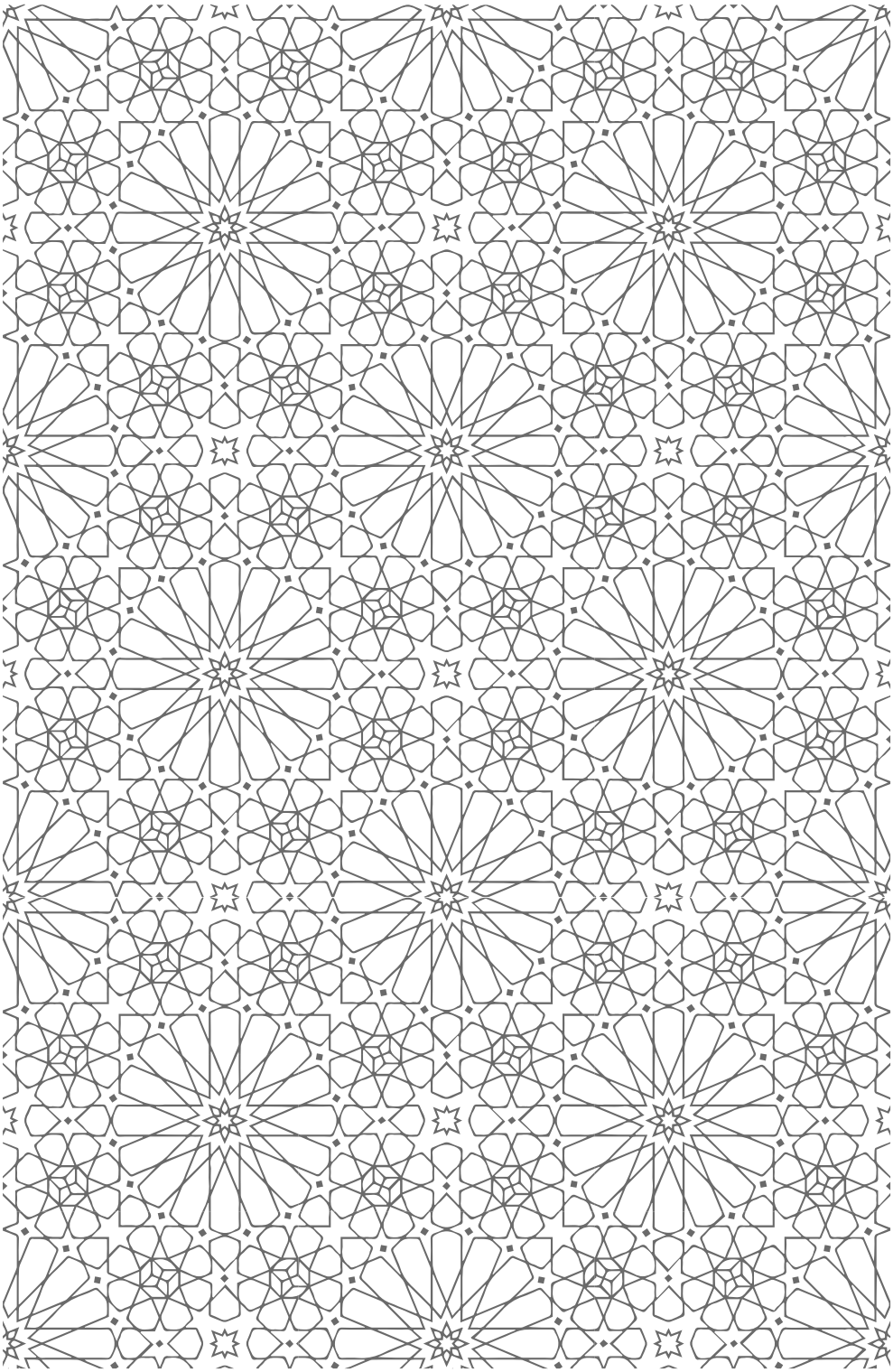
(١٠) الغرور يَتنافَىٰ مع العبودية الحقة لله تعالىٰ.

(١١) الغرور يهلك الأمم، ويصيب الأفراد بالأمراض النفسيَّة الخطيرة.

(١٢) الغرور يورث الكبر والعجب وغيرهما من أمراض القلب[1].

نسأل الله العون والتوفيق، وحسن الخاتمة، آمين.

(١) «نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم» (١١/ ٥٠٦٨).



الباب الرابع

مرض سوء الظن

وفيه سبعة فصول:

الفصل الأول: مقدمة عن مرض سوء الظن.

الفصل الثاني: أركان سوء الظن.

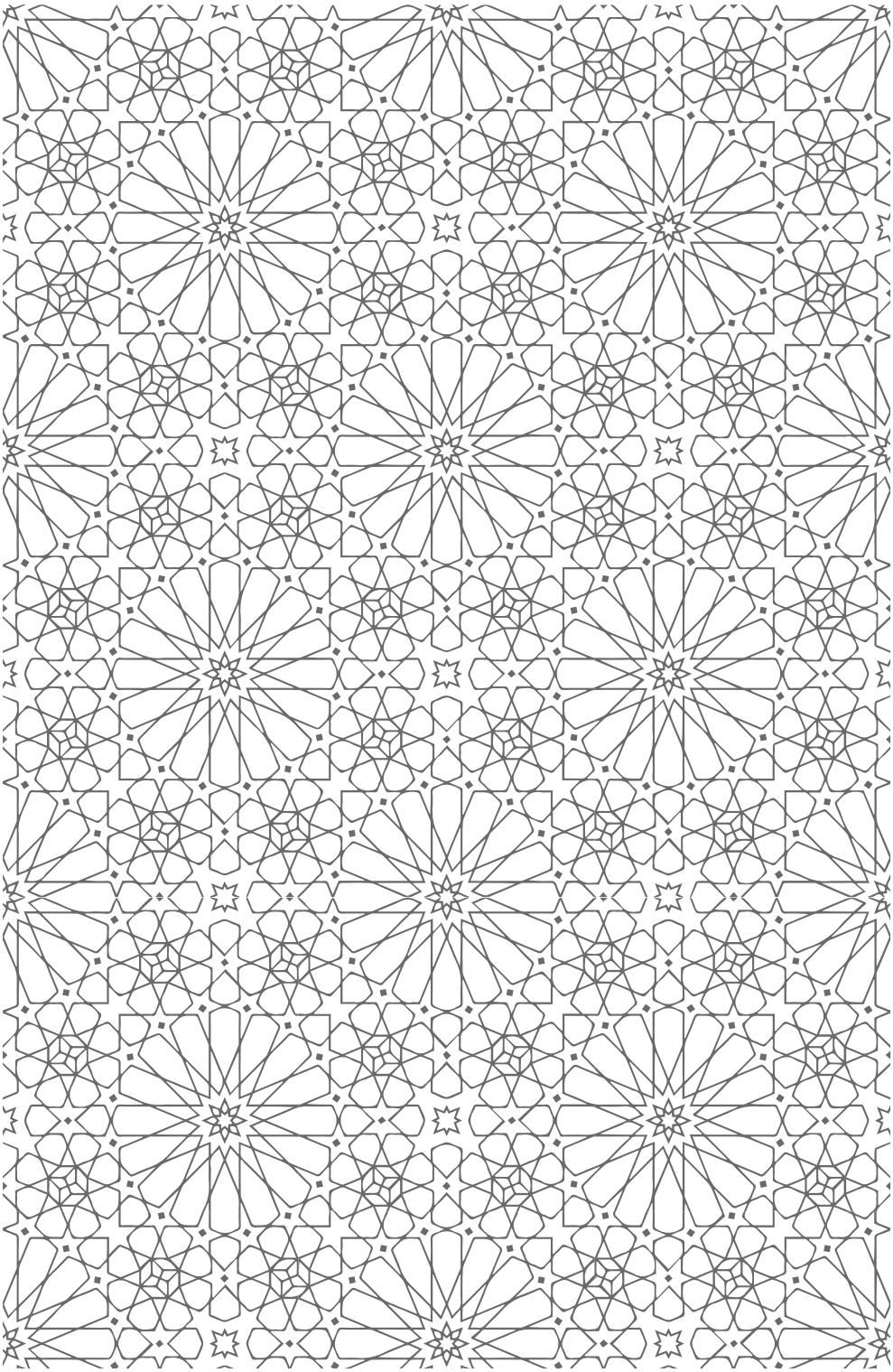
الفصل الثالث: التحذير من سوء الظن.

الفصل الرابع: أمثلة علىٰ سوء الظن.

الفصل الخامس: أسباب سوء الظن.

الفصل السادس: علاج مرض سوء الظن.

الفصل السابع: خطر إساءة الظن بالعلماء والدعاة.



الفصل الأول

مقدمة عن مرض سوء الظن

مقدمة عن مرض سوء الظن:

قال ابن حجرٍ في «الزواجر»: «وهذه الكبائر مما يجب علىٰ المكلف معرفتها ليعالج زوالها؛ لأنَّ مَن كان في قلبه مرض منها، لم يلق الله -والعياذ بالله- بقلبٍ سليمٍ، وهذه الكبائر يذم العبد عليها أعظم مما يذم علىٰ الزنا والسرقة وشرب الخمر ونحوها من كبائر البدن، وذلك لعظم مفسدتها، وسوء أثرها ودوامه؛ إذ إن آثار هذه الكبائر ونحوها تدوم بحيث تصير حالًا وهيئةً راسخةً في القلب بخلاف آثار معاصي الجوارح، فإنها سريعة الزوال، تزول بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية والمصائب المكفرة»[(١)].

فهذا المرض لا يقلُّ في الخطورة عن مرض الكبر وغيره من الأمراض، وإشكاليَّته أنَّ العبد قد يتلبَّس به وهو مغلفٌ بغلاف الشريعة أنه خالٍ منه، فيكون متلبسًا به وهو لا يدري، بل ويظن أنه يتقرَّب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

تعريف مرض سوء الظن[(٢)]:

«**الظن**»: هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض، أي: يعتقد شيئًا واحتمال عكسه موجود. و«الظنين» هو المتهم، قال الله عَزَّوَجَلَّ في التنزيل: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ

---

(١) «الزواجر عن اقتراف الكبائر» (١/ ١٣١).

(٢) وكما قلنا: إنَّ أهم شيءٍ في المرض تعريفه تعريفًا صحيحًا، فهو يشابه تشخيص المرض عند الأطباء، وكلما كان وصف الشكاية صحيحًا، قربت المسافة علىٰ الطبيب في وصف العلاج.

﴿بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [التكوير: ٢٤] بالضاد، أي: ببخيلٍ، وهي قراءة حفص، بينما قرأ أبو عمرٍو وابن كثيرٍ والكسائي وحمزة: ﴿بِظَنِينٍ﴾ بالظاء، أي: بمُتَّهمٍ.

وتعريف مرض سوء الظن هو: «ترجيح جانب الشَّرِّ علىٰ جانب الخير فيما يحتمل الأمرين معًا».

كأن يرىٰ الإنسان من إنسانٍ فعلةً، أو يسمع منه مقولةً تحتمل شرًّا، وتحتمل خيرًا، فيحملها علىٰ جانب الشر.

وَباتِّفاق أهل العلم: ليس لنسبةِ الخيرِ والشَّرِّ أي اعتبارٍ، ولكن المهم أن يكون في الفعلة أو المقولة احتمال الخير والشَّرِّ معًا حتىٰ لو كان احتمال الشر بها ٩٩.٩٪ والخير ٠.١٪ فقط، فإن تغليب الشر سوء ظنٍّ.

لذلك، نحن ملزمون شرعًا بحمل كل فعلةٍ ومقولةٍ صدرت من مسلمٍ علىٰ جانب الخير، فالأصل في المسلم الاستقامة -كما يذكر العلماء في مباحث الإيمان والكفر- والأصل أنَّ كلَّ الأفعال التي تخرج منه خيرٌ، ونحن ملزمون بحملها علىٰ هذا المحمل، وإن كان احتمال الخير فيها ضئيلًا جدًّا.



الفصل الثاني

أركان سوء الظن

ولقيام هذا المرض يلزم وجود ثلاثة أركانٍ:

(١) ظان. (٢) ومظنون فيه. (٣) وموضوع الظن.

أقسام سوء الظن:

قسَّم العلماء سوء الظن باعتبار المظنون فيه إلىٰ قسمين: (سوء ظنٍّ بالخالق - سوء ظنٍّ بالمخلوق).

سوء الظَّنِّ بالخالق:

وسوء الظَّنِّ بالله عَزَّوَجَلَّ من أقبح القبائح، ومن أكبر الكبائر، وهو أعظم من اليأس ومن القنوط، وما ورد في أغلب الآيات إلا منسوبًا إلىٰ المنافقين، قال الله عَزَّوَجَلَّ في التنزيل: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح: ٦].

وأيضًا منه قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٢٧].

ومعنىٰ أَنْ يسيء العبد الظَّنَّ بالله عَزَّوَجَلَّ: أن يتسخَّط علىٰ قضاء الله وقدره، فإن قدَّر الله عَزَّوَجَلَّ أمرًا يحتمل الخير والشر من وجهة نظرنا -وهذا نقوله تجاوزًا، وإلا فالله عَزَّوَجَلَّ لا يقضي ولا يقدر إلا بالخير- فإن غلبت جانب الشر علىٰ جانب الخير، فقد أسأت الظن بالله عَزَّوَجَلَّ.

ومن ذلك أنك تجد بعض الناس إذا نزل به البلاء، تسخط وغضب، وكأنَّ لسان حاله يقول: ما ينبغي أن أُصَاب بمصيبةٍ، ولا أن تنزل بي بليةٌ، وهذا وهمٌ خاطئ، وهو سوء ظن بالله عَزَّوَجَلَّ[١].

ومن سوء الظن بالله عَزَّوَجَلَّ: ما قاله ابن القيِّم[٢] رحمه الله تعالىٰ:

«فمَن ظنَّ بأن الله تعالىٰ لا ينصر رسوله، ولا يتم أمره، ولا يؤيده، ولا يؤيد حزبه، ويعليهم ويظفرهم بأعدائه، ويظهرهم عليهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يُديل الشرك علىٰ التوحيد، والباطل علىٰ الحق إدالةً مستقرةً يضمحلُّ معها التوحيد والحق اضمحلالًا لا يقوم بعده أبدًا، فقد ظنَّ بالله ظنَّ السوء، ونَسَبه إلىٰ خلاف ما يليق بكماله وجلاله وصفاته ونعوته، فمَن ظنَّ به ذلك، فما عرفه، ولا عرف أسماءه، ولا عرف صفاته وكماله.

وكذلك مَن قنط من رحمته، وأيس من روحه، فقد ظنَّ به ظنَّ السوء.

وكذلك من جوز عليه أن يُعذِّب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم، ويُسوِّي بينهم وبين أعدائه، فقد ظنَّ به ظنَّ السوء.

وكذلك مَن ظنَّ به أن يترك خلقه سُدًىٰ معطلين عن الأمر والنهي، ولا يرسل إليهم رسله، ولا يُنزل عليهم كتبه، بل يتركهم هملًا كالأنعام، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوء.

وكذلك مَنْ ظنَّ أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دارٍ يجازي المحسن

---

(١) وقد تكلم شيخ الإسلام الإمام ابن القيم -عليه رحمة الله- في كتابه «إغاثة اللهفان» عن هذه الجزئية بالتفصيل، وقال: «وكثيرٌ ممن يبتلىٰ يظن أنه ما ينبغي أن تنزل عليه لزعمه أنه كامل الإيمان، وكامل العمل، وهذا من سوء الظن، ومن الجهل»، ثم فصل الكلام في انقسام الأعمال، تنقسم إلىٰ عمل قلب، وعمل جوارح، وقد مرَّ ذكر كلامه في العلاج العملي للكبر بالعلم.

(٢) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٣/ ٢٠٥).

فيها بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويُبيِّن لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين، فقد ظنَّ به ظنَّ السوء.

وكذلك مَن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصًا لوجهه الكريم علىٰ امتثال أمره، ويبطله عليه بلا سببٍ من العبد، أو أنه يعاقبه بما لا صنع فيه، ولا اختيار له، ولا قدرة، ولا إرادة في حصوله، بل يعاقبه علىٰ فعله هو سبحانه به، أو ظنَّ به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه ورسله، ويُجريها علىٰ أيديهم يُضلون بها عباده، وأنه يحسن منه كل شيءٍ حتىٰ تعذيب مَن أفنىٰ عمره في طاعته، فيخلده في الجحيم أسفل السافلين، وينعم مَن استنفد عمره في عداوته وعداوة رسله ودينه، فيرفعه إلىٰ أعلىٰ عليِّين، وكلا الأمرين عنده في الحسن سواء، ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبرٍ صادقٍ، وإلا فالعقل لا يقضي بقبح أحدهما، وحسن الآخر، فقد ظنَّ به ظنَّ السوء.

وكذلك مَن ظنَّ به أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل، وتشبيه وتمثيل، وترك الحق لم يخبر به، وإنما رمز إليه رموزًا بعيدةً، وأشار إليه إشارات ملغزة لم يصرح به، وصرح دائمًا بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه، وتأويله علىٰ غير تأويله، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة، والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالكشف والبيان، وأحالهم في معرفة أسمائه وصفاته علىٰ عقولهم وآرائهم لا علىٰ كتابه، بل أراد منهم ألَّا يحملوا كلامه علىٰ ما يعرفون من خطابهم ولغتهم، مع قدرته علىٰ أن يُصرِّح لهم بالحقِّ الذي ينبغي التصريح به، ويريحهم من الألفاظ التي تُوقعهم في اعتقاد الباطل، فلم يفعل، بل سلك بهم خلاف طريق الهدىٰ والبيان، فقد ظنَّ به ظنَّ السوء، فإنه إن قال (أي: المحرف): إنه غير قادر علىٰ التعبير عن الحق

باللفظ الصريح الذي عبر به هو وسلفه، فقد ظنَّ بقدرته العجز، وإن قال: إنه قادر ولم يبين، وعدل عن البيان، وعن التصريح بالحقِّ إلىٰ ما يوهم، بل يوقع في الباطل المُحَال والاعتقاد الفاسد، فقد ظنَّ بحكمته ورحمته ظنَّ السوء، وظن أنه (أي: المحرف) هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله، وأن الهدىٰ والحق في كلامهم وعباراتهم، وأمَّا كلام الله فإنَّما يؤخذ من ظاهره التشبيه والتمثيل والضلال، وظاهر كلام المتهوكين الحيارىٰ هو الهدىٰ والحق، فهذا من أسوأ الظنِّ بالله، فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء، ومن الظانين به غير الحق ظن الجاهلية.

وكذلك مَن ظن به أن يكون في ملكه ما لا يشاء، ولا يقدر علىٰ إيجاده وتكوينه، فقد ظن به ظن السوء.

وكذلك مَن ظن به أنه كان معطلًا من الأزل إلىٰ الأبد عن أن يفعل، ولا يوصف حينئذ بالقدرة علىٰ الفعل، ثم صار قادرًا عليه بعد أن لم يكن قادرًا، فقد ظن به ظن السوء.

وكذلك مَن ظن به أنه لا يسمع، ولا يبصر، ولا يعلم الموجودات، ولا عدد السماوات والأرض، ولا النجوم، ولا بني آدم وحركاتهم وأفعالهم، ولا يعلم شيئًا من الموجودات في الأعيان، فقد ظن به ظن السوء.

وكذلك مَن ظنَّ أنه لا سمع له، ولا بصر، ولا علم له، ولا إرادة، ولا كلام يقول به، وأنه لم يكلم أحدًا من الخَلق، ولا يتكلم أبدًا، ولا قال، ولا يقول، ولا له أمرٌ، ولا نهيٌ يقوم به، فقد ظنَّ به ظنَّ السوء.

وكذلك مَن ظن به أنه فوق سماواته علىٰ عرشه بائنًا من خلقه، وأن نسبة ذاته تعالىٰ إلىٰ عرشه كنسبتها إلىٰ أسفل السافلين، وإلىٰ الأمكنة التي يرغب عن ذكرها، وأنه أسفل كما أنه أعلىٰ، فقد ظنَّ به أقبح الظنِّ وأسوأه.

وكذلك مَنْ ظنَّ به أنه يحبُّ الكفر والفسوق والعصيان، ويحب الفساد كما يحب الإيمان والبر والطاعة والإصلاح، فقد ظنَّ به ظن السوء.

وكذلك مَن ظنَّ به أنه لا يحب ولا يرضىٰ، ولا يغضب ولا يسخط، ولا يوالي ولا يعادي، ولا يقرب من أحدٍ من خلقه، ولا يقرب منه أحدٌ، وأن ذوات الشياطين في القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المفلحين، فقد ظنَّ به ظن السوء.

وكذلك مَن ظن أنه يسوي بين المتضادين، أو يفرق بين المتساويين من كل وجهٍ، أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرةٍ واحدةٍ تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات في النار أبد الآبدين بتلك الكبيرة، ويحبط بها جميع طاعاته، ويخلده في العذاب كما يخلد مَن لا يؤمن به طرفة عينٍ، وقد استنفد ساعات عمره في مساخطه، ومعاداة رسله ودينه، فقد ظنَّ به ظنَّ السوء.

وكذلك مَن ظنَّ به خلاف ما وصف به نفسه، ووصفه به رسله، أو عطل حقائق ما وصف به نفسه، ووصفته به رسله، فقد ظنَّ به ظن السوء.

وكذلك مَن ظنَّ أن له ولدًا، أو شريكًا، أو أن أحدًا يشفع عنده بدون إذنه، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه، ويتوسَّلون بهم إليه، ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه، فيدعونهم ويحبونهم كحبه، ويخافونهم ويرجونهم، فقد ظنَّ به أقبح الظن وأسوأه.

وكذلك مَن ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته ومخالفته كما يناله بطاعته والتقرُّب إليه، فقد ظنَّ به خلاف حكمته، وخلاف موجب أسمائه وصفاته، وهو من ظن السُّوء.

وكذلك مَن ظن به أنه إذا ترك لأجله شيئًا، لم يعوضه خيرًا منه، أو مَن فعل لأجله شيئًا لم يعطه أفضل منه، فقد ظنَّ به ظن السوء.

وكذلك مَن ظن به أنه يغضب علىٰ عبده، ويعاقبه ويحرمه بغير جرمٍ ولا سببٍ من العبد إلا بمجرد المشيئة ومحض الإرادة، فقد ظنَّ به ظن السوء.

وكذلك مَن ظن به أنه إذا صدقه (أي: العبد) في الرغبة والرهبة، وتضرع إليه وسأله، واستعان به وتوكل عليه أنه يخيبه ولا يعطيه ما سأله، فقد ظنَّ به ظن السوء، وظنَّ به خلاف ما هو أهله.

وكذلك مَن ظن به أنه يثيبه إذا عصاه بما يثيبه به إذا أطاعه، وسأله ذلك في دعائه، فقد ظنَّ به خلاف ما تقتضيه حكمته وحمده، وخلاف ما هو أهله وما لا يفعله.

وكذلك مَن ظن به أنه يسلط علىٰ رسوله محمد ﷺ أعداءه تسليطًا مستقرًّا دائمًا في حياته، وفي مماته، وابتلاه بهم لا يفارقونه، فلما مات استبدوا بالأمر دون وصيةٍ، وظلموا أهل بيته، وسلبوهم حقهم وأذلوهم، وكانت العزة والغلبة والقهر لأعدائه وأعدائهم دائمًا من غير جرمٍ ولا ذنبٍ لأوليائه وأهل الحق، وهو يرىٰ قهرهم لهم، وغصبهم إياهم حقهم، وتبديلهم دين نبيهم، وهو يقدر علىٰ نصرة أوليائه وحزبه وجنده، ولا ينصرهم ولا يديلهم، بل يديل أعداءهم عليهم أبدًا، أو أنه لا يقدر علىٰ ذلك، بل حصل هذا بغير قدرته ولا مشيئته، ثم جعل المبدلين لدينه مضاجعيه في حفرته تسلم أمته عليه وعليهم كل وقتٍ (أي: أبا بكرٍ وعمر دُفنا مع النبي ﷺ، رضي الله تعالىٰ عن الصحابة أجمعين) كما تظنه الرافضة، فقد ظنَّ به أقبح الظن وأسوأه[1].

ثم قال ابن القيِّم رحمه الله تعالىٰ: «وعلىٰ الجملة، فأكثر الخلق -بل كلهم إلا مَن شاء الله- يظنُّون بالله غير الحق ظن السوء، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق، ناقص الحظ، وأنه يستحقُّ فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربي،

(١) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٣/ ٢٠٨).

ومنعني ما أستحقه، ونفسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكره، ولا يتجاسر علىٰ التصريح به، ومن فتَّش نفسه وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها، رأىٰ ذلك فيها كامنًا كُمُونَ النار في الزناد، فاقدح زناد مَن شئت ينبئك شراره عما في زناده، ولو فتشت من فتشته لرأيت عنده تعتبًا علىٰ القدر، وملامةً له، واقتراحًا عليه خلاف ما جرىٰ به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقلٌّ ومستكثرٌ، وفتش نفسك هل أنت سالمٌ من ذلك.

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمةٍ وإلا فإنِّي لا إخالك ناجيَا

فليعتن اللَّبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وليتب إلىٰ الله تعالىٰ، وليستغفره كلَّ وَقتٍ من ظنه بربه ظنَّ السوء، وليظن السوء بنفسه التي هي مأوىٰ كل سوءٍ، ومنبع كل شرٍّ المركبة علىٰ الجهل والظلم، فهي أَوْلَىٰ بظن السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين، الغني الحميد الذي له الغنىٰ التام، والحمد التام، والحكمة التامة، المنزَّه عن كل سوءٍ في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه، فذاتُهُ لها الكمال المطلق من كل وجهٍ، وصفاته كذلك، وأفعاله كذلك، كلها حكمةٌ ومصلحةٌ ورحمةٌ وعدلٌ، وأسماؤه كلها حسنىٰ.

وفصل الخطاب في ذلك: ما رواه مسلم من حديث صهيب -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «عَجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»(١).

فلا تظننَّ بربك ظن سوء فإن الله أَوْلَىٰ بالجميلِ

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).

ولا تظـــنن بنفســـك قـــط خيـــرًا ... وكيـــف بظـــالم جـــانٍ جهـــولِ
وقـــل يـــا نفـــس مـــأوىٰ كـــل ســـوء ... أيُرْجـــىٰ الخيـــر مـــن ميـــتٍ بخيـــلِ
وظـــن بنفســـك الســـوأىٰ تجـــدها ... كـــذاك وخيرهـــا كالمســـتحيلِ
ومـــا بـــك مـــن تُقًـــىٰ فيهـــا وخيـــر ... فتلـــك مواهـــب الـــرب الجليـــلِ
ولـــيس بهـــا ولا منهـــا ولكـــن ... مـــن الـــرحمن فاشـــكر للـــدليلِ»[1]

انتهىٰ من «زاد المعاد» لابن القيم، فجزاه الله خيرًا، ونفعنا الله تعالىٰ بما قال.

والانتباه إلىٰ هذا الأمر يحتاج إلىٰ فقهٍ عالٍ للبلاء إذا ما نزل بالعبد، ومن ذلك أن تعلم الآتي:

أنَّ ما يجريه ربُّنا عَزَّوَجَلَّ علىٰ العبد من ابتلاءاتٍ ومحنٍ ومصائب وبلايا إنما هو بذنوبنا، وهذا هو الأصل في نزول البلاء، لذلك لما استسقىٰ عمر بن الخطاب بالعباس بن عبد المطلب عام الرمادة[2]، قام العباس بن عبد المطلب في حضرة الصحابة والتابعين، فدعا، فكان من جملة دعائه أن قال: «اللهم إنه لم ينزل بلاءٌ من السماء إلا بذنبٍ، ولم ينكشف إلا بتوبةٍ».

أن تعلم أن تقدير الله عَزَّوَجَلَّ كله خير، فالله عَزَّوَجَلَّ كل قضائه خيرٌ، كما في الحديث الَّذي رواه مسلمٌ عن عليِّ بن أبي طالبٍ أن النَّبيَّ ﷺ قال: «**والشَّرُّ ليس إليك**»[3]، وهو سبحانه ما أراد بك إلا الخير، ومن ذلك ما قاله علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو كشف الله للعباد ما في اللوح المحفوظ ما اختاروا إلا ما كُتِبَ لهم»، فسلِّم لقضاء الله وقدره.

---

(١) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٣/ ٢١٢).

(٢) وذلك بأن قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللهم إنا كنا نستسقي إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعمِّ نبينا فاسقنا».

(٣) أخرجه مسلم (٧٧١)، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه.

سوء الظن بالمخلوق:

وهو أن تسيء الظنَّ بأخيك المسلم، وهذا الذي سنتكلم عنه إن شاء الله تعالىٰ، ومعنىٰ إساءة الظن به -كما سبق- هو أن ترىٰ منه فعلةً، أو تسمع منه مقولةً تحتمل الخير والشر، فتحملها علىٰ جانب الشر، وهذا محرمٌ.

قال ابن حجرٍ في «الزواجر»: «هو أيضًا من الكبائر، وذلك أن مَن حكم بِشَرٍّ علىٰ غيره بمُجرَّد الظنِّ، حَمَله الشيطان علىٰ احتقاره، وعدم القيام بحقوقه، والتواني في إكرامه، وإطالة اللِّسان في عِرْضِهِ، وكل هذه مهلكاتٌ، وكل من رأيته سيئ الظن بالناس، طالبًا لإظهار معايبهم، فاعلم أن ذلك لخبث باطنه، وسوء طويته؛ فإنَّ المؤمن يطلب المعاذير لسلامة باطنه، والمنافق يطلب العيوب لخبث باطنه»[(١)]. اهـ. من «الزواجر» بتصرف.

قال ابن قدامة المقدسي: «فليس لك أن تظنَّ بالمسلم شرًّا إلا إذا انكشف أمرٌ لا يحتمل التأويل، فإن أخبرك بذلك عدلٌ، فمال قلبك إلىٰ تصديقه، كنت معذورًا؛ لأنك لو كذبته كنت قد أسأت الظن بالمخبر، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحدٍ، وتسيئه بآخر، بل ينبغي أن تبحث، هل بينهما عداوةٌ وحسدٌ؟ فتتطرق التُّهمة حينئذٍ بسبب ذلك، ومتىٰ خطر لك خاطر سوء علىٰ مسلمٍ، فينبغي أن تزيد في مراعاته، وتدعو له بالخير، فإنَّ ذلك يغيظ الشيطان، ويدفعه عنك، فلا يلقي إليك خاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة.

وإذا تحققت هفوة مسلمٍ، فانصحه في السر.

---

(١) «الزواجر عن اقتراف الكبائر» (١/ ١٤٣).

واعلم أنَّ من ثمرات سوء الظَّنِّ: التجسس، فإنَّ القلب لا يقنع بالظَّنِّ، بل يطلب التحقيق، فيشتغل بالتجسُّس، وذلك منهيٌّ عنه؛ لأنه يوصل إلىٰ هتك ستر المسلم، ولو لم ينكشف لك، كان قلبك أسلم للمسلم»[(١)]. اهـ. من «مختصر منهاج القاصدين».

وعلىٰ الجملة، وصفوة القول أن:

١- الظن المحرم هو سوء الظن بالله تعالىٰ، ويقابله وجوب حسن الظن بالله.

٢- حرمة الظن كذلك بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة، والمطلوب حسن الظن بهم.

٣- الظن المباح وهو الذي يعرض في قلب المسلم في أخيه بسبب ما يوجب الريبة، وهذا الظن لا يحقق.



(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص١٧٢).

الفصل الثالث

التحذير من مرض سوء الظن

أولًا: من القرآن:

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [فصلت: ٢٢ - ٢٤].

قال الطبري: «يقول تعالىٰ ذكره: وهذا الذي كان منكم في الدنيا من ظنكم أن الله لا يعلم كثيرًا مما تعملون من قبائح أعمالكم ومساويها، هو ظنكم الذي ظننتم بربكم في الدنيا أرداكم، يعني: أهلككم، يقال منه: أردىٰ فلانًا كذا وكذا إذا أهلكه، وردي هو إذا هلك»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [الحج: ١٥].

قال ابن كثيرٍ: «المعنىٰ: مَن ظنَّ أن الله ليس بناصرٍ محمدًا وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]؛ ولهذا قال: ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾»(٢).

---

(١) «تفسير الطبري = جامع البيان». ت: شاكر (٢١/ ٤٥٦).

(٢) «تفسير ابن كثير». ت: سلامة (٥/ ٤٠٢).

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية: ٣٢].

قال ابن كثير: «أي: إذا قال لكم المؤمنون ذلك، ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾، أي: لا نعرفها، ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾، أي: إن نتوهم وقوعها إلا توهمًا، أي: مرجوحًا؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾، أي: بمتحققين، قال الله تعالىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾، أي: وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾، أي: أحاط بهم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، أي: من العذاب والنكال، ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾، أي: نعاملكم معاملة الناسي لكم في نار جهنَّم ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾، أي: فلم تعملوا له؛ لأنكم لم تصدقوا به، ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٥﴾﴾ (١).

وقال تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح: ١١، ١٢].

قال ابن كثير: «يقول تعالىٰ مخبرًا رسوله -صلوات الله وسلامه عليه- بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهليهم وشغلهم، وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ، فاعتذروا بشغلهم بذلك، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ، وذلك قولٌ منهم لا علىٰ سبيل الاعتقاد، بل علىٰ وجه التقية والمصانعة؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ﴾، أي: لا يقدر أحدٌ أن يرد ما أراده فيكم تعالىٰ وتقدَّس، وهو العليم

(١) «تفسير ابن كثير». ت: سلامة (٧/ ٢٧٢).

بسرائركم وضمائركم، وإن صانعتمونا وتابعتمونا، ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾.

ثم قال: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾، أي: لم يكن تخلفكم تخلف معذور، ولا عاص، بل تخلف نفاقٍ، ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾، أي: اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم، وتستباد خضراؤهم، ولا يرجع منهم مخبر، ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾، أي: هلكىٰ.

ثم قال: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، أي: من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله، فإنَّ الله تعالىٰ سيعذبه في السعير وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر.

ثم بيَّن تعالىٰ أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السموات والأرض ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾، أي: لمَن تاب إليه وأناب، وخضع لديه»[(١)].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الانشقاق: ١٠- ١٥].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾، أي: بشماله من وراء ظهره، تثنىٰ يده إلىٰ ورائه، ويعطىٰ كتابه بها كذلك، ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾﴾، أي: خسارًا وهلاكًا، ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾، أي: فرحًا لا يفكر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل، ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾، أي: كان يعتقد أنه لا يرجع إلىٰ الله، ولا يعيده بعد موته.

---

(١) «تفسير ابن كثير». ت: سلامة (٧/ ٣٣٧).

و«الحور»: هو الرجوع، قال الله: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾، يعني: بلىٰ سيعيده الله كما بدأه، ويجازيه علىٰ أعماله خيرها وشرها، فإنه ﴿كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾، أي: عليمًا خبيرًا»[(١)].

ثانيًا: من السُّنة والآثار علىٰ حرمة سوء الظن[(٢)]:

في «الصحيحين» عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ، قال: «**إياكم والظن، فإن الظنَّ أكذب الحديث، ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»[(٣)].

قال النَّوويُّ: «قوله ﷺ: «**إياكم والظنَّ، فإن الظن أكذب الحديث**»، المراد: النهي عن ظن السوء. قال الخطابي: هو تحقيق الظنِّ وتصديقه دون ما يهجس في النفس، فإنَّ ذلك لا يملك، ومراد الخطابي أن المحرم من الظن ما يستمرُّ صاحبه عليه، ويستقرُّ في قلبه دون ما يعرض في القلب، ولا يستقرُّ، فإنَّ هذا لا يكلف به.

قوله ﷺ: «**ولا تَحسَّسوا، ولا تَجسَّسوا**»، الأول بالحاء، والثاني بالجيم. قال بعض العلماء: التحسُّس بالحاء: الاستماع لحديث القوم، وبالجيم: البحث عن العورات. وقيل: بالجيم التفتيش عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال في الشر، والجاسوس صاحب سر الشر، والناموس صاحب سر الخير. وقيل: بالجيم أن تطلبه لغيرك، وبالحاء أن تطلبه لنفسك. وقيل: هما بمعنًىٰ، وهو طلب معرفة الأخبار الغائبة والأحوال»[(٤)]. اهـ. من «شرح النووي».

---

(١) «تفسير ابن كثير». ت: سلامة (٨/ ٣٥٨).

(٢) ينبغي هنا التنبيه علىٰ أنَّ مقولة: «التمس لأخيك سبعين عذرًا»، ليست بحديث، ولكنها موافقة للنصوص الشرعية، فيجب عليك أن تلتمس لأخيك العذر، ولابد أنك ستجد له عذرًا.

(٣) رواه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣).

(٤) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٦/ ١١٩).

قال أبو العباس القرطبي: «الظن هنا هو التهمة ومحل التحذير، والنهي إنما هو تهمة لا سبب لها بوجهٍ؛ كمَنْ يتهم بالفاحشة، أو بشرب الخمر، ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك، ودليل كون الظن هنا بمعنىٰ التهمة قوله بعد هذا: «**ولا تَحسَّسوا، ولا تَجسَّسوا**»، وذلك أنه قد يقع له خاطر التهمة ابتداءً، فيريد أن يتجسَّس خبر ذلك، ويبحث عنه ويتبصر، ويتسمع ليحقق ما وقع له من تلك التهمة، فنهىٰ النبي ﷺ عن ذلك.

وقد جاء في بعض الحديث: «**إذا ظننت فلا تحقق**»، وقال تعالىٰ: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح: ١٢]، وذلك أن المنافقين تطيَّروا برسول الله ﷺ وبأصحابه حين انصرفوا إلىٰ الحديبية، فقالوا: إن محمدًا وأصحابه أكلة رأس بعير، فلن يرجعوا إليكم أبدًا، فذلك ظنهم السيئ الذي وبخهم الله عليه، وهو من نوع ما نهىٰ الشرع عنه إلا أنه أقبح النوع، فأما الظن الشرعي الذي هو تغليب أحد المجوزين، أو بمعنىٰ اليقين، فغير مرادٍ من الحديث، ولا من الآية يقينًا، فلا يُلْتَفت لمن استدلَّ بذلك علىٰ إنكار الظن الشرعي كما هو مقررٌ في الأصول»[(١)].

قال العراقي في «طرح التثريب»: «هذا الحديث موافقٌ لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقد تبيَّن بالآية الكريمة أن المراد بالظن في الحديث بعضه؛ لقوله: ﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢]، والمراد: انتهاك أعراض المسلمين بظنِّ السوء فيهم، وقد ذكر بعضهم أن سياق الآية يدلُّ علىٰ غاية صون الأعراض؛ لأنَّه تعالىٰ نهىٰ عن الخوض في ذلك بالظَّنِّ، فقد يقول القائل: أنا لا أقول بالظنِّ، ولكن أتجسَّس فأتكلم عن تحقيقٍ، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾، وقد يقول القائل: لا أتجسس، بل ظهر لي هذا الأمر

(١) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (٦/ ٥٣٤).

وتحقيقه من غير تجسسٍ، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]، فإن قلت: كيف يكون الظن أكذب الحديث والذي يظهر أن يكون التعمُّد الذي لا يستند إلىٰ ظنٍّ أصلًا أشد في الكذب وأبلغ، فهو حينئذٍ أكذب الحديث؟

قلت (أي: العراقي): لعلَّ المراد الحديث الذي له استناد إلىٰ شيءٍ إلا أن ذلك الشيء لا يجوز الاستناد إليه، ولا الاعتماد عليه، فبُولِغَ فيما كان كذلك بأن جعل أكذب الحديث زجرًا عنه وتنفيرًا، وأما الاختلاق الناشئ عن تَعمُّدٍ، فأمره واضحٌ»[(١)].

قال الحافظ في «الفتح»: «وأما وصف الظن بكونه أكذب الحديث مع أن تعمد الكذب الذي لا يستند إلىٰ ظنٍّ أصلًا أشد من الأمر الذي يستند إلىٰ الظن، فللإشارة إلىٰ أن الظن المنهي عنه هو الذي لا يستند إلىٰ شيءٍ يجوز الاعتماد عليه، فيعتمد عليه، ويجعل أصلًا، ويجزم به، فيكون الجازم به كاذبًا، وإنما صار أشد من الكاذب؛ لأنَّ الكذب في أصله مستقبحٌ، مُسْتغنًىٰ عن ذمِّه بخلاف هذا، فإنَّ صاحبه بزعمه مستندٌ إلىٰ شيءٍ، فوصف بكونه أشد الكذب؛ مبالغةً في ذمِّه، والتنفير منه، وإشارة إلىٰ أن الاغترار به أكثر من الكذب المحض لخفائه غالبًا، ووضوح الكذب المحض»[(٢)].

قال القسطلاني في «إرشاد الساري»: «في هذا الحديث الأمر بصون عِرض المسلم غاية الصيانة لتقديم النهي عن الخوض فيه بالظنِّ، فإن قال الظانُّ: أبحث لأتحقق، قيل له: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾، فإن قال: تحققته من غير تجسسٍ، قيل: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾»[(٣)].

---

(١) «طرح التثريب في شرح التقريب» (٨/ ٩٣).

(٢) «فتح الباري» لابن حجر (١٠/ ٤٨٢).

(٣) «شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري» (٩/ ٤٩).

الفصل الرابع

أمثلة على سوء الظن

روىٰ الإمام ابن حبان بسندٍ صحيحٍ عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أيوب نبي الله ﷺ لبث في بلائه ثمان عشرة سنةً، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخصِّ إخوانه، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله، لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين. قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه الله، فيكشف ما به، فلما راح إليه لم يصبر الرجل حتىٰ ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقول غير أن الله يعلم أني كنت أمرُّ علىٰ الرجلين يتنازعان، فيذكران الله، فأرجع إلىٰ بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حقٍّ. قال: وكان يخرج إلىٰ حاجته، فإذا قضىٰ حاجته، أمسكت امرأته بيده، فلما كان ذات يوم، أبطأ عليها، فأوحىٰ الله إلىٰ أيوب في مكانه ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢﴾ فاستبطأته فبلغته، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، فهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبيَّ الله هذا المبتلىٰ، والله علىٰ ذلك ما رأيت أحدًا كان أشبه به منك إذ كان صحيحًا. قال: فإنِّي أنا هو، وكان له أندران: أندر القمح، وأندر الشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما علىٰ أندر القمح، أفرغت فيه الذهب حتىٰ فاضت، وأفرغت الأخرىٰ علىٰ أندر الشعير الورق حتىٰ فاضت**»[(١)].

---

(١) «صحيح ابن حبان»، مخرجًا (٢٨٩٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٧).

نكتةٌ مهمةٌ:

قوله تعالىٰ عن نبيه أيوب عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤] ليس هذا شكايةً، وإنما هو دعاء، بيانه قوله سبحانه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾، والإجابة تعقب الدعاء، لا الاشتكاء.

فالشاهد: أن هذا الرجل المذكور في الحديث قد أساء الظن لما رأىٰ ما نزل بنبيِّ الله أيوب صلوات الله وتسليماته علىٰ أنبيائه، فغلب جانب الشر علىٰ جانب الخير في ظنِّه بنبي الله أيوب وهو مخالفٌ، وهذا موجود بكثرة، فنرىٰ الرجل قد ضيق عليه في رزقه، أو في ولده مثلًا، فتتحرك قلوب العباد بإساءة الظن به، وهذه بليةٌ، وما تنبغي بحالٍ من الأحوال؛ لأننا لا ندري ما بين العبد وبين الله عز وجل، فليس لنا إلا الظاهر، فإذا كان الرجل أمامك مستقيمًا، ثم أنزل الله عليه المحن والبلايا متتالية، فالشرع يلزمك أن تُغلِّب جانب الخير علىٰ الشر، فلعلَّ ذلك البلاء لرفع درجاته.

مثالٌ آخر علىٰ سوء الظَّنِّ بالأنبياء:

في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراةً، ينظر بعضهم إلىٰ سوأة بعضٍ، وكان موسىٰ عليه السلام يغتسل وحده، فقالوا: والله، ما يمنع موسىٰ أن يغتسل معنا إلا أنه آدر. قال: فذهب مرةً يغتسل، فوضع ثوبه علىٰ حجرٍ، ففرَّ الحجر بثوبه، قال: فجمح موسىٰ بأثره يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتىٰ نظرت بنو إسرائيل إلىٰ سوأة موسىٰ، فقالوا: واللهِ، ما بموسىٰ من بأسٍ، فقام الحجر بعد حتىٰ نظر إليه، قال: فأخذ ثوبه، فطفق بالحجر ضربًا**». قال أبو هريرة: والله، إنه بالحجر ندب ستة، أو سبعة، ضرب موسىٰ عليه السلام بالحجر[(١)].

---

(١) رواه البخاري (٢٧٨)، ومسلم (٣٣٩).

وفي روايةٍ عند البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن موسىٰ كان رجلًا حَييًّا ستيرًا، لا يرىٰ من جلده شيء استحياءً منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيبٍ بجلده؛ إما برص، وإما أدرة، وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسىٰ، فخلا يومًا وحده، فوضع ثيابه علىٰ الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلىٰ ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عَدَا بثوبه، فأخذ موسىٰ عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ ملإٍ من بني إسرائيل، فرأوه عريانًا أحسن ما خَلَق الله، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه، ثلاثًا، أو أربعًا، أو خمسًا، فذلك قوله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾ [(١)].

قوله ﷺ: «حييًّا»: كثير الحياء. «سِتِّيرًا»: من شأنه ودأبه حب الستر، وصون نفسه عن رؤية أحدٍ لعورته.

قال ابن الجوزي: «لمَّا كان موسىٰ في خلوةٍ، وخرج من الماء فلم يجد ثوبه، تبع الحجر بناءً علىٰ ألَّا يصادف أحدًا وهو عريان، فاتفق أنه كان هناك قوم، فاجتاز بهم كما أن جوانب الأنهار وإنْ خلت غالبًا، لا يؤمن من وجود قوم قريب منها، فبنىٰ الأمر علىٰ أنه لا يراه أحد لأجل خلاء المكان، فاتفق رؤية من رآه، والذي يظهر أنه استمر يتبع الحجر علىٰ ما في الخبر حتىٰ وقف علىٰ مجلسٍ لبني إسرائيل كان فيهم مَن قال فيه ما قال، وبهذا تظهر الفائدة، وإلا فلو كان الوقوف علىٰ قومٍ منهم في الجملة، لم يقع ذلك الموقع» [(٢)]. انتهىٰ.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٠٤).

(٢) «فتح الباري» لابن حجر (٦/ ٤٣٨).

وفي روايةٍ عند مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كان موسىٰ عليه السلام رجلًا حييًّا، قال: فكان لا يرىٰ متجردًا، قال: فقال بنو إسرائيل: إنه آدر، قال: فاغتسل عند مويهٍ، فوضع ثوبه علىٰ حجرٍ، فانطلق الحجر يسعىٰ، واتبعه بعصاه يضربه: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتىٰ وقف علىٰ ملأ من بني إسرائيل»(١).

قوله: «مويه» هو تصغير «ماء».

وما حدث من بني إسرائيل مع نبيِّ الله موسىٰ عليه السلام هو المعني في أحد قولي المُفسِّرين من قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾ [الأحزاب: ٦٩].

قال الطبري: «يقول -تعالىٰ ذكره- لأصحاب نبي الله ﷺ: «يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله لا تؤذوا رسول الله بقولٍ يكرهه منكم، ولا بفعلٍ لا يحبه منكم، ولا تكونوا أمثال الذين آذوا موسىٰ نبي الله فرموه بعيبٍ كذبًا وباطلًا ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ فيه من الكذب والزُّور بما أظهر من البرهان علىٰ كذبهم ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾، يقول: وكان موسىٰ عند الله مشفعًا فيما يسأل، ذا وجهٍ ومنزلةٍ عنده بطاعته إياه.

ثمَّ اختلف أهل التأويل في الأذىٰ الذي أُوذِيَ به موسىٰ الذي ذكَره الله في هذا الموضع؛ فقال بعضهم: رمَوه بأنه آدر، وروىٰ بذلك عن رسول الله ﷺ خبرًا، وهو ما سبق ذكره».

ثم قال الطبري: «وقال آخرون: بل كان أذاهم إياه: ادعاءهم عليه قتل هارون أخيه».

ثم قال الطبري: «وأَوْلَىٰ الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إنَّ بني إسرائيل آذوا نبي الله ببعض ما كان يكره أن يُؤذَىٰ به، فبرَّأه الله ممَّا آذوه به. وجائزٌ أن يكون ذلك

(١) رواه مسلم (٣٣٩).

كان قولهم: إنه أبرص، وجائز أن يكون كان ادعاءهم عليه قتل أخيه هارون، وجائز أن يكون كل ذلك؛ لأنه قد ذكر كل ذلك أنهم قد آذوه به، ولا قول في ذلك أَوْلىٰ بالحق مما قال الله: إنهم آذوا موسىٰ، فبَرَّأه الله مما قالوا»[(١)]. اهـ.

والأَوْلَىٰ: أن الإيذاء هو ما جاء في السُّنة الصحيحة ثبوته.

قال النووي: «قولهم: «إنه آدر»، قال أهل اللغة: هو عظيم الخصيتين»[(٢)].

والشاهد من الحديث: أنَّ بعض بني إسرائيل رأوا فعلةً من نبي الله موسىٰ عليه السلام تحتمل ويتأكَّد حملها علىٰ الخير لنزاهة الأنبياء من العيوب المنفرة، ومنها الأدرة والبرص، فحملوها علىٰ الشرِّ لخبث بواطنهم، وسوء طويَّتهم.

قال القاضي عياض: «الأنبياء مُنزَّهون عن النقائص في الخَلق والخُلق، سالمون من المعايب، ولا يلتفت إلىٰ ما قاله مَن لا تحقيق عنده في هذا الباب من أصحاب التاريخ في صفات بعضهم، وإضافته بعض العاهات إليهم، فالله تعالىٰ قد نزَّههم عن ذلك، ورفعهم عن كلِّ ما هو عيبٌ ونقصٌ مما يغض العيون، وينفر القلوب»[(٣)]. انتهىٰ.

قال الحافظ: «وفي الحديث أن الأنبياء في خَلقهم وخُلقهم علىٰ غاية الكمال، وأن من نسب نبيًّا من الأنبياء إلىٰ نقصٍ في خِلْقته، فقد آذاه، ويخشىٰ علىٰ فاعله الكفر»[(٤)].

---

(١) «تفسير الطبري = جامع البيان». ت: شاكر (٢٠/ ٣٣٥).

(٢) «شرح النووي علىٰ مسلم» (٤/ ٣٣).

(٣) «طرح التثريب في شرح التقريب» (٢/ ٢٢٨).

(٤) «فتح الباري» لابن حجر (٦/ ٤٣٨).

وقفات مع الحديث السابق:

الوقفة الأولىٰ: قوله ﷺ: «**يغتسلون عراةً**»:

قال ابن بطال: «**قال المهلب**: في حديث موسىٰ وأيوب دليلٌ (المراد ما رواه البخاري عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**بينا أيوب يغتسل عريانًا فخرَّ عليه جرادٌ من ذهب... الحديث**» علىٰ إباحة التعرِّي في الخلوة للغسل وغيره، بحيث يأمن أعين الناس؛ لأنَّ أيوب وموسىٰ من الذين أمرنا أن نهتدي بهداهم، ألا ترىٰ أن الله عاتب أيوب علىٰ جمع الجراد، ولم يعاتبه علىٰ غسله عريانًا، ولو كلف الله عباده الاستتار في الخلوة كان في ذلك حرجٌ علىٰ العباد، إذ كان المغتسل من الجنابة لا يجد بُدًّا من التعرِّي، والله تعالىٰ لا يغيب عنه شيءٌ من خلقه، عراةً كانوا أو مُكْتسين.

ثم قال: وأمَّا اغتسال بني إسرائيل عراةً ينظر بعضهم إلىٰ بعضٍ، فيدلُّ أنهم كانوا عصاةً له في ذلك، غير مقتدين بسُنَّته؛ إذ كان هو يغتسل حيث لا يراه أحدٌ، ويطلب الخلوة، فكان الواجب عليهم الاقتداء به في ذلك، ولو كان اغتسالُهُم عراةً في غير الخلوة عن علم موسىٰ وإقراره لذلك، لم يلزمنا فعله؛ لأنَّ في شريعتنا الأمر بستر العورة عن أعين الآدميين، وذلك فرضٌ علينا»[(١)]. انتهىٰ كلام ابن بطال.

الوقفة الثانية:

قال النوويُّ: «يجوز كشف العورة في موضع الحاجة في الخلوة، وذلك كحالة الاغتسال وحال البول ومعاشرة الزوجة ونحو ذلك، فهذا كله جائز فيه التكشف في الخلوة، وأما بحضرة الناس فيحرم كشف العورة في كل ذلك.

---

(١) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (١/ ٣٩٣).

قال العلماء: والتستر بمئزرٍ ونحوه في حال الاغتسال في الخلوة أفضل من التكشُّف، والتكشُّف جائز مدة الحاجة في الغسل ونحوه، والزيادة على قدر الحاجة حرامٌ على الأصح»[(١)].

ملحوظة مهمة:

روى الحاكم وابن خزيمة عن جابرٍ، أن النبي ﷺ نهى أن يدخل الماء إلا بمئزرٍ.

قال الألبانيُّ: فيه عنعنة أبي الزبير، فهو ضعيفٌ.

قال الحافظ العراقي: هو حديث ضعيف لا يصح الاحتجاج به، وإن صحَّ فهو محمول على الأكمل، وذكر ابن بطال بإسنادٍ فيه جهالة أن ابن عباس لم يكن يغتسل في بحرٍ، ولا نهرٍ إلا وعليه إزاره، فإذا سئل عن ذلك قال: إن له عامرًا[(٢)].

ثم قال النووي: «يحتمل أنَّ هذا كان جائزًا في شرعهم، وكان موسى عليه السلام يتركه تنزهًا واستحبابًا وحياءً ومروءةً، ويحتمل أنه كان حرامًا في شرعهم كما هو حرامٌ في شرعنا، وكانوا يتساهلون فيه كما يتساهل فيه كثيرون من أهل شرعنا.

والسوءة هي العورة، سُمِّيت بذلك؛ لأنه يسوء صاحبها كشفها، والله أعلم»[(٣)].

الوقفة الثالثة:

قال العراقي: المراد بنو إسرائيل الَّذين كانوا في زمن موسى عليه السلام.

قال أبو العباس القرطبي: «إنَّما كان بنو إسرائيل تفعل هذا معاندةً للشرع، ومخالفةً لموسى وهو من جملة عُتُوهم، وقلة مبالاتهم باتباع شرع موسى، ألا ترى أن

---

(١) «شرح النووي على مسلم» (٤/ ٣٢).

(٢) «طرح التثريب في شرح التقريب» (٢/ ٢٢٥).

(٣) «شرح النووي على مسلم» (٤/ ٣٣).

موسىٰ -عليه الصلاة والسلام- كان يستتر عند الغسل، فلو كانوا أهل توفيقٍ وعقلٍ، اتبعوه، ثم لم تكفهم مخالفتهم له حتىٰ آذوه بما نسبوا إليه من آفة الأدرة، فأظهر الله براءته ممَّا قالوا فيه بطريقٍ خارقٍ للعادة زيادةً في أدلة صدق موسىٰ، ومبالغةً في قيام الحجة عليهما»[(١)]. انتهىٰ.

الوقفة الرابعة:

قال العراقيُّ: «قال ابن بطالٍ: فيه إباحة النظر إلىٰ العورة عند الضرورة الداعية إلىٰ ذلك من مداواةٍ، أو براءة ممَّا رمي به من العيوب؛ كالبرص وغيره من الأدواء التي يتحاكم الناس فيها مما لا بد فيها من رؤية أهل البصر لها، فلا بأس برؤية العورات للبراءة من ذلك، أو لإثبات العيوب فيه، والمعالجة»[(٢)]. انتهىٰ.

قال الخطابي: «فيه جواز الاطلاع علىٰ عورات البالغين لإقامة حقٍّ واجبٍ؛ كالختان ونحوه»[(٣)]. انتهىٰ.

الوقفة الخامسة:

قال العراقي: «كانت شريعة موسىٰ عليه السلام وجوب ستر العورة في سائر الأحوال، وإن تكشُّف بني إسرائيل حالة اغتسالهم مجتمعين إنما كان من عُتُوهم وعصيانهم لنبيهم، ومن الأحوال التي أمر بستر العورة فيها حالة الصلاة، بل هي أَوْلىٰ الأحوال بذلك، والصحيح في الأصول أن شرعَ مَن قبلنا شرعٌ لنا ما لم يرد ناسخٌ.

وهذه القصة فيها زيادة علىٰ عدم ورود ناسخٍ فيها، وهي ورود هذه الشريعة (أي: شريعة النبي محمد ﷺ) بتقريرها وموافقتها، وإذا ثبت الأمر بستر العورة في

---

(١) «طرح التثريب في شرح التقريب» (٢/ ٢٢٤).

(٢) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (١/ ٣٩٤).

(٣) «طرح التثريب في شرح التقريب» (٢/ ٢٢٥).

حالة الصلاة، كان كشفها في حالة الصلاة منهيًّا عنه؛ تفريعًا علىٰ أن الأمر بالشيء نهي عن ضده، وإذا كان الكشف في الصلاة منهيًّا عنه، فالنهي يدل علىٰ الفساد؛ إما مطلقًا، أو في العبادات، خاصةً كما قرَّر في الأصول، وهذا من النهي في العبادات، فيكون دالًّا علىٰ الفساد.

ومتىٰ قام الدليل علىٰ فساد صلاة مَن صلىٰ مكشوف العورة، دلَّ ذلك علىٰ أن ستر العورة شرطٌ في صحة الصلاة، ويدلُّ لذلك أيضًا قوله عليه الصلاة والسلام: «**لا يَقبلُ الله صلاة حائضٍ إلا بخمارٍ**»، رواه أبو داود والترمذي، وحسَّنه، والمراد بالحائض: مَن بلغت سنَّ الحيض، ثم قال: فمتىٰ انكشف منها شيءٌ ولو كان يسيرًا، بطلت الصلاة إن كان المكشوف فاحشًا، ومرجع ذلك للعادة»[(١)].

الوقفة السادسة:

قال العراقي: «فيه بيان عُتُو بني إسرائيل واختلافهم، فإنهم أولًا خالفوا نبيهم ولم يتبعوه في طريقته؛ إما التي يجب اتباعه فيها، أو يستحب، ثم لم يكتفوا بذلك حتىٰ لم يحملوا فعله الذي هو في غاية الحسن علىٰ محملٍ حسنٍ، وهو التمسك بالدين والشرع ومحاسن الأخلاق، بل جعلوا سببه نقصًا في بدنه، ثم لم يذكروا ذلك علىٰ سبيل الاحتمال، بل جزموا به وقطعوا، وأكَّدوا ذلك بأن أقسموا عليه، وحصروا الأمر فيه، فلم يجعلوا الحامل له عليه سواه.

وهذا غاية العُتُو، ونهاية الاختلاق، وليت شعري لِمَ عينوا الأدرة دون غيرها من العيوب؟ وكيف تجرءوا علىٰ الاختلاق علىٰ ذلك النبي الكريم بما ليس لهم فيه شبهةٌ، ولهذا أظهر الله براءته بأمرٍ اشتمل علىٰ عدةٍ من خوارق العادات، وقص قصته

---

(١) «طرح التثريب في شرح التقريب» (٢/ ٢٢٧).

علىٰ نبيه ﷺ، وأنزل فيها قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ الآية [الأحزاب: ٦٩]»[(١)].

الوقفة السابعة:

قال العراقي: «كان كشف العورة محرمًا في شريعة موسىٰ عليه السلام، ومع هذا فألجأه الله تعالىٰ إلىٰ ظهوره بينهم علىٰ تلك الهيئة، فلولا أن براءته عنه أصلٌ من أصول الدين، وقاعدةٌ من قواعد الشرع يجب الإيمان بها، لَمَا ارتكب كشف العورة لأجله، فعارض مصلحة سترها مصلحة إظهار هذا الأمر الديني، وكان هذا الثاني أهم مقدمًا، وهذا مقيد في أول خلقهم، ولا يعترض معترضٌ بعمىٰ يعقوب، وبابتلاء أيوب، فإنَّ ذلك كان طارئًا عليهم؛ محنةً لهم، وليقتدي بهم مَن ابتلي ببلاءٍ في حالهم وصبرهم، وفي أن ذلك لم يقطعهم عن عبادة ربهم.

ثم إنَّ الله تعالىٰ أظهر كرامتهم ومعجزتهم بأن أعاد يعقوب بصيرًا عند وصول قميص يوسف له، وأزال عن أيوب جُذَامه وبلاءه عند اغتساله من العين التي أنبع الله له عند ركضه الأرض برجله، فكان ذلك زيادةً في معجزاتهم، وتمكينًا في كمالهم ومنزلتهم»[(٢)]. انتهىٰ.

الوقفة الثامنة:

في الحديث بيان شدة ما ابتلي به الأنبياء والصالحون من أذىٰ السُّفهاء والجُهَّال، وصبرهم عليها، وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «**لقد أوذي موسىٰ بأكثر من هذا فصبر**»[(٣)].

---

(١) «طرح التثريب في شرح التقريب» (٢/ ٢٢٨).

(٢) «طرح التثريب في شرح التقريب» (٢/ ٢٢٩).

(٣) «طرح التثريب في شرح التقريب» (٢/ ٢٢٩).

الوقفة التاسعة:

في الحديث فضيلة الصَّبر، وأن الدرجات ثمرة له، فإنَّ موسىٰ -عليه الصلاة والسلام- لما صبر علىٰ ما يؤذونه به، أعقبه الله تعالىٰ البراءة من ذلك مع رفع الدرجات لما أظهره من المعجزات، قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧](١).

الوقفة العاشرة:

في الحديث فضيلة موسىٰ عليه الصلاة والسلام، وحصل هنا إظهار معجزته بأمورٍ:

أحدها: مشي الحجر بثوبه إلىٰ بني إسرائيل لإظهار براءته مما ادَّعوه فيه من الأدرة علىٰ وجهٍ خارقٍ للعادة، ولهذا جعل الله تعالىٰ ذلك نعمةً عليه حيث قال: ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٦٩].

الثاني: حصول الندب في الحجر من ضرب موسىٰ.

الثالث: وجود التَّمييز في الجماد الذي لا يعقل، ولهذا عامله موسىٰ -عليه الصلاة والسلام- معاملة مَن يعقل؛ لأنه صدرت منه أفعال العقلاء(٢).

قال النووي: «في الحديث دليلٌ علىٰ وجود التمييز في الجماد كالحجر ونحوه»(٣).

---

(١) «طرح التثريب في شرح التقريب» (٢/ ٢٢٩).

(٢) «طرح التثريب في شرح التقريب» (٢/ ٢٢٩).

(٣) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٥/ ١٢٧).

قوله ﷺ: «**فجمح موسىٰ بأثره**»، أي: أسرع.

قال النووي: «جمح الحجر، أي: ذهب مسرعًا إسراعًا بليغًا»(١).

قوله ﷺ(٢): «**ثوبي**» منصوب بفعل محذوف تقديره: دع ثوبي، أو: أعطني ثوبي، ويحتمل أن يكون مرفوعًا بمبتدأ محذوف تقديره: هذا ثوبي، وعلىٰ هذا الثاني يكون المعنىٰ استعظام كونه يأخذ ثوبه مع علمه بأنه ثوبه، فعامله معاملة مَن لا يعلم كونه ثوبه كي يرجع عن فعله، ويرد له ثوبه.

قوله ﷺ: «**حجر**»: منادىٰ مفرد مبني علىٰ الضم، وحذف حرف النداء؛ استعجالًا للمنادىٰ.

قوله ﷺ: «**فقام الحجر بعد**»، أي: وقف وثبت، أي: بعد أن نظرت بنو إسرائيل إليه.

والندب الذي ظهر بالحجر بعد ضرب نبيِّ الله موسىٰ له هذه معجزة لموسىٰ عليه السلام بعد انقضاء المراد من المعجزة الأولىٰ، وهو فرار الحجر بثوبه، وإلجاؤه إلىٰ الخروج علىٰ بني إسرائيل علىٰ تلك الهيئة، وكأنَّ المعنىٰ في هذه المعجزة أمور:

أحدها: بقاء هذا الأثر في الحجر علىٰ طول الزمان، فيتذكر به هذه الواقعة، ويعلم به فضل موسىٰ عليه السلام، وبراءته مما اختلقوا عليه.

ثانيها: أنه حصل عند نبيِّ الله موسىٰ عليه السلام في ذلك الوقت حدة، فلولا تأثُّر الحجر بضربه، وظهور أثره فيه، لزادت حدَّة نبي الله موسىٰ من عدم حصول مقصوده، فلولا تأثر الحجر بالضرب، لَكان الضرب فيه كالضرب في حديدٍ باردٍ.

---

(١) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٥/ ١٢٦).

(٢) «طرح التثريب في شرح التقريب» (٢/ ٢٣٠).

ثالثها: أنَّه لولا تأثر الحجر بالضرب وبقاء الندب فيه، لعدَّ أهل السفاهة والجهل والعتو والاختلاق هذا عبثًا، فكان يحصل لموسىٰ عليه السلام بذلك أذىٰ زائد علىٰ ما تقدم، والقصد رفع الأذىٰ عنه لا جلبه إليه، وإقسام أبي هريرة رضي الله عنه علىٰ ذلك تأكيد للأمر، وتقوية له، ومستنده فيه خبر الصادق وإن لم يعاينه، فهو أقوىٰ من المعاينة، فإنه لا يخطئ، والمعاينة قد تخطئ، والله أعلم[(١)].

قال ابن بطال: «فيه إجراء خلق الإنسان عند الضجر علىٰ مَن يعقل ومَن لا يعقل، كما جرىٰ من موسىٰ عليه السلام في ضربه الحجر، وإن كان الحجر قد جعل الله فيه قوة مشي، فلذلك ضربه؛ لأنه إذا أمكن أن يمشي بثوبه، أمكن أن يخشىٰ الضرب، ألا ترىٰ قول أبي هريرة: «والله، إنه لندب بالحجر»، يعني آثار ضرب موسىٰ عليه السلام بَقِيَتْ في الحجر آيةً له عليه السلام»[(٢)].

مثال آخر علىٰ سوء ظن بالأنبياء:

روىٰ البخاري عن عبد الله رضي الله عنه قال: لمَّا كان يوم حنين، آثر النبي ﷺ أناسًا في القسمة، فأعطىٰ الأقرع بن حابس مائةً من الإبل، وأعطىٰ عيينة مثل ذلك، وأعطىٰ أناسًا من أشراف العرب، فآثرهم يومئذٍ في القسمة، قال رجل: والله، إن هذه القسمة ما عدل فيها، وما أريد بها وجه الله، فقلت: والله، لأخبرنَّ النبي ﷺ، فأتيته، فأخبرته، فقال: «**فمَن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله، رحم الله موسىٰ قد أُوذِيَ بأكثر من هذا فصبر**»[(٣)].

---

(١) «طرح التثريب في شرح التقريب» (٢/ ٢٣٢).

(٢) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (١/ ٣٩٤).

(٣) رواه البخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢).

وفي رواية في «الصحيحين»، عن أبي سعيد الخدري يقول: بعث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ رسول الله ﷺ من اليمن بذهيبةٍ في أديم مقروظ، لم تحصل من ترابها، قال: فقسمها بين أربعة نفرٍ، بين عيينة بن بدر، وأقرع بن حابس، وزيد الخيل، والرابع إما علقمة، وإما عامر بن الطفيل، فقال رجلٌ من أصحابه: كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء. قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «**ألا تأمنوني وأنا أمين مَن في السماء، يأتيني خبر السماء صباحًا ومساءً**»، قال: فقام رجلٌ غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كث اللحية، محلوق الرأس، مشمر الإزار، فقال: يا رسول الله، اتق الله. قال: «**ويلك! أَوَ لست أحق أهل الأرض أن يتقي الله**». قال: ثم ولىٰ الرجل. قال خالد بن الوليد: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ قال: «**لا، لعلَّه أن يكون يصلي**»، فقال خالد: وكم من مُصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه. قال رسول الله ﷺ: «**إنِّي لم أُومَر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أشقَّ بطونهم**». قال: ثمَّ نظر إليه وهو مُقَفٍّ، فقال: «**إنَّه يخرج من ضئضئ هذا قومٌ يتلون كتاب الله رطبًا، لا يجاوز حناجرهم، يَمْرقون من الدين، كما يمرق السَّهم من الرميَّة**»، وأظنه قال: «لئن أدركتهم، لأقتلنهم قتلَ ثمود»[(١)].

وفي روايةٍ في «الصحيحين»: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسمًا، أتاه ذو الخويصرة، وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله، اعدل، فقال: «**ويلك! ومَن يعدل إذا لم أعدل، قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل**». فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فيه، فأضرب عنقه؟ فقال: «**دَعْه، فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدِّين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر إلىٰ نصله، فلا**

(١) رواه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤).

يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلىٰ رصافه فما يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلىٰ نضيه -وهو قدحه-، فلا **يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلىٰ قذذه، فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل أسود، إحدىٰ عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدردر، ويخرجون علىٰ حين فرقةٍ من الناس»**.

قال أبو سعيدٍ: فأشهد أنِّي سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ، وأشهد أنَّ عليَّ بن أبي طالبٍ قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل، فالتمس فأُتِيَ به، حتىٰ نظرت إليه علىٰ نعت النبي ﷺ الذي نعته[(١)].

الشاهد من الحديث: أن هذا الرجل لما رأىٰ رسول الله ﷺ يقسم، ولم يستوعب ويقف علىٰ الحكم من وراء هذه القسمة لِقِصَرِ مداركه، وخبث طويته، قال ما قال، والنبي ﷺ معصوم ومؤيد بالوحي، فلا يصدر منه إلا الحق، فلو اعتقد هذا ما قال ما قال.

وقفات مع الحديث:

الوقفة الأولىٰ: التسليم لله تعالىٰ ولرسوله وإن لم يستوعب العقل ما في القضاء من حكمٍ، فإن أصل الضلال أن يرتضي الإنسان رأي نفسه إن كان علىٰ خلاف الشرع، فإذا ظن الإنسان من هؤلاء أنه أتقىٰ وأعلم من رسول الله ﷺ، لم يبق معه حديث.

وعلىٰ هذا كثيرٌ من العوام، يعتقدون الشيء الخطأ من العلم الذي لم يتشاغلوا به، فلا يقدر العالِم أن يردهم عنه، وسببه: اقتناعهم بآرائهم وإعجابهم بها، فينبغي ألَّا ينزعج العالم إذا ردوا عليه، فقد جرىٰ لهذا مع رسول الله ﷺ ما يُسلِّي.

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).

الوقفة الثانية: قوله ﷺ: «**لقد خبت وخسرت إنْ لم أكن أعدل**».

قال النووي: «روي بفتح التاء في «خبتَ وخسرتَ»، وبضمِّهما فيهما، ومعنىٰ الضم ظاهر، وتقدير الفتح: خبتَ أنت أيها التابع إذا كنتُ لا أعدل؛ لكونك تابعًا ومقتديًا بمن لا يعدل، والفتح أشهر، والله أعلم»(١).

الوقفة الثالثة: قوله ﷺ: «**إنَّ لهذا أصحابًا**»، يريد علىٰ مذهبه، وإن لم يكونوا ممن صحبه، ولا رآه(٢).

الوقفة الثالثة: قال أبو الفرج ابن الجوزي في «كشف المشكل» (ت ٥٩٧): «وفي هذه القصة تنبيهٌ علىٰ شرف العلم؛ لأن هؤلاء اشتغلوا بالتعبد عن العلم، فضيعوا الأصول، وكم من متزهدٍ شغله الصلاة والصوم وهو مفرطٌ في أصول كثيرة، والشيطان يلعب به لقلَّة علمه، وأقل ما يصنع به أنه يريه أنه خيرٌ من غيره»(٣).

الوقفة الرابعة: قوله ﷺ: «**يخرجون علىٰ حين فرقةٍ من النَّاس**».

قال أبو الفرج ابن الجوزي: «هذا من إخبار الرسول ﷺ عن الغائبات، فكانت كما قال؛ لأنَّ الخوارج خرجوا علىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه عند افتراقٍ من الناس، وذلك بعد تحكيمه الحكمين، وما جرىٰ له مع معاوية.

ووقع في روايةٍ في «الصحيحين»: قال أبو سعيد الخدري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يخرج في هذه الأمة**»، ولم يقل: «منها»(٤).

---

(١) «شرح النووي علىٰ مسلم» (٧/ ١٥٩).
(٢) «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» (٢٣/ ٣٣٢).
(٣) «كشف المشكل من حديث الصحيحين» (٣/ ١١٩).
(٤) «كشف المشكل من حديث الصحيحين» (٣/ ١٢٠).

قال النووي: «قال المازري: هذا من أدل الدلائل علىٰ سَعة علم الصحابة رضي الله عنهم، ودقيق نظرهم وتحريرهم الألفاظ، وفرقهم بين مدلولاتها الخفية؛ لأنَّ لفظة «من» تقتضي كونهم من الأمة لا كفارًا بخلاف لفظة «في»»[(١)].

الوقفة الخامسة: قوله ﷺ: «**يقتلون أهل الإسلام، ويَدَعون أهل الأوثان**».

قال أبو الفرج ابن الجوزي: «هذا من تسويل الشيطان للقوم، وتزيينه لهم، فإنه لما أحس بقلة عقولهم، ملكها»[(٢)].

الوقفة السادسة: قوله ﷺ: «**يقرءون كتاب الله رطبًا**».

قال أبو الفرج ابن الجوزي: «فيه ثلاثة أقوالٍ:

أحدها: أنه الحذق بالتلاوة، والمعنىٰ: أنهم يأتون به علىٰ أحسن أحواله.

والثاني: يواظبون علىٰ التلاوة، فلا تزال ألسنتهم رطبةً به.

والثالث: أن يكون من حسن الصوت بالقراءة.

قال النووي: قال القاضي: فيه تأويلان:

أحدهما: معناه: لا تفقهه قلوبهم، ولا ينتفعون بما تلوا منه، ولا لهم حظٌّ سوىٰ تلاوة الفم والحنجرة والحلق؛ إِذْ بهما تقطيع الحروف.

والثاني: معناه: لا يصعد لهم عملٌ، ولا تلاوةٌ، ولا يتقبل»[(٣)].

قال النووي: «هكذا هو في أكثر النسخ «لينًا» بالنون، أي: سهلًا. وفي كثيرٍ من النسخ: «ليا» بحذف النون، وأشار القاضي إلىٰ أنه رواية أكثر شيوخهم، قال: ومعناه

---

(١) «فتح المنعم شرح صحيح مسلم» (٤/ ٤٤٤).

(٢) «كشف المشكل من حديث الصحيحين» (٣/ ١٢٠).

(٣) «شرح النووي علىٰ مسلم» (٧/ ١٥٩).

سهلًا؛ لكثرة حفظهم. قال: وقيل: «ليا»، أي: يلوون ألسنتهم به، أي: يحرفون معانيه وتأويله، قال: وقد يكون من اللي في الشهادة، وهو الميل، قاله ابن قتيبة»[(١)].

الوقفة السابعة:

قال القاضي عياض رحمه الله تعالىٰ: «حكم الشرع أن من سبَّ النبي ﷺ كفر وقتل، ولم يذكر في هذا الحديث أن هذا الرجل قتل، ووجه ذلك أن النبي ﷺ سلك معه مسلكه مع غيره من المنافقين الذين آذوه، وسمع منهم في غير موطنٍ ما كرهه، لكنه صبر استبقاءً لانقيادهم، وتأليفًا لغيرهم؛ لئلَّا يتحدث الناس أنه يقتل أصحابه فينفروا»[(٢)].

الوقفة الثامنة:

قوله ﷺ: «**يمرقون منه كما يمرق السَّهم من الرمية**»، وفي الرواية الأخرىٰ: «**يمرقون من الإسلام**»، وفي الرواية الأخرىٰ: «**يمرقون من الدين**».

قال القاضي: «معناه: يخرجون منه خروج السهم إذا نفذ الصيد من جهةٍ أخرىٰ، ولم يتعلق به شيء منه، والرمية هي الصيد المرمي، وهي «فعيلة» بمعنىٰ «مفعولة»، قال: والدين هنا هو الإسلام، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، وقال الخطابي: هو هنا الطاعة، أي: من طاعة الإمام»[(٣)].

الوقفة التاسعة:

قوله ﷺ: «**سيماهم التحالق**».

قال النووي: «السيما: العلامة، وفيها ثلاث لغاتٍ: القصر وهو الأفصح، وبه

---

(١) «شرح النووي علىٰ مسلم» (٧/ ١٦٤).

(٢) «شرح النووي علىٰ مسلم» (٧/ ١٥٩).

(٣) «شرح النووي علىٰ مسلم» (٧/ ١٦٠).

جاء القرآن (يعني قوله تعالىٰ: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾)، والمد، والثالثة السيمياء بزيادة ياء مع المد لا غير.

والمراد بالتحالق: حلق الرؤوس، وفي الرواية الأخرىٰ: «التحلق»، واستدل به بعض الناس علىٰ كراهة حلق الرأس، ولا دلالة فيه، وإنما هو علامة لهم، والعلامة قد تكون بحرامٍ، وقد تكون بمباحٍ، كما قال ﷺ: «**آيتهم رجل أسود إحدىٰ عضديه مثل ثدي المرأة**»، ومعلوم أن هذا ليس بحرامٍ، وقد ثبت في «سنن أبي داود» بإسناد علىٰ شرط البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ رأىٰ صبيًّا قد حلق بعض رأسه، فقال: «**احلقوه كله، أو اتركوه كله**»، وهذا صريح في إباحة حلق الرأس لا يحتمل تأويلًا.

قال أصحابنا: حلق الرأس جائز بكل حالٍ، لكن إن شق عليه تعهُّده بالدهن والتسريح، استحب حلقه، وإن لم يشق استحب تركه»[(١)].

الوقفة العاشرة:

قوله ﷺ: «**يمرقون من الدين كمُرُوق السهم من الرمية، ينظر إلىٰ نصله، فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلىٰ رصافه، فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلىٰ نضيه، فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلىٰ قذذه، فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم**».

«النصل»: هو حديدة السهم.

«الرصاف»: مدخل النصل من السهم.

«النضي» كـ«غني»: السهم بلا نصلٍ، ولا ريشٍ.

«القذذ»: ريش السهم، واحدتها قذة[(٢)].

---

(١) «شرح النووي علىٰ مسلم» (٧/ ١٦٧).

(٢) «نيل الأوطار» (٧/ ١٩٤).

الوقفة الحادية عشرة:

قوله ﷺ: «**سبق الفرث والدم**»، أي أن السهم قد جاوزهما، ولم يعلق فيه منهما شيء، والمراد أنه مرَّ مرًّا سريعًا في الرمية وخرج، ولم يعلق به من الفرث والدم شيء، فشبه خروجهم من الدين، ولم يتعلق منه شيء بخروج ذلك السهم(١).

مثالٌ آخر علىٰ سوء الظَّنِّ بالمسلم:

ما حدث من عبد الله ابن سلول مع عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- في قصة الإفك، في «الصحيحين» من حديث عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: فانطلق (أي: صفوان بن المعطل) يقود بي الراحلة حتىٰ أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك مَن هلك في شأني، وكان الَّذي تولىٰ كبره عبد الله بن أُبَي بن سلول.

فهذا المنافق لما رأىٰ عائشة رضي الله عنها، ولم يجد لهذا الأمر محملًا للخير لسوء طويته، وخبث نفسه، تكلم بما تكلم به، وهلك في شأنها مَن هلك، ثم أنزل الله تعالىٰ براءتها من السماء في قرآنٍ يتلىٰ إلىٰ قيام الساعة.

ويلاحظ أن كثيرًا ممن كان مع رسول ﷺ رأىٰ مثل ما رأىٰ ابن سلول، ولكن ما تكلم إلا ابن سلول؛ لما في قلبه ونفسه من حقدٍ وغلٍّ وبغضٍ للإسلام والمسلمين.

روىٰ أبو نعيم في «الحلية»: «قال يحيىٰ بن معاذ: القلوب كالقدور في الصدور تغلي بما فيها، ومغارفها ألسنتها، فانتظر الرجل حتىٰ يتكلم، فإنَّ لسانه يغترف لك ما في قلبه من بين حلوٍ وحامضٍ وعذبٍ وأُجاجٍ، يخبرك عن طعم قلبه اغتراف لسانه»(٢).

---

(١) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٨/ ٥٩٢).

(٢) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (١٠/ ٦٣).

قال تعالىٰ: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ [النور: ١٢].

قال الطبري: «هذا عتابٌ من الله تعالىٰ ذكره أهل الإيمان به فيما وقع في أنفسهم من إرجاف مَن أرجف في أمر عائشة بما أرجف به، يقول لهم تعالىٰ ذكره: هلَّا أيها الناس إذ سمعتم ما قال أهل الإفك في عائشة ظن المؤمنون منكم والمؤمنات بأنفسهم خيرًا، يقول: ظننتم بمَن قرف بذلك منكم خيرًا، ولم تظنوا به أنه أتىٰ الفاحشة، وقال بأنفسهم؛ لأنَّ أهل الإسلام كلهم بمنزلة نفسٍ واحدةٍ؛ لأنهم أهل ملةٍ واحدةٍ»[(١)].

مثالٌ آخر علىٰ سوء الظَّنِّ بالمسلم:

روىٰ الشيخان من حديث ابن مسعودٍ قال: لما أمرنا بالصدقة كنَّا نتحامل، فجاء أبو عقيل بنصف صاعٍ، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغنيٌّ عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رئاءً، فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٧٩][(٢)].

الشاهد: أن أهل النفاق أساءوا الظن بفعلتين؛ الأولىٰ: مَن تصدق بصاعٍ، وكذلك مَن تصدق بكثيرٍ.

قوله: «كنا نتحامل»، أي: يحمل بعضنا لبعض بالأجرة[(٣)].

قال ابن كثيرٍ: «وهذه أيضًا من صفات المنافقين: لا يَسلم أحدٌ من عيبهم

---

(١) «تفسير الطبري = جامع البيان». ت: شاكر (١٩/ ١٢٨).

(٢) رواه البخاري (٤٦٦٨)، ومسلم (١٠١٨).

(٣) «فتح الباري» لابن حجر (٨/ ٣٣١).

ولمزهم في جميع الأحوال، حتىٰ ولا المتصدقون يَسلمون منهم، إن جاء أحدٌ منهم بمالٍ جزيلٍ، قالوا: هذا مُراءٍ، وإن جاء بشيءٍ يسيرٍ، قالوا: إن الله لَغنيٌّ عن صدقة هذا»[(١)].

قال الحافظ: «قال: جاء رجلٌ من الأنصار يقال له: الحبحاب أبو عقيل، فقال: يا نبي الله، بتُّ أجر الجرير علىٰ صاعين من تمرٍ، فأما صاع فأمسكته لأهلي، وأما صاع فها هو ذا، فقال المنافقون: إن كان الله ورسوله لَغنيَّين عن صاع أبي عقيلٍ، وجاء عبد الرحمن بن عوف بثمانية آلاف درهم، وكذلك جاء عمر بصدقةٍ، وعثمان بصدقةٍ عظيمةٍ، فقال المنافقون: ما أخرج هؤلاء صدقاتهم إلا رياءً»[(٢)].

مثال آخر علىٰ سوء الظن بالمسلم:

روىٰ البخاري من حديث عثمان بن موهب، قال: جاء رجلٌ حج البيت، فرأىٰ قومًا جلوسًا، فقال: مَن هؤلاء القعود؟ قالوا: هؤلاء قريش. قال: مَن الشيخ؟ قالوا ابن عمر، فأتاه فقال: إني سائلك عن شيءٍ، أتحدثني؟ قال: أنشدك بحرمة هذا البيت، أتعلم أن عثمان بن عفان فرَّ يوم أُحُد؟ قال: نعم. قال: فتعلمه تغيَّب عن بدرٍ، فلم يشهدها؟ قال: نعم. قال: فتعلم أنه تخلَّف عن بيعة الرضوان، فلم يشهدها؟ قال: نعم. قال: فكبر. قال ابن عمر: تعال لأخبرك ولأُبيِّن لك عمَّا سألتني عنه، أما فراره يوم أُحُد، فأشهد أن الله عفا عنه، وأما تغيبه عن بدرٍ، فإنه كان تحته بنت رسول الله ﷺ (وهي رقية)، وكانت مريضة، فقال له النبي ﷺ: «**إنَّ لك أجر رجلٍ ممن شهد بدرًا وسهمه**»، وأما تغيُّبه عن بيعة الرضوان، فإنه لو كان أحدٌ أعز ببطن مكة من عثمان بن

---

(١) «تفسير ابن كثير». ت: سلامة (٤/ ١٨٤).

(٢) «فتح الباري» لابن حجر (٨/ ٣٣٢).

عفان لبعثه مكانه، فبعث عثمان، وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلىٰ مكَّة، فقال النَّبيُّ ﷺ بيده اليمنىٰ: «**هذه يد عثمان** -فضرب بها علىٰ يده، فقال- **هذه لعثمان**»، اذهب بهذا الآن معك[(١)].

هذا السائل قَدْ أساء الظَّنَّ بعثمان؛ لما في قلبه من الحقد والضغينة علىٰ عثمان بن عفان رضي الله تعالىٰ عنه.

قال الحافظ: «الذي يظهر من السياق أن السائل كان ممَّن يتعصب علىٰ عثمان، فأراد بالمسائل الثلاث أن يقرر معتقده فيه، ولذلك كبر مستحسنًا لما أجابه به ابن عمر»[(٢)].

قول ابن عمر: «تعال أُبيِّن لك»؛ كأن ابن عمر فهم منه مراده لمَّا كبر، وإلا لو فهم ذلك من أول سؤاله لقرن العذر بالجواب، وحاصله أنه عابه بثلاثة أشياء، فأظهر له ابن عمر العذر عن جميعها، أما الفرار فبالعفو، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وأمَّا التخلُّف فبالأمر من النَّبيِّ ﷺ، وقد حصل له مقصود مَن شهد من ترتُّب الأمرين: الدنيوي وهو السهم، والأخروي وهو الأجر، وأما البيعة فكان مأذونًا له في ذلك أيضًا، ويد رسول الله ﷺ خيرٌ لعثمان من يده»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٣٦٩٨).

(٢) «فتح الباري» لابن حجر (٧/ ٥٩).

(٣) «فتح الباري» لابن حجر (٧/ ٥٩).

الفصل الخامس

أسباب سوء الظن

السبب الأول: سوء النية، وخبث الطويَّة، كما ظهر ذلك من ابن سلول.

السبب الثاني: عدم معرفة المنهج الصحيح في الحكم علىٰ الأشخاص.

السبب الثالث: اتِّباع الهوىٰ.

السبب الرابع: سوء الفهم لما سمع، ولما رأىٰ.

السبب الخامس: الوقوع في الشُّبهات، والوقوف عند مواطن التُّهم.

السبب السادس: عدم مراعاة آداب الإسلام في التناجي.



الفصل السادس

علاج مرض سوء الظَّنِّ

لن يتمكَّن مَن فيه هذا المرض من التخلص منه إلا بعد التخلص من أسبابه، واللجوء إلىٰ الله تعالىٰ، والاستعانة به، والدعاء أن يخلصه الله من هذا المرض، ثم الآتي:

وجوب حسن الظن بالمسلمين؛ إذ الأصل في المسلمين السلامة والاستقامة، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٩٤﴾ [النساء: ٩٤].

قال الطبري: «يعني -جلَّ ثناؤه- بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: يا أيها الذين صدقوا الله وصدقوا رسوله فيما جاءهم به من عند ربهم ﴿إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يقول: إذا سرتم مسيرًا لله في جهاد أعدائكم ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾، يقول: فتأنوا في قتل مَن أشكل عليكم أمره، فلم تعلموا حقيقة إسلامه، ولا كفره، ولا تعجلوا فتقتلوا مَن التبس عليكم أمره، ولا تتقدَّموا علىٰ قتل أحدٍ إلا علىٰ قتل مَن علمتموه يقينًا حربًا لكم ولله ولرسوله، ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾، يقول: ولا تقولوا لمَن استسلم لكم فلم يقاتلكم، مظهرًا لكم أنه من أهل ملتكم ودعوتكم ﴿لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾، فتقتلوه ابتغاء عرض الحياة الدنيا، يقول: طلب متاع الحياة الدنيا، فإن عند الله مغانم كثيرة، من رزقه، وفواضل نعمه، فهي خير لكم إن أطعتم الله فيما أمركم به، ونهاكم عنه، فأثابكم بها علىٰ طاعتكم إياه، فالتمسوا ذلك من عنده»[(١)].

(١) «تفسير الطبري = جامع البيان». ت: شاكر (٩/ ٧٠).

أن يعترف العبد أنه مصابٌ بهذا المرض[(١)]: فهذه أول خطوة في العلاج، فقد ذكر أهل العلم أنَّ أول خطوةٍ في طريق التوبة أن يعترف العبد بالذنب، واستدلُّوا علىٰ ذلك بما قصَّه علينا ربُّنا في قصَّة أبوينا: آدم وحواء، قال الله تعالىٰ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣].

أن يستحضر قُبْح هذا الذَّنب، والسيئات المترتبة عليه[(٢)]: وهو من لوازم الاعتراف، فإذا استشعر المرء خطورة هذا الذنب، وأنه كبيرةٌ من الكبائر، استقبحه وسعىٰ سعيًا حثيثًا إلىٰ التخلص منه، ومن قبح سوء الظن الآتي:

- أن هذا الذنب معصيةٌ لله عَزَّوَجَلَّ، وكثيرٌ من الناس يستحقرون الذنب، وينظرون إليه نظرةً غير شرعية، ولكن تدبَّر ما قاله العبد الصالح بلال بن سعد -عليه رحمة الله- وهو من أئمَّة التابعين، قال: لا تنظر إلىٰ صغر الخطيئة، ولكن انظر إلىٰ عظمة مَن عصيت.

---

(١) والمقياسُ والمحكُّ الذي تكتشف من خلاله وجود هذا المرض في قلبك من عدمه هو سلوكك مع الناس في مجتمعك، فكما ذكرنا: إن رأيت فعلةً من مسلمٍ تحتمل الخير والشر، ثم غلبت جانب الشر علىٰ الخير، فاعلم أن هذا برهان أكيد علىٰ المرض، وتذكَّر أن أحدًا لن يعلمك بما في قلبك، لذا تحتاج أمراض القلوب بالذات إلىٰ شيءٍ من المصداقية، والإنصاف، وعدم الحيدة، فلا تجامل نفسك، أو تسكت علىٰ ما في قلبك.

(٢) **فائدة**: أخبرنا ربنا جلَّ وعلا، والنبي ﷺ في أكثر من موضع أن الحسنات يذهبن السيئات، ولكن لم يذكر الله عَزَّوَجَلَّ تفصيلًا لماهيَّة الحسنات التي تذهب السيئات، والسيئات التي تأكل الحسنات، فليست عندنا نصوص شرعية تقول مثلًا: «لو أن العبد صلىٰ الظهر أربع ركعاتٍ في جماعةٍ، وكان قبل ذلك قد سلم علىٰ امرأةٍ، أو قبَّل امرأة، أو اغتاب، أو نَمَّ، أو أكل شيئًا من حرام، فهذه الصلاة والحسنات المتحصلة من ورائها تمحو هذه السيئات»، إنما الأمر مبهم، وهناك بعض النصوص وردت إجمالًا، وليس تفصيلًا، منها قول النبي ﷺ في «الصحيحين» من رواية أبي هريرة: «الصلوات الخمس، والجمعة إلىٰ الجمعة، ورمضان إلىٰ رمضان، مكفراتٌ ما بينهن إذا اجتنب الكبائر».

- أن سوء الظن كبيرة من هذه الكبائر الباطنة[١].

- أن هذا المرض -وكذلك سائر أمراض القلوب- يؤثر تأثيرًا سيئًا علىٰ تحصيلك للعلم، وعلىٰ العمل به، ولله درُّ الحسن البصري -عليه رحمة الله- لمَّا قال له رجلٌ: يا إمام، ما أستطيع أن أُصلِّي قيام الليل، فقال له الإمام: قيَّدتك ذنوبك[٢].

وأنت تجد المرء بعيدًا عن كثيرٍ من الذنوب الظاهرة -كالغيبة والنميمة والتدخين والنظر إلىٰ النساء- ولكنه لا يستطيع أن يصلي قيام الليل مثلًا، فما هي الخطايا التي قيدته؟ أمراض قلبه بالطبع، وعدم اهتمامه به.

لذلك -كما ذكر مرارًا- انظر إلىٰ ما في قلبك باستمرارٍ، ولا يحملنك طلبك لعلوم الآلة وعلوم الفقه والمصطلح والعقيدة أن تُهْمل النظر في قلبك[٣].

- أن يكثر الدعاء والاستغفار لمَن أساء به الظن، فلا شك أنَّ أساس سوء الظن وأصله من وسوسة الشيطان، ثم يكبر بعد ذلك مع اشتياق النفس له، فإذا أسأت الظن بأحد إخوانك -وأنت في ذلك مخطئٌ ولا شكَّ- فأكثر من مراعاته، ومن الدعاء والاستغفار له، فإنك إذا ألزمت نفسك بذلك، لا يأتيك الشيطان مرةً أخرىٰ ليوسوس لك بهذا الذنب أبدًا؛ لأنَّ ندمك ودعاءك لأخيك واستغفارك له يغيظ الشيطان، وإذا أردتَ أن تُبْعد الشيطان عنك، افعل عكس ما يأمرك به غالبًا.

---

(١) وقد مرَّ -في التحذير من مرض الكبر- الكلام عن خطورة الكبيرة، وحجبها لمغفرة الصغائر، وأيضًا الكلام عن ضابط الكبيرة، وضابط الصغيرة، وكلام أهل العلم في هذا الموضوع.

(٢) وكلام الحسن البصري ليس بحُجَّةٍ منفردًا، ولكن الأدلة الشرعية متضافرة علىٰ تقرير ذلك.

(٣) ولن يُكلِّفك الأمر شيئًا، فقط حاول أن تختلي بنفسك كل يوم نصف ساعة -مثلًا- بمصداقيةٍ مع النفس، واكشف نفسك أمام نفسك، وانظر إلىٰ ما في قلبك: هل تجد فيه مرضًا أم لا؟ فلن يعلم بك أحد إلا الله ﷻ، وهذا كله يندرج تحت محاسبة النفس وفوائدها، وهو مبحث مستقل.

فعليك أن تراعي مَنْ أسأتَ به الظن كأن تتَّصل به علىٰ الهاتف، وتذهب إليه إن احتاجك، وأن تُكثر له من الدعاء والاستغفار في سجودك وخلواتك، ثم بعد ذلك يستحيل أن يأتيك الشيطان إن شاء الله تعالىٰ، فهذا حائلٌ منيعٌ وسدٌّ شديدٌ يحول بينك وبين وسوسة الشيطان.

- أن يتخيَّل العبد نفسه مكان أخيه: هل يقبل أن يُسَاء به الظن؟

بالطبع لا، وينبغي علىٰ كل واحدٍ منَّا أن يضع هذه القاعدة أمامه، وهذا ما فعله الصحابي الجليل أبو أيُّوب الأنصاري خالد بن زيدٍ مع زوجه أُمِّ أيوب الأنصاريَّة في قصة الإفك حين قالت له امرأته أُمُّ أيوب: يا أبا أيوب، ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلىٰ، وذلك الكذب، أكنتِ أنتِ يا أُمَّ أيوب فاعلةً ذلك؟ قالت: لا والله، ما كنت لأفعله. قال: فعائشة -والله- خيرٌ منك[(١)].

فلما نزل القرآن، ذكر الله مَن قال في الفاحشة ما قال، ثم قال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ [النور: ١٢]، أي: فقولوا، كما قال أبو أيوب وصاحبته[(٢)].

- أن يعلم أن سوء الظن بابٌ لشرٍّ أكبر، وهو التجسُّس.

قال العلماء: إن لم يغلق العبد علىٰ نفسه مبدأ سوء الظن، ويُحْسن الظَّنَّ بالجميع، فسيفتح علىٰ نفسه باب شرٍّ أشد، وهو التجسس، فإن العبد إذا استمرَّ في سوء ظنه بإخوانه لن يعيش حياةً سليمةً، وسيحدث بداخله صراعٌ رهيبٌ في غالب الأحيان يحمله علىٰ التجسس؛ لينهي هذا الصِّراع، فينتقل من حفرةٍ إلىٰ بئرٍ، ويطهر العذرة ببول الحمار، فالسلامة في غلق الباب من أول الأمر بعدم إساءة الظَّنِّ بأحدٍ.

---

(١) وهذا يسمونه: الاستدلال بالأَوْلَىٰ، فمن باب الأَوْلَىٰ عائشة لا تفعل.

(٢) النص من «تفسير ابن أبي حاتم».

- أن يعلم أنَّ سوء الظن علامة علىٰ خبث النفس، وسوء الطويَّة.

قال الهيتميُّ في «الزواجر»: «وكل من رأيته سيِّئ الظن بالناس، طالبًا لإظهار معايبهم، فاعلم أن ذلك لخبث باطنه، وسوء طويته، فإن المؤمن يطلب المعاذير لسلامة باطنه، والمنافق يطلب العيوب لخبث باطنه»[(١)].

وعلىٰ هذا اتفاق أئمتنا الكرام، وتدبَّر في قصة الإفك أنَّ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -بنص الحديث- أخبرت أنهما أدركا الجيش في نحر الظهيرة، فكلُّ الناس رأوهما؛ صفوان بن المعطل السلمي، ثم الذكواني يسحب بعيره، والسيدة عائشة عليه محتجبةً، فما تكلم إلا ابن سلول، ونشر الأمر، وأساء الظن؛ لما في قلبه من مرضٍ، فإذا أنتَ سمعتَ هذا الكلام، ثم أنفت أن تكون خبيث النفس، سيئ الطوية كما ذكر، فاعلم أن المسألة ليست بالدعاوىٰ، وإنما يصدر منك ما يدل علىٰ ما في نفسك، كما قال العبد الصالح يحيىٰ بن معاذ: «القلوب كالقُدُور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها، فانظر إلىٰ الرجل حين يتكلم، فإن لسانه يغترف لك مما في قلبه، حلو وحامض، وعذب وأجاج، وغيرذلك، ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه»[(٢)]، فانتبه إذا تطرق إلىٰ نفسك سوء الظن، واستحضر أنه علامةٌ أكيدةٌ علىٰ خبث النفس، وسوء الطويَّة، فاطرده فورًا، واستحِ ولا تفعل.

- أن تزيل الشبهة عمَّن أساء بك الظن:

وهذه من باب الوقاية من هذا المرض، ويشهد لذلك ويؤيدهما ما رواه الشيخان، وفي «صحيح مسلم»، باب بيان أنه يستحب لمَن رئي خاليًا بامرأةٍ وكانت

---

(١) «الزواجر عن اقتراف الكبائر» (١/ ١٤٣).

(٢) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (١٠/ ٦٣).

زوجته، أو مَحرمًا له أن يقول: هذه فلانة؛ ليدفع ظنَّ السوء به[(١)].

ثمَّ روىٰ بسنده عن صفية بنت حيي قالت: كان النَّبيُّ ﷺ معتكفًا، فأتيته أزوره ليلًا، فحدَّثته، ثم قمتُ لأنقلبَ، فقام معي ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمرَّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: «**علىٰ رِسْلكما، إنها صفية بنت حيي**»، فقالا: سبحان الله يا رسول الله! قال: «**إنَّ الشَّيطان يجري من الإنسان مجرىٰ الدَّم، وإنِّي خشيت أن يقذفَ في قلوبكما شرًّا**»، أو قال: «**شيئًا**»[(٢)].

رواية البخاري: قال ﷺ: «إنَّ الشيطان يجري من الإنسان مجرىٰ الدم، وإنِّي خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءًا»، أو قال: «**شيئًا**»[(٣)].

وفي روايةٍ للبخاري: قال ﷺ: «**إنَّ الشَّيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم، وإنِّي خشيتُ أن يقذف في قلوبكما شيئًا**»[(٤)].

ولكن مع ذلك إن رأيت الرجل ولم ينتبه لك، أو لم يُبيِّن لك حقيقة الأمر -كما بيَّن النبي ﷺ- فلا يحملك هذا علىٰ أن تسترسل في سوء الظَّنِّ.

وقفات مع حديث صفية بنت حيي رضي الله تعالىٰ عنها:

الوقفة الأولىٰ:

في **حاشية السندي علىٰ «سنن أبي داود»**: «قال السيوطي في الحاشية في «تاريخ ابن عساكر»، عن إبراهيم بن محمد: كنا في مجلس ابن عيينة والشافعي حاضر،

---

(١) «صحيح مسلم» (٤/ ١٧١٢).

(٢) رواه البخاري (٣٢٨١)، ومسلم (٢١٧٥)، واللفظ له.

(٣) رواه البخاري (٣٢٨١).

(٤) رواه البخاري (٢٠٣٥).

فحدث بهذا الحديث، وقال للشافعي: ما فقهه؟ فقال: لو اتهم القوم النبي ﷺ لكانوا بتهمتهم إياه كفارًا، لكن النبي ﷺ أدب من بعده، فقال: إذا كنتم هكذا، فافعلوا هكذا حتىٰ لا يظن بكم ظن السوء، لا أن النبي ﷺ اتهمهم وهو أمين الله في أرضه، فقال ابن عيينة: جزاك الله خيرًا يا أبا عبد الله، ما يجيئنا منك إلا كلام نحبه. اهـ.

وفي الحديث من العلم: استحباب أن يتحرَّز الإنسان من كل أمرٍ من المكروه ممَّا تجري به الظنون، ويخطر بالقلوب، وأن يطلب السلامة من الناس بإظهار البَراءة من الريب، وهذا متأكدٌ في حقِّ العلماء، ومَن يقتدي بهم، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلًا يوجب ظنَّ السُّوء بهم، وإن كان لهم فيه مخلصٌ؛ لأنَّ ذلك تسبَّب إلىٰ إبطال الانتفاع بعلمهم. وقد قالوا: إنه ينبغي للحاكم أن يُبيِّن وجه الحكم للمحكوم عليه إذا خفي عليه، وهو من باب نفي التهمة بالنسبة إلىٰ الجور في الحكم.

قال النووي: فيه بيان كمال شفقته ﷺ علىٰ أمته، ومراعاته لمصالحهم، وصيانة قلوبهم وجوارحهم، وكان بالمؤمنين رحيمًا، فخاف ﷺ أن يلقي الشيطان في قلوبهما فيهلكا، فإنَّ ظن السوء بالأنبياء كفرٌ بالإجماع، والكبائر غير جائزةٍ عليهم، وفيه أنَّ من ظن شيئًا من نحو هذا بالنبي ﷺ كفر»[(١)].

الوقفة الثانية:

في الحديث دليل علىٰ هجوم خواطر الشيطان علىٰ النفس؛ وما كان من ذلك غير مقدورٍ علىٰ دفعه، لا يؤاخذ به؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولقوله ﷺ في الوسوسة التي يتعاظم الإنسان أن يتكلم بها: «**ذلك محض الإيمان**»، وقد فسَّروه بأن التعاظم لذلك محض الإيمان، لا الوسوسة، كيفما

(١) «حاشية السندي علىٰ سنن ابن ماجه» (١/ ٥٤١).

كان، ففيه دليل علىٰ أن تلك الوسوسة لا يؤاخذ بها[(١)].

الوقفة الثالثة:

قال الحافظ في «الفتح»: «وقع في «شرح العمدة» لابن العطار أنهما أسيد بن حضير، وعباد بن بشر»[(٢)].

الوقفة الرابعة:

قوله ﷺ: «**إن الشيطان يجري من الإنسان مجرىٰ الدم**».

قال النووي: «قال القاضي وغيره: قيل: هو علىٰ ظاهره، وأنَّ الله تعالىٰ جعل له قوةً وقدرةً علىٰ الجري في باطن الإنسان مجاري دمه. وقيل: هو علىٰ الاستعارة؛ لكثرة إغوائه ووسوسته، فكأنَّه لا يفارق الإنسان، كما لا يفارقه دمه. وقيل: يلقي وسوسته في مسام لطيفة من البدن، فتصل الوسوسة إلىٰ القلب، والله أعلم»[(٣)].

وفي الحديث: أن الشيطان له تَسلُّطٌ عظيمٌ علىٰ الإنسان، فلا ينبغي للإنسان أن يغفل عنه في وقتٍ، بل ينبغي له أن يبقىٰ خائفًا من مكائده علىٰ الدوام، والله أعلم[(٤)].

الوقفة الخامسة:

قوله ﷺ في الشيطان أنه يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم، هل النبي ﷺ في ذلك الأمر كمَن سواه من الناس، أو بخلافهم، فهو ﷺ من بني آدم.

---

(١) «إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام» (٢/ ٤٥).

(٢) «فتح الباري» لابن حجر (١/ ٢٧٨).

(٣) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٤/ ١٥٧).

(٤) «مرشد ذوي الحجا والحاجة إلىٰ سنن ابن ماجه والقول المكتفىٰ علىٰ سنن المصطفىٰ» (١٠/ ٣٨١).

في قصة صفية الحديث يدلُّ علىٰ العموم، ولا يخرج من هذا العموم أحدٌ من أفراده إلا ما خصَّه الدليل، ودل الدليل علىٰ أن النبي ﷺ خرج من هذا العموم.

روىٰ مسلم عن عبد الله بن مسعودٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحدٍ إلا وقد وكل به قرينه من الجن**». قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «**وإياي، إلَّا أنَّ الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير**»(١).

وروىٰ مسلم أيضًا: قالت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- أنَّ رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلًا، قالت: فَغِرْتُ عليه، فجاء فرأىٰ ما أصنع، فقال: «**ما لك يا عائشة، أَغِرْتِ؟**»، فقلت: وما لي لا يغار مثلي علىٰ مثلك؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أقد جاءكِ شيطانك؟**». قالت: يا رسول الله، أو معي شيطان؟ قال: «**نعم**». قلت: ومع كل إنسانٍ؟ قال: «**نعم**». قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: «**نعم، ولكن ربِّي أعانني عليه حتىٰ أسلم**»(٢).

قوله ﷺ: «فأسلم»، قال النووي: «فأسلم» برفع الميم وفتحها، وهما روايتان مشهورتان، فمَن رفع قال: معناه: أسلم أنا من شرِّه وفتنته، ومن فتح قال: إن القرين أسلم، من الإسلام، وصار مؤمنًا لايأمرني إلا بخيرٍ.

قال الخطابي: الصحيح المختار الرفع، ورجح القاضي عياض الفتح وهو المختار؛ لقوله ﷺ: «**فلا يأمرني إلا بخيرٍ**»، واختلفوا علىٰ رواية الفتح، قيل: أسلم بمعنىٰ استسلم وانقاد، وقد جاء هكذا في غير «صحيح مسلم»، فاستسلم. وقيل: معناه: صار مسلمًا مؤمنًا، وهذا هو الظاهر»(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٨١٤).

(٢) رواه مسلم (٢٨١٥).

(٣) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٧/ ١٥٨).

فدل ما سبق من النصوص أن النبي ﷺ خرج من عمومك «**إنَّ الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم**»، والله تعالىٰ أعلم.

روىٰ البيهقي في «الشُّعب»، عن سعيد بن المسيب، قال: «كتب إليَّ بعض إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ: أَن ضع أمر أخيك علىٰ أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظنن بكلمةٍ خرجت من امرئٍ مسلمٍ شرًّا وأنت تجد له في الخير محملًا، ومن عرَّض نفسه للتهم، فلا يلومنَّ إلا نفسه، ومن كتم سرَّه، كانت الخيرة في يديه، وما كافأت من عصىٰ الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، وعليك بإخوان الصدق، فكثر في اكتسابهم، فإنهم زينةٌ في الرخاء، وعُدَّةٌ عند عظيم البلاء، ولا تهاون بالحلف، فيهينك الله، ولا تسألن عمَّا لم يكن حتىٰ يكون، ولا تضع حديثك إلا عند مَن يشتهيه، وعليك بالصدق وإن قتلك الصدق، واعتزل عدوَّك، واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلَّا مَن خشي الله عَزَّوَجَلَّ، وشاور في أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب»[(١)].

(١) «شعب الإيمان» (٧٩٩٢).

الفصل السابع

خطر إساءة الظن بالعلماء والدعاة

إذا تَدبَّرنا في التَّدابر والوحشة التي بين صفوف المستقيمين اليوم، نجد أنَّ مرجعيَّتها دائمًا إلىٰ سوء الظن بأهل العلم لسقطةٍ سقطوها، أو زلةٍ زلوها، فيقرأ الواحد منَّا مقولةً لبعض أهل العلم، فيجده قد شطح فيها بعيدًا، فيسيء به الظن، ويصرح بهذا الظن السيئ، فإذا سمع قوله من يحب هذا الشيخ -ومع ضعف الهمة، وضعف الإيمان، ووسوسة الشيطان والهوىٰ وعوامل أخرىٰ كثيرة- تطور الأمر، وأصبح صراعًا كبيرًا يصل إلىٰ تناول الأقلام بالسب والشتم والتجريح.

والمسلك السليم هو الحرص علىٰ إمساك اللسان عن العلماء والدعاة، ومثال ذلك ما ذكره الشيخ عبد الغني المقدسي عليه رحمة الله: «فإن أبلغك رجل عن رجل شيئًا -أي: مخالفة- يجب عليك ألَّا تسيء الظن، فإن كان الذي أبلغك ثقة صادق ثبت -أي: ما جرَّبنا عليه كذبًا قط- فإن لم تصدقه، فقد أسأت به الظن[(١)]، فأصبحت بين مخافتين»[(٢)].

قال الشيخ: «وفي هذه الحالة عليك أن تتوقف، وتنظر في هذا الذي أبلغك عن فلانٍ، أهم من أصحاب حرفةٍ واحدةٍ، أو مهنةٍ واحدةٍ، فتطرق الحسد بينهما، وبدأ

---

(١) فاحتمالية الكذب به موجودة، وأنت رجحتها إن لم تصدقه، وكل بشرٍ به احتمالية الصدق والكذب، ما عدا النبي ﷺ.

(٢) فتصديق أحدهما يترتب عليه إساءة الظن بالآخر، وعدم إساءة الظن بأحدهما إساءة ظنٍّ بالآخر.

أحدهما يطعن في الآخر؟ فإن كان كذلك فكلام الأقران بعضهم في بعضٍ لا يسمع، ولا يقبل»[(١)].

وبالفعل، نلاحظ بين الفحول الكبار كلاما شديدًا جدًّا، ولكن لا دخل لنا بينهم، فلا نسمع من واحدٍ منهم في الآخر.

لذلك، علينا أن نتعرَّف علىٰ السلوك الشرعي حين نقع علىٰ زلَّة لعالِم.

تعريف زلَّة العالم: في «سنن الإمام الدارمي» بسندٍ صحيحٍ عن زياد بن حدير قال: قال لي عمر: هل تعرف ما يهدم الإسلام[(٢)]؟ قال: قلت: لا. قال: «يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين»[(٣)].

---

(١) النص من «نضرة النعيم» نقلًا عن «مختصر منهاج القاصدين»: «فليس لك أن تظن بالمسلم شرًّا إلا إذا انكشف أمرٌ لا يحتمل التأويل، فإن أخبرك بذلك عدل، فمال قلبك إلىٰ تصديقه، كنت معذورًا؛ لأنك لو كذَّبته كنت قد أسأت الظن بالمخبر، فلا ينبغي أن تُحْسن الظَّنَّ بوَاحِدٍ، وتسيئه بآخر، بل ينبغي أن تبحث: هل بينهما عداوة وحسد؟ فتتطرَّق التُّهمة حينئذٍ بسبب ذلك، ومتىٰ خطر لك خاطر سوء علىٰ مسلم، فينبغي أن تزيد في مراعاته، وتدعو له بالخير، فإنَّ ذلك يغيظ الشيطان، ويدفعه عنك، فلا يلقي إليك خاطر السوء خيفةً من اشتغالك بالدعاء والمراعاة، وإذا تحققت هفوةَ مسلمٍ، فانصحه في السر. واعلم أن من ثمرات سوء الظن: التجسس، فإن القلب لا يقنع بالظن، بل يطلب التحقيق، فيشتغل بالتجسس، وذلك منهيٌّ عنه؛ لأنه يوصل إلىٰ هتك ستر المسلم، ولو لم ينكشف لك، كان قلبك أسلم للمسلم».

(٢) اعلم أن الطعن في الرموز أقصر الطرق لهدم الإسلام، والرمز هنا هو الذي بين طلبة العلم، وليس عامة الناس حتىٰ لو كان لا يستحق أن يكون رمزًا من وجهة نظرك، ولكن الحاصل غير ذلك. وهذا الرمز لابد أن يزل، وأن يتغير قوله ويتبدل؛ لأنه بشر، ولكن تبقىٰ رمزيته لابد أن نحافظ عليها، وليس معنىٰ هذا أن نُصوِّب ما ذهب إليه من خطأ، ولكن يكون البيان بأن أقول: القول الصواب في المسألة الفلانية كذا، ومن قال غير ذلك فلعلَّه ولعلَّه ولعلَّه، أما أن أسبَّ وأشتم، وأؤلف الكتب في ذلك وأطبعها وأُوزِّعها، فهذا مسلكٌ خطيرٌ جدًّا، وهذا هو المقصود من قوله: «يهدم الإسلام»، وهنا في مصر الرموز واضحة، والحمد لله، كثَّر الله من أمثالهم، وبارك في سعيهم، وتجاوز عن زلاتنا وزلاتهم، فكن منصفًا في موقفك، وكلامنا هذا يخرج منهم المبتدعة ولا كرامة، فمَن حكم عليه أهل العلم بأنه مبتدعٌ، فليس من الرموز وإن كان عند العامة رمزًا.

(٣) أخرجه الدارمي (٢٢٠) بإسناد صحيح.

وزلة العالِم هي: أن ينفرد العالِم بقولٍ في مسألةٍ لم يسبق إليه عارٍ عن الدليل.

فإن كان معه دليل، ولكن ما سبق إليه، فإنه يحترم[(١)]، كأن يخطئ العالِم، أو الداعية، ثم إذا ذهبت لتناقشه، وجدته مصرًّا علىٰ رأيه، وله في رأيه هذا وجهة ودليل، وهذا هو الضابط[(٢)].

الموقف من زلَّة العالِم:

الواقع بين المسلمين عامة -وفي الديار المصرية خاصة- أنَّ الموقف من زلة العالِم علىٰ ثلاثة أوجهٍ:

إفراط: وهو متمثل في أقوام ينقبون في كل رجلٍ عن زلاته وسقطاته، ثم يروجونها، ولا يلتمسون له العذر أبدًا، ولا يقبلون له اعتذارًا؛ كأنهم يريدون إسقاطه وحَسْب، فترىٰ الواحد منهم يسمع المحاضرات ويحضرها لينتقي الأخطاء، ويقع علىٰ الزلات فقط.

واتضح أن هناك من الطلبة مَن جعل مهمته البحث عن الردود علىٰ فلانٍ، والطعن من فلانٍ علىٰ فلانٍ، فإذا نظرت في مكتبته، وجدت فلانًا يطعن في فلانٍ، وفلانًا يشتم في فلانٍ، ويتحجج بأنه يريد أن يحدد من يتبعه، ولن يجد واحدًا معصومًا، وإنما عليه أن يتعلم الأصول ويسير بها علىٰ الطريق، وسيوفق إن شاء الله تعالىٰ.

وهذا الموقف خطأ ولا شكَّ، وَإنْ لم يتب صاحبه إلىٰ ربه، فلن يفلح، وسيفضح في الدنيا قبل الآخرة.

---

(١) أما قول البعض: هل خفي الدليل عن السلف؟ فكل مسألةٍ بحالتها، والكلام يحتاج إلىٰ تفصيلٍ.

(٢) والثلمة الكبيرة التي عندنا هي عدم المواجهة، وعدم الصبر من بعضنا علىٰ بعضٍ.

تفريط: وهو مُتَمثلٌ في أقوامٍ حملهم حبُّهم للعالِم الذي زلَّ ألا يروا من زلاته شيئًا، فيتَّبعوه في زلاته، ويجعلوا الصواب معه، وهذا الموقف أيضًا لا شك أنه خطأ، وصاحبه -بإمعان النظر- قد أثبت لشيخه العصمة وهو لا يشعر[(١)].

فإذا أحببت أحدًا من الدُّعاة أو العلماء، فنحن نسأل الله أن يجزيك خيرًا علىٰ هذه المحبة إن كانت لله تعالىٰ، ولكن لا تحملنك هذه المحبة علىٰ ألا ترىٰ زلاته، فإن وجهت إلىٰ زلاته، وقيل لك: إن الشيخ زل في مسألةٍ ما، فلا يتمعَّر وجهك، ولا يضق صدرك.

موقف أهل السنة والجماعة، وهو الموقف الصحيح من زلة العالِم، وهو متمثلٌ في النقاط الآتية:

١. أن يعلم المرء الزلل والخطأ من طبيعة البشر:

فهذا هو الأمر الطبيعي المنتظر منه، فأعمال البشر الأصل فيها النقص، ولكلِّ جوادٍ كبوة، بل كبوات، فإذا سمعت محاضرةً، أو قرأت كتابًا، فلا بد أنك ستجد فيه خطأً، ويستحيل أن يكون خاليًا من الزلات، فما من إنسانٍ يسطر كتابًا، ثم ينظر إليه بعد تسطيره إلا ويقول: لو قدم هذا، وأخر هذا، لكان خيرًا.

في «**الدر المختار**» **لابن عابدين**: «قال المزني: قرأت كتاب «الرسالة» علىٰ الشافعي ثمانين مرةً، فما من مرةٍ إلا وكان يقف علىٰ خطأ، فقال الشافعي: هيه، أبىٰ الله أن يكون كتابًا صحيحًا غير كتابه»[(٢)]. اهـ.

---

(١) وأما قول البعض: «شيخي أعلم بالدليل مني»، فإنما هي شبهة عقيمة لا يصح أن تخرج مِن في مكلفٍ.

(٢) «الدر المختار وحاشية ابن عابدين» (رد المحتار) (١/ ٢٧).

ومن ذلك: ما يحكيه الإمام الكسائي -عليه رحمة الله- صاحب القراءة المتواترة، وأحد كبار القُرَّاء «أنه صلىٰ بهارون الرشيد، فأعجب بنفسه، يقول: فَغلطتُ في آيةٍ ما يغلط فيها صبي قط، أردت أن أقول: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، فقلت: «لعلهم يرجعين»، فوالله ما اجترأ الرشيد أن يقول: أخطأت -فقد كان هارون الرشيد مؤدبًا- لكنه لمَّا سلم قال: أيُّ لغةٍ هذه؟ قلت: يا أمير المؤمنين، قد يعثر الجواد. قال: أما هذه فنعم»[(١)].

٢. أن يعلم أن زلة العالِم ليست من الشريعة، ولا تنسب إلىٰ الشرع:

أي: لا يقال: قال فلانٌ كذا، علىٰ أنها من الشرع، فلا نقول -مثلًا- في قول الله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]: لأهل العلم فيها قولان؛ الأول: «استوىٰ» بمعنىٰ استقرَّ وارتفع، استواءً يليق بذاته، لا ندري ما كيفيته. والثاني: و«استوىٰ» بمعنىٰ استولىٰ، لا يصح ذلك أبدًا؛ لأن القول الثاني إنما هو زلَّة، والزلة لا تذكر، ولا تنسب إلىٰ الشريعة بحالٍ من الأحوال.

ومن ذلك أيضًا: أن يقول قائلٌ في الغناء: فيه قولان؛ قول الأئمة الأربعة فيه أنه حرامٌ، وقول ابن حزمٍ بأنه حلال، فهذا لا يصح أيضًا؛ لأنها زلة تَحقَّق فيها ضابط زلَّة العالِم.

٣. ألَّا يجرح العالم -أو الداعية- ولا ينقص من قدره، ولا يحط من مكانته وإن كثرت زلاته، فبحسن الظَّنِّ فيهم نجزم أنهم لم يتعمدوا تلك الزلَّة، ولكن أدَّاهم الاجتهاد إليها، فالزلَّات الَّتي في كلام الكبار يجب أن تُحمَل علىٰ محملٍ حسنٍ.

٤. أن يُسْتفادَ بما عنده من عِلْمٍ:

---

(١) «سير أعلام النبلاء». ط: الرسالة (٩/ ١٣٣).

فلا تحملنَّك رؤيتك لبعض الأخطاء في كتابٍ ما أن تطرحه كله، ولا تأخذ منه شيئًا، وإنَّما استفد ممَّا فيه من خيرٍ، ودع ما فيه من شرٍّ، فهذا هو التصرُّف الصحيح حين نرىٰ زلَّة العالِم، أما أن نسترسل ونترك أنفسنا تسبح في بحور الغيبة والنميمة والهوىٰ، وتحقيق مراد النفس، فهذا ليس من الدين، وليس مسلك الصالحين، ولا طريق أهل الهدىٰ، وبعيد كل البعد عن الجادة.



الباب الخامس

مرض الحسد

وفيه ثلاثة عشر فصلًا:

الفصل الأول: تعريف مرض الحسد.

الفصل الثاني: كيف يتطرق الحسد إلىٰ القلب؟

الفصل الثالث: التحذير من مرض الحسد.

الفصل الرابع: أمثلة علىٰ وقوع الحسد من البعض، وكيف كانت العاقبة.

الفصل الخامس: أسباب مرض الحسد.

الفصل السادس: علاج مرض الحسد.

الفصل السابع: العين.

الفصل الثامن: أقسام العائن.

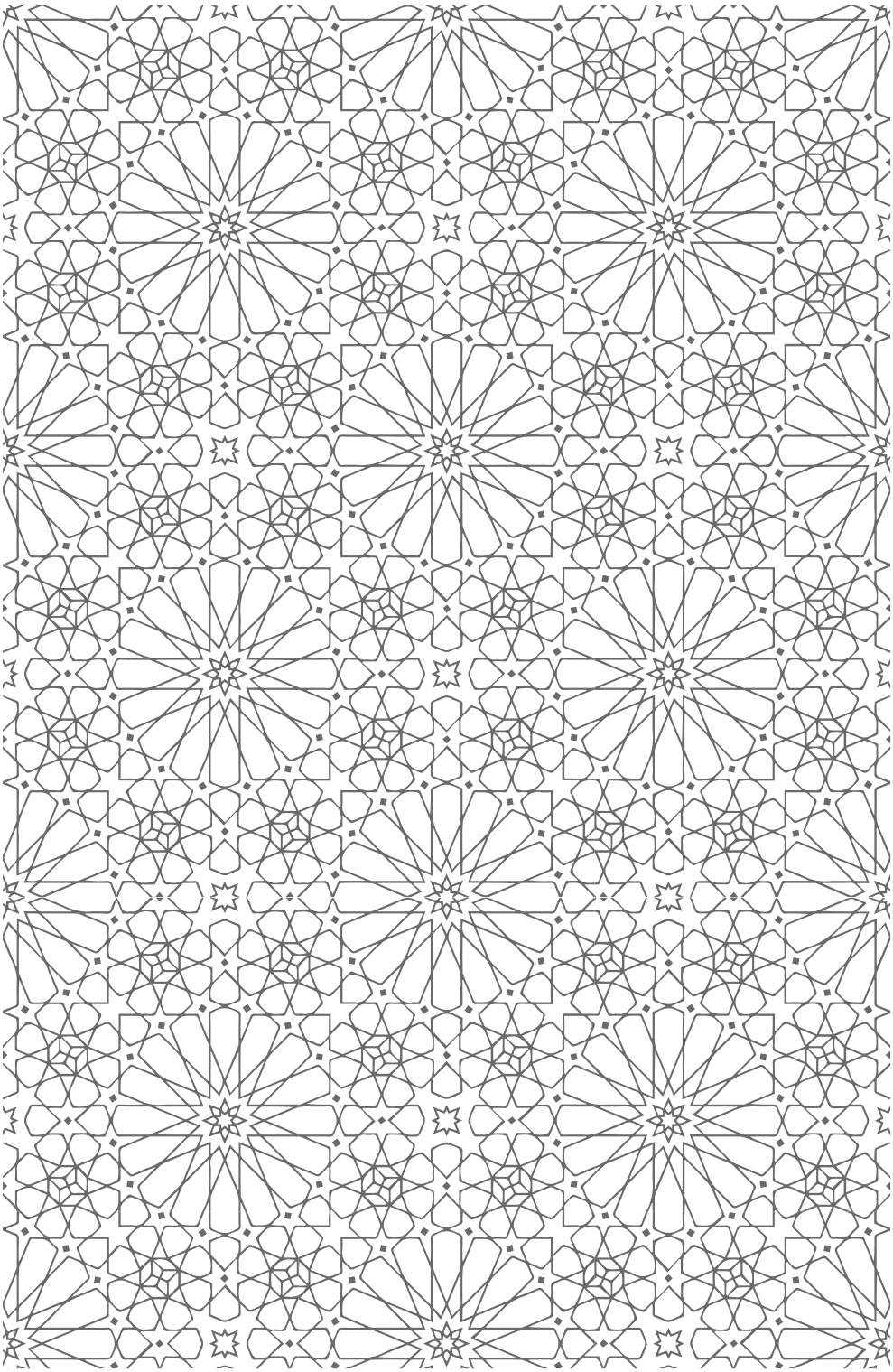
الفصل التاسع: كيف يقع الحسد من صاحب النفس الطيبة؟

الفصل العاشر: الأدلة الشرعية علىٰ وجود العين.

الفصل الحادي عشر: علاج العين والوقاية منها.

الفصل الثاني عشر: شروط الرقية الشرعية.

الفصل الثالث عشر: مسائل في الرقية والعلاج بالقرآن.



الفصل الأول

تعريف مرض الحسد

في اللغة: الحسد مصدر قولهم: حسد يحسد ويحسد -بكسر السين وضمها- وأصله القشر، وهو مأخوذٌ من الحسدل وهو القراد، فالحسد يقشر القلب، كما تقشر القراد الجلد فتمتص دمه.

وحسدتك علىٰ الشيء، وحسدتك الشيء بمعنًىٰ. يقول الفيومي: «حسدته علىٰ النعمة وحسدته النعمة حسدًا بفتح السين أكثر من سكونها، يتعدىٰ إلىٰ الثاني بنفسه وبالحرف: إذا كرهتها عنده، وتمنيت زوالها عنه»[(١)].

تعريف الحسد في الاصطلاح:

قال الإمام الجرجاني[(٢)] **في «التَّعريفات»**: الحسد: تمنِّي[(٣)] زوال نعمة المحسود إلىٰ الحاسد.

وقال الإمام المُنَاوي[(٤)] عليه رحمة الله: الحسد تمني زوال نعمةٍ عن مستحقٍّ لها.

قال الماوردي[(٥)]: حقيقة الحسد: شدة الأسىٰ علىٰ الخيرات تكون للناس الأفاضل.

---

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (١/ ١٣٥).

(٢) [١/ ٨٧].

(٣) والتمني من أعمال القلوب، ومع ذلك يحاسبه الله تعالىٰ عليه، فليس كل ما في القلب يعفو عنه الرب جلَّ وعلا، ومثال ذلك أيضًا قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج: ٢٥]، والإرادة من أعمال القلوب.

(٤) «التوقيف علىٰ مهمات التعاريف» (١/ ١٣٩).

(٥) «أدب الدنيا والدين» (١/ ٢٧٠).

قال الجاحظ: «الحسد: هو التألُّم بما يراه الإنسان لغيره، وما يجده فيه من الفضائل، والاجتهاد في إعدام ذلك الغير ما هو له، وهو خُلق مكروه وقبيح بكل أحدٍ»[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية عليه رحمة الله: «والتحقيق أن الحسد هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود»[(٢)].

والتعريف الثالث أعمُّ وأشمل، فالحاسد يكره أيَّ نعمةٍ ينعم الله ﷻ بها علىٰ غيره، وأقبح أنواع الحسد: أن يتمنىٰ الحاسد زوال النعمة عن المحسود حتىٰ لو صارت إلىٰ أحدٍ غيره، حتَّىٰ لو لم يأخذها أحدٌ، ولكن المهم ألَّا تكون لهذا الشخص بعينه، وهذا -عياذًا بالله- إن وصل إليه العبد، فقد امتلأ قلبه حقدًا.

مراتب الحسد:

والحسد المذموم علىٰ مرتبتين:

المرتبة الأولىٰ: تمنِّي زوال النعمة عن المحسود، وتحقيق ذلك بالأذىٰ بالقلب، واللسان، والجوارح.

المرتبة الثانية: تمني استصحاب عدم النعمة، فهو يكره أن يُحْدث الله تعالىٰ لعبده نعمةً، بل يحب أن يبقىٰ علىٰ حاله: من جهله، أو فقره، أو ضعفه، أو شتات قلبه عن الله، أو قلة دينه، فهو يتمنَّىٰ دوام ما هو فيه من نقصٍ وعيبٍ، فهذا حسد علىٰ شيءٍ مقدرٍ، والأول حسد علىٰ شيءٍ محققٍ.

والحسد دليل علىٰ ضعف الإيمان، ودليل ذلك: ما رواه الشيخان[(٣)] من حديث أنسٍ عن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده، لا يؤمن عبدٌ حتىٰ يحب لجاره** -أو قال: لأخيه- **ما يحب لنفسه**».

---

(١) تهذيب الأخلاق للجاحظ (ص٣٤).

(٢) أمراض القلوب وشفاؤها لابن تيمية (ص١٤).

(٣) «صحيح البخاري» (١٣) مسلم (٤٥).

والحسد يتولد من الحقد، والحقد يتولد من الغضب، ويتولد عن الحسد الكبر.

قال أبو حامدٍ الغزالي في «الإحياء»[(١)]: «اعلم أن الحسد أيضًا من نتائج الحقد، والحقد من نتائج الغضب، فهو فرع فرعه، والغضب أصل أصله، ثم إن للحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصىٰ، وللحسد ثلاثة أركانٍ: (حاسد - محسود - مادة الحسد)».

أعمال مشابهة للحسد:

وجد العلماء -باستعراض النصوص الواردة في هذا الباب- أنَّ هناك ثلاثة أعمال ينبغي أن نُفرِّق بينهم وبين الحسد، وهم: (الغبطة - البخل - المنافسة)، فإذا ميَّزت بين هذه الأشياء، عرفت المحمود من المذموم.

بين الغبطة والحسد:

روىٰ الشيخان[(٢)] من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سَمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**لا حسدَ إلَّا علىٰ اثنتين: رجل آتاه الله الكتاب، وقام به آناء الليل، ورجل أعطاه الله مالًا، فهو يتصدَّق به آناء الليل والنهار**».

قال النَّوويُّ[(٣)]: «قوله ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين**»، قال العلماء: الحسد قسمان: حقيقي ومجازي، فالحقيقي: تمني زوال النعمة عن صاحبها، وهذا حرام بإجماع الأمة مع النصوص الصحيحة، وأما المجازي: فهو الغبطة، وهو أن يتمنىٰ مثل النعمة التي علىٰ غيره من غير زوالها عن صاحبها، فإن كانت من أمور الدنيا كانت مباحةً، وإن كانت طاعة، فهي مستحبة، والمراد بالحديث: لا غبطة محبوبة إلا في هاتين الخصلتين».

---

(١) (٣/ ١٨٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٠٢٥)، ومسلم (٨١٥).

(٣) «شرح النووي علىٰ مسلم» (٦/ ٩٧).

وقوله: «**لاحسد**» للتحريم، فـ«لا» هنا ناهية، ثم قوله: «**إلا في اثنتين**» استثناء، ومعروف عند علماء اللغة أن ما يأتي بعد «إلا» يخالف الذي قبلها في الحكم، وكأن النبي ﷺ يقول: الحسد مذموم ومحرم، وكبيرة من الكبائر إلا في الحالتين المذكورتين، وهاتان الحالتان يُسمِّيهما العلماء بالغبطة.

فالغبطة: هي تمنِّي الإنسان أن يكون له من الذي لغيره من غير إرادة إذهاب ما لغيره، فإذا رأيت عالمًا فقيهًا تقيًّا ورعًا، فتمنيت ما عنده من العلم والفقه والتقوىٰ والورع أن يأتيك وهو كما هو لا يقلُّ، بل يزيد، فهذه الغبطة، وهي محمودة، ولكن في الحالتين المذكورتين في الحديث فقط، فلا توسعها.

بين البخل والحسد:

والحسد والبخل مشتركان في أن صاحبهما يريد منع النعمة عن الغير، فإن لم يجد النعمة عند غيره، تمنىٰ عدم وصولها إليه، فأما البخيل فهو الذي لا يدفع شيئًا عنده إن كان ذا نعمةٍ، وأما الحاسد فيتمنىٰ ألَّا يعطىٰ أحد سواه شيئًا.

إذًا، فالبخل هو أن يمنع الإنسان ما يجب عليه إخراجه -أي: منع النفقة الواجبة- وهو موجودٌ في القلب، ويظهر أثره علىٰ الجوارح، وهناك أيضًا الشُّحُّ، وهو أن يتمنىٰ من غيره ألَّا ينفق الواجب، وكلاهما مذمومٌ.

بين المنافسة والحسد:

المنافسة: هي طلب المُسَاواة بالأفاضل، والتشبُّه بهم في الخير، أو الزيادة عليهم فيه، ولكن دون إدخال ضررٍ عليهم، وهذا محمودٌ علىٰ الجملة، فقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦].

قال الطبري[(١)]: «يقول تعالىٰ ذكره: وفي هذا النعيم الذي وصف -جلَّ ثناؤه- أنه أعطىٰ هؤلاء الأبرار في القيامة، ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾: والتنافس: أن ينفس الرجل علىٰ الرجل بالشيء يكون له، ويتمنىٰ أن يكون له دونه، وهو مأخوذٌ من الشيء النفيس، وهو الذي تحرص عليه نفوس الناس، وتطلبه وتشتهيه، وكان معناه في ذلك، فليجد الناس فيه، وإليه فليستبقوا في طلبه، ولتحرص عليه نفوسهم».



(١) «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٩٩).

الفصل الثاني

كيف يتطرق الحسد إلى القلب[١]؟

قال أبو حامدٍ في «الإحياء»[٢]: «اعلم أنه لا حسد إلا علىٰ نعمةٍ، فإذا أنعم الله علىٰ أخيك بنعمةٍ، فلك فيها حالتان:

إحداهما: أن تكره تلك النعمة، وتحب زوالها، وهذه الحالة تُسمَّىٰ حسدًا، فالحسد حده كراهة النعمة، وحب زوالها عن المنعم عليه.

الحالة الثانية: ألَّا تحب زوالها، ولا تكره وجودها ودوامها، ولكن تشتهي لنفسك مثلها، وهذه تُسمَّىٰ غبطةً، وقد تختصُّ باسم المنافسة، وقد تُسمَّىٰ المنافسة حسدًا، والحسد منافسةً، ويوضع أحد اللفظين موضع الآخر، ولا حجر في الأسامي بعد فَهم المعاني.

فأما الأول، فهو حرام بكل حالٍ إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر، وهو يستعين بها علىٰ تهييج الفتنة، وإفساد ذات البين، وإيذاء الخَلق، فلا يضرك كراهتك لها، ومحبتك لزوالها، فإنك لا تحبُّ زوالها من حيث هي نعمة، بل من حيث هي آلة الفساد، ولو أمنت فساده لم يغمك بنعمته، وإن هذه الكراهة تسخطٌ لقضاء الله في تفضيل بعض عباده علىٰ بعض، وذلك لا عذر فيه، ولا رخصة، وأيُّ معصيةٍ تزيد علىٰ كراهتك لراحة مسلمٍ من غير أن يكون لك منه مضرة، وإلىٰ هذا أشار القرآن بقول:

---

(١) اعلم -وهذا قلناه من قبل- أنَّنا إذا عرفنا طريق وصول المرض إلىٰ القلب، فقد قطعنا شوطًا كبيرًا في العلاج؛ لأن هذا يُبيِّن للإنسان: هل هو مريض أم لا؟ والإشكال أن يكون المرء مريضًا وهو لا يشعر.

(٢) (٣/ ١٨٩).

﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وهذا الفرح شماتة، والحسد والشماتة يتلازمان».

ذكر أبو حامدٍ الغزالي -عليه رحمة الله- أنَّ الحسد يدخل القلب من خلال الخطوات التالية:

- أن يرىٰ الإنسان نعمةً أنعمها الله علىٰ عبدٍ، ولا توجد عنده من نعيم الدنيا كمال، أو جاه، أو صحة، ونحو ذلك، فيتولد عنده شعورٌ بالنقص لعدم وجود هذه النعمة عنده، والشعور بالنقص هنا مذموم، ويدلُّ علىٰ الانهزامية من الداخل، وهي من لوازم ضعف إيمان العبد.

- أَنْ يسعىٰ لإزالة هذا النقص، فطبيعة كل إنسانٍ أنه يكره التخلُّف والنقصان، وزوال هذا النقص يكون من خلال أمرين لا ثالث لهما: إما أن ينال هو مثل هذه النعمة، أو أن تزول نعمة الآخر.

- إن أيس من حصول هذه النعمة له، انتقل إلىٰ السبيل الثاني، وفكَّر في إزالة النعمة عن المحسود بنفسه.

لذلك، ينبغي أن نغلق الباب من أول الأمر بأن نعلم أن الشُّعور بالنقص أصلًا لا يتولد إلا عن خللٍ في الاعتقاد والعلم والعمل، فما تراه أنت من نعمةٍ دنيويةٍ عند الناس لا يرفع درجاتهم عند رب البرية، بل قال ربُّنا جلَّ وعلا -وأمعن النظر في هذه الآيات، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ٣٣ وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ٣٤ وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ٣٥﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

قال ابن كثيرٍ[١]: «أي: لولا أن يعتقد كثيرٌ من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل علىٰ محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا علىٰ الكفر لأجل المال ﴿لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾، أي: سلالم ودرجًا من فضة ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾، أي: يصعدون ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾، أي: أغلاقًا علىٰ أبوابهم ﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾﴾، أي: جميع ذلك يكون فضة، ﴿وَزُخْرُفًا﴾، أي: وذهبًا، ثم قال: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي: إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالىٰ، أي: يُعجِّل لهم بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشارب ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله حسنةٌ يجزيهم بها، ثم قال: ﴿وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾، أي: هي لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحدٌ غيرهم».

ومن تعلَّق بمقاييس الدنيا، وحكم علىٰ الناس من خلالها، سيظل متعبًا لنفسه، روىٰ مسلمٌ[٢] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**انظروا إلىٰ مَن أسفل منكم، ولا تنظروا إلىٰ مَن هو فوقكم، فهو أجدرٌ ألَّا تزدروا نعمة الله**».

قال النووي[٣]: «قوله ﷺ: «**انظروا إلىٰ مَن هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلىٰ مَن هو فوقكم، فهو أجدر ألَّا تزدروا نعمة الله عليكم**»، معنىٰ «أجدر»: أحق، و«تزدروا»: تحقروا.

قال ابن جريرٍ وغيره: «هذا حديث جامع لأنواعٍ من الخير؛ لأن الإنسان إذا رأىٰ من فضل عليه في الدنيا، طلبت نفسه مثل ذلك، واستصغر ما عنده من نعمة الله تعالىٰ، وحرص علىٰ الازدياد ليلحق بذلك، أو يقاربه، هذا هو الموجود في غالب النَّاس،

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٠٨).

(٢) (٢٩٦٣).

(٣) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٨/ ٩٧).

وأمَّا إذا نظر في أمور الدنيا إلىٰ مَن هو دونه فيها، ظهرت له نعمة الله تعالىٰ عليه، فشكرها وتواضع، وفعل فيها الخير، فلو حكم المرء أمره، ما نظر من أوَّل الأمر، فإن لم ينظر لا يشعر بالنَّقص، فلا تنظر إلىٰ ما عند غيرك»[(١)].

وتذكَّر هذا الحديث المهم جدًّا الذي رواه الترمذي وأحمد عن أبي هريرة، وصححه الألبانيُّ، أن النبي ﷺ قال: «**مِن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**». والعمل بهذا الحديث يجعل قلبك خالصًا لله عَزَّوَجَلَّ طوال حياتك، فما يخصُّك تتكلم فيه وتفكر فيه، وما لا فلا.

كذلك ما رواه الترمذي[(٢)] أيضًا بسند صحيح عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَو كانت الدُّنيا تعدل عند الله جَناح بعوضةٍ، ما سقىٰ كافرًا منها شربة ماءٍ**».

قال ابن أبي الدُّنيا[(٣)]: «اعلم أن دواعي الحسد ثلاثة:

أحدهما: بغض المحسود، فيأسىٰ عليه بفضيلةٍ تظهر، أو منقبةٍ تشكر، فيثير حسدًا قد خامر بغضًا، وهذا النوع لا يكون عامًّا وإن كان أضرها؛ لأنه (أي: الحاسد) ليس يبغض كل الناس.

والثاني: أن يظهر من المحسود فضل يعجز عنه (أي: الحاسد)، فيكره تقدمه فيه، واختصاصه به، فيثير ذلك حسدًا لولاه لكف عنه، وهذا أوسطها؛ لأنه لا يحسد الأَكْفاء من دنا، وإنما يختص بحسد مَن علا، وقد يمتزج بهذا النوع ضربٌ من المنافسة، ولكنها مع عجزٍ، فلذلك صارت حسدًا.

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٢/ ٣٢٠).

(٢) (٢٣٢٠).

(٣) «أدب الدنيا والدين» (١/ ٢٧٠).

والثالث: أن يكون في الحاسد شحٌّ بالفضائل، وبخلٌ بالنعم، وليست إليه فيمنع منها، ولا بيده، فيدفع عنها؛ لأنها مواهب قد مَنحَها الله مَنْ شاء، فيسخط علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ في قضائه، ويحسد علىٰ ما منح من عطائه، وإن كانت نعم الله عَزَّوَجَلَّ عنده أكثر، ومنحه عليه أظهر.

وهذا النوع من الحسد أعمها وأخبثها؛ إذ ليس لصاحبه راحة، ولا لرضاه غاية، فإن اقترن بِشَرٍّ وقدرةٍ، كان بورًا وانتقامًا، وإن صادف عجزًا ومهانةً، كان كمدًا وسقامًا». انتهىٰ.



الفصل الثالث

التحذير من مرض الحسد

النصوص الشرعية، والآثار في ذم الحسد:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

قال ابن كثيرٍ(١): «من بعد ما أضاء لهم الحق لم يجهلوا منه شيئًا، ولكن الحسد حملهم علىٰ الجحود، فعيرهم ووبخهم ولامهم أشد الملامة، وشرع لنبيه ﷺ وللمؤمنين ما هُمْ عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل عليهم، وما أنزل من قبلهم، بكرامته وثوابه الجزيل، ومعونته لهم». انتهىٰ.

وقال تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [النساء: ٥٤].

قال الشَّوكانيُّ في «فتح القدير»(٢): «قوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾، «أم» منقطعة مفيدة للانتقال عن توبيخهم بأمرٍ إلىٰ توبيخهم بآخر، أي بل يحسدون الناس، يعني: اليهود يحسدون النبيَّ ﷺ فقط، أو يحسدونه هو وأصحابه علىٰ ما آتاهم الله من فضله من النُّبوة والنصر وقهر الأعداء.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٦٥).

(٢) (١/ ٥٥٢).

قوله تعالىٰ: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾، هذا إلزامٌ لليهود بما يعترفون به ولا ينكرونه، أي: ليس ما آتينا محمدًا وأصحابه من فضلنا ببدعٍ حتىٰ يحسدهم اليهود علىٰ ذلك، فهم يعلمون بما آتينا آل إبراهيم، وهم أسلاف محمد ﷺ». انتهىٰ.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق: ٥].

في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إيَّاكم والظنَّ** - والمقصود هو سوء الظن، وليس مطلقه- **فإنَّ الظَّنَّ أكذب الحديث، ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»[(١)].

قال ابن رجبٍ الحنبلي[(٢)]: «قوله ﷺ: «**وكونوا عباد الله إخوانًا**»: هذا ذكره النبي ﷺ كالتعليل لما تقدم، وفيه إشارةٌ إلىٰ أنهم إذا تركوا التحاسد، والتناجش، والتباغض والتدابر، وبيع بعضهم علىٰ بيع بعضٍ، كانوا إخوانًا.

وفيه أمرٌ باكتساب ما يصير المسلمون به إخوانًا علىٰ الإطلاق، وذلك يدخل فيه أداء حقوق المسلم علىٰ المسلم من ردِّ السلام، وتشميت العاطس، وعيادة المريض، وتشييع الجنازة، وإجابة الدعوة، والابتداء بالسلام عند اللقاء، والنُّصح بالغيب». انتهىٰ.

فضعف أو انعدام آثار الأُخوَّة الإيمانية في المجتمع دليلٌ علىٰ أن أفراد المجتمع مرضىٰ القلوب بمرض الحسد وغيره من الأمراض.

ورَوَىٰ مسلمٌ[(٣)] من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا فتحت عليكم فارس والروم، أي قومٍ أنتم؟**». قال عبد الرحمن بن عوف:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٤)، باب ما ينهىٰ عن التحاسد والتدابر، ومسلم (٢٥٦٣).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٧١).

(٣) (٢٩٦٢).

نقول كما أمرنا الله. قال رسول الله ﷺ: «**أَوَ غير ذلك، تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون، أو نحو ذلك، ثم تنطلقون في مساكين المهاجرين، فتجعلون بعضهم علىٰ رقاب بعضٍ**».

قال النووي(١): «قوله ﷺ: «إذا فُتحَت عليكم فارس والروم، أي قومٍ أنتم». قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله، معناه: نحمده ونشكره، ونسأله المزيد من فضله.

قوله ﷺ: «**تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون، أَوَ نحو ذلك، ثم تنطلقون في مساكين المهاجرين، فتجعلون بعضهم علىٰ رقاب بعضٍ**»، قال العلماء: التنافس إلىٰ الشيء: المسابقة إليه، وكراهة أخذ غيرك إياه، وهو أول درجات الحسد، وأما الحسد فهو تمني زوال النعمة عن صاحبها، والتدابر التقاطع، وقد بقي مع التدابر شيءٌ من المودة، أو لا يكون مودة ولا بغض، وأما التباغض فهو بعد هذا، ولهذا رتبت في الحديث: «**ثم ينطلقون في مساكين المهاجرين**»، أي: ضعفائهم، فيجعلون بعضهم أمراء علىٰ بعضٍ، هكذا فسَّروه». انتهىٰ.

وروىٰ الترمذيُّ(٢) بسندٍ حسنٍ من حديث الزبير بن العوام، حدثه أن النبي ﷺ قال: «**دَبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتىٰ تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتىٰ تحابوا، أفلا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم**»، فسمىٰ النبي ﷺ الحسد داءً.

---

(١) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٨/ ٩٦).

(٢) (٢٥١٠)، وحسنه الألبانيُّ.

قوله ﷺ: «دَبَّ»، أي: نقل وسرىٰ ومشي بخفيةٍ.

وقوله ﷺ: «**إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد**»، أي: في الباطن «**والبغضاء**»، أي: العداوة في الظاهر، وسُمِّيا داءً؛ لأنهما داء القلب «**هي**»، أي: البغضاء، وهو أقرب مبنًىٰ ومعنًىٰ، أو كل واحدةٍ منهما «**الحالقة**»، أي: القاطعة للمحبة والألفة والصلة، والخصلة الأولىٰ هي المؤدية إلىٰ الثانية، ولذا قدمت قوله ﷺ: «**لا أقول: تحلق الشعر**»، أي: تقطع ظاهر البدن، فإنه أمرٌ سهلٌ «**ولكن تحلق الدين**»، وضرره عظيم في الدنيا والآخرة.

قال الطيبي: «أي: البغضاء تذهب بالدين كالموسىٰ تذهب بالشعر، وضمير المؤنث راجع إلىٰ البغضاء»[(١)].

وروىٰ ابن ماجه[(٢)] بسندٍ صحيحٍ من حديث عبد الله بن عمرٍو، قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي النَّاس أفضل؟ قال: «**كُلُّ مَخْمُوم القَلْب ، صدوق اللسان**»، قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: «**هو التقيُّ النقيُّ، لا إثم فيه، ولا بغي، ولا غل، ولا حسد**».

«**مخموم القلب**»: هو النقيُّ الذي لا غلَّ فيه، ولا حسد، وهو من خممت البيت إذا كنسته.

وروىٰ الطبرانيُّ[(٣)] عن ضمرة بن ثعلبة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال الناس بخيرٍ ما لم يتحاسدوا**»، فإذا تحاسدوا، يرتكبون ما لا خير فيه من المعاصي، فظهر

---

(١) «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٨/ ٣١٥٤).

(٢) (٤٢١٦).

(٣) «المعجم الكبير» (٨١٥٨).

إفضاء الحسد إلىٰ المعاصي؛ إذ لا يخلو الحاسد عن الغيبة والكذب والسب والشماتة عادةً.

وقد عدَّ الإمام ابن حجر الهيتمي في كتابه «الزواجر عن اقتراف الكبائر» الحسد من الكبائر، وقد مرَّ معنا ذكر خطورة الكبائر.

قال أبو حامدٍ في «الإحياء»(١): «وقال زكريا عليه السلام: قال الله تعالىٰ: الحاسد عدوٌّ لنعمتي، متسخطٌ لقضائي، غير راضٍ بقسمتي التي قسمت بين عبادي».

قال ابن سيرين رحمه الله(٢): ما حسدت أحدًا علىٰ شيءٍ من أمر الدنيا؛ لأنه إن كان من أهل الجنة، فكيف أحسده علىٰ الدنيا وهي حقيرةٌ، وإن كان من أهل النار، فكيف أحسده علىٰ أمر الدنيا وهو يصير إلىٰ النار.

قال معاوية(٣): كل الناس أقدر علىٰ رضاه إلا حاسد نعمةٍ، فإنه لا يرضيه إلا زوالها، ولذلك قيل:

كل العداوات قد تُرْجىٰ إماتتها ... إلا عداوة مَن عاداك من حسدِ

وقال أيضًا: ليس في خصال الشر أعدل من الحسد، يقتل الحاسد قبل أن يصل إلىٰ المحسود.

قال الحسن: يا ابن آدم، لِمَ تحسد أخاك، فإن كان الذي أعطاه لكرامته عليه، فَلِمَ تحسد من أكرمه الله، وإن كان غير ذلك، فَلِمَ تحسد مَن مصيره إلىٰ النار.

قال أعرابي: ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلومٍ من حاسدٍ، إنه يرىٰ النعمة عليك نقمةً عليه.

---

(١) (٣/ ١٨٨).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٨٩).

(٣) المصدر السابق.

قال ابن أبي الدنيا(١): «اعلم أن الحسد خُلُق ذميم مع إضراره بالبدن، وفساده للدين، حتَّىٰ لقد أمَر الله بالاستعاذة من شرِّه، فقال تعالىٰ: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق: ٥]، وناهيك بحال ذلك شرًّا لو لَمْ يكن من ذم الحسد إلا أنه خُلُق دنيء يتوجه نحو الأَكْفَاء والأقارب، ويختصُّ بالمخالط والمصاحب، لكانت النزاهة عنه كرمًا، والسلامة منه مغنمًا، فكيف وهو بالنفس مضرٌّ، وعلىٰ الهم مصرٌّ، حتىٰ ربما أفضىٰ بصاحبه إلىٰ التلف من غير نكايةٍ في عدوٍّ، ولا إضرارٍ بمحسودٍ».

قال سفيان رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «لا تكن حاسدًا، تكن سريع الفهم».

قال الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ(٣): «اعلم أنَّ الحسد خُلُقٌ ذميمٌ، مع إضراره بالبدن، وإفساده للدين، حتىٰ لقد أمَر الله بالاستعاذة من شرِّه، فقال تعالىٰ: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق: ٥]، وناهيك بحال ذلك شرًّا، ولو لم يكن من ذم الحسد إلا أنه خُلُق دنيء، يتوجه نحو الأَكْفاء والأقارب، ويختصُّ بالمخالط والصاحب، لكانت النزاهة عنه كرمًا، والسلامة منه مغنمًا، فكيف وهو بالنفس مضرٌّ، وعلىٰ الهم مصرٌّ حتىٰ ربما أفضىٰ بصاحبه إلىٰ التلف من غير نكايةٍ في عدوٍّ، ولا إضرارٍ بمحسودٍ».

ومن أعظم أضرار الحسد: أن الحاسد معترضٌ ومستنكرٌ لقضاء الله وقدره، فبالحسد سخط الحاسد قضاء الله تعالىٰ بما أعطاه للمحسود، وكره نعمته التي قسمها لعباده، كما قال الله تعالىٰ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢﴾ [الزخرف: ٣٢]، وكره عدله بمنعك ما أعطاه لمحسودك، واستنكرت ذلك الفعل منه

---

(١) «أدب الدنيا والدين» (١/ ٢٦٩).

(٢) «حلية الأولياء» (٧/ ٨٢).

(٣) «أدب الدنيا والدين» (١/ ٢٦٩).

تعالىٰ واستبشعته، وهذه جنايةٌ في حدقة التوحيد، وقذًى في عين الإيمان، وناهيك بهما جناية علىٰ الدين، وقد انضاف إلىٰ ذلك أنك فارقت أولياءه وأنبياءه في حُبِّهم الخير لعباده تعالىٰ، وشاركت إبليس والكفار في محبَّتهم للمؤمنين البلايا، وزوال النِّعم، قال تعالىٰ عن الكفَّار وعدم مَحبَّتهم لأيِّ خيرٍ للمسلمين: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾ [البقرة: ١٠٥]، وهذه خبائث في القلب تأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب، فالحاسد جاحد، لا يرضىٰ بقضاءٍ، ولا يقنع بعطاءٍ، وما أحسن ما قيل:

ألا قل لمَن كان لي حاسدًا ... أتدري علىٰ مَن أسأتَ الأدَبْ

أسأتَ علىٰ الله في فعله ... لأنَّك لم ترضَ لي ما وَهبْ

فالحاسد يرىٰ قضاء الله ليس عدلًا.

روىٰ البيهقيُّ في «الشُّعب»، عن الأصمعيِّ[1] قال: بلغني أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: «الحاسد عدوُّ نعمتي، متسخطٌ لقضائي، غير راضٍ بقسمتي التي قسمت بين عبادي».

قال الأصمعي: وقال الشاعر:

كل العداوة قد تُرْجىٰ إماتتها ... إلا عداوة مَن عاداك بالحسدِ

(١) «شعب الإيمان» (٦٢٢٢).

الفصل الرابع

أمثلة على وقوع الحسد من البعض، وكيف كانت العاقبة

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المائدة: ٢٧].

قال المُفسِّرون[(١)]: أخبر الله تعالىٰ عن سوء عاقبة الحسد في قصة ابني آدم، وهما قابيل وهابيل، كيف قتل الأول أخاه، بغيًا عليه، وحسدًا له فيما وهبه الله من النعمة، وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله عَزَّوَجَلَّ، ففاز المقتول بالمغفرة ودخول الجنة، وخاب القاتل وخسر في الدارين.

أمَّا عواقب القتل المتولد من الحسد، هي:

روىٰ الشَّيخان[(٢)] من حديث عبد الله بن مسعودٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من نَفْسٍ تُقْتل ظلمًا إلا كان علىٰ ابن آدم كِفلٌ من دمها، وذلك لأنه أول مَن سنَّ القتل**».

قال النووي[(٣)]: «قوله ﷺ: «**لا تُقتل نفس ظلمًا إلا كان علىٰ ابن آدم الأول كِفلٌ منها؛ لأنه كان أول من سَنَّ القتل**»، «الكِفل» بكسر الكاف: الجزء والنصيب. وقال الخليل: هو الضعف، وهذا الحديث من قواعد الإسلام، وهو أن كل مَن ابتدع شيئًا من الشر، كان عليه مثل وزر كل مَن اقتدىٰ به في ذلك العمل إلىٰ يوم القيامة، فتأمَّل

---

(١) «التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج» (٦/ ١٥٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٧٣٢١)، ومسلم (١٦٧٧).

(٣) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١١/ ١٦٦).

كَمْ من نفسٍ قتلت ظلمًا منذ أن قَتل قابيل أخاه إلىٰ يومنا هذا، وكم من نفسٍ ستُقْتل ظلمًا إلىٰ يوم القيامة». انتهىٰ.

مثال آخر علىٰ سوء عاقبة الحسد:

قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

قال ابن كثيرٍ(١): «يقول تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾، يعني: اليهود ﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وهو القرآن الذي أنزل علىٰ محمدٍ ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾، يعني: من التوراة، وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول ﷺ بهذا الكتاب -أي: القرآن- يستنصرون بمجيئه علىٰ أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: إنه سيبعث نبيٌّ في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عادٍ وإرم، كما قال محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر، عن قتادة الأنصاري، عن أشياخٍ منهم قال: قالوا: فينا والله وفيهم -يعني: في الأنصار- وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم، نزلت هذه القصة، يعني: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ﴾، قالوا: كنَّا قد علوناهم دهرًا في الجاهلية، ونحن أهل شركٍ، وهم أهل كتابٍ، فكانوا يقولون: إن نبيًّا من الأنبياء يبعث الآن نتبعه، قد أظلَّ زمانه، نقتلكم معه قتل عادٍ وإرم، فلما بعث الله رسوله من قريشٍ واتبعناه، كفروا به، يقول الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٢١٦).

فكانت العاقبة أَنْ حملهم الحسد علىٰ عدم الإيمان بالنبي محمدٍ ﷺ، وماتوا علىٰ الكفر، فجزاؤهم جهنَّم وبئس المصير، خالدين فيها أبدًا». انتهىٰ.

قال ابن إسحاق(١): حدَّثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، قال: حدثت عن صفية بنت حيي بن أخطب أنها قالت: كنت أحبَّ ولد أبي إليه، وإلىٰ عمي أبي ياسر، لم ألقهما قطُّ مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه، قالت: فلمَّا قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حيي بن أخطب، وعمي أبو ياسر بن أخطب، مُغلِّسين، قالت: فلم يرجعا حتَّىٰ كانا مع غروب الشمس. قالت: فأتيا كالَّين كسلانين ساقطين يمشيان الهُوَينىٰ. قالت: فَهَششتُ إليهما كما كُنْتُ أَصنعُ، فوالله ما التفت إليَّ واحدٌ منهما مع ما بهما من الغمِّ. قالت: وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله. قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته -واللهِ- ما بقيتُ.

مثالٌ آخر علىٰ سوء عاقبة الحسد:

قال ابن إسحاق(٢): وحدَّثني مُحمَّد بن مسلم بن شهاب الزُّهري أنه حدَّث أن أبا سفيان بن حربٍ، وأبا جهل بن هشامٍ، والأخنس بن شريق، خرجوا ليلةً؛ ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجلٍ منهم مجلسًا يستمع فيه، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتىٰ إذا طلع الفجر تفرقوا.

فَجَمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعضٍ: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا، ثم انصرفوا، حتىٰ إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجلٍ منهم إلىٰ مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتَّىٰ إذا طلع الفجر تفرَّقوا، فجمعهم

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥١٩).
(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣١٥).

الطريق، فقال بعضهم لبعضٍ مثل ما قالوا أول مرةٍ، ثم انصرفوا، حتىٰ إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كلُّ رجلٍ منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتىٰ إذا طلع الفجر تفرَّقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعضٍ: لا نَبْرح حتىٰ نتعاهد ألَّا نعود، فتعاهدوا علىٰ ذلك، ثم تفرَّقوا.

فلمَّا أصبح الأخنس بن شريق، أخذ عصاه، ثم خرج حتىٰ أتىٰ أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمدٍ، فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به.

قال: ثم خرج من عنده حتىٰ أتىٰ أبا جهلٍ، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعتَ من محمدٍ؟ فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد منافٍ الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتىٰ إذا تحاذينا علىٰ الرُّكب، وكُنَّا كفرسي رهانٍ، قالوا: منَّا نبيٌّ يأتيه الوحي من السماء، فمتىٰ ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبدًا، ولا نُصدِّقه. قال: فقام عنه الأخنس وتركه.

فتأمَّل -رحمك الله تعالىٰ- كيف أدَّىٰ الحسد إلىٰ الاستمرار علىٰ الكفر من الأخنس ومن أبي جهلٍ، ولمَّا أراد الله تعالىٰ بأبي سفيان الخير، طهَّر قلبه من الحسد، فمات علىٰ الإيمان، وهو من أهل الجنة.

مثال آخر علىٰ سوء عاقبة الحسد:

روىٰ أبو سعيدٍ النقاش (ت ٤١٤) في كتابه «فنون العجائب»[(١)]، عن بكر بن عبد الله المزني: «أن رجلًا كان يغشىٰ بعض الملوك، فيقوم بحذاء الملك، فيقول:

---

(١) (١/ ١٢٩).

أحسن إلىٰ المحسن بإحسانه، وأما المسيء سيكفيه مساءته. قال: فحسده رجلٌ علىٰ ذلك المقام، فَوشَىٰ به إلىٰ الملك، فقال: إن فلانًا الذي يقوم بحذائك، فيقول ما يقول، زعم أن الملك أبخر الفم، قال له الملك: وكيف يصح هذا عندي؟ قال: إذا وقف بين يديك، فادع به إليك؟ فإنه إذا دنا منك، وضع يده علىٰ فمه كي لا يشم ريح البخر. قال له: انصرف حتىٰ أنظر. قال: فخرج، فدعا الرجل إلىٰ منزله، فأطعمه طعامًا فيه ثومٌ، ثم خرج من عنده، فجاء إلىٰ الملك، فقام بحذائه، فقال له الملك: ادنُ، فوضع يده علىٰ فيه، ثم دنا، فقال: أحسن إلىٰ المحسن بإحسانه، والمسيء سيكفيه مساوئه، فقال الملك في نفسه: ما أرىٰ فلانًا إلا قد صدقني، وكان معروفًا أنه -أي: الملك- لا يكتب بخطه لأحدٍ إلا بجائزةٍ، أو صلةٍ، أو معروفٍ، فكتب له بخطه إلىٰ عاملٍ من عماله: إذا أتاك صاحب كتابي هذا، فاذبحه، واسلخه، واحش جلده تبنًا، وابعث به إليَّ. قال: فخرج والكتاب معه، فلقيه الذي سعىٰ به، فقال: ما هذا الكتاب؟ قال: كتابٌ كتبه لي الملك بخطه، فقال: أحبوني به، هبه لي. قال: فدفع الكتاب إليه، وقال: هو لك، فَمَضىٰ الرجل إلىٰ العامل، فلمَّا قرأ الكتاب قال: أتدري ما فيه؟ قال: كتابٌ خط الملك بالحبايز والصِّلة. قال: إنَّ في كتابك يأمرني أن أذبحك، وأسلخك، وأحشو جلدك تبنًا، وأبعث بك إليه. قال: الله، الله، ليس هذا الكتاب لي، إنما كتبه لغيري، راجع إلىٰ الملك في. قال: ليس لكتاب الملك مراجعة. قال: فذبحه، وسلخه، وحشاه تبنًا، وبعث به إلىٰ الملك، وجاء الرجل علىٰ عادته وهو لا يعلم شيئًا، ولكن الله يعلم، فقام بحذاء الملك، فقال: أحسن إلىٰ المحسن بإحسانه، والمسيء سيكفيك مساوئه. قال له الملك: ما فعلتَ بالكتاب الذي كتبتُهُ لك؟ قال: لقيني فلانٌ، فاستوهبني، فوهبتُهُ له، قال: إن فلانًا ذكر أنك

تزعم أني أبخر؟ قال: معاذ الله! ما قلتُ هذا أيها الملك، قال: فَلِمَ وضعتَ يدك علىٰ فيك حين قربتَ مني؟ قال: هو أطعمني طعامًا فيه ثومٌ، فوضعتُ يدي علىٰ فمي كي لا تشمَّ مني ريح الثوم. قال: صدقتَ، قم ذلك المكان، وقل كما كنت تقول.

فتأمَّل:

سبحان مَن أجرىٰ الأمور بحكمةٍ فلا ظلمًا أراد ولا هضمَا

الفصل الخامس

أسباب مرض الحسد(١)

من الأسباب التي تؤدي إلىٰ مرض الحسد:

السَّبب الأول: العداوة والبغضاء:

بدايةً، ما ينبغي أن يكون بين المسلمين عداوةٌ قط، فالعداوة الحقيقية ما ينبغي أن تكون بين اثنين إلا بسبب الدِّين، وهي العداوة التي أشار إليها الشارع في كثيرٍ من النُّصوص، قال تعالىٰ عن المنافقين: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وقال عن اليهود والمشركين: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة: ٨٢]، أما عداوة بيننا ونحن ننتمي إلىٰ شريعةٍ واحدةٍ، فهي عوارٌ وشنارٌ وعيبٌ خطيرٌ؛ لأن العداوة حينئذ لا تكون بسبب الدين، وإنما هي بسبب الدنيا، فالعداوة بسبب الدين معناها أن أحدهما خرج عن الملة، والآخر لا يزال فيها، أو أن أحدهما مبتدع بدعة تخرجه عن الدين، والآخر لا يزال علىٰ السُّنة.

---

(١) وكما نقول دائمًا: الغرض من معرفة أسباب المرض: أنك إذا ما حددتها بدقةٍ، سهل عليك -بإذن الله- علاج المرض، أو الوقاية منه بالابتعاد عن أسبابه، فعلىٰ وجه العموم كلما وقف الإنسان علىٰ سبب انحرافه، سهل عليه العود إلىٰ الصراط المستقيم، وهذا في كل فروع الشريعة من اعتقاداتٍ وعباداتٍ وسلوكٍ، ولكن إذا وقع المرء في انحرافٍ وهو لا يعرف سببه، كان رجوعه عن هذا الانحراف صعبًا، لذلك ينبغي علينا أن نقف علىٰ أسباب الذنوب والمعاصي علىٰ وجه الإجمال بِغَضِّ النظر عن كونها من معاصي الجوارح، أو من معاصي القلوب، وأيضًا علىٰ كل أمراض القلوب وأسبابها حتىٰ إذا ما عرفنا هذه الأسباب، بدأنا مستعينين بالله عَزَّوَجَلَّ في الابتعاد عنها، وبذلك يبرأ القلب من المرض بإذن الله، أو يتقي وصول المرض إليه ابتداءً إن لم يكن مصابًا به، فالوقاية خيرٌ له؛ لأنَّ دخول المرض إلىٰ جسد الإنسان شيء خطير، ولأن خروجه منه بعد ذلك ليس بِهَيِّنٍ، ولابد أن يترك أثرًا مهما كان العلاج دقيقًا مكتملًا، وهذا ملاحظ في مرض الجسد، فاحرص كلَّ الحرص علىٰ الابتعاد عن أسباب المرض.

ولا شك أن تعادي مسلمين علىٰ الدنيا خُلُق مذموم؛ لأنهما حينئذٍ يتباغضان لشيءٍ نحن علىٰ يقينٍ أنه زائلٌ، ولا يزن عند الله جناح بعوضةٍ، فمَن يتقاتل علىٰ الدنيا إنَّما هو كمَن يتقاتل علىٰ بعرةِ بعيرٍ، وينبغي أن نتدبَّر هذه المعاني، خاصةً أثناء العمل الدعوي، فإنَّ الشحناء والبغضاء إذا دبَّت في العمل الشرعي فسد، قال تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦].

قال أبو حامدٍ الغزالي في «الإحياء»(١): «وهذا أشدُّ أسباب الحسد، فإنَّ مَن آذاه شخص بسببٍ من الأسباب، وخالفه في غرضٍ بوجهٍ من الوجوه، أبغضه قلبه، وغضب عليه، ورسخ في نفسه الحقد، والحقد يقتضي التشفِّي والانتقام، فإن عجز المبغض عن أن يتشفَّىٰ بنفسه، أحب أن يتشفَّىٰ منه الزمان، وربما يحيل ذلك علىٰ كرامة نفسه عند الله تعالىٰ، فمهما أصابت عدوه بلية، فرح بها، وظنها مكافأةً له من جهة الله علىٰ بغضه، وأنها لأجله، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك؛ لأنه ضد مراده، وبالجملة: فالحسد يلزم البغض والعداوة، ولا يفارقهما، وإنما غاية التقي ألَّا يبغي، وأن يكره ذلك من نفسه».

روىٰ البزار وابن حبان عن أبي موسىٰ الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا إنَّ الدينار والدرهم أهلكا مَنْ كان قبلكم، وهما مهلكاكم**»(٢).

وفي «الصحيحين»(٣) من حديث عمرو بن عوفٍ الأنصاريٰ رضي الله عنه أنَّ رسول الله

---

(١) (٣/ ١٩٢).

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٩٤)، والبزار في «كشف الأستار» (٣٦١٢) من حديث ابن مسعود، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٧٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١).

ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلىٰ البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول الله ﷺ هو صالح أهل البحرين، وأمَّر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمالٍ من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافت صلاة الصبح مع النبي ﷺ، فلما صلىٰ بهم الفجر، انصرف، فتعرضوا له، فتبسَّم رسول الله ﷺ حين رآهم، وقال: «**أظنُّكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيءٍ**». قالوا: أجل يا رسول الله. قال: «**فَأبشروا وَأَمِّلوا ما يَسرُّكم، فوالله لا الفقر أخشىٰ عليكم، ولكن أخشىٰ عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت علىٰ مَن كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم**».

السَّبب الثَّاني: الخوف من فوت المقاصد:

قال أبو حَامِدٍ الغزالي في «الإحياء»[(١)]: «وذلك يختصُّ بمتزاحمين علىٰ مقصود واحد، فإن كل واحدٍ يحسد صاحبه في كل نعمةٍ تكون عونًا له في الانفراد بمقصوده، ومن هذا الجنس تحاسد الضرَّات في التزاحم علىٰ مقاصد الزوجية، وتحاسد الأخوة في التزاحم علىٰ نَيل المنزلة في قلب الأبوين للتوصُّل به إلىٰ مقاصد الكرامة والمال، وكذلك تحاسد التلميذين لأستاذٍ واحدٍ علىٰ نَيل المرتبة من قلب الأستاذ، وتحاسد ندماء الملك وخواصه في نَيل المنزلة من قلبه للتوصُّل به إلىٰ المال والجاه، وكذلك تحاسد الواعظين المتزاحمين علىٰ أهل بلدةٍ واحدةٍ إذا كان غرضهما نَيل المال بالقبول عندهم، وكذلك تحاسد العالمين المتزاحمين علىٰ طائفةٍ من المتفقهة محصورين؛ إذ يطلب كل واحدٍ منزلةً في قلوبهم للتوصل بهم إلىٰ أغراضٍ له، وهذا لا يكون إلا مع فَقْد الإخلاص. انتهىٰ.

---

(١) (٣/ ١٩٣).

وعلاج ذلك: أن تعلم أن هذا المقصود الذي تسعىٰ إليه إنما هو كله من متاع الدنيا الزائل، ولن يؤثر في آخرتك بشيءٍ، فحتىٰ إن افترضنا أنك وصلت إلىٰ هذا المقصود الدنيوي، فحقيقة الأمر أنك ما استفدت شيئًا.

روىٰ الترمذي[(١)] بسندٍ حسنٍ من حديث سلمة بن عبيد الله بن محصن الخطمي، عن أبيه، وكانت له صحبةٌ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أصبح منكم آمنًا في سِرْبِهِ، مُعافًىٰ في جسدِهِ، عنده قوت يومه، فكأنَّما حِيزَتْ له الدُّنيا**».

وعلىٰ الجملة، فمَن كانت الآخرة همه، لا يخاف من فَوت المقصود:

فهذا الذي سبق يحدث إن كان مقصود المرء مما عند البشر -أي: مقصود دنيوي- أمَّا إنْ كان مقصد الطَّرفين طاعة الله عَزَّوَجَلَّ مثل طلب العلم والعبادة، فمن المستحيل أن يتحاسدا، ودُخُولُ الحسد من هذا الباب مرفوضٌ عقلًا وشرعًا؛ لأنَّ هذين الطرفين يسعيان إلىٰ جوادٍ كريمٍ يعطيهما ويعطي غيرهما، عطاؤه لا ينفد، وله ملك السماوات والأرض، وما بينهما، وما تحت الثرىٰ، فَإنْ دبَّ الحسد من هذا الباب، دلَّ علىٰ أنهما لا يبتغيان وجه الله، فَإنْ تحرك في قلبك شيء تُجَاه أخٍ يعمل معك في حقل الدعوة لدين الله تعالىٰ وحسدته، فاعلم أنك لم تبتغ بسعيك هذا وجه الله، ومَن لم يبتغ بعمله وجه الله، فقد حبط عمله، بل وحمل بذلك إثمًا ووزرًا[(٢)]، وليس له إلا التوبة لله تعالىٰ، فانتبه لذلك الأمر، فخيرٌ لنا أن نبكي في الدنيا من أن نبكي في الآخرة، وأن نندم في الدنيا قبل ألَّا ينفع ندمٌ في الآخرة، وأن نكشف ونعرىٰ، ثم نستقيم في الدنيا من أن يسبل علينا سترٌ كاذبٌ فيها، ثم نفضح في الآخرة.

---

(١) (٢٣٤٦).

(٢) ومثل ذلك ما اتفق عليه العلماء أن مَن صلىٰ لغير الله عَزَّوَجَلَّ، فصلاته باطلة قد حبطت، ويتحمل مع ذلك أوزارًا أيضًا.

السبب الثالث: حب الرياسة، وعلو المنزلة بين الناس:

فطبيعة كلِّ بَشَرٍ أنه يحب التفرُّد والتميز في كل شيءٍ، وهذه بالطبع طبيعة مذمومة، حمل البشرية عليها شعورهم بالنقص، وعلمهم بخللهم، فيحاولون ملء ذلك الخلل بهذا التفرُّد والتميُّز، ويدخل الحسد من خلال تنافسهم علىٰ هذا التفرُّد والتميُّز، فمثلًا: لو أن إنسانًا تفرد بحسن الخط مثلًا، لدرجة أنه إذا ذكر حسن الخط مدح به علىٰ الملأ، وهو سعيد بهذه المنزلة، ثم جاءه خبرٌ أن فلان بن فلان أحسن منك خطًّا، فتمنىٰ موته وزواله، فهذا دليل علىٰ مرض الحسد عنده.

وقد يأتيك الشيطان من ناحية العمل لنصرة الإسلام والمسلمين، ومن ناحية العمل الدعوي بالذات، ولا تنتبه، لذلك اعلم جيدًا أننا في مجال الدعوة طالما كان هدفنا واحدًا، وهو الدَّعوة لدين الله ﷻ علىٰ بصيرةٍ، وعلىٰ منهج السَّلف، فلا يعنينا أينا حقَّق هذا الهدف، وتصدَّر هذا العمل، أو يسيره، وندعو الله أن يعينه طالما أن العمل الدعوي يسير بشكلٍ جيدٍ، فإن طلبت ألَّا يتحقق الهدف إلا علىٰ يديك أنت، فهذا دليل ساطع علىٰ أنك مُرَاءٍ في عملك هذا، ولا تبتغ بعملك وجه الله تعالىٰ.

في غزوة مؤتة إذ أرسل النبي ﷺ جيشًا أمَّر عليه زيد بن حارثة، وقال: «**إنْ قُتِلَ زيد فجعفر، فإن قُتل جعفر فعبد الله بن رواحة، فإن قُتل عبد الله بن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلًا، فليجعلوه عليهم**»، فقتلوا جميعًا شهداء، وسقطت الراية، فأخذ الراية ثابت بن أقرم الأنصاري البدري، وقال: يا أيها الناس، اصطلحوا علىٰ رجلٍ منكم. قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعلٍ، فاصطلح الناس علىٰ خالد بن الوليد، فدفعها ثابت بن أقرم إلىٰ خالد بن الوليد، فقال خالد: لا، أنت أسن، أنت بدريٌّ - وكان خالد قد أسلم هو وعمرو بن العاص متأخرًا قبيل غزوة الفتح- فقال ثابت:

والله، ما أخذتها إلا لك، فأخذها خالد بن الوليد، وحدث ما حدث، فانظر إلىٰ التجرد والحرص علىٰ عدم الظهور والرياسة طالما أن العمل يسير كما ينبغي.

واعلم أن الدعوة في أي مكانٍ ما دُمرت وما ظهرت البغضاء والعداوة وتبادل الاتهامات والردود بين المنتسبين إليها إلا من هذا الباب، فصار الكلُّ يتمنىٰ ويأتيه الشيطان، ويغلف له ذلك بغلاف الشريعة، واعلم أنَّنا إذْ مَنَّ الله علينا بالالتزام بالشريعة، لن يتركنا الشيطان، ولن يهدأ، ولن يسلم حتىٰ يوقع بعضنا في بعضٍ، ويغضب بعضنا علىٰ بعضٍ، والكَيِّس الفطن الذكي هو الذي ينتبه إلىٰ مثل هذه الأمور، ولا يجري وراءها[(١)].

السَّبب الرابع: خبث النفس ولؤمها وشحها بالخير لعباد الله تعالىٰ:

الأسباب السَّابقة من الممكن أن يبتعد عنها الإنسان، ويتخلَّص منها، أما هذا السبب فليس كما سبق من الأسباب، فهو شيء لا يفطر عليه العبد، ويولد عليه، وإنما هو داءٌ اكتسبه من التراكمات، ومن إهمال القلب مرةً بعد مرةٍ حتىٰ تشبَّع بالمرض، لذلك الاهتمام بالقلب أمرٌ ضروريٌّ جدًّا قبل أن يصل قلبك إلىٰ مرحلةٍ يعزُّ فيها العلاج إلا بصعوبةٍ ومشقةٍ، ففرقٌ كبيرٌ بين إدراك المرض في أوله، وبين تركه حتىٰ يستفحل في القلب، ويتفاقم الأمر، فإنه حينئذٍ سيهلك، ولا شك.

قال أبو حامدٍ الغزالي في «الإحياء»[(٢)]: «فإنك تجد مَن لا يشتغل برياسةٍ وتكبرٍ،

---

(١) وذكر الإمام أبو الفرج ابن الجوزي -عليه رحمة الله- في «تلبيس إبليس» قصة طريفة في هذا الباب، قال: «إن الشيطان طاف بأهل مجلس الذكر -يعني: في مجلس علم- ليفتنهم، فلم يستطع أن يفرق بينهم، أتاهم من كل بابٍ فلم يستطع، فأتىٰ حلقةً يذكرون الدنيا، فلعب بهم وفتنهم، فأغرىٰ بينهم حتىٰ اقتتلوا -أي: أوقع بينهم فتشاجروا- فقام أهل الذِّكر، فحجزوا بينهم فتفرقوا، أي: انفضَّ المجلس، واستراح الشيطان، فهو لن يدع أهل الحق أبدًا.

(٢) (٣/ ١٩٤).

ولا طلب مالٍ، إذا وصف عنده حسن حال عبدٍ من عباد الله تعالىٰ فيما أنعم الله به عليه، يشقُّ ذلك عليه، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم، وفوات مقاصدهم، وتنغُّص عيشهم، فرح به، فهو أبدًا يحب الإدبار لغيره، ويبخل بنعمة الله علىٰ عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته». انتهىٰ.

وهناك فرقٌ بين مرض الحقد وبين خبث النفس الذي نعنيه، فمثلًا إذا سمعت عن أي مسلمٍ لا تعرفه أنه نزل به من البلاء والسوء الكثير والكثير في زوجته وأولاده وصحته وأمواله، فاستراحت لذلك نفسك وفرحت، فهذا هو خبث النفس الذي نعنيه، أما الحقد فيكون تجاه رجلٍ أنت تعرفه، ومتغيظٌ منه، فلما نزل به البلاء، استراحت نفسك.

وينبغي أيضًا أن نفرق بين خبث النفس وبين خُلُق التَّأسِّي، وخُلُق التَّأسِّي هو أن يهون علىٰ المرء بلاءه ما يراه من بلاءٍ مثله وقع للناس، فالنفس البشرية تحب أن تتأسىٰ بنظائرها، وهذا ليس فيه شيءٌ، وليس من الحسد المذموم طالما أنه لم يفرح بما حدث للناس، ولكن فقط هون عليه ما يحدث له، والدليل علىٰ صحة ذلك ما قاله كعب بن مالك في قصة تخلُّفه عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، لمَّا صَدَق مع النبي ﷺ، فلَامه رجالٌ من بني سلمة، يقول كعب: فوالله، ما زالوا يؤنبوني حتىٰ أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحدٌ؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثلما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك. فقلت: مَن هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي. فصبره أنهم في بلاءٍ واحدٍ.

السبب الخامس: التعجب:

قال أبو حامدٍ الغزالي في «الإحياء»[(١)]: «كما أخبر الله تعالىٰ عن الأمم السالفة؛ إذ قالوا لرسلهم: «ما أنتم إلا بشر مثلنا»، وقالوا: «أنؤمن لبشرين مثلنا»، «ولئن أطعتم بشرًا مثلكم إنكم إذًا لخاسرون»، فتعجَّبوا من أن يفوز برتبة الرسالة والوحي والقرب من الله تعالىٰ بشرٌ مثلهم، فحسدوهم وأحبوا زوال النبوة عنهم جزعًا أن يفضل عليهم مَن هو مثلهم في الخِلْقةِ، لَا عن قصد تكبُّر وطلب رياسة، وتقدُّم عداوة، أو سبب آخر من سائر الأسباب، وقالوا متعجبين: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ **وقالوا:** ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ الآية، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]». انتهىٰ.

السبب السادس: التعزز:

أي: التكلف من الحاسد للترفُّع والعزة علىٰ المحسود، وهو أن يخاف الحاسد أن يترفع عليه غيره إذا حصل للمحسود بعض أسباب الترفُّع، فإذا حصل لبعض أقرانه أو أمثاله رياسةٌ، أو جاهٌ، أو مالٌ ونحوه من أسباب الترفُّع، خاف أن يتكبَّر عليه وهو لا يطيق تكبُّره، حسده خوفًا من تكبُّره عليه، فهو يريد دفع الكبر عنه بزعمه، فحسده لذلك.

---

(١) (٣/ ١٩٣).

السبب السابع: التكبُّر:

فإنَّ مَن في طبعه التكبُّر علىٰ الناس لرؤية نفسه أنه أرفع وأعلىٰ منهم، ويتأكَّد أنهم سيتابعوه ويُقلِّدوه، فإذا حصل لأحدهم نعمةٌ، خاف أن يساويه في الفضل، فيزول تَكبُّره عليه، ومن ثَمَّ يحسده.

السبب الثامن: الحقد، وسيأتي الكلام عنه مفصلًا إن شاء الله تعالىٰ:

ملحوظة مهمة: وقد يجتمع بعض هذه الأسباب، أو أكثرها، أو جميعها في شخصٍ واحدٍ، فيعظم فيه الحسد بذلك، ويقوىٰ قوةً لا يقدر معها علىٰ الإخفاء والمجاملة، بل ينهتك حجاب المجاملة، وتظهر العداوة بالمكاشفة، أعاذنا المولىٰ من ذلك بلطفه وكرمه.



الفصل السادس

علاج مرض الحسد[١]

الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تُدَاوىٰ أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل، والبعد عن أسبابه السابقة، ومجاهدة النفس لتحقيق ذلك، والصبر عليها.

أولًا: الجانب العلمي: أن يعلم الحاسد يقينًا أنَّ الحسد ضرر عليه في الدنيا والدين، وأنه لا ضرر فيه علىٰ المحسود في الدنيا والدين، بل ينتفع به فيهما، ومهما عرف الحاسد هذا عن بصيرةٍ، ولم يكن عدو نفسه، وصديق عدوه- فارق الحسد لا محالة، فليس هناك عاقل يفعل ما يضر دينه ودنياه معًا، فأما ضرره في الدين فكما سبق أن الحسد معناه كراهية قَدَر الله، والاعتراض عليه، وهذا يضادُّ التوحيد من كل وجهٍ، ولا يوجد أسوأ منه، فالحاسد كأنه يقول: يا ربِّ، وضعك النعمة هنا عند هذا الشخص خطأ.

أما كونه ضررًا في الدنيا، فهو أنَّ الحاسد يتألم بحسده في الدنيا، أو يتعذب به، ولا يزال في كمدٍ وغمٍّ، إذ أعداؤه الذين يحسدهم لا يخليهم الله تعالىٰ عن نِعَمٍ يفيضها عليهم، فلا يزال يتعذَّب بكل نعمةٍ يراها علىٰ مَن يحسدهم، ويتألَّم بكُلِّ بَلِيَّةٍ تنصرف عنهم، فيبقىٰ مغمومًا ضيِّق الصدر، فقد نزل به ما يشتهيه الأعداء له من الغمِّ والكمد والحزن، وما يشتهيه لأعدائه نزل به، فقد كان يريد المحنة لعَدوِّه فتنجزت في الحال محنته وغمه، والأشد من ذلك أن النعمة لا تزول عن المحسود بحسد الحاسد، ولو لَمْ يؤمن الحاسد بالبعث والحساب لكان مقتضىٰ الفطنة -إن كان

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٩٦).

عاقلًا- أن يحذر من الحسد؛ لِمَا فيه من ألم القلب ومَسَاءته مع عدم النفع، فكيف والعلم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة ظاهر واضح لكلِّ ذي بصيرةٍ، فما أعجب مَن يتعرَّض لسخط الله من غير نفعٍ يناله، بل مع ضررٍ يحتمله، وألمٍ يقاسيه، فيهلك دينه ودنياه من غير جدوىٰ، ولا فائدة.

وأمَّا أنه لا ضرر علىٰ المحسود في دينه ودنياه فواضحٌ؛ لأن النعمة لا تزول عنه بحسد الحاسد.

وأما أنَّ المحسود ينتفع به في الدين والدنيا فواضح، أما منفعته في الدين فهو أنه مظلومٌ من جهة الحاسد، لا سيما إذا أخرج الحاسد الحسد إلىٰ القول والفعل بالغيبة والقدح فيه، وهتك ستره، وذكر مساوئه، فهذه هدايا يهديها إليه، إذ يهدي إليه حسناته حتىٰ يلقاه يوم القيامة مفلسًا محرومًا، كما حرم في الدُّنيا عن النعمة.

فإذا تأمَّل الحاسدُ هذا حقَّ التأمل، عرف أنه عدو نفسه، وصديق عدوه؛ إذ تعاطي الحاسد ما يتضرر به في الدنيا والآخرة، وانتفع به عدوه في الدنيا والآخرة، وصار مذمومًا عند الخالق والخلائق، شقيًّا في الحال والمآل، ونعمة المحسود دائمة، شاء الحاسد أم أبىٰ، فهي باقيةٌ، ومَن تفكَّر في هذا بذهنٍ صافٍ وقلبٍ حاضرٍ، انطفأت نار الحسد من قلبه، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ويدخل في العلاج العلمي الوقوف علىٰ فضيلة طهارة القلب، ومنها:

ما رواه الإمام أحمد[1] بسندٍ صحيحٍ من حديث الزهري، قال: أخبرني أنس بن مالك قال: كنَّا جلوسًا مع رسول الله ﷺ، فقال: «**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة**»، فطلع رجلٌ من الأنصار، تنطف لحيته من وضوئه، قد تعلق نعليه في يده

(١) «المسند» (١٢٦٩٧).

الشمال، فلما كان الغد، قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولىٰ، فلما كان اليوم الثالث، قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضًا، فطلع ذلك الرجل علىٰ مثل حاله الأولىٰ، فلما قام النبي ﷺ، تبع عبد الله بن عمرو بن العاص ذلك الرجل، فقال: إنِّي لَاحيتُ أبي، فأقسمتُ ألَّا أدخل عليه ثلاثًا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتىٰ تمضي فعلت؟ قال: نعم. قال أنسٌ: وكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يرَه يقوم من الليل شيئًا، غير أنه إذا تعار وتقلَّب علىٰ فراشه، ذكر الله عَزَّوَجَلَّ وكبَّر حتىٰ يقوم لصلاة الفجر. قال عبد الله: غير أنِّي لم أسمعه يقول إلا خيرًا، فلما مضت الثلاث ليال، وكدت أن أحقر عمله، قلت: يا عبد الله، إنِّي لم يكن بيني وبين أبي غضبٌ، ولا هجر ثَمَّ، ولكن سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرارٍ: «**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة**»، فطلعت أنت الثلاث مرارٍ، فأردتُ أن آوي إليك لأنظر ما عملك، فأقتدي به، فلم أرَك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ فقال: ما هو إلا ما رأيتَ. قال: فلما وليت دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيتَ، غير أني لا أجد في نفسي لأحدٍ من المسلمين غشًّا، ولا أحسد أحدًا علىٰ خير أعطاه الله إياه، فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق.

ويدخل أيضًا في العلاج العلمي: الوقوف علىٰ أضرار الحسد علىٰ الفرد والمجتمع، فمنها:

(١) إسخاط الله تعالىٰ في معارضته، واجتناء الأوزار في مخالفته؛ إِذْ ليس يرىٰ قضاء الله عدلًا، ولا لنعمه من الناس أهلًا.

(٢) حسرات النفس، وسقام الجسد، ثم لا يجد لحسرته انتهاءً، ولا يؤمل لسقامه شفاءً.

(٣) انخفاض المنزلة، وانحطاط المرتبة.

(٤) مَقْت الناس له حتىٰ لا يجد فيهم مُحبًّا، وعداوتهم له حتىٰ لا يرىٰ فيهم وليًّا، فيصير بالعداوة مأثورًا، وبالمقت مزجورًا.

(٥) يجلب النقم، ويزيل النعم.

(٦) منبع الشرور العظيمة، ومفتاح العواقب الوخيمة.

(٧) يورث الحقد والضغينة في القلب.

(٨) معول هدمٍ في المجتمع.

(٩) دليل علىٰ سفول الخلق، ودناءة النفس. انتهىٰ من «نضرة النعيم»[(١)].

من أجل ذلك، قال بعض أهل العلم: «لم أر ظالمًا أشبه بالمظلوم من الحاسد»، فهو في حقيقة الأمر ظالمٌ، ولكنه كالمظلوم؛ لما يلقىٰ من عنتٍ وتعبٍ وضيقٍ وألمٍ، وكَذَلك يتولَّد عن الحسد إذا تَفشَّىٰ في القلب أن يحاول الحاسد إزالة النعمة عن المحسود بنفسه، فيقع في الغيبة والنميمة والسعي في تشويه صورة المحسود أمام الناس، ومعنىٰ هذا كله أنه يعطيه كثيرًا من حسناته عند الله عَزَّوَجَلَّ، لذلك لو أمعن الحاسد النظر في صنيعه، لَعلم أنه أغبىٰ من الدَّوابِّ؛ لأنه يفيد المحسود، ويضرُّ نفسه وهو لا يشعر.

الثاني: الجانب العملي:

فهو أن يكلف نفسه نقيض ما يتقاضاه الحسد، وذلك بالتواضع للمحسود، والثناء، والمدح، وإظهار السرور بالنعمة التي أنعم الله بها علىٰ عباده، فتعود القلوب إلىٰ التآلف والتحاب، وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد، وغم التباغض، فهذه

(١) (١٠/ ٤٤٢٩)، وما قبلها. وكتاب «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص٢٠١).

هي أدوية الحسد، وهي نافعة جدًّا، إلا أنها مُرَّة علىٰ القلوب جدًّا، ولكن النفع في الدواء المُر، فمَن لم يصبر علىٰ مرارة الدواء، لم ينل حلاوة الشفاء، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.



الفصل السابع

العين

تقدمة لمبحث العين، وما يتعلق بها:

نتكلَّم من باب الفائدة عن مبحث العين وما يتعلق به من مسائل، وينبغي أن ننتبه إلىٰ أنَّ الحسد في هذا المبحث ليس بمعنىٰ تَمنِّي زوال نعمة الله علىٰ المحسود وكراهيتها، ولكن الحسد الذي نعنيه هنا هو تأثير العين علىٰ ما تراه من خيرٍ عند البعض، فإن كان في القلب شيءٌ من تمني زوال النعمة عن الغير، حاول أن تعالجه بسرعةٍ؛ لأن هذا المرض يظهر له في معظم الأوقات تأثير عند رؤية الغير، وإن لم يشعر الحاسد.

قال شيخ الإسلام(١): «ولهذا قيل: ما خلا جسدٌ من حسدٍ، لكن اللئيم يُبديه، والكريم يُخفيه». انتهىٰ.

فالعائنُ حاسدٌ خاصٌّ، وهو أضرُّ من الحاسد، فكلُّ عائنٍ حاسدٌ ولا بد، وليس كل حاسدٍ عائنًا، فإذا استعاذ المسلم من شر الحاسد، دخل فيه العائن، وهذا من شمول القرآن وإعجازه وبلاغته.

يقول ابن القيِّم رحمه الله تعالىٰ(٢): «وأصله من إعجاب العائن بالشيء، ثم تتبعه كيفيَّة نفسه الخبيثة، ثم تستعين علىٰ تنفيذ سُمِّها بنظرة إلىٰ المعين، وقد يعين الرجل

---

(١) «أمراض القلب وشفاؤها» (١/ ٢١).

(٢) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٤/ ١٥٤).

نفسه، وقد يعين بغير إرادته، بل بطبعه، وهذا أردأ ما يكون من النوع الإنساني، وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء: إنَّ مَن عرف بذلك، حبسه الإمام -أي: ولي أمر المسلمين- وأجرىٰ له ما ينفق عليه إلىٰ الموت، وهذا هو الصواب قطعًا، فالعائن تخرج من نفسه سهام نحو المحسود، والمعين (المعيون) تصيبه تارةً، وتخطئه تارةً، فإن صادفته مكشوفًا لا وقاية عليه، أثرت فيه ولا بد، وإن صادفته حذرًا شاكي السلاح لا منفذ فيه للسهام، لم تؤثر فيه، وربما ردت السهام علىٰ صاحبها». انتهىٰ.

قال الحافظ[1]: «تقول: عنت الرجل: أصبته بعينك، فهو معين ومعيون، ورجل عائن ومعيان وعيون، والعين نظر باستحسانٍ مشوبٍ بحسدٍ من خبيث الطبع يحصل للمنظور منه ضرر». انتهىٰ.

ملحوظة: ما ذكره الحافظ من الحسد يحصل من خبيث الطبع علىٰ سبيل الأغلب والأكثر، وإلا يحصل الحسد من طيب الطبع أيضًا، كما سيأتي.

التأثير المحسوس للعين من الأمور التي عجزت البشريَّة عن تفسيرها:

لا شك أنَّ ما تحدثه العين من تأثيراتٍ تحتار فيها العقول، وتذهل فيها الألباب، ومع هذا التقدُّم العلمي الذي وصلت إليه البشرية في وقتنا الحاضر (١٤٤٠ هجرية)، عجزت البشرية -وستعجز- عن إيجاد تفسير علمي لهذا الأمر، فبمجرد أن ينظر الرجل إلىٰ أخيه، فيتكلم ببعض الكلمات -أو: لا يتكلم- ترىٰ أثرًا سلبيًّا شديدًا قد وقع علىٰ المنظور إليه، وقد وصف الله تعالىٰ البشرية جميعًا، فقال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧]، فكثيرٌ من الأحداث تحدث في الكون ولا

(١) «فتح الباري» (١٠/ ٢٠٠).

علم للإنسان بها، ويعجز من يدَّعي العقلانية والعلم أن يأتي بتفسيرٍ علميٍّ محسوسٍ لما يحدثه الحسد والعين، ولولا صحة النصوص الشرعية في هذا المقام، ما صدق ذلك عاقلٌ قط، فالنفس البشرية تؤمن بالمحسوس دون الأمور المعنوية، فتأثير العين أمرٌ في غاية العجب والغرابة، كما سيأتي.





الفصل الثامن

أقسام العائن

قسَّم العلماء العائن الحاسد إلىٰ قسمين باعتبار ما يدور في نفسه:

صاحب نفس خبيثة: وهو الذي يتمنىٰ زوال النعمة عن أيِّ أحدٍ غيره، وهذا يظهر أثر حسده بمجرد النظر ولو لم يتكلم، فحَسْبه ما في قلبه من شرٍّ، فإن كان عند المرء شيءٌ من هذا، فليحاول مستعينًا بالله عَزَّوَجَلَّ أن يتخلَّص منه قبل أن يضر الناس، وهذا النوع هو الذي يجب علىٰ وليِّ الأمر أن يفعل به ما سبق.

صاحب نفس طيبة: وهو الذي ليس في قلبه شيءٌ لأحدٍ، لا حسد ولا غيره، ولكنه يتكلم عمَّا يرىٰ مما أعجبه دون أن يُبَرِّك، أو يذكر اسم الله عَزَّوَجَلَّ، فيحدث منه الحسد وهو لا يريده، ولا يقصده، وهذا الذي حدث في قصة عامر بن ربيعة مع سهل بن حنيف، وسيأتي الكلام عنها إن شاء الله تعالىٰ.

لذلك، ينبغي علينا في بيوتنا وأموالنا ومع أهلنا وأولادنا أن نراعي هذا الأمر جيدًا، فَنُبَرِّك إذا رأينا ما يعجبنا في الزوجة، أو الأولاد، أو في البيت والمركب والمأكل، وغير ذلك، وأنت -ولا شكَّ- لن تتمنىٰ زوال نعمة الله عليك في هذه الأشياء، ولكن قد يقع منك الحسد وأنت لا تريده، ولا تشعر به.



الفصل التاسع

كيف يقع الحسد من صاحب النفس الطيبة؟

روىٰ الإمام أحمد عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**العين حق، ويحضرها الشيطان وحسد ابن آدم**»(١)، ومعنىٰ قوله ﷺ: «**ويحضرها الشيطان وحسد ابن آدم**»، أن ابن آدم لما يتكلم بكلمةٍ يخالف فيها الشرع بعدم ذكر اسم الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ الشيء الذي يعجبه، فبمُجرَّد هذا الكلام يتلقَّف الشيطان هذه الكلمات بكيفيَّة غيبية مجهولة لنا، فيظهر أثرها علىٰ المحسود بالضرر والسلب، فبخروج الوصف غير مقرونٍ بذكر الله عَزَّوَجَلَّ، يتلقَّفه الشيطان، ويوقع الضرر(٢).

والشيطان الذي يحضر الموقف لا يفرق بين حسن النية وسوء النية، وإنما الذي يعنيه: هل الوصف الذي خرج مقرونٌ بذكر الله أم لا؟ وهل تحصن الموصوف بالذِّكر أم لا؟ فإن كان الوصف مقرونًا بذكر الله، أو تحصن الموصوف بالأذكار المشروعة، وأذن الله تعالىٰ بحفظه، لم يستطع الشيطان فعل أي شيءٍ، وأما غير ذلك فيفعل؛ سواء كانت النية حسنة أم سيئة.

وهذا لا يحدث علىٰ الدوام، وإنما هو في غالب الأحوال، فَمِنَ الممكن أن يخرج الوصف غير مقرونٍ بذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وتكون الشياطين وقتها حاضرةً بقَدَر الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن لا تتلقَّف هذه الكلمات، ولا تفعل شيئًا، ومن الممكن في مرة أخرىٰ أن تفعل(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (٩٦٦٨).

(٢) والكلام في كيفية الإصابة بالعين سيأتي بالتفصيل.

(٣) وهذا مثل الحديث الذي رواه مسلم عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «**غطُّوا الإناء، وأَوْكوا السِّقاء،**
=

وفي الحديث المتفق عليه قال النبي ﷺ: «**إن الشيطان يجري من الإنسان مجرىٰ الدم**»[(١)(٢)]، فمن الممكن أن يفعل في الإنسان ما لا يستطيع بَشرٌ فعله.

لذلك، فكل إنسانٍ معرض للعين، ولا يكاد يَسلم منها أحد إلا مَن عصم الله تعالىٰ، لذلك يقول ابن تيمية عليه رحمة الله: «والمقصود أن الحسد مرضٌ من أمراض النفس، وهو مرض غالب، فلا يخلص منه إلا قليل من الناس، ولهذا يقال: ما خلا جسدٌ من حسدٍ، لكن اللئيم يبديه، والكريم يخفيه»[(٣)].

ومقصده من ذلك أن اللئيم يذكر الوصف الحسن دون ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، أما الكريم فيذكر الوصف الحسن معقوبًا أو مقرونًا بذكر الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يسبب ضررًا بإذن الله تبارك وتعالىٰ.

أقسام الشر، والوقاية منه:

ذكر الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ تقسيمةً عجيبةً للشر الذي يصيب ابن آدم، فقسَّمه باعتبار مصدره إلىٰ قسمين[(٤)]:

= **فإنَّ في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناءٍ ليس عليه غطاء، أو سقاء ليس عليه وكاء إلا نزل فيه من ذلك الوباء**»، وهذه الليلة مبهمة لا يعلمها أحد، فمن أجل ذلك أمرنا الشارع عند كل ليلة أن نغطي الآنية، ونوكئ السقاء -وهو ربط القربة جيدًا- وأن نطفئ النيران، حتىٰ قال: «**فإن لم يجد أحدكم إلا أن يعرض** -أي: يضع- **علىٰ إنائه عودًا، ويذكر اسم الله، فليفعل**»، فالشارع أرشدك إلىٰ ما يكف عنك الشرور، ولم يترك لك عذرًا، ولم يحدد النبي ﷺ هذه الليلة حتىٰ نستمر علىٰ هذا الفعل طوال عمرنا.

(١) والرَّاجح -كما قال الفضيل بن عياضٍ- أنَّ الحديث علىٰ ظاهره، أي إنه يجري في دمه من الداخل، وقد قال البعض: إن الحديث كناية عن الالتصاق، أو الملازمة، وقد سبق بيان ذلك.

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٣٨)، ومسلم (٢١٧٤).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ١٢٤).

(٤) تلخيص لكلام ابن القيم وتصرف كبير فيه من كتاب «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء».

الأول: شر من العبد نفسه وبسبب ذنوبه ومعاصيه، وهي العقوبات القدرية والعقوبات الشرعية.

ملحوظة:

أما العقوبات القدرية، فهي التي يُنزلها الله ﷻ علىٰ العبد لعلَّه يُفيق من غفوته، أو يكفر بها عن سيئاته.

وأما العقوبات الشرعية، فهي الحدود والتعزيرات التي فرضها ربُّ البرية علىٰ مَن عصاه، وتختلف العقوبات القدرية عن الشرعية من أوجهٍ كثيرةٍ ليس هذا موضع ذِكْرها. انتهت الملحوظة.

والثاني: شر يصيب الإنسان من غيره، وهذا الغير ينقسم إلىٰ قسمين: مكلف، أو غير مكلف:

- أما غير المكلف، فمثل الهوام والسباع وغيرها.
- وأما المكلف، فينقسم إلىٰ قسمين: (نظير لك، وهو الإنس - وغير نظير لك وهو الجن).

وهذه هي كل مصادر الشر التي من الممكن أن تعتري الإنسان، ولا يوجد إنسانٌ يتمنىٰ أن يصاب بأيِّ شرٍّ، فإذا عرف المرء أسباب الشر هذه، لا بد أن يتَّقيها، ويُحْكم أمره، ومن رحمة الله ﷻ أَنْ جعل لكلٍّ من هذه المصادر التي يتطرق الشَّرُّ من خلالها علاجًا قويًّا قاطعًا.

فأما النوع الأول، فعلاجه أن يبتعد الإنسان عن الذنوب والمعاصي، فإن زلَّت قدمه، ووقع في محظورٍ، بادر بالتوبة لله ﷻ، ومَن تاب، تاب الله عليه مهما عَظُمَ

ذنبه، وكبرت معصيته، وأمَّا الهوام والسباع وغيرها، فقد روىٰ الإمام مسلم وغيره عن خولة بنت حكيم السلمية أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إذا نزل أحدكم منزلًا، فليقل: أعوذ بكلمات الله التَّامَّات من شرِّ ما خَلق، فإنه لا يضره شيء حتىٰ يرتحل منه**»(١)، فمثلًا: إذا جلست في بيتك، أو في قارعة الطريق، أو دخلت أي مكانٍ، فقل: أعوذ بكلمات الله التامات من شرِّ ما خلق حتىٰ لا يصيبك أي أذًىٰ أو ضرٍّ حتىٰ تنصرف من مكانك هذا.

وأما المكلف الإنسي، فهو إما أن يؤذيك إيذاءً محسوسًا، أو معنويًّا، والشرور التي تأتيك منه ومن الجن سيأتي الكلام عنها.

ثم استدرك الإمام ابن القيِّم، وقسم الشر الموجود علىٰ وجه الأرض إلىٰ قسمين باعتبار الوجود والعدم:

إمَّا أن يكون معدومًا يرجىٰ بقاؤه علىٰ هذا العدم؛ كأن تكون أنت وأخوك ليس بينكما عداوة ولا بغضاء، فنحن نتمنىٰ أن نبقىٰ علىٰ هذا، أو يكون موجودًا يرجىٰ زواله.

وكذلك الخير قسمه إلىٰ قسمين: خير موجود نتمنىٰ بقاءه، وخير غير موجودٍ نتمنىٰ تحصيله، فأقسام الخير عكس أقسام الشر.

وعلىٰ أساس هذه التقسيمات ابدأ في التصرف، فإذا أمعن المرء النظر في هذه التقسيمات، وتفكَّر فيها جيدًا، وجد أن سبيله يتضح، وسلوكه ينضبط، فتجنب أسباب الشرِّ يولد سعادة الإنسان في حياته قبل آخرته.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨)، باب في التعوذ من سوء القضاء، ودرك الشقاء، وغيره.

وينبغي علينا أن نتعلم مثل هذه الأمور، فمن الممكن أن يحسد الإنسان نفسه، فيظل طوال عمره في بلاءٍ بسبب ذلك وهو لا يشعر، وهذا يحدث كثيرًا، فترىٰ الرجل يشتكي أنه كان يقوم الليل، ثم انقطع مثلًا، فيغفل عن هذا الأمر، ويدور في حلقةٍ مفرغةٍ[١].



(١) واعلم أن أي انقطاع كهذا يكون سببه واحدًا من ثلاث: إمَّا أن يكون من الذنوب والمعاصي، أو أن يكون مللًا من النفس البشرية -والنفس لا تملُّ إلا إذا حملها صاحبها أكثر مما تتحمل- أو أن يكون المرء قد حسد نفسه.

الفصل العاشر

الأدلة الشرعية على وجود العين

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾ [يوسف: ٦٧].

قال الطبري(١): «يقول تعالىٰ ذِكْرُهُ: قال يعقوب لبنيه لمَّا أرادوا الخروج من عنده إلىٰ مصر ليمتاروا الطعام: يا بَني، لا تدخلوا مصر من طريقٍ واحدٍ، وادخلوا من أبوابٍ متفرقةٍ.

وذكر أنه قال ذلك لهم؛ لأنهم كانوا رجالًا لهم جمالٌ وهيئةٌ، فخاف عليهم العين إذا دخلوا جماعةً من طريقٍ واحدٍ، وهم ولد رجلٍ واحدٍ، فأمَرهم أن يفترقوا في الدخول إليها». انتهىٰ.

أمَرنا الله عَزَّوَجَلَّ في سورةٍ من القرآن أن نلجأ إليه، ونستعيذ به من الحسد والعين، فقال عزَّ من قائلٍ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٥﴾ [الفلق: ١-٥].

روىٰ البخاري ومسلم في «صحيحيهما»، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**العينُ حقٌّ**»، ونهىٰ عن الوشم(٢).

---

(١) «تفسير الطبري» (١٦/ ١٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٤٠)، ومسلم (٢١٨٧).

وفي رِوَايةٍ عند مسلمٍ[(١)] من حديث ابن عباس، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**العين حقٌّ، ولو كان شيءٌ سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا**».

قال النوويُّ[(٢)]: «قوله ﷺ: «**العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا**».

قال الإمام المازري: أخذ جماهير العلماء بظاهر هذا الحديث وقالوا: العين حق، وأنكره طوائف من المبتدعة، والدليل علىٰ فساد قولهم: أن كل معنًىٰ ليس مخالفًا في نفسه، ولا يؤدي إلىٰ قلب حقيقة، ولا إفساد دليل، فإنه من مجوزات العقول إذا أخبر الشرع بوقوعه وجب اعتقاده، ولا يجوز تكذيبه، وهل من فرق بين تكذيبهم بهذا وتكذيبهم بما يخبر به من أمور الآخرة، قال: وقد زعم بعض الطبائعيين من المثبتين للعين أنَّ العائن تنبعث من عينه قوة سمية تتَّصل بالعين، فيهلك أو يفسد، قالوا: ولا يمتنع هذا، كما لا يمتنع انبعاث قوة سمية من الأفعىٰ والعقرب تتصل باللديغ فيهلك، وإن كان غير محسوسٍ لنا، فكذا العين.

قال المازري: وهذا غير مُسلَّمٍ؛ لأنَّا بيَّنَّا في كتب علم الكلام أن لا فاعل إلا الله تعالىٰ، أي: علىٰ الحقيقة، وإن كان الفعل ينسب إلىٰ العبد فعلًا وكسبًا، وبينَّا فساد القول بالطبائع، وبينَّا أن المحدث لا يفعل في غيره شيئًا، وإذا تقرَّر هذا بطل ما قالوه، ثمَّ نقول: هذا المنبعث من العين إما جوهر، وإما عرض، فباطل أن يكون عرضًا؛ لأنه لا يقبل الانتقال، وباطل أن يكون جوهرًا؛ لأن الجواهر متجانسة، فليس بعضها بأن يكون مفسدًا لبعضها بأَوْلىٰ من عكسه، فبطل ما قالوه.

---

(١) (٢١٨٨).

(٢) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٤/ ١٧١).

قال: وأقرب طريقةٍ قالها مَن ينتحل الإسلام منهم أن قالوا: لا يبعد أن تنبعث جواهر لطيفة غير مرئية من العين، فتتصل بالمعين، وتتخلل مسامَّ جسمه، فيخلق الله ﷻ الهلاك عندها، كما يخلق الهلاك عند شرب السم عادةً أجراها الله تعالىٰ، وليست ضرورة ولا طبيعة ألجأ العقل إليها.

ومذهب أهل السنة: أن العين إنما تفسد وتهلك عند نظر العائن بفعل الله تعالىٰ، أجرىٰ الله ﷻ العادة أن يخلق الضرر عند مقابلة هذا الشخص لشخصٍ آخر، وهل ثَمَّ جواهر خفية أم لا، هذا من مجوزات العقول لا يقطع فيه بواحدٍ من الأمرين، وإنما يقطع بنفي الفعل عنها، وبإضافته إلىٰ الله تعالىٰ، فمن قطع من أطباء الإسلام بانبعاث الجواهر، فقد أخطأ في قطعه، وإنَّما هو من الجائزات». انتهىٰ.

قال الحافظ[(١)]: «قوله: (أي: البخاري): باب العين حق، أي: الإصابة بالعين شيء ثابت موجود، أو هو من جملة ما تحقق كونه.

قوله ﷺ: «**العين حق**»، ونهىٰ عن الوشم.

«الوشم»: هو أن يغرز إبرةً أو نحوها في موضعٍ من البدن حتىٰ يسيل الدم، ثم يحشىٰ ذلك الموضع بالكحل، أو نحوه، فيخضر.

ما وجه المناسبة بين قوله ﷺ: «**العين حق**»، ونهيه عن الوشم؟

قال الحافظ: «وجه المناسبة أن من جملة الباعث علىٰ عمل الوشم تغير صفة الموشوم؛ لئلَّا تصيبه العين، فنهىٰ عن الوشم مع إثبات العين، وأن التحيل بالوشم وغيره مما لا يستند إلىٰ تعليم الشارع لا يفيد شيئًا، وأن الذي قدره الله سيقع.

---

(١) «فتح الباري» (١٠/ ٢٠٣).

قوله ﷺ: «**ولو كان شيءٌ سابق القدر، سبقته العين**»، فيه إثبات القدر، وهو حقٌّ بالنصوص وإجماع أهل السنة، ومعناه: أن الأشياء كلها بقَدَر الله تعالىٰ، ولا تقع إلا علىٰ حسَب ما قدَّرها الله تعالىٰ، وسبق بها علمه، فلا يقع ضرر العين ولا غيره من الخير والشر إلا بقدر الله تعالىٰ، وفيه صحة أمر العين، وأنها قوية الضرر، والله أعلم».

قال بدر الدين العيني[(١)] **(ت ٨٥٥)**: «قوله ﷺ: «**ولَو كان شيءٌ يسبق القَدَر لسبقته العين**»، دليلٌ علىٰ أن المرء لا يصيبه إلا ما قدر له، وأن العين لا تسبق القدر، ولكنها من القدر».

قال القاري في «المرقاة»[(٢)]: «قوله ﷺ: «**فلو كان شيء سابق القدر سبقته العين**»، المعنىٰ: لو أمكن أن يسبق القدر شيء، فيؤثر في إفناء شيء وزواله قبل أوانه المقدر له، سبقت العين القدر، وحاصله: أَنْ لا هلاك ولا ضرر بغير القضاء والقدر، ففيه مبالغة لكونها سببًا في شدة ضررها، ومذهب أهل السنة أن العين يفسد ويهلك عند نظر العائن بفعل الله تعالىٰ، أجرىٰ العادة أن يخلق الضرر عند مقابلة هذا الشخص بشخصٍ آخر».

قال الطيبي: المعنىٰ: أن فرض شيء له قوة وتأثير عظيم سبق القدر لكان عينًا. والعين لا يسبق، فكيف لغيرها؟ ففيه تنبيهٌ علىٰ سرعة نفوذها وتأثيرها في الذوات. انتهىٰ.

ومعنىٰ قوله: «**العين حق**»، أي أنَّ تأثيرها حقٌّ لا ينكره إلا مكابر.

---

(١) «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» (٢١/ ٢٦٦).

(٢) (٧/ ٢٨٧٠).

روىٰ أبو نعيم في «الحلية»[(١)] من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «**العين تُدْخل الرجل القبر، والجَمَل القدر**»، أي: يموت الرجل فيدخل القبر، ويذبح الجمل فيطهىٰ في القدر.

قال ابن القيِّم[(٢)]: «وقال الكلبي: كان رجلٌ من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل، ثم يرفع جانب خبائه، فتمرُّ به الإبل، فيقول: لم أرَ كاليوم إبلًا ولا غنمًا أحسن من هذه، فما تذهب إلا قليلًا حتىٰ يسقط منها طائفة». انتهىٰ.

وروىٰ أبو داود الطيالسي في «مسنده»[(٣)] بسند صحيح من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ قال: «**جلُّ مَن يموت من أمتي بعد قضاء الله وكتابه وقدره بالأنفس**»، يعني: بالعين.

العين من قضاء الله وقدره:

ينبغي هنا أن نُنبِّه علىٰ أنَّ هذا الحديث لا يعني أن هذا المحسود الذي مات بالعين لو لم تكن العين ما مات، وهذه زلةٌ يقع فيها الكثيرون، ويجب الانتباه إليها، فالقدر والسبب لا يفصل بينهما؛ لأن السبب -الذي هو العين- جزء من القدر، فمثلًا: لو أن رجلًا خرج في وقتٍ لا يعتاد الخروج فيه، وقدَّر الله عَزَّوَجَلَّ أن أصيب بحادثٍ ومات، فكثيرٌ من الناس يقولون حينئذٍ: لو ما خرج ما مات، وهذا خطأ فادح، والصواب أن نقول: كان لزامًا أن يخرج ليحدث هذا، وكان من المحال ألَّا يخرج هذا الرجل هذا اليوم؛ لأن قدر الله عَزَّوَجَلَّ لا بد أن يكون، وعلمنا أن هذا الحادث من

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٩٠)، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٢٤٧).

(٢) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٣١).

(٣) (١٨٦٨).

قدر الله ﷻ بعد وقوعه؛ إذ لا يحدث شيءٌ في الكون إلا هو من قَدَر الله ﷻ، فإذا رأىٰ عائن أو حاسد رجلًا بقدر الله، فحسده فمات، فالصحيح أن نقول: كان لزامًا أن ينظر إليه العائن ويحسده حتىٰ يموت، ويقع قدر الله، ولا يعني ذلك أن القدرَ عذرٌ لأهل المعاصي، فالقاعدة عند أهل السنة والجماعة أن القدر يحتج به في المصائب، ولا يحتج به في المعائب.

قال الرازيُّ في «التفسير»[(١)]: «الإنسانُ مأمورٌ بأن يراعي الأسباب المعتبرة في هذا العالم، ومأمور أيضًا بأن يعتقد ويجزم بأنه لا يصل إليه إلا ما قدره الله تعالىٰ، وأن الحذر لا ينجي من القدر، فإنَّ الإنسانَ مأمورٌ بأن يحذر عن الأشياء المهلكة، والأغذية الضارَّة، ويسعىٰ في تحصيل المنافع، ودفع المضار بقَدر الإمكان، ثم إنه مع ذلك ينبغي أن يكون جازمًا بأنه لا يصل إليه إلَّا ما قدره الله، ولا يحصل في الوجود إلَّا ما أراده الله، فقوله ﷺ: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾، فهو إشارة إلىٰ رعاية الأسباب المعتبرة في هذا العالم». انتهىٰ.

فائدة مهمة:

ذكر ابن كثيرٍ في «التفسير»[(٢)] بسنده إلىٰ ابن عباس قال: «كان الهدهد مهندسًا، يدل سليمان ﷺ علىٰ الماء، إذا كان بأرضٍ فلاةٍ طلبه، فنظر له الماء في تُخُوم الأرض، كما يرىٰ الإنسان الشيء الظاهر علىٰ وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بُعده من وجه الأرض، فإذا دلَّهم عليه، أمر سليمان ﷺ الجان، فحفروا له ذلك المكان حتىٰ يستنبط الماء من قراره، فنزل سليمان ﷺ يومًا بفلاةٍ من الأرض، فتفقد الطير ليرىٰ الهدهد، فلم يره، ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠﴾».

---

(١) «تفسير الرازي» (١٨/ ٤٨٣).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٦٦).

فحدَّث يومًا عبد الله بن عباس بنحو هذا، وفي القوم رجل من الخوارج يقال له: نافع بن الأزرق، وكان كثير الاعتراض علىٰ ابن عباس، فقال له: قف يا ابن عباس، غلبت اليوم! قال: وَلِمَ؟ قال: إنَّك تُخبر عن الهدهد أنه يرىٰ الماء في تُخُوم الأرض، وإنَّ الصبي لَيضع له الحبة في الفخ، ويحثو علىٰ الفخ ترابًا، فيجيء الهدهد ليأخذها، فيقع في الفخ، فيصيده الصبي، فقال ابن عباس: لولا أن يذهب هذا فيقول: رددت علىٰ ابن عباس لما أجبته، فقال له: ويحك! إنه إذا نزل القدر عمي البصر، وذهب الحذر، فقال له نافع: والله، لا أُجادلك في شيءٍ من القرآن». انتهىٰ.

وروىٰ البخاري ومسلم[(١)] من حديث أُمِّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ رأىٰ في بيتها جاريةً -أي: أَمَةً- في وجهها سفعة[(٢)]، فقال: «**استرقوا لها، فإن بها النظرة**».

قوله ﷺ: «**استرقوا لها**»، أي: ارقوها، وهو دالٌّ علىٰ مشروعية الرقية من العين.

ورَوىٰ مسلمٌ عن جابر بن عبدالله أن النَّبيَّ ﷺ رخص لآل حزمٍ في رقية الحية، وقال لأسماء بنت عميس: «**ما لي أرىٰ أجسام بني أخي ضارعة تصيبهم الحاجة**». قالت: لا، ولكن العين تُسْرع إليهم. قال: «**ارقيهم**». قالت: فعرضت عليه، فقال: «**ارقيهم**».

قال النووي: «قوله ﷺ: «**ما لي أرىٰ أجسام بني أخي ضارعة**»، أي: نحيفة، والمراد: أولاد جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٣٩)، ومسلم (٢١٩٧).

(٢) و«**السفعة**»: هي تغير لون جزء من الجلد عن بقيته، ومن ذلك حديث جابر بن عبد الله الذي قال فيه: فقامت امرأةٌ من سِطَة (وسط) النساء سفعاء الخدين -أي: يختلف لون خدَّيها عن بقية بشرة جلدها. قال الحافظ: سواد في الوجه، ومنه سفعة الفرس: سواد ناصيته. وعن الأصمعي: حمرة يعلوها سواد. وقيل: صفرة. وقيل: سواد مع لونٍ آخر. وقال ابن قتيبة: لون يخالف لون الوجه، وكلها متقاربة، وحاصلها أن بوجهها موضعًا علىٰ غير لونه الأصلي.

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٤/ ١٨٥).

والعمدة في هذه المسألة: القصة المشهورة التي حدثت في حضرة النبي ﷺ بين الصحابيين الجليلين؛ عامر بن ربيعة، وسهل بن حنيف، وسيأتي الكلام عنها إن شاء الله تعالىٰ.

كيفيَّة حدوث الحسد:

قيَّض الله ﷻ لهذه الأمة من أهل العلم من وضَّح المشكل من الأمور، وإذا أردنا أن نتكلم عن كيفية تأثير الحسد في المحسود، فالعمدة في هذا الباب الحديث الذي مرَّ معنا: «**العين حق، ويحضرها الشيطان وحسد ابن آدم**»، ومعنىٰ الحديث كما ذكَرنا أن كل إنسانٍ حوله من شياطين الجن مَن يَتربَّصون للإيقاع به في هذه المخالفة.

يقول ابن القيِّم[(١)]: «ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها علىٰ الرؤية، بل قد يكون أعمىٰ، فيوصف له الشيء، فتؤثر نفسه فيه وإن لم يره، وكثيرٌ من العائنين يؤثر في المعين بالوصف من غير رؤيةٍ». انتهىٰ من «الطب النبوي».

تفسير ابن حجر للعين:

قال الحافظ ابن حجر[(٢)]: «وقد أشكل ذلك علىٰ بعض الناس، فقال: كيف تعمل العين من بُعد حتىٰ يحصل الضرر للمعيون؟».

ثم قال: «وكثيرٌ من الناس يسقم بمجرد النظر إليه، وتضعف قواه، وكلُّ ذلك بواسطة ما خَلق الله تعالىٰ في الأرواح -التي هي في الحديث: «**ويحضرها الشيطان**» - من التأثيرات، ولشدة ارتباطها بالعين نسب الفعل إلىٰ العين، وليست هي المؤثرة، وإنما التأثير للروح». انتهىٰ.

---

(١) «الطب النبوي» (١/ ١٢٣).

(٢) «فتح الباري» (١٠/ ٢٠١).

إذًا، فتفسير ابن حجر أن الأرواح الشيطانية هي المؤثرة علىٰ الحقيقة، فالذي يخرج من العين هو الوصف -وهو سم اللسان- ثم يتلقف الشيطان المتربص هذا الوصف الذي لم يذكر اسم الله عليه، ويؤثر في بدن المحسود بإذن الله إن لم يكن متحصنًا بالذكر الشرعي، ودليل ذلك أن الأعمىٰ قد يصيب غيره بالعين.

تفسير ابن القيِّم للعين:

اتفق ابن القيِّم مع ابن حجر في هذا التفسير، واتفاقهما يجعل هذا الكلام مقبولًا، ولكن لا ينفي غيره من التفسيرات، فليس معنىٰ ذلك الاتفاق أن غيره مرفوضٌ، فإنما هم اجتهدوا أن يأتوا بتفسيرٍ للحسد من خلال النصوص الشرعية[(١)].

يقول ابن القيِّم[(٢)]: «ولا يمكن لعاقلٍ إنكار تأثير الأرواح في الأجسام -أي: الأرواح الخبيثة الخارجية، وروح المرء أيضًا علىٰ صاحبها- فإنَّه أمرٌ مشاهدٌ محسوسٌ، وأنت ترىٰ الوجه كيف يحمرُّ حمرةً شديدةً إذا نظر إليه مَن يحتشمه، ويستحي منه، ويصفرُّ صفرةً شديدةً عند نظر مَن يخافه إليه، وقد شاهد الناس مَن يسقم من النظر، وتضعف قواه، وهذا كله بواسطة تأثير الأرواح، ولشدة ارتباطها بالعين ينسب الفعل إليها، وليست هي الفاعلة، وإنما التأثير للروح، والأرواح مختلفة في طبائعها وقواها وكيفياتها وخواصها، فروح الحاسد مؤذية للمحسود أذًىٰ بَيِّنًا

---

(١) مع مراعاة أن فَهْم السلف مقدم علىٰ فهم غيرهم، وكذلك إن أجمع المتقدمون في تفسير آية -مثلًا- علىٰ قولين، أو ثلاثة، فلا يجوز للمتأخرين -مثل ابن تيمية وابن رجب- أن يأتوا بقولٍ جديدٍ محدثٍ إلا أن يكون تفسيرًا يحتمله النص مع اعتراف القائل به أنه ليس المراد من النص جزمًا، فيقول: اللفظ الذي في الآية يحتمل نوعًا آخر من التفسير، طبقًا لقواعد اللغة العربية، ومقاصد الشريعة، وهو مع ذلك يحتمل غيره، ولا يقتصر علىٰ تفسيره هو، فيكون بذلك قد أضاف تفسيرًا آخر دون أن يهدم الأقوال الأخرىٰ.

(٢) «زاد المعاد» (٤/ ١٥٣).

-والأدلة الشرعية متضافرة علىٰ ذلك- ولهذا أمَر الله سبحانه رسوله أن يستعيذ به من شره -أي: شر الحاسد، كما في سورة الفلق».

وهذا الكلام مشابهٌ جدًّا لكلام ابن حجر، ولكنه استدل بحديثٍ آخر إضافيٍّ، وهو ما رواه البخاري في كتاب بدء الخلق -ورواه مسلم[(١)] - عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يخطب علىٰ المنبر يقول: «**اقتلوا الحيَّات، واقتلوا ذا الطفيتين والأبتر؛ فإنهما يطمسان البصر، ويستسقطان الحبل**».

وفي روايةٍ عند مسلم عن النبي ﷺ: «**اقتلوا الحيَّات، وذا الطفيتين والأبتر؛ فإنهما يستسقطان الحبل، ويلتمسان البصر**».

فأمَّا الحيات فمعلومة، وأما ذو الطفيتين فهو جنسٌ من الحيات علىٰ ظهره خطان أبيضان، والأبتر قيل إنه الحية قصيرة الذَّنَب، أو مقطوعة الذَّنَب، وهما كما قال النبي ﷺ: «**يطمسان البصر**»، أي: إذا دقَّق المرء النظر فيه، ودقق هو النظر في المرء من الممكن أن يأخذ عينيه.

«**ويستسقطان الحبل**»، **قال النووي**[(٢)]: «معناه أن المرأة الحامل إذا نظرت إليهما وخافت، أسقطت الحمل غالبًا، وقد ذكر مسلم في روايته عن الزهري أنه قال: يرىٰ ذلك من سمهما، وأما «يلتمسان البصر» ففيه تأويلان ذكرهما الخطابي وآخرون:

أحدهما: معناه: يخطفان البصر ويطمسانه بمجرد نظرهما إليه لخاصة جعلها الله تعالىٰ في بصريهما إذا وقع علىٰ بصر الإنسان، ويؤيد هذا الرواية الأخرىٰ في مسلمٍ: «**يخطفان البصر**»، والرواية الأخرىٰ: «**يلتمعان البصر**».

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٩٧)، ومسلم (٢٢٣٣).

(٢) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٤/ ٢٣٠).

والثاني: أنهما يقصدان البصر باللسع والنهش، والأول أصح وأشهر، فدل علىٰ تأثير هذه الأنواع من الحيات علىٰ جسد الإنسان، وهذا خبَر من النبي ﷺ يجب علينا تصديقه». انتهىٰ.

ولذلك، قال ابن القيِّم أيضًا -وهذا تفسيرٌ زائدٌ علىٰ تفسير ابن حجر: «فقالت طائفةٌ: إن العائن إذا تكيَّفت نفسه بالكيفية الرديئة، انبعث من عينه قوة سمية تتصل بالمعين -أي: المحسود- فيتضرَّر، قالوا: ولا يستنكر هذا، كما لا يستنكر انبعاث قوة سمية من الأفعىٰ تتصل بالإنسان فيهلك».

التوفيق بين حديث: «اقتلوا الحيات»، وحديث العوامر:

روىٰ مسلم[(١)] من حديث أبي سعيدٍ قال (أي: النبي ﷺ): «**إن بالمدينة جنًّا قد أسلموا، فإذا رأيتم منهم شيئًا فآذنوه ثلاثة أيام، فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه، فإنما هو شيطان**».

والتوفيق بين هذا الحديث وحديث: «**اقتلوا الحيَّات**»، كما ذكر العلماء أن الإنسان إن وجد في بيته حيةً، أو ثعبانًا غير ذي الطفيتين والأبتر، لا يقترب منه لعله جانٌّ فيؤذيه، ولكن يؤذنه ثلاثًا بأن يقف فيقول له: اخرج، اخرج، اخرج، فإن وجده يسعىٰ للخروج لا يقتله، وإن وجده يختبئ ولا يستجيب، اتبعه وقتله.

وأما النوعان المذكوران في الحديث، فيقتلهما بلا ترددٍ.

رواية حديث أبي سعيدٍ المتقدمة مطولة:

وروىٰ مسلم[(٢)] من حديث أبي السائب مولىٰ هشام بن زهرة أنه دخل علىٰ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٦)، باب قتل الحيات وغيرها.

(٢) «صحيح مسلم» (٢٢٣٦).

أبي سعيد الخدري في بيته، قال: فوجدته يصلي، قال: فجلست أنتظره حتىٰ يقضي صلاته، فسمعت تحريكًا في عراجين في ناحية البيت، فالتفتُّ، فإذا حيةٌ، فوثبت لأقتلها، فأشار إليَّ أن اجلس فجلستُ، فلما انصرف أشار إلىٰ بيتٍ في الدار، فقال: أترىٰ هذا البيت؟ فقلت: نعم. قال: كان فيه فتًىٰ منَّا حديث عهدٍ بعرسٍ، قال: فخرجنا مع رسول الله ﷺ إلىٰ الخندق، فكان ذلك الفتىٰ يستأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار، فيرجع إلىٰ أهله، فاستأذنه يومًا، فقال له رسول الله ﷺ: «**خذ عليك سلاحك؛ فإنِّي أخشىٰ عليك قريظة**»، فأخذ الرجل سلاحه، ثم رجع، فإذا امرأته بين البابين قائمة، فأهوىٰ إليها الرمح ليطعنها به، وأصابته غيرة، فقالت له: اكفف عليك رمحك، وادخل البيت حتىٰ تنظر ما الذي أخرجني، فدخل، فإذا بحيةٍ عظيمةٍ منطويةٍ علىٰ الفراش، فأهوىٰ إليها بالرمح فانتظمها به، ثم خرج فركزه في الدار، فاضطربت عليه، فما يدرىٰ أيهما كان أسرع موتًا: الحية أم الفتىٰ.

قال: فجئنا إلىٰ رسول الله ﷺ، فذكرنا ذلك له، وقلنا: ادع الله يحييه لنا، فقال: «**استغفروا لصاحبكم**»، ثم قال: «**إنَّ بالمدينة جنًّا قد أسلموا، فإذا رأيتم منهم شيئًا، فآذنوه ثلاثة أيام، فإن بدا لكم بعد ذلك، فاقتلوه، فإنما هو شيطان**».

وفي رِوَايةٍ عند مسلمٍ[(١)] أيضًا: قال ﷺ: «**إنَّ لهذه البيوت عوامر، فإذا رأيتم شيئًا منها، فحرجوا عليها ثلاثًا، فإن ذهب وإلا فاقتلوه، فإنه كافرٌ**».

قال الحافظ في «الفتح»[(٢)]: «واختلف في المراد بالثلاث، فقيل: ثلاث مرات. وقيل: ثلاثة أيام. ومعنىٰ قوله: «**حرجوا عليهن**»، أن يقال لهن: أنتن في ضيقٍ وحرجٍ

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٢٣٦).

(٢) «فتح الباري» (٦/ ٣٤٩).

إن لبثت عندنا، أو ظهرت لنا، أو عدت إلينا». انتهىٰ.

رَوىٰ أبو داود[١] بسَنَدٍ فيه ضعفٌ عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، عن أبيه أَنَّ رسول الله ﷺ سُئِلَ عن حيَّات البيوت، فقال: «**إذا رأيتم منهن شيئًا في مساكنكم، فقولوا: أنشدكنَّ العهد الذي أخذ عليكنَّ نوح، أنشدكن العهد الذي أخذ عليكن سليمان، ألَّا تؤذونا، فإن عدن فاقتلوهن**».

قال العراقي[٢]: «للنهي عن قَتْل ذوات البيوت شرطان:

أحدهما: أن يكون ذلك قبل الإنذار.

الثاني: ألَّا يكون ذا طفيتين ولا أبتر، فما كان بهذه الصفة يقتل ولو كان من ذوات البيوت بغير إنذارٍ.

وجود الأسباب غير الحسية في حياتنا:

لا ينبغي علىٰ المسلم أن يستقل شيئًا من الشريعة، أو أن يكون في شكٍّ منها، ولذلك نذكر مثالًا لمثل هذه الأسباب غير الحسية حتىٰ يتيقن المسلم أن هذه الأسباب موجودة في حياتنا، وتؤثر فينا، وأن عدم رؤية الشيء لا تدلُّ علىٰ عدم ثبوته:

قصة طلب عليٍّ وفاطمة خادمًا من النبي ﷺ:

في «الصحيحين»[٣] من حديث علي بن أبي طالب أن فاطمة عليها السلام أتت النبي ﷺ تشكو إليه ما تلقىٰ في يدها من الرحىٰ، وبلغها أنه جاءه رقيقٌ، فلم تصادفه، فذكرت ذلك لعائشة، فلمَّا جاء أخبرته عائشة، قال: فجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا،

---

(١) (٥٢٦٠).

(٢) «طرح التثريب في شرح التقريب» (٨/ ١٣١).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٣٦١) ومسلم (٢٧٢٧).

فذهبنا نقوم، فقال: «**علىٰ مكانكما**»، فجاء فقعد بيني وبينها حتىٰ وجدتُ برد قدميه علىٰ بطني، فقال: «**ألا أدلُّكما علىٰ خيرٍ مما سألتما؟ إذا أخذتما مضاجعكما** -أو: أويتما إلىٰ فراشكما- **فسبِّحا ثلاثًا وثلاثين، واحمدا ثلاثًا وثلاثين، وكبِّرا أربعًا وثلاثين، فهو خيرٌ لكما من خادمٍ**».

قال الحافظ(١): «ويستفاد من قوله ﷺ: «**ألا أدلُّكما علىٰ خيرٍ مما سألتما**»: أن الذي يلازم ذِكر الله، يعطىٰ قوة أعظم من القوة التي يعملها له الخادم، أو تسهل الأمور عليه بحيث يكون تعاطيه أموره أسهل من تعاطي الخادم لها.

وفيه أيضًا: أنَّ مَن واظب علىٰ هذا الذِّكر عند النوم لم يصبه إعياءٌ؛ لأن فاطمة شكت التعب من العمل، فأحالها ﷺ علىٰ ذلك، ويحتمل أن يكون مَن واظب عليه لا يتضرَّر بكثرة العمل، ولا يشق عليه ولو حصل له التعب، والله أعلم». انتهىٰ.

وفي روايةٍ عند مسلمٍ(٢): قال علي بن أبي طالب: ما تركته منذ سمعته من النبي ﷺ. قيل له: ولا ليلة صفين؟ قال: ولا ليلة صفين.

قال النووي(٣): «معناه: لم يمنعني منهن ذلك الأمر والشغل الذي كنت فيه، وليلة صفين هي ليلة الحرب المعروفة بصفين، وهي موضع بقرب الفرات كانت فيه حرب عظيمة بينه وبين أهل الشام». انتهىٰ. انظر -تفضلًا- كتابنا «هداية ذوي العقول».

ويحكي شيخ الإسلام ابن القيِّم عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية -عليهما رحمة الله- فيقول: «وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلىٰ الفجر، ثم جلس

---

(١) «فتح الباري» (٩/ ٥٠٦).

(٢) (٢٧٢٧).

(٣) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٧/ ٤٦).

يذكر الله تعالىٰ إلىٰ قريبٍ من انتصاف النهار، ثم التفت إليَّ، وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي»[(١)]، أو كلامًا قريبًا من هذا.

وفي ترجمة عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قتل عن خمسٍ وتسعين عامًا في موقعة صفين، وكان في الصف مع علي بن أبي طالب نحيل البدن، رفيع الجسم، قد لفَّ وسطه بحبل ليف، ومعه سيفه وحربته ودرعه، هذا كله وهو ابن خمسٍ وتسعين عامًا.

ولا ننكر لذلك مسألة الطعام والأسباب الحسية المادية، ولكن هناك ما هو أهمُّ منها.

قصة في ذكر تأثير الأرواح علىٰ الأجساد[(٢)]:

هناك قصة مفيدة لها دلالات عجيبة، وتشهد لها أدلة شرعية كثيرة، وفيها ذكرٌ لعلاقة الأرواح بعضها ببعضٍ، وليس فيها أي تعارضٍ مع أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ذكرها الإمام أحمد بن حنبل في كتاب «فضائل الصحابة»[(٣)]، وفيها أمرٌ يقف العقل أمامه لا يتكلم، ولكنه ليس بغريبٍ، ولا عجيبٍ، وهي صحيحة من ناحية السند.

---

(١) «الوابل الصيب» (١/ ٤٢).

(٢) ومثل هذه القصص قد ينظر إليها البعض نظرةً خاطئةً ينبغي أن يعدلها؛ إذ يراها مجرد قصص لا تنفع شيئًا، ولكن الصحيح أن نذكر الواقعة، فإن لم يشهد لها الشرع، وتؤيدها الأدلة، فهي مردودةٌ، وإن لم يكن سندها صحيحًا، فهي مردودة أيضًا، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣]، فحاول بقدر استطاعتك ألَّا تمرر الأحداث التي تحدث أمامك، وتراها بعينك، وتسمعها بأذنيك دون أن تحفظها، وتأخذ منها العبرة والعظة، فسوف تحتاج إليها فيما بعد، وبالطبع ليس معنىٰ هذا أن تتحسس وتتجسس، أو تقصد معرفة شئون الناس، ففي الحديث الذي مر معنا: «**مِنْ حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»، ولكن إذا فرضت عليك واقعة، استفد منها، واحفظها.

(٣) (٣٩٤).

قال معاذ بن المثنىٰ عن الحسين بن الأسود قال: حدَّثني أبو بكر محمَّد بن المغيرة قال: حدَّثني محمَّد بن علي السمان أنه قال: سمعتُ رضوان السمان يقول: كان لي جارٌ في منزلي وسوقي، وكان يشتم أبا بكرٍ وعمر -أي: كان رافضيًّا خبيثًا ملعونًا من أهل النار إن مات علىٰ ذلك.

قال: حتىٰ كثر الكلام بيني وبينه، حتىٰ إذا كان ذات يوم شتمهما وأنا حاضر، فوقع بيني وبينه كلام كثير حتىٰ تناولني وتناولته -أي: استبَّا- قال: فانصرفت إلىٰ منزلي وأنا مغمومٌ حزينٌ ألوم نفسي[1]، قال: فنمت وتركت العشاء من الغم.

قال: فرأيت رسول الله ﷺ في منامي من ليلتي -وهذه بالطبع مَنقبةٌ- فقلت له: يا رسول الله، فلان جاري في منزلي، وفي سوقي، وهو يسبُّ أصحابك، فقال: «**من أصحابي؟**»، فقلت: أبو بكرٍ وعمر، فقال رسول الله ﷺ: «**خذ هذه المدية** -أي: السكين- **فاذبحه بها**».

قال: فأخذته فأضجعته فذبحته، قال: فرأيت كأن يدي قد أصابها من دمه، فألقيت المدية، وضربت بيدي إلىٰ الأرض فمسحتها بالأرض، فانتبهت وأنا أسمع الصراخ من نحو الدار، فقلت للخادم: انظر ما هذا الصراخ؟ فقال: فلان مات فجأةً، فلما أصبحنا نظرنا إلىٰ حلقه، فإذا فيه خط موضع الذبح، والله علىٰ كل شيءٍ قدير، وبكل شيء عليم، وفعال لما يريد.

---

(١) واعلم أنه من سمع سبَّ الصحابة وسب الدين، ثم لم يغتمَّ، فعليه أن يعيد النظر في إيمانه، لذلك: من الكلام الماتع لسفيان بن عيينة -عليه رحمة الله- أنه قال: «إن كنت لأرىٰ المنكر، فلا أستطيع أن أُغيِّره، فيفرىٰ كبدي، وأبول دمًا»، وهذا أمر عجيب.

الفصل الحادي عشر

علاج العين والوقاية منها

ومن الوقاية من العين والاحتراز منها قبل وقوعها: ستر محاسن مَن يخاف عليه العين.

قال ابن القيِّم رحمه الله تعالىٰ[(١)]: «ومن علاج ذلك -أي: العين- أيضًا، والاحتراز منه: ستر محاسن مَن يخاف عليه العين بما يردُّها عنه، كما ذكر البغوي في كتاب «شرح السنة»: أن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رأىٰ صبيًّا مليحًا، فقال: «دسموا نونته؛ لئلَّا تصيبه العين»، ثم قال في تفسيره: ومعنىٰ: «دسموا نونته»، أي: سَوِّدوا نونته، والنونة: النقرة التي تكون في ذقن الصبي الصغير».

سئل الشيخ صالح آل الشيخ[(٢)]: جاء في بعض الكتب نقل معناه: أنَّ الإنسان إذا خاف علىٰ ولده، أو علىٰ نفسه العين، فإنه يضع علىٰ جبهته أو جبهة ولده نقطةً سوداء؛ لصرف العين ودفعها، فهل هذا الفعل جائزٌ؟

الجواب: اعتقادات الناس في دفع العين لا حصر لها، والجامع لذلك: أنَّ كل شيءٍ يفعله الناس ممَّا يعتقدونه سببًا، وليس هو بسببٍ شرعيٍّ ولا قَدريٍّ، فإنه لا يجوز اتخاذه، وهذا يختلف عما جاء عن عثمان -رضي الله تعالىٰ عنه- أنه رأىٰ غلامًا صغيرًا، حسن الصورة، وخاف عليه العين، فقال لأهله: «دسموا نونته»، ففعلوا؛ فهذا من باب إخفاء الحسن، ومحاولة تدميم الصورة، وليس التدسيم -وهو

---

(١) «الطب النبوي» (١/ ١٢٨).

(٢) «التمهيد لشرح كتاب التوحيد» (١/ ٦٢٢).

وَضْع نقطةٍ في بعض الوجه- الذي يُوضَع لأجل أن تدفع تلك النقطة العين، ولكن لأجل أن يظهر بمظهرٍ ليس بحسنٍ، فلا تتعلق النفوس الشريرة به.

فإذا كان وضع هذه النقطة -التي ذكرت- لأجل اعتقاد أنها تدفع العين، فهذا من اتخاذ الأسباب الشركية التي لا تجوز، وإن كان لأجل إظهار عدم الحسن في تلك الصورة الجميلة، أو ذلك الجسد المعافىٰ، أو نحو ذلك، فإن هذا لا بأس به، والله أعلم.

مداومة الدعاء بالبركة إذا رأيت ما يعجبك:

ففي الحديث الذي رواه الحاكم[(١)] من رواية عامر بن ربيعة: يقول النبي ﷺ: «**إذا رأىٰ أحدكم من نفسه، أو ماله، أو أخيه ما يعجبه، فليدع بالبركة، فإن العين حق**»، والمال إذا أطلق يقصد به كل ما ينتفع الآدمي به، ويدخل فيه الزوجة والولد والمتاع، فإذا كنت تدرس العلم مثلًا، فأعجبت بحفظك وتحصيلك، فلا بدَّ أن تتبع هذا بالهدي النبوي، فتقول: «بسم الله، تبارك الله»، أو: «بسم الله، ما شاء الله، لا قوة إلا بالله»، فكل هذه نصوص شرعية ثبتت عن خير البرية صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

وهذه النقطة من أساليب وقاية المرء من الوقوع في هذا المرض، لذلك هي أول طريقةٍ لعلاج المرض وأنفعها وأولاها[(٢)]، ولو أن الإنسان عوَّد نفسه علىٰ هذا الذِّكر، أصبح ديدنه، واعتاد عليه، وحتىٰ إن كان في النفس من الداخل شيءٌ من الشرور، فهذه الأذكار يجعلها الله سببًا في وقاية ما يقع فيه العبد من مخالفاتٍ، فنحن نحسن

---

(١) أخرجه الحاكم (٧٤٩٩)، وصححه ووافقه الذهبي في «التلخيص»، وأحمد (١٥٧٠٠)، والطبراني (٥٥٨١)، وَصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٥٧٢).

(٢) وكما هو معلوم ينقسم الطب بنوعيه المعنوي والمحسوس إلىٰ قسمين: «طب وقائي - طب غير وقائي»، والوقائي بشهادة كل أهل الأرض أفضل بكثيرٍ، وأَوْلَىٰ من غير الوقائي؛ لأنك به تمنع وقوع المرض أصلًا، ومن باب أَوْلَىٰ نمنع قلوبنا من المرض.

الظن بالكل، ونعلم أن العائن قد يكون من أصحاب النفس الطيبة، ونيته حسنة، ولكنه قد يتكلَّم في داخلة نفسه من غير تصريحٍ، ولا يذكر اسم الله، فيقع منه الحسد المحظور.

قال ابن القيِّم[(١)] **رحمه الله تعالىٰ**: «وإذا كان العائن يخشىٰ ضرر عينه وإصابتها للمعين، فليدفع شرها بقوله: «اللهم بارك عليه»، كما قال النبي ﷺ لعامر بن ربيعة لمَّا عان سهل بن حنيف: «**ألا برَّكت**»، أي: قلت: اللهم بارك عليه». انتهىٰ.

الحفاظ علىٰ الأذكار الشرعية في أوقاتها:

فهذه الأذكار مثل أذكار الصباح والمساء وأذكار النوم والأكل والشرب وإتيان الزوجة ونزع الملابس، هذه الأذكار كلها وغيرها شديدة الأهمية[(٢)]، وهي من الأشياء التي نهمل فيها، وينبغي أن نربي عليها أنفسنا، ومسألة الأذكار عمومًا عليك أن تعلم فيها أن النفس البشرية كما تعودها تعتاد، فإذا عوَّدتها علىٰ الأذكار -وإن وجدت في البداية مشقةً ومجاهدةً- اعتادت علىٰ ذلك في النهاية.

أن يغتسل الحاسد للمحسود:

والدليل علىٰ ذلك قصَّة عامر بن ربيعة مع سهل بن حنيف رضي الله عنهما، وستأتي بالتفصيل، وسيأتي ذكر كيفيَّة هذا الغسل، وأن المحسود يحتسي من هذا الماء، ويفرغ علىٰ رأسه منه، فيبرأ بإذن الله عزوجل.

---

(١) «الطب النبوي» (١/ ١٢٦).

(٢) فمثلًا: جاء في بعض الآثار أن العبد إذا أتىٰ أهله، ولم يذكر اسم الله عزوجل، كما علمنا النبي ﷺ، يأتي الشيطان أهله معه، قالوا: يضع إحليله مع إحليل الرجل، ولا شك أن أيَّ حرٍّ لا يقبل مثل هذا أبدًا، وعلاج ذلك في الأذكار.

علاج الحسد بالرقية الشرعية: وسيأتي الكلام عنها بالتفصيل إن شاء الله تعالىٰ.

قصة عامر بن ربيعة مع سهل بن حنيف:

روىٰ الإمام أحمد[١] عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أنَّ أباه حدثه أن رسول الله ﷺ خرج، وساروا معه نحو مكة، حتىٰ إذا كانوا بشعب الخزار من الجحفة، اغتسل سهل بن حنيف، وكان رجلًا أبيض، حسن الجسم والجلد، فنظر إليه عامر بن ربيعة أخو بني عدي بن كعب وهو يغتسل، فقال: ما رأيتُ كاليوم ولا جلد مخبأة، فلبط بسهلٍ، فأتي رسول الله ﷺ، فقيل له: يا رسول الله، هل لك في سهلٍ؟ والله ما يرفع رأسه، وما يُفيق. قال: «**هل تتَّهمون فيه من أحدٍ؟**». قالوا: نظر إليه عامر بن ربيعة، فدعا رسول الله ﷺ عامرًا، فتغيظ عليه، وقال: «**علامَ يقتل أحدكم أخاه؟ هلَّا إذا رأيت ما يعجبك بَرَّكت؟**»، ثم قال له: «**اغتسل له**»، فغسل وجهه، ويديه، ومرفقيه، وركبتيه، وأطراف رجليه، وداخلة إزاره في قدحٍ، ثم صب ذلك الماء عليه، يصبه رجلٌ علىٰ رأسه وظهره من خلفه، يكفئ القدح وراءه، ففعل به ذلك، فراح سهل مع الناس ليس به بأسٌ.

وروىٰ الطبراني[٢] في «الكبير» عن ابن شهاب، أخبرني أبو أمامة ابن سهل بن حنيف الأنصاري أن عامر بن ربيعة العدوي مرَّ علىٰ سهل وهو يغتسل في الخرار، فقال: والله، ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة، فلبط سهل، فأتي رسول الله ﷺ، فقيل: يا رسول الله، هل لك في سهل بن حنيف، والله، ما يرفع رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «**هل تتهمون به من أحدٍ؟**»، قالوا: نعم يا رسول الله، مرَّ عليه عامر بن ربيعة وهو

---

(١) «المسند» (١٥٩٨٠).

(٢) «المعجم الكبير» (٥٥٧٧).

يغتسل، فقال: والله، ما رأيت كاليوم قط ولا جلد مخبأة، فدعا رسول الله ﷺ عامر بن ربيعة، فتغيظ عليه وقال: «**علامَ يقتل أحدُكُم أخاه؟ إن لا تبرك اغسل له**»، فغسل له عامر، فراح سهل مع الركب.

قال ابن شهاب: «الغسل الذي أدركنا علماءنا يصنعون: أن يؤتىٰ بالرجل بالذي يعين صاحبه بالقدح فيه الماء، ويمسك له مرفوعًا من الأرض، فيدخل الذي يعين يده اليمنىٰ في الماء، فيصب علىٰ وجهه صبةً واحدةً في القدح، ثم يُدخل اليسرىٰ في الماء، فيغسل يده اليمنىٰ صبةً واحدةً في القدح، ثم يدخل يده اليمنىٰ، فيغسل يده اليسرىٰ صبةً واحدةً إلىٰ المرفقين، ثم يدخل يديه جميعًا في الماء، فيغسل صدره صبةً واحدةً في القدح، ثم يدخل يده اليسرىٰ فيغرف من الماء، فيصبه علىٰ ظهر كفه اليمنىٰ صبةً واحدةً في القدح، ثم يدخل يده اليسرىٰ، فيصب علىٰ مرفق يده اليمنىٰ صبةً واحدةً في القدح، وهو في يده إلىٰ عنقه، ثم يفعل مثل ذلك في مرفق يده اليسرىٰ، ثم يفعل مثل ذلك في ظهر قدمه اليمنىٰ من عند أصول الأصابع، واليسرىٰ كذلك، ثم يدخل يده اليسرىٰ، فيصب علىٰ ظهر ركبته اليمنىٰ، ثم يفعل باليسرىٰ مثل ذلك، ثم يغمس داخلة إزاره اليمنىٰ، ثم يقوم الذي في يده القدح بالقدح، فيصبه علىٰ ظهر ركبته اليمنىٰ، ثم يقوم الذي في يده القدح بالقدح، فيصبه علىٰ رأس المعيون من ورائه، ثم يكفئ القدح علىٰ وجه الأرض من ورائه».

وروىٰ الحاكم[(١)] بسند صحيح عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، أنه سمع أباه يقول: اغتسل أبي سهل بن حنيف، فنزع جبةً كانت عليه يوم حنين حين هزم الله العدو، وعامر بن ربيعة ينظر، قال: وكان سهل رجلًا أبيض حسن الخلق،

(١) «المستدرك» (٥٧٤٢).

فقال له عامر بن ربيعة: ما رأيت كاليوم قط، ونظر إليه فأعجبه حسنه حين طرح جبته، فقال: ولا جارية في سترها بأحسن جسدًا من جسد سهل بن حنيف، فوعك سهل مكانه، واشتد وعكه، فأتىٰ رسول الله ﷺ، فأخبره أن سهل بن حنيف وعك، وأنه غير رائحٍ معك، فأتاه رسول الله ﷺ، فأخبروه بالذي كان من شأن عامر، فقال رسول الله ﷺ: «**علام يقتل أحدكم أخاه، ألَّا بركت، إن العين حق، توضأ له**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**إذا رأىٰ أحدُكُم شيئًا يعجبه، فليُبرِّك، فإنَّ العين حقٌّ**».

قول عامر: «ولا جلد مخبأة»، المخبأة: الجارية التي في خدرها لم تتزوج بعد؛ لأن صيانتها أبلغ ممَّن قد تزوجت. «لبط به»، أي: صرع وسقط إلىٰ الأرض.

ما حدث من عامرٍ رضي الله عنه لا يقلل من شأنه:

أحيانًا عندما نتكلَّم عن فعلٍ لا يجوز، ثم نذكر أن صحابيًّا قد فعله، يتحرك في نفس بعض الناس شيءٌ تجاه هذا الصحابي، وهذه مشكلةٌ كبيرةٌ، ولذلك تكلَّم الإمام الذهبي -عليه رحمة الله- كلامًا طيبًا في هذا المقام يحسن أن نذكره.

قال الذهبي[(١)] تعليقًا علىٰ ما صدر من الصحابي مسطح بن أثاثة في شأن عائشة في حادثة الإفك رضي الله عن الصحابة أجمعين: «إياك يا جري أن تنظر إلىٰ مسطح بن أثاثة هذا البدري شذرًا لهفوةٍ بدت منه، فإنها قد غفرت، وهو من أهل الجنة، وإياك يا رافضي أن تلوح بقذف أُمِّ المؤمنين بعد نزول النص في براءتها، فتجب لك النار».

وفي هذه الواقعة ينبغي أن نتذكَّر تقسيم العلماء الحاسد إلىٰ قسمين؛ الأول: صاحب نفس شريرة خبيثة يكره الخير لأي أحدٍ، والآخر: صالح طيب يحب الخير

(١) «سير أعلام النبلاء» (١/ ١٨٨).

للجميع، ولكن في لحظة غفلةٍ ونسيانٍ ذكر شيئًا حسنًا رآه، ولم يذكر اسم الله ﷻ، فتلقفت الشياطين الحاضرة هذه الكلمات، وتبدأ تؤثر بالسلب علىٰ المحسود في الوقت الذي ليس في نية الحاسد شيء من هذا قطُّ، وفِعلُ عامر بن ربيعة من النوع الثاني، فليس كل من يحسد خبيثًا.

كيفيَّة اغتسال الحاسد للمحسود:

جاء في روايةٍ أن الحاسد يتوضأ للمحسود وضوءه للصلاة، ولكن الاغتسال هو الأرجح، فإذا اغتسل الحاسد من أجل المحسود لا بد له من كيفيةٍ معينةٍ في اغتساله، ونقتبس من فتوىٰ اللجنة الدائمة في بلاد الحجاز خطوات هذا الغسل كالآتي:

يأتي بإناءٍ مملوء بالماء، فيغسل فيه -أي: بداخل الإناء وليس خارجه- يديه.

يتمضمض ثلاث مراتٍ، ويمج الماء في الإناء مرةً أخرىٰ.

يغسل يديه إلىٰ المرفقين.

يضع رجله اليمنىٰ في الإناء، ويأخذ بيده اليسرىٰ ماءً فيغسل من أول ركبته إلىٰ أسفل رجله في الإناء أيضًا، وكذلك يفعل في رجله اليسرىٰ.

يغسل داخلةَ إزاره، ولأهل العلم في المقصود بداخلة الإزار ثلاثة أقوالٍ:

- أنها الجزء الملتصق من الإزار، أو التبان بالجسد -والتبان في أيامنا هذه هو الملابس الداخلية، ويكون ممسوكًا علىٰ الجسد بالتكة، أو ما يسمىٰ بالأستك- فيغسلها في الإناء، ويعصرها فيه.

- أن يأتي بالماء، فيمرره بيده علىٰ مكان داخلة الإزار من جسده ومغابنه، أي: بين فخذيه.

- أن يغسل الإزار كله في الإناء، ويعصره فيه.

ثمَّ بعد أن يغتسل بهذه الطريقة، يؤخذ هذا الماء، فيحسو منه المحسود منه ثلاث حسواتٍ، أي: يشرب منها ثلاث جرعاتٍ.

ثمَّ يقوم بعض الناس، فيأتي علىٰ المحسود من خلفه وهو جالسٌ، فيسكب عليه الماء.

فإن فعل ذلك، فسيبرأ المحسود بإذن الله تعالىٰ، ولا شكَّ أن هذا الفعل تعبديٌّ محضٌ عزيزٌ علينا أن نأتي له بتفسيرٍ.

قال الحافظ[(١)]: «قال المازري: هذا المعنىٰ مما لا يمكن تعليله ومعرفة وجهه من جهة العقل، فلا يرد لكونه لا يعقل معناه. وقال ابن العربي: إن توقف فيه متشرع قلنا له: قل: الله ورسوله أعلم، وقد عضدته التجربة، وصدقته المعاينة، أو متفلسف فالرد عليه أظهر؛ لأن عنده أن الأدوية تفعل بقواها، وقد تفعل بمعنًىٰ لا يدرك». انتهىٰ.

وقال ابن القيِّم: هذه الكيفيَّة لا ينتفع بها من أنكرها، ولا مَن سخر منها، ولا مَن شك فيها، أو فعلها مجربًا غير معتقد، وإذا كان في الطبيعة خواص لا يعرف الأطباء عللها، بل هي عندهم خارجة عن القياس، وإنما تفعل بالخاصية، فما الذي ينكره جهلتهم من الخواص الشرعية»[(٢)]. انتهىٰ.

قال النووي[(٣)]: «وهذا المعنىٰ لا يمكن تعليله، ومعرفة وجهه، وليس في قوة العقل الاطلاع علىٰ أسرار جميع المعلومات، فلا يدفع هذا بألَّا يعقد معناه». انتهىٰ.

هل نطبق العلاج بالغسل هذه الأيام؟

قول النَّبيِّ ﷺ الذي مرَّ معنا: «**وإذا استغسلتم فاغتسلوا**»، أي: إذا طلب منكم أن تغتسلوا لأجل شيءٍ صدر منكم حتىٰ ولو علىٰ سبيل الظن، فالواجب عليكم أن

---

(١) «فتح الباري» (١٠/ ٢٠٤).

(٢) الطب النبوي لابن القيم (ص١٢٧).

(٣) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٤/ ١٧٢).

تفعلوا، ولكن في الوقت الحاضر إذا طلب رجلٌ من أخيه هذا الفعل، سيُلَام -ولا شك- ولن يفقه الناس مراده، وسيترتب علىٰ ذلك مفسدة عظيمة؛ لأن موضوع الحسد حساسٌ، ويلزم عند التكلم فيه ذكاء وفطنة، ومراعاة للمصلحة والمفسدة.

لذلك، لنا أن نقصر تطبيق هذا الكلام بين مَن يعلمون هذا الأمر الشرعي، أو نُطبِّقه إذا حدث منَّا هذا الأذىٰ بِنِيَّةٍ طيبةٍ علىٰ غيرنا، أو علىٰ أنفسنا، أو أولادنا، أو أهلنا، أو أموالنا، فنفعل، كما أمَر النَّبيُّ ﷺ، ونُقدِّم الماء للمحسود، ونطلب منه أن يشرب منه ثلاث جرعات، ثم نصبه عليه حتىٰ وإن لم يعلم المحسود بالأمر، فإنك إن استطعت أن تأتي بهذا النوع من العلاج دون أي مشاكل، فالحمد لله، فإن لم تستطعه فمن رحمة الله أنه شرع لنا طرقًا كثيرةً لعلاج الحسد، بحيث إذا تعذرت طريقة، لجأنا إلىٰ أخرىٰ.

وهذا يدعونا إلىٰ ألَّا ننسىٰ ذِكر الله علىٰ كل شيءٍ نراه فيعجبنا حتىٰ لا يعكر ذلك علينا حياتنا، ويعطل مسيرنا علىٰ الطريق المنشود الذي نرجوه.

الرقية الشرعية:

النصوص الشرعية الواردة بمشروعية الرقية:

روىٰ الإمام مسلم[(١)] في «صحيحه»، عن أنسٍ، قال: «رخص رسول الله ﷺ في الرقية من العين، والحمة، والنملة»، والعين: هي الحسد كما ذكرنا. والحمة: هي كل حيوان يلدغ بسم كالثعبان والعقرب. والنملة: قروح تخرج في الجنب.

حديث أم سلمة الذي في «الصحيحين»، وحديث أسماء بنت عميس عند الإمام مسلم، وقد مرَّا.

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٩٦)، باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة.

في «سنن ابن ماجه»[(١)]، وعند الحاكم بسند صحيح من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «**عليكم بالشِّفاءين: العسل والقرآن**».

يقول ابن القيِّم في «زاد المعاد»[(٢)]: «قال الله تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، والصحيح: أن ﴿مِنَ﴾ هنا لبيان الجنس لا للتبعيض، فليس بعض القرآن شفاءً، والآخر ليس بشفاءٍ».

ثمَّ يقول: «وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿شِفَآءٌ﴾، ولم يقل: «دواء»؛ لأن الشفاء نتيجة ظاهرة، أما الدواء فيحتمل أن يشفي أو لا يشفي[(٣)]، فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحدٍ يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه علىٰ دائه بصدقٍ وإيمانٍ وقبولٍ تامٍّ واعتقادٍ جازمٍ، واستيفاء شروطه، لم يقاومه الداء أبدًا، وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء الذي لو نزل علىٰ الجبال لصدعها، أو علىٰ الأرض لقطعها؟! فما من مرضٍ من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة علىٰ دوائه، وسببه، والحمية منه لمَن رزقه الله فهمًا في كتابه». انتهىٰ.

فلا شكَّ أنَّ هذه المسألة تحتاج إلىٰ يقينٍ عالٍ، وحسنِ ظَنٍّ بالله عَزَّوَجَلَّ، فقد يستخدم أحدنا النصوص الشرعية التي جاء أنها تشفي من داء كذا وكذا، ولكن لا يجد شفاءً، بل من الممكن أن يزداد العليل علةً، وهذا ليس بإشكالٍ، ولا اضطرابٍ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٤٥٢)، والحاكم في «المستدرك» (٧٤٣٥)، وضعفه الألبانيُّ في «الضعيفة» (١٥١٤).

(٢) «زاد الميعاد» (٤/ ٣٢٢).

(٣) وكأن ابن القيم يريد أن يقول: حتمًا ولابد -بإذن الله وقدره- سيتم الشفاء إن أخذ العبد بعلاج القرآن.

ولا تعارضٍ، ولكن المسألة تتوقف علىٰ الشخص الذي قرأ وعالج، فاليقين الذي عنده وحسن الظن بالله ﷻ قد يكون مخدوشًا، لذلك كلما حسن ظن العبد بربه، وازداد يقينه في الله ﷻ، حتمًا سيؤثر فيه العلاج.



الفصل الثاني عشر

شروط الرقية الشرعية

أجمع العلماء -والإجماع عند أهل السنة والجماعة حجة شرعية- علىٰ جواز الرُّقية بثلاثة شروطٍ:

١. أن تكون بكلام الله تعالىٰ، أو بأسمائه وصفاته.

٢. أن تكون باللسان العربي.

٣. أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بإذن الله عَزَّوَجَلَّ[(١)].

وأضاف بعض أهل العلم شرطًا رابعًا، وهو: ألَّا تكون من ساحرٍ، أو كاهنٍ، أو دجالٍ، ولو تحققت الشروط السابقة.

أمثلة ونماذج من الرقية الشرعية:

الرقية بفاتحة الكتاب:

والدليل عليها ما ثبت في البخاري[(٢)] من حديث أبي سعيدٍ الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: انطلق نفرٌ من أصحاب النبي ﷺ في سفرةٍ سافروها -وعند الترمذي: أنهم كانوا ثلاثين رجلًا، أميرهم أبو سعيد الخدري، حتىٰ نزلوا علىٰ حيٍّ من أحياء العرب -أي:

---

(١) فمن المحتمل -بل كثيرًا ما يحدث- أنك إذا رقيت أحد المرضىٰ برقيةٍ شرعيةٍ بشروطها الثلاثة خاليةً من الشرك، لا يَبْرأ، وهذا ليس فيه إشكالٌ، فليس بالضرورة كل مَن رقي يَبرأ، بل لا بد من إذن الله عَزَّوَجَلَّ، فالله عَزَّوَجَلَّ قد يأذن لأحد الناس بالشفاء، ولا يأذن لآخر، وليس يتطلب الأمر رقية أحدٍ آخر يعتقد أنه أتقىٰ مثلًا.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٧٦)، باب ما يُعْطىٰ في الرقية علىٰ أحياء العرب بفاتحة الكتاب.

مكان كان يجلس فيه العرب فيه ماء وخيام- فاستضافوهم، فأبوا أن يضيفوهم -أي: طلب أصحاب النبي ﷺ من هؤلاء العرب واجب الضيافة فأبوا، وهذا قَلَّ أن يحدث من عربيٍّ، بل يعدُّونه منقصةً- فلُدِغَ سيد ذلك الحي، فسَعَوْا له بكل شيءٍ، لا ينفعه شيء، فقال بعضهم لمَّا عجزوا، واستنفزوا كل حِيَلهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم، فقالوا: يا أيها الرهط، إن سيدنا لدغ من عقربٍ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحدٍ منكم من شيء؟ فقال بعضهم -وعند الترمذي: القائل هو أبو سعيدٍ: نعم والله، إني لأرقي، ولكن -والله- لقد استضفناكم، فلم تضيفونا، فما أنا براقٍ لكم حتىٰ تجعلوا لنا جعلًا -أي: تعطونا ثمنًا ومقابلًا، ولاحظ أن أبا سعيد قال هذه المقولة؛ لأنهم لم يعطوهم حقَّ الضيافة- فصالحوهم علىٰ قطيعٍ من الغنم، فانطلق يتفل عليه ويقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة][1]، فكأنما نشط من عقالٍ، فانطلق يمشي وما به قلبةٌ -أي: علة- قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقسموا. فقال الذي رقىٰ: لا تفعلوا حتىٰ نأتي النبي ﷺ، فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا، فقدموا علىٰ رسول الله ﷺ، فذكروا له، فقال: «**وما يدريك أنها رقية**»، ثم قال: «**قد أصبتم، اقسموا، واضربوا لي معكم سهمًا**»، فضحك رسول الله ﷺ.

فالرقية بفاتحة الكتاب هي أعلىٰ درجات الرقية، ولكنها تحتاج إلىٰ حسن ظنٍّ ويقينٍ بالله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) «**التفل**»: هو إخراج الريق مع الهواء فيه شيءٌ من الرزاز، ويكون التفل مع كل مرةٍ من القراءة، فمثلًا: يقرأ الفاتحة ثلاث مرات، أو سبع مرات بصوت مسموع، ويضع يده علىٰ موضع الأذىٰ، ثم يرفعها فيتفل، ثم يضع يده مرة أخرىٰ، فيكمل القراءة.

الرقية بالأدعية المأثورة:

هذه الأدعية توقيفية علىٰ النص، لا يجوز التبديل أو التغيير فيها، فلا بد أن تذكر كما هي، وهي لعلاج الحسد وغيره من الأمراض، ومنها:

ما رواه مسلم(١) عن أبي سعيد أن جبريل أتىٰ النبي ﷺ فقال: يا محمد، اشتكيت. فقال: «**نعم**». قال: «**باسم الله أرقيك، من كل شيءٍ يؤذيك، من شرِّ كل نفسٍ أو عين حاسد الله يشفيك، باسم الله أرقيك**».

ما رواه البخاري(٢) عن عبد العزيز قال: دخلت أنا وثابت علىٰ أنس بن مالكٍ، فقال ثابت: يا أبا حمزة، اشتكيت. فقال أنس: ألا أرقيك برقية رسول الله ﷺ؟ قال: بلىٰ. قال: «**اللَّهمَّ ربَّ الناس، مُذهب الباس، اشف أنت الشافي، لا شافي إلا أنت، شفاءً لا يغادر سقمًا**».

ما رواه البخاري(٣)، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنه قال: كان النبي ﷺ يُعوِّذ الحسن والحسين، ويقول: «**إنَّ أباكما** -أي: إبراهيم عليه السلام- **كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق، أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطانٍ وهامةٍ، ومن كل عينٍ لامةٍ**».

وهذه مهمةٌ جدًّا، ما رواه مسلم(٤) في «صحيحه»، عن خولة بنت حكيم السلمية أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا نزل أحدكم منزلًا** -أي: في سيره إلىٰ مكانٍ، أو جلوسه في مكانٍ، أو علىٰ الطريق- **فليقل: أعوذ بكلمات الله التامات من شرِّ ما خلق، فإنه لا يضرُّه شيءٌ حتىٰ يرتحل منه**»، فأكثر من هذا الدعاء.

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٨٦)، باب الطب والمرض والرقىٰ.

(٢) «صحيح البخاري» (٥٧٤٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٧١).

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٠٨)، باب في التعوذ من سوء القضاء، ودرك الشقاء، وغيره.

روىٰ مسلم[(١)] عن عثمان بن أبي العاص الثقفي أنه شكا إلىٰ رسول الله ﷺ وجعًا يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ: «**ضَعْ يدَك** -يضع يده اليمنىٰ- **علىٰ الَّذي تَألَّم من جسدك، وقل: باسم الله، ثلاثًا** -أي: باسم الله، باسم الله، باسم الله- **وقل سبع مَرَّاتٍ: أعوذ بالله وقدرتِهِ من شرِّ ما أجد وأحاذر**».

يقول عثمان: ففعلتُ ذلك، فأذهب الله ما كان بي، فلم أزل آمُرُ به أهلي وغيرهم.

في «الصحيحين»[(٢)]: من حديث عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا اشتكىٰ الإنسان الشيء منه، أو كانت به قرحة أو جرح، قال النبي ﷺ بإصبعه هكذا -ووضع سفيان سبابته بالأرض، ثم رفعها، والكيفية أن يأخذ من ريقه علىٰ أصبعه السبابة، ثم يضعها في التراب، فيعلق بها التراب، فيضعها علىٰ موضع الوجع ويقول: «**بسم الله، تربة أرضنا، بريقة بعضنا، يشفىٰ سقيمنا بإذن ربنا**»، وبالطبع هذه أشياء فوق مدركات العقل.

الرقية بالمعوذتين:

فيتعوَّذ الإنسان بقراءة المعوذتين: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق: ١-٥]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس: ١-٦].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠٢)، باب استحباب وضع يده علىٰ موضع الألم مع الدعاء.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٤٥) (٥٧٤٦)، ومسلم (٢١٩٤).

الفصل الثالث عشر

مسائل في الرقية والعلاج بالقرآن

هل يجوز لأجنبيٍّ أن يعالج امرأةً بالقرآن؟

أي: هل يجوز لأجنبيٍّ أن يعالج امرأةً مريضةً، أو محسودةً، أو أصابها سحرٌ، أو مسٌّ، فيقرأ عليها القرآن وهي ليست من محارمه علىٰ التأبيد، ولا زوجته؟

ولكي نستطيع حلَّ هذا الإشكال، علينا أن نعلم أن العلاج أو الدواء عمومًا ينقسم إلىٰ قسمين:

- علاج مادي: وهي أسباب الشفاء، مثل: العمليات الجراحية؛ كاستئصال عضوٍ، أو شق جلدٍ، ومثل العقاقير والأدوية، ومن ذلك أيضًا الأَشعَّة التشخيصية، وقد يحتاج الأمر في ذلك كله إلىٰ كشفٍ للعورة.

وهذا النوع من العلاج يقع فيه الاضطرار[(١)]، فإن احتاجت المرأة لشيءٍ من هذا العلاج غير موجودٍ إلا عند طبيبٍ من الرجال، ثم لم تذهب إليه قد تموت، أو تتضرر ضررًا كبيرًا، ومع ذلك فالسَّبيل إلىٰ هذا التَّشخيص لا يكون إلا بالنظر، أو اللمس، ولا سبيل غيره، فيكون المرء هنا مضطرًّا، فيرتكب الضرر الأدنىٰ دفعًا للضرر الأكبر.

مثال ذلك: أن تكون امرأة في حالة ولادة متعسرة يكاد الجنين فيها أن يموت، ولا نجد إلا طبيبًا رجلًا، ففي هذه الحالة ترتكب المفسدة الأدنىٰ في سبيل تحقيق

(١) و«**الاضطرار**»: هو مخالفة شيءٍ من الشريعة في سبيل مصلحة أعلىٰ، والشريعة كلها مبنية علىٰ جلب المصالح وتكميلها، ودرء المفاسد وتقليلها.

المصلحة الأكبر، فننظر إلىٰ المفسدة المترتبة علىٰ النظر إلىٰ العورة، وإلىٰ المصلحة المترتبة عليها، ونطبق القاعدة.

- الشفاء الشرعي: وهو دعاءٌ لله تعالىٰ، وطلبٌ منه ﷻ أن يرفع الضر والسقم، وهذا ليست فيها أي ضرورةٍ، فكل ما يفعله المرء هو كلام بلسانه، ودعاء الله ﷻ، ولا يجوز أن يرتكب فيه محظور أو معصية وإن صغرت، بل علىٰ العبد أن يحرص فيه علىٰ الطاعة التي تُعِينُ علىٰ رفع الدعاء(١)، وارتكاب المعصية، والمحظور حائل عن رفع الدعاء، فإذا أراد رجل أن يقرأ علىٰ امرأةٍ، فلا بد له من النظر إليها، ومن وَضْع يده علىٰ رأسها -عند مَن قال بذلك- أو لمسها، بل من الممكن أن يختلي بها، وهذا كله محرمٌ بلا شكٍّ.

وأمَّا مَن يحتج علىٰ ذلك بأن العلاج بالرقية والقرآن يحتاج إلىٰ رجلٍ تقيٍّ، فلا يرقي إلا التقي، وكلما كان العبد أقرب وأتقىٰ إلىٰ الله ﷻ، كان أرجىٰ لقبول دعواته، فإنما هي مزلة أقدامٍ؛ لأن التقوىٰ من أعمال القلوب لا يطلع عليها إلا علَّام الغيوب، فلا يدري أحدٌ مَن أتقىٰ ممَّن لم يتقِ، فمن تيسير الله ﷻ أن جعل الرقية الشرعية

(١) قد يهمل البعض في بعض السنن والمستحبات بحجة أنها تتعارض مع قضايا الإسلام الكبرىٰ، ويدَّعي أن اهتمامه بالسنن والهدي الظاهري لن يُمكِّنه من الاهتمام بقضايا فلسطين وبغداد وأفغانستان وغير ذلك، ولا شكَّ أنه من المستحيل أن يكون بينهما تعارض، بل إن سبيلنا الآن وأفضل ما نستطيع تجاه الحروب الطاحنة بين المسلمين وغيرهم إنما هو الدعاء، فنحن أناسٌ لنا قدر وإمكانيات محدودة، نعيش في دولةٍ راية الإسلام فيها سائدة، ومجتمعها مسلم، ولكن لها نظام وقانون، ونحن نتصرف علىٰ قدر هذه الإمكانيات، ولا نكلف أنفسنا ما لم يكلفنا به الشارع، فهذا تشدُّد وتنطُّع، ولا يجوز، ولكي يكون هذا الدعاء أرجىٰ قبولًا عند الله ﷻ، لزامًا علىٰ العبد أن يكون مستقيمًا علىٰ شرع ربه قدر استطاعته، فمثلًا: إن صار العبد متسننًا بالهدي وباطنه -إن شاء الله- خير من ظاهره، ثمَّ دعا الله ﷻ، فالشواهد الظاهرية تقول: إن دعاءه هو الأقرب للقبول من إنسانٍ آخر متفلت من الهدي، ومن السنن، فالتفلُّت هو الذي يتعارض مع القضايا الكبرىٰ؛ لأنه يُقلِّل استجابة الدعاء.

ميسرةً لأي أحدٍ، فالمتفق عليه بين أهل العلم والذي جاء به الدليل: الرقية بفاتحة الكتاب، والكلُّ يحفظها، فمن اليسير أن يكون مَن يقرأ علىٰ المرأة، زوجها أو أحد من محارمها، فإنَّ هذا الشفاء الشرعي لا يتطلب مُتَخصصًا علىٰ خلاف العلاج المادي(١)، والرقية ما هي إلا دعاءٌ، وقد استجاب الله تعالىٰ لأشرِّ خلقه علىٰ الإطلاق، استجاب لإبليس لمَّا قال: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٤﴾ [الأعراف: ١٤]، قال الله: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ١٥﴾ [الأعراف: ١٥].

وثبت في المسند بسندٍ صحيحٍ -كما قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» - من حديث أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النَّبيَّ ﷺ قال: «**اتَّقوا دعوة المظلوم وَإِنْ كان كافرًا، فإنَّه ليس دونها حجاب**»(٢).

وفي حديث أبي هريرة في المسند(٣) أيضًا: «**دعوة المظلوم مستجابةٌ وإن كان فاجرًا، ففجوره علىٰ نفسه**».

وأيضًا في روايةٍ صحيحةٍ(٤) رواها أبو نعيم في «الحلية»، قال النبي ﷺ: «**إيَّاكم ودعوة المظلوم، فإنَّما يسأل الله حقَّه، وإنَّ الله لايمنع ذا حقٍّ حقه**».

والمريض ظَلَمه إنسيٌّ بعينٍ، أو جني بأذًىٰ، فهو مظلوم يجيب الله دعاءه، ويقبل رجاءه بإذنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) بل دلَّت الأدلة الشرعية علىٰ أن من طبب ولم يعلم منه طب، فهو ضامن، أي: إن مارس رجل الطبَّ وهو لا يفهم فيه، عليه الدية إن مات المريض، ومن ذلك: مَن لا يعرف طريقة الحقن، ثم أعطىٰ رجلًا حقنةً فأخطأ، فضرَّته، فهو ضامنٌ، أما مَن طبَّب، وعلم عنه الطب، ولم يهمل، فليس بضامنٍ.

(٢) أخرجه أحمد (١٢٥٤٩)، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٧٦٧).

(٣) أخرجه أحمد (٨٧٩٥)، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٧٦٧).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٠٢)، والبيهقي في «الشعب» (٧٠٦١)، وضعفه الألبانيُّ في «الضعيفة» (١٦٩٧).

هل يجوز امتهان العلاج بالقرآن؟

كون عمل المرء هو العلاج بالقرآن لم يثبت عن السلف، وهو أمرٌ غير صحيح، بل إن لفظ العلاج نفسه خلاف الصواب، كما أن الحوار الذي قد يحدث بين مَن يقرأ وبين الجني يحتاج إلىٰ دليلٍ، فمجرد تغيُّر الصوت ليس بكافٍ، ولذلك لما سئل الشيخ الألبانيُّ في هذه المسألة، فقيل له: هل يجوز لرجلٍ يعالج بالقرآن أن يستعين بجنيٍّ مسلمٍ في هذا العلاج؟ قال: قبل الإجابة علىٰ السؤال نريد أن نعلم: ما يدرينا أنه مسلمٌ حقًّا، والأصل في الجن الكذب؟ فإن كان قال: إنه مسلم بصوتٍ متغيرٍ، فما الذي يدريني أنَّ الجنيَّ هو الذي تكلم.

ففي كل شيءٍ غيبيٍّ كُنْ علىٰ حذرٍ، ولا تتكلم فيه، ولا تقترب منه إلا بدليلٍ، ولا تتساهل، وهذا في كلِّ أمور الغيبيَّات، وهذه نصيحةٌ مهمةٌ، فمن يدَّعي أنه مسحور لا بد له أن يأتي بدليل قطعي علىٰ ذلك، وليس الأمر بمجرد أنه لا يأكل، ولا يذاكر جيدًا، فالاحتمال هنا وارد أن يكون شيئًا آخر غير السِّحر، وهذا الباب لما فتح بدأ كثيرٌ من أهل الفشل يتحاملون عليه، ويحيلون عليه فَشَلَهم، ولكن الصحيح أن يكون عند المسلم لجوءٌ واستعانةٌ بالله عَزَّوَجَلَّ.

هل يجوز أخذ الأجر علىٰ القرآن، أي: علىٰ القراءة والتعليم؟

في الحديث الذي رواه البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ أحقَّ ما أخذتم عليه أجرًا: كتاب الله**»[(١)]، فهل يجوز لرجلٍ أخذ الأجرة علىٰ قراءة القرآن وعلىٰ الرقية أم لا؟

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٣٧).

الجواب: أنَّ أَخْذَ الأجرة علىٰ قراءة القرآن فقط -أي: للقراءة بذاتها كمَن يقرأ في المآتم مثلًا- الإجماعُ منعقدٌ علىٰ حرمتها، والفتاوىٰ متضافرةٌ بذلك، أما أن يكون القارئ إمامًا مثلًا[١]، أو يقرأ ليصحح القوم علىٰ قراءته، أو يقرأ ليفسر أحدٌ قراءته، أو ليرقي أحدًا آخر -أي: تكون مع القراءة نيةٌ أخرىٰ مشروعةٌ جاء بها الشرع- ففي هذه الحالة يجوز أَخْذ الأجرة.

ولكن الإشكال الذي استجدَّ في عصرنا الحاضر أن كثيرًا من الناس امتهنوا الرُّقية، وجعلوها حرفةً لهم ليس لهم غيرها شغلٌ، وهذا خلاف ما كان عليه السلف، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه، ولكن المقصود هو أخذ الأجرة علىٰ الرقية إن فعلها المرء مرةً أو مرات ليست علىٰ الدوام، ولا يتخذها عملًا، فيكون له عمل معروف غير الرقية، ولكنه بين الحين والحين يأتيه رجلٌ محبوسٌ عن أهله مثلًا، أو عنده صداع مستمر، فيرقيه ويأخذ علىٰ ذلك مالًا، فلا شيء في ذلك.

أمَّا امتهانها، فهو أمرٌ مخالفٌ أقل ما يقال فيه الكراهة التحريمية، وينبغي علىٰ العبد أن يتنزَّه عنه.

وأما أَخْذ الأجرة علىٰ تعليم القرآن، فيشمل ثلاثة أنواعٍ: (تعليم القراءة - تعليم التجويد والحفظ - تعليم معاني القرآن والتفسير)، وقد ورد في ذلك حديث عند الإمام أحمد والترمذي[٢]، وصححه كثيرٌ من أهل العلم منهم الألبانيُّ، عن عبادة بن الصامت قال: علمت ناسًا من أهل الصُّفة الكتاب والقرآن -والرواية مبهمة، فلا نعلم هل حفظها إياه أم قرأها له أم فسرها له- فأهدىٰ إليَّ رجلٌ منهم قوسًا، فقلت: ليست

(١) وإن كان للإمام أحمد ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام في أخذ الأجرة علىٰ الإمامة.
(٢) أخرجه الحاكم (٢٢٧٧)، وأبو داود (٣٤١٦).

بمالٍ، وأرمي عنها في سبيل الله ﷻ -كأنه مترددٌ في قبولها- لآتين رسول الله ﷺ فلأسألنه، فأتيته فقلت: يا رسول الله، رجلٌ أهدىٰ إلي قوسًا ممن كنت أعلمه الكتاب والقرآن، وليست بمالٍ، وأرمي عنها في سبيل الله. قال: «**إن كنت تحبُّ أن تطوق طوقًا من نارٍ فاقبلها**»، وهذا للتحريم بلا شكٍّ.

وعليه، فالأصل في تعليم القرآن وقراءته للناس أن يكون حِسْبةً لله، ولا يحاد عن هذا الأصل إلا لضرورةٍ قصوىٰ، من ذلك: أن البعض إن علم الناس التجويد، لم يجد وقتًا يعمل فيه ليأتي بالحاجات الضرورية لعياله مثلًا، ففي هذه الحالة ذكر أهل العلم أن وليَّ الأمر مطالبٌ بأن يجري علىٰ مَن هذا شأنهم من العلماء والوُعَّاظ والدعاة راتبًا يكفيهم، فإن امتنع ولي الأمر، جاز لهؤلاء أن يأخذوا أجرًا علىٰ عملهم هذا، فإن تعفَّفوا فهو خيرٌ، فإن أدىٰ عدم أخذه أجرةٍ علىٰ هذا العمل إلىٰ تركه، فإنه يلزم بأخذ أجرةٍ تكفيه ليعيش عيشةً مَرْضيةً، ولا يترك هذا العمل، ولا حرج في ذلك البتة.

وعلىٰ الجملة، يقول ابن القيِّم[(١)] **رحمه الله تعالىٰ**: «ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسبابٍ:

الأول: التعوذ بالله تعالىٰ من شره، واللجوء والتحصن به، واللجوء إليه.

الثاني: تقوىٰ الله وحفظه عند أمره ونهيه، فمن اتقىٰ الله، تولَّىٰ الله حفظه، ولم يَكِلْهُ إلىٰ غيره، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾، وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك**»، صحيح، فمن حفظ الله، حفظه الله، ووجده أمامه أينما توجه، ومن كان الله حافظه وأمامه، فممن يخاف، وممن يحذر.

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٣٨).

الثالث: الصبر علىٰ عدوه، وألَّا يقاتله، ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلًا.

السبب الرابع: التوكل علىٰ الله ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، والتوكل من أقوىٰ الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذىٰ الخلق وظلمهم وعدوانهم، وهو من أقوىٰ الأسباب في ذلك، فإن الله حَسْبه -أَيْ: كافيه- ومَن كان الله كافيه وواقيه، فلا مطمع فيه لعدُوِّه، ولا يضره إلا أذًىٰ لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده، فلا يكون أبدًا، وفرقٌ بين الأذىٰ الذي هو في الظاهر إيذاءٌ له، وهو في الحقيقة إحسانٌ إليه، وإضرارٌ بنفسه، وبين الضرر الذي يتشفَّىٰ به منه.

قال بعض السَّلف: جعل الله تعالىٰ لكلِّ عملٍ جزاءً من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه، وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد علىٰ الله تعالىٰ حقَّ توكله، وكادته السموات والأرض ومَن فيهن، لَجعل له مخرجًا من ذلك، وكفاه ونصره.

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له، فلا يلتفت إليه، ولا يخافه، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه، وهذا من أنفع الأدوية، وأقوىٰ الأسباب المعينة علىٰ اندفاع شرِّه، فإذا خطر بباله، بادَر إلىٰ محو ذلك الخاطر، والاشتغال بما هو أنفع له وأَوْلَىٰ به، بقي الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضًا، فإن الحسد كالنار، فإذا لم تجد ما تأكله، أكل بعضها بعضًا، ولقد أحسن مَن قال:

اصبر علىٰ حسد الحسود ... فإنَّ صبرك قاتله

النار تأكل بعضها ... إنْ لم تجد ما تأكله

السبب السادس: وهو الإقبال علىٰ الله، والإخلاص له.

السبب السابع: تجريد التوبة إلىٰ الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه، فإنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، وقال لخير الخَلق وهم أصحاب نبيه دونه ﷺ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾، فما من شيء سلط علىٰ العبد إلا بسبب ذنبٍ يعلمه، أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما علمه وعمله أضعاف ما يذكره.

وفي الدعاء المشهور: «**اللهمَّ إنِّي أعوذ بك أن أُشْرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لِمَا لا أعلم**»، فَما يحتاج العبد إلىٰ الاستغفار منه ممَّا لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه، فما سلط عليه مؤذٍ إلا بذنبٍ.

لَقِيَ بعض السلف رجل، فأغلظ له، ونال منه، فقال له: قف حتىٰ أدخل البيت ثم أخرج إليك، فدخل، فسجد لله، وتضرع إليه، وتاب وأناب إلىٰ ربه، ثم خرج إليه، فقال له: ما صنعت؟ فقال: تبت إلىٰ الله من الذنب الذي سلطك به عليَّ.

السبب الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه؛ فإن لذلك تأثيرًا عجيبًا في دفع البلاء، ودفع العين، وشر الحاسد، ولو لم يكن في هذا إلا تجارب الأمم قديمًا وحديثًا لكفىٰ به، فما يكاد العين والحسد والأذىٰ يتسلَّط علىٰ محسنٍ متصدقٍ وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملًا فيه باللُّطف والمعونة والتأييد، وكانت له فيه العاقبة الحميدة، فالمحسن المتصدق في خفارة إحسانه وصدقته، عليه من الله جُنَّة واقية، وحصن حصين.

السبب التاسع: وهو من أصعب الأسباب علىٰ النفس، وأشقها عليها، ولا يوفق له إلا مَن عظم حظه من الله، وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه،

فكلما ازداد أذىٰ وشرًّا وبغيًا وحسدًا، ازددت إليه إحسانًا، وله نصيحة، وعليه شفقة، والذي يسهل هذا علىٰ النفس، ويطيبه إليها، وينعمها به هو: أن لك ذنوبًا بينك وبين الله تخاف عواقبها، وترجوه أن يعفو عنها، ويغفرها لك، ويهبها لك، ومع هذا لا يقتصر علىٰ مجرد العفو والمسامحة حتىٰ ينعم عليك ويكرمك، ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله، فإذا كنت ترجو هذا من ربك أن يقابل به إساءتك، فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه، وتقابل به إساءتهم ليعاملك الله هذه المعاملة، فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تعمل مع الناس في إساءتهم في حقك، يفعل الله معك في ذنوبك وإساءتك جزاءً وفاقًا، فانتقم بعد ذلك، أو اعف وأحسن، أو اترك، فكما تدين تدان، وكما تفعل مع عباده يفعل معك، فمن تصور هذا المعنىٰ، وشغل به فِكْرَه، هان عليه الإحسان إلىٰ من أساء إليه.

السبب العاشر: وهو الجامع لذلك كله، وعليه مدار هذه الأسباب، وهو تجريد التوحيد، والتَّرحُّل بالفكر في الأسباب إلىٰ المسبب العزيز الحكيم، والعلم بأنَّ هذه آلات بمنزلة حركات الرياح، وهي بِيَدِ مُحرِّكها وفاطرها وبارئها، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه، فهو الذي يحسن عبده بها، وهو الذي يصرفها عنه وحده، لا أحد سواه».

ثم قال: «فهذه عشرة أسبابٍ يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر، وليس له أنفع من التوجُّه إلىٰ الله، وإقباله عليه، وتوكله عليه، وثقته به، وألَّا يخاف معه غيره، بل يكون خوفه منه وحده، ولا يرجو سواه، بل يرجوه وحده، فلا يعلق قلبه بغيره، ولا يستغيث بسواه، ولا يرجو إلا إيَّاه، ومتىٰ علَّق قلبه بغيره ورجاه وخافه، وكل إليه، وخذل من جهته، فمن خاف شيئًا غير الله، سلط عليه، ومَن رجا شيئًا سوىٰ الله، خذل من جهته، وحرم خيره، هذه سنة الله في خلقه ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾».

الباب السادس

مرض الرياء

وفيه ستة فصول:

الفصل الأول: تعريف الرياء.

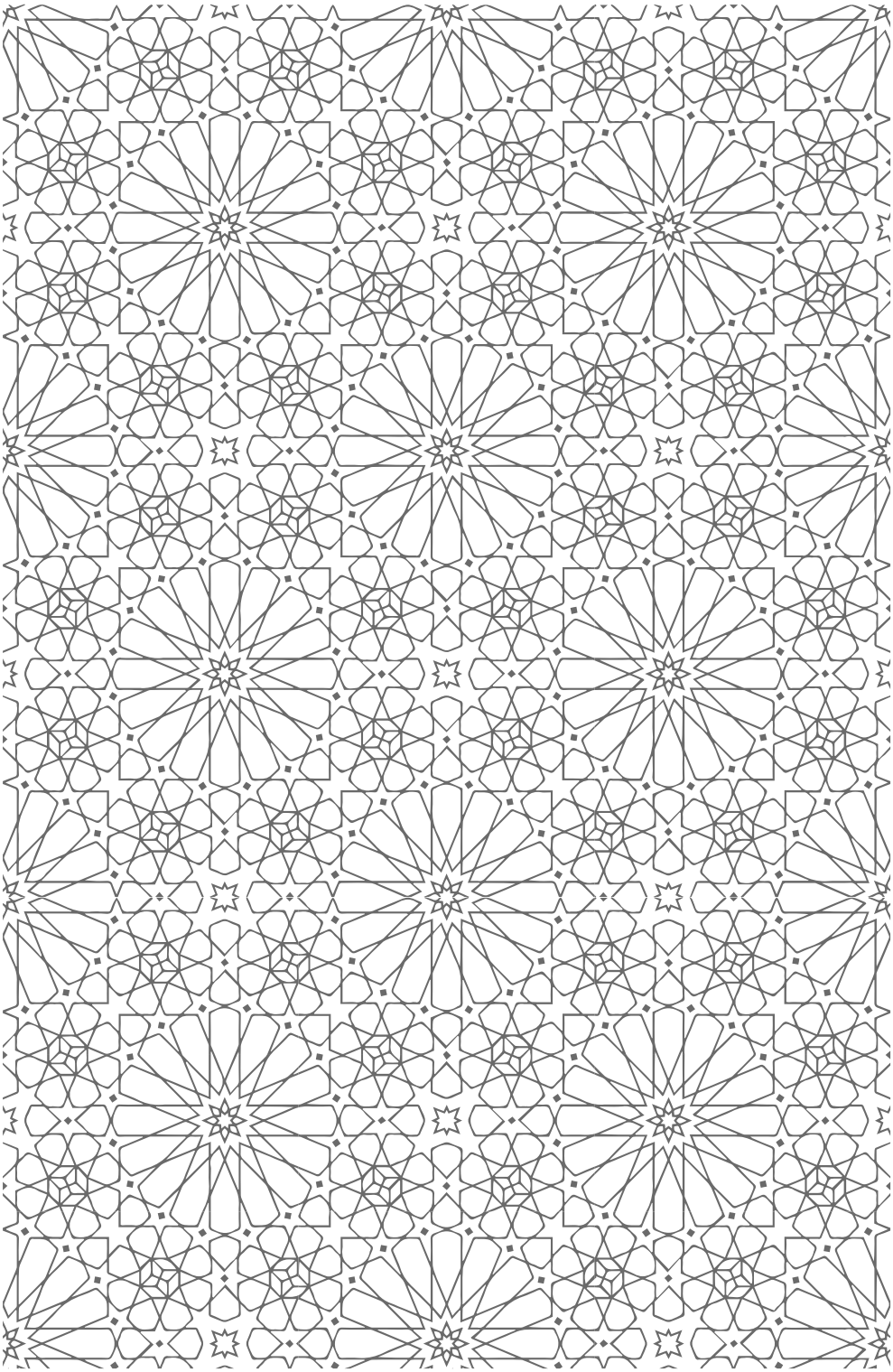
الفصل الثاني: التحذير من مرض الرياء.

الفصل الثالث: إحباط الرياء للعمل.

الفصل الرابع: شرح حديث: «ما ذئبان...».

الفصل الخامس: أقسام الناس في تحصيل الأموال.

الفصل السادس: أسباب الرياء وعلاجها.



الفصل الأول

تعريف الرياء

مقدمة:

مرض الرياء مرض فتَّاك، وداء عضال، إذا تلبس به العبد، أفسد عليه دنياه وآخرته، فهو من أخطر أمراض القلوب، فهو الداء الدفين الذي هو أعظم شبكة للشياطين، وموطنه القلب، فإذا استحكم في القلب، فلا بد من ظهور أثره علىٰ الجوارح، ونحن نتعرف عليه من خلال النظر إلىٰ القلب، والنظر إلىٰ الجوارح -أي: إلىٰ فعل العبد- وأنت تحكم علىٰ نفسك، أما الغير فلا تنشغل بالحكم عليه.

وذكر بعض العلماء فيه نكتةً قد أصاب فيها الحق، وهي أن هذا المرض من جملة الأمراض التي قد يتلبس بها العبد في حياته، وبعد موته أيضًا، وهذا قد يبدو غريبًا، فكيف يكون موطنه القلب، ثم يبقىٰ وقد مات الشخص، فالأثر عن بشر بن الحارث -المشهور ببِشْرٍ الحافي عليه رحمة الله (ت: ٢٢٧) - قال هذا العبد الصالح: إنَّ العبد ليرائي بعمله بعد موته. قالوا: كيف ذلك؟ قال: يحبُّ أن يكثر الناس في جنازته[(١)].

ومن إشكالات الرياء أيضًا: أنه من الأمراض التي قد لا يشعر بها العبد.

قال هشام الدستوائي عليه رحمة الله -وهو من رجال الكتب الستة، والأثر ذكره عنه الذهبي في «السير»: قد يرائي العبد بعمله وهو لا يشعر، فمن الممكن أن يتلبس

---

(١) وهذا من باب التَّرهيب والزجر، لا علىٰ سبيل الجزم، ولا نأخذ منه حكمًا شرعيًّا؛ لأنَّ الأثر الذي ورد في هذا ليس عن النَّبيِّ ﷺ، ولا عن الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

العبد بمرض الرياء، ويكون فيه لآذانه، ومع ذلك لا يشعر، وهذا هو أخطر شيءٍ في الأمراض عمومًا، لذلك يسمي الأطباء المرض الخبيث خبيثًا؛ لأن المرء لا يشعر به -وهو عنده منذ سنواتٍ- حتىٰ يكون قد فات الأوان، وقرب الموت، وكذلك بعض أمراض القلوب أخطر شيءٍ فيها أن يبتلىٰ العبد بها وهو لا يشعر.

أولًا: تعريف الرياء في اللغة:

الرياء لغةً: مصدر قولهم: راءاه يرائيه رياءً ومراءاةً، وهو مأخوذ من مادة (رأىٰ) التي تدلُّ علىٰ نظرٍ وإبصارٍ بعينٍ، أو بصيرةٍ، يقال من ذلك: راءىٰ فلان، وفعل ذلك رئاء الناس ورياء الناس، وهو أن يفعل شيئًا ليراه الناس.

الرياء اصطلاحًا:

قال الجرجاني[(١)] (ت: ٨١٦): الرياء هو تَرْك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله فيه.

قال التهانوي[(٢)] (ت: ١١٥٨): الرياء هو ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله فيه، وحدُّه فعل الخير لإراءة الغير.

قال الغزالي[(٣)] (ت: ٥٠٥): الرياء هو طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير، فحدُّ الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله، فالمرائي هو العابد، والمراءىٰ هم الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة في قلوبهم، والمراءىٰ به هي الخصال التي قصد المرائي إظهارها، والرياء هو قصده إظهار ذلك، والمراءىٰ به كثيرٌ، وتجمعه

---

(١) «التعريفات» (١/ ١١٣).

(٢) «موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم» (١/ ٩٠٠).

(٣) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٩٧).

خمسة أقسام، وهي مجامع ما يتزين به العبد للناس، وهو: البدن والزي والقول والعمل والأتباع والأشياء الخارجة، وعليه يكون الرياء المذموم شرعًا: إرادة العباد بطاعة الله.

قال ابن حجر الهيتمي[(١)] **(ت: ٩٧٤)**: الرياء هو إرادة العامل بعبادته غير وجه الله تعالىٰ؛ كأن يقصد إطلاع الناس علىٰ عبادته وكماله حتىٰ يحصل له منهم نحو مال، أو جاه، أو ثناء؛ إما بإظهار نحولٍ وصفرةٍ، ونحو تشعُّث شعرٍ، وبذاذة هيئةٍ، وخفض صوتٍ، وغمض جفنٍ؛ إيهامًا لشدة اجتهاده في العبادة وحزنه، وقلة أكله، وعدم مبالاته بأمر نفسه؛ لاشتغاله عنها بالأهمِّ، وتوالي صومه وسهره، وإعراضه عن الدنيا وأهلها.

قال ابن حجرٍ العسقلاني[(٢)] **(ت: ٨٥٢)**: الرياء هو إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها، فيحمدوا صاحبها.

وجماع القول في الرياء ما قاله أبو حامدٍ في «الإحياء»[(٣)]: «كلُّ حظٍّ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس، ويميل إليه القلب، قَلَّ أم كثر، إذا تطرَّق إلىٰ العمل، تكدَّر به صفوه، وزال به إخلاصه، والإنسان مرتبط في حظوظه، منغمس في شهواته، قَلَّما ينفك فعلٌ من أفعاله، وعبادةٌ من عباداته عن حظوظٍ وأغراضٍ عاجلةٍ من هذه الأجناس.

---

(١) «الزواجر عن اقتراف الكبائر» (١/ ٦٩).
(٢) «فتح الباري» (١١/ ٣٣٦).
(٣) (٤/ ٣٨٠).

فلذلك قيل: مَن سلم له من عمره لحظةً خالصةً لوجه الله، نجا، وذلك لعزة الإخلاص، وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب، بل الخالص هو الذي لا باعث له إلا طلب القرب من الله تعالىٰ».

الفرق بين الرياء والسُّمعة: هو أن الرياء يكون في الفعل، والسُّمعة تكون في القول.

وقال ابن عبد السلام (ت: ٦٦٠): الرياء: أن يعمل لغير الله. والسُّمعة: أن يُخفي عمله، ثم يُحدث به الناس.

الفرق بين النفاق والرياء يتمثل في أن الأصل في الرياء الإظهار، والأصل في النفاق الإخفاء؛ إذ المرائي يظهر نيَّته الحقيقية في طلب المنزلة عند الناس، أمَّا المنافق فإنه يخفي علىٰ الناس ما بداخله، ويظهر خلافه، وقد يلتقي الأمران: الرياء والنفاق الأصغر في عمل المنافق، كما قال ﷻ في شأن المنافقين: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢]، أي: بإظهار مجرد الطاعة، وقد يختلفان، كما في قيامهم -أي: المنافقين- إلىٰ الصلاة كسالىٰ، وعدم ذكرهم الله إلا قليلًا، فالمرائي يظهر النشاط، ويكثر من الذِّكر لينال مكانةً عند الناس بخلاف المنافق، هذا من ناحيةٍ.

ومن ناحيةٍ أخرىٰ، فإن النفاق ينقسم إلىٰ نفاقٍ أكبر، وهو النفاق المتعلق بالعقيدة، ونفاق أصغر، وهو المتعلق بالأعمال، وإذا كان الرياء داخلًا في النفاق العملي، فيكون بينهما ثمة عموم وخصوص مطلق، يجتمعان في النفاق العملي، وهو كما يقول ابن رجب: أن يظهر الإنسان علانيةً العمل الصالح، ويبطن خلاف ما يظهر، ينفرد كلٌّ منهما، ينفرد النفاق بإظهار الإيمان وإبطان الكفر (وهو النفاق العقدي)، وينفرد الرياء بأنه قد يكون في غير العبادات لطلب جاهٍ، وليس هذا النوع بحرامٍ إلا إذا حملته كثرة الجاه علىٰ مباشرة ما لا يجوز.

الفرق بين الرِّياء والشرك الأكبر:

قال ابن حجرٍ الهيتمي في «الزواجر»[(١)]: «يتضح الفرق بينهما بمثالٍ، هو أن المصلي مراءاةً يصلي حتىٰ يقول الناس: إنه صالح مثلًا، يكون رياؤه سببًا باعثًا له علىٰ العمل، لكنه في خلال ذلك العمل تارةً يقصد به تعظيم الله تعالىٰ، وتارةً لا يقصد به شيئًا، وفي كلٍّ منهما لم يصدر منه مكفر بخلاف الشرك الأكبر، فإنه لا يحصل في هذا إلا إذا قصد بالسجود -مثلًا- تعظيم غير الله تعالىٰ، فعلم أنَّ المرائي إنما نشأ له ذلك الشرك بواسطة أنه عظم قدر المخلوق عنده حتىٰ حمله ذلك التعظيم علىٰ أن يركع ويسجد، فكان ذلك المخلوق هو المعظم بالسجود من وجهٍ، وهذا هو عين الشرك الأكبر، ولا يقدم عليه إلا من خدعه الشيطان، وأوهم عنده أنَّ العبد الضعيف العاجز يملك من معايشه ومنافعه أكثر ممَّا يملكه الله تعالىٰ». انتهىٰ من «الزواجر».

فالرياء أن يفعل العبد الخير يريد به ارتفاع منزلته عند الناس، وهو بإجماع أهل العلم مرض محبط للعمل، ومستوجب لغضب الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا تلبس العبد بالرياء وهو يعلم، حبط عمله كأنه لم يفعل شيئًا، وهو في الحقيقة ليس له شيء[(٢)].

---

(١) (١/ ٧١).

(٢) وَإنْ كانت ذمَّته قد برأت من العمل -إن كان فرضًا- ولا يطالب به، ولكن الهدف الأساسي من فعل الخير هو تحصيل الأجر والثواب، والقرب من الله عَزَّوَجَلَّ، وهو هنا مفقود، وسيأتي الكلام عن إحباط الرياء للعمل بالتفصيل فيما بعد.

الفصل الثاني

التحذير من مرض الرياء

الأدلة الشرعية من القرآن والسُّنة والآثار علىٰ حرمة الرياء:

أولًا: من القرآن:

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾ [البقرة: ٢٦٤].

قال الطبري(١): «يعني -تعالىٰ ذكره- بذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، صدقوا الله ورسوله ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم﴾، يقول: لا تبطلوا أجور صدقاتكم بالمنِّ والأذىٰ، كما أبطل كفر الذي ينفق ماله ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، وهو مُرَاءاته إياهم بعمله، وذلك أن ينفق ماله فيما يرىٰ الناس في الظاهر أنه يريد الله -تَعالَىٰ ذكرُهُ- فيحمدونه عليه، وهو غير مريدٍ به الله، ولا طالب منه الثواب، وإنَّما ينفقه كذلك ظاهرًا ليحمده الناس عليه، فيقولوا: هو سخيٌّ كريمٌ، وهو رجلٌ صالحٌ، فيُحْسنوا عليه به الثَّناء، وهم لا يعلمون ما هو مستبطنٌ من النيَّة في إنفاقه ما أنفق، فلا يدرون ما هو عليه من التكذيب بالله -تعالىٰ ذكرُهُ- واليوم الآخر.

قوله تعالىٰ: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾.

---

(١) «تفسير الطبري» (٥/ ٥٢١).

يعني -تعالىٰ ذكره- بذلك: فمثل هذا الذي ينفق ماله رئاء الناس، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، و«الهاء» في قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ عائدة علىٰ الذي ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾، و«الصفوان» هو الصفا، وهي الحجارة الملس.

وقوله: ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾، يعني: علىٰ الصفوان تراب ﴿فَأَصَابَهُۥ﴾، يعني: أصاب الصفوان ﴿وَابِلٌ﴾، وهو المطر الشديد العظيم.

وقوله: ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾، يقول: فترك الوابل الصفوان صلدًا.

و«الصلد» من الحجارة: الصلب الذي لا شيء عليه من نباتٍ، ولا غيره، وهو من الأرضين ما لا ينبت فيه شيءٌ، وكذلك من الرؤوس، ثم رجع -تعالىٰ ذكره- إلىٰ ذكر المنافقين الذين ضرب المثل لأعمالهم، فقال: فكذلك أعمالهم بمنزلة الصفوان الذي كان عليه ترابٌ، فأصابه الوابل من المطر، فذهب بما عليه من التراب، فتركه نقيًّا لا تراب عليه، ولا شيء، يراهم المسلمون في الظاهر أن لهم أعمالًا -كما يرىٰ التراب علىٰ هذا الصفوان- بما يُرَاؤونهم به، فإذا كان يوم القيامة، وصاروا إلىٰ الله، اضمحلَّ ذلك كله؛ لأنه لم يكن لله، كما ذهب الوابل من المطر بما كان علىٰ الصفوان من التراب، فتركه أملس لا شيء عليه، فذلك قوله: ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾، يعني به: الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس، ولا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، يقول: لا يقدرون يوم القيامة علىٰ ثواب شيءٍ مما كسبوا في الدنيا؛ لأنهم لم يعملوا لمعادهم، ولا لطلب ما عند الله في الآخرة، ولكنَّهم عملوه رئاء الناس، وطلب حمدهم، وإنَّما حظهم من أعمالهم ما أرادوه وطلبوه بها، ثم أخبر -تعالىٰ ذكره- أنه ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾، يقول: لا يسددهم لإصابة الحق في نفقاتهم وغيرها، فيوفقهم لها، وهم للباطل عليها مؤثرون، ولكنه يتركهم في ضلالتهم يعمهون، فقال -تعالىٰ ذكره-

للمؤمنين: لا تكونوا كالمنافقين الَّذين هذا المثل صفة أعمالهم، فتبطلوا أجور صدقاتكم بمَنِّكم علىٰ مَن تصدَّقتم بها عليه، وأذاكم لهم، كما أبطل أجر نفقة المنافق الذي أنفق ماله رئاء الناس، وهو غير مؤمنٍ بالله واليوم الآخر عند الله». انتهىٰ.

ففي أوَّل النَّصِّ حذَّرنا الله عَزَّوَجَلَّ من أن نبطل الصدقة التي نخرجها بالمنِّ والأذىٰ(١)، ثم شبه المولىٰ عَزَّوَجَلَّ هذا الذي يبطل صدقاته بالمنِّ والأذىٰ ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، فالكاف في قوله تعالىٰ: ﴿كَٱلَّذِي﴾ للتشبيه، ثم قال تعالىٰ: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾، وَهاءُ الضمير عائدةٌ علىٰ أقرب مذكورٍ، وهو الذي ينفق ماله رئاء الناس، ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ﴾، وهذا المثل في غاية الإحكام والدقة، فالصفوان هو الحجر الصلب الصلد، ظاهره إذا رآه الناس أنه صالحٌ للزراعة، كمثل الرجل ظاهره الصلاح، ويراه الناس في الطاعات، ويرونه ملتزمًا بالشرع، ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾، أي: فَجَاء وابلٌ من السَّماء كشف هذه الأرض الصلبة أنها من الحجارة، ولا تصلح للزراعة، وعلم الناس الذين أرادوا زراعتها من قبل حقيقتها، وأنَّهم كانوا مخدوعين فيها، وكذلك الأمر، يجد المرء يوم القيامة عمله وتعبه طوال عشرين سنةً -مثلًا- قد ذهب؛ لأنه كان غافلًا واهمًا لا يدري، فهو يفاجأ في أرض المحشر أن الوابل قد جاء فكشف المستور، وتركه صلدًا علىٰ حقيقته، مع العلم أنَّ إخلاص المرء من عدم إخلاصه لا يطلع عليه إلا الله عَزَّوَجَلَّ مع المرء نفسه(٢)، فتجد في أرض المحشر أن الملائكة قد أتت بكل

---

(١) و«المَنُّ»: ذكر المرء فعله، أي أنه فعل وفعل وفعل، و«الأذىٰ»: أن يفعل الحسنة، ثم يأتي من ورائها بسيئة.

(٢) فأنت تعلم لماذا تقوم بالطاعة، وأنت أدرىٰ بنفسك، والله لا يخفىٰ عليه شيء منك، فلا تحاول أن تخدع نفسك، أو تكابر.

الطاعات التي قام المرء بها لا تميز بين المخلص فيها من غيره، ثم يفاجأ المرء أن الله ﷻ لم يقبل منها شيئًا؛ لأن فيها شائبة الرياء، فانتبه لهذه المسألة، فالأمر ليس بهيِّنٍ.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء: ١٤٢، ١٤٣].

قال الطبري(١): «إن المنافقين يخادعون الله بإحرازهم بنفاقهم دماءهم وأموالهم، والله خادعهم بما حَكَم فيهم من منع دمائهم بما أظهروا بألسنتهم من الإيمان، مع علمه بباطن ضمائرهم، واعتقادهم الكفر؛ استدراجًا منه لهم في الدنيا حتىٰ يلقوه في الآخرة، فيوردهم بما استبطنوا من الكفر نار جهنم». انتهىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون: ٤-٧].

قال الطبري(٢): «وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾﴾، يقول: الذين هم يراءون الناس بصلاتهم إذا صلوا؛ لأنهم لا يصلون رغبةً في ثوابٍ، ولا رهبةً من عقابٍ، وإنما يصلونها ليراهم المؤمنون، فيظنونهم منهم، فيكفون عن سفك دمائهم، وسبي ذراريهم، وهم المنافقون الذين كانوا علىٰ عهد رسول الله ﷺ، يستبطنون الكفر، ويظهرون الإسلام». انتهىٰ.

ومن السنة الصحيحة:

في «صحيح مسلم»(٣)، باب مَن أشرك في عمله غير الله، ثم روىٰ عن أبي هريرة،

---

(١) «تفسير الطبري» (٩/ ٣٢٩).
(٢) (٢٤/ ٦٣٣).
(٣) «صحيح مسلم» (٢٩٨٥).

قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تبارك وتعالىٰ: أنا أغنىٰ الشُّركاء عن الشِّرك، مَنْ عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه**».

قال النوويُّ[١]: «قوله: «**أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، مَن عمل عملًا أشرك فيه غيري، تركته وشركه**»، هكذا وقع في بعض الأصول: «**وشركه**»، وفي بعضها: «**وشريكه**»، وفي بعضها: «**وشركته**»، ومعناه: أنا غني عن المشاركة وغيرها، فمَن عمل شيئًا لي ولغيري لم أقبله، بل أتركه لذلك الغير، والمراد أنَّ عمل المرائي باطلٌ لا ثواب فيه، ويأثم به». انتهىٰ.

وفي روايةٍ عند ابن ماجه[٢] بسندٍ صحيحٍ: قال تعالىٰ: «**أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، فمَن عمل لي عملًا أشرك فيه غيري، فأنا منه بريءٌ، وهو للذي أشرك**».

وفي روايةٍ في المسند[٣] بسندٍ حسنٍ من حديث شداد بن اوس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يقول اللهُ تعالىٰ: أنا خير قَسِيمٍ لمَن أشرك بي، مَن أشرك بي شيئًا، فإنَّ جسده وعمله، وقليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به، أنا عنه غنيٌّ**».

قال الشَّيخ سليمان بن عبد الله بن مُحمَّد بن عبد الوهَّاب[٤]: «قوله تعالىٰ: «**أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك**»، لمَّا كان المرائي قاصدًا بعمله الله تعالىٰ وغيره، كان قد جعل الله تعالىٰ شريكًا، فإذا كان كذلك، فالله تعالىٰ هو الغني علىٰ الإطلاق، والشركاء -بل جميع الخَلق- فقراء إليه بكلِّ اعتبارٍ، فلا يليق بكرمه وغناه التام أن يقبل العمل الذي جعل له فيه شريك، فإنَّ كمالَه -تبارك وتعالىٰ- وكرمه وغناه

---

(١) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٨/ ١١٦).

(٢) (٤٢٠٢)، وصححه الألبانيُّ.

(٣) (١٧١٤٠).

(٤) «تيسير العزيز الحميد» (١/ ٤٥٤).

يوجب ألَّا يقبل ذلك، ولا يلزم من اسم التفضيل إثبات غنًى للشركاء، فقد تقع المفاضلة بين الشيئين، وإن كان أحدُهُما لا فضل فيه؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالىٰ: «**مَن عمل عملًا أشرك معي فيه غيري**»، أي: من قصد بذلك العمل الذي يعمله لوجه غيري من المخلوقين، «**تركته وشركه**». انتهىٰ.

قال ابن رجب في «جامعه»[1]: «اعلم أن العمل لغير الله أقسام: فتارةً يكون رياءً محضًا، بحيث لا يراد به سوىٰ مُرَاءاة المخلوقين لغرضٍ دنيويٍّ؛ كحال المنافقين في صلاتهم، كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾، وقال تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾﴾ الآية، وكذلك وصف الله تعالىٰ الكفار بالرِّياء في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وهذا الرِّياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمنٍ في فرض الصَّلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة الواجبة، أو الحج، وغيرهما من الأعمال الظاهرة، أو التي يتعدَّىٰ نفعها، فَإِنَّ الإخلاصَ فيها عزيزٌ، وهذا العمل لا يشك مسلمٌ أنه حابطٌ، وأنَّ صاحبه يستحقُّ المقت من الله والعقوبة.

وتارةً يكون العمل لله، ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله، فالنُّصوص الصحيحة تدل علىٰ بطلانه وحبوطه أيضًا، وأما إن كان أصل العمل لله، ثم طرأت عليه نية الرياء، فإن كان خاطرًا ودفعه، فلا يضره بغير خلافٍ، وإن استرسل معه، فهل

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٧٩).

يحبط عمله أم لا يضره ذلك، ويجازىٰ علىٰ أصل نيته؟ فالراجح أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازىٰ بنيته الأولىٰ». انتهىٰ من «جامع العلوم والحكم».

بوَّب البخاري فقال: باب الرياء والسمعة، ثم روىٰ بسنده[(١)] عن سلمة، قال: سمعت جندبًا يقول: قال النبي ﷺ، ولم أسمع أحدًا يقول: قال النبي ﷺ غيره، فدنوت منه، فسمعته يقول: قال النبي ﷺ: «**مَن سمع، سمع الله به، ومن يرائي، يرائي الله به**».

قال ابن بطال[(٢)]: «قوله: «**مَن سمَّع**»، معناه: مَن سمع بعمله الناس، وقصد به اتخاذ الجاه والمنزلة عندهم، ولم يُرِدْ به وجه الله، فإن الله تعالىٰ يسمع به خلقه، أي: يجعله حديثًا عند الناس الذين أراد نَيل المنزلة عندهم بعمله، ولا ثواب له في الآخرة عليه، وكذلك مَن راءىٰ بعمله الناس، راءىٰ الله به، أي: أطلعهم علىٰ أنه فعل ذلك لهم، ولم يفعله لوجهه، فاستحقَّ علىٰ ذلك سخط الله، وأليم عقابه». انتهىٰ.

قال الخطابي[(٣)]: «معناه: مَن عمل عملًا علىٰ غير إخلاصٍ، وإنما يريد أن يراه الناس ويسمعوه، جُوزي علىٰ ذلك بأن يشهره الله، ويفضحه، ويظهر ما كان يبطنه. وقيل: مَن قصد بعمله الجاه والمنزلة عند الناس، ولم يُرِدْ به وجه الله، فإنَّ الله يجعله حديثًا عند الناس الذين أراد نَيل المنزلة عندهم، ولا ثواب له في الآخرة.

ومعنىٰ «يرائي»: يطلعهم علىٰ أنه فعل ذلك لهم لا لوجهه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٤٩٩).

(٢) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (١٠/ ٢٠٨).

(٣) «فتح الباري» (١١/ ٣٣٦).

﴿لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٦﴾ [هود ١٥، ١٦]. وقيل: المراد: مَن قصد بعمله أن يسمعه الناس ويروه ليعظموه وتعلو منزلته عندهم، حصل له ما قصد، وكان ذلك جزاءه علىٰ عمله، ولا يُثَاب عليه في الآخرة.

وقيل: المعنىٰ: مَن سمع بعيوب الناس وأذاعها، أظهر الله عيوبه وسمعه المكروه.

وقيل: المعنىٰ: مَن نسب إلىٰ نفسه عملًا صالحًا لم يفعله، وادعىٰ خيرًا لم يصنعه، فإنَّ الله يفضحه ويظهر كذبه.

وقيل: المعنىٰ: مَن يرائي الناس بعمله، أراه الله ثواب ذلك العمل، وحرمه إياه.

وقيل: معنىٰ «**سمع الله به**» شهره، أو ملأ أسماع الناس بسوء الثناء عليه في الدنيا، أو في القيامة بما ينطوي عليه من خبث السريرة». انتهىٰ.

قال الحافظ[(١)] **تعليقًا علىٰ كلام الخطابي**: «قلت: ورد في عدة أحاديث التصريح بوقوع ذلك في الآخرة، فهو المعتمد، فعند أحمد من حديث أبي هند الداري رفعه: «**مَنْ قام مقامَ رياءٍ وسمعةٍ، رآىٰ الله به يوم القيامة، وسمع به**».

وللطبراني من حديث معاذٍ مرفوعًا: «**ما من عبدٍ يقوم في الدنيا مقام سمعةٍ ورياءٍ إلا سمع الله به علىٰ رؤوس الخلائق يوم القيامة**»، وفي الحديث استحباب إخفاء العمل الصالح، لكن قد يستحبُّ إظهاره ممَّن يُقْتدىٰ به علىٰ إرادته الاقتداء به، ويُقدَّر ذلك بقدر الحاجة.

قال ابن عبد السلام: يستثنىٰ من استحباب إخفاء العمل مَن يظهره ليقتدىٰ به، أو لينتفع به؛ ككتابة العلم.

---

(١) «فتح الباري» (١١/ ٣٣٧).

قال الطبري: كان ابن عمر وابن مسعود وجماعة من السلف يتهجدون في مساجدهم، ويتظاهرون بمحاسن أعمالهم ليقتدىٰ بهم، قال: فمَن كان إمامًا يستن بعمله، عالمًا بما لله عليه، قاهرًا لشيطانه، استوىٰ ما ظهر من عمله وما خفي؛ لصحة قصده، ومن كان بخلاف ذلك، فالإخفاء في حقه أفضل، وعلىٰ ذلك جرىٰ عمل السلف، فمن الأول حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال: سمع النبي ﷺ رجلًا يقرأ ويرفع صوته بالذِّكر، فقال: «**إنه أوَّاب**»، قال: فإذا هو المقداد بن الأسود، أخرجه الطبري.

ومن الثاني: حديث الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قام رجلٌ يصلي، فجهر بالقراءة، فقال له النبي ﷺ: «**لا تسمعني، وأسمع ربك**»، أخرجه احمد وابن أبي خيثمة، وسنده حسن. انتهىٰ.

بوَّب البخاري[(١)]، فقال: باب مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، قال الحافظ[(٢)] تعليقًا علىٰ الترجمة: أي: فضله، أو الجواب محذوف تقديره: فهو المعتبر.

وفي «صحيح مسلم»، باب مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله، ثم رويا -أي: البخاري ومسلم-[(٣)] من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلىٰ النبي ﷺ، فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذِّكر، والرجل يقاتل ليرىٰ مكانه، فمَن في سبيل الله؟ قال: «**مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله**».

---

(١) «صحيح البخاري» (٤/ ٢٠).

(٢) «فتح الباري» (٦/ ٢٨).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤).

وفي روايةٍ عند البخاري[١] من حديث أبي موسىٰ أيضًا قال: جاء رجلٌ إلىٰ النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما القتال في سبيل الله؟ فإن أحدنا يقاتل غضبًا، ويقاتل حميةً، فرفع إليه رأسه، قال: وما رفع إليه رأسه إلا أنَّه كان قائمًا -أي: الرجل السَّائل- فقال: «**مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله** عَزَّوَجَلَّ».

وروىٰ النسائيُّ[٢] بسندٍ صحيحٍ من حديث أبي أمامة الباهلي قال: جاء رجلٌ إلىٰ النبي ﷺ فقال: أرأيت رجلًا غزا يلتمس الأجر والذِّكر، ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لا شيء له**»، فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله ﷺ: «**لا شيء له**»، ثم قال: «**إنَّ الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا، وابتغي به وجهه**».

قال الحافظ[٣]: «قوله: «والرجل يقاتل للذِّكر»، أي: ليُذكَر بين الناس، ويشتهر بالشجاعة. قوله: «والرجل يقاتل ليرىٰ مكانه»، ويقاتل رياءً، فمرجع الذي قبله -أي: يقاتل للذِّكر- إلىٰ السُّمعة، ومرجع هذا إلىٰ الرياء، وكلاهما مذمومٌ، فالحاصل من روايات الحديث: أن القتال يقع بسبب خمسة أشياء: طلب المغنم، وإظهار الشجاعة، والرياء، والحمية، والغضب، وكلٌّ منها يتناوله المدح والذم.

قوله ﷺ: «**مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله**»، المراد بكلمة الله: دعوة الله إلىٰ الإسلام، ويحتمل أن يكون المراد أنه لا يكون في سبيل الله إلا مَن كان سبب قتاله طلب إعلاء كلمة الله فقط، بمعنىٰ أنه لو أضاف إلىٰ ذلك سببًا من الأسباب المذكورة، أخلَّ بذلك، ويحتمل ألَّا يُخلَّ إذا حصل ضمنًا لا أصلًا

---

(١) «صحيح البخاري» (١٢٣).

(٢) «سنن النسائي» (٣١٤٠).

(٣) «فتح الباري» (٦/ ٢٨).

ومقصودًا، وبذلك صرَّح الطبري، فقال: إذا كان أصل الباعث هو الأول، لا يضره ما عرض له بعد ذلك.

فتصير المراتب -حالات الباعث علىٰ الطاعة، ومنها الجهاد- خمسًا: أن يقصد الشيئين معًا -أي: وجه الله تعالىٰ، ووجه المخلوقين- أو يقصد أحدهما صرفًا، أو يقصد أحدهما، ويحصل الآخر ضمنًا، فالمحذور أن يقصد غير الإعلاء، فقد يحصل الإعلاء ضمنًا، وقد لا يحصل، ويدخل تحته مرتبتان، وهذا ما دلَّ عليه حديث أبي موسىٰ، ودونه أن يقصدهما معًا، فهو محذورٌ أيضًا.

قال ابن أبي جمرة: ذهب المُحقِّقون إلىٰ أنه إذا كان الباعث الأول قصد إعلاء كلمة الله، لم يَضرَّه ما انضاف إليه.

قوله ﷺ: «**مَن قاتل لتكون كلمة الله أعلىٰ، فهو في سبيل الله**»، جواب في غاية البلاغة والإيجاز، وهو من جوامع كلمه ﷺ؛ لأنه لو أجابه بأن جميع ما ذكره ليس في سبيل الله، احتمل أن يكون ما عدا ذلك كله في سبيل الله، وليس كذلك، فعدل إلىٰ لفظٍ جامعٍ عدل به عن الجواب عن ماهية القتال إلىٰ حال المقاتل، فتضمن الجواب وزيادة.

ويحتمل أن يكون الضمير في قوله: «**فهو**» راجعًا إلىٰ القتال الذي في ضمن «**قاتل**»، أي: فقتالُهُ قتالٌ في سبيل الله، واشتمل طلب إعلاء كلمة الله علىٰ طلب رضاه، وطلب ثوابه، وطلب دحض أعدائه، وكلها متلازمة.

والحاصل ممَّا ذكر: أنَّ القتال منشؤه القوة العقلية، والقوة الغضبية، والقوة الشهوانية، ولا يكون في سبيل الله إلا الأول.

وقال ابن بطال: إنَّما عدل النبي ﷺ عن لفظ جواب السائل؛ لأن الغضب والحمية قد يكونان لله، فعدل النبي ﷺ عن ذلك إلىٰ لفظٍ جامعٍ، فأفاد دفع الإلباس، وزيادة الإفهام، وفيه بيان أن الأعمال إنما تحتسب بالنية الصالحة، وأن الفضل الذي ورد في المجاهد يختصُّ بمَن ذكر». انتهىٰ من «فتح الباري».

وروىٰ البخاري من حديث أبي موسىٰ المتقدِّم في باب مَن قاتل للمغنم، هل ينقص من أجره؟

قال الحافظ[(١)]: والذي يظهر أن النقص من الأجر أمرٌ نسبيٌّ، فليس من قصد إعلاء كلمة الله محضًا في الأجر مثل مَن ضمَّ إلىٰ هذا القصد قصدًا آخر من غنيمةٍ، أو غيرها.

في «صحيح مسلم»[(٢)] باب بيان قدر ثواب مَن غزا فغنم، ومَن لم يغنم، ثم روىٰ من حديث عبد الله بن عمرٍو، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من غازيةٍ، أو سريةٍ، تغزو فتغنم وتسلم، إلَّا كانوا قد تَعجَّلوا ثلثي أُجُورهم، وما من غازيةٍ، أو سريةٍ، تخفق وتُصَاب إلَّا تمَّ أجورهم**».

وفي روايةٍ[(٣)]: قال ﷺ: «**ما من غازيةٍ تغزو في سبيل الله، فيصيبون الغنيمة، إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة، ويبقىٰ لهم الثلث، وإن لم يصيبوا غنيمةً، تم لهم أجرهم**».

قال النووي[(٤)]: «قال أهل اللغة: الإخفاق: أن يغزو فلا يغنموا شيئًا، وكذلك كل طالب حاجة إذا لم تحصل، فقد أخفق، ومنه أخفق الصائد إذا لم يقع له صيدٌ.

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٢٢٦).

(٢) «صحيح مسلم» (١٩٠٦).

(٣) «صحيح مسلم» (١٩٠٦).

(٤) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٣/ ٥٢).

وأما معنىٰ الحديث: فالصواب الذي لا يجوز غيره أن الغزاة إذا سلموا، أو غنموا، يكون أجرهم أقل من أجر مَن لم يسلم، أو سلم ولم يغنم، وأن الغنيمة هي في مقابلة جزءٍ من أجر غزوهم، فإذا حصلت لهم، فقد تعجلوا ثلثي أجرهم المترتب علىٰ الغزو، وتكون هذه الغنيمة من جملة الأجر، وهذا موافقٌ للأحاديث الصحيحة المشهورة عن الصحابة؛ كقوله: «منَّا مَن مات ولم يأكل من أجره شيئًا، ومنَّا مَن أينعت له ثمرته، فهو يهدبها»، أي: يجتنيها، فهذا الذي ذكرنا هو الصواب، وهو ظاهر الحديث، ولم يأتِ حديثٌ صريحٌ صحيحٌ يخالف هذا، فتعيَّن حَمْله علىٰ ما ذكرنا.

يشير الإمام النَّوويُّ -رحمه الله تعالىٰ- إلىٰ حديثٍ في «الصحيحين» من رواية خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: هاجرنا مع رسول الله ﷺ نبتغي وجه الله، فَوَجب أجرنا علىٰ الله، ومنَّا مَن مضىٰ، أو ذهب، لم يأكل من أجره شيئًا، كان منهم مصعب بن عمير، قُتِلَ يوم أُحُد، لم يترك إلا نمرةً، كنا إذا غطينا بها رأسه، خرجت رجلاه، وإذا غطي بها رجلاه خرج رأسه، فقال لنا النبي ﷺ: «**غطُّوا بها رأسه، واجعلوا علىٰ رجله الإذخر**»، أو قال: «**ألقوا علىٰ رجله من الإذخر**»، «ومنَّا مَن قد أينعت له ثمرته، فهو يهدبها». انتهىٰ.

قال النووي[(١)]: «قول خباب: «فوجب أجرنا علىٰ الله»، معناه وجوب إنجاز وعد بالشرع، لا وجوب بالعقل.

قول خباب: «فمنَّا مَن مضىٰ لم يأكل من أجره شيئًا»، معناه: لم يوسع عليه في الدنيا، ولم يعجل له شيء من جزاء عمله.

---

(١) «شرح النووي علىٰ مسلم» (٧/ ٦).

قول خباب رضي الله تعالىٰ عنه: «منَّا مَن أينعت له ثمرته»، أي: أدركت ونضجت.

قوله: «فهو يَهدبها»، هو بفتح أوله وبضم الدال وكسرها، أي: يجتنيها، يقال: ينع الثمر وأينع ينعًا وينوعًا، فهو يانع، وهدبها يهدبها إذا جناها، وهذا استعارة لما فتح عليهم من الدنيا». انتهىٰ.

روىٰ أبو داود والحاكم[(١)]، وقال الذهبي: صحيح عن عبد الله بن عمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: يا رسول الله، أخبرني عن الجهاد والغزو، فقال: «**يا عبد الله بن عمرو، إن قاتلت صابرًا محتسبًا، بعثك الله صابرًا محتسبًا، وإن قاتلت مرائيًا مكاثرًا، بعثك الله مرائيًا مكاثرًا، يا عبد الله بن عمرو، علىٰ أي حالٍ قاتلت أو قتلت، بعثك الله علىٰ تلك الحال**».

في «المرقاة»[(٢)]، قال الطيبي: هو مطلق، يحتمل أنه سأل عن حقيقته، وعن ثوابه، وعن كونه مقبولًا عند الله وغير مقبول، والجواب ينبئ أنه سأل عن الثالث -حد قبول الجهاد عند الله تعالىٰ- «فقال: يا عبد الله بن عمرو»: لعل المراد بالنداء إظهار خصوصيته، والحث علىٰ إقباله بكُلِّيَّته «إن قاتلت صابرًا محتسبًا»، أي: خالصًا لله تعالىٰ، وهما حالان مترادفان، أو متداخلان «بعثك الله تعالىٰ صابرًا محتسبًا»، أي: متصفًا بهذين الوصفين؛ لما روي: «كما تعيشون تموتون، وكما تموتون تحشرون».

قال الطيبي: «أعاده في الجزاء ليؤذن بالتنكير فيهما علىٰ أن له أجرًا وثوابًا لا يقادر قدره، أي: بَعثَك الله صابرًا كاملًا فيه، فيُوفَّىٰ أجرًا بغير حسابٍ. ومحتسبًا، أي: مخلصًا متناهيًا في إخلاصه، راضيًا وَمَرضيًّا، ورضوان من الله أكبر، «وَإنْ قاتلت

---

(١) «سنن أبي داود» (٢٥١٩)، «المستدرك» (٢٤٣٧).

(٢) «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٦/ ٢٤٨٩).

مرائيًا»، أي: في نية الأعمال «مكثرًا»، أي: في تحصيل المال «بعثك الله مرائيًا مكثرًا».

قال الطيبي: «التكاثر: التباري في الكثرة، والتباهي بها، وقد يكون هذا في الأنفس والأموال، قال تعالىٰ: ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠]، فالرجل يجاهد للغنيمة وإكثار المال ليباهي به، ولأن يكثر رجاله وأعوانه وأجناده، ولإعلاء كلمة الله وإظهار دينه.

وقال ابن الملك: قوله: «مكاثرًا»، أي: مفاخرًا. وقيل: هو أن يقول الرجل لغيره: أنا أكثر منك مالًا وعددًا، أي: غزوت ليقال: إنك أكثر جيشًا وأشجع، أي: ينادىٰ عليك يوم القيامة: إن هذا غزا فخرًا ورياءً لا محتسبًا بأعماله «يا عبد الله بن عمرٍو»، أي: كن حاضرًا يقظًا متأملًا متفكرًا «علىٰ أيِّ حالٍ قاتلت، أو قتلت، بعثك الله علىٰ تلك الحال»، وكذا بقية الأعمال علىٰ هذا المنوال». انتهىٰ من «المرقاة».

روىٰ الإمام أحمد والحاكم[(١)]، وسند الحديث صحيح، عن أبي سعيدٍ، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر المسيح الدجال، فقال: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟**». قال: قلنا: بلىٰ، فقال: «**الشرك الخفي، أن يقوم الرجل يصلي، فيزين صلاته؛ لما يرىٰ من نظر رجلٍ**».

وقد فسَّر النبي ﷺ الرياء بمثالٍ واحدٍ، وهو الصلاة، وعليه فَقِسْ في كل العبادات.

قوله ﷺ: «**الشرك الخفي**»، فإنه شرك لا يظهر للناس أنه شرك، بل يظهر لهم أنه صلاحٌ.

---

(١) «المسند» (١١٢٥٢)، و«المستدرك» (٧٩٣٦).

وروىٰ أبو داود وأحمد وابن ماجه[١] بسندٍ صحيحٍ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن تعلَّم علمًا مما يبتغىٰ به وجه الله عَزَّوَجَلَّ لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا، لم يجد عَرف الجنة يوم القيامة**»، يعني ريحها.

قال الطيبي[٢]: «وفيه: أن مَن تعلم لرضا الله تعالىٰ مع إصابة العرض الدنيوي، لا يدخل تحت الوعيد؛ لأنَّ ابتغاء وجه الله تعالىٰ يأبىٰ إلا أن يكون متبوعًا، ويكون العرض تابعًا، ووصف العلم بابتغاء وجه الله إمَّا للتفصيل والتمييز، فإن بعضًا من العلوم ممَّا يستعاذ منه، كما ورد: «**أَعُوذُ بالله من عِلْمٍ لا ينفع**»، وإما للمدح والوعيد من باب التغليظ والتهديد.

وسمعتُ بعض العلماء الزاهدين يقول: مَن طلب الدنيا بالعلوم الدنيوية، كان أهون عليه من أن يطلبها بغيرها من العلوم، فهو كمَن جرَّ جيفةً بآلةٍ من آلات اللهو، وذلك كمَن جرَّها بأوراق تلك العلوم». اهـ.

قال الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي[٣]: «قوله ﷺ: «**مما يبتغىٰ وجه الله**»، بيان للعلم، أي: العلم الذي يطلب به رضا الله، وهو العلم الديني، فلو طلب الدنيا بعلم الفلسفة ونحوه، فهو غير داخلٍ في أهل هذا الوعيد. «عرضًا»، أي: متاع».

ملحوظة[٤]: هناك فرقٌ بين من يأخذ الدنيا ليتفرغ لعمل الآخرة، وبين مَن يعمل عمل الآخرة ليأخذ الدنيا، فتأمل، فإنه موضع الزلل، ثمَّ الاستثناء من أعمِّ الأوصاف، أي: لا يتعلَّمه لغرضٍ من الأغراض إلا ليصيب به شيئًا من متمتعات الدنيا وَإِنْ قلَّ،

---

(١) «المسند» (٨٤٥٧)، «سنن ابن ماجه» (٢٥٢)، و«سنن أبي داود» (٣٦٦٤).

(٢) «مرقاة المفاتيح» (١/ ٣٠٤).

(٣) «مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (١/ ٣٢٦).

(٤) «مرقاة المفاتيح» (١/ ٣٠٥).

ومن المعلوم أَنَّ قصدها هذا ولو مع قصد الآخرة موجبٌ للإثم، فوجه التَّقييد ترتُّب العقاب الآتي عليه، أو لأن الغالب أن مَن قصد الدنيا لا يقصد معها الآخرة.

قوله ﷺ: «**لم يجد عَرف الجنة يوم القيامة**».

قال القاري في «المرقاة»[(١)]: «لم يجد حين يجد علماء الدين العاملين من مكانٍ بعيدٍ «**عَرف الجنة**»، أي: ريحها الطيبة المعروفة بأن توجد من مسيرة خمسمائة سنةٍ. قال التوربشتي: قد حمل هذا المعنىٰ علىٰ المبالغة في تحريم الجنة علىٰ المختص بهذا الوعيد، وليس كذلك، فإنَّ المختص بهذا الوعيد إن كان من أهل الإيمان، فلا بد وأن يدخل الجنة؛ عرف بالنصوص الصحيحة، فتأويل هذا الحديث أن يكون تهديدًا وزجرًا عن طلب الدنيا بعمل الآخرة، وأيضًا يوم القيامة يوم موصوف، وذلك من حين يُحشر الناس إلىٰ أن ينتهي بهم الأمر؛ إما إلىٰ الجنة، أو إلىٰ النار، ولا يلزم من عدم وجدانها يوم القيامة فقط عدم وجدانها مطلقًا، وبيان ذلك أن الآمنين من الفزع الأكبَر -وهي النفخة الأخيرة- إذا وردوا القيامة يمدُّون برائحة الجنة؛ تقويةً لقلوبهم وأبدانهم، وتسليةً لهمومهم وأشجانهم علىٰ مقدار حالهم في المعرفة وإيقانهم، ومَن تعلَّم للأغراض الفانية، وكان من حقه ألَّا يتعلمه إلا ابتغاء وجه الله، يكون كمَن حدث مرضٌ في دماغه يمنعه عن إدراك الروائح، فلا يجد رائحة الجنة؛ لما في قلبه من الأغراض المختلفة بالقوىٰ الإيمانية.

وقال ابن حجر: هذا الوعيد مطلق إن استحلَّ ذلك؛ لأنَّ تحريم طلب العلم بهذا القصد فقط مُجْمعٌ عليه، ومعلومٌ من الدين بالضرورة، ومفهوم الحديث: أنَّ مَن أخلص قصده، فتعلَّم لله، لا يضره حصول الدنيا له من غير قصدها بتعلُّمه، بل من

---

(١) «مرقاة المفاتيح» (١/ ٣٠٥).

شأن الإخلاص بالعلم أن تأتي الدنيا لصاحبه راغمةً كما ورد: «**مَنْ كان همه الآخرة، جمَع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وتأتيه الدُّنيا وهي راغمة**»[(١)]، رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، ورواه الترمذي[(٢)] عن ابن عمر، ولفظه: «**مَنْ تعلَّم علمًا لغير الله، فليتبوَّأ مقعده من النار**».

والنيَّة الصحيحة أن تتعلَّم صنوف العلوم ابتغاء وجه الله حتىٰ تعبده علىٰ طريقةٍ صحيحةٍ، وتؤجر من الله علىٰ هذا العلم، وأيضًا حتىٰ تنشره، أمَّا التعلم من أجل أن تصيب عرض الدنيا، فيكون هذا هو الحامل علىٰ طلب العلم أصلًا، فهذا لا شك أنه مردود عليه، وعرض الدنيا أمرٌ واسعٌ، يشمل أشياء كثيرة، منها: علو المنزلة عند الناس مثلًا، مع ملاحظة أنه قد يلبس الشيطان علىٰ المرء أيضًا في أن ذيوع صيته وعلو مكانته، وهذه الدعاية والشهرة إنما هي من أجل نشر الدعوة والعلم، فلا تكذب علىٰ نفسك، فالكذب علىٰ النفس سرابٌ.

فأمَّا من تعلم العلم لا يريد إلا وجه الله حقًّا، ولكن بعد أن تعلم العلم انهال عليه متاع الدنيا من كل جهةٍ من حيث لا يحتسب، فهذا رزقٌ رزقه الله إياه، ولكن لا يحملنه هذا الرزق علىٰ أن يزداد في طلب العلم، بل يجاهد نفسه في الإخلاص في الطلب، والله المستعان، وهذه مسألة دقيقة جدًّا.

روىٰ الإمام أحمد[(٣)] بسند حسن من حديث عبادة بن نسي، عن شداد بن أوس، أنه بكىٰ، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: شيئًا سمعتُهُ من رسول الله ﷺ يقوله،

---

(١) «المسند» (٢١٥٩٠).

(٢) «سنن الترمذي» (٢٦٥٥).

(٣) «المسند» (١٧١١٩).

فذكرته، فأبكاني، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**أتخوف علىٰ أمتي الشرك، والشهوة الخفية**». قال: قلت: يا رسول الله، أتشرك أُمَّتك من بعدك؟ قال: «**نَعم، أما إنَّهم لا يعبدون شمسًا، ولا قمرًا، ولا حجرًا، ولا وثنًا، ولكن يُرَاءون بأعمالهم، والشهوة الخفيَّة: أن يصبح أحدهم صائمًا، فتعرض له شهوةٌ من شهواته، فيترك صومه**».

في «**المرقاة**» **قال الطيبي** (١) رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعني إذا كان الرجل في طاعةٍ من طاعات الله تعالىٰ، فتعرض له شهوةٌ من شهوات نفسه، يرجح جانب النفس علىٰ جانب الله تعالىٰ، فيتبع هوىٰ نفسه، فيؤديه ذلك إلىٰ الهلاك والردىٰ، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩﴾ [النازعات: ٣٧].

وفيه: أن المراد بالهوىٰ في الآية: الشهوة الجلية، وهي المحرمات والأمور المنهية، ثم قال: وسُمِّي خفيًّا؛ لخفاء هلاكه، أو مشاكله؛ لقوله: «الشرك؛ لأن المراد منه الشرك الخفي.

وروىٰ الإمام أحمد (٢) أيضًا، وسند الحديث صحيح -وَحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح ابن ماجه» - عن أبي سعد بن أبي فضالة الأنصاريٰ -وكان من الصحابة- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ليومٍ لا ريب فيه، نادىٰ منادٍ: مَن كان أشرك في عملٍ عمله لله، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإنَّ الله أغنىٰ الشركاء عن الشرك**».

وفي المسند (٣) أيضًا بسندٍ حسنٍ عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ

---

(١) «مرقاة المفاتيح» (٨/ ٣٣٤١).

(٢) «المسند» (١٧٨٨٨).

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٦٣٠)، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٩٥١).

أخوفَ ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «**الرياء، يقول الله ﷻ لهم يوم القيامة إذا جزىٰ الناس بأعمالهم: اذهبوا إلىٰ الذين كنتم تراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً**».

في «**المرقاة**»[(١)]: «قوله ﷺ: «**إذا جمع الله الناس يوم القيامة ليومٍ...**»، أي: لحسابه وجزائه «... **لا ريب فيه**»، أي: في وقوع ذلك اليوم، أو في حصول ذلك الجمع.

قال الطيبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومعناه: جمع الله الخَلق ليومٍ لا بد من حصوله، ولا يشكُّ في وقوعه؛ لتُجْزىٰ كلُّ نفسٍ بما كسبت. وقوله ﷺ: «**يوم القيامة**»؛ توطئةً له، ويجوز أن يكون ظرفًا لـ «جمع»، كما جاء في «الاستيعاب»: «**إذا كان يوم القيامة، جمع الله الأولين والآخرين ليومٍ لا ريب فيه**»، أي: جمع الله الخَلق يوم القيامة ليجزيهم فيه، «**نادىٰ منادٍ: مَنْ كان أشرك في عملٍ عَمِلَهُ لله أحدًا**»، أي: أحدًا غير الله؛ ولذا قال: «**فليطلب ثوابَه من عند غير الله**»، ولعلَّ وجه العدول عن قوله: «من عنده»، أو «من عند ذلك الأحد»، ما يحصل به من إبهام الإيهام، ويخل به مقام المرام، «**فإنَّ الله أغنىٰ الشركاء عن الشرك**». انتهىٰ

قال المناوي في «فيض القدير»[(٢)]: «**إذا كان يوم القيامة، نادىٰ منادٍ: مَن عمل عملًا لغير الله، فليطلب...**»، أمر تهديد ووعيد «... **ثوابه ممَّن عمله له**»، أي: يأمر الله بعض ملائكته أن ينادي في الموقف بذلك، أو يقوله ربُّ العزة، وتسمعه ملائكته، فيتحدثون به، أو يلهمهم ذلك، فيُحدِّثوا نفوسهم به، وفيه حجةٌ لمَن ذهب إلىٰ أن نحو الرِّياء يحبط العمل وَإِنْ قلَّ، ولا يعتبر غلبة الباعث علىٰ العمل». انتهىٰ.

---

(١) «مرقاة المفاتيح» (٨/ ٣٣٣٣).

(٢) (١/ ٤٢٩).

في «صحيح مسلم»[(١)]: باب مَن قاتل للرياء والسمعة استحق النار، ثم روىٰ من حديث أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ أول الناس يقضىٰ يوم القيامة عليه رجلٌ استشهد، فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتىٰ استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالِم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب علىٰ وجهه حتىٰ أُلْقِيَ في النار، ورجل وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيلٍ تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلتَ ليقال: هو جوادٌ، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب علىٰ وجهه، ثم ألقي في النار**».

قال النَّوويُّ[(٢)]: «قولُهُ ﷺ في الغازي والعالِم والجواد، وعقابهم علىٰ فعلهم ذلك لغير الله، وإدخالهم النار- دليلٌ علىٰ تغليظ تحريم الرياء وشدة عقوبته، وعلىٰ الحث علىٰ وجوب الإخلاص في الأعمال، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، وفيه أن العمومات الواردة في فضل الجهاد إنما هي لمَن أراد الله تعالىٰ بذلك مخلصًا، وكذلك الثناء علىٰ العلماء، وعلىٰ المنفقين في وجوه الخيرات، كله محمول علىٰ مَن فعل ذلك لله تعالىٰ مخلصًا». اهـ.

---

(١) «صحيح مسلم» (١٩٠٥).

(٢) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٣/ ٥١).

قال القاري في «شرح المشكاة»(١): «قوله ﷺ: «**إنَّ أوَّل الناس يُقضىٰ عليه يوم القيامة**»، المعنىٰ: أي: يُحاسب ويُسأل عن أفعاله قبل، ويُستفاد منه أنه أول المقضي عليهم لا مطلقًا.

قوله ﷺ: «**فعَرَفها**»، بالتخفيف، أي: تذكرها، فكأنه من الهول والدهشة نسيها، وذهل عنها «**فقال تعالىٰ: فما عملتَ فيها؟**»، أي: في مقابلتها شكرًا لها، أي: في أيامها لينفعك اليوم «**قال**»، أي: الرجل «**قاتلت فيك**»، أي: جاهدت في جهتك خالصًا لك، أي: حاربت لأجلك، فـ«في» تعليلية «**حتَّىٰ استشهدت**»، الظاهر أن هذا المقول صدر منه علىٰ زعمه، قال تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ١٠٤﴾ [الكهف: ١٠٤]. ويحتمل أنه مبالغة في التمويه المعتاد به علىٰ ما ورد، كما يعيشون يموتون، وكما يموتون يحشرون، وقد قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ١٨﴾ [المجادلة: ١٨]، قال تعالىٰ: «**كذبت**»، أي: في دعوىٰ الإخلاص، أو في هذا القول «**ولكنك قاتلت لأن يقال**»، أي: في حقك أنك، أو هو «**جريء**»، فعيل من الجراءة، أي: شجاع «**فقد قيل**»، أي: ذلك القول لك وفي شأنك، فحصل مقصودك وغرضك من قتالك «**ثم أمر به**»، أي: قيل لخَزَنة جهنم: ألقوه في النار «**فسحب**»، أي: جرَّ «**علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار**»، مبالغة في تنكيله «**ورجل تعلم العلم**»، أي: الشرعي «**وعلمه**»، أي: الناس، أي: وصل إلىٰ مرتبة الكمال والتكميل «**وقرأ القرآن**»، فهو تخصيص بعد تعميم؛ إذ قراءة القرآن من العلم، أو المراد به مجرد تلاوة القرآن، يعني: التعلم والتعليم لم يمنعاه عن الاشتغال بالقرآن، وهذا أظهر.

---

(١) «مرقاة المفاتيح» (١/ ٢٨٨).

قال عبد الله بن مسعودٍ: «ليس حفظ القرآن بحفظ الحروف، ولكن بإقامة حدوده».

«**فأتي به**»: إلىٰ محضر الحساب «**فعرفه نعمه**» تعالىٰ، أو نعم الرجل «**فعرفها**»، فكأنه لغفلته عنها كان أنكرها، قال تعالىٰ: «**فما عملتَ فيها**»، أي: هل صرفتها في مرضاتي أم في غيرها «**قال: تعلَّمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن**»، أي: صرفت نعمتي التي أنعمت بها علي في الاشتغال بالعلم والعمل والقراءة ابتغاءً لوجهك، وشكرًا لنعمتك «**قال: كذبت**» في دعوىٰ مقام الإخلاص، أو علىٰ مقتضىٰ عادتك «**ولكنك تعلمت العلم ليقال: إنك عالِم**»، ولعلَّه لم يقل: وعلمت العلم ليقال: إنك معلمٌ؛ للاختصار، واكتفاءً بالمقايسة، أو لأن أساس الشيء إذا لم يكن علىٰ الإخلاص، فيبعد بناؤه أن يكون علىٰ وجه الاختصاص «**وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل**»، لك عالِم وقارئ، فما لك عندنا أجر «**ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار**»، نعوذ بالله منها، «**ورجل وسع الله عليه**»، أي: كثر ماله، وأعطاه، عطف بيان «**من أصناف المال كله**»؛ كالنقود والمتاع والعقار والمواشي، فأتي به علىٰ رءوس الخلائق للافتضاح «**فعرفه نعمه فعرفها**»، قال تعالىٰ: «**فما عملتَ فيها؟**»، أي: في مقابلة النعم، أو في الأموال «**قال: ما تركت من سبيلٍ**»، «من» زائدة؛ تأكيدًا لاستغراق النفي «تحب أن ينفق فيها»؛ كبناء المساجد والمدارس وإعطاء الزكاة والصدقات «**إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت**»، أي: في قولك: لك «**ولكنك فعلتَ ليقال: هو جواد**»، أي: سخي كريم «**فقد قيل**»، وفيه إشارةٌ إلىٰ أن الله لا يضيع أجر مَن عمل لأيِّ غرضٍ يكون «**ثم أمر به فسُحب علىٰ وجهه**»، إلىٰ النار وبئس المصير». اهـ من «المرقاة».

قال الشوكاني في «النيل»[(١)]: «وهذا الحديث فيه دليل علىٰ أن فعل الطاعات العظيمة مع سوء النية من أعظم الوبال علىٰ فاعله، فإن الذي أوجب سحبه في النار علىٰ وجهه هو فعل تلك الطاعة المصحوبة بتلك النية الفاسدة، وكفىٰ بهذا رادعًا لمن كان له قلب، أو ألقىٰ السمع وهو شهيد، اللهم إنا نسألك صلاح النية، وخلوص الطوية». اهـ.

قال ابن عبد البرِّ: «وهذا الحديث فيمَنْ لم يرد بعلمه وعمله وجه الله تعالىٰ». اهـ.

قال الهيتميُّ[(٢)]: «ومن علامات إخلاص العالِم في علمه: أنه لو ظهر مَن هو أحسن منه وعظًا، وأغزر منه علمًا، والناس له أشد قبولًا، فرح به ولم يحسده، نعم لا بأس بالغبطة وهو أن يتمنىٰ لنفسه مثل علمه، وأنه لو حضر الأكابر مجلسه لم يتغير كلامه، بل يكون ناظرًا للخلق كلهم بعينٍ واحدةٍ، وألَّا يحب اتباع الناس له في الطرقات». اهـ.

قال القرافي[(٣)]: «الفرق بين قاعدة الرياء في العبادات وبين قاعدة التشريك في العبادات». اهـ.

المراد بالتشريك في العبادات: أن بعض العبادات التي أمَر بها الشرع جعل الله تعالىٰ فيها للمكلف من المنافع مما لا يرىٰ ولا يبصر، مثال ذلك: مَنْ جاهد ليحصل طاعة الله بالجهاد، وليحصل السَّبايا والكراع والسِّلاح من جهة أموال العدو، قال تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن

(١) «نيل الأوطار» (١/ ٢٥٦).
(٢) «الزواجر» (١/ ٧٩).
(٣) «أنوار البروق في أنواء الفروق» (٣/ ٣٦).

﴿يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [الفتح: ١٥].

وقال تعالىٰ: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفتح: ٢].

وكذلك مَن حج وشرك في حجِّه غرض المتجر بأن يكون جل مقصوده أو كله السفر للتجارة خاصةً، ويكون الحج إما مقصودًا مع ذلك، أو غير مقصودٍ، وإنما يقع تابعًا اتفاقًا.

قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٩٨].

روىٰ البخاريُّ[(١)]، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كانت عكاظ، ومجنة، وذو المجاز أسواقًا في الجاهلية، فتأثموا أن يتَّجروا في المواسم، فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٩٨] في مواسم الحج».

قال ابن كثير[(٢)]: «عن ابن عباس: لا حرج عليكم في الشراء والبيع قبل الإحرام وبعده». اهـ.

مثال ثالث: من صام ليصحَّ جسده، أو ليحصل زوال مرضٍ من الأمراض التي تداوىٰ بالصوم بحيث يكون التداوي هو مقصوده، أو بعض مقصوده، والصوم مقصود مع ذلك.

روىٰ الشيخان[(٣)] من حديث ابن مسعودٍ، قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر**

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٥١٩).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٠٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠).

الشَّباب، مَن استطاع منكم الباءة فليتزوَّج، فإنَّه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومَن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاءٌ».

روىٰ أبو نعيمٍ[(١)] بسندٍ ضعيفٍ، ومعناه صحيح عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «**صوموا تصحوا**»، قال الألبانيُّ[(٢)]: لا شك أن الصوم الشرعي فيه كل الفوائد، لكن هذا الحديث وبهذا اللفظ لم يصحَّ.

مثال رابع: من يتوضأ بقصد التبرُّد، أو التنظيف، لم يضره في عبادته، ولم يحرم عليه بالإجماع.

ثمَّ قال القرافي[(٣)]: «فجميع هذه الأغراض لا يدخل فيها تعظيم الخالق، بل هي تشريك أمورٍ من المصالح ليس لها إدراكٌ، ولا تصلح للإدراك، ولا للتعظيم، فلا تقدح في العبادات؛ إذ كيف تقدح وصاحب الشرع قد أمر بها، نعم إذا تجردت العبادة عن هذه الأغراض، زاد الأجر، وعظم الثواب، وإذا لم تجرد العبادة عنها، نقص الأجر، وإن كان لا سبيل إلىٰ الإثم والبطلان». اهـ.

وأما الرياء فيها، فإنه لمَّا كان شركًا وتشريكًا مع الله تعالىٰ في طاعته لمن يرىٰ ويبصر من الخلق لأحد أغراضٍ ثلاثةٍ –التعظيم، وجلب المصالح الدنيوية، ودفع المضار الدنيوية– ففرقٌ بين جهاده ليقول الناس: إنه شجاع، أو ليعظمه الإمام فيكثر إعطاءه من بيت المال، فهذا ونحوه رياء حرام، وبين أن يجاهد ليحصل السبايا والكراع والسلاح من جهة أموال العدو، فهذا لا يضره مع أنه قد أشرك، ولا يُقَال لهذا

---

(١) «الطب النبوي» (١١٣).

(٢) «موسوعة الألباني في العقيدة» (٣/ ١١٢٢).

(٣) «أنوار البروق في أنواء الفروق» (٣/ ٣٦).

رياءً بسبب أن الرياء ليعمل أن يراه غير الله تعالىٰ من خلقه، والرُّؤية لا تصح إلا من الخلق، فمن لا يرىٰ ولا يبصر لا يقال في العمل بالنسبة إليه: رياء، والمال المأخوذ في الغنيمة ونحوه لا يقال: إنه يرىٰ أو يبصر، فلا يَصْدق علىٰ هذه الأغراض لفظ الرياء؛ لعدم الرؤية فيها». انتهىٰ من «الفروق» للقرافي.

مسألة: مَن عمل عملًا لله تعالىٰ، ثم أثنىٰ عليه الناس، ففرح بذلك، هل ذلك من الرياء؟

الجواب: في «صحيح مسلم»، باب إذا أثني علىٰ الصالح فهي بشرىٰ ولا تضرُّه، ثم روىٰ مسلمٌ[(١)] عن أبي ذرٍّ، قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير، ويحمده الناس عليه؟ قال: «**تلك عاجل بشرىٰ المؤمن**».

وفي روايةٍ في المسند[(٢)] بسند صحيح عن أبي ذرٍّ أنه قال: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل فيحمده الناس عليه، ويثنون عليه به؟ فقال رسول الله ﷺ: «**تلك عاجل بشرىٰ المؤمن**».

قوله: «أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير»:

قال الطيبي[(٣)]: «أي: أخبرنا بحاله، والمراد بالعمل جنسه. وقوله: «من الخير» بيان له، ومن المعلوم أَنْ لا خير في العمل للرياء، فيكون عمله خالصًا «ويحمده الناس عليه»، أي: يثنونه علىٰ ذلك العمل، أو علىٰ ذلك الخير «وفي روايةٍ: ويحبه الناس»، أي: يعظمونه «عليه»، أي: علىٰ ذلك الخير، أو لأجل ذلك العمل «قال ﷺ:

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٦٤٢).

(٢) «المسند» (٢١٣٨٠).

(٣) «مرقاة المفاتيح» (٣/ ٣٣٣٣).

«**تلك**»، أي: المحمدة، أو المحبة، أو الخصلة، أو المثوبة «**عاجل بشرىٰ المؤمن**»، أي: معجل بشارته، وأما مؤجلها فَبَاقٍ إلىٰ يوم آخرته، وظاهره أنه يستوي فيه أنه يعجبه حمدهم ومحبتهم أو لا.

والمعنىٰ: أي: أخبرنا بحال مَن يعمل عملًا صالحًا لله تعالىٰ لا للناس، ويمدحونه، هل يبطل ثوابه؟ فقال صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم: «**تلك عاجل بشرىٰ المؤمن**»، يعني: هو في عمله ذلك ليس مرائيًا، فيعطيه الله تعالىٰ ثوابين في الدنيا، وهو حَمْد الناس له، وفي الآخرة ما أعد له». اهـ.

قال النووي[(١)]: «قال العلماء: معناه: هذه البشرىٰ المعجلة له بالخير، وهي دليل علىٰ رضاء الله تعالىٰ عنه، ومحبته له، فيحببه إلىٰ الخلق، ثم يوضع له القبول في الأرض، وهذا كله إذا حمده الناس من غير تعرضٍ منه لحمدهم، وإلا فالتعرض مذموم». اهـ.

وبوَّب النووي للحديث في «رياض الصالحين»[(٢)]، فقال: باب ما يتوهم أنه رياء، وليس هو رياء.

ثالثًا: من الآثار الواردة عن السلف:

ما ورد عن ابن بريدة عبدالله بن بريدة بن الحصيب، عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: شهدت خيبر -أي: مع النَّبيِّ ﷺ- وكنت فيمن صعد الثلمة، فقاتلت حتىٰ رئي مكاني، وعليَّ ثوب أحمر، فما أعلم أنِّي ركبت في الإسلام ذنبًا أعظم عليَّ منه -أي: الشهرة- وذلك

---

(١) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٦/ ١٨٩).
(٢) (١/ ٤٥٩).

أنه قاتل والناس رأوه، فإنه تخوَّف أن يكون قد وقع شيء من الرياء في قلبه[١][٢].

ويقول علي بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أُثني عليه، وينقص إذا ذم، فإذا كنت في مجال الدعوة، أو طلب العلم، فاجعل كل ما يقال حولك كطنين الذباب، لا تسمع له حتىٰ لا يؤثر فيك، فتتعرض للوقوع في هذا المحظور[٣].

ورأىٰ أبو أمامة الباهلي رجلًا في المسجد يبكي في سجوده، فقال: «أنت أنت! لو كان هذا في بيتك»[٤].

قال الفضيل بن عياض: كانوا يُرَاءون بما يعملون، وصاروا اليوم يراءون بما لا يعملون[٥].

قال الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: المرائي يريد أن يغلب قدر الله تعالىٰ، وهو رجل سوء يريد أن يقول الناس: هو رجل صالح، وكيف يقولون وقد حلَّ من ربه محل الأردياء، فلا بد لقلوب المؤمنين أن تعرفه[٦].

---

(١) وحين يقول الصحابي مثل هذا الكلام لا نقيسه علينا نحن، فَهُمْ أعلىٰ منا قدرًا بلا شكٍّ، وإنما يكون هذا من باب التحذير لنا.

(٢) أخرجه الروياني في «مسنده» (٣٩).

(٣) لذلك من ضمن الأبواب التي تغلق باب الرياء نهائيًّا، وهي من الأشياء التي ينبغي علينا أن نُطبِّقها بيننا لنتعاون علىٰ التخلُّص من الرياء: إغلاق باب المدح، فإنه لابد أن يغلق نهائيًّا؛ لأننا بشرٌ مهما أوتينا، ولابد أن القلب يتأثر بالمدح، فلا يرفع بعضنا بعضًا أكثر ممَّا يستحق، فالقلب قد يصل به الحال إلىٰ أن يعتاد سماع هذا الكلام، فيصبح يفعل الخير وهو ينتظر ذلك، فإن لم يسمعه قال: إن أحدًا لا يقدره.

(٤) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٩٦).

(٥) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٩٦).

(٦) «الكبائر» للذهبي (ص١٤٤).

وقال قتادة: إذا راءىٰ العبد، يقول الله تعالىٰ: انظروا إلىٰ عبدي يستهزئ بي[١].

وقال إبراهيم بن أدهم: ما صدق الله مَن أراد أن يشتهر[٢].

كان أبو وائلٍ إذا صلىٰ في بيته، ينشج نشيجًا، ولو جعلت له الدنيا علىٰ أن يفعله وأحد يراه ما فعله[٣].

وعن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين قال: بلغني أن لقمان كان يقول: يا بني، لا تتعلم العلم لتباهي به العلماء، أو تماري به السفهاء، وترائي به في المجالس[٤].

نظر رجاء بن حيوة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ رجلٍ ينعس بعد الصبح، فقال: انتبه، لا يظنون أن ذا عن سهر، أي: بسبب قيام الليل، والتعبد فيه[٥].

كان أيوب السختياني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقوم الليل كله، فيخفي ذلك، فإذا كان عند الصبح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة[٦].

روىٰ الأوزاعي عن عبدة بن أبي لبابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أقرب الناس إلىٰ الرياء آمنهم منه[٧].

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٩٧).
(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٩٦).
(٣) «حلية الأولياء» (٤/ ١٠١).
(٤) «سنن الدارمي» (٣٨٩).
(٥) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٥٩).
(٦) «حلية الأولياء» (٣/ ٧).
(٧) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٣٠).

قال يوسف بن الحسين: أعزُّ شيءٍ في الدنيا: الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت علىٰ لونٍ آخر[(١)].

وعلىٰ الجملة، قال ابن حجرٍ الهيتمي[(٢)]: «شهد بتحريمه الكتاب والسنة، وانعقد عليه إجماع الأمة، وبعد أن أشبع القول في ذكر أدلة تحريمه، قال: المعنىٰ في تحريمه وكونه كبيرة وشركًا مقتضيًا للعن أنَّ فيه استهزاء بالحق تعالىٰ، ومن ثَمَّ كان الرياء من كبائر الكبائر المهلكة، ولذلك سماه الرسول ﷺ: «الشرك الأصغر»، وفي الرياء أيضًا تلبيس علىٰ الخلق لإيهام المرائي لهم أنه مخلصٌ مطيعٌ لله تعالىٰ، وهو بخلاف ذلك». اهـ.



(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٩٢).

(٢) «الزواجر» (١/ ٧٠).

الفصل الثالث

إحباط الرياء للعمل

دائمًا لا بد أن تكون نظرة المسلم إلىٰ الذنوب من وجهين:

الوجه الأول: العقوبة المترتبة علىٰ الذنب الذي يفعله العبد في الدنيا والآخرة.

الوجه الثاني: أثر الذنب علىٰ الطاعات التي يفعلها العبد[(١)].

ففي الرياء تجد المرء يفعل الخير وكأنه لم يفعل شيئًا، وكأن تركه للفعل كان أَوْلَىٰ، لذلك إذا أقبلت علىٰ فعل عبادة، فانظر إلىٰ ما في قلبك، وانظر إلىٰ الحامل عليها، هل هو رؤية الناس لها حتىٰ يحمدوك، ويثنوا عليك، ويذكروك في مجالسهم، أم غير ذلك، فإن كان الأول، فجاهد نفسك، وتخلَّص من ذلك، وإن كان الثاني، فاحمد الله، وسَلْه الثبات حتىٰ تلقاه.

حالات دخول الرياء علىٰ العمل، وأثره في كل حالة:

هذا التفصيل لا بد منه، فقد وضع العلماء أربعة احتمالات تحدد الباعث علىٰ العمل، هي:

١. أن يكون الباعث علىٰ العمل إرادة وجه الناس، ولم يخطر الثواب علىٰ قلبه قط، فالعمل هنا باطل ولا شك، وهذه الحالة هي المقصودة أصالةً بما رواه مسلم[(٢)] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تبارك وتعالىٰ: أنا أغنىٰ الشُّركاء عن الشِّرك، مَنْ عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه**».

---

(١) لذلك تجد التشديد في التحذير من أَكْل الحرام؛ لأنَّ ضرره يلحق الأعمال الصالحة.

(٢) «صحيح مسلم» (٢٩٨٥).

٢. أن تكون عنده إرادة للثواب، ولكنها ضعيفة لا تستطيع تحريكه للعمل الذي حركته إليه إرادة وجه الناس بحيث لو لم يوجد الناس ما فعل هذا العمل، فالعمل هنا باطل مردود أيضًا مثل سابقه.

٣. أن يريد الثواب، ويريد وجه الناس، بحيث إذا انفرد أحدهما، لم يقم المرء بالعمل، ولكن لما اجتمعا، قام بالعمل، وهذا أفسد بقدر ما أصلح، ولا يسلم من المؤاخذة، والعمل مردود أيضًا علىٰ القول الراجح من أقوال العلماء.

٤. أن يقصد الثواب ووجه الناس، ولكن قصد الثواب أعلىٰ بكثيرٍ، بحيث لو غاب الناس لفعل، وهذه الصفة من العمل اختلف فيها العلماء، فمنهم من قال بحبوط العمل، وهو قول مرجوح، ومنهم من قال: إن أصل العمل صحيح، وما زاد فيه لأجل الناس فهو المردود.

ذكر نصوص لأهل العلم فيما سبق:

قال ابن بطال[(١)]: «من كان ابتداؤه نية الأعمال لله تعالىٰ، لم يضره بعد ذلك ما عرض في نفسه، وخطر بقلبه من حديث النفس، ووسواس الشيطان، ولا يزيله عن حكمه إعجاب اطلاع العباد عليه بعد مُضيِّه إلىٰ ما ندبه الله إليه، ولا سروره بذلك، وإنما المكروه أن يبدأ بنية غير مخلصة». اهـ.

قال العراقي[(٢)]: «اجتماع الباعثين -أي: وجه الله تعالىٰ، ومُرَاءاة الخَلق- علىٰ الفعل الواحد أنه لا يخلو إما أن يكون كل واحدٍ منهما لو انفرد لكان كافيًا في الإتيان بالفعل، أو يكون الكافي لذلك أحدهما، أو لعلة أحدهما، فإن كان كلُّ واحدٍ كافيًا

(١) «شرح صحيح البخاري» (١/ ١٢٦).
(٢) «طرح التثريب» (٢/ ٢٧).

بالإتيان به، فهذا يضرُّ فيه التشريك لقوة الداعي، وإن غلب أحدهما بأن يكون حصوله أسرع إلىٰ وقوع المَنْوي، وإن كان الباعث علىٰ الفعل أحدهما بحيث لو عدم الآخر لم يتخلف عن المَنْوي، فالحكم للقوي كمَن يقوم للعبادة، وهو يستحسن إطلاع الناس عليه مع أنه لو علم أنه لو لم يطلع عليه أحدٌ لَمَا صرفه ذلك عنها، ولا عن الرغبة فيها، فهذا لا يؤثر في صحة عبادته، وإن كان الأكمل في حقه التسوية بين اطلاع الناس وعدم اطلاعهم، والأسلم له عدم محبة اطلاعهم». اهـ.

قال ابن قدامة[(١)]: «فصل في بيان ما يحبط العمل من الرياء، وما لا يحبط إذا ورد علىٰ العبد وارد الرياء، فلا يخلو:

إما أن يكون ورد بعد فراغه من العبادة، أو قبله، فإن ورد عليه بعد الفراغ سرور بالظهور من غير إظهارٍ منه، فهذا لا يحبط العمل؛ لأنه قد تمَّ علىٰ نعت الإخلاص، فلا ينعطف ما طرأ عليه بعده، لا سيما إذا لم يتكلف هو إظهاره، والتحديث به، فأما إن تحدث به بعد تمامه وأظهره، فهذا مخوفٌ، والغالب عليه أنه كان في قلبه وقت مباشرة العمل نوع رياءٍ، فإن سلم من الرياء، نقص أجره، وأما إذا ورد الرياء قبل الفراغ من العبادة؛ كالصلاة التي عقدها علىٰ إخلاصٍ، فإن كان مجرد سرورٍ، لم يؤثر في العمل، وإن كان رياءً باعثًا علىٰ العمل، مثل أن يطيل الصلاة ليرىٰ مكانه، فهذا يحبط الأجر.

وأمَّا ما يقارن العبادة، مثل أن يبتدئ الصلاة علىٰ قصد الرياء، فإن أتمَّها علىٰ ذلك، لم يعتدَّ بها، وإن ندم فيها علىٰ فعله، فالذي ينبغي له أن يبتدئها علىٰ الإخلاص، والله أعلم». اهـ.

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (١/ ٢١٤).

لذلك، لما رأىٰ الصحابي الجليل أبو أمامة الباهلي رجلًا في المسجد يصلي في غير الفريضة، ويبكي بكاءً شديدًا، ويتململ، نظر إليه، وقال: أنتَ أنتَ لو كان في بيتك، فإننا نزعم أننا نفعل الخير لله، فإذا كان الكلام صحيحًا، فالله ﷻ لا يريد منك علامات وأمارات ليرىٰ ما في قلبك من الخير، فليس من اللازم أن تقوم بالعمل مدويًا حتىٰ يعلم به الله ﷻ، فإنه يعلم السر وأخفىٰ، مع العلم أن هناك أمورًا معينة لا يصح أن يراها الناس، وهناك أمور لابد أن يراها الناس، فإذا تلبس القلب بالرياء عند إظهار العمل الذي أمرنا الشارع بإظهاره، نجاهده، ولا نترك العمل التفاتًا للرياء.

ولا ينبغي أن يتطرق إليك اليأس، فتترك العمل بحجة أنك مُرَاءٍ، فالأمر كالمعادلة لا بد أن تكون مُتَّزنةً، فهناك أعمالٌ لا بد أن نظهرها، وتركك العمل بغية الشيطان، وقد يستخدم خوفك من الرياء لصدك عن العمل، أما العمل الباطني فاكتمه».



الفصل الرابع

شرح حديث: «ما ذئبان...»

قبل الشروع في بيان أسباب وعلاج مرض الرِّياء، لا بد من التقديم له بهذه المقدمة، فإنها تسهل علينا.

فَهْم المرض وكيفية علاجه، وهو شرح موجز لحديث صحيح ثابت عن النبي - صلىٰ الله عليه وآله وسلم- لعلَّنا نسقطه علىٰ أنفسنا، وهو حديثٌ أفرد الإمام ابن رجب الحنبلي رسالةً في شرحه، سماها: «جامع البيان في شرح حديث ما ذئبان جائعان»، الحديث رواه الإمام أحمد، وهو عند الترمذي أيضًا، وسنده صحيح من حديث أُبي بن كعب، وفيه يقول النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنمٍ** – وفي روايةٍ: في زريبة غنمٍ[(١)]. وفي روايةٍ: غاب عنها ربُّها. وفي روايةٍ: رعاؤها- **أفسد لها من حرص المرء علىٰ المال والشرف لدينه**»[(٢)].

والحديث رواه الإمام الطبراني في معاجمه الثلاثة «الكبير» و«الأوسط» و«الصغير»، وله قصَّة -أي: سبب- من حديث عاصم بن عدي، قال: اشتريت أنا وأخي مائة سهمٍ من سهام خيبر، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «**يا عاصم، ما ذئبان عاديان** -وفي روايةٍ: ضاريان، أي: متوحشان- **أصابا غنمًا أضاعها ربها بأفسد لها من حب المرء المال والشرف لدينه**»[(٣)].

---

(١) كلمة «زريبة» لغة عربية فصحىٰ، ذكرها النبي ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (١٥٧٨٤)، والترمذي (٢٣٧٦)، وصححه الألبانيُّ في «المشكاة» (٥١٨١).

(٣) أخرجه الطبراني (٤٥٩).

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

من طرق توضيح المعاني وتقريبها للأذهان ضرب الأمثلة.

قال الله ﷻ في التنزيل: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣]، ولذلك قال عمرو بن مرة: ما مررت علىٰ آيةٍ في كتاب الله ﷻ وفيها مثلٌ لا أعقله إلا بكيتُ علىٰ نفسي(١).

وقال عمرو بن العاص كما في «مسند الإمام أحمد»: عقلت عن رسول الله ﷺ ألف مثلٍ(٢).

والمثل: هو تمثيل شيءٍ بشيءٍ، فمنه تمثيل الشيء المعنوي بشيءٍ محسوسٍ ليقرب المعنىٰ إلىٰ الأذهان، وهذا من صور البيان، وأساليب البلاغة في لغة العرب، فإذا أردت نقل معلومةٍ إلىٰ إنسانٍ بسهولةٍ ويسرٍ بحيث لا يشكل عليه فهمها، فاضرب لها مثلًا.

وكلما كان المثل من واقع البيئة، وقريب إلىٰ حياة المستمع، كان أشد في التأثير عليه(٣).

---

(١) في «تفسير ابن أبي حاتم»: عن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآيةٍ في كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني؛ لأنِّي سمعت الله يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

(٢) أخرجه أحمد (١٧٨٠٦)، تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

(٣) ومن الطرائف في هذا المعنىٰ: أن رجلًا من البدو دخل علىٰ خليفةٍ من الخلفاء، وكانت عادة بعض الخلفاء الضعفاء أن يدعو الشعراء ليثنو عليه بشعرهم، ثم يجزل لهم العطاء، وذلك حتىٰ يُعْلي من قَدْر نفسه بين رعيَّته، وهذا البدوي يعيش في الصحراء، فلا يعرف إلا الكلب والحمار والتيس والجَمل، فلمَّا دخل علىٰ الخليفة ليمدحه، قال له: أنت كالتيس في مقارعة الخصوم، وكالكلب في الوفاء، فهم الناس ممَّن حول الخليفة به، فقال لهم الخليفة: دعوه، فهو لم يرَ إلا هؤلاء.

ولذلك، في هذا الحديث ضرب النبي ﷺ مثلًا للصحابة من واقعهم الذي يعيشونه، فمثل النبي ﷺ ذئبين متوحشين جائعين، أتيا علىٰ زريبةٍ بها غنم، فأرسلا علىٰ الغنم، ثم أغلق الباب، ولو أنهما أرسلا في غنمٍ ليست في زريبةٍ، لانشغل كل ذئبٍ بنعجةٍ واحدةٍ وهرب الباقي، ولكن في الزريبة لن يسكن الذئبان حتىٰ يقضوا علىٰ كل الغنم.

وأيضًا يؤخذ في الاعتبار أن صاحب الغنم غائب عنها، فهذا كله إذا تدبرته وتدبرت تأثير هذين الذئبين علىٰ الغنم، ودرجة إفسادهما للغنم، وأنه يستحيل أن ينجو من الغنم شيء، فحتىٰ إِنْ لم يأكل الذئب النعجة، فإنه سيبقر بطنها، فلا يدعها سليمةً، فكذلك حرص العبد المسلم المكلف علىٰ المال والشرف كما يقول النبيُّ ﷺ، فإنه يفسد عليه دينه أشد من إفساد هذين الذئبين الجائعين الضاريين في زريبة الغنم التي غاب عنها ربها، فإنه يقينًا لن يَسلم من دينه شيء إلا كما يَسلم من الغنم في هذا المثل، إن سلم، فهذا هو المعنىٰ الإجمالي للمثل.

المعنىٰ التفصيلي للحديث:

دلَّ الحديث علىٰ شيئين يفسدان علىٰ المرء دينه، هما:

الحرص علىٰ المال: والمال تعريفه: أنه كل ما ينتفع به، فالأوراق النقدية مال، وكذلك الثياب والسيارة، إلىٰ غير ذلك، وقد سُمِّي المال مالًا؛ لميل النفس البشرية إليه.

الحرص علىٰ الشرف: وهذا الجانب هو مدخلنا إلىٰ مرض الرياء، ومعناه: طلب علو المنزلة والجاه في قلوب الناس، وهذا الأمر يسعىٰ إليه كل أحدٍ، وله علامات وأمارات كثيرة، وهو مفسدٌ للدين ولا شك، كما في الحديث، بل ذكر العلماء أنَّ الحرص علىٰ الشرف أخطر من الحرص علىٰ المال، فالمال وسيلة من الوسائل التي يتوصل بها إلىٰ الشرف.

وفيما يلي بعض الإشارات الخاصة بهذين الذئبين الضاريين الجائعين.

انقسام الناس باعتبار حبهم للمال:

تجد بالنظر الدقيق أنَّ الناس ينقسمون باعتبار سبب حبهم للمال إلىٰ قسمين:

الأول: من يحب المال؛ لأنه يوصله إلىٰ شيءٍ مرغوبٍ فيه، وهو الأغلبية العظمىٰ من الناس، فيحب المرء المال؛ لأنه وسيلة لأن يبني بيتًا، أو ليتزوج، أو يعدد النساء، أو ليأكل أكلة طيبة، أو يركب مركبًا جيدًا، أو يلبس ملبسًا حسنًا، فهذه شهوات يريدها الإنسان، فيحب المال من أجلها، وهذا محمودٌ علىٰ الجملة، ولا بأس به.

الثاني: مَن يحب المال لعينه، أي: لذاته، وهذا من أخبث الناس علىٰ الإطلاق؛ لأن هذا يدل علىٰ طمسٍ في البصيرة، وغباءٍ في العقل، فالمرء إن تلوَّىٰ بطنه من الجوع ومعه مئات الأموال، لن تنفعه بذاتها؛ لأنه لن يأكلها.

ويذكر في هذا الشأن قصة حدثت بالفعل في بعض البلاد، حاصلها: أن رجلًا كان يعمل إسكافيًّا -أي: في الأحذية- وكان يسكن في بيتٍ متهالكٍ، إذا اشتدت الريح خشي عليه من السقوط، وكان يمرُّ علىٰ هذا الإسكافي رجلٌ آخر في طريقه من المسجد إلىٰ بيته، ثم جاء يوم افتقد الرجل هذا الإسكافي الذي اعتاد علىٰ رؤيته في طريقه، يقول الرجل: فدخلت عليه وأنا كلي خوفٌ وفزعٌ أن يسقط البيت عليه، وكنا في ظلام الليل، فدخلت عليه وناديت، فلم يسمع، فتحسَّست، فإذا بضوء شمعةٍ أراه من بُعد داخل البيت، فإذا بالرجل، فاقتربت منه وجلست حيث أراه وأسمعه، ولا يراني، ولا يسمعني، وإذا أمامه كومةٌ من الريالات الذهبية، وشمعة، وكوب فيه زيت، فإذا به يمسك الريال الذهبي، فيقول: يا مَن أفنيت عمري في جمعك، وحرمت نفسي من متاع الدنيا لذاتك، أأموت وأتركك؟! والله لن يكون، ثم يغمسه في الزيت

ويبلعه، وكلما بلع واحدًا جاءه سعال شديد كأنه سيموت بعده، ثم استمر هكذا حتىٰ بلع الكومة كلها.

يقول حاكي القصة: فلمَّا انتهىٰ من الكومة كلها مات، وانتشر خبَر موته، فغسلوه وكفنوه، ثم حملوه علىٰ الخشبة وهم يتعجَّبون من ثقل وزنه، ثم لما ذهبنا إلىٰ المقبرة ودفناه، جعلت للقبر علامة أعرفها، ثم رجعت بليلٍ، فنبشت القبر، ثم نزعت كفن الرجل، فإذا بالجثة كما هي، فبقرت بطنه حتىٰ أخرج الريالات الذهبية، حتىٰ إذا ما وضعت يدي عليها، فإذا هي أحر من الجمر، فصرخت من هول الألم، وتركته وانصرفت.

يقول راوي القصة عن صاحبها: فأراني الحرق في يديه منذ أكثر من سنةٍ كأنه حدث اليوم، فانظر كيف أحبَّ هذا الرجل المال لذاته، وكيف كانت نهايته.



الفصل الخامس

أقسام الناس في تحصيل الأموال

انقسام الناس باعتبار طريقة تحصيلهم للمال:

حرص الناس علىٰ المال، وحبهم له، يدفعهم إلىٰ جمعه، وهذا محمودٌ علىٰ الجملة أيضًا، ومع عدم اعتبار علة الحب السابق ذكرها، نجد الناس في جمعهم للمال ينقسمون إلىٰ قسمين:

مَنْ يجمعه بشراهةٍ، ولكن من حلالٍ: بدايةً ينبغي أن يعلم أن نظرة الشرع إلىٰ المال نظرة في منتهىٰ الاستقامة والعدل، فالشرع أجاز لك أن تجمع، ولكن أعلمك بالغرض الأساسي من جمعه، وما سيترتب علىٰ ذلك، فأنت تجد الرجل بارعًا في جمع المال، ومن حلالٍ، فهذا الرجل إن دخل هذا المجال بما أمر به الشارع، لَصار في أعلىٰ عِلِّيِّين.

والدَّليل علىٰ ذلك: ما رواه الإمام[1] أحمد من حديث موسىٰ بن عليٍّ، عن أبيه، قال: سمعت عمرو بن العاص يقول: بعث إليَّ رسول الله ﷺ فقال: «**خذ عليك ثيابك وسلاحك، ثم ائتني**»، فأتيته وهو يتوضأ، فصعَّد في النظر، ثم طأطأه، فقال: «**إنِّي أريد أن أبعثك علىٰ جيشٍ، فيسلمك الله ويغنمك، وأزعب لك من المال زعبةً صالحةً**». قال: فقلت: يا رسول الله، ما أسلمتُ من أجل المال، ولكني أسلمتُ رغبةً في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ﷺ، فقال: «**يا عمرو، نعما بالمال الصالح للرجل الصالح**».

---

(١) «المسند» (١٧٧٦٣).

قال الطحاويُّ في شرح «المشكل»[(١)]: «والمال لا يكون صالحًا إلا وهو مفعول به ما أمر الله ﷻ بفعله فيه، ومَن يفعل ذلك فيه بحقٍّ، ملكه إياه، فهو صالح».

وجمع المال من حلالٍ ينبغي أيضًا أن يضاف إليه شرط آخر، وهو أن يعرف المرء حق الله في هذا المال، فيكون جمعه من أجل تثميره، ثمَّ تأدية زكاته، وسد حاجة المحتاج، وعمل المشاريع، وغير ذلك، وهذا لا بأس به علىٰ الإطلاق، ويحمد المرء علىٰ ذلك، بل ويؤجر، كما في الحديث المتفق عليه عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلط علىٰ هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها ويعلمها**»[(٢)].

جمع المال بدون استثماره في الخير خسارة:

فالإشكال في أن يجمع المرء المال ولا يعرف حقَّ الله فيه، أو يكون أقصىٰ ما يفعله هو تأدية زكاة المال، وهذا الصنف ومَن علىٰ شاكلته حسبه من الشر أنه ضيَّع عمره في جمع ما لا يعود عليه بنفعٍ، فيفسد المال الدين كإفساد الذئب للغنم، فترىٰ أحدهم يضيع عمره كله في جمع المال، ثم يقول: أنا أؤدي زكاته وفقط، وهذا في الحقيقة لم يأتِ بشيءٍ؛ لأن الزكاة فرض، والوقت الذي ضاع من عمرك في جلب المال لا يساوي الأجر الحاصل من الزكاة، فما ضاع من الوقت كثير.

لذلك، إذا كنت ممَّن وسع الله ﷻ عليه في الرزق، فانتبه، واعلم أن هذا المال إن لم تراع فيه الضوابط الشرعية، فإنه سينقص من أجرك عند رب البرية، فمَن تنعم في الدنيا ولو من حلالٍ، فهو علىٰ حساب الآخرة، فمَن شاء عاش مسكينًا يعيش في الدنيا

---

(١) (١٥/ ٣٢٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٧٣)، ومسلم (٨١٦).

علىٰ الكفاف، ومن شاء حصَّل المال وتنعَّم، ولكن هو علىٰ حساب الآخرة، فكلٌّ مخير في ذلك، وكل إنسان بما حباه الله من عقلٍ يختار بنفسه ما يشاء، ومَن استغرق في جمع المال، خسر من وقته ولا شكَّ.

ومن الأدلَّة علىٰ ما نقول:

ما رواه الإمام ابن أبي الدنيا[(١)] بسندٍ صحيحٍ موقوفًا علىٰ ابن عمر، وله حكم الرفع أنه قال: «**ما أصاب أحدٌ من الدنيا شيئًا ولو من حلالٍ إلا أنقص من درجته عند الله وإن كان عليه كريمًا**».

ويشهد لصحة هذا الأثر: ما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «**ما من غازيةٍ أو سريةٍ تغزو فتغنم** -أي: من الأموال والنساء- **وتسلم** -أي: لا يصيبهم ضررٌ، ولا يموت منهم أحدٌ- **إلا كانوا قد تَعجَّلوا ثلثي أجورهم، وما من غازيةٍ أو سريةٍ تخفق** -أي: لا تصيب شيئًا من الغنائم- **وتصاب** -فمنهم مَن يموت، ومنهم مَن يصاب- **إلا تمَّ أجورهم**»[(٢)].

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١].

﴿أَزْوَٰجًا﴾ هنا، أي: أصنافًا، فرزق الله خير من هذه المتع وأبقىٰ، فهو علىٰ الدوام.

ويؤيد ما سبق ما رواه الشيخان عن عبدالله بن عباس لمَّا دخل عمر بن الخطاب علىٰ النبي ﷺ وهو معتزلٌ نساءه في مشربةٍ له، فرأىٰ أثر الحصير في جنبه -أي: له علامات في جنبه- فبكىٰ عمر وقال: يا رسول الله، ادع الله أن يوسع علىٰ أمتك، فقد

---

(١) «ذم الدنيا» (٣١١).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٠٦).

وسع علىٰ فارس والروم وهم لا يعبدونه، فقال: «**أَوَ في شكٍّ أنت يا ابن الخطاب، أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا**»(١).

وفي روايةٍ: «**أما ترضىٰ أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة**»(٢).

وروىٰ الإمام أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه «تلبيس إبليس»(٣) عن ثابت رضي الله عنه قال: لما بعث النبي ﷺ جعل إبليس -لعنه الله- يرسل شياطينه إلىٰ أصحاب النبي ﷺ، فيجيئون إليه بصحفهم ليس فيها شيءٌ -أي: لم يفعلوا معهم شيئًا، ولا يستطيعون الدخول للصحابة من أي مدخلٍ- فيقول لهم: ما لكم لا تصيبون منهم شيئًا؟! فقالوا: ما صحبنا قومًا مثل هؤلاء. فقال: رويدًا بهم، فعسىٰ أن تفتح لهم الدنيا هنالك تصيبون حاجتكم منهم(٤).

وقد كان، فأنت الآن تجد الإخوة الأشقاء متلائمين ومتحابين، حتىٰ إذا فتحت عليهم الدنيا بتوزيع إرثٍ مثلًا، أو غير ذلك، ترىٰ العجب من التدابر والبغضاء والشحناء، والله المستعان.

مَن انشغل بحال الأمة لم يفكر في الدنيا:

اعلم أنَّ مَن انشغل بحال الأمة، وما يحدث لها، وفيها من مآسٍ وانهيارٍ، وما تتعرض له من هجومٍ، فلا شك أن صفو حياته سيتعكر، ولن يفكر في هذه الدنيا،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩١٣).

(٣) والأثر قدم بصيغة التَّمريض، ولكن لا يَتَرتَّب عليه حكم شرعي، فلا بأس بذكره من باب الترغيب والترهيب.

(٤) أخرجه أبو الفرج الجوزي في «تلبيس إبليس» (١/ ٣٠).

فالنوع الأول من الناس الذي استغرق في جمع المال من الحلال، حسبه من الشر أنه أضاع وقته رأس ماله الذي كان ينبغي أن يستثمره مع الله عَزَّوَجَلَّ.

مَن يجمع المال من الحرام: وهو مَن بلغ حرصه علىٰ المال، وحبه له، وشهوته في جمعه أن بدأ يجمعه من حرامٍ، ولكنه -ولا شكَّ- لم يبدأ في الحرام إلا لما شعر بلذته في الحلال.

لذلك، ينبغي علىٰ المرء أن يراعي ظروفه في مأكله ومشربه وملبسه خاصةً في أهله وزوجه، وليحاول بقدر الاستطاعة أن يضيق الحصار علىٰ نفسه وعليهم طالما أنه لا يستطيع الكثير، وليستحضر في ذهنه أن هذا الأمر ليس علىٰ الديمومة؛ لأننا لسنا مخلدين في هذه الدنيا، وهذا الذي أشار إليه نبينا ﷺ في الحديث الذي في «صحيح مسلم» من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشُّحَّ** -وهو حب المال، وهو المراد في قوله تعالىٰ: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ [النساء: ١٢٨]، أي: جُبلَت علىٰ الشح- **فإنَّ الشُّحَّ أهلك مَن كان قبلكم، حملهم** -أي: الشح- **علىٰ أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم**»[(١)].

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٨).

مسالك الناس في تحصيل الشرف:

نُنبِّه هنا علىٰ مسلكين خطيرين قد يسلك المرء أحدهما أو كليهما من أجل تحصيل الشرف، وقد ذكرهما العلماء بالاستقراء والنظر في حياة الناس، وهما كما يلي:

المسلك الأوَّل: طلب الشرف عن طريق الولاية والإمارة والسلطان:

مثل الترشيح لمجلس الشعب في زماننا (١٤٣٩ من الهجرة)، وغير ذلك، وحرص المرء علىٰ الشرف من هذا الطريق يفسد دينه لا محالة، بل قد دلَّت الأدلة الشرعية النقلية من سُنَّة خير البرية ﷺ علىٰ أنه لا يجوز أصلًا أن يطلب المسلم الإمارة والولاية، ودلت الأدلة أيضًا علىٰ أنه لا يحل، بل يحرم علىٰ السلطان أن يولي مَن طلب نوعًا من الإمارة، والدليل علىٰ هذين الحكمين ما يلي[(١)]:

في «الصحيحين» من حديث عبد الرحمن بن سمرة أنه قال: قال لي النبي ﷺ: «**يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألةٍ وكلت إليها، وإن أوتيتها من غير مسألةٍ أعنت عليها**»[(٢)]. الحديث. أي إنك إن طلبتها، فجاءتك، لن يعينك الله عليها، ويكلك إلىٰ نفسك، وإن أجبرك السلطان -مثلًا- علىٰ أن تتولىٰ من الإمارة شيئًا، ففي هذه الحالة يعينك الله ﷻ عليها.

وفي «الصحيحين» أيضًا من حديث أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «**إنكم ستحرصون علىٰ الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة، وبئست**

---

(١) وهذه النُّصوص لابد من حفظها جيدًا، ولا بد أن تكون نظرتنا لما يحدث في مصر نظرة شمولية واسعة، وقد يتهم مَنْ يقول هذا الكلام في دينه، ويتهم بغير ذلك، وأنهم هم مَنْ دفعوه للتكلُّم بهذا الكلام، وهذه ليست مشكلةً؛ لأننا نتبع الدليل، ولا شيء غيره، ولا يضير المسلم أبدًا أن يوافق بعض أهل الظلم في شيءٍ من الشرع، فليس معنىٰ أنهم يفعلون شيئًا وافقوا فيه الدليل أن نُخَالفهم، ونخالف الدليل.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢).

الفاطمة»[(١)]، وهذا كلام في منتهىٰ الدقة، «**فنعم المرضعة**»، أي: أثناء تولِّيه الإمارة؛ إذ يكون لهم من الشرف والمنزلة الكثير، «**وبئست الفاطمة**»، أي: حين تزول عنه الإمارة.

وفي «الصحيحين» أيضًا من حديث أبي بردة، عن أبىٰ موسىٰ الأشعري قال: أقبلت إلىٰ النبي ﷺ ومعي رجلان من الأشعريين؛ أحدهما عن يميني، والآخر عن يساري، ورسول الله ﷺ يستاك، فكلاهما سأل -أي: سأل الإمارة- فقال: «**يا أبا موسىٰ** -أو: يا عبد الله بن قيس- قال: قلت: والذي بعثك بالحق، ما أطلعاني علىٰ ما في أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل، فكأني أنظر إلىٰ سواكه تحت شفته قلصت، فقال -وهو محل الشاهد، وبعض روايات الصحيح اقتصرت عليه: «**لن** -أو: لا- **نستعمل علىٰ عملنا مَن أراده، ولكن اذهب أنت يا أبا موسىٰ** -أو: يا عبد الله بن قيس- **إلىٰ اليمن**»[(٢)]، ثم أتبعه معاذ بن جبل.

وفي روايةٍ في «مسند البزار»: يقول أبو بردة: فما استعملهما علىٰ شيءٍ.

فالنبي ﷺ لم يستعملهما بعد ذلك مع كونهم قد طلبوها مرةً واحدةً، ولعلَّهم لم يكونوا يعلمون الحكم.

وفي روايةٍ عند أبي داود، وعند النسائي، وبوَّب له، فقال: ترك استعمال مَن يحرص علىٰ القضاء، عن أبي بردة، عن أبي موسىٰ أيضًا أن النبي ﷺ قال: «**إن أخونكم** -أي: أشدكم خيانةً- **عندنا مَن طلبه**»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٤٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٢٣)، ومسلم (١٧٣٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٩٣٠)، وضعفه الألبانيُّ.

ومعنىٰ هذه الأحاديث، وخاصةً رواية «الصحيحين»: أن كل مَن تقدم لنَيل أي إمارةٍ، يمنع منها، ولا يتولىٰ.

وروىٰ الإمام الطبراني بسندٍ حسنٍ من حديث عوف بن مالكٍ، قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنْ شئتم أنبأتكم عن الإمارة، وما هي، أولها ملامة، وثانيها ندامة، وثالثها عذاب يوم القيامة، إلا من عدل**»(١). قلت: وقلَّ مَن يعدل.

وعند مسلم عن أبي ذرٍّ الغفاري قال: قلت: يا رسول الله، ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده علىٰ منكبي، ثم قال: «**يَا أَبَا ذرٍّ، إنك ضعيفٌ، وإنها أمانةٌ، وإنها يوم القيامة خزيٌ وندامةٌ، إلا مَن أخذها بحقها، وأدَّىٰ الذي عليه فيها**»(٢).

وفي روايةٍ: «**يا أبا ذرٍّ، إنِّي أراك ضعيفًا، وإني أحبُّ لك ما أحب لنفسي، لا تأمرنَّ علىٰ اثنين، ولا تولين مال يتيم**»(٣).

ومعنىٰ «ضعيف» بالاتفاق ليس في الإيمان، ولكن لكل واحدٍ من البشر قدرات وملكات، فقدرات الناس تتفاوت وتتباين، وكلٌّ منَّا عنده نقاط ضعف، والسعيد من يعرف نقاط ضعفه، فلا يعرض نفسه لها، فمثلًا: قد يكون عالِم جليل لكنه ضعيف أمام فتنة النساء، فعليه أن يبتعد عن هذا الطريق، وهذا ليس عيبًا فيه؛ لأن نقاط الضعف فينا كثيرة، ولكن علينا أن نعرف هذه النقاط، فنبتعد عنها.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٨/ ٧١)، والبزار في «كشف الأستار» (١٥٩٧)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٥٦٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٥).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٢٦).

قال الطحاويُّ في شرح «المشكل»: «المعنىٰ الذي به نهىٰ رسول الله ﷺ أبا ذرٍّ عمَّا نهاه عنه في تولي الإمارة، وإنه لمعنىٰ فيه نقص به عن رتبة القضاء مما كان ضده في علي بن أبي طالب مما استحق به ولاية القضاء لمَّا ولاه النبي ﷺ القضاء».

طرق تولي الإمارة:

تولِّي الإنسان الإمارة -أي: رئاسة البلاد- يكون من خلال ثلاث طرقٍ استقرأها العلماء من التاريخ منذ موت النبي ﷺ حين قال: «**يأبىٰ الله والمؤمنون إلا أبا بكرٍ**»[(١)]، حتىٰ الخلافة العثمانية، ثنتان منهم معتبرتان، والثالثة غير معتبرة، وهم:

١- أن ينصَّ ولي الأمر علىٰ شخصٍ بعينه من بعده، فيعين السابق اللاحق، وهذا مشروع، فقد عرض النبي ﷺ بأبي بكرٍ، ونص أبو بكرٍ علىٰ عمر، ونص عمر علىٰ الستة الذين مات النبي ﷺ وهو عنهم راضٍ.

٢- أن يختاره أهل الحلِّ والعقد، وهم بطانة ومستشارو الأمير السابق، وهي الطريقة المعتبرة الثانية.

٣- بالخروج علىٰ الحاكم السابق، وأخذ الحكم عنوةً، وهي طريقة غير مشروعةٍ، ولكن إن حدث خروجٌ بالفعل، ثم استقرَّت الأمور لأحدٍ، فلا يحل لأحدٍ أن ينازعه الأمر بعد.



(١) في «المستدرك»، عن عبد الرحمن بن أبي بكرٍ. وقال الذهبي في «التعليق»: إسناده صحيح.

المسلك الثاني: طلب الشرف عن طريق الشهرة:

النفس البشرية من طبيعتها أنها تحب الشهرة -وهي ذيوع الصيت والاسم- لأنَّ فيها مَدعاةً للكمال، فكلما اشتهر المرء، شعر أنه وصل إلىٰ الكمال، ومن أجل هذا جاءت النصوص الشرعية عن النبي ﷺ محذرةً من الشهرة، ومن كل ما يؤدي إليها، ويسلكه العبد متعمدًا؛ طلبًا لها.

ففي «مسند الإمام أحمد»، وعند الطبراني من حديث عبدالله بن عمر أن النبي ﷺ قال: «**مَن لبس ثوب شهرةٍ في الدنيا، ألبسه الله ثوب مذلةٍ يوم القيامة، ثم ألهب** -أي: أشعل- **فيه نارًا**»(١).

قال السندي(٢): قوله ﷺ: «**ثوب شهرةٍ**»، أي: من لبس ثوبًا يقصد به الاشتهار بين الناس؛ سواء كان الثوب نفيسًا يلبسه تفاخرًا بالدنيا وزينتها، أو خسيسًا يلبسه إظهارًا للزهد والرياء.

قال ابن القيِّم(٣) **رحمه الله تعالىٰ**: «وهذا لأنه قصد به الاختيال والفخر، فعاقبه الله بنقيض ذلك فأذلَّه، كما عاقب مَن أطال ثيابه خيلاء بأن خسف به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلىٰ يوم القيامة، وكان السلف يكرهون الشهرتين من الثياب العالي والمنخفض».

والنبي ﷺ لمَّا حذر من هذا الأمر، كان ذلك من باب ضرب المثل، وإلا فكلُّ مَنْ سلك مسلكًا يؤدي إلىٰ شهرته ولو بحقٍّ، فهو مستحقٌّ للذم والمعاتبة والمؤاخذة،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٦٠٧)، وأحمد (٥٦٦٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) «حاشية السندي علىٰ سنن ابن ماجه» (٢/ ٣٧٨).

(٣) «زاد الميعاد» (١/ ١٤٠).

فهذا الحديث ليس موقوفًا علىٰ الثوب فقط، وإنما ينطبق علىٰ الثوب والمركب والكلام والبيت، وأي شيءٍ يؤدي إلىٰ الاشتهار بين الناس.

وذكر العلماء أن للشهرة وسيلتين يسلكهما الناس:

أن يسعىٰ الإنسان بنفسه لتحصيلها ولو بسببٍ مشروعٍ، أو غير مشروعٍ، وهذا لا يحلُّ له، ومن أخبار الناس في طلب الشهرة أن رجلًا بال في بئر زمزم في أحد أعوام الحج، فَهمَّ الناس أن يفتكوا به، ولكن لمَّا تمهَّلوا وسألوه عن سبب فعله، قال: أردت أن أذكر ولو باللعنات.

وكذلك أي إنسانٍ يريد أن يشتهر ويذيع صوته، ويعرف بقدره ومكانته، هو أضل من هذا الرجل، حتىٰ ولو سلك في ذلك طريقًا محمودًا من طاعاتٍ وعبادةٍ لله ﷻ، وفعل الخيرات.

أن تكون من الله ﷻ للعبد، فيكون العبد يستر نفسه، ويأبىٰ الله إلا أن يرفعه، فهو كلما فعل فعلةً، اتقىٰ أعين الناس، واختبأ عنهم حتىٰ لا يراه أحدٌ، فإذا ذكره الناس بخيرٍ، لم يفرح بمدحهم، وإذا ذكروه بسوءٍ، لم يحزن لذمهم.

ومن ذلك ما رواه الإمام الطبري -عليه رحمة الله- في «تاريخ الأمم والملوك»[(١)]، عن أبي عبيدة العنبري، قال: لما هبط المسلمون المدائن، وجمعوا الأقباض، أقبل رجل بحقٍّ معه، فدفعه إلىٰ صاحب الأقباض، فقال مَنْ يقبض والذين معه: ما رأينا مثل هذا قط، ما يعدله ما عندنا، ولا يقاربه، فقالوا: هل أخذت منه شيئًا؟ فقال: أما -والله- لولا الله ما أتيتكم به، فعرفوا أن للرجل شأنًا، فقالوا: مَن أنت؟ فقال: لا والله، لا أخبركم لتحمدوني، ولا غيركم ليقرظوني، ولكني أحمد الله،

(١) (٤/ ٢٠٨).

وأرضىٰ بثوابه، فأتبعوه رجلًا حتىٰ انتهىٰ إلىٰ أصحابه، فسأل عنه، فإذا هو عامر بن عبد قيس.

أما الخمول وعدم الذِّكر، فهذا الذي أرشد إليه الشرع، بل أمر به، ففي «صحيح الإمام مسلم»[(١)] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النَّبيَّ ﷺ قال: «**رُبَّ أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم علىٰ الله لأبرَّه**».

وفي روايةٍ عند الطبراني في «الأوسط»[(٢)]، قال فيه الألبانيُّ: صحيح لغيره: «**رُبَّ أشعث أغبر ذي طِمرين، مصفح عن أبواب الناس، لو أقسم علىٰ الله لأبرَّه**».

وأوضح من ذلك في الدلالة: ما ثبت عند الطبراني في «المعجم الكبير»، وسند الحديث صحيح، كما قال الحافظ العراقي[(٣)] عليه رحمة الله- من حديث سالم بن أبي الجعد عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ من أُمَّتي مَن لو جاء أحدكم فسأله دينارًا لم يعطه، ولو سأله درهمًا لم يعطه، ولو سأله فلسًا لم يعطه، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها**». اهـ.

فاعلم أنَّ الشُّهرة لا يأتي من ورائها خير البتة، خاصةً إذا سعىٰ إليها الإنسان، فلا بد لها من ضريبةٍ مؤلمةٍ وشديدةٍ، وفي واقعنا الآن (١٤٤٠ من الهجرة) يكون ثمنها دائمًا هو ترك الدين بالكلية، أو شيء منه.



(١) (٢٦٢٢).

(٢) «المعجم الأوسط» (٨٦١).

(٣) أخرجه الطبرانيُّ في «الأوسط» (٧٥٤٨)، قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح، وصحَّحه العراقي في «تخريج الإحياء»، والألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٦٤٣).

الفصل السادس

أسباب الرياء وعلاجها

من سنن الله الكونيَّة: ربط المسببات بأسبابها:

قال الأصمعيُّ[(١)] لأعرابيٍّ: بم عرفت ربَّك؟ فقال: البعرة تدل علىٰ البعير، وأثر الأقدام يدل علىٰ المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا تدل علىٰ اللطيف الخبير. اهـ.

فإذا وقع السبب، وقع المسبب بإذن الله تعالىٰ ومشيئته، وللتخلص من المسبب لا بد من ترك السبب، وعليه: فلا سبيل للتخلص من الرياء بعد الاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ إلا بمعرفة أسبابه، والتخلص منها عدا ذلك كمَن يخطُّ علىٰ الماء، أو يكتب في الهواء.

لمَّا تكلم العلماء في تفاصيل أسباب مرض الرياء، ذكروا أن أسباب الرياء مع كثرتها وتنوُّعها لا تخرج عن ثلاثةٍ:

(لذة المحمدة - الفرار من ألم الذم - الطمع فيما عندالناس)، وهذه الثلاثة راجعةٌ إلىٰ حب المنزلة والجاه.

فالمرء يريد أن يُحصِّل لذة المحمدة، ويهرب من ألم الذم، وفي نفس الوقت تنظر عينه إلىٰ ما عند الناس، والهدف هو التخلُّص من هذه الأسباب الثلاثة، فإذا استطعنا التخلص منها، ثق تمامًا أن مرض الرياء سينزع من قلبك بعد الاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ ما لا يعرف سببه، لا يمكن معالجته؛ إذ العلاج عبارة عن التخلي عن أسباب المرض.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ١٠٦).

والدليل علىٰ أنَّ هذه الأشياء هي التي يسعىٰ إليها الناس -ولو لم يشعروا- ما رواه الشيخان عن أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذِّكر، والرجل يقاتل ليرىٰ مكانه، فمَن في سبيل الله؟ قال ﷺ: «**مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله**»(١).

وفي روايةٍ: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعةً، ويقاتل حميةً، ويقاتل رياءً، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله**»(٢)، فانظر إلىٰ ما ذكر في الحديث، تجده يقع تحت الأمور الثلاثة المذكورة، فمثلًا: مَن يقاتل للمغنم، فإنما هو طمعٌ فيما في أيدي الناس، ومَن يقاتل ليرىٰ مكانه في الصف، هو طلب للذة المحمدة، ومَن يقاتل حميةً إنما هو فرار من ألم الذم، وهكذا.

قال ابن قدامة في «مختصر منهاج القاصدين»(٣): «فمعنىٰ قوله: «يقاتل شجاعةً»، أي: ليذكر ويحمد. ومعنىٰ قوله: «يقاتل حميةً»، أي: يأنف أن يقهر، أو يذم. ومعنىٰ: «يقاتل رياءً»، أي: ليرىٰ مكانه، وهذا هو لذة الجاه والمنزلة في القلوب، وقد لا يشتهي الإنسان الحمد، ولكنه يحذر من الذم؛ كالجبان بين الشجعان، فإنه يثبت ولا يفر؛ لئلَّا يذم، وقد يفتي الإنسان بغير علمٍ؛ حذرًا من الذم بالجهل، فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك إلىٰ الرياء، فمتىٰ أدرك الإنسان من نفسه تفرقةً بين أن يطلع علىٰ عبادته، أو لا يطلع، ففيه شعبةٌ من الرياء، فالإنسان إنما يقصد الشيء

(١) أخرجه البخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤).
(٢) أخرجه البخاري (٧٤٥٨)، ومسلم (١٩٠٤).
(٣) (١/ ٢٢٢).

ويرغب فيه إذا ظن أنه خيرٌ له ونافعٌ، إما في الحال، أو المآل، فإن علم أنه لذيذٌ في الحال، ضارٌّ في المآل، سهل عليه اجتنابه، وقطع عنه الرغبة إن كان له عقلٌ، كمَن يعلم أن العسل لذيذ، ولكن إذا بان أن فيه سُمًّا، أعرض عنه، فكذلك طريق هذه الرغبة في الشهرة أن تعلم ما فيها من المضرة، فإن الإنسان متىٰ عرف مضرة الرياء، وما يفوته من صلاح قلبه، ومن المنزلة في الآخرة، وما يتعرض له من العذاب والمقت والخزي، هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتُّت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق، فإن رضا الناس غايةٌ لا تدرك، فكل ما يرضىٰ به فريقٌ، يسخط به فريق، ومَن طلب رضاهم في سخط الله، سخط الله عليه، وأسخطهم عليه، ثم أي غرضٍ له في مدحهم، وإيثار ذم الله له لأجل مدحهم؟ ولا يزيد مدحهم رزقًا، ولا أجلًا، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته.

وكذلك ذمهم، لِمَ يحذر منه؟ ولا يضره ذمهم شيئًا، ولا يعجل أجله، ولا يؤخر رزقه، فإن العباد كلهم عَجَزة، لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا يملكون موتًا، ولا حياةً، ولا نشورًا، فإذا قرر هذا في نفسه، فترت رغبته في الرياء، وأقبل علىٰ الله تعالىٰ بقلبه، فإن العاقل لا يرغب فيما يضره، ويقل نفعه». اهـ.

أولًا: طلب لذة المحمدة:

فالمرء يسعىٰ إلىٰ تحصيل لذة المحمدة؛ لأنه بالمدح والمحمدة تشعر نفسه بالكمال، ويكون ذلك -مثلًا- بألَّا ينادىٰ عليه باسمه المجرد، بل لا بد أن تسرد أمامه الألقاب الكثيرة، فمثل هذا المدح لمَّا يسمعه المرء، يشعر بلذةٍ، فإذا نادىٰ عليه أحدٌ باسمه المجرد، شعر بألم الذم.

النهي عن المدح: قد تواترت النصوص الشرعية بالتحذير من المدح، فمن هذه النصوص:

بوَّب البخاري[(١)]، فقال: باب ما يُكْره من الإطناب في المدح، وليقل ما يعلم.

وبوَّب أيضًا، فقال: باب ما يُكره من التمادح، ثم روىٰ بسنده[(٢)] عن أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمع النبي ﷺ رجلًا يثني علىٰ رجلٍ ويطريه في مدحه، فقال: «**أهلكتم** - أو: قطعتم- **ظهر الرجل**».

قوله ﷺ: «**قطعتم ظهر الرجل**»: أثقلتموه بالإثم؛ لأنه ربما حمله إطراؤهم له علىٰ العجب والكبر، وسلك سبيل المتكبرين، فيقع في الإثم الكبير الذي يقطع الظهر.

وروىٰ مسلم[(٣)] عن همام بن الحارث أن رجلًا جعل يمدح عثمان، فعمد المقداد فجثا علىٰ ركبتيه -وكان رجلًا ضخمًا- فَجَعل يحثو في وجهه الحصباء -أي: جعل يأخذ حصوات، ويقذف في وجه الرجل- فقال له عثمان: ما شأنك؟ فقال: إنَّ رسول الله قال: «**إذا رأيتم المَدَّاحين، فاحثوا في وجوههم التراب**».

وفي روايةٍ[(٤)]: عن أبي معمرٍ قال: قام رجلٌ يثني علىٰ أميرٍ من الأمراء، فجعل المقداد يحثي عليه التراب، وقال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثي في وجوه المَدَّاحين التراب».

---

(١) «صحيح البخاري» (٣/ ١٧٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٦٦٣).

(٣) أخرجه مسلم (٣٠٠٢) باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط، وخيف منه فتنة علىٰ الممدوح.

(٤) «صحيح مسلم» (٣٠٠٢).

قال النَّوويُّ[١]: «قوله: (أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثي في وجوه المدَّاحين التراب)، هذا الحديث قد حَمَله علىٰ ظاهره المقداد الذي هو راويه، ووافقه طائفةٌ، وكانوا يحثون التراب في وجهه حقيقةً. وقال آخرون: معناه: خيبوهم، فلا تعطوهم شيئًا لمدحهم. وقيل: إذا مدحتم، فاذكروا أنكم من ترابٍ، فتواضعوا، ولا تعجبوا، وهذا ضعيف». انتهىٰ.

قال الحافظ[٢]: «للعلماء في الحديث خمسة أقوالٍ:

أحدها: هذا، وهو حمله علىٰ ظاهره، واستعمله المقداد راوي الحديث.

والثاني: الخيبة والحرمان؛ كقولهم لمن رجع خائبًا: رجع وكفه مملوءة ترابًا.

والثالث: قولوا له: بفيك التراب، والعرب تستعمل ذلك لمَن تكره قوله.

والرابع: أن ذلك يتعلق بالممدوح؛ كأن يأخذ ترابًا فيبذره بين يديه، يتذكر بذلك مصيره إليه، فلا يطغىٰ بالمدح الذي سمعه.

والخامس: المراد بحَثو التراب في وجه المادح: إعطاؤه ما طلب؛ لأن كل الذي فوق التراب تراب، وبهذا جزم البيضاوي، وقال: شبه الإعطاء بالحثي علىٰ سبيل الترشيد والمبالغة في التقليل والاستهانة. قال الطيبي: ويحتمل أن يراد دفعه عنه، وقطع لسانه عن عرضه بما يرضيه من الرضخ، والدافع قد يدفع خصمه بحثي التراب علىٰ وجهه؛ استهانةً به». انتهىٰ.

وفي رِوَايةٍ عند مسلمٍ[٣]: عن أبي موسىٰ قال: سمع النَّبي ﷺ رجلًا يثني علىٰ رجلٍ ويطريه في المدحة، فقال: «**لقد أهلكتم** -أو: قطعتم- **ظهر الرجل**».

---

(١) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٨/ ١٢٨).

(٢) «فتح الباري» (١٠/ ٤٧٨).

(٣) «صحيح مسلم» (٣٠٠١).

روىٰ الإمام أحمد بسندٍ صحيحٍ[(١)] من حديث محجن بن الأدرع الأسلمي قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فذكر حديثًا قال فيه: فدخل المسجد، فإذا رجل يصلي، فقال لي: «**مَن هذا؟**»، فأثنيت عليه خيرًا، فقال: «**اسكت، لا تسمعه فتهلكه**».

قال النووي[(٢)]: «قوله: (ولا أزكي علىٰ الله أحدًا)، أي: لا أقطع علىٰ عاقبة أحدٍ، ولا ضميره؛ لأن ذلك مغيب عنَّا، ولكن أحسب وأظن لوجود الظاهر المقتضي لذلك قوله ﷺ: «**قطعتَ عنق صاحبك**»، وفي روايةٍ: «**قطعتم ظهر الرجل**»، معناه: أهلكتموه، وهذه استعارةٌ من قطع العنق الذي هو القتل؛ لاشتراكهما في الهلاك، لكن هلاك هذا الممدوح في دينه، وقد يكون من جهة الدنيا؛ لما يشتبه عليه من حاله بالإعجاب.

قوله: «ويطريه في المِدْحة»، هي بكسر الميم. والإطراء: مجاوزة الحد في المدح». انتهىٰ.

قال النووي[(٣)]: «ذكر مسلم في هذا الباب الأحاديث الواردة في النهي عن المدح، وقد جاءت أحاديث كثيرة في «الصحيحين» بالمدح في الوجه.

قال العلماء: وطريق الجمع بينها أن النهي محمولٌ علىٰ المجازفة في المدح، والزيادة في الأوصاف، أو علىٰ مَن يخاف عليه فتنة من إعجابٍ ونحوه إذا سمع المدح، وأما مَنْ لا يخاف عليه ذلك لكمال تقواه، ورسوخ عقله ومعرفته، فلا نَهْي في مدحه في وجهه إذا لم يكن فيه مجازفةٌ، بل إنْ كان يحصل بذلك مصلحة؛ كنشطه للخير، والازدياد منه، أو الدوام عليه، أو الاقتداء به، كان مستحبًّا، والله أعلم». انتهىٰ.

---

(١) (١٨٩٧٦).

(٢) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٨/ ١٢٦).

(٣) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٨/ ١٢٦).

قال أبو حامد الغزالي[(١)]: «آفة المدح في المادح أنه قد يكذب، وقد يرائي الممدوح بمدحه، ولا سيما إن كان فاسقًا، أو ظالمًا، وقد يقول ما لا يتحققه مما لا سبيل له إلىٰ الاطلاع عليه؛ كقوله: إنه ورعٌ ومتقٍ وزاهدٌ، وفي الغالب والأعم أن المدح يحدث في الممدوح كِبْرًا، أو إعجابًا ولا بد، أو يكله علىٰ ما شهره به المادح، فيفتر عن العمل؛ لأن الذي يستمر في العمل -غالبًا- هو الذي يعد نفسه مقصرًا».

قال ابن بطال[(٢)]: حاصل النهي أن مَن أفرط في مدح آخر بما ليس فيه، لم يأمن علىٰ الممدوح العجب؛ لظنه أنه بتلك المنزلة، فربما ضيع العمل والازدياد من الخير اتكالًا علىٰ ما وصف به.

وروىٰ ابن ماجه[(٣)] بسندٍ حسنٍ عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إيَّاكم والتمادح، فإنَّه الذبح**».

فلا يمدح الرجل أخاه، فمدحك لي قطع لعنقي، ومدحي لك قطع لعنقك، ولئن مدحته وهو غير موجودٍ وأنت علىٰ يقينٍ أن هذا المدح سيصله، فالأمر سواء، فلا بدَّ من الانتهاء عن هذا الفعل، فإن أردت المدح لا محالة، فلتقل: «أحسبه كذلك»، وبضوابط وشروط أيضًا[(٤)].

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٨٩).

(٢) «فتح الباري» (١٠/ ٤٧٧).

(٣) «سنن ابن ماجه» (٣٧٤٣).

(٤) ومن جملة هذه الأمور أيضًا -رحمةً بأنفسنا، ورحمةً بأهل العلم- أنَّ بعض النصوص وردت بالفعل بجواز تقبيل يد العالِم بضوابط، ولكن لابد من الانتهاء عن ذلك أيضًا، بل ومن تقبيل الجبين، فكون الشريعة نهت عن المدح، فمن باب أَوْلَىٰ النهي عما هو دونه؛ كالتفخيم والتبجيل وتقبيل اليد وحمل المتاع وغير ذلك مما نراه بيننا الآن، فنحن بشر، ولابد أن نتعاون فيما بيننا علىٰ أن نُزِيلَ ما في قلوبنا من دخنٍ، وإلا فلنلزم بيوتنا، ولذلك لما سئل أحدهم: هل رأيت فلانًا العالم؟ قال: وما أدراك أنه =

التخلص من لذة المحمدة:

قبل التخلص من لذة المحمدة، لا بد من بيان السبب في حب المدح والثناء، وارتياح النفس به، وميل الطبع إليه، وبغضها للذم، ونفرتها منه.

قال أبو حامدٍ الغزالي(١): «اعلم أن لحب المدح والتذاذ القلب به أربعة أسبابٍ:

السبب الأول، وهو الأقوىٰ: شعور النفس بالكمال.

السبب الثاني: أن المدح يدل علىٰ أن قلب المادح مملوك للممدوح، وأنه مريد له، ومعتقد فيه، ومسخر تحت مشيئته، وملك القلوب محبوب، والشعور بحصوله لذيذ.

السبب الثالث: أنَّ ثناءَ المثني ومدح المادح سببٌ لاصطياد قلب كل مَن يسمعه، لا سيما إذا كان ذلك ممَّن يلتفت إلىٰ قوله، ويعتدُّ بثنائه.

السبب الرابع: أنَّ المدح يدلُّ علىٰ حشمة الممدوح».

وهذه الأسباب الأربعة تزول بما يلي: بأن يعلم الممدوح أن المادح غير صادقٍ في قوله، كما إذا مدح بأنه نسيبٌ، أو سخيٌّ، أو عالمٌ يعلم، أو متورعٌ عن المحظورات، وهو يعلم من نفسه ضد ذلك، فتزول اللَّذَّة التي سببها استشعار الكمال، وتبقىٰ لذة الاستيلاء علىٰ قلبه، وعلىٰ لسانه، وبقية اللذات، فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله، ويعلم خُلوَّه عن هذه الصفة بطلب اللذة الثانية، وهو استيلاؤه علىٰ قلبه، وتبقىٰ لذة الاستيلاء والحشمة علىٰ اضطرار لسانه إلىٰ النطق

= عالِم؟ إنما العالِم هو الذي يخشىٰ الله، ففرق بين جراب العلم الذي يحوي العلم فقط، وبين مَن يعمل بعلمه قد أثَّر علمُهُ في سلوكه، كما قال الإمام أبو يعقوب الحضرمي عليه رحمة الله: كنت ترىٰ قارئ القرآن تعرفه من مئةٍ، قد نصعه القرآن، أي: أدَّبه وأذبله وأثَّر فيه.

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٨٦).

بالثناء، فإن لم يكن ذلك عن خوفٍ، بل كان بطريق اللعب بطلب اللذات كلها، فلم يكن فيه أصلًا لذة لفوات الأسباب الثلاثة.

إذا ما أردت أن تتخلَّص من مرض الرياء من خلال التخلص من شعورك باللذة حين يمدحك الناس، فلا بدَّ من المصداقية مع النفس، فإذا مدحت بصفةٍ ما من مادحٍ، فاسأل نفسك: هذا الذي مدحني به هذا الشخص، أهو في أم لا؟ ولن يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال إلا أنت، والجواب في هذه الحالة لن يخرج عن أمرين:

- أن هذه الصفة ليست في الحقيقة فيك، وفي هذه الحالة اعلم أنه لا يوجد علىٰ وجه الأرض مَن هو أحمق ممن يفرح بمدحٍ ليس فيه.

- أن تكون هذه الصفة فيك حقًّا، وفي هذه الحالة تَحلَّ بالإنصاف والمصداقية، وسَلْ نفسك: هل هذه الصفة التي فيَّ تستحق المدح حقًّا؟ فالصفات صفات مكتسبة، وأخرىٰ جِبليَّة، فمثلًا: الرجل يكون أنفه صغيرًا، أو تكون عينه زرقاء، فليس له دخلٌ في ذلك؛ لأنها صفات جِبليَّة لم يكتسبها، وإنماخلقه الله بها، أما إن كانت الصفة كَسبيَّةً -أي: أن الإنسان هو الذي اكتسبها؛ كالشجاعة والفروسية، وغير ذلك- فهي ليست علىٰ الدوام، وإنما هي عَرَض زائل، وكل صفات المدح عند المرء إنما هي عَرَض زائل.

وهَبْ أنها باقيةٌ؛ كالعلم والعبادة مثلًا، فإن ذلك لا ينفعك إن ختم لك بالسوء، وإنما ينفعك إن ختم لك بخاتمة السعادة، وخاتمة السعادة ليست في يدك.

واعلم أنه ليس في الدنيا لذة حقيقية، كما قال أبو الفرج ابن الجوزي في «صيد الخاطر»[(١)]: «وليس في الدنيا علىٰ الحقيقة لذة، إنما هي راحة من مؤلم»، فألم الجوع

(١) (١/ ٣٣٣).

-مثلًا- هو الذي جعلك تشعر بلذة الطعام، بدليل أنك إن أكلت وأنت في شِبَعٍ تامٍّ، لا تجد لذلك لذةً؛ لأن ألم الجوع غير موجودٍ.

وقال أبو الفرج أيضًا: «وإن لم يكن في الدنيا من الألم والنكد إلا الحزن علىٰ فراق الأحبة، لَكان كافيًا»، فطوال الحياة يفارق المرء منًّا من أحبائه الكثير حتىٰ يأتي يومٌ يفارقهم هو.

وعلىٰ الجملة، فلا نفرح بمدح مَن مَدْحه لا شيء، ولا نحزن بذم مَن ذمُّه لا شيء.

روىٰ الإمام أحمد والترمذي والنسائي[(١)] بسندٍ صحيحٍ عن الأقرع بن حابس، أنه نادىٰ رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، فقال: يا رسول الله، فلم يُجِبْه رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، ألا إنَّ حمدي زَينٌ، وإن ذمِّي شَينٌ، فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك الله عَزَّوَجَلَّ**».

قال المباركفوري في «تحفة الأحوذي»[(٢)]: «قوله: (فقال: يا رسول الله، إن حمدي زَينٌ، وإن ذمي شينٌ)، مقصود الرجل من هذا القول مدح نفسه، وإظهار عظمته، يعني: إن مدحت رجلًا فهو محمودٌ ومزينٌ، وإن ذممت رجلًا فهو مذمومٌ ومعيبٌ.

قوله ﷺ: «**ذاك الله عَزَّوَجَلَّ**»، أي: الذي حَمْده زينٌ، وذمُّه شينٌ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ».

روىٰ أبو نعيمٍ[(٣)] في «الحلية»: قال مالك بن دينار: «منذ عرفت الناس لم أفرح بمدحتهم، ولا أكره مذمتهم»، قيل: وَلِمَ ذلك؟ قال: «لأنَّ مادحهم مفرطٌ، وذامهم

---

(١) «المسند» (١٥٩٩١)، و«سنن الترمذي» (٣٢٦٧).

(٢) (٩/ ١٠٩).

(٣) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (٢/ ٣٧٢).

مفرطٌ»، فالمدح الحقيقي مدح الحق ﷻ، والذم الحقيقي ذم الحق ﷻ، فمدحه يرفعك إلىٰ الخافقين، وذمه يجعلك في السافلين، فَهَبْ أن القوم مدحوك حتىٰ رفعوك إلىٰ أعلىٰ منزلةٍ، أيُغيِّر ذلك من منزلتك عند الله شيئًا؟ فبالله عليك، كيف تفرح بشيءٍ أنت علىٰ يقينٍ أنه لن يرفع من منزلتك عند الله، بل العكس ممكن، فاعقل هذه المعاني، وانتبه إليها جيدًا قبل أن تبحث عن لذَّة المحمدة، ولا تفرح إذا مدحك إنسانٌ، وأزل عن قلبك لذَّة المحمدة.

وصدق مَنْ قال: إذا قيل لك: نِعْمَ الرجل أنت، فكان أحب إليك من أن يقال لك: بئس الرجل أنت، فأنت -والله- بئس الرجل.

ثانيًا: الفرار من ألم الذم:

أَلَمُ الذم هو أن المرء إذا ذمَّك، أو انتقص منك، أحزنك ذلك؛ لأن الذم يتولد منه الشعور بالنقص تمامًا، كما أن المدح يفرح المرء؛ لأن المدح يتولد منه الشعور بالكمال.

وعلاج هذا الأمر: أن تعلم أن هذا الذي ذمك، أو انتقص منك لا يخلو من ثلاثة أحوالٍ:

١- رجل ذمَّك وذكر عيوبك الحقيقية لينتقص منك، ويهينك، ويقلل من قدرك، أي: ذمك بحقٍّ لا بباطلٍ، والذي قاله فيك متحقق بالفعل، وإن كان قد قاله علىٰ سبيل التنقيص والإهانة والذم، ففي هذه الحالة النظرة الصحيحة الشرعية العقلية أن تحمد الله عزوجل أَنْ قيض لك مَن أرشدك إلىٰ عيوبك، وإن كان مخطئًا في طريقة التعبير إذ كان من المفترض أن يبين عيوبك بأدبٍ ولطفٍ، ولكنه جال وتكلم فيك بكلامٍ هو حقٌّ، فتنظر إلىٰ الأمر أنه إن كان أخطأ وأغلظ في الموعظة والنصيحة، فإنه أرشدني إلىٰ عيوبي التي لم أكن أعلم عنها شيئًا.

قال أبو حامدٍ الغزالي[(١)]: «فإن مَن أهدىٰ إليك عيوبك، فقد أرشدك إلىٰ المهلك حتىٰ تتَّقيه، فينبغي أن تفرح به، وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها، فأما اغتمامك بسببه، وكراهتك له، وذمك إياه، فإنه غاية الجهل، وإن كان قصده التعنُّت، فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلىٰ عيبك إن كنت جاهلًا به، وأذكرك عيبك إن كنت غافلًا عنه، أو قبحه في عينك لينبعث حرصك علىٰ إزالته إن كنت قد استحسنته».

وكل ذلك أسباب سعادتك، وقد استفدته منه، فاشتغل بطلب السعادة، فقد أتيح لك أسبابها بسبب ما سمعته من المذمة، فمهما قصدت الدخول علىٰ ملكٍ وثوبك ملوث بالعذرة، وأنت لا تدري، ولو دخلت عليه كذلك لخفت أن يحز رقبتك لتلويثك مجلسه بالعذرة، فقال قائلٌ: أيها الملوث بالعذرة، طهِّر نفسك، فينبغي أن تفرح به؛ لأن تنبيهك بقوله غنيمة، وجميع مساوي الأخلاق مهلكة في الآخرة، والإنسان إنَّما يعرفها من قول أعدائه فينبغي أن يغتنمه.

وأمَّا قصد العدو التعنُّت، فجناية منه علىٰ دين نفسه، وهو نعمة منه عليك، فَلِمَ تغضب عليه بقولٍ انتفعت به أنت، وتضرَّر هو به.

٢- أن يكون ذِكْر عيوبك من باب النصح والشفقة والاحتساب، وكل الذي قاله فيك موجود فعلًا وأنت تعلم، وإن كان هذا الذي فعل في الحقيقة ذمًّا لك؛ لأنه ذكر عيوبًا فيك، والمراد منك في هذه الحالة أن تبتعد عن ألم الذم، فلا تشعر بألمٍ لهذا الذم، فهذه الحالة ليس فيها ما يستدعي الحزن، بل علىٰ المرء أن يفرح لذلك، ويحمد الله أن أرشده إلىٰ عيوبه، ويستعين بالله عَزَّوَجَلَّ علىٰ التخلص منها.

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٩٠).

٣- أن يكون ذمَّك بما ليس فيك، أي: تعدىٰ عليك بما لم يحدث منك، وفي هذه الحالة ذكر العلماء أن المرء ينبغي أن يحمد الله عَزَّوَجَلَّ أَنْ ستَر عيوبه الحقيقية عن الناس حتىٰ تكلم فيه بعيوبٍ غير حقيقيةٍ، فيحمد الله أن أسبل ستره عليه[(١)]، فإنَّ هذا الذي اتهمك بما ليس فيك يعلم حقيقةً أنها ليست فيك، وأنه كاذبٌ، ولكنه في لحظة غيظٍ وانفعالٍ قالها، ولا بد أنه سيرجع عنها في وقتٍ ما.

قال أبو حامدٍ الغزالي[(٢)]: «أن يفتري عليك مَن ذمك بما أنت بريءٌ منه عند الله تعالىٰ، فينبغي ألَّا تكره ذلك، ولا تشتغل بذمِّه، بل تتفكَّر في ثلاثة أمورٍ:

أحدها: أنك إنْ خلوت من ذلك العيب الذي ذمَّك به، فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه، وما ستره الله من عيوبك أكثر، فاشكر الله تعالىٰ إذ لم يطلعه علىٰ عيوبك، ودفعه عنك بذكر ما أنت بريءٌ عنه.

والثاني: أن ذلك كفارات لبقية مساويك وذنوبك، فكأنه رماك بعيبٍ أنت بريءٌ منه، وطهَّرك من ذنوبٍ أنت ملوثٌ بها، وكل مَن اغتابك، فقد أهدىٰ إليك حسناته، وكل مَن مدحك، فقد قطع ظهرك.

فما بالك تفرح بقطع الظهر، وتحزن لهدايا الحسنات التي تُقرِّبك إلىٰ الله تعالىٰ، وأنت تزعم أنك تحبُّ القرب من الله.

---

(١) فأنتَ في حياتك إن وجدت أحدًا قد انكشف أمره أمام القوم وهو متلبسٌ بفضيحةٍ، أو شيءٍ قبيحٍ، والجميع صاروا يتكلمون عنه، عليك حينئذٍ أن تتخذ العبرة والعظة من هذا الأمر، إذ كان من الممكن أن تكون أنت في محله، فأنت عندك من الذنوب كما عنده، ولكن الفرق بينك وبينه أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ كشف الستر عنه، وما زال يسبل ستره عليك، ولو كشفه لانفضحت، كما انفضح، فاتق الله ربك، وأقلع عن الذنب قبل أن يكشف عنك الستر.

(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٩١).

وأما الثالث: فهو أن المسكين قد جنىٰ علىٰ دينه حتىٰ سقط من عين الله، وأهلك نفسه بافترائه، وتعرض لعقابه الأليم». انتهىٰ.

وبهذا الكلام يكون الذمُّ بحالاته الثلاث لا يعقل أبدًا أن يتألم منه.

ومن وجهٍ آخر: ينبغي أن تعلم للتَّخلُّص من ألم الذم أن هذا الذي ذمَّك قد أهدىٰ إليك من حسناته، وأن تعلم أيضًا أن هذا الذي ذمَّك لمَّا قال ما قال، لم يقطع عنقك بكلامه كمن مدحك، كما قال النبي ﷺ، كما في الصحيح: «**قطعتَ عُنُقَ أخيك**»، فقد قال العلماء: إن معناها: أهلكته في الدنيا بأن أوصلته إلىٰ العجب والفخر، وسيؤدي هذا المدح إلىٰ هلاكه في الآخرة أيضًا، فكيف تشعر باللَّذَّة، وتفرح بمَن قطع عنقك بالمدح، وتحزن ممَّن أهدىٰ إليك عيوبك؟ هذا من المفاهيم المقلوبة، فالذَّامُّ إما أن يكون أهدىٰ إليك عيوبك بغلظةٍ أو برفقٍ، وإما أن يكون أهدىٰ إليك من حسناته، فعلىٰ الاحتمالين ما ينبغي للعاقل أن يتألم من الذم.

قال أبو حامدٍ الغزالي[(١)]: «**اعلم أن للناس أربعة أحوال بالإضافة إلىٰ الذامِّ والمادح:**

الحالة الأولىٰ: أن يفرح بالمدح، ويشكر المادح، ويغضب من الذم، ويحقد علىٰ الذامِّ، وهذا حال أكثر الخَلق، وهو غاية درجات المعصية في هذا الباب.

الحالة الثانية: أن يمتعض في الباطن علىٰ الذامِّ، ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته، ويفرح باطنه ويرتاح للمادح، ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور، وهذا من النقصان إلا أنه بالإضافة إلىٰ ما قبله كمالٌ.

الحالة الثالثة: وهي أول درجات الكمال أن يستوي عنده ذامُّه ومادحه، فلا تغمه المذمَّة، ولا تسرُّه المدحة.

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٩١).

الحالة الرابعة: وهي الصدق في العبادة، أن يكره المدح، ويمقت المادح».

ثالثًا: الطمع فيما في أيدي الناس:

أما الطمع فيما عند الناس -وهو ممَّا يجعل البعض يفعل الخير من أجل الغير لينال شيئًا ممَّا عنده من متاع الدنيا- فدائمًا تكون بدايتُهُ خيبةً، ونهايتُهُ إنْ حصل مراده مهانةً.

قال ابن قدامة المقدسي(١): «وقَد رُوِّينا عن وهب بن منبهٍ أن رجلًا من العباد قال لأصحابه: إنَّا قد فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان، وإنَّا نخاف أن يكون قد دخل علينا في أمرنا من هذا الطغيان أكثر مما دخل علىٰ أهل الأموال في أموالهم، إنَّ أحدنا إذا لقي، أحب أن يعظم لمكان دينه، وإن كان له حاجة أحب أن تُقضىٰ لمكان دينه، وإن اشترىٰ شيئًا أحب أن يرخص له لمكان دينه». انتهىٰ.

روىٰ ابن ماجه(٢) بسند صحيح -نص علىٰ ذلك الألبانيُّ في «الصحيحة» - عن سهل بن سعد الساعدي، قال: أتىٰ النَّبيَّ ﷺ رجلٌ، فقال: يا رسول الله، دلَّنىٰ علىٰ عملٍ إذا أنا عملته، أحبَّني الله، وأحبَّني الناس(٣)، فقال رسول الله ﷺ: «**ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبوك**».

قال ابن قدامة(٤): «وأمَّا الطمع فيما في أيدي الناس، فيزيله بأن يعلم يقينًا أن الله تعالىٰ هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء، وأنه لا رازق سواه، ومَن طمع في الخلق، لم يخلُ من الذل والخيبة، وإن وصل إلىٰ المراد، لم يخلُ من المنة والمهانة، فكيف يترك ما عند الله برجاءٍ كاذبٍ، ووهمٍ فاسدٍ.

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (١/ ٢١٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٩٤٤).

(٣) وهذه من أصعب الأمور أن يفعل المرء فعلةً واحدةً ترضي الله، وترضي الناس، فهذا صعبٌ جدًّا، ولكن النبي ﷺ أرشدنا إليها.

(٤) «مختصر منهاج القاصدين» (١/ ٢٢٣).

وما من شيءٍ يطمع فيه العبد عند الناس إلا وخزائنه بيد الله، وخزائن الله لا تنفد، أما ما عند الناس فمحدودٌ، من أجل ذلك قالوا: «قلب مَن ترائيه بيد مَن تعصيه»، فهل هناك غباء أشد من هذا؟! فالعبد لا يفعل فعلةً إلا ولها أصلٌ في القلب، وقلوب العباد بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا أردتَ شيئًا من أحدٍ، فالجأ إلىٰ ربك وربه، وتضرع إليه سبحانه، لا أن تعصيه بالرياء». اهـ.

لذلك، نلفت الأنظار إلىٰ نصٍّ في القرآن فهمُهُ عجيب جدًّا، وهو قوله تعالىٰ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الإسراء: ٧].

فقد قال ابن القيِّم(١) **عليه رحمة الله تعالىٰ**: «الله سبحانه غني كريم، عزيز رحيم، فهو محسن إلىٰ عبده مع غناه عنه، يريد به الخير، ويكشف عنه الضرَّ، لا لجلب منفعةٍ إليه من العبد، ولا لدفع مضرةٍ، بل رحمة منه وإحسانًا، فهو سبحانه لم يخلق خلقه ليتكثَّر بهم من قِلَّةٍ، ولا ليعتزَّ بهم من ذلةٍ، ولا ليرزقوه قوةً، ولا لينفعوه، ولا ليدفعوا عنه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]، فهو سبحانه لا يوالي مَن يواليه من الذل، كما يوالي المخلوق المخلوق، وإنما يوالي أولياءه إحسانًا ورحمةً ومحبةً لهم، وأما العباد فإنهم كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ﴾ [محمد: ٣٨].

فَهُمْ لفقرهم وحاجتهم إنما يحسن بعضهم إلىٰ بعضٍ لحاجته إلىٰ ذلك، وانتفاعه به عاجلًا أو آجلًا، ولولا تصوُّر ذلك النفع لَمَا أحسن إليه، فهو في الحقيقة إنما أراد الإحسان إلىٰ نفسه، وجعل إحسانه إلىٰ غيره وسيلةً وطريقًا إلىٰ وصول نفع

(١) «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» (١/ ٤١).

ذلك الإحسان إليه، فإنه إما أن يحسن إليه لتوقُّع جزائه في العاجل، فهو محتاجٌ إلىٰ ذلك الجزاء، أو معاوضة بإحسانه، أو لتوقع حمده وشكره.

وهو أيضًا إنما يحسن إليه؛ ليحصل منه ما هو محتاج إليه من الثناء والمدح، فهو محسن إلىٰ نفسه بإحسانه إلىٰ الغير، وإما أن يريد الجزاء من الله تعالىٰ في الآخرة، فهو أيضًا محسن إلىٰ نفسه بذلك، وإنما أخَّر جزاءه إلىٰ يوم فقره وفاقته، فهو غير ملومٍ في هذا القصد، فإنه فقير محتاج، وفقره وحاجته أمرٌ لازمٌ له من لوازم ذاته، فكماله أن يحرص علىٰ ما ينفعه، ولا يعجز عنه، فالمخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول، بل إنما يقصد انتفاعه بك.

والرَّبُّ تعالىٰ إنما يريد نفعك لا انتفاعه به، وذلك منفعة محضة لك خالصة من المضرَّة، بخلاف إرادة المخلوق نفعك، فإنَّه قد يكون فيه مضرةٌ عليك، ولو بتحمُّل منَّته، فتدبر هذا، فإنَّ ملاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق، أو تعامله دون الله عَزَّوَجَلَّ، أو تطلب منه نفعًا، أو دفعًا، أو تعلق قلبك به، فإنه إنما يريد انتفاعه بك لا محض نفعك، وهذا حال الخَلق كلهم بعضهم مع بعضٍ، وهو حال الولد مع والده، والزوج مع زوجه، والمملوك مع سيده، والشريك مع شريكه، فالسَّعيد مَن عاملهم لله تعالىٰ لا لهم، وأحسن إليهم لله تعالىٰ، وخاف الله تعالىٰ فيهم، ولم يخفهم مع الله تعالىٰ، ورجا الله تعالىٰ بالإحسان إليهم، ولم يَرْجهم مع الله، وأحبهم بحب الله، ولم يحبهم مع الله تعالىٰ، كما قال أولياء الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان: ٩]». اهـ.

فتحصيلُ ما عند الناس من خلال الرياء وسيلةٌ غير شرعية، وغير كونية أيضًا، فلا يقبلها الشرع، ولا العقل، فأنت هكذا تسلك طريقًا مسدودًا لن يوصلك إلا للخسران والبوار.

وبهذا تبطل أسباب الرياء الثلاثة: (لذة المحمدة - الفرار من ألم الذم - الطمع فيما عند الناس)، وبإبطالهم يبطل الرياء.

ومن الدواء النافع أيضًا للتخلص من الرياء: أن يُعوِّد نفسه إخفاء العبادات التي أمر الشرع بإخفائها من قيام الليل، وصيام النفل ونحوها، وإغلاق الأبواب دونها، كما تغلق الأبواب دون الفواحش، فإنه لا دواء للرياء مثل إخفاء الأعمال، وذلك يشق في بداية المجاهدة، فإذا صبر عليه مدةً بالتكلف، سقط عنه ثقله، وأمدَّه الله بالعون، فعلىٰ العبد المجاهدة، ومن الله التوفيق.

مسألةٌ في بيان الرخصة: في قصد إظهار بعض الطاعات، وكذلك وجوب التستُّر عند فعل الذنب.

اعلم أنَّ من الأعمال ما لا يمكن الإسرار به؛ كالحجِّ والجهاد، وطلب العلم من العلماء، ومن الأعمال ما يسرُّ، وندب الشرع إلىٰ كتمانه؛ كالذِّكر الذي أعظمه: «لا إله إلا الله»، وعند ذكرها لا تتحرك الشفتان، ولا يظهر أثر الذِّكر بها، وكذلك قيام الليل في غير شهر رمضان، وصيام النفل، وعليه فالمظهر للعمل ينبغي أن يراقب قلبه حتىٰ لا يكون فيه حب الرياء الخفي، ويزعم أنه ينوي الاقتداء به، ولا ينبغي للضعيف أن يخدع نفسه بذلك، فأما مَن قوي وتمَّ إخلاصه، وصغر الناس في عينه، واستوىٰ عنده مدحهم وذمهم، فلا بأس بالإظهار له؛ لأن الترغيبَ في الخير خيرٌ.

وقد روي ذلك عن جماعةٍ من السلف أنهم كانوا يظهرون شيئًا من أحوالهم الشريفة ليقتدىٰ بهم، كما قال بعضهم لأهله حين احتضر: «لا تبكوا عليَّ، فإني ما لفظت بخطيئةٍ منذ أسلمتُ».

وقال أبو بكر بن عياش رَحِمَهُ اللَّهُ لابنه: «إياك أن تعصي الله تعالىٰ في هذه الغرفة، فإنِّي ختمتُ فيها القرآن اثني عشر ألف ختمة»، ونحو ذلك كثير من كلامهم، والله أعلم[(١)].

ربما ظن ظانٌّ أن كتمان الخطايا رياء، وليس كذلك، فإن الشرع المطهر أمَر بكتمانها، وحذَّر من إظهارها، بل أمَر مَن رأىٰ غيره علىٰ معصيةٍ أن يسترها عليه بضوابط وقيود برهان ذلك.

روىٰ مالك[(٢)] في «موطئه» بسند صحيح من حديث زيد بن أسلم أن رجلًا اعترف علىٰ نفسه بالزنا علىٰ عهد النبي ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ بسوطٍ، فأُتِيَ بسوطٍ مكسورٍ، فقال: «**فوق هذا**»، فأُتِيَ بسوطٍ جديدٍ لم تقطع ثمرته، فقال: «**بين هذين**»، فأُتِيَ بسوطٍ قد ركب به ولان، فأمر به فجلد، ثم قال: «**أيها الناس، قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله، مَن أصاب من هذه القاذورات شيئًا، فليستتر بستر الله، فإنه مَن يبدي لنا صفحته، نقيم عليه كتاب الله**». «القاذورات»، هي الذنوب.

ملحوظة[(٣)]: ظاهر الحديث السابق يتعارض مع ما رواه ابن ماجه[(٤)] بسندٍ صحيحٍ من حديث ثوبان عن النبي ﷺ أنه قال: «**لأعلمن أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسناتٍ أمثال جبال تهامة بيضًا، فيجعلها الله عَزَّوَجَلَّ هباءً منثورًا**»، قال ثوبان: يا رسول الله، صفهم لنا، جَلِّهم لنا ألَّا نكون منهم، ونحن لا نعلم، قال: «**أما إنهم إخوانكم، ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوامٌ إذا خلوا**

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (١/ ٢٢٤).

(٢) «الموطأ» (١٢).

(٣) «شرح زاد المستقنع» لمحمد بن محمد المختار الشنقيطي.

(٤) «سنن ابن ماجه» (٤٢٤٥).

بمحارم الله انتهكوها». «الهباء»: الشيء المنبث الذي تراه في ضوء الشمس. «منثور»: متفرق.

وفي روايةٍ في «الحلية»[(١)] لأبي نعيمٍ من حديث سالم مولىٰ أبي حذيفة قال: «قال رسول الله ﷺ: «**ليجاءن بأقوامٍ يوم القيامة معهم من الحسنات مثل جبال تهامة، حتىٰ إذا جيء بهم، جعل الله أعمالهم هباءً، ثم قذفهم في النار**»، فقال سالم: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، جَلِّ لنا هؤلاء القوم حتىٰ نعرفهم، فوالذي بعثك بالحق، إني أتخوف أن أكون منهم، فقال: «**يا سالم، أما إنهم كانوا يصومون ويصلُّون، ولكنهم إذا عرض لهم شيءٌ من الحرام، وثبوا عليه، فأدحض الله تعالىٰ أعمالهم**»، فقال مالك بن دينار: هذا -والله- النفاق، فأخذ المعلىٰ بن زياد بلحيته، فقال: صدقت -والله- أبا يحيىٰ».

قوله: «جَلِّهم لنا»، بالجيم من التجلية، أي: اكشف ما لهم لنا. قوله ﷺ: «**من جلدتكم**» بكسر الجيم، أي: من جنسكم «**ويأخذون من اللَّيل**»، أي: يأخذون من عبادة الليل نصيبًا.

دلَّ حديث ثوبان علىٰ أنَّ المسلم إذا خلا بمحارم الله ﷻ وانتهكها، يؤدي ذلك إلىٰ حبوط حسنات أمثال الجبال، بينما دلَّ ظاهر حديث زيد بن أسلم علىٰ وجوب التستُّر عند الوقوع في المعصية، فكيف ذلك؟

الجواب: الأصل في كلِّ مسلمٍ إن كان لا محالة مقترفًا لمعصيةٍ أن يستر نفسه حتىٰ لا يراه أحدٌ من الخَلق، وعليه يحمل حديث ثوبان علىٰ أقوامٍ عندهم استهتار واستخفاف بالله ﷻ، فهناك فرقٌ بين المعصية التي تأتي مع الانكسار، والمعصية

---

(١) «حلية الأولياء» (١/ ١٧٧).

التي تأتي بغير انكسارٍ، بين شخصٍ يعصي الله في سترٍ، وبين شخصٍ عنده جرأة علىٰ الله ﷻ، فصارت حسناته في العلانية أشبه بالرياء وإن كانت أمثال الجبال، فإذا كان بين الصالحين أحسن أيما إحسانٍ؛ لأنه يرجو الناس، ولا يرجو الله، فيأتي بحسناتٍ كأمثال الجبال، فظاهرها حسنات، «**لكنَّهم إذا خَلَوا بمحارم الله انتهكوها**»، فَهُمْ في السِّرِّ لا يرجون لله وقارًا، ولا يخافون من الله ﷻ بخلاف مَن يفعل المعصية في السر وقلبه منكسر، ويكره هذه المعصية، ويمقتها، ويرزقه الله الندم، فالشخص الذي يفعل المعصية في السرِّ، وعنده الندم والحرقة ويتألم، فهذا ليس ممَّن ينتهك محارم الله ﷻ؛ لأنه في الأصل معظمٌ لشعائر الله، لكن غلبته شهوته، فينكسر لها، أمَّا الآخر فيتَّسم بالوقاحة والجرأة علىٰ الله؛ لأنَّ الشرع لا يتحدث عن شخصٍ، أو شخصين، ولا يتحدث عن نصٍّ محددٍ، إنما يعطي الأوصاف كاملةً.

فمن الناس مَن إذا خلا بالمعصية خلا بها جريئًا علىٰ الله، ومنهم مَن يخلو بالمعصية وهو تحت قهر الشهوة، وسلطان الشهوة، ولو أنَّه أمعن النظر وتريَّث، ربما غلب إيمانه شهوته، وحال بينه وبين المعصية، لكن الشهوة أعمته، والشهوة قد تعمي وتصم، فلا يسمع نصيحةً، ولا يرعوي، فيهجم علىٰ المعصية، فيستزله الشيطان، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، فإذا حصل الاستزلال من الشيطان، فزلت قدم العبد، لكن في قرارة قلبه الاعتراف بالمعصية، والله يعلم أنه لما وقع في المعصية أنه نادم، وأنه كارهٌ لها، حتىٰ إن بعضهم يفعل المعصية وهو في قرارة قلبه يتمنىٰ أنه مات قبل أن يفعلها، فهذا معظمٌ لله ﷻ، ولكنه لم يرزق من الإيمان ما يَحُول بينه وبين المعصية، وقد يكون سبب ابتلاء الله له أنه عيَّر أحدًا، أو أنه عقَّ والدًا، أو قطع رحمه، فحجب الله عنه رحمته، أو آذىٰ عالمًا،

أو وقَع في أذيَّة وليٍّ من أولياء الله؛ فآذَنه الله بحَرْبٍ، فأصبح حاله حال المخذول، مع أنه في قرارة قلبه لا يرضىٰ بهذا الشيء، فيخذل عند التعرُّض للمعاصي والله أعلم. انتهىٰ كلام الشيخ محمد بن محمد المختار الشنقيطي.

ومن الدواء النافع أيضًا للتخلص من الرياء: دفع العارض من الرياء أثناء العبادة، وذلك لا بد من تعلمه أيضًا، فإن مَن جاهد نفسه، وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة، وإسقاط نفسه من أعين الناس، واحتقار مدحهم وذمهم، فإنَّ الشيطان لا يتركه في أثناء العبادة، بل يعارضه بخطرات الرياء، فإذا خطر له معرفة الخَلق بعبادته، واطلاعهم عليها، دفع ذلك بأن يقول لنفسه: ما لكِ وللخَلق؛ علموا أو لم يعلموا، والله عالِم بحالك، فأي فائدةٍ في علم غير الله تعالىٰ بحالك، وإنَّ علم غير الله تعالىٰ بحالك لن ينفعك علمه بحالك.

فإن هاجت الرغبة إلىٰ آفة الحمد، ذكرها آفات الرياء والتعرض للمقت، فيقابل تلك الرغبة بكراهة المقت، فإنَّ معرفة اطلاع الناس تثير شهوةً، ومعرفة آفة الرياء تثير كراهةً، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.



ومن الدَّواء النافع لعلاج الرياء: استشعار مضارِّ الرياء، ومنها:

(١) الرياءُ محبطٌ للأعمال، مضيعٌ لثوابها.

(٢) الرياء سببٌ للمقت عند الله، والمرائي ملعون ومطرود من رحمة الله تعالىٰ.

(٣) الرياء من كبائر المهلكات.

(٤) الرياء دليل علىٰ غاية جهل المرائي.

(٥) الآخرة الزقوم، والعذاب المقيم.

(٦) الرياء يجلب الفقر، ويعرض صاحبه للفتن.

(٧) الرياء يفضح أصحابه علىٰ رؤوس الأشهاد يوم القيامة.

(٨) يضاعف الله عذاب المُرَائين من القُرَّاء، فيجعلهم في وادي الحزن في جهنم وساءت مصيرًا.

(٩) الرياء يحول العمل الصالح إلىٰ نقيضه، فيحمل صاحبه به وزرًا بدلًا من أن يكون له أجرًا، أو يكون عليه سترًا.

(١٠) لا يَسلم المرائي من أن يفتضح أمره في الدنيا، فيسقط من أعين الناس، وتذهب هيبته، ناهيك عن حسرته يوم القيامة.

يظهر الله عيوب المرائي، ويسمعه المكروه جزاء ما قدمت يداه. انتهىٰ من «نضرة النعيم».

ومن الدواء النافع لعلاج الرياء: الوقوف على فضيلة الإخلاص الذي هو ألَّا تطلب لعملك شاهدًا غير الله تعالىٰ، ومنها:

أولًا: الإخلاص أحد ركني قبول العمل عند الله تعالىٰ:

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: ٢].

قال الفضيل بن عياضٍ(١): «هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا، لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتىٰ يكون خالصًا صوابًا».

الخالص: أن يكون لله. والصواب أن يكون علىٰ السنة، ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝١١٠﴾ [الكهف: ١١٠].

قال ابن كثيرٍ(٢): «وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصًا لله، صوابًا علىٰ شريعة رسول الله ﷺ».

وروىٰ النسائي(٣) بسند صحيح من حديث أبي أمامة الباهلي، قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله لا يقبل من العمل إلَّا ما كان له خالصًا، وابتغي به وجهه**».

ثانيًا: توعد إبليس أن يضلَّ الجميع، ولم يستثن إلا المخلصين:

قال تعالىٰ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

---

(١) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ١٠٥).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٨٣).
(٣) «سنن النسائي» (٣١٤٠).

ثالثًا: قال ابن القيِّم[١] رحمه الله تعالىٰ: «العمل بغير إخلاصٍ ولا اقتداءٍ كالمسافر يملأ جرابه رملًا ينقله، ولا ينفعه». اهـ.

قال مكحول[٢]: «ما أخلص عبدٌ قط أربعين يومًا إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه ولسانه».

قال أبو سليمان الداراني[٣]: «إذا أخلص العبد، انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء».

رابعًا: العلم بفوائد الإخلاص وثمراته، ومنها:

(١) الإخلاص هو الأساس في قبول الأعمال والأقوال.

(٢) الإخلاص هو الأساس في قبول الدعاء.

(٣) الإخلاص يرفع منزلة الإنسان في الدنيا والآخرة.

(٤) يبعد عن الإنسان الوساوس والأوهام.

(٥) يُحرِّر العبد من عبوديَّة غير الله.

(٦) يقوي العلاقات الاجتماعية، وينصر الله به الأمة.

(٧) يفرج شدائد الإنسان في الدنيا.

(٨) يحقق الطُّمأنينة لقلب الإنسان، ويجعله يشعر بالسعادة.

(٩) يقوي إيمان الإنسان، ويُكرِّه إليه الفسوق والعصيان.

(١٠) يقوي عزيمة الإنسان وإرادته في مواجهة الشدائد.

(١١) حصول كمال الأمن والاهتداء في الدنيا والآخرة.

---

(١) «الفوائد» (١/ ٤٩).

(٢) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (٢/ ٩٢).

(٣) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (٢/ ٩٢).

مسألة: بم يكون الرياء؟ يكون الرياء بواحدٍ من الأمور الآتية؛ منفردةً أو مجتمعَة:

النوع الأول: أن يكون من جهة البدن بإظهار النحول والصفار ليريهم بذلك شدة الاجتهاد، وغَلَبة خوف الآخرة، وكذلك يرائي بتشعث الشعر ليظهر أنه مستغرقٌ في همِّ الدين، لا يتفرَّغ لتسريح شعره.

ويقرب من هذا خفض الصوت، وإغارة العينين، وذبول الشفتين؛ ليدل بذلك علىٰ أنه مواظبٌ علىٰ الصوم، فهذا الرياء من جهة البدن لأهل الدين.

النوع الثاني: الرياء من جهة الزِّيِّ؛ كالإطراق حالة المشي، وإبقاء أثر السجود علىٰ الوجه، وغلظ الثياب، ومنه التقنُّع فوق العمامة؛ لتنصرف إليه الأعين بالتمييز بتلك العادة، كما تفعله بعض الجماعات في بلاد مصر.

النوع الثالث: الرياء بالقول، ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير، وحفظ الأخبار والآثار لأجل المحاورة، وإظهار غزارة العلم، والدلالة علىٰ شدة العناية بأحوال السلف، وتحريك الشَّفتين بالذِّكر في محضر الناس، وإظهار الغضب للمنكرات بين الناس، وخفض الصوت وترقيقه بقراءة القرآن؛ ليدلَّ بذلك علىٰ الخوف والحزن، ونحو ذلك.

النوع الرابع: الرياء بالعمل؛ كمُرَاءة المصلِّي بطول القيام، وتطويل الرُّكوع والسجود، وإظهار الخشوع، ونحو ذلك، وكذلك بالصوم والغزو والحج والصدقة، ونحو ذلك.

النوع الخامس: المُرَاءاة بالأصحاب والزائرين؛ كالذي يتكلف أن يستزير عالمًا، أو عابدًا، ليقال: إن فلانًا قد زار فلانًا، وإنَّ أهل الدين يتَردَّدون إليه، وكذلك مَن يرائي

بكثرة الشيوخ، ليقال: لقي شيوخًا كثيرةً، واستفاد منهم، فيباهي بذلك، فهذه مجامع ما يرائي به المُرَاؤون، يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد.



الباب السابع

مرض الغضب

وفيه ثمانية فصول:

الفصل الأول: تعريف الغضب.

الفصل الثاني: ثبوت صفة الغضب لله تعالىٰ.

الفصل الثالث: الفرق بين الحزن والغضب، وأنواع الغضب.

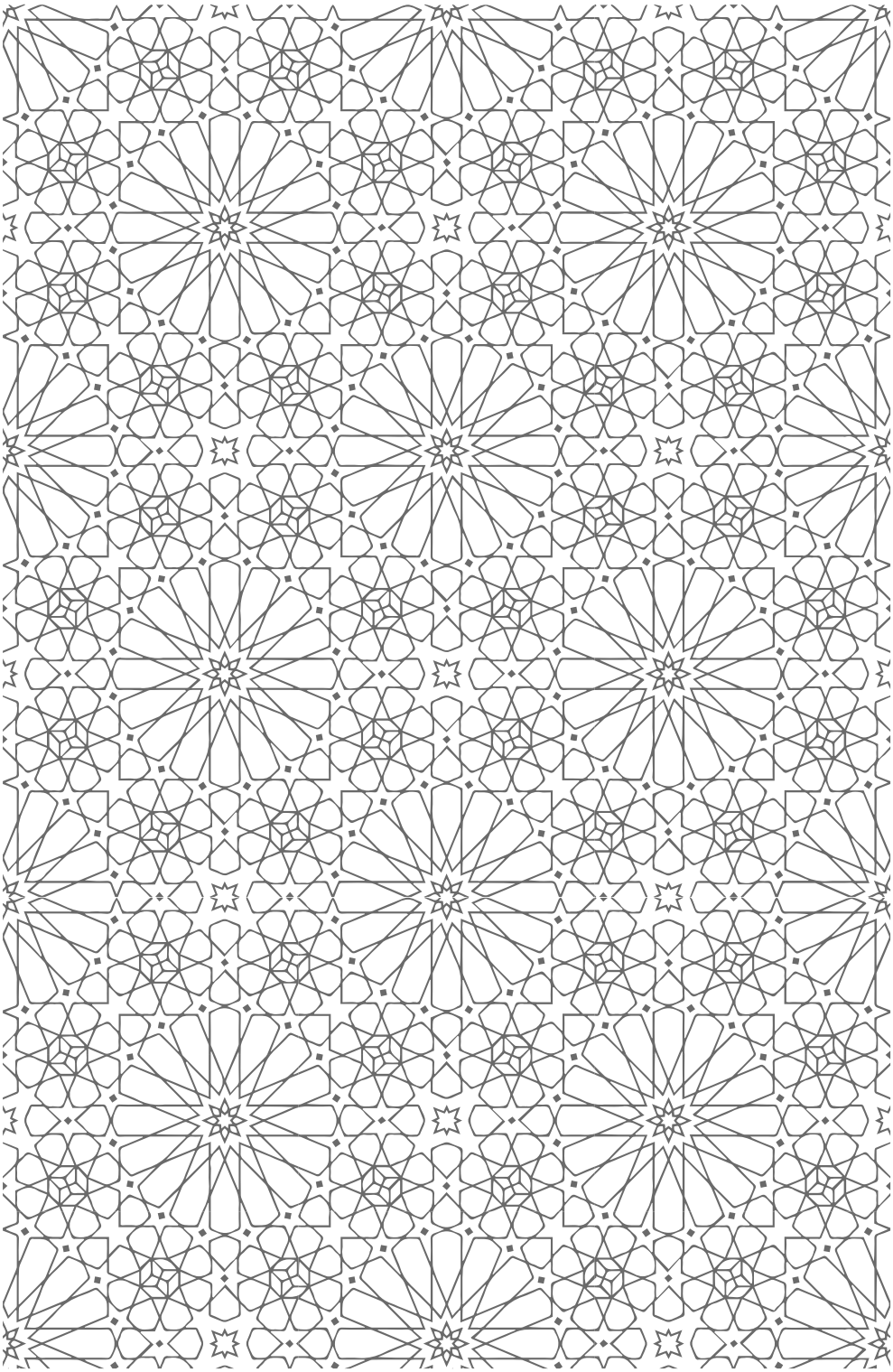
الفصل الرابع: النصوص الشرعية الواردة في ذم الغضب.

الفصل الخامس: علاج الغضب عن طريق العلم.

الفصل السادس: أمثلة لكظم الغيظ من حياة النبي ﷺ والسلف الصالح.

الفصل السابع: علاج مرض الغضب عن طريق العمل.

الفصل الثامن: بعض الأحكام الشرعية المتعلقة بالغضبان.



الفصل الأول

تعريف الغضب

الغضب لغةً:

قال ابن عرفة[(١)]: الغضب من المخلوقين: شيءٌ يداخل قلوبهم، ومنه محمود ومذموم، فالمذموم ما كان في غير الحق، والمحمود ما كان في جانب الدين والحق، وأما غضب الله تعالىٰ، فَهُوَ من صفات الأفعال لله عَزَّوَجَلَّ حقيقةً علىٰ ما يليق بجلاله.

الغضب اصطلاحًا:

قال الجرجاني[(٢)]: الغضب: تغيُّر يحصل عند فوران دم القلب ليحصل عنه التَّشفِّي في الصدر.

وقال الراغب[(٣)]: هو ثوران دم القلب إرادةَ الانتقام.

وقال التهانوي[(٤)]: الغضب هو حركةٌ للنفس مبدؤها الانتقام. وقيل: هو كيفية نفسانية تقتضي حركة الروح إلىٰ خارج البدن طلبًا للانتقام.

قال الغزالي[(٥)] **رحمه الله تعالىٰ**: «الغضب: غليان دم القلب بطلب الانتقام. والصواب أن غليان دم القلب أو ثورانه في الآدمي أمرٌ ينشأ عن صفة الغضب، لا أنه الغضب».

---

(١) «لسان العرب» (١/ ٦٤٩).

(٢) «التعريفات» (١/ ١٦٢).

(٣) «المفردات في غريب القرآن» (١/ ٦٠٨).

(٤) «كشاف اصطلاحات الفنون» (٣/ ١٠٨٩).

(٥) «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٦٧).

الفصل الثاني

ثبوت صفة الغضب لله عَزَّوَجَلَّ

قال الطحاوي[(١)] **مثبتًا لمذهب السلف في الصفات**: «والله يغضب ويرضىٰ لا كأَحَدٍ من الورىٰ»، فَالغضبُ من صفات الأفعال التي تتعلَّق بالمشيئة، وهي ثابتةٌ بالكتاب والسُّنة وإجماع السلف، ولا يلزم من إطلاقها علىٰ الله أن يشابه المخلوقين فيها، فلا مناسبة، ولا مقارنة بين صفات الخالق وصفات المخلوقين.

دليل ذلك: قال تعالىٰ: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المجادلة: ١٤].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الممتحنة: ١٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه: ٨٠، ٨١].

ولازم ثبوت صفة الغضب لله عَزَّوَجَلَّ هو إنكاره علىٰ مَن عصاه، ومعاقبته إياه.

في «صحيح مسلم»[(٢)] بابٌ في سَعَة رحمة الله تعالىٰ، وأنها سبقت غضبه، ثم

---

(١) «متن الطحاوية» (١/ ٨٠).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٧٥١).

رَوىٰ بسنده عن أبي هريرة أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لمَّا خلَق الله الخَلق، كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إنَّ رحمتي تغلب غضبي**».

وفي روايةٍ عند البخاري[(١)]: «**إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق الخَلق: إن رحمتي سبقت غضبي، فهو مكتوبٌ عنده فوق العرش**».

وفي روايةٍ في «الصحيحين»[(٢)]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لمَّا قضىٰ الله الخَلق، كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي**».

قال الأصبهاني في «مشكل الحديث»[(٣)]: «وبيانه، فأما معنىٰ قوله ﷺ: «**لمَّا قضىٰ الله الخَلق**»، فيحتمل أن يكون معناه: لما حكم الله عز وجل بخَلْق ما خَلَق.

ويحتمل أيضًا أن «قضىٰ» بمعنىٰ الإعلام؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: أعلمناهم، فكأنه أراد لما سبق في علمه وحكمه أنه يخلق ما يخلق، خلق كتابًا، فكتب فيه: «**إنَّ رحمتي سبقت غضبي**».

قال العراقي[(٤)]: «قوله: «**لمَّا قضىٰ الله الخَلْق**»، قال أبو العباس القرطبي: أي: لما أظهر قضاءه، وأبرزه كيف شاء.

قلت (أي: العراقي): وإنما أحوجه إلىٰ تأويل «قضىٰ» بـ «أظهر وأبرز»، ظنه أن القضاء هنا بمعنىٰ التقدير، وهو -أعني: التقدير- قديم، فاحتاج إلىٰ تأويله بظهوره،

---

(١) «صحيح البخاري» (٧٥٥٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١).

(٣) (١/ ٣٧٠).

(٤) «طرح التثريب في شرح التقريب» (٨/ ٨٣).

ويحتمل أن المراد بالقضاء هنا الخلق، أي: لمَّا فرغ من خَلق المخلوقات، ويدل له قوله في روايةٍ أخرىٰ في الصحيح: «**لمَّا خلق الله الخلق**».

ثم قال العراقي: «[فائدة ضبط حقوق الناس بكتابتها وتسجيلها]: استأنس به المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ لما يفعله الحكام من تسجيل الأمور التي يحكمون بها، وجعل نسخة في ديوان الحكم، وأخرىٰ مع الخصم؛ لأنَّ الله تعالىٰ عليم بكل شيءٍ، غني عن التذكير، غير محتاجٍ إلىٰ كتابة تقديراته، وإنما فعل ذلك ليقتدي به خَلَفه من حكام الدنيا في ضبط حقوق الناس بكتابتها وتسجيلها؛ لأنه أعون علىٰ تذكُّرها، وأقرب إلىٰ حفظها، كما قيل في خلقه السموات والأرض في ستة أيام: إن ذلك تعليمٌ لخلقه التأنِّي في الأمور، والتُّؤدة فيها، فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادرٌ علىٰ خَلْقها، وخَلْق أمثالها في أقلَّ من طرفة عينٍ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]»، انتهىٰ من «طرح التثريب».

قال الحافظ[(١)]: «قوله ﷺ: «**لمَّا قضىٰ الله الخلق**»، أي: خلق الخلق؛ كقوله تعالىٰ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾، أو المراد: أوجد جنسه، و«قضىٰ» يطلق بمعنىٰ حكم وأتقن وفرغ وأمضىٰ. قوله: «**كتب في كتابه**»، أَيْ: أمَر القلم أن يكتب في اللَّوح المحفوظ».

قال العيني[(٢)]: «فإن قيل: كيف يتصوَّر السبق بين الرحمة والغضب؟

الجواب: أنهما من صفات الفعل لا من صفات الذات، فَجَاز سبق أحد الفعلين علىٰ الآخر».

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٢٩١).

(٢) «عمدة القاري» (٢٥/ ١٣٩).

ملحوظة علىٰ كلام العيني: قد تكون الصفة صفة ذاتية، وصفة فعلية باعتبارين كصفة الكلام، فهي صفة ذاتية باعتبار أصل الكلام، وصفة فعلية باعتبار آحاد الكلام، وكذلك صفة الرحمة، فهي صفة ذاتية لا تنفكُّ عن الذات، وفعلية يرحم الله مَنْ يشاء وقتما يشاء.

قال الحافظ(١): «قال الطيبي: في سبق الرحمة إشارة إلىٰ أن قسط الخلق منها أكثر من قسطهم من الغضب، وأنها تنالهم من غير استحقاقٍ، وأن الغضب لا ينالهم إلا باستحقاق، فالرحمة تشمل الشخص جنينًا ورضيعًا وفطيمًا وناشئًا قبل أن يصدر منه شيء من الطاعة، ولا يلحقه الغضب إلا بعد أن يصدر عنه من الذنوب ما يستحق معه ذلك».

قال القاري(٢) **في «مرقاة المفاتيح»**: «قوله ﷺ: «**لمَّا قضىٰ الله الخَلق**»، أي: حين قدر الله خَلْق المخلوقات، وحكم بظهور الموجودات، أو حين خلق الخَلْق يوم الميثاق، بدأ خلقهم».

نكتة مهمة:

قال المباركفوري في «مرقاة المفاتيح»(٣): وظاهر الحديث أن الكتابة بعد الخَلق، ووقع في روايةٍ للبخاري بلفظ: «**إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق الخلق**»، ففيه أن الكتابة قبل الخَلق، فقيل: معنىٰ قوله: «قضىٰ الخلق»، أي: أراد الخلق. وقيل: المراد من الثاني: تعلق الخلق، وهو حادث، فجاز أن يكون بعده.

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٢٩٢).

(٢) «مرقاة المفاتيح» (٤/ ١٦٣٨).

(٣) «مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٨/ ٧٧).

وأما الأول، فالمراد منه نفس الحكم، وهو أَوْلَىٰ، فبالضرورة يكون قبله.

قال الغنيمان في شرح كتاب التوحيد من «صحيح البخاري»[(١)]: قوله ﷺ: «**قبل أن يخلق الخَلق**»، لا يعارض قوله في الرواية قبلها: «**لمَّا قضىٰ**»؛ لأنه يجوز أن يُرَاد بالخلق: التقدير والفراغ منه، وهو غير الإيجاد، ومعلومٌ أن خلق الله تعالىٰ لا نهاية له.

فائدة:

قال الغنيمان[(٢)]: كل شيءٍ له في الوجود أربع مراتب: وجودٌ في الأعيان، ووجودٌ في الأذهان، ووجودٌ في اللسان، ووجودٌ في الكتاب.



(١) شرح كتاب التوحيد من «صحيح البخاري» (٢/ ٦٥١).

(٢) شرح كتاب التوحيد من «صحيح البخاري» (٢/ ٦٥٣).

الفصل الثالث

الفرق بين الحزن والغضب وأنواع الغضب

أولًا: الفرق بين الحزن والغضب:

قال الماوردي[(١)]: «سبب الغضب: هجوم ما تكرهه النفس ممن دونها، وسبب الحزن هجوم ما تكرهه النفس ممن فوقها.

والغضب يتحرك من داخل الجسد إلىٰ خارجه، والحزن يتحرك من خارج الجسد إلىٰ داخله، فلذلك قتل الحزن، ولم يقتل الغضب؛ لبُرُوز الغضب، وكُمُون الحزن، وصار الحادث عن الغضب السطوة والانتقام لبُرُوزه، والحادث عن الحزن المرض والأسقام لكمونه، ولذلك أفضىٰ الحزن إلىٰ الموت، ولم يُفض إليه الغضب، فهذا فرق ما بين الحزن والغضب». انتهىٰ من «أدب الدنيا والدين».

قال القاري في «المرقاة»[(٢)]: «والتحقيق: أنَّ مدار الغضب علىٰ شهوة النفس، فإنَّ الإنسان لا يغضب غضبًا مذمومًا إلا بتوهُّم فوت شهوةٍ له، أو بعد تحقق فرق، ولهذا ترىٰ كل ما كان شهوته أكثر كالملوك والأمراء، يكون غضبه أكبر، ويجب عنه الحذر».

ثانيًا: أنواع الغضب: نوعان:

(١) **المذموم**، وهو ما كان لغير الله تعالىٰ، بل لأجل الدنيا، وما ورد من نصوص في ذم الغضب ففي هذا النوع.

---

(١) «أدب الدنيا والدين» (١/ ٢٥٨).

(٢) (٨/ ٣١٨٧).

(٢) **المحمود**، هو الذي يكون لله، ومن أجل الله، وإذا انتهكت حرمات الله، فهو يغضب لله تعالىٰ، ومن فوائد هذا النوع من الغضب أنه يقلل المنكرات، وتحفظ به حدود الله، وتحصل به النَّجاة من العقوبات الإلهيَّة لأهل الفساد، ومن أنواعه:

الأوَّل: الغضب لحماية الدين.

بوَّب البخاري[(١)]، فقال: باب إقامة الحدود، والانتقام لحرمات الله، ثمَّ روىٰ بسنده إلىٰ عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: «ما خُيِّر النبي ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يأثم، فإذا كان الإثم، كان أبعدهما منه، واللهِ ما انتقم لنفسه في شيءٍ يؤتىٰ إليه قطُّ حتىٰ تنتهك حرمات الله، فينتقم لله».

وفي روايةٍ عند الطبراني في «الأوسط»[(٢)]: قالت عائشة: «وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله، فإن انتهكت حرمة الله، كان أشد الناس غضبًا لله».

قال الحافظ[(٣)]: «قول عائشة: «بين أمرين»، أي: من أمور الدنيا، يدل عليه قوله: «ما لم يكن إثمًا»؛ لأن أمور الدين لا إثم فيها، وأبهم فاعل «خير»؛ ليكون أعم من أن يكون من قبل الله، أو من قبل المخلوقين.

قولها: «إلا أخذ أيسرهما»، أي: أسهلهما.

قولها: «ما لم يكن إثمًا»، أي: ما لم يكن الأسهل مقتضيًا للإثم، فإنه حينئذٍ يختار الأشد.

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٧٨٦).

(٢) (٧/ ٧١).

(٣) «فتح الباري» (٦/ ٥٧٥).

إشكالٌ وجوابه: فإن قيل: التخيير بين ما فيه إثم وما لا إثم فيه من قبل المخلوقين واضح، وأمَّا من قِبَلِ الله ففيه إشكالٌ؛ لأنَّ التخيير من الله تعالىٰ إنما يكون بين جائزين.

الجواب: يحمل التخيير علىٰ ما يفضي إلىٰ الإثم أمكن ذلك بأن يخيره بين أن يفتح عليه من كنوز الأرض ما يخشىٰ من الاشتغال به ألَّا يتفرغ للعبادة مثلًا، وبين ألَّا يؤتيه من الدنيا إلا الكفاف، فيختار الكفاف، وإن كانت السعة أسهل منه، والإثم علىٰ هذا أمر نسبي، لا يراد منه معنىٰ الخطيئة؛ لثبوت العصمة له ﷺ». انتهىٰ من «الفتح» بتصرف.

قولها: «وما انتقم لنفسه»، أي: خاصةً، فلا يرد أمره بقتل عقبة بن أبي معيط، وعبد الله بن خطل، وغيرهما، ممَّن كان يؤذيه؛ لأنهم كانوا مع ذلك ينتهكون حرمات الله.

قولها: «تنتهك حرمة الله»، تتجاوز حدوده، ويخالف أمره أو نهيه.

قولها: «فينتقم لله بها»: ينتصر لله تعالىٰ بمؤاخذة مَن ارتكبها بعقوبتها.

الثاني: الغضب لسماع ما يكره الرحمن:

روىٰ مسلمٌ[(١)] عن عمران بن حصين، قال: بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وامرأة من الأنصار علىٰ نَاقَةٍ، فضجرت فلعنتها، فسمع ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**خذوا ما عليها ودعوها، فإنها ملعونةٌ**»، قال عمران: فكأنِّي أراها الآن تمشي في الناس ما يعرض لها أحدٌ.

وفي روايةٍ[(٢)] عند مسلم أيضًا عن أبي برزة الأسلمي قال: بينما جارية علىٰ ناقة

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٥٩٥).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٥٩٦).

عليها بعض متاع القوم، إذ بصرت بالنبي ﷺ، وتضايق بهم الجبل، فقالت: حل، اللهم الْعَنها. قال: فقال النبي ﷺ: «**لا تصاحبنا ناقةٌ عليها لعنة**».

قال النوويُّ[(١)]: «قوله ﷺ: «**لا تُصَاحبنا ناقة عليها لعنة**»، إنما قال هذا زجرًا لها ولغيرها، فعوقبت بإرسال الناقة، والمراد: النهي عن مصاحبته لتلك الناقة في الطريق، وأما بيعها وذبحها وركوبها في غير مصاحبته ﷺ، وغير ذلك من التصرفات التي كانت جائزةً قبل هذا، فهي باقية علىٰ الجواز؛ لأن الشرع إنما ورد بالنهي عن المصاحبة، فبقي الباقي كما كان علىٰ الجواز.

فغضب ﷺ لمَّا سمع ما يغضب الرحمن حتىٰ أنه أمر بتَرك الناقة، وتخلية سبيلها.

الثالث: الغضب لرؤية ما يكره الرحمن:

روىٰ مسلمٌ عن عائشة[(٢)] تقول: دخل عليَّ رسول الله ﷺ، وقد سترت سهوةً لي بقرامٍ فيه تماثيل، فلمَّا رآه هتكه، وتلوَّن وجهه، وقال: «**يا عائشة، أشدُّ الناس عذابًا عند الله يوم القيامة الَّذين يضاهون بخَلْق الله**». قالت عائشة: «فقطعناه، فجعلنا منه وسادةً أو وسادتين».

قال النووي[(٣)]: «قولها: «سهوةً لي بقرام»، قال أبو عبيدٍ: وسمعتُ غير واحدٍ من أهل اليمن يقولون: السهوة عندنا: بيت صغير متحدر في الأرض، وسمكه مرتفع من الأرض يشبه الخزانة الصغيرة يكون فيها المتاع، والقرامُ هو الستر».

---

(١) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٦/ ١٤٧).

(٢) «صحيح مسلم» (٢١٠٧).

(٣) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٤/ ٨٨).

الرابع: الغضب عند العلم بما يغضب الرحمن.

روىٰ الشيخان[١]، واللفظ للبخاري، عن أبي مسعودٍ الأنصاري قال: جاء رجلٌ إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنِّي -واللهِ- لَأتأخَّر عن صلاة الغداة من أجل فلانٍ مما يطيل بنا فيها، قال: فما رأيت النبي ﷺ قط أشد غضبًا في موعظةٍ منه يومئذٍ، ثم قال: «**يا أيها الناس، إنَّ منكم منفرين، فأيكم ما صلىٰ بالناس فليوجز، فإنَّ فيهم الكبير، والضعيف، وذا الحاجة**».

وروىٰ البخاري[٢] أن عبد الله بن عمر طلق امرأته وهي حائضٌ، فذكر عمر للنَّبيِّ ﷺ، فتغيَّظ عليه رسول الله ﷺ، ثم قال: «**ليراجعها، ثمَّ ليمسكها حتىٰ تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يُطلِّقها فليُطلِّقها**».

الخامس: غضب لحماية النفس من القتل والمال من الغصب، والعرض من الانتهاك.

روىٰ النسائي[٣] بسندٍ صحيحٍ عن سعيد بن زيدٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن قُتِلَ دون ماله فهو شهيدٌ، ومَن قُتِلَ دون أهله فهو شهيدٌ، ومَن قُتِلَ دون دينه فهو شهيدٌ، ومَن قُتِلَ دون دمه فهو شهيدٌ**».

---

(١) «صحيح البخاري» (٧١٥٩)، ومسلم (٤٦٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٧١٦٠).

(٣) «سنن النسائي» (٤٠٩٥).

الفصل الرابع

النصوص الشرعية الواردة في ذم الغضب

روىٰ البخاري[(١)] عن عدي بن ثابتٍ يقول: حدثنا سليمان بن صرد، قال: استبَّ رجلان عند النبي ﷺ، فجعل أحدهما يغضب ويحمرُّ وجهه، فنظر إليه النبي ﷺ فقال: «**إنِّي لأعلم كَلِمَةً لو قالها لَذَهب ذا عنه: أعوذ بالله من الشَّيطان الرجيم**»، فَقامَ إلىٰ الرجل رجلٌ ممَّن سمع النَّبي ﷺ، فقال: أتدري ما قال رسول الله ﷺ آنفًا؟ قال: «**إنِّي لَأعلم كلمةً لو قالها لَذهب ذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»، فقال له الرجل: أمجنونًا تراني؟

وفي «المسند»[(٢)] عن معاذٍ قال: استبَّ رجلان عند النبي ﷺ، فغضب أحدهما حتىٰ إنه ليُخيَّل إليَّ أن أنفه ليتمزع من الغضب، فقال رسول الله ﷺ: «**إنِّي لأعلم كلمةً لو يقولها هذا الغضبان، لَذَهب عنه الغضب: اللَّهمَّ إنِّي أعوذ بك من الشيطان الرجيم**».

وفي روايةٍ عند أبي داود[(٣)]، عن معاذ بن جبلٍ قال: استبَّ رجلان عند النبي ﷺ، فغضب أحدهما غضبًا شديدًا حتىٰ خُيِّل إليَّ أن أنفه يتمزع من شدة غضبه، فقال النبي ﷺ «**إنِّي لأعلم كلمةً لو قالها، لَذَهب عنه ما يجده من الغضب؟**»، فقال: ما هي يا رسول الله؟ قال: «**يقول: اللَّهمَّ إنِّي أعوذ بك من الشيطان الرجيم**». قال: فجعل معاذ يأمره، فأبىٰ ومحك -أَيْ: لج في الخصومة- وجعل يزداد غضبًا.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٨٢)، ومسلم (٢٦١٠)، واللفظ له.

(٢) «المسند» (٢٢٠٨٦).

(٣) «سنن أبي داود» (٤٧٨٠).

قال النَّوويُّ[١]: «قوله ﷺ: **«إنِّي لأعرف كلمةً لو قالها، لَذهب عنه الذي يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»**، فيه أن الغضب في غير الله تعالىٰ من نزغ الشيطان، وأنه ينبغي لصاحب الغضب أن يستعيذ، فيقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وأنه سببٌ لزوال الغضب، وأما قول هذا الرجل الذي اشتد غضبه: «هل ترىٰ بي من جنونٍ؟»، فهو كلام مَن لم يفقه في دين الله تعالىٰ، ولم يتهذب بأنوار الشريعة المكرمة، وتوهم أن الاستعاذة مختصة بالمجنون، ولم يعلم أنَّ الغضب من نزغات الشيطان، ولهذا يخرج به الإنسان عن اعتدال حاله، ويتكلم بالباطل، ويفعل المذموم، وينوي الحقد والبغض، وغير ذلك من القبائح المترتبة علىٰ الغضب، وهذا دليل ظاهر في عِظَمِ مفسدة الغضب وما ينشأ منه.

بوَّب البخاري[٢]، فقال: باب الحذر من الغضب، ثم روىٰ بسنده عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أوصني. قال: «**لا تغضب**»، فردد مرارًا. قال: «**لا تغضب**».

وفي روايةٍ في «جامع معمر بن راشد»[٣]، عن حميد بن عبد الرحمن، عن رجلٍ من أصحاب رسول الله ﷺ قال: قال رجلٌ: أوصني يا رسول الله. قال: «**لا تغضب**». قال الرجل: ففكرت حين قال رسول الله ﷺ ما قال، فإذا الغضب يجمع الشر كله.

وفي روايةٍ في «المسند»[٤] بسندٍ صحيحٍ عن أبي هريرة قال: أتىٰ النبي ﷺ رجل، فقال: مُرْني بأمرٍ، ولا تكثر عليَّ حتىٰ أعقله. قال: «**لا تغضب**»، فأعاد عليه: «**لا تغضب**».

---

(١) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٦/ ١٦٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٦١١٦).

(٣) (٢٠٢٨٦).

(٤) «المسند» (٨٧٤٤).

وفي روايةٍ: أن الرجل القائل هو جارية بن قدامة أنه قال: يا رسول الله، قل لي قولًا ينفعني، وأقلل، لَعلِّي أعقله. قال: «**لا تغضب**»، فعاد له مرارًا، كل ذلك يرجع إليه رسول الله ﷺ: «**لا تغضب**»، وفي روايةٍ قال جارية: والله، ما زاد علىٰ ذلك.

قال أبو عمر بن عبد البر[(١)]: هذا من الكلام القليل الألفاظ، الجامع للمعاني الكثيرة، والفوائد الجليلة، ومَن كظم غيظه، وردَّ غضبه، أخزىٰ شيطانه، وسلمت مروءته ودينه.

ولقد أحسن القائل: «لا يعرف الحِلْم إلا ساعةَ الغضب».

وقال عليُّ بن ثابتٍ: «العقل آفته الإعجاب والغضب، والمال آفته التَّبذير والنهب».

وقال أبو العتاهية:

ولـم أرَ في الأعـداء حـين خبـرتهم عـدوًّا لعقـل المـرء أعـدىٰ مـن الغضـب

وكلُّ هؤلاء إنَّما حاولوا ودندنوا حول معنىٰ هذا الحديث، وكان رسول الله ﷺ قد أُوتِيَ جوامع الكلم ﷺ.

قال ابن الجوزي في «كشف المشكل»[(٢)]: فإن قيل: الغضب جِبلَّة في الآدمي، فكيف يُؤمَر بصرفها؟ فالجواب: أنَّ الغضب له جوالبه وثمراته، فمن جوالبه الكبر، فإذا راض الإنسان نفسه باستعمال التواضع، ذلَّت.

ومن ثمرات الغضب: السب والضرب، وما يعود بثلب دين الغضبان وبدنه قبل أذىٰ المغضوب عليه، فإن بعض الناس استشاط يومًا من الغضب فصاح، فنفث الدم، وأداه ذلك إلىٰ السل، وضرب رجل رجلًا علىٰ فمه، فانكسرت أصابع الضارب.

---

(١) «التمهيد» (٧/ ٢٥٠).

(٢) (٣/ ٥٣٩).

وقد أثر غضب خلق كثير في بطشهم بأولادهم وأهاليهم، وتطليق زوجاتهم، ثم طالت ندامتهم، وفات الاستدراك.

فإن قيل: لِمَ خصَّ النبي ﷺ هذا الرجل بهذه الوصية؟

الجواب: قال صاحب «الإفصاح»[(١)]: من الجائز أن النبي ﷺ علم من هذا الرجل كثرة الغضب، فخصَّه بهذه الوصية.

وقال الحافظ[(٢)]: لعلَّ السائل كان غضوبًا، وكان النبي ﷺ يأمر كل أحدٍ بما هو أَوْلَىٰ به، فلهذا اقتصر في وصيَّته له علىٰ ترك الغضب.

قال التوربشتي: قد كان ﷺ مكاشفًا بأوضاع الخلق، عارفًا بأدوائهم، يضع الهنا موضع النقب، يأمرهم بما هو أَوْلَىٰ بهم، فلما استوصاه الرجل وقد رآه مملوءًا بالقوة الغضبية، لم يرَ له خيرًا من أن يتجنب عن دواعي الغضب، ويزحزح نفسه عنه.

قال القاضي: لعله ﷺ لما رأىٰ أن جميع المفاسد التي تَعرض للإنسان وتعتريه إنما تَعرض له من فرط شهوته، واستيلاء غضبه، والشهوة مكثورة بالنسبة إلىٰ ما يقتضيه الغضب، غير مُلْتفتٍ إليها، فلمَّا سأله الرجل أن يشير إليه ما يتوسل به إلىٰ التجنُّب عن القبائح، والتحرُّز عن مظانِّها، نهاه عن الغضب الداعي إلىٰ ما هو أعظم ضررًا، وأكثر وزرًا، فإنَّ ارتفاع السبب يوجب ارتفاع مُسبَّباته لا محالة.

قال ابن رجب[(٣)] **في «جامعه»**: «هذا الرجل طلب من النبي ﷺ أن يوصيه وصيةً وجيزةً جامعةً لخصال الخير؛ ليحفظها عنه خشيةَ ألَّا يحفظها لكثرتها، فوصاه

---

(١) «شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية» لابن دقيق العيد (١/ ٧٠).

(٢) «فتح الباري» (١٠/ ٥٢٠).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٦٢).

النبي ﷺ ألَّا يغضب، ثم ردد هذه المسألة عليه مرارًا، والنبي ﷺ يردد عليه هذا الجواب، فهذا يدلُّ علىٰ أن الغضب جماع الشر، وأن التحرُّز منه جماع الخير.

قال جعفر بن محمد: الغضب مفتاح كل شرٍّ.

وقيل لابن المبارك: اجمع لنا حسن الخلق في كلمةٍ، قال: ترك الغضب.

وقوله ﷺ: «**لا تغضب**»، يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون مراده الأمر بالأسباب التي توجب حُسن الخُلق من الكرم والسخاء والحِلم والحياء والتواضع والاحتمال وكف الأذىٰ، والصفح والعفو، وكظم الغيظ، والطلاقة والبِشْر، ونحو ذلك من الأخلاق الجميلة، فإنَّ النفس إذا تخلَّقت بهذه الأخلاق، وصارت لها عادة، أوجب لها ذلك دفع الغضب عند حصول أسبابه.

والثاني: أن يكون المراد: لا تعمل بمقتضىٰ الغضب إذا حصل لك من أسبابه وغضبت، بل جاهد نفسك علىٰ تَرْك تنفيذه، والعمل بما يأمر به، فإنَّ الغضب إذا ملك ابن آدم كان الآمر والناهي له، ولهذا المعنىٰ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، فإذا لم يمتثل الإنسان ما يأمره به غضبه، وجاهد نفسه علىٰ ذلك، اندفع عنه شر الغضب، وربما سكن غضبه، وذهب عاجلًا، فكأنه حينئذٍ لم يغضب، وإلىٰ هذا المعنىٰ وقعت الإشارة في القرآن بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الشورىٰ: ٣٧]، وبقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٤]». انتهىٰ من «جامع العلوم والحكم».

قال الحافظ[1]: قال الخطابي: معنىٰ قوله: «**لا تغضب**»: اجتنب أسباب الغضب، ولا تتعرض لما يجلبه، وأما نفس الغضب، فلا يتأتَّىٰ النهي عنه؛ لأنه أمرٌ

(١) «فتح الباري» (١٠/ ٥٢٠).

طبيعي لا يزول من الجِبلَّة. وقال غيره: ما كان من قبيل الطبع الحيواني لا يمكن دفعه، فلا يدخل في النهي؛ لأنه من تكليف المُحَال، وما كان من قبيل ما يكتسب بالرياضة، فهو المراد.

وقيل: معناه: لا تغضب؛ لأنَّ أعظم ما ينشأ عنه الغضب الكبر؛ لكونه يقع عند مخالفة أمرٍ يريده، فيحمله الكبر علىٰ الغضب، فالذي يتواضع حتىٰ يذهب عنه عزة النفس يَسلم من شرِّ الغضب.

وقيل: معناه: لا تفعل ما يأمرك به الغضب.

وقال ابن التين: جمع ﷺ في قوله: «**لا تغضب**»، خير الدنيا والآخرة؛ لأن الغضب يؤول إلىٰ التقاطع، ومنع الرفق، وربما آل إلىٰ أن يؤذي المغضوب عليه، فينتقص ذلك من الدين.

ويحتمل أن يكون من باب التنبيه بالأعلىٰ علىٰ الأدنىٰ؛ لأنَّ أعدىٰ عدو للشخص شيطانه ونفسه، والغضب إنما ينشأ عنهما، فَمَنْ جاهدهما حتىٰ يغلبهما مع ما في ذلك من شدة المعالجة، كان لقهر نفسه عن الشهوة أيضًا أقوىٰ.

وقال ابن حبَّان: أراد ﷺ: لا تعمل بعد الغضب شيئًا ممَّا نهيت عنه، لا أنه نهاه عن شيءٍ جُبِلَ عليه، ولا حيلة له في دفعه.

وقال بعض العلماء: خَلَق الله الغضب من النار، وجعله غريزةً في الإنسان، فمهما قصد، أو نُوزِعَ في غرضٍ ما، اشتعلت نار الغضب وثارت حتىٰ يحمر الوجه والعينان من الدم؛ لأن البشرة تحكي لون ما وراءها، وهذا إذا غضب علىٰ مَن دونه، واستشعر القدرة عليه، وإن كان ممَّن فوقه، تولَّد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلىٰ جوف القلب، فيصفر اللون حزنًا، وإن كان علىٰ النظير، تردد الدم بين انقباضٍ وانبساطٍ، فيحمر ويصفر.

ويترتب علىٰ الغضب تغيُّر الظاهر والباطن؛ كتغيُّر اللون، والرعدة في الأطراف، وخروج الأفعال عن غير ترتيبٍ، واستحالة الخِلقة حتىٰ لو رأىٰ الغضبان نفسه في حال غضبه لكان غضبه حياءً من قبح صورته، واستحالة خِلقته، هذا كله في الظاهر.

وأمَّا الباطن، فقبحه أشدُّ من الظاهر؛ لأنه يولد الحقد في القلب، والحسد وإضمار السوء علىٰ اختلاف أنواعه، بل أَوْلَىٰ شيءٍ يقبح منه باطنه، وتغير ظاهره، ثمرة تغير باطنه، وهذا كله أثره في الجسد، وأمَّا أثره في اللسان، فانطلاقه بالشتم والفحش الذي يستحي منه العاقل، ويندم قائله عند سكون الغضب، ويظهر أثر الغضب أيضًا في الفعل بالضرب أو القتل، وإن فات ذلك بهرب المغضوب عليه، رجع إلىٰ نفسه، فيمزق ثوب نفسه، ويلطم خده، وربما سقط صريعًا، وربما أُغْمي عليه، وربما كسر الآنية، وضرب مَن ليس له في ذلك جريمة.

ومَن تأمل هذه المفاسد، عرف مقدار ما اشتملت عليه هذه الكلمة اللطيفة، وهي قوله ﷺ: «**لا تغضب**» من الحكمة، واستجلاب المصلحة في درء المفسدة مما يتعذَّر إحصاؤه، والوقوف علىٰ نهايته، وهذا كلُّه في الغضب الدنيوي لا الغضب الديني.

قال سلمان[1] رضي الله عنه لرجلٍ: «لا تغضب. فقال: لا أملك، فقال: إذا غضبت، فأمسك يدك ولسانك».

وقال أبو حاتمٍ: الغضب بذر الندم، وتركه أسهل من إصلاح ما يفسده، وسرعة الغضب من شِيَمِ الحمقىٰ.

وقال الحسن: يا ابن آدم، كلما غضبت وثبت، يوشك أن تثب وثبةً فتقع في النار.

وقال أيضًا: من علامات المسلم: قوة في دينٍ، وحزم في لين، وإيمان في يقين، وعلم في حِلم، وكيس في رفق، وإعطاء في حق، وقصد في غنىٰ، وتجمل في فاقة،

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٥/ ١٧٦).

وإحسان في قدرة، وتحمل في رفاقة، وصبر في شدة، لا يغلبه الغضب، ولا تجمح به الحمية، ولا تغلبه شهوة، ولا تفضحه بطنة، ولا يستخفه حرصه، ولا تقصر به نيته، فينصر المظلوم، ويرحم الضعيف، ولا يبخل، ولا يبذر، ولا يسرف، ولا يقتر، يغفر إذا ظلم، ويعفو عن الجاهل، نفسه منه في عناء، والناس منه في رخاء.

وقال بعض الحكماء: أول الغضب جنونٌ، وآخره ندمٌ.

قال ابن عباس (١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]، قال: الصبر عند الغضب، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا، عصمهم الله، وخضع لهم عدوهم».

قال عبد الله بن مسعودٍ (٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «انظروا إلىٰ حِلم الرجل عند غضبه، وأمانته عند طمعه، وما علمك بحِلمه إذا لم يغضب، وما علمك بأمانته إذا لم يطمع؟».

قال عروة بن الزبير (٣) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مكتوبٌ في الحِكم: يا داود، إياك وشدة الغضب، فإن شدة الغضب مفسدة لفؤاد الحكيم».

قال ابن القيِّم (٤) **رحمه الله تعالىٰ**: «دخل الناس النار من ثلاثة أبوابٍ: باب شبهة أورثت شكًّا في دين الله، وباب شهوةٍ أورثت تقديم الهوىٰ علىٰ طاعته ومرضاته، وباب غضبٍ أورث العدوان علىٰ خلقه».

قال بعض الحكماء (٥): «إياك وعزة الغضب، فإنها تُفْضي إلىٰ ذُلِّ الاعتذار».

---

(١) «الترغيب والترهيب» (٣/ ٣٠٢).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٨/ ١٦٦).

(٣) «مساوئ الأخلاق» للخرائطي (١/ ١٣١).

(٤) «الفوائد» (١/ ٥٨).

(٥) «أدب الدنيا والدين» (١/ ٢٥٩).

ومن النُّصوص الواردة في ذمِّ الغضب أيضًا:

بوَّب البخاري[(١)]، فقال: باب الحذر من الغضب؛ لقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الشورىٰ: ٣٧]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وفي «صحيح مسلم»[(٢)]: باب فضل مَن يملك نفسه عند الغضب، وبأي شيء يذهب الغضب.

ثم روايا -أي: الشيخان[(٣)]- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس الشَّديد بالصرعة، إنّ! ما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**».

وفي روايةٍ[(٤)]: قال ﷺ: «**فما تعدُّون الصرعة فيكم؟**». قال: قلنا: الذي لا يصرعه الرجال. قال: «**ليس بذلك، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب**».

وفي روايةٍ في «المسند»[(٥)]، عن أبي حصبة -أو ابن حصبة- عن رجلٍ، شهد رسول الله ﷺ يخطب، فقال: «**تدرون ما الرقوب؟**»، قالوا: الذي لا ولد له، فقال: «**الرقوب كل الرقوب، الرقوب كل الرقوب، الرقوب كل الرقوب الذي له ولدٌ فمات، ولم يقدم منهم شيئًا**». قال: «**تدرون ما الصعلوك؟**»، قالوا: الذي ليس له مالٌ، قال النبي ﷺ: «**الصعلوك كل الصعلوك، الصعلوك كل الصعلوك، الذي له مالٌ فمات، ولم يقدم منه شيئًا**».

---

(١) «صحيح البخاري» (٨/ ٢٨).
(٢) «صحيح مسلم» (٤/ ٢٠١٤).
(٣) «صحيح البخاري» (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).
(٤) «صحيح مسلم» (٢٦٠٨).
(٥) «المسند» (٢٣١١٥).

قال: ثم قال النبي ﷺ: «**ما الصرعة؟**». قال: قالوا: الصريع. قال: فقال رسول الله ﷺ: «**الصرعة كل الصرعة، الصرعة كل الصرعة، الرجل يغضب فيشتد غضبه، ويحمر وجهه، ويقشعر شعره، فيصرع غضبه**».

قال النوويُّ[(١)]: «ومعنىٰ الحديث: أنكم تعتقدون أن الصرعة الممدوح: القوي الفاضل هو القوي الذي لا يصرعه الرجال، بل يصرعهم، وليس هو كذلك شرعًا، بل هو مَن يملك نفسه عند الغضب، فهذا هو الفاضل الممدوح الذي قَلَّ مَن يقدر علىٰ التخلُّق بخلقه، ومشاركته في فضيلته».

درجات الغضب ثلاث: تفريط، وإفراط، واعتدال:

أما التفريط: ففقد هذه القوة، أو ضعفها، وذلك مذمومٌ، وهو الذي يقال فيه: «إنه لا حمية له»، وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي ﷺ بالشدة والحمية، فقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، والتحريم: ٩]، وإنما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمية، وهو الغضب.

وأمَّا الإفراط: فهو أن تغلب هذه الصفة حتىٰ تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته، ولا يبقىٰ للمرء معه بصيرةٌ وفكرةٌ، ولا اختيارٌ، بل يصير في صورة المضطر.

وأما الاعتدال، هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده، وهو الوسط الذي فعله النبي ﷺ.



(١) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٦/ ١٦٢).

الفصل الخامس

علاج الغضب

أولًا: علاج الغضب عن طريق العلم

مما هو معلومٌ أن علاج كل علةٍ بحسم مادتها، وإزالة أسبابها، فلا بد من معرفة أسباب الغضب.

وأسبابه المهيجة -أي: التي تُهيِّجه بعد حدوث سببه الأصلي- هي:

أولًا: الزهو، وعلاجه أن تُميتَه بالتواضع.

ثانيًا: العجب، وعلاجه أن تُميت العجب بمعرفتك بنفسك.

ثالثًا: المزاح، وعلاجه التشاغل بالمهمات الدينية التي تستوعب العمر، وتفضل عنه.

رابعًا: الهزل، وعلاجه تزيله بالجد في طلب الفضائل والأخلاق الحسنة، والعلوم الدينية التي تبلغك إلىٰ سعادة الآخرة.

خامسًا: الهزء، وعلاجه تزيله بالتكرُّم عن إيذاء الناس، وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك.

سادسًا: التعيير، وعلاجه الحذر عن القول القبيح، وصيانة النفس عن مُرِّ الجواب.

سابعًا: المماراة، وعلاجها الابتعاد عنها، وعدم الدخول فيها ابتداءً.

ثامنًا: شدة الحرص علىٰ حصول المال والجاه، وعلاجه: الصبر علىٰ مُرِّ العيش، وبالقناعة بقدر الضرورة طلبًا لعز الاستغناء، وترفعًا عن ذُلِّ الحاجة.

قال أبو حامدٍ الغزالي[(١)]: «ومن أشد البواعث علىٰ الغضب عند أكثر الجهال: تسميتهم الغضب شجاعةً، ورجوليةً، وعزَّة نفسٍ، وكبر همةٍ، وتلقيبه بالألقاب المحمودة غباوةً وجهلًا حتىٰ تميل النفس إليه، وتستحسنه، وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكابر في معرض المدح بالشجاعة، والنفوس مائلة إلىٰ التشبه بالأكابر، فيهيج الغضب إلىٰ القلب بسببه، وتسميةُ هذا عزَّةَ نفسٍ وشجاعةً، جهلٌ، بل هو مرض قلب، ونقصان عقل، وهو دليلٌ علىٰ ضعف النفس ونقصانها، وعلامة ذلك أنَّ المريض أسرع غضبًا من الصحيح، والمرأة أسرع غضبًا من الرجل، والصبي أسرع غضبًا من الرجل الكبير، والشيخ الضعيف أسرع غضبًا من الكهل، وذو الخلق السيئ والرذائل القبيحة أسرع غضبًا من صاحب الفضائل.

وعلىٰ الجملة، فكلُّ خُلُقٍ من هذه الأخلاق، وصفة من هذه الصفات، يفتقر في علاجه إلىٰ رياضةٍ وتَحمُّلٍ ومَشقَّةٍ، وحاصل رياضتها الرجوع إلىٰ معرفة غوائلها؛ لترغب النفس عنها، وتنفر عن قبحها، ثمَّ المواظبة علىٰ أضدادها مدةً مديدةً حتىٰ تصير بالعادة هينةً مألوفةً علىٰ النفس، فإذا انمحت عن النفس، فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل، وتخلصت أيضًا من الغضب الذي يتولد منها». انتهىٰ من «إحياء علوم الدين» بتصرف.

فإذا وقع الغضب لوقوع سببه الأصلي وهاج، فعلاجه عن طريق العلم والعمل:

أولًا: علاج الغضب عن طريق العلم، فهو من خلال ستة أمورٍ:

الأمر الأول: أن يُخوِّف نفسه بعقاب الله، وهو أن يقول: قدرة الله عليَّ أعظم من قدرتي علىٰ هذا الإنسان، فلو أمضيت غضبي عليه، لم آمن أن يمضي الله غضبه عليَّ يوم القيامة.

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٧٢).

الأمر الثاني: أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام، وتشمر العدو لمقابلته، والسعي في هدم أغراضه، والشماتة بمصائبه، وهو لا يخلو عن المصائب، فيُخوِّف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا إن كان لا يخاف من الآخرة.

الأمر الثالث: أن يتفكَّر في قبح صورته عند الغضب بأن يتذكَّر صورة غيره في حالة الغضب، ويتفكَّر في قبح الغضب في نفسه، ومشابهة صاحبه للكلب الضاري، والسَّبُع العادي، ومشابهة الحليم الهادي التارك للغضب للأنبياء والأولياء، والعلماء والحكماء، ويُخيِّر نفسه بين أن يتشبَّه بالكلاب والسباع وأراذل الناس، وبين أن يتشبَّه بالعلماء والأنبياء في عادتهم؛ لتميل نفسه إلىٰ حب الاقتداء بهؤلاء إن كان قد بقي معه مسكةٌ من عقل.

الأمر الرابع: أن يتفكَّر في السبب الذي يدعوه إلىٰ الانتقام، ويمنعه من كظم الغيظ، مثل قول الشيطان له: إنَّ هذا يحمل منك علىٰ العجز والذلة، وتصير حقيرًا في أعين الناس، فيقول لنفسه: «ما أعجبك! تأنفين من الاحتمال الآن، ولا تأنفين من خزي يوم القيامة، ولا تحذرين من أن تصغري عند الله والملائكة والنبيين».

فمهما كظم الغيظ، فينبغي أن يكظمه لله، وذلك يعظمه عند الله، فما له وللناس؟

الأمر الخامس: «أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء علىٰ وَفق مراد الله، لا علىٰ وَفق مراده، فكيف يقول: مرادي أَوْلَىٰ من مراد الله؟ ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه».

الأمر السادس: أن يتفكَّر ويتدبَّر في النصوص الواردة في فضل كظم الغيظ، والعفو، والحِلم، والاحتمال، فيرغب في ثواب الله تعالىٰ، فتمنعه شدة الحرص علىٰ ثواب الكظم عن التشفِّي والانتقام، فيذهب غيظه الذي يؤدي لا محالة إلىٰ ذهاب الغضب بإذن الله تعالىٰ.

ووجه ذلك: أنَّ الغيظ أصل الغضب، ولكن لا يظهر علىٰ الجوارح بخلاف الغضب، فإنه يظهر في الجوارح، مع فعلٍ ما ولا بد، ولهذا جاء إسناد الغضب إلىٰ الله تعالىٰ، ولا يوصف الله تعالىٰ بالغيظ، ولا يسند إليه.

معنىٰ كظم الغيظ:

قال الطبري(١): «الكاظمين الغيظ»، يعني: الجارعين الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه، يقال: كظم فلان غيظه إذا تجرعه، فحفظ نفسه أن تُمضي ما هي قادرة علىٰ إمضائه باستمكانها ممَّن غاظها، وانتصارها ممن ظلمها.

وقال النيسابوري(٢): «كظم غيظه»، يعني: سكت عليه ولم يظهره، لا بقولٍ ولا بفعلٍ، كأنه كتمه علىٰ امتلائه، وردَّه في جوفه، وكفَّ غضبه الشديد عن الإمضاء، وهذا قسمٌ من أقسام الصبر والحِلم.

وقال القرطبي(٣): «كظم الغيظ»: ردَّه في الجوف، والسكوت عليه، وعدم إظهاره مع قدرة الكاظم علىٰ الإيقاع بعدوِّه.

وقال ابن عطية(٤): «كظم الغيظ»: ردَّه في الجوف إذا كاد أن يخرج من كثرته، فضبطه ومنعه.

ومن هذه النصوص:

قال تعالىٰ في صفات المتقين: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٤]، المعنىٰ: الحابسين

---

(١) «تفسير الطبري» (٧/ ٢١٤).

(٢) «تفسير النيسابوري» (٢/ ٢٥٩).

(٣) «تفسير القرطبي» (٤/ ٢٠٦).

(٤) «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (١/ ٥٠٩).

الغيظ، أي: لا يجازون عليه، فالكظم من أعظم العبادة، وجهاد النفس.

وقال تعالىٰ في صفات المتوكلين: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الشورىٰ: ٣٧].

روىٰ الطبراني (١) بسندٍ حسنٍ عن ابن عمر، أن رجلًا جاء إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أي الناس أحب إلىٰ الله؟ وأي الأعمال أحب إلىٰ الله ﷻ؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أحب النَّاس إلىٰ الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلىٰ الله سرورٌ تُدْخله علىٰ مسلم، أو تكشف عنه كربةً، أو تقضي عنه دَينًا، أو تطرد عنه جوعًا، وَلأَنْ أمشي مع أخٍ لي في حَاجَةٍ أحب إليَّ من أن أعتكف في هذا المسجد**»، يعني: مسجد المدينة، شهرًا، ومن كفَّ غضبه، ستر الله عورته، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يُمضيه أمضاه، ملأ الله ﷻ قلبه أمنًا يوم القيامة، ومن مشىٰ مع أخيه في حاجةٍ حتىٰ أثبتها له، أثبت الله ﷻ قدمه علىٰ الصراط يوم تزلُّ فيه الأقدام.

ومنها ما رواه ابن ماجه (٢) بسند صحيح عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من جرعةٍ أعظم أجرًا عند الله من جرعة غيظٍ كظمها عبدٌ ابتغاء وجه الله**».

ومنها ما رواه البزار (٣) بسند حسن عن أنس، أن النبي ﷺ مرَّ بقوم يصطرعون، فقال: «**ما هذا؟**»، فقالوا: يا رسول الله، فلان الصَّريع لا ينتدب له أحدٌ إلا صرعه، فقال رسول الله ﷺ: «**ألا أدلُّكم علىٰ مَنْ هو أشد منه؟ رجلٌ ظلمه رجل، فكظم غيظه فغلبه، وغلب شيطانه، وغلب شيطان صاحبه**».

---

(١) «المعجم الأوسط» (٦٠٢٦).

(٢) «سنن ابن ماجه» (٤١٨٩).

(٣) «مسند البزار» (١٣/ ٤٧٥).

ومنها أيضًا ما رواه الترمذي[١] بسند حسن عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَن كظم غيظًا وهو يستطيع أن يُنْفذه، دعاه الله يوم القيامة علىٰ رءوس الخلائق حتىٰ يُخيِّره في أي الحور شاء**».

روىٰ الإمام أحمد[٢] بسند حسن عن ابن عباس قال: خَرجَ رسول الله ﷺ إلىٰ المسجد وهو يقول بيده هكذا -فأومأ أبو عبد الرحمن بيده إلىٰ الأرض: «**مَنْ أنظر معسرًا، أو وضع له، وقاه الله من فيح جهنم، ألا إن عمل الجنة حزن بربوةٍ** -ثلاثًا- **ألا إن عمل النار سهل بسهوةٍ، والسعيد مَن وقي الفتن، وما من جرعةٍ أحب إليَّ من جرعة غيظٍ يكظمها عبد، ما كظمها عبدٌ لله إلا ملأ الله جوفه إيمانًا**».

قال ابن الأثير[٣]: السهوة: الأرض الليِّنة التربة، شبه المعصية في سهولتها علىٰ مرتكبها بالأرض السهلة التي لا حزونة فيها. والحزن: ما غلظ من الأرض.



(١) «سنن الترمذي» (٢٠٢١).

(٢) «المسند» (٣٠١٥).

(٣) «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٢/ ٤٣٠).

الفصل السادس

أمثلة لكظم الغيظ من حياة النَبيِّ ﷺ وحياة السلف

أولًا: من حياة النبي ﷺ:

المثال الأول:

روىٰ الشيخان[(١)] عن أنس بن مالكٍ قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ، وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه بردائه جبذةً شديدةً، نظرت إلىٰ صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد أثَّرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد، مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك، ثم أمر له بعطاء.

قال النووي[(٢)]: «فيه احتمال الجاهلين، والإعراض عن مقابلتهم، ودفع السيئة بالحسنة، وإعطاء مَن يتألف قلبه، والعفو عن مرتكب كبيرةٍ لا حدَّ فيها بجهله، وإباحة الضحك عند الأمور التي يتعجب منها في العادة، وفيه كمال خُلُق رسول الله ﷺ وحِلمه، وصفحه الجميل».

ملحوظة: جبذ وجذب لغتان مشهورتان صحيحتان.

قال الحافظ[(٣)]: «في روايةٍ: فجاء أعرابيٌّ من خلفه -أي: النبي ﷺ- من أهل البادية، فجذبه جبذةً شديدةً حتىٰ رجع النبي ﷺ في نحر الأعرابي حتىٰ انشق البرد،

---

(١) «صحيح البخاري» (٣١٤٩)، ومسلم (١٠٥٧).

(٢) «شرح النووي علىٰ مسلم» (٧/ ١٤٧).

(٣) «فتح الباري» (١٠/ ٥٠٦).

وذهبت حاشيته في عنقه ﷺ، فالأعرابي لقي النبي ﷺ خارج المسجد، فأدركه لما كاد أن يدخل فكلمه، أو أمسك بثوبه لمَّا دخل، فلما كاد أن يدخل الحجرة، خشي أن يفوته فجبذه».

ثم قال الحافظ: «وفي هذا الحديث بيان حِلمه ﷺ، وصبره علىٰ الأذىٰ في النفس والمال، والتجاوز علىٰ جفاء مَن يريد تألفه علىٰ الإسلام، وليتأسىٰ به الولاة بعده في خُلُقه الجميل من الصفح والإغضاء، والدفع بالتي هي أحسن».

المثال الثاني:

وروىٰ البخاري[(١)] عن أنسٍ قال: كان النَّبيُّ ﷺ عند بعض نسائه، فأرسلت إحدىٰ أمهات المؤمنين بصحفةٍ فيها طعام، فضربت التي النبي ﷺ في بيتها يد الخادم، فسقطت الصحفة فانفلقت، فجمع النبي ﷺ فلق الصحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة، ويقول: «**غارت أُمُّكم**»، ثم حبس الخادم حتىٰ أُتِيَ بصحفةٍ من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلىٰ التي كسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت.

قال الحافظ[(٢)]: في رواية الترمذي: فضربت عائشة القصعة بيدها، وأما المرسلة فهي زينب بنت جحش، وهذا قبل أن يحتجبن، وفي الحديث حُسن خُلقه ﷺ، وإنصافه وحِلمه.

المثال الثالث:

وروىٰ الشيخان[(٣)] عن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واللفظ لمسلم قال: لمَّا كان

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٢٢٥).

(٢) «فتح الباري» (٥/ ١٢٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢).

يوم حنين، آثر رسول الله ﷺ ناسًا في القسمة، فأعطىٰ الأقرع بن حابس مائةً من الإبل، وأعطىٰ عيينة مثل ذلك، وأعطىٰ أناسًا من أشراف العرب، وآثرهم يومئذٍ في القسمة، فقال رجل: والله، إنَّ هذه لقسمةٌ ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله. قال: فقلت: واللهِ، لأخبرن رسول الله ﷺ، قال: فأتيته فأخبرته بما قال. قال: فتغيَّر وجهه حتىٰ كان كالصرف، ثم قال: «**فمَن يعدل إنْ لم يعدل الله ورسوله**»، قال: ثم قال: «**يرحم الله موسىٰ، قد أُوذِيَ بأكثر من هذا فَصَبر**».

قال الحافظ(١): وفي الحديث جواز المفاضلة في القسمة، والإعراض عن الجاهل، والصفح عن الأذىٰ، والتأسِّي بمَن مضىٰ من النظراء.

وفيه أيضًا جواز إخبار الإمام وأهل الفضل بما يقال فيهم مما لا يليق بهم؛ ليحذروا القائل.

وفيه بيان ما يباح من الغيبة والنميمة؛ لأن صورتهما موجودة في صنيع ابن مسعودٍ هذا، ولم ينكره النبي ﷺ، وذلك أن قصد بن مسعودٍ كان نصح النبي ﷺ، وإعلامه بمن يطعن فيه ممَّن يظهر الإسلام ويبطن النفاق ليحذر منه، وهذا جائز.

كما يجوز التجسُّس علىٰ الكفار ليؤمن من كيدهم، وقد ارتكب الرجل المذكور بما قال إثمًا عظيمًا، فلم يكن له حرمة.

وفيه أن أهل الفضل قد يغضبهم ما يقال فيهم مما ليس فيهم، ومع ذلك فيتلقون ذلك بالصبر والحِلم، كما صنع النَّبيُّ ﷺ؛ اقتداءً بموسىٰ عليه السلام.

---

(١) «فتح الباري» (٨/ ٥٦).

قال العيني[١]: وفي الحديث من الفقه: أن أهل الفضل والخير قد يعزُّ عليهم ما يقال فيهم من الباطل، ويكبر عليهم، فإنَّ ذلك جِبلَّة في البشر فَطَرهم الله عليها إلا أن أهل الفضل يتلقَّون ذلك بالصبر الجميل اقتداءً بمَنْ تقدَّمهم من المؤمنين، ألا يرىٰ أنه ﷺ قد اقتدىٰ في ذلك بصَبْر موسىٰ صلوات الله وسلامه عليه.

المثال الرابع:

روىٰ الطبراني[٢] في «الكبير» بسندٍ حسنٍ عن عبد الله بن سلام، قال: إنَّ الله لما أراد هدىٰ زيد بن سعنة، قال زيد بن سعنة: ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه، يسبق حِلمه جهله، ولا تزيد شدة الجهل عليه إلا حِلمًا، فكنت ألطف له لأن أخالطه، فأعرف حِلمه من جهله.

قال زيد بن سعنة: فخرج رسول الله ﷺ يومًا من الحجرات ومعه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأتاه رجل علىٰ راحلته كالبدوي، فقال: يا رسول الله، إن بصرىٰ قرية بني فلان قد أسلموا، ودخلوا في الإسلام، وكنت حدَّثتهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغدًا، وقد أصابتهم سَنةٌ وشدةٌ وقحوطٌ من الغيث، فأنا أخشىٰ يا رسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعًا، كما دخلوا فيه طمعًا، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشيءٍ تُعينُهم به فعلت، فنظر إلىٰ رجلٍ إلىٰ جانبه أراه عليًّا رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، ما بقي منه شيء.

قال زيد بن سعنة: فدنوت إليه، فقلت: يا محمد، هل لك أن تبيعني تمرًا معلومًا من حائط بني فلان إلىٰ أجل كذا وكذا؟ فقال: «**لا يا يهودي، ولكني أبيعك تمرًا معلومًا إلىٰ أجل كذا وكذا، ولا تسمي حائط بني فلان**». قلت: بلىٰ، فبايعني،

---

(١) «عمدة القاري» (٢٢/ ١٣٢).

(٢) «المعجم الكبير» (٥١٤٧).

فأطلقت هميماني، فأعطيته ثمانين مثقالًا من ذهبٍ في تمرٍ معلومٍ إلىٰ أجل كذا وكذا، فأعطاها الرجل، فقال: «**اغد عليهم، فأعنهم بها**»، فقال زيد بن سعنة: فلمَّا كان قبل محل الأجل بيومين، أو ثلاثٍ، أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجهٍ غليظٍ، فقلت له: ألا تقضيني يا محمد حقي؟ فوالله ما علمتكم بني عبد المطلب لمطلٌ، ولقد كان لي بمخالطتكم علمٌ، ونظرت إلىٰ عمر، وإذا عيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير، ثم رماني ببصره، فقال: يا عدو الله، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع، وتصنع به ما أرىٰ، فوالذي بعثه بالحقِّ لولا ما أُحَاذر فوته لضربتُ بسيفي رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلىٰ عمر في سكونٍ وتؤدةٍ، ثم قال: «**يا عمر، أنا وهو كنا أحوج إلىٰ غير هذا، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التباعة، اذهب به يا عمر، وأعطه حقه، وزده عشرين صاعًا من تمرٍ مكان ما روعته**».

قال زيد: فذهب بي عمر رضي الله عنه، فأعطاني حقي، وزادني عشرين صاعًا من تمرٍ، فقلت: ما هذه الزيادة يا عمر؟ فقال: أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما روعتك. قلت: وتعرفني يا عمر؟ قال: لا، مَن أنت؟ قلت: أنا زيد بن سعنة. قال: الحبر؟ قلت: الحبر. قال: فما دعاك أن فعلتَ برسول الله ﷺ ما فعلتَ، وقلتَ له ما قلتَ؟ قلت: يا عمر، لم تكن من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه، يسبق حِلمه جهله، ولا يزيده الجهل عليه إلا حِلمًا، فقد أخبرتهما، فأشهدك يا عمر أنِّي قد رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا، وأشهدك أن شطر مالي -وإني أكثرها مالًا- صدقة علىٰ أمة محمد.

فقال عمر رضي الله عنه: أو علىٰ بعضهم، فإنك لا تسعهم. قلت: أو علىٰ بعضهم، فرجع عمر وزيد إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال زيد: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا

عبده ورسوله ﷺ، وآمَن به وصدَّقه وبايعه، وشهد معه مشاهدَ كثيرةً، ثم تُوفِّي زيدٌ في غزوة تبوك، رحم الله زيدًا، ورضي عنه.

روىٰ البخاري[(١)] عن ابن عباسٍ قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدرٍ، فنزل علىٰ ابن أخيه الحر بن قيس بن حصن، وكان الحر من النفر الذين يُدْنيهم عمر، وكان القُرَّاء أصحاب مجلس عمر ومشاورته، كهولًا كانوا أو شبانًا، فقال عيينة لابن أخيه (الحر بن قيس): يا ابن أخي، هل لك وجهٌ عند هذا الأمير، فتستأذن لي عليه؟ قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عبَّاس: فاستأذن لعيينة، فلمَّا دخل، قال: هي يا ابن الخطاب، والله ما تعطينا الجزل، وما تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتىٰ هَمَّ بأن يقع به، فقال الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالىٰ قال لنبيِّه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وإنَّ هذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وَقَّافًا عند كتاب الله.

قال الحافظ[(٢)]: «عيينة بن حصن معدودٌ في الصحابة، وكان في الجاهلية موصوفًا بالشجاعة والجهل والجفاء، وكان قدومه إلىٰ المدينة علىٰ عمر بعد أَن استقام أمره، وشهد الفتوح، وفيه من جفاء الأعراب شيء. قوله: «وكان القراء»، أي: العلماء العباد أصحاب مجلس عمر. قوله: «هل لك وجه عند هذا الأمير»، هذا من جملة جفاء عيينة؛ إذ كان من حقه أن ينعته بأمير المؤمنين، ولكنه لا يعرف منازل الأكابر.

قوله: «فتستأذن لي عليه»، أي: في خلوة، وإلا فعمر كان لا يحتجب إلا وقت خلوته وراحته، ومن ثَمَّ قال له: سأستأذن لك عليه، أي: حتىٰ تجتمع به وحدك.

---

(١) «صحيح البخاري» (٧٢٨٦).

(٢) «فتح الباري» (١٣/ ٢٥٨).

قوله: «هي»: بمعنىٰ التهديد له.

وقوله: «يا بن الخطاب»، هذا أيضًا من جفائه، حيث خاطبه بهذه المخاطبة.

قوله: «وإن هذا من الجاهلين»، أي: فأعرض عنه.

قوله: «فوالله ما جاوزها»، هو كلام ابن عباس، ومحتمل أنه كلام الحر، ومعنىٰ: «ما جاوزها»: ما عمل بغير ما دلت عليه، بل عمل بمقتضاها، ولذلك قال: «وكان وقَّافًا عند كتاب الله»، أي: يعمل بما فيه، ولا يتجاوزه.

قال الطيبي: أمر الله نبيه في هذه الآية بمكارم الأخلاق، فأمر أمته بنحو ما أمَره الله به، ومحصلهما الأمر بحسن المعاشرة مع الناس، وبذل الجهد في الإحسان إليهم، والمداراة معهم، والإغضاء عنهم، وبالله التوفيق». انتهىٰ من «الفتح» بتصرف.

ثانيًا: أمثلة من حياة السلف في كظم الغيظ:

جاء غلامٌ لأبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد كسر رجل شاةً له، فقال له: مَن كسر رِجل هذه؟ قال: أنا فعلتُهُ عمدًا لأغيظك فتضربني فتأثم. فقال أبو ذرٍّ: لأغيظن مَن حرضك علىٰ غيظي، فأعتقه[(١)].

وشتم رجلٌ عدي بن حاتم وهو ساكت، فلما فرغ من مقالته قال: إن كان بقي عندك شيءٌ، فقل قبل أن يأتي شباب الحي، فإنهم إن سمعوك تقول هذا لِسيِّدهم لم يرضوا[(٢)].

وذكر ابن كثير[(٣)] في سيرة عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالىٰ- كلَّمه رجل

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (١/ ١٨٣).

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (١/ ١٨٣).

(٣) «البداية والنهاية» (٩/ ٢٢٦).

يومًا حتىٰ أغضبه، فهَمَّ به عمر، ثم أمسك نفسه، ثم قال للرجل: أردتَ أن يستفزني الشيطان بعزة السلطان، فأنال منك ما تناله مني غدًا؟ قم عافاك الله، لا حاجة لنا في مقاولتك.

ولمَّا شتم رجل سلمان الفارسي قال: إن خَفَّت موازيني، فأنا شرٌّ مما تقول، وإن ثَقُلت موازيني، لم يضرني ما تقول.

ومما يُعِينُ -بعد عون الله تعالىٰ- علىٰ علاج الغضب: الوقوف علىٰ فضائل وفوائد كظم الغيظ، ومنها:

١- كظم الغيظ دليل قوة النفس، وقهر شهوة الغضب.

٢- كظم الغيظ دليل تقوىٰ الله، وإيثار وَعْده بالجنة.

٣- كاظم الغيظ يأمنه الناس، فيألفونه ويقتربون منه، ولا يتحاشونه.

٤- كظم الغيظ يشيع بين الناس جو الصفاء والوداد والحب والإخاء.

٥- كظم الغيظ دليل الصبر والعفو.

٦- فيه عظم الثواب يوم العرض علىٰ ربِّ الأرباب.

٧- الجزاء من جنس العمل، مَن ضيَّق علىٰ نفسه حين الغضب، وسَّع الله في ثوابه.

٨- من كظم غيظًا، ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة.

٩- كظم الغيظ عاقبته سكن الإيمان في النفس.

ومما يُعِينُ علىٰ علاج الغضب بعد عون الله تعالىٰ من طريق العلم: الوقوف علىٰ أضرار الغضب، ومنها:

(١) يُغضب الرحمن الرحيم، ويرضي الشيطان الرجيم.

(٢) الصبر عليه أشد وأصعب من مجاهدة العدو.

(٣) يؤول إلىٰ التقاطع، وإفساد ذات البين.

(٤) يتولد منه الحقد والحسد، وهذا نقصٌ في العقل والدين.

(٥) كثيرًا ما يعقبه الاعتذار والندم، وقد يكون بعد فوات الأوان.

(٦) يجعل صاحبه لا يستفيد من الموعظة والعبرة.

(٧) قد يؤثر علىٰ البدن حتىٰ يعمي البصر، ويصم الآذان، ويخرس اللسان، ويعجز الإنسان، بل قد يموت الإنسان وتزهق نفسه بالكليَّة.

(٨) نفرة الخَلق عنه، وخوفهم من القرب منه.



الفصل السابع

ثانيًا: علاج مرض الغضب عن طريق العمل

علاج الغضب من خلال العمل، وذلك بما يلي:

أولًا: الاستعاذة بالله من الشيطان:

روىٰ الشيخان[(١)] عن سليمان بن صرد، قال: استبَّ رجلان عند النبي ﷺ، فجعل أحدهما تحمر عيناه، وتنتفخ أوداجه، قال رسول الله ﷺ: «**إنِّي لأعرف كلمةً لو قالها لذهب عنه الذي يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»، فقال الرجل: وهل تَرىٰ بي من جنونٍ؟

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾ [فصلت: ٣٦].

قال ابن القيِّم[(٢)] **رحمه الله تعالىٰ**: قال تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾ [فصلت: ٣٦]، وقال هاهنا: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾، فأكد بـ «إن» وبضمير الفصل، وأتىٰ باللام في ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾، وقال في الأعراف: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾.

---

(١) «صحيح البخاري» (٦١١٥)، ومسلم (٢٦١٠).

(٢) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ٩٦).

وَسرُّ ذلك -والله أعلم- أنه حيث اقتصر علىٰ مُجرَّد الاسم، ولم يُؤكِّده، أريد إثبات مجرَّد الوصف الكافي في الاستعاذة، والإخبار بأنه سبحانه يسمع ويعلم، فيسمع استعاذتك، فيجيبك، ويعلم ما تستعيذ منه، فيدفعه عنك، فالسمع لكلام المستعيذ، والعلم بالفعل المستعاذ منه، وبذلك يحصل مقصود الاستعاذة، وهذا المعنىٰ شاملٌ للموضعين، وامتاز المذكور في سورة فصلت بمزيد التأكيد والتعريف والتخصيص.

ولمَّا كان الغضب مركب الشيطان، فتتعاون النفس الغضبية والشيطان علىٰ النفس المطمئنة التي تأمر بدفع الإساءة بالإحسان- أمر أن يعاونها بالاستعاذة منه، فتمد الاستعاذة النفس المطمئنة، فتقوىٰ علىٰ مقاومة جيش النفس الغضبية، ويأتي مدد الصَّبر الذي يكون النصر معه، وجاء مدد الإيمان والتوكُّل، فأبطل سلطان الشيطان، ثم قال: ومعنىٰ «استعذ بالله»: امتنع به، واعتصم به، والجأ إليه.

ثانيًا: الصمت، وعدم الكلام:

روىٰ الإمام أحمد[(١)] بسند حسن عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: «**علموا، ويَسِّروا، ولا تعسروا، وإذا غضب أحدكم فليسكت**».

ثالثًا: يغير من حالته.

روىٰ الإمام أحمد[(٢)] بسند حسن عن أبي ذرٍّ، قال -القائل هو أبو الأسود الدؤلي يحكي فعل أبي ذرٍّ: كان يسقي علىٰ حوضٍ له، فجاء قوم، فقال: أيكم يورد علىٰ أبي ذرٍّ، ويحتسب شعراتٍ من رأسه؟ فقال رجل: أنا، فجاء الرجل، فأورد عليه الحوض فدقه، وكان أبو ذرٍّ قائمًا فجلس، ثم اضطجع، فقيل له: يا أبا ذرٍّ، لِمَ

(١) «مسند أحمد» (٢١٣٥).

(٢) «مسند أحمد» (٢١٣٤٨).

جلست، ثم اضطجعت؟ قال: فقال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «**إذا غضب أحدكم وهو قائمٌ فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع**».

قال الخطابي(١): القائم مُتَهيِّئٌ للحركة والبطش، والقاعد دونه في هذا المعنىٰ، والمضطجعُ ممنوعٌ منهما، فيشبه أن يكون النَّبيُّ ﷺ إنما أمَره بالقعود والاضطجاع؛ لئلَّا تبدر منه في حال قيامه وقعوده بادرةٌ يندم عليها فيما بعد، والله أعلم.

قال القاري(٢) **في «المرقاة»**: قوله ﷺ: «**إذا غضب أحدكم**»، أي: ظهر أثر غضبه علىٰ أحدٍ.

قوله ﷺ: «**وهو قائمٌ فليجلس**»؛ لأنَّ المعالجة بالأضداد والقوة الغضبية الناشئة من الوسوسة الشيطانية تقتضي الخفَّة والتعلية التي من خواص النار، والقيام لأجل الانتقام، فمخالفتُهُ بالجلوس المشير إلىٰ القعود عن الفتنة نافعةٌ جدًّا.

قوله ﷺ: «**فإن ذهب عنه الغضب**»، أي: أثر حرارته، وقوة مرارته بالجلوس، فبها ونعمت، وإلا -أي: وإن لم يذهب به- «**فليضطجع**»: مبالغة في المعالجة المذكورة.

وفي «شرح السنة» للبغوي إنما أمره بالقعود والاضطجاع؛ لئلَّا يحصل منه في حال غضبه ما يندم عليه، فإن المضطجع أبعد من الحركة والبطش من القاعد، والقاعد من القائم.

---

(١) «معالم السنن» (٤/ ١٠٨).

(٢) «مرقاة المفاتيح» (٨/ ٣١٩٤).

رابعًا: الوضوء:

روىٰ الإمام أحمد[١] من حديث أبي وائل الصنعاني المرادي، قال: كنا جلوسًا عند عروة بن محمد قال: حدثني أبي، عن جدي عطية -وقد كانت له صحبةٌ- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الغضب من الشَّيطان، وإن الشيطان خُلِقَ من النار، وإنما تُطْفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ**».

قال القاري[٢] **في «المرقاة»**: قوله ﷺ: «**إنَّ الغضب من الشيطان**»، أي: من أثر وسوسته.

قوله ﷺ: «**وإنما يطفأ**»: بصيغة المجهول مهموز، أي: يدفع «**النار**»، أي: الحسية «**بالماء**»، أي: الحقيقي.

قوله ﷺ: «**فإذا غضب أحدُكُم**»، أي: واشتعلت نار غضبه من جوفه، ويريد إحراق المغضوب عليه بنوعٍ من عذابه.

قوله ﷺ: «**فليتوضَّأ**»: فإن الوضوء مركب معجون من الماء الحسي والمطهر المعنوي المؤثر في الظاهر والباطن، وهذا من طب الأنبياء الذي غفل عنه الحكماء.

---

(١) «مسند أحمد» (١٧٩٨٥).

(٢) «مرقاة المفاتيح» (٨/ ٣١٩٣).

الفصل الثامن

بعض الأحكام الشرعية المتعلقة بالغضبان

أولًا: إذا حصل اعتداء من الغضبان، فأتلف مالًا للغير، فعليه الضمان بإجماع العلماء.

دليل ذلك:

بوَّب الدارمي[(١)]، فقال: باب مَن كسر شيئًا فعليه مثله، ثم روىٰ بسند صحيح عن أنس، قال: أهدىٰ بعض أزواج النبي ﷺ إليه قصعة فيها ثريد، وهو في بيت بعض أزواجه، فضربت القصعة فانكسرت، فجعل النبي ﷺ يأخذ الثريد، فيرده في الصحفة، وهو يقول: «**كلوا، غارت أمكم**»، ثم انتظر حتىٰ جاءت قصعة صحيحة، فأخذها فأعطاها صاحبة القصعة المكسورة.

الشاهد: أن الغيرة من الغضب، ومع ذلك ضمنها النبي ﷺ.

ثانيًا: أما طلاقه ونكاحه وعتاقه ونحوها، ففيه تفصيلٌ علىٰ ما يلي:

روىٰ ابن حبان[(٢)] بسندٍ صحيحٍ عن خولة بنت ثعلبة قالت: فيَّ -والله- وفي أوس بن الصامت أنزل الله -جلَّ وعلا- صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده، وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خُلقه، وضجر، قالت: فدخل عليَّ يومًا، فراجعته في شيءٍ، فغضب، وقال: أنتِ عليَّ كظهر أمي، ثم خرج، فجلس في نادي قومه ساعةً، ثم دخل

---

(١) «سنن الدارمي» (٢٦٤٠).

(٢) «صحيح ابن حبان» (٤٢٧٩).

عليَّ، فإذا هو يريدني علىٰ نفسي، قالت: قلت: كلَّا والذي نفس خويلة بيده، لا تخلص إليَّ، وقد قلتَ ما قلتَ حتىٰ يحكم الله ورسوله فينا بحكمه.

قالت: فواثبني، فامتنعت منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيتُهُ تحتي، ثم خرجت إلىٰ بعض جاراتي، فاستعرتُ منها ثيابًا، ثم خرجت حتىٰ جئت رسول الله ﷺ، فجلستُ بين يديه، فذكرتُ له ما لقيتُ منه، فجعلتُ أشكو إليه ما ألقىٰ من سوء خلقه.

قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «**يا خويلة، ابن عمك شيخ كبير، فاتقي الله فيه**»، قالت: فوالله، ما برحت حتىٰ نزل القرآن، فتغشىٰ رسول الله ﷺ ما كان يغشاه، ثم سُرِّي عنه، فقال: «**يا خويلة، قد أنزل الله -جلَّ وعلا- فيكِ وفي صاحبك**»، قالت: ثم قرأ عليَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١]، إلىٰ قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ [المجادلة: ٤]، فقال رسول الله ﷺ: «**مُرِيهِ فليعتق رقبةً**»، قالت: فقلت: يا رسول الله، ما عنده ما يعتق. قال: «**فليصم شهرين متتابعين**»، قالت: فقلت: واللهِ يا رسول الله، إنه شيخ كبير، ما به من صيامٍ. قال: «**فليطعم ستِّين مسكينًا وسقًا من تمر**»، فقلت: والله يا رسول الله، ما ذلك عنده. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «**فإنَّا سنُعينُهُ بعرقٍ من تمرٍ**»، قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله سأعينُهُ بعرقٍ آخر، فقال: «**أصبتِ، وأحسنتِ، فاذهبي فتصدَّقي به عنه، ثم استوصي بابن عمك خيرًا**»، قالت: ففعلتُ.

قال ابن رجب في «جامعه»[1]: فهذا الرجل ظَاهَر في حال غضبه، وكان النبي ﷺ يرىٰ حينئذٍ أن الظهار طلاق، وقد قال: إنها حرمت عليه بذلك، يعني: لزمه الطلاق، فلمَّا جعله الله ظهارًا مكفرًا، ألزمه بالكفارة، ولم يلغه.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٧٥).

فدلَّ الحديث علىٰ أن أوس بن الصامت غضب فَظاهَر من امرأته، فأمضاه عليه رسول الله ﷺ، ففيه دليلٌ علىٰ أنَّ الغضبان يؤاخذ بما يصدر منه من كلامٍ، وتجرىٰ عليه أحكام الشريعة.

أيضًا ذكرت خولة أن زوجها غضب هكذا بإطلاقٍ، ولم تفصل درجة الغضب، ولم يستفصل النبي ﷺ منها، ومعلومٌ إذ إنه ﷺ لم يستفصل وترك الاستفصال في مقام الاحتمال ينزل منزلة العموم في المقال.

وروىٰ ابن ماجه[(١)] بسندٍ حسنٍ عن عائشة قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**لا طلاق ولا عتاق في إغلاق**».

وفي روايةٍ في سنن أبي داود[(٢)] بسند حسن عن عائشة قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**لا طلاق، ولا عتاق في غلاق**».

قال أبو داود: «الغلاق أظنُّه في الغضب»، وفسر الإغلاق علماء الغريب كابن قتيبة والخطابي بالإكراه، وقالوا: كأن المكره أُغْلق عليه الباب حتىٰ يفعل، وكذا فسره أحمد. وقال أبو عبيد: الإغلاق: التضييق.

قال الحافظ[(٣)]: ورد الفارسي في «مجمع الغرائب» علىٰ مَن قال: الإغلاق الغضب، وغلطه في ذلك، وقال: إن طلاق الناس -غالبًا- إنَّما هو في حال الغضب. وقال ابن المرابط: الإغلاقُ حرجُ النفس، وليس كل مَن وقع له فارق عقله، ولو جاز عدم وقوع طلاق الغضبان لكان لكلِّ أحدٍ أن يقول فيما جناه: كنت غضبانًا.

---

(١) «سنن ابن ماجه» (٢٠٤٦).

(٢) «سنن أبي داود» (٢١٩٣).

(٣) «فتح الباري» (٩/ ٣٨٩).

قال ابن رجبٍ في «جامعه»[(١)]: وحديث: «**لا طلاق ولا عتاق في إغلاق**»: إمَّا أنه غير صحيحٍ، أو أنَّ تفسيره بالغضب غير صحيحٍ.

بوَّب البخاريُّ[(٢)]، فقال: باب الطلاق في الإغلاق والكره، والسكران والمجنون وأمرهما، والغلط والنسيان في الطلاق والشرك وغيره.

قال ابن القيِّم[(٣)]: مقتضىٰ تبويب البخاري يريد أن يفرق بين الطلاق في الإغلاق، وبين هذه الوجوه.

وعليه، وبالنظر في الأدلة السابقة وغيرها من القواعد الكلية للشريعة، ومعرفة مقاصدها، والاستقراء، وجد العلماء أن للغضب ثلاثة أقسامٍ:

الأول: أن يحصل للإنسان مبادئ الغضب وأوائله، بحيث لا يتغير عليه عقله، ويعلم ما يقول، فهذا يقع طلاقه بلا إشكالٍ؛ فإنه مكلفٌ عَالِمٌ بأقواله، ومريدٌ للتكلم بها.

الثاني: أن يبلغ به الغضب نهايته، فيزيل عقله، فلا يعلم ما يقول، وهذا لا يقع طلاقه بلا نزاعٍ.

قال ابن القيِّم[(٤)]: قال شيخنا: وحقيقة الإغلاق أن يغلق علىٰ الرجل قلبه، فلا يقصد الكلام، أو لا يعلم به، كأنه انغلق عليه قصده وإرادته.

الثالث: أن يستحكم ويشتدُّ به، فلا يزيل عقله بالكليَّة، ولكن يَحُول بينه وبين نيَّته بحيث يندم علىٰ ما فَرَط منه إذا زال، فهذا محلُّ نظرٍ يرجع فيه إلىٰ الحالة الواقعة، وما أحاط بها من مُلَابساتٍ، فيفتي المفتي حسَب ما يترجَّح له من الواقعة بالوقوع، أو عدمه.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٧٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٧/ ٤٥).

(٣) «إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان» (١/ ٢٩).

(٤) «زاد الميعاد» (٥/ ١٩٥).

من فتاوىٰ العلَّامة الشيخ المبارك ابن بازٍ[١] رحمه الله تعالىٰ:

حضر عندي الزوج (ف. أ. ع) وزوجته وأخوها (م. م)، وذكر الزوج أنه وقع بينه وبين زوجته المذكورة نزاع وشجار، فطلقها بقوله: طالق، طالق، طالق، وهو في غاية الغضب؛ بسبب تكسيرها الفيديو والساعة التي كانت تلبسها، ثم بعد يومين أو ثلاثة جاءه إخوانها ومعهم اثنان، وبحثوا موضع الخلاف الذي بين الزوجين، وطلبوا منه طلاقها، فغضب وكتب ورقةً قال فيها: إنه طلقها طلاقًا شرعيًّا ثابتًا لا رجعة فيه، وبسؤاله عن قصده به، أفاد أنه يقصد الطلاق السابق، كما أفاد الزوج والزوجة أن الزوجة المذكورة كانت حائضًا حين الطلاق الذي تلفَّظ به، والذي كتبه في الورقة بعد ذلك.

وبناءً علىٰ ذلك كله، أفتيت الزوج المذكور بأن الطلاق المُنوَّه عنه غير واقعٍ، وزوجته باقية في عصمته؛ لكونه حصل في حال غضب شديد، وحال كون المرأة حائضًا، وقد دلَّت الأدلة الشرعية علىٰ عدم وقوع الطلاق في الحالين المشار إليهما.

قاله مُمْليه الفقير إلىٰ ربه تعالىٰ عبد العزيز بن عبد الله بن باز سامحه الله، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه.

الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، الفتوىٰ بتاريخ ١٨/ ١١/ ١٤. ٢هـ



(١) «مجموع فتاوىٰ ابن باز» (٢١/ ٣٨٣).

من فتاوىٰ دار الإفتاء المصرية[١]:

المفتي عبد المجيد سليم. رجب ١٣٥٥ هجرية - ٣ أكتوبر ١٩٣٦ م.

المبادئ:

١ - طلاق الغضبان لا يقع إذا كان غضبه شديدًا بحيث أصبح لا يعي ما يقول وقته أصلًا.

٢ - «أنت طالق» علىٰ سائر مذاهب المسلمين يقع به طلقة رجعية.

السؤال: رجل قال لزوجته: إنك مطلقة بالأربعة مذاهب، وله منها بنت، وعندما قال لها ذلك، كان في أشد الحزن والغضب، فنرجو الإفادة.

الجواب: نفيد بأنه إذا صدرت صيغة الطلاق المذكورة من هذا الرجل وهو غضبان غضبًا شديدًا بحيث أصبح لا يعي ما يقول وقته أصلًا، وأصبح يغلب الخلل في أقواله وأفعاله، لم يقع بهذه الصيغة طلاقٌ؛ لعدم أهليَّة الزوج للإيقاع في هذه الحالة.

أمَّا إذا لم يصل به الغضب إلىٰ الحالة المذكورة، وقع بالصيغة المذكورة طلقة واحدة رجعية إِنْ لم تكن هذه الطلقة مكملةً للثلاث.



(١) (٢/ ٤٥٦).

الباب الثامن

مرض الحقد

وفيه ستة فصول:

الفصل الأول: تعريف الحقد.

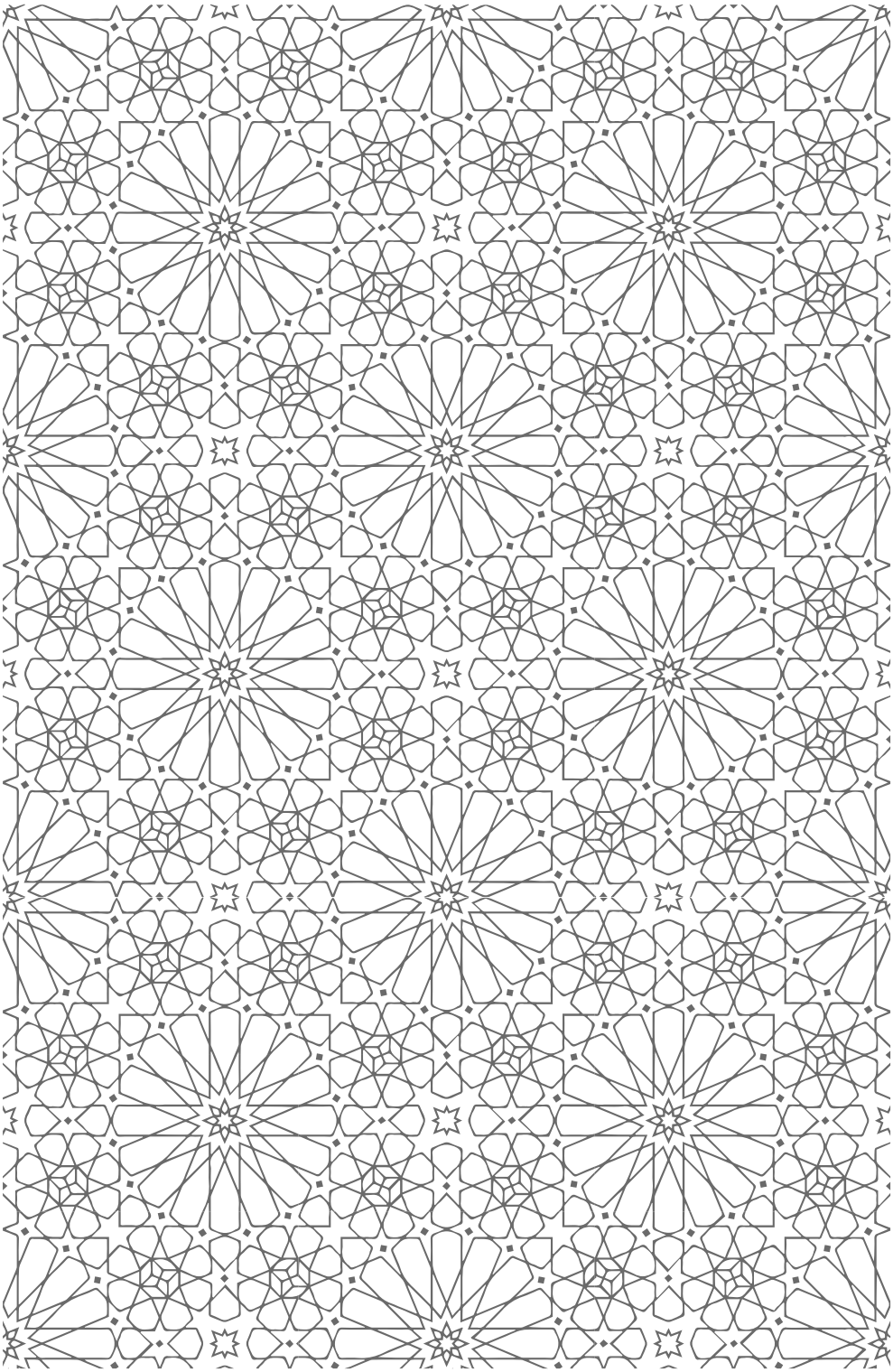
الفصل الثاني: كيفية تولُّد مرض الحقد في القلب وثمراته.

الفصل الثالث: بعض أسباب الحقد.

الفصل الرابع: علامة الحقد وحكمه الشرعي.

الفصل الخامس: النصوص الشرعية الواردة في ذم الحقد والغل.

الفصل السادس: علاج الحقد.



الفصل الأول

تعريف الحقد

الحقد لغةً:

هو الاسم من قولهم: حقد فلان يحقد، وهو مأخوذٌ من مادة (ح ق د) التي تدل علىٰ الضغن.

قال الإمام الجرجاني في «التعريفات»[(١)]: الحقد هو طلب الانتقام.

وقال ابن منظور[(٢)]: الحقد: إمساك العداوة في القلب، والتربص لفرصتها.

وتحقيقه: أن الغضب إذا لزم كظمه لعجزٍ عن التشفي في الحال، رجع إلىٰ الباطن، واحتقن فيه، فصار حقدًا.

والتعريفان متقاربان، ولكن الثاني أدق.

والغلُّ: هو الحقد الكامن في الصدر، كما قال القرطبي -عليه رحمة الله- في «تفسيره»، فالحقد والغلُّ مترادفان.

قال الجاحظ[(٣)]: الحقد هو إضمار الشَّرِّ للجاني إذا لم يتمكَّن من الانتقام منه، فأخفىٰ ذلك الاعتقاد إلىٰ وقت إمكان الفرصة.

---

(١) (١/ ٩١).

(٢) «لسان العرب» (٣/ ١٥٤).

(٣) «تهذيب الأخلاق» (١/ ٣٣).

وقال أهل العلم: الغضب يُؤدِّي إلىٰ الحقد، والحقد يؤدي إلىٰ الحسد، والحسد يؤدي إلىٰ الكِبْرِ[(١)]، فإذا استحكم الغضب في قلب المرء، ثمَّ لم يعالجه، أدَّىٰ إلىٰ الحقد، فإن لم يعالجه، أدَّىٰ إلىٰ الحسد، فإن لم يعالجه، أدَّىٰ إلىٰ الكبر، وعواقبُ الكبر وخيمةٌ، وهي الأشد ضررًا؛ لأنها قد تُودي بالعبد إلىٰ الشرك والكفر والعياذ بالله، كما سبق بيانه في مرض الكبر.

(١) وكما هو معلوم من الشريعة بالضرورة أنَّ المعاصي يولد بعضها بعضًا، وكذلك أمراض القلوب يولد بعضها بعضًا.

الفصل الثاني

كيفية تولُّد مرض الحقد في القلب وثمراته

أولًا: ذكر أهل العلم أن الحقد يتولد في القلب من خلال المراحل الآتية:

المرحلة الأولىٰ: أن يؤذي العبد مَن هو دونه، أي: دونه في المنزلة.

المرحلة الثانية: يتولَّد من ذلك الإيذاء غضبٌ في القلب.

المرحلة الثالثة: لا يتمكَّن العبد الذي أوذي من الانتقام في الحال مع استطاعته ذلك في غير هذه الحال.

المرحلة الرابعة: يرجع الغضب إلىٰ النفس، فيحتقن في القلب، ويتولد منه الحقد.

فإذا عرفت هذه الخطوات، تستطيع أن تقطع علىٰ المرض طريقه في أيِّ مرحلةٍ من هذه المراحل لتمنع انتشاره.

فالإنسانُ إِنْ آذاه مَنْ هو دونه، ثمَّ لم يتحكَّم في نفسه، ويكظم غضبه ويعالجه، كما يأمره الشرع، وأخذته العزة بالإثم، وأخذ يتمادىٰ في الغضب، ثمَّ لما أراد أن ينتقم، عجز لسببٍ ما -كأن يَحُول بينه وبين مؤذيه حضور مَنْ له منزلةٌ في قلب هذا الغضبان مثلًا-[1]، فيرجع هذا الغضب إلىٰ القلب ويحتقن؛ ليتولَّد منه طلب الانتقام، وتَحين الفرصة للتشفِّي منه.

---

(١) وهو في هذه الحالة لم يعالج غضبه، وإنَّما فقط حيل بينه وبين تنفيس هذا الغضب والانتقام، ففرقٌ بين أن يغضبك مَنْ تستطيع أن تنتقم منه، ثم تعفو عنه لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، وتجتهد في إسكان غضبك بالطرق التي دلَّ عليها الشرع، وبين أن يكون ذلك عن عجزٍ.

قال أبو حامدٍ الغزالي[(١)]: «اعلم أن الغضب إذا لزم كظمه لعجزٍ عن التشفِّي في الحال، رجع إلىٰ الباطن، واحتقن فيه، فصار حقدًا. ومعنىٰ الحقد أن يلزم قلبه استثقاله، والبغضة له، والنفار عنه، وأن يدوم ذلك ويبقىٰ.

ثانيًا: ثمرات الحقد:

فالحقد ثمرة الغضب، والحقد يثمر ثمانية أمورٍ:

الأول: الحسد، وهو أن يحملك الحقد علىٰ أن تتمنىٰ زوال النعمة عنه، فتغتم بنعمةٍ إن أصابها، وتسرُّ بمصيبةٍ إن نزلت به، وهذا من فعل المنافقين.

الثاني: أن يزيد علىٰ إضمار الحسد في الباطن، فيشمت بما أصابه من البلاء.

الثالث: أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك.

الرابع وهو دونه: أن تعرض عنه؛ استصغارًا له.

الخامس: أن تتكلَّم فيه بما لا يحل من كذبٍ، وغيبةٍ، وإفشاء سرٍّ، وهتك سترٍ وعورةٍ.

السادس: أن تُحَاكيه استهزاءً به، وسخريةً منه.

السابع: إيذاؤه بالضرب، وما يؤلم بدنه.

الثامن: أَنْ تمنعه حقَّه من قضاء دَينٍ، أو صلة رحمٍ، أو رد مظلمةٍ، وكل ذلك حرام.

وأقلُّ درجات الحقد لو احترز عن هذه الآفات الثماني أن يترك البشاشة، أو الرفق، والعناية، والقيام بحاجاته، أو المعاونة علىٰ المنفعة له، وكلُّه مما ينقص الدرجة في الدين، ويفوت الثواب الجزيل». انتهىٰ من «الإحياء» بتصرفٍ.

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٨١).

وذكر ابن حجرٍ الهيتمي -رحمه الله تعالىٰ- سببًا آخر للحقد -وإن كان قليلًا ما يحدث، فالسبب الأول هو الأصل- أنَّ الحقد قد ينشأ في القلب لشدَّة خباثته، وكثرة ما فيه من أمراضٍ، فالأمراض الَّتي فيه استدعت أمراضًا أخرىٰ من جملتها الحقد.



الفصل الثالث

بعض أسباب الحقد

١. المماراة والمنافسة:

قال أبو حامدٍ الغزالي في «الإحياء»[(١)]: وأشد الأسباب لإثارة نار الحقد بين الإخوان: المماراة والمنافسة، فإنها عين التدابر والتقاطع، فإن التقاطع يقع أولًا بالآراء، ثم بالأقوال، ثم بالأبدان.

٢. المزاح:

قال الإبشيهي[(٢)]: المزاح يخرق الهيبة، ويُذهب بماء الوجه، ويعقب الحقد، ويذهب بحلاوة الإيمان والود، ويشين فقه الفقيه، ويُجرِّئ السفيه، ويُميت القلب، ويباعد عن الرب تعالىٰ، ويكسب الغفلة والذلة.

٣. الخصومة:

قال النووي[(٣)]: الخصومة تُوغِرُ الصدور، وتهيج الغضب، وإذا هاج الغضب حصل الحقد بينهما، حتىٰ يفرح كل واحدٍ بمساءة الآخر، ويحزن بمسرَّته، ويطلق اللسان في عِرضه، فمن خاصم، فقد تعرَّض لهذه الآفات، وأقلُّ ما فيه: اشتغال القلب حتىٰ إنه يكون في صلاته وخاطره مُعلَّق بالمحاجة والخصومة، فلا يبقىٰ حاله علىٰ الاستقامة.

والخصومةُ مبدأُ الشرِّ، وكذا الجدال والمراء، فينبغي ألَّا يفتح عليه باب الخصومة إلا لضرورةٍ لا بد منها، وعند ذلك يحفظ لسانه وقلبه عن آفات الخصومة.

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٢/ ١٧٩).

(٢) «المستطرف في كل فنٍّ مستطرف» (١/ ١٣٣).

(٣) «الأذكار» للنووي (١/ ٣٧١).

الفصل الرابع

علامة الحقد وحكمه

أولًا: علامة الحقد:

يقول الإمام القرطبي عليه رحمة الله: فإذا عجز الرجل عن أن ينتقم ممَّن أغضبه في الحال، وما استطاع أن ينتقم منه بعد ذلك، وعجز عن الانتقام منه علىٰ الدوام يتمنىٰ أن ينتقم منه الزمن.

ومن علاماته: دوام بُغض الشخص المحقود عليه، واستثقاله، والنفور منه:

فَمَرضُ الحقد -مثل باقي أمراض القلوب- أنَّ العبد قد لا يشعر به، فيكون المرض مستفحلًا في قلبه حتىٰ أثَّر علىٰ جوارحه وهو لا يشعر، لذلك بيَّن العلماء أنَّ علامة الحقد التي إذا صدرت من مُكلَّفٍ، دلَّت دلالةً أكيدةً علىٰ أنه مصاب به- هي إحساس العبد في قلبه براحةٍ وفرحٍ واستبشارٍ إذا نزل أذًىٰ بأخيه المسلم، فإذا فرح القلب، واستراح واستبشر إذا نزل البلاء بأيِّ مسلمٍ، فالقلب حينئذٍ مليء بالحقد[(١)].

فإن لم ينتقم الزمان من المحقود عليه، عجل الحاقد بالانتقام بنفسه؛ لِمَا في قلبه من حقد وتحين لهذه الفرصة، فيهيج عليه الناس، وإن وجد بينه وبين غيره شيئًا من العداوة والبغضاء، أشعل فيها النار حتىٰ تتوهج، ويحصل الانتقام، وهو بعيدٌ عن الصورة.

---

(١) وهذه العلامة لا يشعر بها إلا صاحب المرض نفسه، فقد يظهر المرء أمام الناس حزينًا تبكي عينه لما سمع عمَّا نزل بأخيه المسلم، وهو في الحقيقة قلبه يرقص فرحًا بذلك، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤﴾ [البقرة: ٢٠٤]، لذلك علىٰ كل إنسانٍ أن يحكم علىٰ نفسه بصدق.

والأخطر من ذلك: أن يغلف الشيطان هذا المرض بغلاف الشريعة، فيتحرَّك المرء لينتقم من إنسانٍ، وليكيد به، ويهيج الناس عليه بحجة أنه يتحرك حميةً لدين الله ﷻ، وذبًّا عن الشريعة، ونشرًا للسُّنة، وقمعًا للبدعة وأهلها، فيكون عملُهُ عملَ سوءٍ، وهو لا يشعر ولا ينتبه، ولا يزال في غَيِّه يتردَّد، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الحقد والعقوبة القدرية:

من الشُّبهات التي قد تعتري البعض في هذا الأمر: أن يظن المرء أن هذا المكروه الذي نزل بأخيه المسلم عقوبة قدرية من الله ﷻ للعبد لتقصيره، فيدَّعي أن ما تولَّد من فرحٍ وسعادةٍ في قلبه إنما هي لأن عدل الله ﷻ قد تحقَّق، وليس لأن البلية نزلت عليه، ولكن هذا أيضًا لا يحل له، فمهما كان الرجل ظالمًا، لا نجزم أن ما نزل به إنما هو انتقامٌ من الله ﷻ، فنحن لا ندري[(١)].

وقد اتفق أهل العلم علىٰ أن العقوبة القدرية التي ينزلها ربُّ البرية علىٰ عباده - مثل: ارتفاع الأسعار، وكثرة الأمراض، وضيق المعيشة، واضطراب النفوس، وغير ذلك- لا يخرج سببها عن أمرين اثنين:

١- بسبب ما يقترفه العباد من معاصٍ وذنوبٍ، وهذا هو السبب الرئيس.

٢- أن تكون رفعةً لدرجات العبد؛ كأن ترىٰ العبد في غاية الصلاح والاستقامة، ما يصدر عنه إلا هفوات قليلة جدًّا، ومع ذلك تنزل عليه العقوبات والبلايا في كل حينٍ، فيكون هذا من أجل رفعة الدَّرجات، وعلو منزلته عند ربِّ الأرض والسماوات.

---

(١) فهنا ارتباط بمرض سوء الظن، فلن تستطيع أن تتخلص من الحقد إلا إذا تخلصت من مرض سوء الظن أيضًا، فتحسن بالمُبْتلىٰ الظَّنَّ أن هذا البلاء قد يكون؛ لأنَّ الله ﷻ قد قدر له منزلةً عاليةً في الجنة لم يبلغها بعمله، فيرفع بالبلاء درجاته.

فإذا نزل البلاء بمسلمٍ، فلا ندري: أنَزلَ نتيجةً لذنوبه، وتحقيقًا لعدل الله فيه أم لا؟ فهذه مسألةٌ غيبيةٌ، فالأسلم لدينك ولقلبك أن تتجنَّب هذا الظن السيئ، وأن تعلم أنك إذا فرحت بنزول عقوبةٍ قدريةٍ علىٰ أخيك المسلم، فإن في القلب سوءًا، واستحضارك أن ذلك علامة للمرض يَحُول بعد ذلك بين المرض وبين قلبك، فإذا علم المرء ذلك، بدأ في العلاج.

ثانيًا: حكم الحقد:

ذكر ابن حجر[(١)] الحقد مع كلٍّ من الغضب بالباطل والحسد علىٰ أنها جميعًا من كبائر الباطن، وعلَّل جمعه لهذه الكبائر الثلاث بقوله: لمَّا كانت هذه الثلاثة بينها تلازمٌ وترتبٌ، إذ الحسد من نتائج الحقد، والحقد من نتائج الغضب، كانت بمنزلة خصلةٍ واحدةٍ، وذم كلٍّ يستلزم ذم الآخر؛ لأنَّ ذم الفرع وفرعه يستلزم ذم الأصل وأصله، وبالعكس.

ومما يدخل في الحقد أيضًا، بل هو والحقد رضيعا لبانٍ: الغل.

قال القرطبي[(٢)]: الغلُّ هو الحقد الكامن في الصدر.



(١) «الزواجر» (١/ ٥٢).

(٢) «تفسير القرطبي» (٧/ ١٣٣).

الفصل الخامس

النصوص الشرعية الواردة في ذم الحقد والغل

يقول الله عَزَّوَجَلَّ في معرض الثناء علىٰ بعض عباده الصالحين: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: ١٠].

قال الرازي(١): اعلم أنَّ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ عطف أيضًا علىٰ «المهاجرين» وهم الذين هاجروا من بعد. وقيل: التابعون بإحسانٍ، وهم الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار إلىٰ يوم القيامة، وذكر تعالىٰ أنهم يَدْعون لأنفسهم ولمَن سبقهم بالإيمان، وهو قوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: غشًّا وحسدًا وبغضًا.

واعلم أن هذه الآيات قد استوعبت جميع المؤمنين؛ لأنهم إمَّا المهاجرون، أو الأنصار، أو الذين جاءوا من بعدهم، وبيَّن أن من شأن مَنْ جاء من بعد المهاجرين والأنصار أن يذكر السَّابقين -وهم المهاجرون والأنصار- بالدعاء والرحمة، فمَنْ لم يكن كذلك، بل ذكرهم بسوءٍ، كان خارجًا من جملة أقسام المؤمنين بحسَب نصِّ هذه الآية.

والرَّاجحُ من أقوال أهل العلم -كما ذكرنا- أنَّ الحقد هو الغلُّ، وكلاهما يتولد من الغضب.

---

(١) «تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٩).

وفي «مسند الإمام أحمد»، وعند الإمام الترمذي[(١)]، وسنده -إن شاء الله- حسن، من حديث ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «**ثلاثٌ مَنْ لم يكن فيه واحدةٌ منهنَّ، فإنَّ الله يغفر له ما سوىٰ ذلك لمَنْ يشاء: مَنْ مات لا يشرك بالله شيئًا، ولم يكن ساحرًا يتبع السَّحَرة، ولم يحقد علىٰ أخيه**».

وثبت أيضًا في الترمذي وعند أبي داود[(٢)] من حديث عبد الله بن عمرٍو قال: قيل لرسول الله ﷺ: أيُّ الناس أفضل؟ قال: «**كلُّ مخموم القلب، صدوق اللسان**». قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: «**هو التقيُّ النقيُّ، لا إثم فيه، ولا بغي، ولا غل، ولا حسد**».

وفي «صحيح مسلم»[(٣)] من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**تُفْتَحُ أبوابُ الجنَّة يوم الإثنين ويوم الخَميس، فيُغْفر لكلِّ عبدٍ لا يشرك بالله شيئًا إلا رجلًا كانت بينه وبين أخيه شحناء** -في قلوبهما حقدٌ وبغضاء- **فيُقَال: أَنْظِرُوا هذين حتىٰ يصطلحا، أنظروا هذين حتىٰ يصطلحا، أنظروا هذين حتىٰ يصطلحا**».



(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٤١٣)، والطبرانيُّ في «الكبير» (١٣٠٠٤)، وَضعَّفه الألبانيُّ في «الضعيفة» (٢٨٣١).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٩٤٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٥)، باب النهي عن الشحناء والتهاجر.

الفصل السادس

علاج الحقد

كما تقدَّم لا بد من الوقوف علىٰ سبب الحقد، ومن ثَمَّ يمكن التَّخلُّص منه بعد الاستعانة بالله تعالىٰ، فالغَضبُ هو سبب الحقد الرئيسُ، فلن تستطيع أن تخلص القلب من مرض الحقد، أو تَحُول بينه وبين قلبك إلا إذا تمكَّنت من علاج مرض الغضب؛ لأنها أمراض يترتب بعضها علىٰ بعضٍ، فإن لم تتخلص من الغضب، تولد عنه الحقد ولا شك، فهذه هي أول وأهم خطوةٍ في العلاج.

قال العلماء: أمَّا علاج الحقد، فيكمن أولًا في القضاء علىٰ سببه الأصلي وهو الغضب، فإذا حدث ذلك الغضب، ولم تتمكَّن من قمعه بالحِلم، وتذكُّر فضيلة كظم الغيظ ونحوهما، فإنَّ الشعور بالحقد يحتاج إلىٰ مجاهدة النفس، والزهد في الدنيا، وعليه أن يحذر نفسه عاقبة الانتقام، وأن يعلم أن قدرة الله عليه أعظم من قدرته علىٰ غيره، وأنه سبحانه بيده الأمر والنهي، لا رادَّ لقضائه، ولا مُعقِّب لحكمه، هذا من ناحية العلم.

أمَّا من ناحية العمل، فإنَّ مَن أصابه داء الحقد فإن عليه أن يكلف نفسه أن يصنع بالمحقود عليه ضد ما اقتضاه حقده، وذلك باتباع ما يلي:

أولًا: يبدل ذمه للمحقود عليها مدحًا ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلًا.

ثانيًا: يبدل تكبُّره علىٰ المحقود عليه تواضعًا، ولين الجانب ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلًا.

ثالثًا: يحب لغيره من المسلمين ما يحبه لنفسه، فكما يحب أن يعامله الناس بالحسنىٰ، فليعامل الناس هو أيضًا بالحسنىٰ.

رابعًا: علىٰ المحقود عليه إن كان عاديًا علىٰ غيره أن يقلع عن غيِّه، ويصلح من فساده وسيرته.

خامسًا: علىٰ المحقود عليه أيضًا أن يرضي بقدر استطاعته الحاقد إذا علمه، ويرضيه ويُطيِّب خاطره.

سادسًا: علىٰ الحاقد أن يقبل عذر مَن أغضبه، ويُقيل عَثرته، ويعفو عن زلته.

قال أبو حاتم: «الاعتذار يُذهب الهموم، ويُجلي الأحزان، ويدفع الحقد، ويذهب الصد، فلو لم يكن في اعتذار المرء إلىٰ أخيه خصلة تحمد إلا نفي التعجب عن النفس في الحال، لكان الواجب علىٰ العاقل ألَّا يفارقه الاعتذار عند كل زلةٍ».

وعلىٰ الحاقد والمحقود عليه الإخلاص لله تعالىٰ في القول والعمل.

سابعًا: الدعاء: أن يدعو المسلم ربَّه أن يُطهِّر قلبه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: ١٠].

روىٰ البخاري[(١)] في «الأدب المفرد» بسند صحيح عن ابن عباس قال: سمعتُ النبي ﷺ يدعو بهذا: «**ربِّ أعني ولا تُعِنْ عليَّ، وانصرني ولا تنصر عليَّ، وامكر لي ولا تمكر عليَّ، ويسِّر لي الهدىٰ، وانصرني علىٰ مَن بغىٰ عليَّ، ربِّ اجعلني شكَّارًا لك، ذكَّارًا لك، راهبًا لك، مطواعًا لك، مخبتًا لك، أوَّاهًا منيبًا، تقبَّل توبتي، واغسل حَوبتي، وأجب دعوتي، وَثبِّت حُجَّتي، واهدِ قلبي، وسدِّد لساني، واسلل سخيمة قلبي**». انتهىٰ من «نضرة النعيم»[(٢)] بتصرفٍ.

---

(١) (٦٦٥).

(٢) (١٠/ ٤٤٣٢).

ثامنًا: ومن علاج الغضب: الإخلاص، ومناصحة أولياء الأمر، ولزوم جماعة المسلمين:

روىٰ الإمام أحمد[(١)] من حديث معاذٍ، ومن حديث أنس بن مالكٍ وغيرهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**ثلاثٌ لا يغلُّ عليهنَّ قلب المؤمن: إخلاص العمل، وطاعة ذوي الأمر، ولزوم الجماعة، فإنَّ دعوتهم تكون من ورائه**».

فهذه الثلاثة إن اجتمعت في قلب امرئٍ، يستحيل أن يبقىٰ فيه غلٌّ، فعلاج الحقد ببساطةٍ أن تجمع هذه الأمور الثلاثة في قلبك.

وقد لا يرىٰ المرء من أول وهلةٍ أي علاقة للإخلاص، ومناصحة ولاة الأمور، ولزوم جماعة المؤمنين بالغل، وحتىٰ إنْ لم نقف علىٰ الحكمة من هذا التوجيه وندركها، فحَسْبنا أنَّ النَّصَّ الشرعيَّ قد أمرنا بذلك[(٢)]، ولكن نُبيِّن بعض الأمور المتعلقة بهذه التوجيهات:

إخلاص العمل لله:

فكُلَّما أخلص العبد العمل لله، وفَّقه الله عَزَّوَجَلَّ للخير، لذلك علينا بين الحين والحين أن نراجع نياتنا وإخلاصنا في العمل، فإن كان فيه أي شائبةٍ، عجلنا بالتقاطها ورميها بعيدًا، وإن كان لا يزال سليمًا، حمدنا الله، وسألناه السلامة حتىٰ نلقاه.

مناصحة أولياء الأمر:

أولو الأمر يدخل فيهم كل مَنْ ولَّاه الله أمرًا من أمور المسلمين، وليس المقصود هو الخليفة، أو السلطان فقط، والمناصحة من النُّصح، وهي دلُّ الغير علىٰ الخير،

---

(١) «المسند» (١٦٧٥٤).

(٢) وعلىٰ وجه العموم كلما استقام العبد علىٰ شريعة الله ظاهرًا وباطنًا، كان أبعد عن هذه الأمراض، ونقىٰ الله قلبه منها.

وعلاقة ذلك بعلاج مرض الحقد أنَّ المرء إذا رأىٰ من ولاة الأمور شيئًا من التجاوزات أغضبه، فهو لا يستطيع أن ينتقم منهم؛ لا في الحال، ولا بعد ذلك، فيترتب علىٰ ذلك أن يرجع الغضب إلىٰ قلبه، ويحتقن ويتولَّد عنه الحقد، ويكون علاج ذلك في معاملة نفسك الأمَّارة وشيطانك بعكس مرادهما بأن تنصح هؤلاء الوُلَاة بالضَّوابط الشرعية، وعَدم ذكر مَسَاويهم، والتشهير بهم، كما سبق أن بيَّنَّا أن من علاج سوء الظن أن تحاول جاهدًا أن تحسن إلىٰ مَن أسأت به الظن، فكذلك نفعل في مرض الحقد.

وينبغي الانتباه إلىٰ أن من جملة مناصحة ولاة الأمور: عدم إظهار عيوبهم أمام الناس، فهذا أمرٌ لا يجوز بحالٍ، وقد روىٰ مسلم[1] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون ما الغيبة؟**». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**ذِكْرك أخاك بما يكره**». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إِنْ كَانَ فيه ما تقول، فقد اغتبتَه، وإن لم يكن فيه، فقد بهتَّه**»، فالأمران شرٌّ كبيرٌ، فإظهار العيوب ونشرها أمام الناس مخالفةٌ شرعيةٌ في ذاتها، فضلًا عما يترتب عليها من سوءٍ، وَذِكْرُكَ وليِّ الأمر بالسوء غيبةٌ ولا شكَّ، فهو لا يقبل علىٰ نفسه هذا القول مهما كان سَيِّئًا.

روىٰ ابن أبي عاصم في «السُّنة»[2] بسند صحيح عن معاوية بن أبي سفيان قال: لمَّا خرج أبو ذرٍّ إلىٰ الربذة، لقيه ركبٌ من أهل العراق، فقالوا: يا أبا ذرٍّ، قد بلغنا الذي صنع بك، فاعقد لواءً يأتك رجال ما شئت. قال: مهلًا مهلًا يا أهل الإسلام، فإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**سيكون بعدي سلطان فأعزوه، مَن التمس ذلَّه، ثغر ثغرةً في الإسلام، ولم يقبل منه توبة حتىٰ يعيدها كما كانت**».

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٥٨٩).

(٢) (١٠٧٩).

وقد يحتجُّ أحد بما ذكره النووي بجواز الغيبة في ست حالاتٍ، من جملتها: أن يتكلم الرجل عند مَن يرجىٰ منه تغيير المنكر، أو إزالة الظلم بأن يقول: ما تقول في كذا، أو ما تقول فيمن يفعل كذا؟ من غير أن يُسمِّيه حتىٰ يأخذ منه الفتوىٰ، وأمَّا إن كان يعلم تمام العلم أنه سيُغيِّر هذا المنكر، ويزيل هذا الفساد، فله أن يُسمِّيه، فيقول: فلان بن فلان وقع منه ظلم كذا. ولَكن مَا يحدث إنَّما هو تشغيبٌ علىٰ أولياء الأمور، وإظهارٌ لما عندهم من مخالفاتٍ وسقطاتٍ وظلمٍ وجورٍ، ولا يترتب علىٰ ذلك إلا أن تُوغِرَ صدور الرعية تُجَاه السلطان، بل قد يكون ذلك فتحًا للباب أمام عامة الناس لأن يسترسلوا في الفساد؛ اقتداءً بكبرائهم، وهذه الحالة لا تدخل فيما ذكَره النووي.

لزوم جماعة المسلمين:

وهذا أمرٌ مهمٌّ جدًّا، وليس معنىٰ لزوم جماعة المسلمين أن يتخذ المسلم صحبةً يظل معها بالليل والنهار، ولكن المعني بذلك -كما قال أهل العلم- أن يتخلَّق المرء بأخلاق جماعة المسلمين، ويعتقد اعتقادهم، ويعبد الله كما يعبدوه، فيَسلك السبيل الذي يسلكونه في المعاملات والأخلاق والآداب.

في «الصَّحيحين»[(١)] من حديث حذيفة بن اليمان أنه قال: كان النَّاس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنتُ أسأله عن الشَّرِّ مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنَّا كنا في جاهليةٍ وشرٍّ، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شرٍّ؟ قال: «**نعم**»، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خيرٍ؟ قال: «**نعم، وفيه دَخَنٌ**»، قلت: وما دخنه؟ قال: «**قوم يَهْدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر**»، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شرٍّ؟ قال: «**نعم، دعاة إلىٰ أبواب جهنَّم، مَنْ أجابهم إليها قذفوه فيها**»، قلت: يا

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

رسول الله، صِفْهم لنا. فقال: «**هُمْ من جِلْدتنا، ويتكلَّمون بألسنتنا**»، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**»، قلت: فإن لم يكن لهم جماعةٌ، ولا إمامٌ؟ قال: «**فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تَعضَّ بأصل شجرةٍ حتىٰ يدركك الموت وأنت علىٰ ذلك**»[(١)].

وعلىٰ المسلم أن يتعلَّم اعتقاد أهل السنة والجماعة جيدًا، ويمسك عليه، ولا يحيد عنه، وَإنْ وجد عنده أي انحرافٍ عنه، عدَّله، وكذلك في العبادات عليه أن يلزم منهج أهل السنة والجماعة، ويعلم أنَّهم أقاموها علىٰ شرطين أساسيين، هما: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، والمتابعة للنَّبيِّ.

وأيضًا في المعاملات عليه أن يلزم منهجهم، ويتعلم كيف كانوا يتَّقون الربا والمحرمات، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه: «كنَّا ندع تسعة أعشار الحلال مخافةً من الوقوع في الحرام»[(٢)]، وكذلك في كلِّ فروع الشريعة، حتىٰ يطهر الله القلب من الحقد والغل بلزوم جماعة الحقِّ.

تاسعًا: ومن علاج الحقد: إحسان الحاقد إلىٰ المحقود عليه:

فهذه من جملة علاجات الحقد، أن تُحْسن لمَنْ تحقد عليه؛ سواء بالقول أو

---

(١) والمراد من هذا الكلام -والله تبارك وتعالىٰ أعلىٰ وأعلم- أن النَّبيَّ ﷺ أرشد حذيفة إلىٰ أن يبتعد عن كلِّ هؤلاء الناس، ولا يحتك بأحدٍ منهم، ولا يخالطهم حتىٰ يأتيه الموت وهو منفرد ليس معه أحدٌ قط، ومعنىٰ هذا ألَّا يتبع المخالفات والانحرافات والبدع التي عند هؤلاء القوم، ولا يشاركهم فيها، ولا يكثر سوادهم.

(٢) وروىٰ عبد الرَّزَّاق في «مصنفه» (١٤٦٨٣) بسندٍ صحيحٍ من حديث عبد الله بن يزيد الخطمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه بعث غلامًا له بأربعة آلافٍ إلىٰ أصبهان -أي: ليتاجر له- ثمَّ بلغه أنه مات، فركب إليه -أو أرسل إليه- فوجد المال قد بلغ أربعةً وعشرين ألفًا، فقيل له: إنه قد كان يقارب المال الربا، فأخذ أربعة آلاف -رأس ماله- وترك عشرين ألفًا، فقيل له: خذه، فقال: ليس لي، فقيل: هبه لنا، فتركه ولم يأخذه.

الفعل حسَب الاستطاعة، وهذا نوعٌ عالٍ من أنواع المجاهدة، أن تحمل نفسك علىٰ الثناء علىٰ رجلٍ امتلأ قلبك حقدًا عليه، ولا يفعل ذلك إلا خواص هذه الأمة، وورثة الأنبياء والمرسلين، فهذه مجاهدةٌ عظيمةٌ قَلَّ مَنْ يصل إليها، وإن كانوا قليلين في الحقيقة، ولكنهم عند الله ﷻ في أعلىٰ عليِّين، فجاهد نفسك، وأحسن وانصح، وابذل المعروف لمَن تحقد عليه حتىٰ يرىٰ منك الشيطان وترىٰ نفسك الأمارة عكس مرادهما، فيكفَّا عن أمرك بالسوء.

مسألة: هل يحسن المظلوم إلىٰ الظالم؟

إذا ظلمك أحدٌ ظلمًا بَيِّنًا، فلا شكَّ أنه قد أغضبك، وحينها إمَّا أن تحاول الانتقام منه إن كنت تستطيع ذلك، أو إن كان مَنْ ظلمك ذا سلطةٍ، أو أعلىٰ منك مكانةً ونفوذًا، فإنك تحزن بسبب هذا الظلم، ولكن اتباع هذه الخطوات قد يؤدِّي في النهاية بالمرء إلىٰ الوقوع في مرض الحقد، والعياذ بالله.

لذلك، فالتصرف الصحيح في هذه الحالة أن تمتثل الحديث الذي رواه الترمذي[(١)]، وصحَّحه الألبانيُّ من حديث أبي كبشة الأنماري أن النبي ﷺ قال: «**ثلاثةٌ أقسم عليهنَّ، وأُحدِّثكم حديثًا فاحفظوه، قال: ما نقص مال عبدٍ من صدقةٍ، ولا ظلم عبد مظلمة، فصبر عليها** -وفي روايةٍ: فيغضي عنه الله ﷻ، أي: يعفو عنها- **إلا زاده الله عزًّا، ولا فتح عبدٌ باب مسألةٍ إلا فتح الله عليه باب فقرٍ**»، أو كلمة نحوها. الحديث.

فلا شكَّ أنَّ الصبر علىٰ الظلم، والعفو عن الظالم، خيرٌ للمظلوم، وعزٌّ له، فعلىٰ الإنسان أن يستعين بالله ﷻ، وأن يعلم أنَّ ما عند الله خيرٌ وأبقىٰ[(٢)]، وأمَّا إذا لم يستطع

---

(١) «سنن الترمذي» (٢٣٢٥).

(٢) وتذكر حديث النبي ﷺ الذي مرَّ: «**ليس الشَّديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند** =

أن يعفو ويكظم غيظه، فقد خالف الشرع، وسيترتَّب علىٰ ذلك حقد في قلبه.

وإن قال قائلٌ: فَلِمَ يستجيب الله دعوة المظلوم علىٰ الظالم إذا كان المظلوم ما استجاب للشرع في فعلتِهِ هذه؛ إذ دعا الشرع إلىٰ التسامح والعفو؟

فالجواب عليه: أن الشرع بالفعل قد سمح للمرء أن يعاقب بمثل ما عوقب به، فقال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦]، ولكن إِنْ لم يستطع أن يحكم أمره ليعاقب الذي آذاه بمثل ما عوقب به سواء بسواء، فالشرع هنا يُفرِّق بين غضب المظلوم بسبب الظلم، وبين طلب الحق، فلا نخلط بين الأمرين، فكظم الغضب وطرده من القلب لا يعني ترك العبد حقه، أو عدم الدعاء علىٰ الظالم، فهذا جائزٌ، ويستجيب ربُّنا عَزَّوَجَلَّ بإذنه.

عاشرًا: ومن الأدوية النافعة لعلاج الحقد: الوقوف علىٰ أضراره، ومنها:

(١) الحقد يُفْضي إلىٰ التَّنازع والتَّقاتل، واستغراق العمر في غَمٍّ وحزنٍ.

(٢) الحقد مرض عضال من أمراض القلب، يخشىٰ معه أن يتسرَّب الإيمان من هذا القلب المريض.

(٣) الأحقاد نزغٌ من عمل الشيطان، لا يستجيب له إلا مَن خفَّت أحلامهم، وطاشت عقولهم.

(٤) الحقد مصدرٌ للعديد من الرذائل، مثل: الحسد والافتراء والبهتان والغيبة.

= **الغضب»**، فهذا الحديث نحفظه جميعًا، ولكن تنفيذه وإظهاره في الواقع العملي قليل، فهل تتمكَّن من نفسك، وتكظم غيظك إذا شتمك رجل –مثلًا– بدون سببٍ، فإنَّ ما يتيحه لك الشرع حينئذٍ أن تقول له: أنا لستُ كذلك، أو أقصىٰ شيءٍ أن تقول له: بل أنت كذلك إن كان حقًّا كذلك، ولكن الذي يحدث في الحقيقة أكثر من ذلك بكثيرٍ، وهنا تفرق بين إذلال النفس وإهانتها وبين التحكُّم في النفس، وطهارة القلب، والسمو في مكارم الأخلاق.

(٥) في الحقد دليلٌ علىٰ غباء صاحبه ووَضاعته؛ لأنه ينظر إلىٰ الأمور نظرةً قاصرةً لا تجاوز شهواته الخاصة.

(٦) الحقد يُغضب الربَّ عَزَّوَجَلَّ، ويؤدي بصاحبه إلىٰ الخسران المبين في الدنيا والآخرة.

(٧) الحاقد قلق النفس دائمًا، لا يهدأ له بالٌ طالما رأىٰ نعمة الله يسعد بها سواه.

(٨) الحاقد ساقط الهمَّة، ضعيف النفس، واهن العزم، كليل اليد.

(٩) الحاقد رجلٌ مضللٌ ضائعٌ، مخطئٌ في تقديره، فهو محصور التفكير في الدنيا ومتاعها، ويتبع بالغيظ مَنْ نال منها حظًّا أوفر.

(١٠) الحاقدُ جاهلٌ بربِّه وبسننه في هذا الكون؛ لأن لله حِكَمًا قد لا تظهر في التَّوِّ واللحظة، وقَدْ يكون ما ظنَّه الحاقد نعمةً فاتته، وأدركت غيره، مجرد ابتلاءٍ واختبارٍ تجلب علىٰ صاحبها من العناء ما لا يطيقه الحاقد الذي يتمناها.

(١١) الحقد يُظهر عيوب الإنسان، ويكشف عن الداء الدفين فيه. انتهىٰ من «نضرة النعيم»[1].

قال بعض العلماء: ليس أَرْوح للمرء، ولا أطرد لهمومه، ولا أقر لعينه من أن يعيش سليم القلب، مُبرَّأ من وساوس الضغينة، وثوران الأحقاد، إذا رأىٰ نعمةً تنساق لأحدٍ، رضي بها، وأحسَّ فضل الله فيها، وفقر عباده إليها، وإذا رأىٰ أذًىٰ يلحق أحدًا من خَلق الله، رثىٰ له، ورجا الله أن يُفرِّج كَرْبه، ويغفر ذنبه، وبذلك يحيا المسلم ناصع الصفحة، راضيًا عن الله، وعن الحياة، مستريح النَّفس من نَزَعات الحقد الأعمىٰ،

(١) (١٠/ ٤٤٤٠)، وما قبلها.

ذلك أنَّ فسادَ القلب بالضغائن داءٌ عضالٌ، وما أسرع أن يتسرَّب الإيمان من القلب المغشوش كما يتسرَّب السائل من الإناء المثلوم.

إنَّ الشيطان ربما عجز أن يجعل من الرجل العاقل عابدَ صنمٍ، ولكنه -وهو الحريص علىٰ إغواء الإنسان وإيراده المهالك- لن يعجز عن المباعدة بينه وبين ربِّه حتىٰ يجهل حقوقه أشد مما يجهلها الوثني المخرف، وهو يحتال لذلك بإيقاد نار العداوة في القلوب، فإذا اشتعلت، استمتع الشيطان برؤيتها وهي تحرق حاضر الناس ومستقبلهم، وتلتهم علائقهم وفضائلهم، ذلك أن الشَّرَّ إذا تمكَّن من الأفئدة الحاقدة، تنافر وُدُّها، وارتد الناس إلىٰ حالٍ من القسوة والعناد، يقطعون فيها ما أَمَرَ الله به أن يُوصَل، ويُفْسدون في الأرض.

إنَّ الحقدَ هو المصدرُ الدفينُ لكثيرٍ من الرذائل التي رهَّب منها الإسلام، فالافتراءُ علىٰ الأبرياء جريمةٌ يدفع إليها الكره الشديد (الحقد)، وقد عدَّها الإسلام من أقبح الزُّور، أما الغيبة فهي مُتنفَّس حقد مكظوم، وصدر فقير إلىٰ الرحمة والصفاء.

ومن لوازم الحقد: سوء الظن، وتتبع العورات، واللمز، وتعيير الناس بعاهاتهم، أو خصائصهم البدنية، أو النفسية، وقد كره الإسلام ذلك كله كراهيةً شديدةً.

إنَّ جمهور الحاقدين تغلي مراجل الحقد في أنفسهم؛ لأنهم ينظرون إلىٰ الدنيا، فيجدون ما تمنَّوه لأنفسهم قد فاتهم، وامتلأت به أكفٌّ أخرىٰ، وهذه هي الطامَّة التي لا تَدَع لهم قرارًا، وهم بذلك يكونون خلفاء إبليس -الذي رأىٰ أن الحظوة التي كان يتشهَّاها قد ذهبت إلىٰ آدم- فآلىٰ ألَّا يترك أحدًا يستمتع بها بعدما حُرمها، وهذا الغليانُ الشيطانيُّ هو الذي يضطرم في نفوس الحاقدين، ويفسد قلوبهم، فيُصْبحون

واهني العزم، كَلِيلِي اليد، وكان الأجدر بهم أن يَتَحوَّلوا إلىٰ ربهم يسألونه من فضله، وأَنْ يجتهدوا حتَّىٰ ينالوا ما ناله غيرهم، إذ خزائنه سبحانه ليست حكرًا علىٰ أحدٍ.

والتطلُّع إلىٰ فضل الله عَزَّوَجَلَّ مع الأَخْذ بالأسباب هي العمل الوحيد المشروع عندما يرىٰ أحدٌ فضل الله ينزل بشخصٍ معينٍ، وشتَّان ما بين الحسد والغبطة، أو بين الطموح والحقد. انتهىٰ[1].

(١) «نضرة النعيم» (١٠/ ٤٤٣٣).

الباب التاسع

مرض النفاق

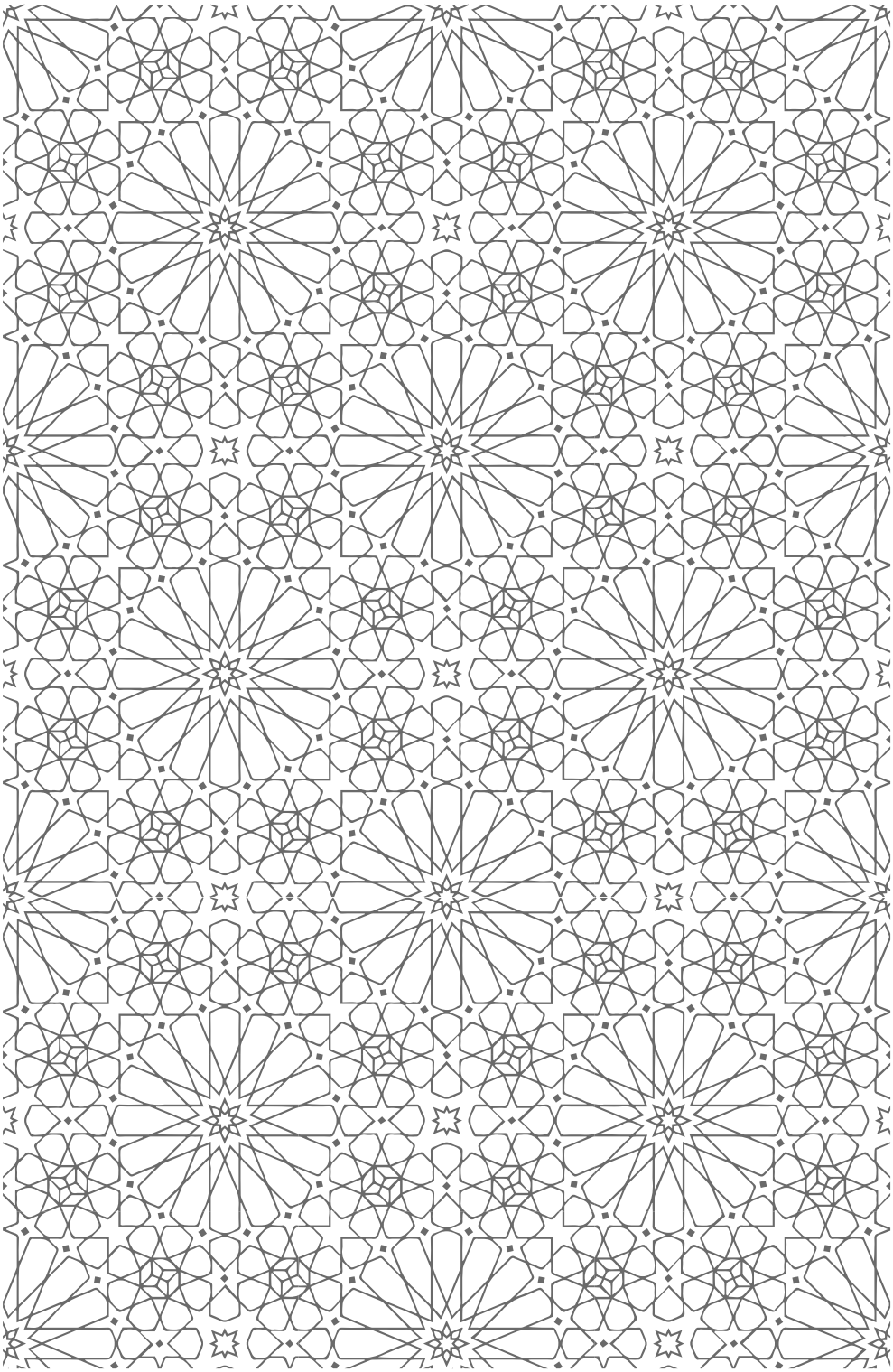
وفيه أربعة فصولٍ:

الفصل الأول: مرض النفاق (تعريفه، أقسامه، حكمه).

الفصل الثاني: علامات النفاق الأكبر.

الفصل الثالث: علامات النفاق الأصغر.

الفصل الرابع: أصول النفاق العملي.



الفصل الأول

مرض النفاق (تعريفه، أقسامه، حكمه)

مقدمة عن مرض النفاق:

مرض النفاق مرض خطير وشديد، وإشكالية هذا المرض عمَّا سبق من الأمراض أن مَن تلبس به، خرج من الملة، وهذا المرض وإن كان موطنه القلب، وما في القلب لا يطَّلع عليه إلا الرب ﷻ، إلا أنه توجد بعض الأمارات والدلالات ذكرها العلماء والفقهاء إذا صدرت من الرجل، دلت علىٰ أن هذا المرض في القلب، ونحن -إن شاء الله تعالىٰ- نُحْسن الظن بكل ممَّن أظهر خيرًا من المسلمين، وإنما الغرض من ذِكْره هنا أن نُنبِّه علىٰ هذه العلامات التي قد توجد في قلب البعض، وهو لا يشعر، وإن كان لا يحكم عند ظهورها مطلقًا بالخروج من الملة إلا بعد إقامة الحجة التي لا يعذر مَن أقيمت عليه -وهذا مهمٌّ جدًّا، وسيأتي إن شاء الله تعالىٰ، فالغرض من هذا المبحث أن يجتهد العبد إذا ظهرت عليه علامة من علامات النِّفاق المذكورة أن يبادر بالإقلاع عنها قبل فوات الأوان.

أقسام مرض النِّفاق وتعريفه:

أقسام النفاق:

ذكر الحافظ ابن رجبٍ[(١)] أن النفاق ينقسم شرعًا إلىٰ قسمين:

أحدهما: النفاق الأكبر، وهو أن يُظْهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كله، أو بعضه، وهذا هو النفاق الذي

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٨١).

كان علىٰ عهد رسول الله ﷺ، ونزل القرآن بذمِّ أهله وتكفيرهم، وأخبَر أن أهله في الدرك الأسفل من النار.

والثاني: النفاق الأصغر، وهو نفاق العمل، أي: متعلق ببعض أعمال الجوارح، كالكذب والغدر ونحوها.

وهذا التقسيم هو الأقرب للصواب لسببين:

الأول: لأنَّ النفاق الأكبر لا يختصُّ بالجانب الاعتقادي فقط، ولذلك حين ذكر القرآن صفات المنافقين، ذكر منها تنقيصهم للرسول ﷺ، وسخريتهم بالمؤمنين، ومناصرتهم للكفار، ونحو ذلك، وهذه الأمور وإن اقترنت -غالبًا- بفسادٍ اعتقاديٍّ إلا أن ذلك ليس بلازمٍ (أي: ليس بلازمٍ أن من تصدر منه هذه الأمور أن يكون عنده نفاق عقدي).

الثاني: ليس كل نفاق اعتقادي يُخْرج من الملة، فقد يكون ذلك من جنس يسير الرياء ونحوه.

قال ابن رجب في «جامعه»[1]: ومن أعظم خصال النفاق العملي: أن يعمل الإنسان عملًا، ويظهر أنه قصد به الخير، وإنما عمله ليتوصل به إلىٰ غرضٍ له سيئٍ، فيتم له ذلك، ويتوصل بهذه الخديعة إلىٰ غرضه، ويفرح بمكره وخداعه، وحمد الناس له علىٰ ما أظهره، وتوصل به إلىٰ غرضه السيئ الذي أبطنه.

والنفاق إذا أطلق ذِكْره في القرآن، فإن المراد به النفاق الأكبر المنافي للإيمان بخلاف الكفر، فإنه يأتي -أحيانًا- بمعنىٰ الكفر الأصغر، وكذلك الظلم والفسق والشرك، أما في السُّنة، فقد ورد النفاق الأصغر.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٩٣).

تعريف مرض النفاق:

قال الإمام ابن رجبٍ الحنبلي[(١)] **عليه رحمة الله**: النفاق في اللغة هو من جنس الخداع والمكر، وإظهار الخير، وإبطان خلافه.

والنفاق في الاصطلاح كما قال الإمام الجرجاني[(٢)] -عليه رحمة الله- هو إظهار الإيمان باللسان، وكتمان الكفر بالقلب.

وقد عبَّر الفقهاء بقولهم: هو إظهار الإيمان باللسان (أي: النطق بالشهادتين)، مع كونه من الممكن أن يظهر المنافق الإيمان بجوارحه أيضًا، وذلك لأنَّ من نطق بالشهادتين، نحكم بإسلامه بمجرد النطق بهما، ثمَّ ننظر بعد ذلك في عمله.

وقولهم: «وكتمان الكفر بالقلب»، أَيْ: يبطن في قلبه الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، وهي أركان الإيمان الستة.

إذًا، أخصُّ وأهمُّ ما يميز المنافقين: الاختلاف بين الظاهر والباطن، وبين الدعوىٰ والحقيقة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة: ٨].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: أجمع جميع أهل التأويل علىٰ أنَّ هذه الآية نزلت في قومٍ من أهل النفاق، وأن هذه الصفة صِفتهم[(٣)]، وقد يطلق بعض الفقهاء لفظ الزنديق علىٰ المنافق.

والقاعدة عند أهل السنة: أن الإيمان الظاهر الذي تجري عليه الأحكام في الدنيا لا يستلزم الإيمان الباطن الذي يكون صاحبه من المؤمنين حقًّا.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٨١).

(٢) «التعريفات» (١/ ٢٤٥).

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١/ ٢٦٨).

حكم النفاق:

النفاق إن كان عقديًّا، فهو كفرٌ صراحٌ، بل هو أشدُّ منه، ويترتَّب علىٰ هذا النوع ما يترتب علىٰ الكفر الأكبر من حيث انتفاء الإيمان عن صاحبه، وخلوده في جهنَّم، لكن المنافق أشد عذابًا من الكافر؛ لأنه في الدرك الأسفل من النار إذا مات عليه.

ويدخل في النفاق إجمالًا أيضًا: المداهنة، وهي إظهار خلاف ما يضمر. و«الإدهان»: الغش، ودهن الرجل إذا نافق.

وهذا كلُّه في النفاق الأكبر، وهو الذي كان علىٰ عهد النبي ﷺ، وهو المعني في جُلِّ النصوص الشرعية الواردة في ذمِّ النفاق عند الإطلاق، وكل ما ذكَره الله تعالىٰ عن المنافقين في القرآن المعني به هو النفاق الأكبر.

ومن الممكن أن يعدَّ العلماء علامةً أتت في أهل النفاق العقدي أنها من النفاق الأصغر؛ كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢].

قال أهل العلم: هي في أهل النفاق الأكبر الذين أظهروا الإيمان، وأبطنوا الكفر، ثم ظهرت منهم مثل هذه الأفعال، ومنها ما هو من علامات النفاق الأصغر لا الأكبر؛ لأنَّ المنافقين نفاقًا عقديًّا عندهم علامات النفاق الأكبر، ومن باب أَوْلَىٰ عندهم علامات النفاق الأصغر أيضًا، فهم يكذبون ويخونون الأمانة، ويخلفون الوعد، وهكذا، ولا يقال: مَن قام إلىٰ الصلاة وهو كسلان، منافقٌ خارجٌ عن الملة لمجرد هذا، فالمنافقون المذكورون في الآية الأصل فيهم النِّفاق الاعتقادي، والله ﷻ يقصُّ علينا شيئًا من أخبارهم، فإن قام مسلم إلىٰ الصلاة وهو كسلان لاعتبارات معينة، ولكن في قلبه الإيمان، فهذا ليس منافقًا نفاقًا أكبر، ولكن تشبَّه بصفة ذميمة ينبغي أن يتركها، ويتخلَّىٰ عنها.



الفصل الثاني

علامات النفاق الأكبر

مقدمة عن النفاق الأكبر وعلاماته:

ظهور مرض النفاق علامة علىٰ قوة المسلمين:

فرافعُ هذه الراية هو عبد الله بن أُبي بن سلول، وهو أول مَن أظهر هذا النفاق بعد غزوة بدرٍ، فدخل الإسلام ظاهرًا، وأبطن في قلبه كل حقد وضغينة تجاه الإسلام والمسلمين، فظهور عبد الله بن سلول ورفاقه علىٰ عهد رسول الله ﷺ دليل علىٰ قوة شكيمة المسلمين.

ولذلك، نقول بأنَّ ظهور مرض النفاق في المجتمع ظاهرة تدلُّ علىٰ قوة شكيمة المسلمين، أما إن أفصح الفاجر عن فجوره، والمنافق عن نفاقه، والملحد عن إلحاده، فاعلم أنَّ الأُمَّة قد ضعفت وهانت جزاءً وفاقًا، وأنتَ إذا نظرتَ علىٰ مدار التاريخ تجد أن الجميع في عصورٍ معينةٍ كانوا يجلون الإسلام والمسلمين، ويحترمون رسول المسلمين ﷺ، ويتكلمون بخيرٍ وإن كانت قلوبهم مليئةً بكل حقدٍ وشرٍّ علىٰ الإسلام وأهله، وإنما يظهر الخير إجلالًا واحترامًا للمسلمين، فلما ضعفت الشوكة، وقلَّت الشكيمة، وانهارت الأمة، ما عاد ذلك يحدث.

وكثيرٌ من الناس اليوم تَزيَّا بزيٍّ آخر، وتسمَّىٰ باسمٍ آخر، ولكن مُسمَّاه الحقيقي هو النفاق، ومن هؤلاء مَنْ يدعون إلىٰ الحداثة، وتجديد الخطاب الديني، وتقديس العلم، وتأليه العقل، وهذه الأشياء كلُّها مرادفة للنفاق الاعتقادي.

ولذلك، قص علينا ربنا -جلَّ وعلا- من خَبَرهم في نَصٍّ مُحْكمٍ من سورةٍ

سُمِّيت باسمهم، فقال عزَّ من قائل: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١]، والتكذيب هنا في مقولة القلب لا في مقولة اللسان، والنِّفاق في الآية السابقة هو النفاق الاعتقادي، فَهُمْ أظهروا الإسلام بشهادتهم أنَّ النَّبيَّ ﷺ رسول الله، ولكنَّ الله كذَّبهم في ادِّعائهم الإسلام.

حكم من صدر منه شيء من علامات النفاق الأكبر:

ينبغي أن نعلم: هل هذه العلامات التي سنذكرها صدرت من المنافقين؛ لأنهم منافقون، أو لما صدرت منهم هذه العلامات وصفوا بالنفاق؟

والجواب -كما ذكَر شيخ الإسلام ابن تيمية عليه رحمة الله- أنَّ هؤلاء القوم (أي: المنافقين) هُمْ في الأصل منافقون نفاقًا أكبر، فعبد الله بن سلول -مثلًا- دخل في الإسلام هو ومَن معه نفاقًا، وعاشوا في المدينة، ثم بدأت تصدر منهم هذه الأمور التي وصَفها الله عَزَّوَجَلَّ، فهذه الأشياء صدرت منهم؛ لأنهم منافقون، لا لما صدرت منهم وُصفوا بأنهم منافقون، فالنفاق كان موجودًا في الأصل.

لذلك، لو أن إنسانًا فعل فعلةً من أفعالهم، والأصل فيه أنه مسلم، لقلنا له: تشبهت بأصحاب النفاق الاعتقادي، ويُخْشىٰ عليك أن تقع فيه، وتُقَام عليه الحجة، ويُنبَّه أن ما يقوله، أو يفعله نفاقًا أكبر، فَإِنْ أصرَّ، طبقت عليه الأحكام، وهو من الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ۖ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: ١٤٥][1]، وَإِنْ تاب، تاب الله عليه، فلا يُحْكم عليه بالنفاق الاعتقادي إلا بعد إقامة الحجة.

---

(١) تمامًا مثل الأفعال الشركية والكفرية -أفعال الكافرين والمشركين- فهي علامة أكيدة علىٰ وجود مرض الشرك أو الكفر في القلب، ولكن نقول: لعله يجهل مثلًا، والعذر بالجهل من أصول منهج أهل السنة والجماعة.

ولما استعرض العلماء الآيات الواردة في النفاق في القرآن، وأحوال المنافقين مع النبي ﷺ؛ إِذْ كانوا يعيشون معه ﷺ في مجتمع المسلمين -والنبي ﷺ كفَّ يده عنهم- وجدوا تسع علامات دلت عليها الأدلة الشرعية من الكتاب والسُّنة، نتدارسها واحدةً تلو الأخرىٰ مع إسقاطها علىٰ الواقع العملي في حياتنا[(١)]، وهي علىٰ وجه الإجمال:

١. الاستهزاء بالله عَزَّوَجَلَّ، وبآياته، وبرسوله ﷺ، وبالمؤمنين.

٢. عدم التحاكم إلىٰ شريعة الله عَزَّوَجَلَّ، وقد يتحاكمون إليها إذا كان القضاء في صالحهم.

٣. موالاة غير المسلمين ومظاهرتهم ضد الإسلام وأهله.

٤. المسرة بانخفاض دين الرسول ﷺ، أو الكراهية بانتصار دين الرسول ﷺ.

٥. بُغض النبي ﷺ، أو بُغض بعض ما جاء به.

٦. تكذيب النَّبيِّ ﷺ في كلٍّ، أو بعض ما جاء به.

٧. إيذاء النبي ﷺ بأي نوعٍ من أنواع الإيذاء المعنوي، أو الحسي.

٨. عدم اعتقاد وجوب تصديق النبي ﷺ في كلِّ ما أخبَر.

٩. عدم اعتقاد وجوب طاعة النَّبيِّ ﷺ في كلِّ ما أمر.

قال شيخ الإسلام[(٢)]: «فأما النفاق المحض الذي لا ريب في كفر صاحبه، فإنه لا يرىٰ وجوب تصديق الرسول ﷺ فيما أخبَر به، ولا وجوب طاعته فيما أمَر به، وإن

---

(١) فلابد للمسلم أن يعلم ما نحن عليه في هذا العصر، وما يجري حوله، كما قال حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عرفت الشر لا للشر، ولكن لتوقيه، ومن لم يعرف الشر من الخير يقع فيه»، فلا تنخدع، فأهل الضلالة الآن من العلمانيين وغيرهم لا يستطيعون أن يُظْهروا كل ما عندهم؛ خوفًا من عامة الناس، ولما بقي في المسلمين من شكيمةٍ، فيتكلمون بمعسول الكلام مخادعةً.

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٦٣٩).

اعتقد مع ذلك أنَّ الرسول عظيم القدر علمًا وعملًا، وأنه يجوز تصديقه وطاعته، لكنه يقول: إنه لا يضر اختلاف الملل إذا كان المعبود واحدًا، ويرىٰ أنه تحصل النجاة والسعادة بمتابعة الرسول وبغير متابعته».

أولًا: الاستهزاء بالله ﷻ، وبآياته، وبرسوله ﷺ، وبالمؤمنين:

أي: الاستهزاء بالله ﷻ، أو بالإسلام، أو النبي ﷺ، أو بالمؤمنين، أو بالثواب والعقاب، أو أي شيءٍ ثبتت نسبتُهُ إلىٰ الشريعة؛ سواء كان المستهزئ جادًّا، أو مازحًا.

الفرق بين الاستهزاء والسخرية:

فالاستهزاء لغةً كما قال الإمام الجرجاني عليه رحمة الله: هو طلب الهزء من المهزوء دون أن يصدر من المهزوء شيءٌ، أي: يكون ممن لم يفعل أي شيءٍ أصلًا، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة: ١٤-١٦].

أما السخرية، وهي مشتقة من مادة (س خ ر) التي تدل علىٰ الاحتقار والاستقلال، فهي لا تَصدر من السَّاخر إلا بعد أن يرىٰ من المسخور منه فعلًا، أو قولًا يستحقُّ السخرية وإن كان المسخور منه يراه حقًّا، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة: ٧٩].

ومن جملة الفوارق بين الاستهزاء والسخرية: أن الاستهزاء يكون بالقول فقط، أما السخرية فتكون بالقول والفعل.

روىٰ الشيخان[(١)] عن أبي مسعودٍ، قال: «أُمِرْنا بالصدقة». قال: كنا نحامل. قال: فتصدق أبو عقيل بنصف صاعٍ، قال: وجاء إنسان بشيءٍ أكثر منه، فقال المنافقون: إنَّ الله لغنيٌّ عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رياءً، فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ [التوبة: ٧٩].

قال النووي[(٢)]: «كنا نحامل علىٰ ظهورنا»، معناه: نحمل علىٰ ظهورنا بالأجرة، ونتصدَّق من تلك الأجرة، أو نتصدَّق بها كلها، ففيه التحريض علىٰ الاعتناء بالصدقة، وأنه إذا لم يكن له مالٌ يتوصل إلىٰ تحصيل ما يتصدق به من حمل بالأجرة، أو غيره من الأسباب المباحة.

ففي الحديث أنَّ المنافقين سخروا بعد أن صدر من المسلمين قول، أو فعل، أي: بعد التصدُّق، ولو تكلموا قبل الفعل لكان استهزاءً.

معنىٰ الاستهزاء بالله عَزَّوَجَلَّ:

الاستهزاء بالله عَزَّوَجَلَّ محالٌ، فالله عَزَّوَجَلَّ لا تدركه الأبصار سبحانه، لذلك وجَّهها العلماء عدة توجيهات، هي:

- أن الاستهزاء بالله عَزَّوَجَلَّ هو الاستهزاء بآياته، وبتكليفاته الشرعية.
- أن الاستهزاء بالله عَزَّوَجَلَّ معناه الاستهزاء بأسماء ربنا عَزَّوَجَلَّ وصفاته، ولا نشك أن ما يفعله أصحاب الملاهي من إسماع القوم أسماء الله الحسنىٰ منشودة في بداية أفراحهم هو من هذا الاستهزاء.
- أن معنىٰ الاستهزاء بالله عَزَّوَجَلَّ هو الانتقاص والشك من وفي موعود الله عَزَّوَجَلَّ،

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٦٦٨)، ومسلم (١٠١٨).

(٢) «شرح النووي علىٰ مسلم» (٧/ ١٠٥).

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: ١٢].

قال أصحاب السِّير والمغازي ابن هشام[(١)] وغيره: كان هذا يوم الأحزاب في السنة الخامسة من الهجرة، فقال قائلٌ من المنافقين: يعدنا محمد أن نأكل كنوز كسرىٰ وقيصر، وأحدنا لا يأمن أن يذهب لحاجته! ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا!

حكم المستهزئ بالله ﷻ، أو بآياته، أو برسوله ﷺ، أو بالمؤمنين:

روىٰ الإمام ابن أبي حاتمٍ[(٢)] بسندٍ صحيحٍ من حديث عبد الله بن عمر، قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلسٍ يومًا: ما رأيتُ مثل قُرَّائنا هؤلاء لا أرغب بطونًا، ولا أكذب أَلْسنةً، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجلٌ في المجلس: «هو عوف بن مالك»، كذبت، ولكنك منافق، لأخبرنَّ رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ، ونزل القرآن.

قال عبد الله: فأنا رأيتُهُ متعلقًا بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله، إنَّما كنَّا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: «**أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون**».

قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة: ٦٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾، أي: سألتهم يا محمد ﷺ: ما الذي حَمَلكم علىٰ أن تقولوا هذه الكلمة الخبيثة «ما رأيتُ مثل قرائنا هؤلاء لا أرغب بطونًا، ولا

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٢٢).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ١٨٢٩).

أكذب أَلْسنةً، ولا أجبن عند اللقاء»، فكان من قولهم: «كنَّا نخوض ونلعب، ونتحدَّث حديث الرَّكب لنقطع به الطريق».

دلَّ الحديث علىٰ أن إبلاغ بعض الرعيَّة ولي الأمر عن مقالات المفسدين من المنافقين ودعاة السُّوء الذين يريدون تفريق الكلمة، والتحريش بين المسلمين من أجل الحزم معهم، يُعدُّ من النصيحة الواجبة، وليس هو من النميمة؛ لأنَّ عوف بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعل ذلك، ولم ينكر عليه الرسول ﷺ، فدلَّ علىٰ أن هذا من النصيحة، وليس من النميمة المذمومة.

قال شيخ الإسلام في «الصَّارم المسلول»[1]: هذا نصٌّ في أنَّ الاستهزاء بالله وبآياته وبرسوله كفرٌ، فالسبُّ المقصود بطريق الأولىٰ، وقد دلت هذه الآية علىٰ أن كل مَن تنقَّص رسول الله ﷺ جادًّا، أو هازلًا، فقد كفر.

وقال أيضًا: فهؤلاء لمَّا تنقَّصوا النبي ﷺ حيث عابوه، والعلماء من أصحابه، واستهانوا بخبَره، أخبَر الله أنهم كفروا بذلك وإن قالوه استهزاءً، فكيف بما هو أغلظ من ذلك؟ وإنَّما لم يقم الحد عليهم؛ لكون جهاد المنافقين لم يكن قد أمر به إذ ذاك، بل كان مأمورًا بأن يدع أذاهم، ولأنه كان له أن يعفو عمَّن تنقصه وآذاه.

ويجب أن يعلم أن قول القائل بأن كفر السابِّ في نفس الأمر إنما هو لاستحلاله السَّبَّ زلة منكرة، وهفوة عظيمة، بل السب كفر محض، وإن قال الساب: إن السب حرام واعتقد حرمته.

وقال أيضًا[2] **رحمه الله تعالىٰ رحمةً واسعةً**: قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ

---

(١) «الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول» (١/ ٣١).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٢٧٢).

كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾، فقد أمَره أن يقول لهم: قد كفرتم بعد إيمانكم.

وقول مَن يقول عن مثل هذه الآيات: إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولًا بقلوبهم، لا يصحُّ؛ لأنَّ الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر، فلا يقال: قد كفرتم بعد إيمانكم، فَإِنَّهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر، وَإِنْ أريد أنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان، فَهُمْ لم يظهروا للناس إلا لخَواصِّهم، وهم مع خواصهم ما زالوا هكذا، بل لمَّا نافقوا وحذروا أن تنزل سورة تُبيِّن ما في قلوبهم من النفاق، وتكلموا بالاستهزاء، صاروا كافرين بعد إيمانهم.

وقال أيضًا(١): قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ﴾، ولم يقل: «قد كذبتم في قولكم: إنَّما كنا نخوض ونلعب»، فلم يكذبهم في هذا العذر (وهو الخوض واللعب)، كما كذَّبهم في سائر ما أظهروه من العذر الذي يوجب براءتهم من الكفر كما لو كانوا صادقين، بل بيَّن أنهم كفروا بعد إيمانهم بهذا الخوض واللعب.

وقال أيضًا(٢): وقال القاضي عياض: «جميع مَن سب النبي ﷺ، أو عابه، أو أَلْحقَ به نقصًا في نفسه، أو نسبه، أو دينه، أو خصلة من خصاله، أو عرَّض به، أو شبَّهه بشيءٍ علىٰ طريق السَّبِّ له، والإزراء عليه، أو البغض منه، والعيب له، فهو سابٌّ له، والحكم فيه حكم الساب: يقتل».

وقال ابن القاسم عن مالك: «مَن سب النبي ﷺ قتل، ولم يستتب».

---

(١) «الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول» (١/ ٥١٧).

(٢) «الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول» (١/ ٥٢٥).

قال ابن القاسم: «أو شتمه، أو عابه، أو تنقَّصه، فإنه يُقْتل كالزنديق، وقد فرض الله توقيره».

اعتراضات:

فإن قيل: إن الاستهزاء دليل علىٰ كفر الباطن...

الجواب: قيل: هذا باطل؛ لأنَّ كفر الباطن إن كان موجودًا في قلوبهم قبل أن يقولوا الكلمة، فكيف نفهم قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، فذكر الله تعالىٰ أن الكفر حدث وحصل لهم بعد أن كان عندهم إيمان، وكذلك لا يصح أن يقال: إن الكفر (أي: كفر القلب) كان موجودًا حال قولهم الكلمة؛ لوجود لفظة ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾.

سأل سائلٌ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الراجحي[1] حفظه الله:

هل هذا القول صحيح أم لا: أنَّ سبَّ الله، وسبَّ الرسول ﷺ ليس بكفرٍ في نفسه، ولكنه أمارةٌ وعلامةٌ علىٰ ما في القلب من الاستخفاف والاستهانة؟

الجواب: هذا القول ليس بصحيح، بل هو قول المرجئة، وهو قول باطل، بل إنَّ نفس السب كفر، ونفس الاستهزاء كفر، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، فأثبت لهم الكفر بعد الإيمان بهذه المقالة، ولم يقل: إن كنتم تعتقدون في قلوبكم شيئًا، فالله تعالىٰ أطلق الكفر عليهم بهذه المقالة، فدلَّ علىٰ أن القول بأنَّ كلام الكفر، أو قول الكفر ليس بكفرٍ، بل هو عَلَامةٌ علىٰ ما في القلب، هذا باطلٌ، فالقلب لا يعلم ما فيه إلا الله تعالىٰ، والكفر

---

(١) «أسئلة وأجوبة في الإيمان والكفر» (١/ ٢٥).

يكون بالقلب، ويكون بالقول، ويكون بالعمل، والمقصود: أنَّ هذه المقالة تتمشَّىٰ مع مذهب المرجئة.

وسئل أيضًا[١]: ما رأيكم فيمَن يقول: إنَّ مجرد السجود للصنم ليس كفرًا؟

الجواب: هذا قول المرجئة، يقولون: السُّجود للصنم ليس بكفرٍ، لكنه دليل علىٰ الكفر، والصَّواب: أنَّ السجود للصَّنم كفر إذا كان قاصدًا السجود له. وقولي: «قاصدًا»، يخرج النائم، أو الناعس، أو شخصًا وضع جبهته علىٰ الأرض يريد أن يستريح بلا قصدٍ، ولا علمٍ بالصنم، وغير ذلك؛ كالإكراه، لكن قصد السجود للصنم كفر وشرك، ولو اعتقد بقلبه خلاف ذلك، ومثله سب الله وسب الرسول، ولو قال: أنا لا أريد الكفر.

ومثله مَن استهزأ بالله، أو بكتابه، أو برسوله، وقد اجتمع جماعةٌ في غزوة تبوك، وتكلموا في حقِّ النَّبيِّ ﷺ، والقُرَّاء من أصحابه، وقالوا: ما رأينا مثل قُرَّائنا هؤلاء أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء، فأنزل الله في حقهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]، فأثبت لهم الكفر بعد الإيمان بهذا القول، ولم يقل: هل تعتقدون أو لا تعتقدون؟ أما المرجئة فيقولون: السجود ذاته ليس بكفرٍ، لكنه دليل علىٰ الكفر، ودليل علىٰ ما في قلبه.

ويقولون: مجرد السب ليس كفرًا، لكنه دليل علىٰ الكفر.

وهذا من أبطل الباطل، بل نقول: نفس السَّبِّ كفر، ونفس السجود للصنم كفر، ووطء المصحف بالقدم امتهانًا له، كفر، وقتل النبي، أو سبه كفر.

---

(١) «شرح كتاب الإيمان الأوسط» لابن تيمية (٣/ ٢١).

وسئل أيضًا[1]: ما حكم مَن يقول: إنَّ عقيدة أهل السنة في التكفير مبنيَّة علىٰ إثبات التلازم بين الباطن والظاهر، فكل مَن كفر كفرًا عمليًّا أكبَر مخرجًا عن الملة، فإن هذا الكفر يدل علىٰ الكفر الاعتقادي، وهو أن كفر الظاهر متلازم مع كفر الباطن، فهل هذا القول صحيح أم لا؟

الجواب: لا يلزم ذلك، وقد يقال: إنَّ هذا قول المرجئة، فقد يسبُّ شخصٌ الله ورسوله بسبب خصومةٍ بينه وبين شخصٍ آخر وهو لا يعتقد ذلك بقلبه، فيكفر بهذا السب والعياذ بالله، ولو خاصم شخصٌ شخصًا، ثم سبَّ الدين وهو لا يعتقد ذلك، فإنه يكفر أيضًا، فالأول ليس عنده عقيدة سب الله ورسوله، أو الاستهزاء بالله ورسوله، ولكنه يكفر بذلك.

والدليل علىٰ هذا أنَّ جماعةً من الناس في غزوة تبوك سبوا النَّبي ﷺ وأصحابه القُرَّاء بأنهم يأكلون كثيرًا ويكذبون، وهم جُبَناء عند اللقاء، فقالوا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء -يعنون: الرسول ﷺ وأصحابه القرَّاء- أرغب بطونًا، ولا أكذب أَلْسنةً، ولا أجبن عند اللقاء، فنزلت الآية الكريمة: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]، فأثبت لهم الكفرَ بعد الإيمان بهذه المقالة، فقد يكفر الإنسان ولو لم يعتقد ذلك بقلبه، فلو أنَّ شخصًا مزَّق المصحف استهانةً به، أو داسه بقدمه متعمدًا، أو لطَّخه بالنجاسة، كفر، وساب الله ورسوله يكفر، وإذا استهزأ بالله، أو بكتابه، أو برسوله، فإنه يكفر، وإذا سَجَد لصنمٍ، وقال: إنما وضعت رأسي أمامه، فإنه يكفر.

---

(١) «شرح كتاب الإيمان» لأبي عبيد (٦/ ١٦).

ولهذا، نَاقَشهم ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ وقال: إنَّ مشايخ الصُّوفية يطلبون من أتباعهم أن يسجدوا، أو يركعوا لهم إذا جاءوا، فإذا قيل لهم: كيف تسجدون لغير الله؟! قالوا: إنَّ هذا إنَّما هو وَضْع الرأس أمام الشيخ احترامًا له وتواضعًا، فقال ابن القيِّم: ولو سمَّيتموه ما سمَّيتموه، فإن مَن سجد للصنم، فقد وضع رأسه للصنم احترامًا له وتواضعًا.

فالمقصود: أنه لا يوجد تلازم بين العمل وبين القلب، وإنما المرجئة هم الذين يقولون: إنَّ السجود للصنم ليس بكفرٍ، ولكنه دليلٌ على ما في القلب من الكفر، وسب الله، أو سب الرسول ليس كفرًا، وإنما هو دليلٌ على ما في القلب، ودليلٌ على الكفر، والسجود للصنم ليس كفرًا بذاته، لكنه دليلٌ على الكفر.

والصواب: أنَّ نفس السب كفر، ونفس السجود للصنم كفر، فالتلازم وربط الكفر بالقلب مذهب المرجئة، فإنهم يقولون: إنه لا يكفر بالعمل، بل لا بدَّ من التلازم بينه وبين القلب.

والصواب: أن الكفر بالقلب، ويكون بالقول باللسان، ويكون بالعمل، كالسُّجود للصنم، ويكون بالإعراض والتَّرك والرَّفض لدين الإسلام، فلا يتعلَّمه، ولا يعمل به، فإذا رفض دينًا، ورفض أن يعبد الله، كفر بهذا الرفض والتَّرك.

قال ابن حزمٍ في «الفصل»[(١)]: فَنصَّ تعالىٰ علىٰ أن الاستهزاء بالله تعالىٰ، أو بآياته، أو برسولٍ من رسله، كفر، فخرج عن الإيمان، ولم يقل تعالىٰ في ذلك: إنِّي علمت أن في قلوبكم كفرًا، بل جعلهم كفارًا بنفس الاستهزاء، ومَن ادَّعىٰ غير هذا، فقد قال علىٰ الله تعالىٰ ما لم يقل، وكذب علىٰ الله تعالىٰ.

---

(١) «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (٣/ ١١٤).

ولذلك، قال العلماء بأنَّ الاستهزاء بالله عَزَّوَجَلَّ وآياته ورسوله كفر، ولو لم يقله الرجل عن اعتقادٍ، فهؤلاء القوم لما تلفَّظوا بهذا القول، والظاهر أنهم لم يقولوها عن اعتقادٍ، حكم الشارع الحكيم بكفرهم، فمَن استهزأ بشيءٍ من الشريعة لعبًا، أو لهوًا، هازلًا، أو جادًّا، فقد أتىٰ بفعلةٍ كفريةٍ، وكفر بالله عَزَّوَجَلَّ، فأي شيءٍ جاء به الإسلام، وتكلمت به النصوص الشرعية بِغَضِّ النظر عن كونه فرضًا، أو مستحبًّا إن استهزأ به أحدٌ، أو انتقص منه، فهو كافرٌ أيًّا كان هذا الأمر من شُعَب الإيمان، وهذه علامةٌ من علامات النفاق الاعتقادي المخرج عن الملة.

ومن ذلك: ما وَرَد في «البحر المحيط» أن فقيهًا من الفقهاء مرَّ علىٰ دكانٍ، فترك كتابًا له عند صاحب الدكان، وقال له: احفظ الكتاب عندك حتىٰ آتي فآخذه منك، ثم بعد فَتْرةٍ مرَّ الفقيه علىٰ صاحب الدكان، وقال له: أعطني الكتاب، فقال صاحب الدكان: ليس لك عندي كتاب، بل لك عندي منشارٌ. قال: أعطيتك كتابًا، فقال: الكتاب كالمنشار، المنشار يقطع النجار به الأخشاب، وأنتم بالكتاب تقطعون الناس -يريد أنَّهم يقطعون أرزاق الناس ويخدعونهم- فتَركه الفقيه، وذهب إلىٰ الإمام العلم محمد بن الفضل واستفتاه، فأفتىٰ الإمام بضرب عُنُق صاحب الدكان؛ لأنه استهزأ بالشرع.

حكم الاستهزاء بالصَّحابة، أو العلماء، أو مَن انتسب إلىٰ الإسلام:

فرَّق العلماء -ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية عليه رحمة الله تعالىٰ- في مسألة الاستهزاء بالصحابي، أو الانتقاص منه، وبَين مَن استهزأ بأحدٍ منهم رضوان الله عليهم، أو سخر منه لأمرٍ هو فيه، ولكن بعيد عن دينه، وبين مَن سخر واستهزأ بأحدٍ منهم لأجل إسلامه، أو دينه، وأنهم مسلمون صحابة، نصروا النبي ﷺ، ونصروا الدين..

فأما الحالة الأولىٰ: فهي معصية وكبيرة.

ومنها: روىٰ الشَّيخان[(١)] من حديث أبي سعيدٍ قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيءٌ، فسبَّه خالد، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «**لا تسبُّوا أحدًا من أصحابي، فإنَّ أحدكم لو أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا، ما أدرك مُدَّ أحدهم، ولا نصيفه**».

وفي روايةٍ في «المسند»[(٢)] بسند صحيح عن أنسٍ قال: كان بين خالد بن الوليد، وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيامٍ سبقتمونا بها، فبلغنا أنَّ ذلك ذكر للنَّبيِّ ﷺ، فقال: «**دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنفقتم مثل أُحُدٍ** -أو مثل الجبال- **ذهبًا، ما بلغتم أعمالهم**».

قال النوويُّ[(٣)]: اعلم أنَّ سبَّ الصحابة رضي الله عنهم حرامٌ من فواحش المحرمات؛ سواء مَن لابس الفتن منهم وغيره؛؛ لأنهم مجتهدون في تلك الحروب، متأولون.

قال القاضي: وسبُّ أحدهم من المعاصي الكبائر، ومذهبنا ومذهب الجمهور أنه يعزر ولا يقتل. وقال بعض المالكية: يقتل.

قوله ﷺ: «**لو أنَّ أحدَكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا، ما أدرك مُدَّ أحدهم، ولا نصيفه**»، معناه: لو أنفق أحدكم مثل أُحُد ذهبًا، ما بلغ ثوابه في ذلك ثواب نفقة أحد أصحابي مُدًّا، ولا نصف مُدٍّ.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

(٢) «مسند أحمد» (١٣٨١٢).

(٣) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٦/ ٩٣).

وقال أيضًا[(١)]: وكلُّهم (أي: الصحابة) عدولٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومُتأوِّلون في حروبهم وغيرها، ولم يخرج شيءٌ من ذلك أحدًا منهم عن العدالة؛ لأنهم مجتهدون، اختلفوا في مسائل من محلِّ الاجتهاد، كما يختلف المجتهدون بعدهم في مسائل من الدماء وغيرها، ولا يلزم من ذلك نقص أحدٍ منهم.

واعلم أنَّ سبب تلك الحروب أنَّ القضايا كانت مشتبهةً، فلشدة اشتباهها اختلف اجتهادهم... إلىٰ أَنْ قال: فكلُّهم معذورون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولهذا اتفق أهل الحقِّ ومَن يعتدُّ به في الإجماع علىٰ قبول شهاداتهم ورواياتهم، وكمال عدالتهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

قال الحافظ[(٢)]: قوله ﷺ: «**أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا**»، زاد البرقاني: «**كل يومٍ**». قال: وهي زيادة حسنة.

قال البيضاوي: معنىٰ الحديث: لا ينال أحدكم بإنفاق مثل أُحُد ذهبًا من الفضل والأجر ما ينال أحدهم بإنفاق مُد طعامٍ، أو نصيفه، وسبب التفاوت ما يقارن الأفضل من مزيد الإخلاص وصدق النية.

وقال القاضي: وسبب تفضيل نفقتهم أنَّ إنفاقهم إنما كان في وقت الضرورة، وضيق الحال بخلاف غيرهم، ولأنَّ إنفاقهم كان في نصرته ﷺ وحمايته، وذلك معدوم بعده، وكذا جهادهم وسائر طاعاتهم.

وكما حدَث من أبي ذرٍّ الغفاري لمَّا قال لبلالٍ: يا ابن السوداء، وكذلك قال عبد الرحمن بن عوفٍ في غزوة بدرٍ لبلال بن رباح، قال عبد الرحمن بن عوف: فلمَّا رآه قال رأس الكفر أُميَّة بن خلف: لا نجوت إن نجا. قال: قلت (أي: بلال) أبأسيري؟

---

(١) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٥/ ١٤٩).

(٢) «فتح الباري» (٧/ ٣٤).

قال: لا نجوت إن نجا. قال: قلت: أتسمع يا ابن السوداء. قال: لا نجوت إن نجا، فالعلماء قالوا في مثل ذلك كله أنه من المعاصي التي نَهَىٰ عنها الشارع.

وعليه، فيُقَالُ: إنَّ سبَّ الصَّحابة نوعان:

أحدهما: سبٌّ يقدح في دين الصحابة وعدالتهم، كأن يرمي صحابيًّا بالكفر -مثلًا- ممن تواترت النُّصوص بفضله، فهذا من الكفر؛ لما يتضمنه من تكذيبٍ للآيات القرآنية، والأحاديث الصحيحة الدالة علىٰ تزكيتهم وفضلهم، ولأنَّ هذا السب إنكارٌ لما هو معلوم من الدين بالضرورة، ومَن ظنَّ أن مثل هذا السَّبِّ لا يعدُّ كفرًا، فقد خالف الكتاب والسنة والإجماع.

والآخر: أن يسبَّ صحابيًّا -وإن كان ممَّن تواترت النصوص بفضله- سبًّا لا يقدح في إسلامه ودينه، مثل وَصْفه بالبخل، أو الجبن، أو قلة معرفته بالسياسة، ونحو ذلك، فهذا لا يعتبر كفرًا، ولكن يستحق فاعله التأديب والتعزير.

ومن لوازم سبِّ الصحابة ولا بد: تضليل الأمة المحمدية، ويتضمَّن أنَّ هذه الأمة شر الأمم، وأنَّ سابقي هذه الأمة شرارها، وكفر هذا ممَّا يعلم بالاضطرار من دين الإسلام.

كما أنَّ سبَّهم إنكارٌ لما قام الإجماع عليه قبل ظهور المخالف من فضلهم وشرفهم، ومصادمة للنُّصوص المتواترة من الكتاب والسنة في بيان عُلوِّ مقامهم، وعظيم شأنهم.

قال شيخ الإسلام[(١)]: وأمَّا مَنْ سبهم سبًّا لا يقدح في عدالتهم، ولا في دينهم مثل وَصْف بعضهم بالبخل، أو الجبن، أو قلة العلم، أو عدم الزهد، ونحو ذلك، فهذا هو

(١) «الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول» (١/ ٥٨٦).

الذي يستحقُّ التأديب والتعزير، ولا نحكم بكفره بمجرَّد ذلك، وعلىٰ هذا يحمل كلام مَن لم يُكفِّرهم من أهل العلم.

إنَّ الواجب تُجَاه العلماء والصالحين هو محبَّتهم ومودَّتهم، وتوقيرهم وإجلالهم، كما جاءت به الشَّريعة، دون غلوٍّ وإفراطٍ، ولا شك أن الاستهزاء بالعلماء أو الصالحين يضادُّ محبتهم وإجلالهم.

روىٰ أبو نعيمٍ(١)، قال أبو الدرداء: «إنكم لن تزالوا بخيرٍ ما أحببتم خياركم، وقبل فيكم بالحق فعرف، ويلٌ لكم إذا كان العالِم فيكم كالشاة النطيح، وكان يقول: اللَّهمَّ متِّعنا بخيارنا، وأَعنَّا علىٰ شرارنا، واجعلنا خيارًا كلنا، واجعل أمرنا عند خيارنا، وإذا أذهبت الصالحين، فلا تُبْقنا بعدهم».

إن الاستهزاء بأهل العلم والصلاح صفةٌ من صفات الكافرين، وخصلةٌ من خصال المنافقين.

قال تعالىٰ: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة: ٢١٢].

وقال تعالىٰ عن المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: ١٤، ١٥].

روىٰ البغدادي(٢) عن ابن عباس قال: «مَن آذىٰ فقيهًا، فقد آذىٰ رسول الله ﷺ، ومَن آذىٰ رسول الله، فقد آذىٰ الله عَزَّوَجَلَّ».

---

(١) «الحلية» (٧/ ٢٨٣).

(٢) «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٤٣).

وفي «الـدُّرر السَّـنيَّة»[١]: ولقـد حـرص أعـداء الإسـلام مـن اليهـود والنصـارىٰ وأذنابهم من منافقي هذا الزمان علىٰ تشويه سمعة العلماء، وزعزعة مكانتهم في نفوس الأمة المسلمة.

فممَّا جاء في البروتوكول السابع عشر من بروتوكولات اليهود:

وقد عنينا عنايةً عظيمةً بالحط من كرامة رجال الدين من الأميين (غير اليهود) في أعين الناس، وبذلك نجحنا في الإضرار برسالتهم التي كان يمكن أن تكون عقبةً كؤودًا في طريقنا، وإنَّ نفوذ رجال الدين علىٰ الناس لَيتضاءَل يومًا فيومًا.

وسَعىٰ هؤلاء في سبيل ذلك سعيًا حثيثًا، فشنوا الحملات المسعورة، وأعدُّوا المخططات الرهيبة من أجل الكيد لهذا الدين، والصد عنه عن طريق الطَّعن في حَمَلة الإسلام ودعاته وعلمائه، وقد آتت هذه المؤامرات ثمارها النكدة، كما هو مشاهدٌ في واقع الأمة، وتولت وسائل الإعلام في بلاد المسلمين وغيرها كبر هذه الهجمة الشرسة علىٰ علماء الأمة، فظهر الاستهزاء بالعلماء والصالحين علىٰ وسائل الإعلام المختلفة، وتطاول الأقزام من أهل الشبهات والشهوات علىٰ مقامات أهل العلم والصلاح باسم حرية الرأي والفكر، واستهزئ بأهل الصلاح والديانة تحت مظلة محاربة التطرف والتشدُّد!

أمثلة للاستهزاء بالعلماء وبالشريعة:

نذكرها للتحذير من قائلها، ولبيان ما تحقق من أهداف اليهود وغيرهم في بلاد المسلمين، كما جاء صريحًا في البُروتُوكول السابع عشر:

---

(١) «الدرر السنية الموسوعة العقدية» (٧/ ٥٦).

قولهم عن علماء الشريعة الداعين إلىٰ الله تعالىٰ بأنهم علماء الحيض والنفاس؛ لأنهم لا يتكلمون إلا في مسائل الحيض والنفاس، ومسائل الطهارة والصلاة والزكاة، ونحوها، ويُهْملون مسائل مهمة تتعلق بالحكم والسياسة.

يقول الإمام أحمد -رحمة الله عليه- عن هذا الباب (أي: باب الحيض): إنه جلس فيه تسع سنواتٍ حتىٰ فهمه.

ابتداءً، قال النووي[(١)]: اعلم أنَّ باب الحيض من عويص الأبواب، ومما غلط فيه كثيرون من الكبار؛ لدقة مسائله، واعتنىٰ به المُحقِّقون، وأفردوه بالتَّصنيف في كتبٍ مستقلةٍ، وأَفْردَ أبو الفرج الدارمي من أئمَّة العراقيين مسائله المتحيرة في مجلدٍ ضخمٍ ليس فيه إلا المسائل المتحيِّرة، وما يتعلق بها، وأتَىٰ فيه بنفائس لم يسبق إليها، وحقق أشياء مهمة من أحكامها.

وعليه، فمَن وصف علماء الشريعة بأنهم علماء الحيض والنفاس، فقد تنقَّص منهم، واستهزأ بهم.

مثالٌ آخر:

قال مُحمَّد الغزالي السقا[(٢)]: إن المحجبة تظهر في سمت عفريت». قلت: وهل رأىٰ محمد الغزالي العفريت؟

وقال أيضًا: «فهذا الزِّيُّ المبَرقع أو المنقب ليس إلا زيًّا من صميم الأزياء الجاهلية البائدة التي عفا عليها الزمان، ولم يعد لها اليوم مكان إلا في بعض البلاد المتخلفة، أو النامية، ولن يبقىٰ فيها طويلًا أمام التطور الوثاب الذي يؤكد ما قاله

---

(١) «المجموع» (٢/ ٣٤٤).

(٢) «أضواء علىٰ تفكيرنا الديني» (١/ ٢٢).

داعية تحرير المرأة الأول في مصر والشرق العربي (قاسم أمين) من أن هذا الزي الشاذ يمثل دورًا من الأدوار التاريخية لحياة المرأة في العالم، ومن العبث الذي لا طائل من ورائه أن تتشبَّث بعض المدرسات، أو الطالبات متمسحات في ذلك بالإسلام الذي يدعو المرأة -ولا شك- إلىٰ الاحتشام المنضبط الذي يُقرُّه العرف القويم، والذَّوق السَّليم لا إلىٰ الاحتشام المنغلق المثير للشبهات، ولا سيما شبهة محاولة إخفاء الشخصية.

قالت أمينة السعيد[(١)]: «كيف نخضع لفقهاء أربعة وُلِدُوا في عصر الظلام، ولدينا الميثاق؟»، تعني: الميثاق الذي نُسِبَ لجمال عبد الناصر.

وقالت أيضًا: «إنَّ هذه الثياب الممجوجة قشرة سطحية لا تكفي وَحْدها لفتح أبواب الجنة، أو اكتساب رضا الله، فتيات يخرجن إلىٰ الشارع والجامعات بملابس قبيحة المنظر يزعمن أنها زي إسلامي، لم أجد ما يعطيني مبررًا منطقيًّا معقولًا لالتجاء فتياتٍ علىٰ قدر مذكور من التعليم إلىٰ لفِّ أجسادهن من الرأس إلىٰ القدمين بزيٍّ هو والكفن سواء».

وقالت أيضًا: «هل من الإسلام أن ترتدي البنات في الجامعة ملابس تغطيهن تمامًا، وتجعلهن كالعفاريت، وهل لا بد من تكفين البنات بالملابس وهُنَّ علىٰ قيد الحياة حتىٰ لا يُرَىٰ منها شيءٌ وهي تسير في الشارع؟».

وقالت أيضًا: «عجبت لفتيات مثقفات كيف يلبسن أكفان الموتىٰ وهُنَّ علىٰ قيد الحياة؟!».

---

(١) «مجلة الجامعة الإسلامية» (١٣٩٥ - ١٣٩٦ هـ).

وقالت أيضًا: «إن نظام الزواج في وطننا العربي هو نظام مضحك يدعو إلىٰ السخرية؛ مهر، وعقد... مظاهر جوفاء تقتل فيها الإرادة، وتقتل المشاعر الإنسانية».

مثال آخر: نزار قباني[(١)]:

قال: «لو كنت حاكمًا، لألغيت مؤسسة الزواج، وختمت أبوابها بالشمع الأحمر».

ويقول مستهزئًا: «والعري أكثر حشمةً من التستُّر».

مثال آخر: طه حسين[(٢)]:

قال وبئس ما قال: «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضًا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي فضلًا عن إثبات هذه القضية التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلىٰ مكة ونشأة العرب، ونحن مضطرُّون أن نرىٰ في هذه القصة نوعًا من الحيلة في إثبات الصِّلة بين اليهود والعرب من جِهَةٍ، وبين الإسلام واليهود والقرآن والتوراة من جِهَةٍ أخرىٰ».

ومن أقواله: «أنَّ القرآن المكي يمتاز بالهروب من المناقشة، والخلو من المنطق».

ومن أقواله[(٣)]: «ليس القرآن إلا كتابًا ككل الكتب الخاضعة للنقد، فيجب أن يجري عليه ما يجري عليها، والعلم يُحتِّم عليكم أن تصرفوا النظر نهائيًّا عن قداسته

---

(١) «الصحافة والأقلام المسمومة» (١٦٧، ١٦٨).

(٢) «تحت راية القرآن» (١/ ٢٦).

(٣) «طه حسين» لأنور الجندي (ص٢٢٩).

التي تتصورونها، وأن تعتبروه كتابًا عاديًّا، فتقولوا فيه كلمتكم، ويجب أن يختص كل واحدٍ منكم بنقد شيءٍ من هذا الكتاب، ويبين ما يأخذه عليه».

ومن أقواله: «لمَّا اعتدىٰ الفرنسيون علىٰ مسلمي بلاد المغرب العربي بوحشيةٍ وقسوةٍ منقطعة النظير، وصف هذا الاعتداء بقوله: إنها معاناة ومشقة في سبيل بسط الحضارة الفرنسية والمدنية علىٰ تلك الشعوب المتوحشة التي ترفض التقدم والاستنارة».

مثال آخر: زكي نجيب محمود:

قال: «من الخطأ الظن بأن التشريع الإلهي قد غطىٰ كل معضلات الحياة».

مثال آخر: حسين أحمد أمين:

قال مستهزئًا ببعض أحكام الشريعة: «هل يمكن أن تكون شهادة بوَّاب عمارتنا تُعَادل شهادة أمينة السعيد، سهير القلماوي معًا، هل نستطيع الآن أن نقول هذا...؟».

وكذلك مَن استهزأ بمسلمٍ لأجل شيءٍ في خلقته مثلًا، فهذه معصية ولا تجوز، أما إن استهزأ به؛ لأن ثوبه قصير مثلًا، ولحيته طويلة، وشعره محلوق، وعليه آثار السجود، يريد أن مظهره هكذا سيئ، أي: يستهزئ به لأجل دينه وإسلامه، فهذا كفرٌ، والعياذ بالله[1].

---

(١) والذي يحدث من كثيرٍ من الناس أنه لما يشعر في داخله بالعجز عن الإتيان ببعض التكليفات الشرعية بِغَضِّ النظر عن فرضيتها، أو استحبابها، وفي نفس الوقت يجد الكثيرين مقبلين علىٰ هذا التكليف يعملون به، فلكي يبرهن لنفسه علىٰ أنه جيد غير مقصر، وأن الآخرين ليسوا علىٰ شيء، يحتقر الآخرين لأجل تمسكهم بهذا التكليف، فتكون المشكلة، ويكون الكفر الأكبر المخرج عن الملة، عياذًا بالله تعالىٰ.

حكم مجالسة من يستهزئ بالشرع:

يقول عزَّ من قائل: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠].

وروىٰ الترمذي[(١)] بسندٍ حسنٍ عن جابر، أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يدخل الحمام بغير إزارٍ، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل حليلته الحمام، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يجلس علىٰ مائدةٍ يُدَار عليها بالخمر**»، فكيف بالجلوس مع مَن يستهزئ بشرع الله عَزَّوَجَلَّ؟

فَوَاجبٌ علىٰ المسلم إذا سمع الاستهزاء بآيات الله عَزَّوَجَلَّ، أو السنة، أو غير ذلك مما سبق ذكره أَنْ يترك هذا المكان، ولا يحلُّ له الجلوس فيه مع الإنكار علىٰ مَنْ فعل ذلك بالضوابط الشرعية.

وقد عمَّم العلماء هذه الآية، وقالوا بعدم جواز مجالسة العاصي عند ممارسته المعصية، أو مع المبتدع عند فعله لبدعته.

حكم سب الله عَزَّوَجَلَّ، أو النبي ﷺ:

كل ما سبق من هذه النصوص السابقة كانت في الاستهزاء، فكيف بالسب والشتم؟ هو من باب الأَوْلَىٰ علىٰ نفس الحكم، فمَن سبَّ الله عَزَّوَجَلَّ، أو سبَّ دينه -أيًّا كانت الشريعة التي سبها- أو سب رسوله ﷺ، فالأمر مُنْتهٍ بالنسبة له، ومن فعل مثل هذا فإنَّا نقطع بأنَّ فِعْلته هذه كفرية، وأنه مرتد كافر بعد استيفاء الشروط، وانتفاء الموانع.

---

(١) «سنن الترمذي» (٢٨٠١).

فالمعلوم من الدِّين بالضرورة الذي لا يُعْذر فيه بالجهل، فَإنْ فعَله شخص، فإنه يُسْتتاب، ويقيم عليه وليُّ الأمر الحجة بأن يعرفه أنَّ ما فعله يخرج عن الملة بدليل كذا وكذا، وأنه بهذه الفعلة أصبح كافرًا، وارتدَّ عن الدين، وعليه أن ينطق الشهادتين، ويغتسل، ويبدأ إسلامه من جديدٍ، فإمَّا أن يندم ويتوب ويرجع إلىٰ الإسلام -وبالطبع سيتوب لما يرىٰ السيف- وإمَّا أن يضرب عنقه[1]، فَإنْ أصرَّ بأن يقول مثلًا: أنا لست بمرتدٍّ ولا بكافرٍ، فلوليِّ الأمر أن يتركه ثلاثًا يفكر في أمره، ثم في الرابع إنْ أَصرَّ، يضرب عنقه، ويقتل مرتدًّا كافرًا.

وأمَّا مَن يتوب، ثم يرجع مرةً بعد مرة، في كل مرةٍ يدَّعي أنه تاب، فلا يقبل عذره بعد ذلك، ويقتل حدًّا لا ردَّةً، وهذا يسمونه بالزنديق، أي: الذي يكفر ويتوب ويكفر ويتوب، وهذا الحدُّ وضعه الفقهاء حتىٰ لا يتمادىٰ الناس في هذا الأمر.

ومَن سبَّ النبي ﷺ من غير المسلمين، فإن كان له عهد أو ذمَّة، فقد انقطع عهده وذمَّته، ويقتل، ومن باب أَوْلَىٰ يقتل إن لم يكن له عهد، ولا ذمة، ولا يصحُّ قبول اعتذار منه، أو غيره، كما يحدث الآن، أما من فعل ذلك من المسلمين فله توبة، فإن لكل ذنب توبة، ولكن لا بد من قَتْله.

واعلم أنَّ قولنا: إن الاستهزاء، أو سب الشريعة كفر أمر، وضرب عنق فاعله أمر آخر، فليس معناها أن يكون ضرب العنق هكذا بدون إقامة الحُجَّة والاستتابة، كما أنَّ إقامة الحدود من اختصاص وَليِّ الأمر، ولا دخل لعامة الناس بها.

---

(١) أما الأحكام التي يعذر فيها بالجهل، فعلم المرء بالحكم حينئذٍ من الثوابت التي لا نتنازل عنها، ولابد أن تتحقق فيه بإقامة الحجة. والتطبيق العملي لإقامة الحجة في هذه الحالة أن يرفع أمره إلىٰ السلطان مع تقديم الشواهد علىٰ أنه فعل هذا الفعل وقت كذا وكذا، فيستفسر منه السلطان إن كان يعلم أم لا، فإن لم يكن يعلم الحكم، فأمره إلىٰ السلطان؛ إن شاء عزره، وإن شاء نهره وزجره، وينتهي الأمر علىٰ ذلك، وإن كان يعلم فقد كفر، والعياذ بالله.

ضرورة التوعية بهذه الأحكام:

هذه الأمور التي ذكَرناها لا شكَّ أنها انتشرت، وصارت متفشيةً بين الناس في أيامنا، لذلك لزامًا علينا أن نحذر منها، وننبه عليها، ولا ينبغي أن يكون منهجنا سلبيًّا في مقابلة مثل هذه الأمور، فتجد الرجل -مثلًا- يرىٰ مَن يسب دين الله في الشارع بين الناس ولا يتحرك، ويكتفي بتمعُّر الوجه، والتمتمة بكلماتٍ لا تغني شيئًا، وإنما كان ينبغي أن يعرف هذا الرجل أن ما يفعله كفر أكبر مخرج عن الملة، ولو لمجرد التعريف.

وكذلك مسألة الاستهزاء والسخرية قد انتشرت، وصار كل من يريد أن يتفكَّه ويضحك لا يجد إلا الأدلة والنصوص الشرعية.

ثانيًا: من علامات النفاق الأكبر:

عدم التحاكم إلىٰ شريعة الله عَزَّوَجَلَّ، وقد يتحاكمون إليها إذا كان القضاء في صالحهم:

فمن صفات المنافقين عياذًا بالله تعالىٰ: أنَّهم لا يتحاكمون إلىٰ شريعة الله عَزَّوَجَلَّ إلا إذا كان القضاء في صالحهم، فالأصل عندهم عدم التحاكم إلىٰ شريعة الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن من الممكن أن يتحاكموا إليها إذا كان الحكم والقضاء في صالحهم.

وقد دلت النصوص الشرعية، والفِطر المستقيمة، والعقول الصريحة علىٰ أنَّ المرء يتحاكم إلىٰ مَنْ آمن به، وإلىٰ ما آمن به طالما أن الإيمان صادقٌ في قلبه، فإذا دُعِيَ إلىٰ التحاكم إلىٰ مَن آمن به، فأبىٰ ورفض، دلَّ علىٰ اصطدامٍ مع الفطرة والعقل فضلًا عن الأدلة.

ومن الأدلَّة علىٰ ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٦٠ -٦٣].

روىٰ الإمام الطبراني[(١)] في «معجمه الكبير» بسندٍ رجاله رجال الصحيح عن ابن عباس، قال: «كان أبو برزة الأسلمي كاهنًا يقضي بين اليهود فيما يتنافرون إليه، فتنافر إليه ناس من المسلمين، فأنزل الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء: ٦٠ -٦٢].

قال ابن كثيرٍ[(٢)]: هذا إنكارٌ من الله ﷻ علىٰ مَن يدَّعي الإيمان بما أنزل الله علىٰ رسوله، وعلىٰ الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد التحاكم في فصل الخصومات إلىٰ غير كتاب الله، وسُنَّة رسوله، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية: أنها في رجلٍ من الأنصار، ورجلٍ من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد، وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف.

---

(١) «المعجم الكبير» (١٢٠٤٥).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٠٥).

وقيل: في جماعةٍ من المنافقين ممن أظهروا الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلىٰ حكام الجاهلية. وقيل غير ذلك، والآية أعمُّ من ذلك كله، فإنها ذامَّة لمَن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلىٰ ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هاهنا، ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ٦١﴾.

وقوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ٦١﴾، أي: يُعْرضون عنك إعراضًا كالمستكبرين عن ذلك، كما قال تعالىٰ عن المشركين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [لقمان: ٢١]، هؤلاء وهؤلاء بخلاف المؤمنين الَّذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥١﴾ [النور: ٥١].

﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ٦٢﴾.

ثمَّ قال تعالىٰ في ذمِّ المنافقين: ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾، أي: فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم، واحتاجوا إليك في ذلك، ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ٦٢﴾، أي: يعتذرون إليك، ويحلفون: ما أردنا بذهابنا إلىٰ غيرك، وتحاكمنا إلىٰ عداك إلا الإحسان والتوفيق، أي: المداراة والمصانعة، لا اعتقادًا منا صحة تلك الحكومة.

ثم قال الله تعالىٰ في كتابه بعد هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ

ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦١]، والمَعنيُّون هنا هم المنافقون نفاقًا عقديًّا أكبر.

وَصدُّ المنافقين عن الاحتكام إلىٰ شريعة الله لا يخرج عن نوعين اثنين:

الأول: صدٌّ صريحٌ؛ كأن يقول مثلًا: لم تعد الشريعة تصلح أن يُحتكم إليها، فكيف نحتكم إليها مع هذا التقدُّم العلمي، وسرعة متغيرات الحياة، فهذا يصرح بعدم صلاحية الشريعة في وقتٍ من الأوقات، وأن غيرها أصلح، ومَن صدر منه هذا الكلام حقًّا كان كافرًا، لا بفِعلته حين لم يحتكم إلىٰ شرع الله، ولكن بتصريحه بأن الشريعة غير صالحةٍ، فهذا اتهام للشريعة بالنقص، وكفرُ هذا أوضحُ من أن يوضح.

الثاني: أن يتبجَّح ويتمنَّع ببعض الأعذار الواهية، ولكن لا يصرح بعدم صلاحية الشريعة؛ كأن يقول: نحن نمرُّ بأزماتٍ اقتصاديةٍ، ويوجد معنا في بلادنا غير المسلمين، وكثرت المخالفات... إلىٰ غير ذلك من الأعذار الباطلة، والحجج الواهية.

ثمَّ سرد الله تعالىٰ بقية أفعالهم، فقال تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء: ٦٢]، فهُمْ إذا سقط في أيديهم، تعذروا بهذه الأعذار.

ثم قال الله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾، أي: من النفاق، ثم قال تعالىٰ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٦٣]، والأمر بالإعراض عنهم مع عدَم إقامة الحدِّ عليهم -مع كون النَّصِّ جاء بتكفيرهم- هو من باب قوله ﷺ كما في الحديث المتفق[1] عليه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاةٍ، فكسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فقال

(١) «صحيح البخاري» (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال رسول الله ﷺ: «**ما بال دعوىٰ الجاهلية؟**». قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فقال: «**دَعُوها، فإنها منتنةٌ**»، فسمعها عبد الله بن أُبي، فقال: قد فعلوها، والله لئن رجعنا إلىٰ المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «**دَعْه، لا يتحدَّث النَّاس أنَّ محمدًا يقتل أصحابه**».

فَاللهُ عَزَّوَجَلَّ أمَر نبيَّه ﷺ بهذا حتىٰ نتعلم أنَّ أمثال هؤلاء ظاهرهم الإسلام، ونحن نأخذ بالظاهر، والله يتولَّىٰ السرائر، وهم مثل العلمانيين في أيامنا هذه ١٤٤٠هـ، فهؤلاء لا شك في كونهم منافقين نفاقًا عقديًّا، ولكن ظاهرهم الإسلام، فنعاملهم بظاهرهم، ونكِلُ سرائرهم إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

المنافقون قد يحتكمون إلىٰ الشرع إذا كان الحكم في صالحهم:

فكما مرَّ أن من صفات المنافقين: عدم الاحتكام إلىٰ شريعة الله، وهم لا يحتكمون إليها إلا إذا كان الحكم في صالحهم، قال الله تعالىٰ عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٤٧-٥٠].

قال ابن كثيرٍ(١): يُخْبر تعالىٰ عن صفات المنافقين الذين يُظْهرون خلاف ما يبطنون، يقولون قولًا بألسنتهم ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ﴾،

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٦٨).

أَيْ: يُخَالفون أقوالهم بأعمالهم، فيقولون ما لا يفعلون، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾، أي: إذا طلبوا إلىٰ اتباع الهدىٰ فيما أنزل الله علىٰ رسوله، أعرضوا عنه، واستكبروا في أنفسهم عن اتِّباعه، وهذه كقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦٠، ٦١].

روىٰ الطبرانيُّ[1] في «الكبير» عن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ دُعِيَ إلىٰ سلطانٍ، فلم يُجِبْ، فهو ظالمٌ، لا حقَّ له**».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾، أي: وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم، جاؤوا سامعين مطيعين، وهو معنىٰ قوله: ﴿مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾، وإذا كانت الحكومة عليهم، أعرضوا ودعوا إلىٰ غير الحقِّ، وأحب أن يتحاكم إلىٰ غير النبي ﷺ ليروج باطله، فإذعانه أولًا لم يكن عن اعتقادٍ منه أن ذلك هو الحق، بل لأنه موافقٌ لهواه، ولهذا لما خالف الحق قصده، عدل عنه إلىٰ غيره، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾، يعني: لا يخرج أَمْرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها، أو قَدْ عرض لها شكٌّ في الدين، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم، وأيًّا ما كان، فهو كفرٌ محضٌ، والله عليم بكلٍّ منهم، وما هو عليه منطوٍ من هذه الصفات.

---

(١) «المعجم الكبير» (٦٩٣٩).

وقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝٥٠﴾، أي: بل هم الظالمون الفاجرون، والله ورسوله مُبَرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور، تعالىٰ الله ورسوله عن ذلك علوًّا كبيرًا(١).

فقوله تعالىٰ: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، استفهام غرضه الإثبات، إثبات مرض النفاق في القلب. وقوله تعالىٰ: ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ استفهامٌ غرضُهُ الإثباتُ أيضًا، أي: إثبات أنَّ عندهم شكًّا. وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾، استفهام استنكاري، بمعنىٰ أنه يستحيل أن يحيف الله عليهم ورسوله.

فالرجل الذي أعرض عن شريعة الله، أو لم يحتكم إليها، أو احتكم إليها لمَّا علم أن القضاء في صالحه، أفعالُهُ هذه إنما هي من أفعال المنافقين، وصدرت منه؛ لأنه كان في الأصل منافقًا، والله عَزَّوَجَلَّ قصَّ علينا من خبَرهم، ومن أفعالهم، فمَن تلبس بواحدةٍ من هذه الأشياء، نقول له: احذر، فقد وقعت في فِعْلةٍ فَعَلها أهل النفاق العقدي، ويخشىٰ عليك أن تكون منهم، تُبْ إلىٰ ربك. أما إطلاق الحكم بالتكفير بمجرد أن يقع المسلم الذي الأصل فيه الإسلام في واحدةٍ من هذه الأفعال، فلا يصح(٢).

دعوة إلىٰ تَرْك التحاكم إلىٰ شريعة الله عَزَّوَجَلَّ:

فأنت تجد كثيرًا من مسلمي هذا العصر تحدث بينهم خصوماتٌ، فيحتكمون لغير شريعة الله عَزَّوَجَلَّ، فتجد الرجل يشتكي أخاه المسلم الذي ظلمه إلىٰ مَن لا يحكم

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٦٨).

(٢) كما سيأتي في أصول النفاق العملي -مثلًا- في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**».

بينهما بشريعة الله ﷻ، ونقول: طالما أنك تعلم جيدًا أنهم لن يحكموا بينكما بشريعة الله ﷻ، فلا يحل لك التحاكم إليهم حتىٰ ولو ضاع حقُّك، فكيف تتحاكم إلىٰ شيءٍ قد أمرت أن تكفر به؟! وقَدْ أجمع العلماء قاطبةً علىٰ أنه إذا حدثت خصومة بين اثنين، فلا يجوز بحالٍ التحاكم إلىٰ غير شريعة الله ﷻ.

واعلم أن سلامة دينك أهم بكثيرٍ من سلامة غيره، وأن حقك لن يضيع عند ربك ﷻ، فإن ضاعت الحقوق في الدنيا، فلن تضيع في الآخرة، ولعلَّ هذا الذي تركته في الدنيا هو الذي يثقل ميزانك في الآخرة، وحفظ الدين أَوْلَىٰ من حفظ المال، أو العِرض، أو غير ذلك، كما قال القائل:

أصون عِرضي بمالي لا أبدده ... لا بارك الله بعد العِرض في المال

وذلك كله إنما يكون في الجرائم والذنوب التي جعل الله فيها عقوبةً مقدرةً.

ثالثًا: من علامات النِّفاق الأكبر:

موالاة غير المسلمين، ومظاهرتهم ضدَّ الإسلام وأهله:

والمقصود بمظاهرة المشركين علىٰ المسلمين: أَنْ يكون أولئك -أي: أهل النفاق-أنصارًا وظهورًا وأعوانًا للكفار ضد المسلمين، فينضمون إليهم، ويذبون عنهم بالمال والسِّنان والبيان، فهذا كفرٌ يناقض الإيمان والتولِّي بمعنىٰ الموالاة، فكما أنَّ موالاة الكفار ذات شُعَبٍ متفاوتةٍ، منها ما يخرج من الملة كالموالاة المطلقة لهم، ومنها ما دون ذلك... فإنَّ تولِّي الكفار مثل موالاتهم، فهناك التولي المطلق التام الذي يناقض الإيمان بالكليَّة، وهناك مراتب دون ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ [الممتحنة: ٩].

قال العلَّامة السعدي(١) **رحمه الله تعالىٰ**: وذلك الظلم يكون بحسَب التولي، فإن كان توليًا تامًّا، صار ذلك كفرًا مخرجًا عن دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ، وما هو دون ذلك.

وقال تعالىٰ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾ [المائدة: ٥١].

قال ابن القيم(٢): فالله سبحانه قد حكم -ولا أحسن من حكمه- أنه مَن تولَّىٰ اليهود والنصارىٰ فهو منهم ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾، فإذا كان أولياؤهم منهم بنصِّ القرآن، كان لهم حكمهم، وهذا عام خصَّ منه مَن يتولاهم، ودخل في دينهم بعد التزام الإسلام، فإنه لا يقرُّ، ولا تقبل منه الجزية، بل إما الإسلام، أو السيف، فإنه مرتد بالنص والإجماع ولا يصح إلحاق مَن دخل في دينهم من الكفار قبل التزام الإسلام بمَن دخل فيه من المسلمين.

قال العلَّامة السعدي(٣): التولي التام يوجب الانتقال إلىٰ دينهم، والتولي القليل يدعو إلىٰ الكثير، ثم يتدرج شيئًا فشيئًا حتىٰ يكون العبد منهم.

وعلىٰ الجملة، فمظاهرة الكفار ضد المسلمين خيانةٌ لله تعالىٰ، ولرسوله ﷺ، وللمؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨١﴾ [المائدة: ٨٠، ٨١].

---

(١) «تفسير السعدي» (١/ ٨٥٦).

(٢) «أحكام أهل الذمة» (١/ ١٩٥).

(٣) «تفسير السعدي» (١/ ٢٣٥).

فتولِّي الكفار موجبٌ لسخط الله تعالىٰ، والخلود في عذابه، ولو كان متوليهم مؤمنًا ما فعل ذلك.

يقول الشَّيخ عبد اللَّطيف بن عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ(١) **عن ذلك**: وأكبر ذنبٍ وأضله وأعظمه منافاةً لأصل الإسلام: نصرة أعداء الله ومعاونتهم، والسَّعي فيما يظهر به دينهم، وما هم عليه من التعطيل والشرك والموبقات العظام.

الدليل علىٰ أنَّ ما ذكَرنا من علامات المنافقين نفاقًا عقديًّا يُخْرج صاحبه من الملة:

قال تعالىٰ: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۝١٣٩﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩]، والنفاق هنا نفاق عقدي، والاستفهام في قوله تعالىٰ: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ استفهام استنكاري.

قال الطبري(٢): يقول الله لنبيه: يا محمد، بَشِّر المنافقين الذين يتَّخذون أهل الكفر بي والإلحاد في ديني أولياء، يعني: أنصارًا وأخلَّاء من دون المؤمنين، يعني: من غير المؤمنين، ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾، يقول: أيطلبون عندهم المَنَعة والقوة باتخاذهم إياهم أولياء من دون أهل الإيمان بي؟ ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۝١٣٩﴾، يقول: فإنَّ الذين اتَّخذوهم من الكافرين أولياء ابتغاء العزة عندهم، هم الأذلَّاء الأقلَّاء، فهلَّا اتَّخذوا الأولياء من المؤمنين، فيلتمسوا العزَّة والمنعة والنُّصرة من عند الله الذي له العزة والمنعة، الذي يعزُّ من يشاء، ويذلُّ من يشاء، فيعزهم ويمنعهم؟

ورَوىٰ أهل التفسير(٣) أنَّ عبادة بن الصامت -رضي الله عنه وأرضاه- ذهب إلىٰ

---

(١) «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية لبعض علماء نجد الأعلام» (١/ ٥٧).

(٢) «تفسير الطبري» (٩/ ٣١٩).

(٣) «الوسيط في تفسير القرآن المجيد» (٢/ ١٩٦).

النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، إن لي موالي من اليهود حاضر نصرهم، كثير عددهم، وأنا أتبرأ من موالاتهم، وأتولَّىٰ الله ورسوله، وكان يسمع هذا الحوار عبد الله بن سلول، فقام وقال ردًّا علىٰ عبادة: إنِّي أخشىٰ الدوائر، أتولىٰ اليهود والنصارىٰ -أي: أنا لا أضمن، فأبقىٰ مع هؤلاء ومع هؤلاء- فقال له النَّبيُّ ﷺ: «**يا أبا الحُبَاب، ما يشمل عبادة بن الصامت من موالاة اليهود والنصارىٰ هو لك**»، أي: لا نريد منه شيئًا، فقال عبد الله بن سلول: قبلت، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ قوله: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢﴾ [المائدة: ٥١، ٥٢]، وهو نصٌّ قطعي الثبوت، قطعي الدلالة، والنهي فيه للتحريم، بل إن «لا» إذا دخلت علىٰ الفعل المضارع، فهي أعلىٰ درجات التحريم.

والمرض المذكور في الآية هو مرض النفاق.

وعن مُحمَّد بن سيرين[(١)] قال: قال عبد الله بن عتبة: ليتقين أحدكم أن يكون يهوديًّا، أو نصرانيًّا وهو لا يشعر. قال محمد: فظننته أخذ ذلك من هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾، فهذا محرم، وإن ظهرت من أحدٍ، دلَّت علىٰ ما في قلبه من نفاقٍ اعتقاديٍّ.

قال الطبري[(٢)]: يعني -تعالىٰ ذِكْره- بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾: ومَنْ يتول اليهود والنصارىٰ دون المؤمنين، فإنَّه منهم، يقول: فإن مَنْ تولَّاهم ونصرهم علىٰ

(١) «الإبانة الكبرىٰ» لابن بطة (٢/ ٨٥٨).

(٢) «تفسير الطبري» (١٠/ ٤٠٠).

المؤمنين، فهو من أهل دينهم وملَّتهم، فإنَّه لا يتولَّىٰ مُتولٍّ أحدًا إلا وهو به وبدينه، وما هو عليه راضٍ، وإذا رضيه ورضي دينه، فقد عادىٰ ما خالفه وسخطه، وصار حكمُهُ حكمَه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة: ٨١].

يقول شيخ الإسلام(١) **ابن تيمية**: فبيَّن ﷻ أن الإيمان بالله والنبي، وما أنزل إليه، مستلزم لعدم ولايتهم، فثبوت ولايتهم يوجب عدم الإيمان؛ لأنَّ عدم اللازم يقتضي عدَم الملزوم.

ويقول أيضًا: فذكر «جملة شرطية» تقتضي أنه إذا وُجِدَ الشرط، وُجِدَ المشروط بحرف «لو» التي تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط، فقال: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، فدلَّ علىٰ أنَّ الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب.

ودلَّ ذلك علىٰ أن من اتخذهم أولياء، ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي، وما أنزل إليه، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾، فإنه أخبر في تلك الآيات أن متولِّيهم لا يكون مؤمنًا، وأخبر هنا أن متوليهم هو منهم، فالقرآن يصدق بعضه بعضًا.

وقال سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» (١/ ٥٥٠).

قال شيخ الإسلام: فأخبر سبحانه أنه لا يوجد مؤمن يواد كافرًا، فمن وادَّ الكفار، فليس بمؤمنٍ، والمشابهة الظاهرة مظنَّة المودة، فتكون محرمةً.

يقول الشَّيخ سليمان بن عبدالله بن مُحمَّد بن عبدالوهَّاب(١) **في ذلك**: قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

أخبر تعالىٰ أنك لا تجد مَن يؤمن بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كان أقرب قريبٍ، وأن هذا مُنَافٍ للإيمان، مضادٌّ له، لا يجتمع هو والإيمان إلا كما يجتمع الماء والنار.

وفي «المسند»، والترمذي، وعند النسائي(٢) أيضًا من حديث جرير بن عبد الله البجلي أنه قال: أتيت النبيَّ ﷺ وهو يبايع، فقلت: يا رسول الله، ابسط يدك حتىٰ أبايعك، واشترط عليَّ، فأنت أعلم. قال: «**أبايعك علىٰ أن تعبد الله، وتقيم الصلاة، وتُؤْتِي الزكاة، وتناصح المسلمين، وتفارق المشركين**».

يقول الشَّيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله تعالىٰ(٣): وقَدْ أجمع علماء الإسلام علىٰ أنَّ من ظَاهرَ الكفار علىٰ المسلمين، وساعدهم عليهم بأيِّ نوعٍ من المساعدة، فهو كافرٌ مثلهم، كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

---

(١) «الدلائل في حكم موالاة أهل الإشراك» (١/ ٥٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٩٢٣٢) والنسائي (٤١٧٧) وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦٣٦).

(٣) «مجموع فتاوىٰ العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ» (١/ ٢٦٩).

فهم الصحابة للنصوص الشرعية مقدمٌ علىٰ غيره من الفهوم عند التعارض:

روىٰ ابن كثيرٍ[(١)] نقلًا عن ابن أبي حاتم: أن عمر أمَر أبا موسىٰ الأشعري أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطىٰ في أديمٍ واحدٍ، وكان له (أَيْ: لأبي موسىٰ) كاتب نصراني، فرفع إليه ذلك، فعجب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: إن هذا لحفيظٌ، هل أنت قارئٌ لنا كتابًا في المسجد جاء من الشام؟ فقال: إنه لا يستطيع أن يدخل المسجد، فقال عمر: أجُنُبٌ هو؟ قال: لا، بل نصراني. قال: فانتهرني وضرب فخذي، ثم قال: أخرجوه، ثم قرأ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١]. قال أبو موسىٰ: والله ما توليته، إنما كان يكتب. قال: أما وجدت في أهل الإسلام مَن يكتب لك؟ لا تُدْنهم إذ أقصاهم الله، ولا تأمنهم إذ أخانهم الله، ولا تعزهم بعد إذ أذلهم الله، فأخرجه.

وفي روايةٍ: أن عمر قال لأبي موسىٰ: قال: قاتلك الله، ألَا اتخذت حنيفيًّا مسلمًا. قال: يا أمير المؤمنين، لي كتابته، وله دينه[(٢)]. وهذه هي الشبهة التي تطرح بيننا اليوم، وهذا إنما هو فَهمٌ خاطئٌ لأبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عدَّله له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لذلك، السؤال الذي يطرح نفسه الآن عن حكم معاملة غير المسلمين كالتزاور مثلًا.

والجواب: أنَّ الأصل في المعاملة الإباحة، ولكن إن أدَّت إلىٰ رِقَّةٍ في القلب، ومَودَّةٍ ومَحبَّةٍ ومَيْلٍ عاطفيٍّ تُجَاههم، فقف عند حدك ولو أتىٰ من ورائها كنوز الدنيا، بل إن كانت السلعة متوفرةً عند مسلم وعند نصرانيٍّ، فالصواب أن تشتري من المسلم وإن كان الثمن الذي يبيع به أعلىٰ، وذلك خوفًا من أن يرقَّ قلبك له، فكلُّ ما يهمنا هو القلب.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٢٠).

(٢) أخرجه البيهقي في «الكبرىٰ» (١٨٧٢٧) وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦٠٦).

حكم مشابهة الكفار، والمكث في بلادهم:

روىٰ الطبرانيُّ وأحمد[١]، وصحَّحه الألبانيُّ عن ابن عمر أن النَّبيَّ ﷺ قال: «**بعثت بالسيف حتىٰ يعبد الله لا شريك له، وجُعِلَ رزقي تحت ظلِّ رمحي، وجعل الذلة والصَّغار علىٰ مَن خالف أمري، ومَن تشبَّه بقومٍ فهو منهم**».

وقوله ﷺ: «**ومَن تشبه بقومٍ، فهو منهم**»، لا يعني أنه كفر، ولكنها الدرجة الأولىٰ علىٰ سُلَّم رقة القلب لهم ومصاحبتهم، وهي من الأشياء التي تؤدي إلىٰ موالاتهم ومظاهرتهم، والشريعة المطهرة جاءت بغلق هذا الباب غلقًا محكمًا؛ خوفًا علىٰ القلب، فمثل هذه الأشياء لا يقع فيها المسلم مرة واحدة مباشرة، ولكن بالتدرج، وهنا الخطر[٢].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية عليه رحمة الله: وظاهر اللفظ أنه منهم في الحكم، ولكن مَن فعل هذه الأفعال، فَقَد اقترف محرمًا يأثم علىٰ فعله وَإنْ كان ما زال في دائرة الإسلام والإيمان.

وقد وضع العلماء ضوابط لمشابهة المشركين المذكورة في الحديث، وهي:

الضابط الأول: أن يكون هذا الفعل من شعائر دينهم، وهذا لا يحل لمسلم أبدًا أن يفعله إلا إذا جاء نص شرعي في ديننا بفعله؛ كلبس الصليب ولبس الزي الأسود علىٰ الدوام، وكالقبعة السوداء التي يلبسها اليهود، وهكذا.

---

(١) أخرجه أحمد (٥١١٤) وصححه الشيخ أحمد شاكر، والطبراني في «الكبير» (١٤١٠٩)، وصححه الألباني في «الإرواء» (١٢٦٩).

(٢) فأنت تلاحظ -مثلًا- أن أي جاسوسٍ يتم القبض عليه في أيامنا هذه، وتثبت عليه الجريمة عند التحقيق معه، تجد بداية أمره إما شبهة؛ كالدعوة إلىٰ السلام بين دول العالم مثلًا، أو شهوة؛ مثل المال، ويكون ذلك معه بالتدرج.

ولذلك، لمَّا تكلم الشيخ الألبانيُّ -عليه رحمة الله- عن الدِّبلة التي يلبسها الناس الآن للخطوبة، أو الزواج، ذكر أنَّ الكفار ابتدعوها، وجعلوها من طقوس دينهم، فلا ينبغي أن يلبسها المسلمون؛ لا الرجال، ولا النساء، أما الخاتم فلا بأس؛ لأنَّ الدبلة لها أصل ديني عندهم، وينبغي أن تكون عندنا عزَّة بديننا.

السؤال التاسع من الفتوىٰ رقم (٤١٢٧)[١]:

س ٩: ما هو حكم خاتم أو دِبلة الزَّواج التي يقوم كل من الزوج والزوجة بارتدائها، ويكتب علىٰ دبلة الرجل اسم الزوجة، وعلىٰ دبلة الزوجة اسم الزوج، مع تاريخ الخطوبة، هل هي بدعة أم أنَّ لها أصلًا؟ وهل قول الرسول ﷺ لأحد الصحابة: «**الْتَمِسْ ولو خاتمًا من حديدٍ**»، دليل علىٰ جواز لبس دِبلة الزَّواج؟

ج ٩: أولًا: ما ذكرت من لبس الخاطب والمخطوبة، أو الزوجين خاتم أو دبلة الخطوبة أو الزواج علىٰ الوصف المذكور- ليس له أصلٌ في الإسلام، بل هو بدعةٌ، قلَّد فيها جَهَلة المسلمين وضعفاء الدِّين الكفار في عاداتهم، وذلك ممنوعٌ؛ لمَا فيه من التشبُّه بالكفار، وقد حذَّر منه النبيُّ ﷺ.

ثانيًا: ليس في قول النَّبيِّ ﷺ لبعض الصَّحابة: «**الْتَمِسْ ولو خاتمًا من حديدٍ**» دليل علىٰ مشروعية ما ذكرت؛ لأنه ﷺ طلب ذلك منه ليكون مهرًا لمَن رغب في تزوجها، وبالله التوفيق، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عضو	عضو	نائب الرئيس	الرئيس
عبد الله بن قعود	عبد الله بن غديان	عبد الرزاق عفيفي	عبد العزيز بن عبد الله بن باز

(١) «فتاوىٰ اللجنة الدائمة» (١/ ١٤٦).

فهي -إذًا- من هدي أهل الكتاب؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الدِّبلة كلما كانت في الإصبع، فإنها تتصل بعرقٍ في القلب، ووجودها دليل علىٰ الحب، فإذا خلعت الدبلة، خلع معها الحب، وهذا كلامٌ لا ينبغي أن يصدقه عاقلٌ، فالإسلام أباح للرجل أن يتزوج من أربع نسوةٍ، فإن تزوج بأربعٍ، فأين يلبس الدبل الأربع؟ فهذا تقليدٌ لأهل الكتاب لا ينبغي أن نسير خلفه.

قال الشيخ الألبانيُّ[(١)]: لبس بعض الرجال خاتم الذهب الذي يسمونه بـ«خاتم الخطبة»، فهذا مع ما فيه من تقليد الكفار أيضًا؛ لأن هذه العادة سَرَتْ إليهم من النصارىٰ.

وفي هامش الكتاب ما يلي[(٢)]:

يرجع ذلك إلىٰ عادةٍ قديمةٍ لهم (أي: عند النصارىٰ) عندما كان العروس يضع الخاتم علىٰ رأس إبهام العروس اليسرىٰ، ويقول: باسم الأب، ثم ينقله واضعًا له علىٰ رأس السبابة ويقول: وباسم الابن، ثم يضعه علىٰ رأس الوسطىٰ ويقول: وباسم الروح القدس، وعندما يقول: آمين، يضعه أخيرًا حيث يستقرُّ.

وقد وجه سؤال إلىٰ مجلة «المرأة Woman» التي تصدر في لندن في عدد ١٩ آذار ١٩٦٠ (ص ٨٠)، وأجابت عنه «أنجيلا تلبوت Angela Talbot» محررة قسم الأسئلة.

والسؤال هو:

«لماذا يُوضَع خاتم الزواج في بنصر اليد اليسرىٰ؟».

?Why is the wedding ring placed on the third finger of the left hand

---

(١) «آداب الزفاف في السنة المطهرة» (١/ ٢١٢).

(٢) «آداب الزفاف في السنة المطهرة» (١/ ٢١٢).

والجواب: «يقال: إنه يوجد عرقٌ في هذه الإصبع يتَّصل مباشرةً بالقلب.

وهناك أيضًا الأصل القديم عندما كان يضع العروس الخاتم علىٰ رأس إبهام العروسة اليسرىٰ، ويقول: باسم الأب، فعَلىٰ رأس السَّبابة ويقول: باسم الابن، فعلىٰ رأس الوسطىٰ ويقول: وباسم روح القدس، وأخيرًا يضعه في البنصر -حيث يستقر- ويقول: «آمين».

It is said there is a vein that runs directly from the finger to the heart.

Also ،there is the ancient origin whereby the bridegroom placed the ring on the tip of brides left thumb ،saying: "in the name of father" on the.

انتهىٰ من «آداب الزفاف» للألبانيِّ رحمه الله تعالىٰ.

الضابط الثاني: أن يرد الدليل الشرعي في الكتاب والسنة علىٰ مخالفتهم في هذا الأمر، وهنا ينبغي أن نخالفهم وإنْ هم غيَّروا ذلك، ومن ذلك: إعفاء اللحية وقص الشارب، فقد أمر النبي ﷺ بذلك مخالفةً للمشركين، فلو افترضنا أنَّهم أعفوا لحاهم جميعًا، وقصوا شواربهم، فإنَّ ذلك لا يؤثر علىٰ الحكم؛ لأن فيه نصًّا.

الضابط الثالث: ما كان في مشابهتهم اندثارٌ لبعض شعائر ديننا؛ كغطاء الرأس مثلًا، فإنه كان مأثورًا عن السلف رحمهم الله، والنَّبيُّ ﷺ إن كان ورد الخبَر بأنه حسر عن رأسه، فإنَّ ذلك لبيان الجواز، فأنت -مثلًا- عند الجلوس في المنزل، أو عند الوضوء تحسر عن رأسك ولا بأس، أما علىٰ الدوام فلا، وكذلك لبس القميص، فإنه كان أحب الثِّياب إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، بينما البنطال -مثلًا- للرجال بالطبع، فإنه ليس من شعائرنا، وإن كان ليس به بأسٌ كلباسٍ، وإنما تكلم فيه العلماء من وجهين اثنين: أنه يظهر العورة ويُجسِّمها، وأنه يؤدي إلىٰ الإسبال، فإن انتفىٰ الأمران بأن كان البنطال

فضفاضًا واسعًا لا يجسم العورة، فالأمر فيه سَعةٌ إن شاء الله تعالىٰ، أمَّا إن كان سيجسم، فليلبس فوقه قميصًا واسعًا طويلًا لأجل ستر العورة[(١)]، أما البنطال الذي لا تتوفر فيه هذه الشروط، فإنه يؤدي إلىٰ اندثار الدين، وهو مشابهة الكفار، وكذلك مشابهتهم في الجنائز، وكذلك أيضًا مشابهتهم في إنشاء المقابر بعيدًا عن التجمعات السَّكنية، فإنها من عادات الكفار التي أخذناها عنهم، وقد أمرنا النبي ﷺ بزيارة القبور، وهي من السنة؛ لأجل تليين القلوب، أما إبعادها هكذا، يجعل زيارتها عسيرةً إلا علىٰ فَتَراتٍ متباعدةٍ، فتضيع هذه السنة.

وكذلك أيضًا المصطلحات غير العربية، والكلام بالعامية، وأيضًا التسمية بأسماء الكفار، فكل هذا يؤثر في الدين، ومع الاستمرارية يؤدي إلىٰ المودة والمحبة لهم، أما غير ذلك كأن تركب سيارة يركب مثلها الكفار مثلًا، فهذا لا إشكال فيه.

كما أنَّ التشبُّه في الظاهر مظنة المحبة ورقة القلب، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية عليه رحمة الله تعالىٰ: لمَّا كانت المشابهة في الظاهر مظنة المودة والموالاة، كانت محرمةً[(٢)]، فأنت -مثلًا- تجد الاثنين من البلد الواحد في الغربة يتآلفان؛ لما بينهما من قدرٍ مشتركٍ، ولو كان ضئيلًا، ولكنهما اشتركا أثناء الغربة في وصفٍ جَمعَ بينهما.

---

(١) لأن كشف العورة -كما قال العلماء- علىٰ وجهين: إما أن تكشف بجلدها وظاهرها، أو أن تكشف بتحديد معالمها، فهذا كشف، وهذا كشف، والدليل علىٰ ذلك قول النبي ﷺ كما عند مسلم من حديث أبي هريرة: «**ونساء كاسيات عاريات**».

(٢) ولذلك نقول: أول النسك الزي، ومَن رق ثوبه، رق دينه. وهذا الكلام موجه إلىٰ من يهملون المظهر؛ كتسوية الصفوف في الصلاة مثلًا، فقد قال فيها النَّبيُّ ﷺ كما عند أبي داود، وصحَّحه الألبانيُّ عن البراء بن عازب: «**لا تختلفوا، فتختلف قلوبكم**»، مع أنَّ تسوية الصفوف من الأمور الظاهرية.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾، والمعنىٰ: أنك إن اتخذته وليًّا فلا بد أنك ستلقي إليه بالمودة؛ شئتَ أم أبيتَ، فالأَوْلَىٰ أن نغلق الباب من البداية، أمَّا مجرد التعامل معه، والتعرُّف عليه، فلا بأس به طالما أنَّ القلب لم يتأثر.

يقول الإمام الغزالي في «إحياء علوم الدين»[(١)]: فشبه الشيء منجذبٌ إليه بالطبع، وإن كان هو لا يشعر به، وكان مالك بن دينار يقول: لا يتفق اثنان في عشرة إلا وفي أحدهما وَصْفٌ من الآخر، وإن أجناس الناس كأجناس الطير، ولا يتفق نوعان من الطير في الطيران إلا وبينهما مناسبة. ثم ذكر قصةً في هذا المعنىٰ، قال: رئي غراب يومًا مع حمامةٍ، فعجب من ذلك، فقال: اتفقا وليسا من شكلٍ واحدٍ، ثم طارا، فإذا هما أعرجان، فقال: من ههنا اتفقا.

لذلك، استدل الأئمة بالنصوص الشرعية الآمرة بمخالفة المشركين في الهدي الظاهري، والنصوص القاضية بحرمة مجالستهم حتىٰ قالوا: لا تتراءىٰ نارهم[(٢)]، ولا يجلس معهم تحت ظلٍّ، فبأي حقٍّ يمكث المسلم في بلدٍ رفع راية الكفر ومحاربة الإسلام وأهله، ويكيدون للإسلام ليل نهار؟! ثم هو يرضىٰ بالمعيشة تحت نظامهم وشريعتهم، وإن اختصم مع أحدٍ، فهو رغم أنفه يحتكم إلىٰ شريعتهم، ويرضىٰ بها.

والعلماء لم يُجِز أحد منهم قط المكث في ديار الكفر علىٰ الدوام، وأما مَن أجاز الجلوس عندهم يجيزه لفترةٍ معينةٍ لعلةٍ معلومةٍ، وبناءً علىٰ العلة والحالة، يتحدد الجواز من عدمه؛ كالعلاج عندهم مثلًا، ولا يوجد إلا عندهم، أو أن يذهب لطلب

---

(١) (٢/ ١٦٢).

(٢) وهو تعبير عند العرب، أي: لا يقتربون من بعضهم البعض، فأنت إذا رأيت نار قوم، ورأوا نارك، فنحن جيران.

علمٍ لا يوجد إلا عندهم، فإن كان موجودًا عند المسلمين، فلا يذهب، بل قد تكلَّم العلماء في حكم مَن تجنَّس بجنسيةٍ لدولةٍ غير مسلمةٍ بكلامٍ كبيرٍ ظاهره فيه الشدة، لكنه في الحقيقة يتفق مع الأدلة، وقد اتَّفقوا جميعًا علىٰ أنه إنْ تَجنَّس رضًا بشريعتهم ونظامهم وحكومتهم، وما يحتكمون إليه، فهو منهم؛ كَمَن يذهب إلىٰ هناك معجبًا بنظام الديمقراطية عندهم مثلًا.

حكم التَّجنُّس بجنسية دولةٍ كافرةٍ:

أولًا: تعريف: الجنسية:

عرفت الجنسيَّة بأنها: «الصفة التي تلحق بالشخص من جهة انتسابه لشعبٍ أو أُمَّةٍ»[(١)].

وفي القانون الوضعي، فقد عرفت الجنسية بأنها: «رابطة قانونية وسياسية لها طابع الدوام والاستمرار، تربط الفرد بدولةٍ ما، وتعني الخضوع والولاء من جانب الفرد، والحماية من جانب الدولة... فالجنسية رابطة بين الشخص والدولة تجعله تابعًا لها.

ولا تقتصر هذه الرابطة علىٰ الأفراد، بل تمتدُّ إلىٰ الأشخاص الاعتبارية؛ كالشركات، كما تمتد إلىٰ السفن والطائرات التي تكتسب جنسية دولة ما بِنَاءً علىٰ معايير محدودة، مثل مكان التأسيس، أو التسجيل، أو جنسية المالك، أو المالكين، وتؤدي إلىٰ ترتيب التزاماتٍ يحددها القانون»[(٢)].

---

(١) «المعجم الوسيط» (١/ ١٤٠).

(٢) «بحوث ودراسات في اللهجات العربية» من إصدارات مجمع اللغة العربية بالقاهرة (٣٦/ ٥).

ومصطلح «الجنسية» مصطلح حادث لم يتكلم فيه المتقدمون من أهل العلم، ولكن يمكن الوصول إلىٰ معرفة حكمه الشرعي من خلال استعراض كلام الأئمة في حكم إقامة المسلم في دار الكفر، أي: في دارٍ غير إسلامية، فالتجنس بمعناه الحادث فرعٌ من الإقامة في دار الكفر.

وإقامة المسلم في دار الكفر لا يخلو من الحالات التالية باعتبار القدرة علىٰ إظهار شعائر الإسلام، أو عدم القدرة علىٰ إظهارها، وكذلك باعتبار القدرة علىٰ الهجرة من بلاد الكفر، أو عدم القدرة:

أولًا: حالة العجز عن إظهار الشَّعائر والعبادات مع القدرة علىٰ الهجرة:

وفي هذه الحالة اتَّفق الفقهاء علىٰ وجوب الهجرة من دار الكفر إلىٰ دار الإسلام إن كان المسلم لا يستطيع أن يقيم الشعائر، أو أن يقوم بالواجبات، أو خاف الفتنة في دينه، بل نقل الونشريسي -هو أحمد بن يحيىٰ بن محمد الونشريسي التلمساني، أبو العباس، وُلِدَ سنة ٨٣٤ هـ، فقيه مالكي من علماء تلمسان- وغيره الإجماع علىٰ هذا، فقال: «الهجرة باقية لازمة إلىٰ يوم القيامة، واجب بإجماع المسلمين علىٰ مَنْ أسلم بدار الحرب ألَّا يقيم بها حيث تجري عليه أحكام المشركين، وأن يهجرها ويلحق بدار المسلمين حيث تجرىٰ عليه أحكامهم».

وقال في موضعٍ آخر: «الهجرة من أرض الكفر إلىٰ أرض الإسلام فريضة إلىٰ يوم القيامة، وكذلك الهجرة من أرض الحرام والباطل بظلمٍ أو فتنةٍ»[(١)].

---

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» (٥/ ٦١).

وَممَّن نقل الإجماع أيضًا:

أبو الوليد بن رشد (٥٢٠هـ)، حيث يقول: «واجب بإجماع المسلمين علىٰ مَن أسلم بدار الكفر ألَّا يقيم بها، حيث تجري عليه أحكام المشركين، وأن يهاجر ويلحق بدار المسلمين حيث تجري عليه أحكامهم»(١).

الوزير ابن هبيرة (٥٦٠هـ)، حيث يقول: «واتَّفقوا -فيما أعلم- علىٰ وجوب الهجرة عن ديار الكفر لمَن قدر علىٰ ذلك»(٢).

المرداوي (٨٨٥ هـ)، حيث يقول: «وتجب الهجرة علىٰ مَن يعجز عن إظهار دينه في دار الحرب بلا نزاعٍ في الجملة»(٣).

وقد استدل الفقهاء علىٰ حرمة الإقامة في دار الكفر بما يلي:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء: ٩٧].

قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة عامة في كل مَن أقام بين ظهراني المشركين، وهو قادرٌ علىٰ الهجرة، وليس متمكنًا من إقامة الدين، فهو ظالمٌ لنفسه، مرتكبٌ حرامًا بالإجماع، وبنصِّ هذه الآية حيث يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: بترك الهجرة ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ﴾، ولِمَ مكثتم هاهنا وتركتم الهجرة؟ ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾، أي: لا نقدر علىٰ الخروج من البلد، ولا الذهاب في الأرض ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾(٤).

---

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» (٥/ ٦١).
(٢) «موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي» (٦/ ٣٩٤).
(٣) «كشاف القناع عن متن الإقناع» (٣/ ٤٣).
(٤) «تفسير ابن كثير»، ت: سلامة (٢/ ٣٨٩).

بوَّب البخاريُّ، فقال: باب[(١)] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ الآية، وبوَّب أيضًا[(٢)] فقال: باب مَن كره أن يكثر سواد الفتن والظلم.

ثم روىٰ في البابين بسنده إلىٰ محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود، قال: قطع علىٰ أهل المدينة بعث، فاكتتبت فيه، فلقيت عكرمة مولىٰ ابن عباس، فأخبرته، فنهاني عن ذلك أشدَّ النهي، ثمَّ قال: أخبرني ابن عباس «أن ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين علىٰ عهد رسول الله ﷺ، يأتي السهم فيرمىٰ به، فيصيب أحدهم، فيقتله، أو يضرب فيقتل»، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [النساء: ٩٧][(٣)].

والمعنىٰ العام للحديث: يقول أبو الأسود وهو الأسدي يتيم عروة بن الزبير: قوله: «قطع علىٰ أهل المدينة بعث»: ألزموا بإخراج جيشٍ لقتال أهل الشام، وذلك في خلافة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما علىٰ مكة، «فاكتتبت فيه» جعلتُ في عِدَاد مَن يخرج مع هذا الجيش، فلقيت عكرمة مولىٰ ابن عباس، فأخبرتُهُ، فنهاني عن ذلك أشد النهي، ثم أخبره بما أخبَره به ابن عباس بما وقع علىٰ عهد النَّبيِّ ﷺ[(٤)].

قال الحافظ: إن ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين، سمي منهم: قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والوليد بن عتبة بن ربيعة وعمرو بن أمية بن سفيان وعلي بن أمية بن خلف، وذكر

---

(١) «صحيح البخاري» (٦/ ٤٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٩/ ٥٢).

(٣) رواه البخاري (٤٥٩٦).

(٤) «فتح الباري» لابن حجر (٨/ ٢٦٣).

في شأنهم أنهم خرجوا إلىٰ بدرٍ، فلما رأوا قلة المسلمين، دخلهم شك، وقالوا: غرَّ هؤلاء دينهم، فقتلوا.

وفي روايةٍ عند الطبري وابن المنذر: كان قوم من أهل مكة قد أسلموا، وكانوا يخفون الإسلام، فأخرجهم المشركون معهم يوم بدرٍ، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: هؤلاء كانوا مسلمين فأكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت، فكتبوا بها إلىٰ مَن بقي بمكة منهم، وأنهم لا عذر لهم، فخرجوا فلحقهم المشركون، ففتنوهم فرجعوا، فنزلت: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾، فكتب إليهم المسلمون بذلك فحزنوا، فنزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟﴾ الآية، فكتبوا إليهم بذلك، فخرجوا فلحقوهم، فنجا مَن نَجا، وقُتل مَن قُتل.

ثم قال الحافظ: وفي هذه القصة دلالة علىٰ براءة عكرمة ممَّا ينسب إليه من رأي الخوارج؛ لأنه بالَغ في النهي عن قتال المسلمين، وتكثير سواد مَن يقاتلهم، وغرض عكرمة أنَّ الله ذمَّ مَن كثَّر سواد المشركين مع أنهم كانوا لا يريدون بقلوبهم موافقتهم، قال: فكذلك أنت لا تكثر سواد هذا الجيش وإن كنت لا تريد موافقتهم؛ لأنهم لا يقاتلون في سبيل الله.

وقوله: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾، سؤال توبيخ وتقريع، واستنبط سعيد بن جبير من هذه الآية وجوب الهجرة من الأرض التي يعمل فيها بالمعصية[(١)]. انتهىٰ من «الفتح» بتصرفٍ.

ومن الأدلة أيضًا:

ما رواه أبو داود بسند صحيح عن سمرة بن جندب، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ جامع المشرك، وسكَن معه، فإنه مثله**»[(٢)]، أي: اجتمع معه «**وسكن معه**» في مكان.

---

(١) «فتح الباري» لابن حجر (٨/ ٢٦٣).

(٢) رواه أبو داود (٢٧٨٧) وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٣٣٠).

قال الشوكاني: قوله ﷺ: «فهو مثله»، فيه دليل علىٰ تحريم مساكنة الكفار، ووجوب مفارقتهم[(١)].

قال الصنعاني في «التنوير»: «من جامع»، أي: ساكن «المشرك»، أي: في دار المشرك «وسكن معه» عطف تفسير «فإنه مثله»، فإن الطباع سراقة، ولأن الله أمر ألَّا يساكن المؤمن المشرك؛ صونًا للإيمان عن الابتذال بمخالطة الكفار، فإنَّ الظالمين بعضهم أولياء بعضٍ، والله وليُّ المتقين، ولأنَّ المخالطة تنفي وجوب المباينة والمعاداة.

ويؤخذ منه اجتناب مخالطة الظَّلَمة والفُسَّاق؛ لأنهم أهل المعاصي والذنوب، ومظنة مجامع الشيطان، ولأن الطباع يسرق بعضها بعضًا، ولذا نهىٰ الله عن نكاح المشركة وإنكاح المشرك، وعلَّله بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٢١]، فما بين الفريقين ملاءمة توجب حسن المشاركة في السكنىٰ الخاصة، ولا العامة، وقد قال العالِم الذي استفتاه القاتل مائة نفس: اخرج من أرضك، فإنها أرض سوءٍ، فخرج منها، وكان عاقبته أن قبضته ملائكة الرحمة؛ لقربه من بلاد التوبة[(٢)]. انتهىٰ.

قال الإمام المحدث الكبير الشيخ خليل أحمد السهارنفور (وُلِدَ سنة ١٢٦٩ هـ - وتوفي سنة ١٣٤٦ هـ): قوله ﷺ: «**مَنْ جامع المشرك، وسكن معه، فإنه مثله**»، أي: اجتمع معه في دارٍ، أو بلدٍ، والأحسن أن يقال: معناه: اجتمع معه، أي: اشترك في الرسوم والعادة والهيئة والزي. وأما قوله: «وسكن معه» علة له، أي: سكناه معه صار

---

(١) «نيل الأوطار» (٨/ ٣١).

(٢) «التنوير شرح الجامع الصغير» (١٠/ ١٨٩).

علةً لتوافقه في الهيئة والزي والخصال «فإنه مثله» نقل في الحاشية عن «فتح الودود»: «فإنه مثله»، أي: يقارب أن يصيرَ مثلًا له؛ لتأثير الجوار والصحبة، ويحتمل أنه تغليظٌ[(١)].

قال المناويُّ في «فيض القدير»: «من جامع المشرك» بالله، والمراد الكافر، ونص علىٰ الشرك؛ لأنه الأغلب حينئذٍ «وسكن معه»، أي: في ديار الكفر «فإنه مثله»، أي: من بعض الوجوه؛ لأنَّ الإقبال علىٰ عدوِّ الله وموالاته توجب إعراضه عن الله، ومَن أعرض عنه، تولاه الشيطان، ونقله إلىٰ الكفران.

قال الزمخشري: وهذا أمر معقول، فإن موالاة الولي وموالاة عدوه متنافيان، قال:

تـــود عـــدوي ثـــم تـــزعم أننـــي ... صـديقك لـيس النـوك عنـك بعـازب

وفيه إبرامٌ وإلزامٌ بالتصلب في مجانبة أعداء الله، ومباعدتهم، والتحرُّز عن مخالطتهم ومعاشرتهم ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والمؤمن أَوْلَىٰ بموالاة المؤمن، وإذا والىٰ الكافر، جرَّه ذلك إلىٰ تداعي ضعف إيمانه، فزجر الشارع عن مخالطته بهذا التغليظ العظيم؛ حسمًا لمادة الفساد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾، ولم يمنع من صلة أرحام مَن لهم من الكافرين، ولا من مخالطتهم في أمر الدنيا بغير سكنىٰ فيما يجري مجرىٰ المعاملة من نحو بيعٍ وشراءٍ وأخذٍ وعطاءٍ ليوالوا في الدين أهل الدين، ولا يضرهم أن يبارزوا مَن لا يجاريهم من الكافرين، ذكره الحرالي.

وفي «الزهد» لأحمد عن ابن دينار: أوحىٰ الله إلىٰ نبيٍّ من الأنبياء: قل لقومك: لا تدخلوا مداخل أعدائي، ولا تلبسوا ملابس أعدائي، ولا تركبوا مراكب أعدائي،

---

(١) «بذل المجهود في حل سنن أبي داود» (٩/ ٥٢٥).

فتكونوا أعدائي كما هم أعدائي. وقوله: مَنْ جاء مع المشرك، ظنَّ بعضهم أنَّ معناه: أتىٰ معه مناصرًا وظهيرًا، فـ «جاء» فعل ماض، و«مع المشرك» جار ومجرور. وقال بعضهم: معناه: نكح الشخص المشرك -يعني: إذا أسلم- فتأخرت عنه زوجته المشركة حتىٰ بانت منه، فحذر من وطئه إياها.

ويُؤيِّده ما رُوي عن سمرة بن جندب مرفوعًا: «**لا تساكنوا المشركين، ولا تجامعوهم، فمَن ساكنهم أو جامعهم، فهو منهم**»، وأفاد الخبر وجوب الهجرة، أي: علىٰ مَن عجز عن إظهار دينه، وأمكنته بغير ضررٍ[(١)].

تنبيهٌ: قال ابن تيمية: المشابهة والمشاكلة في الأمور الظاهرة توجب مشابهةً ومشاكلةً في الأمور الباطنة، والمشاركة في الهدي الظاهر توجب مناسبةً وائتلافًا وإن بعد المكان والزمان، وهذا أمرٌ محسوسٌ، فمرافقتهم ومساكنتهم ولو قليلًا سببٌ لوقوع ما مرَّ، واكتساب أخلاقهم التي هي ملعونةٌ، ولما كان مظنة الفساد خفيًّا غير منضبطٍ، علق الحكم به، وأُدِيرَ التحريم عليه، فمساكنتُهُم في الظاهر سبب ومظنة لمشابهتهم في الأخلاق والأفعال المذمومة، بل في نفس الاعتقادات، فيصير مساكن الكفار مثله.

وأيضًا المشاركة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة، وهذا ممَّا يشهد به الحس، فإنَّ الرجلين إذا كانا من بلدٍ، واجتمعا في دار غربةٍ، كان بينهما من المودة والائتلاف أمر عظيم بموجب الطبع، وإذا كانت المشابهة في أمورٍ دنيويةٍ تورث المحبة والموالاة، فكيف المشابهة في الأمور

---

(١) «فيض القدير» (٦/ ١١٢).

الدينية؟ فالموالاة للمشركين تنافي الإيمان ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[(١)]. انتهىٰ.

قال الألبانيُّ رحمه الله تعالىٰ: فإذا رأيت مسلمًا يتشبه بالكافر، يخالط كافرًا، معنىٰ ذلك أنه وُجدت هناك مجانسة قلبية بينه وبين ذاك الكافر أو المشرك، لذلك حذر النبي -صلىٰ الله عليه وآله وسلم- المسلم من مخالطة المشرك، ومن مساكنته أشدَّ التحذير، فقال في حديث آخر غير الحديث السابق، يعني بذلك قول النبي ﷺ: «**مَنْ جامع المشرك، فهو مثله**»، وقال عليه الصلاة والسلام: «**أنا بريءٌ من كل مسلمٍ أقام بين ظهراني المشركين**»، وقال في حديثٍ ثالثٍ: «**المسلم والمشرك لا تتراءىٰ نارهما**»، يعني: ابعد عن مجاورة المشرك بعيدًا بعيدًا علىٰ عادتهم القديمة أنهم كانوا يوقدون النيران أمام الخيام، فينبغي أن يكون المسلم في خيمته بعيدًا عن خيمة المشرك، بحيث إنهما إذا أوقدا النيران لا تظهر نار هذا لهذا، والعكس بالعكس.

كل هذا؛ مُحَافظةً منه -عليه الصلاة والسلام- علىٰ قلب المسلم أن يتأثر بهدي المشرك وعاداته وتقاليده وأخلاقه، وهذا معناه يؤكد قاعدةً، هذه القاعدة هي أن: «البيئة تؤثر»[(٢)]. انتهىٰ بتصرفٍ.

وروىٰ أبو داود والترمذي من حديث جرير بن عبد الله: أنَّ رسول الله ﷺ بعث سريةً إلىٰ خثعم، فاعتصم ناسٌ بالسجود، فأسرع فيهم القتل، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأمر لهم بنصف العقل، وقال: «**أنا بريء من كل مسلمٍ يقيم بين أظهر المشركين**»، قالوا: يا رسول الله، ولِمَ؟ قال: «**لا تتراءىٰ ناراهما**»[(٣)].

---

(١) «فيض القدير» (٦/ ١١٢).

(٢) «سلسلة جامع تراث العلامة الألباني في العقيدة» (٦/ ٦٥).

(٣) رواه أبو داود (٢٦٤٥) والترمذي (١٦٠٤)، وصححه الألباني في «الإرواء» (١٢٠٧).

قال الشوكاني: قوله ﷺ: «**لا تَتَراءىٰ ناراهما**»، يعني: لا ينبغي أن يكونا بموضعٍ بحيث تكون نار كلِّ واحدٍ منهما في مقابلة الأخرىٰ علىٰ وجهٍ لو كانت متمكنةً من الإبصار، لأبصرت الأخرىٰ[(١)].

قال المباركفوري في «تحفة الأحوزي»: قوله ﷺ: «**فاعتصم ناس بالسجود**»، أي: ناس من المسلمين الساكنين في الكفار، سجدوا باعتماد أنَّ جيش الإسلام يتركوننا عن القتل حيث يروننا ساجدين؛ لأن الصلاة علامة الإيمان «فأمر لهم بنصف العقل»، أي: بنصف الدية.

قال في «فتح الودود»: لأنهم أعانوا علىٰ أنفسهم بمُقَامهم بين الكَفَرة، فكانوا كمَن هلك بفعل نفسه وفعل غيره، فسقطت حصة جنايته[(٢)].

و«السجود»: يريد به الصلاة، وذلك أن المسلمين لما وصلوا إلىٰ حيث أمرهم النبي ﷺ من قصد هؤلاء الخثعميين، كان قد انضمَّ إليهم جماعةٌ من المسلمين يكونون عندهم، فلمَّا رأوا المسلمين قد وصلوا إليهم، وغشوهم، أظهروا شعار الإسلام، فصلوا حتىٰ يمتنع المسلمون مِنْ قتلهم إذا رأوهم يصلون، فلم ينفعهم ذلك، وأسرع فيهم القتل.

قال أبو سليمان الخطابي: وفيه دليل علىٰ أن الكافر إذا لاذ بالصلاة، لم يكن ذلك منه إسلامًا حتىٰ يصف الدين قولًا بلسانه.

ودلَّ الحديث علىٰ أنه يلزم المسلم ويجب أن يتباعد منزله عن منزل المشرك، ولا ينزل بالموضع الذي إن أوقدت فيه ناره، تلوح وتظهر للمشرك إذا أوقدها في منزله، ولكنه ينزل مع المسلمين.

---

(١) «نيل الأوطار» (٨/ ٣١).

(٢) «تحفة الأحوذي» (٥/ ١٩٠).

قال الخطابي: في معناه ثلاثة وجوهٍ، قيل: معناه: لا يستوي حكمهما. وقيل: معناه: إنَّ الله فرَّق بين داري الإسلام والكفر، فلا يجوز لمسلمٍ أن يساكن الكفار في بلادهم حتىٰ إذا أوقدوا نارًا كان منهم بحيث يراها.

وقيل: معناه لا يَتَّسم المسلم بسمة المشرك، ولا يَتَشبَّه به في هَدْيه وشَكْله[(١)]. انتهىٰ. من «تحفة الأحوزي».

قوله ﷺ: «**لا تتراءىٰ نارهما**».

قال ابن الأثير في «النهاية» (٢/ ١٧٧): «أي: يلزم المسلم ويجب عليه أن يباعد منزله عن منزل المشرك، ولا ينزل بالموضع الذي إذا أوقد فيه ناره تلوح وتظهر لنار المشرك إذا أوقدها في منزله، ولكن ينزل مع المسلمين في دارهم، وإنما كره مجاورة المشركين؛ لأنهم لا عهد لهم ولا أمان، وحث المسلمين علىٰ الهجرة»[(٢)].

ومن الأدلة أيضًا: ما رواه الإمام أحمد والنسائي عن جرير رضي الله عنه قال: «بايعت رسول الله ﷺ علىٰ إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلمٍ، وعلىٰ فراق المشرك»[(٣)].

ومن الأدلة أيضًا: المعقول أن الإقامة تؤدي إلىٰ تخلُّق الولد بأخلاق الكفار في حال الزواج منهم، وكذلك الفتنة والمخاطرة بالنفس والدين بسبب المخالطة، وتكثير سواد وعدد الكفار، لاسيما إِنْ كانت هذه الإقامة بغرض التِّجارة، وكسب المال[(٤)].

---

(١) «تحفة الأحوذي» (٥/ ١٩٠).

(٢) «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٢/ ١٧٧).

(٣) أخرجه النسائي (٤١٧٥) وصححه الألباني في «صحيح وضعيف سنن النسائي» (٤١٧٥).

(٤) انظر: «المبسوط» (٥/ ٥٠)، «البحر الرائق»، (٧/ ٨٩)، و«حاشية ابن عابدين»، (٧/ ١١٥)، =

ثانيًا: حالة العجز عن إظهار الشعائر والعبادات مع عدم القدرة علىٰ الهجرة.

ويعذر الإنسان في هذه الحالة لعجزه عن الهجرة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾[(١)].

قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٨، ٩٩].

قال ابن كثيرٍ: هذا عذر من الله تعالىٰ لهؤلاء في ترك الهجرة، وذلك أنهم لا يقدرون علىٰ التخلص من أيدي المشركين، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾، قال مجاهد وعكرمة والسدي: يعني طريقًا[(٢)].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ﴾، أي: يتجاوز عنهم بتَرك الهجرة، و«عسىٰ» من الله موجبة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

ثالثًا: حالة القدرة علىٰ إظهار الشعائر والعبادات وكذلك القدرة علىٰ الهجرة:

من لوازم التَّجنُّس بدولةٍ كافرةٍ حتمًا: أن يصير المتجنِّس تابعًا لقوانين وضعية نصوصها صريحة بالحكم بغير ما أنزل الله، وإباحة الزنا، وتعاطي الخمور، وارتكاب الفجور، وتحليل الرِّبا، والاكتساب من طرقٍ غير مشروعةٍ، ومنع تعدُّد الزوجات، واعتبار ما زاد علىٰ الواحدة من قبيل الزنا المعاقب عليه، وإنكار نسب ما وُلِدَ له من زوجةٍ أخرىٰ حالةَ وجودها عنده، ولا حقَّ له في نفقةٍ، ولا إرثٍ، وفك العصمة من

= و«الفواكه الدواني»، (١/ ٣٩٧)، و«شرح منتهىٰ الإرادات»، (١/ ٦٢٠).

(١) «الاستضعاف وأحكامه في الفقه الإسلامي» (ص ٣٢٩).

(٢) «تفسير ابن كثير»، ت: سلامة (٢/ ٣٩٠).

الزواج لا يتمُّ إلا إذا كان لدىٰ المحكمة الرسمية عندهم، وقسمة المواريث علىٰ طريقةٍ مخالفةٍ للفرائض الشرعية، وكون المتجنس مجبورًا علىٰ الخدمة العسكرية في جيش الدولة التي انتمىٰ إليها بهذه الجنسية، واستعداده للقتال في أيِّ وقتٍ حتىٰ أثناء الصلاة إذا قامت حربٌ علىٰ دولته، حتىٰ ولو كان علىٰ دولة مسلمة.

يتضح من ذلك: أن من يطلب الجنسية -أو: الرعوة- كما يعبر عنها البعض من دولة كافرة؛ ميلًا إليهم، ومحبةً في القرب منهم، والانضمام إليهم، والدخول في سلكهم، والرضا بسيطرتهم عليه، وعلىٰ ذريته، فإنه داخلٌ تحت قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١]، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥] إلىٰ غير ذلك من الآياتِ في هذا المعنىٰ[(١)].

بعض الفتاوىٰ المتعلقة بهذا الأمر:

الفتوىٰ رقم (١٩٦٨٥):

س: هل تجوز الهجرة إلىٰ بلاد الكفر للعمل فيها، وهل يجوز أَخْذ جنسيةٍ غير الجنسية إسلامية؟

ج: إذا أردتَ العملَ وطلب الرزق، فعليك بالسفر إلىٰ بلاد المسلمين لأجل ذلك، وفيها غنيةٌ عن بلاد الكفار؛ لما في السفر إلىٰ بلاد الكفر من الخطر علىٰ العقيدة والدين والأخلاق، ولا يجوز التجنُّس بجنسية الكفار؛ لما في ذلك من الخضوع لهم، والدخول تحت حكمهم.

---

(١) «نتائج البحوث وخواتيم الكتب» (٤/ ٢٤٨).

وبالله التوفيق، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عضو	عضو	عضو	نائب الرئيس	الرئيس
بكر أبو زيدٍ	صالح الفوزان	عبد الله بن غديان	عبد العزيز آل الشيخ	عبد العزيز بن عبد الله بن باز[1]

السؤال الثامن والعشرون من الفتوىٰ رقم (١٢٠٨٧):

س ٢٨: أسهل طريقٍ للحصول علىٰ الجنسية في هذه البلاد هو الزواج بامرأة أمريكية، فيلجأ كثيرٌ من الناس إلىٰ الاتفاق مع امرأةٍ علىٰ أن يعقد عليها عقدًا صوريًّا مقابل مبلغ من المال، ولا يدخل بها، ولا يترتب عليه أي أثرٍ سوىٰ أنه وسيلة مريحة للحصول علىٰ الجنسية، فهل يجوز هذا الزواج الصوري؟

ج ٢٨: لا يجوز هذا العقد؛ لأنه كذب وخداع، ولا يجوز أخذ جنسية كافرة، وقد صدر منَّا فتوىٰ في حكم التجنس بجنسية كافرة مضمونها: «لا يجوز لمسلمٍ أن يتجنَّس بجنسية بلاد حكومتها كافرة؛ لأن ذلك وسيلة إلىٰ موالاتهم، والموافقة علىٰ ما هُمْ عليه من الباطل»، وبالله التوفيق، وصلَّىٰ الله علىٰ نبيِّنا محمد وآله وصحبه وسلم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

نائب الرئيس	الرئيس
عبد الرزاق عفيفي	عبد العزيز بن عبد الله بن باز[2]

(١) «فتاوىٰ اللجنة الدائمة» (١٢/ ٥٨).

(٢) «فتاوىٰ اللجنة الدائمة» (١٨/ ٤٤٨).

الفتوىٰ رقم (٢١٤١٣):

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام علىٰ مَن لا نبي بعده، وبعد:

فقد اطلعت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء علىٰ ما ورد إلىٰ سماحة المفتي العام من عددٍ من المستفتين، المقيدة استفتاءاتهم في الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء برقم (٨٦)، وتاريخ ٥/ ١/ ١٤٢١ هـ، ورقم (١٣٢٦، ١٣٢٧، ١٣٢٨)، وتاريخ ٢/ ٣/ ١٤٢١ هـ بشأن حكم بناء المعابد الكفرية في جزيرة العرب، مثل: بناء الكنائس للنصارىٰ، والمعابد لليهود، وغيرهم من الكَفَرة، أو أن يخصص صاحب شركة أو مؤسسة مكانًا للعمالة الكافرة لديهم يؤدون فيه عباداتهم الكفرية... إلخ.

وبعد دراسة اللجنة لهذه الاستفتاءات، أجابت بما يلي:

كل دينٍ غير دين الإسلام، فهو كفر وضلال، وكل مكانٍ للعبادة علىٰ غير دين الإسلام فهو بيت كفر وضلال؛ إذ لا تجوز عبادة الله إلا بما شرع سبحانه في الإسلام، وشريعة الإسلام خاتمة الشرائع، عامة للثَّقَلين الجن والإنس، وناسخة لما قبلها، وهذا مجمعٌ عليه بحمد الله تعالىٰ.

ومَن زعم أن اليهود علىٰ حقٍّ، أو النصارىٰ علىٰ حقٍّ؛ سواء كان منهم أو من غيرهم، فهو مُكذِّبٌ لكتاب الله تعالىٰ، وسُنَّة رسوله محمد ﷺ، وإجماع الأُمَّة، وهو مرتدٌّ عن الإسلام إن كان يدَّعي الإسلام بعد إقامة الحجة عليه، إن كان مثله ممَّن يخفىٰ عليه ذلك، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾، وقال عز شأنه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٦﴾.

وثبت في «الصَّحيحين» وغيرهما أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**كان النبيُّ يُبْعث إلىٰ قومه خاصةً، وبُعثت إلىٰ الناس عامةً**»، ولهذا صار من ضروريات الدين تحريم الكفر الذي يقتضي تحريم التعبُّد لله علىٰ خلاف ما جاء في شريعة الإسلام، ومنه تحريم بناء معابد وَفْق شرائع منسوخة يهودية، أو نصرانية، أو غيرهما؛ لأنَّ تلك المعابد سواء كانت كنيسةً، أو غيرها، تُعْتبر معابد كفريةً؛ لأن العبادات التي تُؤدَّىٰ فيها علىٰ خلاف شريعة الإسلام الناسخة لجميع الشرائع قبلها، والمبطلة لها، والله تعالىٰ يقول عن الكفار وأعمالهم: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾.

ولهذا، أجمع العلماء علىٰ تحريم بناء المعابد الكفرية، مثل الكنائس في بلاد المسلمين، وأنه لا يجوز اجتماع قِبْلتين في بلد واحد من بلاد الإسلام، وألَّا يكون فيها شيء من شعائر الكفار؛ لا كنائس، ولا غيرها، وأجمعوا علىٰ وجوب هدم الكنائس وغيرها من المعابد الكفرية إذا أُحْدثت في أرض الإسلام، ولا تجوز معارضة وليِّ الأمر في هدمها، بل تجب طاعته.

وأجمع العلماء -رحمهم الله تعالىٰ- علىٰ أنَّ بناء المعابد الكفرية، ومنها الكنائس في جزيرة العرب، أشد إثمًا، وأعظم جرمًا؛ للأحاديث الصحيحة الصريحة بخصوص النهي عن اجتماع دينين في جزيرة العرب، منها قول النبي ﷺ: «**لا يَجْتمع دينان في جزيرة العرب**»، رواه الإمام مالك وغيره، وأصله في «الصحيحين».

فجزيرة العرب حرم الإسلام، وقاعدته التي لا يجوز السماح أو الإذن لكافرٍ باختراقها، ولا التجنُّس بجنسيتها، ولا التملك فيها، فضلًا عن إقامة كنيسةٍ فيها لعُبَّاد الصليب، فلا يجتمع فيها دينان إلا دينًا واحدًا هو دين الإسلام الذي بعث الله به نبيه ورسوله محمدًا ﷺ، ولا يكون فيها قِبْلتان إلا قبلة واحدة هي قبلة المسلمين إلىٰ

البيت العتيق، والحمد لله الذي وفَّق ولاة أَمْر هذه البلاد إلىٰ صدِّ هذه المعابد الكفرية عن هذه الأرض الإسلامية الطاهرة.

وإلىٰ الله المشتكىٰ مما جلَبه أعداء الإسلام من المعابد الكفرية من الكنائس وغيرها في كثيرٍ من بلاد المسلمين، نسأل الله أن يحفظ الإسلام من كَيْدهم ومَكْرهم.

وبهذا يعلم أن السَّماح والرضا بإنشاء المعابد الكفرية مثل الكنائس، أو تخصيص مكانٍ لها في أي بلدٍ من بلاد الإسلام من أعظم الإعانة علىٰ الكفر، وإظهار شعائره، والله عز شأنه يقول: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢﴾.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: «مَن اعتقد أنَّ الكنائس بيوت الله، وأن الله يعبد فيها، أو أنَّ ما يفعله اليهود والنصارىٰ عبادة لله، وطاعة لرسوله، أو أنه يحب ذلك، أو يرضاه، أو أعانهم علىٰ فتحها، وإقامة دينهم، وأنَّ ذلك قربةٌ، أو طاعةٌ- فهو كافرٌ».

وقال أيضًا: «مَن اعتقد أنَّ زيارة أهل الذمة كنائسهم قربة إلىٰ الله، فهو مرتد، وإن جهل أن ذلك محرم عرف ذلك، فإن أصرَّ، صار مرتدًّا». انتهىٰ.

عائذين بالله من الحَور بعد الكَور، ومن الضلالة بعد الهداية.

وليحذر المسلم أن يكون له نصيبٌ من قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ٢٦ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ٢٧ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٢٨﴾، وبالله التوفيق، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عضو	عضو	عضو	الرئيس
بكر أبو زيد	صالح الفوزان	عبد الله بن غديان	عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ (١)

حكم التجنُّس بالجنسية الأوروبية للمسلم؟

السؤال: ما حكم التجنُّس بالجنسية الأوروبية للمسلم الذي يأتي للبلاد الأوروبية فارًّا بدينه من الظلم الذي وقع عليه في بلده الأصلي، وفَقَدَ فيه هُويَّته، وفَقَدَ أمل الرجوع إلىٰ وطنه.

الجواب: الحمد لله.

للجواب علىٰ هذا السُّؤال يلزم بيان أمرين:

الأوَّل: كون الإقامة في بلد الكفار جائزة.

الثاني: قيام الحاجة إلىٰ أَخْذ الجنسية.

تفصيل الأمر الأوَّل: الإقامة في بلاد الكفار لا تجوز إلا بالشروط الآتية:

١ - وجود الحاجة الشَّرعيَّة المقتضية للإقامة في بلادهم، ولا يمكن سدُّها في بلاد المسلمين، مثل: التجارة، والدعوة، أو التمثيل الرسمي لبلدٍ مسلمٍ، أو طلب علمٍ غير متوفر مثله في بلد مسلم من حيث الوجود، أو الجودة والإتقان، أو الخوف علىٰ النفس من القتل، أو السجن، أو التعذيب، وليس مجرد الإيذاء والمضايقة، أو الخوف علىٰ الأهل والولد من ذلك، أو الخوف علىٰ المال.

---

(١) «فتاوىٰ اللجنة الدائمة» (١/ ٤٧١).

٢- أن تكون الإقامة مؤقتةً، لا مؤبدةً، بل ولا يجوز له أن يعقد النية علىٰ التأبيد، وإنما يعقدها علىٰ التأقيت؛ لأن التأبيد يعني كونها هجرةً من دار الإسلام إلىٰ دار الكفر، وهذا مناقضة صريحة لحكم الشرع في إيجاب الهجرة من بلاد الكفر إلىٰ بلاد الإسلام، ويحصل التأقيت بأن ينوي أنه متىٰ زالت الحاجة إلىٰ الإقامة في بلد الكفار، قطع الإقامة وانتقل.

٣- أن يكون بلد الكفار الذي يريد الإقامة فيه دار عهدٍ، لا دار حربٍ، وإلا لم يجز الإقامة فيه، ويكون دار حربٍ إذا كان أهله يحاربون المسلمين.

٤- توفُّر الحرية الدينية في بلد الكفار، والتي يستطيع المسلم بسببها إقامة شعائر دينه الظاهرة.

٥- تمكُّنه من تعلُّم شرائع الإسلام في ذلك البلد، فإن عسر عليه، لم تجز له الإقامة فيه؛ لاقتضائها الإعراض عن تعلُّم دين الله.

٦- أن يغلب ظنه بقدرته علىٰ المحافظة علىٰ دينه، ودين أهله وولده، وإلا لم يَجُز له؛ لأنَّ حفظ الدين أَوْلَىٰ من حفظ النفس والمال والأهل، فمن توفرت فيه هذه الشروط -وما أعسر توفرها! - جاز له أن يقيم في بلاد الكفار، وإلا حرم عليه؛ للنصوص الصريحة الواضحة التي تُحرِّم الإقامة فيها، وتوجب الهجرة منها، وهي معلومةٌ، وللخطورة العظيمة الغالبة علىٰ الدين والخُلُق، والتي لا ينكرها إلا مكابرٌ.

ثانيًا: تحقق الحاجة الشرعية لأخذ الجنسية، وهي أن تتوقف المصالح التي من أجلها أقام المسلم في دار الكفار علىٰ استخراج الجنسية، وإلا لم يجز له؛ لِمَا في

استخراجها من تولي الكفار ظاهرًا، وما يلزم بسببها من النطق ظاهرًا بما لا يجوز اعتقاده، ولا التزامه، كالرضا بالكفر، أو بالقانون، ولأنَّ استخراجها ذريعة إلىٰ تأبيد الإقامة في بلاد الكفار، وهو أمر غير جائزٍ -كما سبق- فمتىٰ تحقَّق هذان الأمران، فإنِّي أرجو أن يغفر الله للمسلم المقيم في بلاد الكفار ما أقدم عليه من هذا الخطر العظيم، وذلك لأنه إمَّا مضطرٌّ للإقامة، والضرورة تتيح المحظورة، وإما للمصلحة الراجحة علىٰ المفسدة، والله أعلم. [المصدر]

الشيخ: خالد الماجد عضو هيئة التدريس بكلية الشريعة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية[(١)].

وكذلك خلاصة فتوىٰ لجنة الفتوىٰ المصرية التي وقع عليها رئيس اللجنة الشيخ علي محفوظ، وأمينها الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، الحكم بردَّة مَن يقبل الجنسية الفرنسية.

وكذلك أفتىٰ بذلك الشيخ يوسف الدجوي من كبار العلماء بالأزهر.

وباستقراء الواقع -وهذا أمرٌ محسوسٌ- تجد كل مَن ذهب إلىٰ هناك، واختلط بالقوم، قد تغيَّر قلبه وتأثَّر حتىٰ يصبح لا يستقبح القبيح، ولا ينكر المنكر؛ لأنه ألفه[(٢)]، ولذلك مَنْ يمكث عند المشركين يخشىٰ علىٰ قلبه.

---

(١) «فتاوىٰ واستشارات الإسلام اليوم» (http: //www. islamtoday. net).

(٢) فمن جملة الأشياء التي لها تأثير سيئ علىٰ القلب: إلف العادة، فأنت تجد مَن يغسل ميتًا لأول مرة يتعظ، وتكون له من ذلك عبرة، ثم مع التكرار وممارسة الأمر مرة بعد مرة يألفه، فلا يتأثر بذلك، لذلك ينبغي عليه أن يفعل هذا علىٰ فتراتٍ متباعدةٍ، وألا يكثر منه حتىٰ لا يألفه، وإلف العادة يعالجه الشرع بالاتباع في تنوع العبادات في أوقاتها وكيفياتها وأمكنتها حتىٰ تكسر إلف العادة في القلب.

واعلم أن تطرُّق الشيطان إلىٰ القلب بالشبهة، يكون بالتدريج حتىٰ تجد نفسك فجأةً قد وقعت، ولذلك أمرت الشريعة بمعلمٍ هو من أعظم معالمها[(١)]، هو مبدأ: «سد الذرائع».

حكم الجاسوس في الإسلام:

في «الصحيحين» من حديث علي بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد بن الأسود -وفي روايةٍ: وأبا مرثد الغنوىٰ- وفيها: وكلنا فارس (أي: نركب الخيل) قال: «**انطلقوا حتىٰ تأتوا روضة خاخٍ** -مكان في الطريق من المدينة إلىٰ مكة- **فإنَّ بها ظعينةً** (والظعينة: تطلق علىٰ المرأة المسافرة)، **ومعها كتاب، فخذوه منها**»، وعند التِّرمذيِّ: «**فائتوني به**».

فانطلقنا تَعادَىٰ بنا خيلنا حتىٰ انتهينا إلىٰ الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي من كتابٍ. وفي روايةٍ: أنهم بعد أن فتشوا الرحل، قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: واللهِ، ما كَذَبنا، ولا كُذِبنا. فقلنا: لتخرجن الكتاب، أو لنلقين الثياب. وعند الترمذي: أو لنجردنكِ، لذا خافت المرأة لما رأته من عزمٍ أكيدٍ من الصحابة رضوان الله عليهم[(٢)]، فأخرجته من عقاصها -أَيْ: كانت قد لفَّت ضفائرها علىٰ

---

(١) بل إن الإمام ابن القيِّم -عليه رحمة الله- وهو يقدم هذا المعلم في كتابه الماتع «إعلام الموقعين عن رب العالمين»، ذكر من أدلته تسعةً وتسعين دليلًا، ثم قال: ولنقتصر علىٰ هذا العدد من الأدلة الموافق لأسماء الله الحسنىٰ التي مَن أحصاها، دخل الجنة، تفاؤلًا بأنه من أحصىٰ هذه الوجوه، وعلم أنها من الدين، وعمل بها، دخل الجنة.

(٢) وهنا يظهر أثر العقيدة في سلوك المسلم، ومن ظن أن أي تصرفٍ قد يصدر عنه من غير اعتقادٍ، فهو واهم، فالاعتقاد في القلب هو الذي يدفع للعمل، لذا نقول دائمًا: العقيدة ثم العقيدة ثم العقيدة، فهي التي تحكمنا، وتجعلنا علىٰ أرض صلبة، فعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا أخبَره النبي ﷺ بأمر الظعينة، صار هذا اعتقادًا عنده، فصدق أن مع المرأة الكتاب؛ لأنَّ النبي ﷺ أخبره بذلك، وإن كان لم يجده في

الكتاب- فأتينا به رسول الله ﷺ وهو مطوي، فإنَّما كان فقط السمع والطاعة لكلام النَّبيِّ ﷺ، ولم ينظر فيه أحدٌ منهم حتىٰ قرأ علىٰ النَّبيِّ ﷺ؛ لأنه كان أُميًّا لا يقرأ، ولا يكتب، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلىٰ أناس من المشركين من أهل مكة، يخبرهم ببعض أمرِ رسول الله ﷺ. وفي روايةٍ: يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من السير إليهم، وهذا شيء كبير جدًّا، فالنبي ﷺ دعا ربه، فقال: «**اللهم خذ العيون والأخبار عن قريشٍ حتىٰ نبغتها في بلادها**»، فقال رسول الله ﷺ: «**يا حاطب، ما هذا؟**»، والكتاب مفروش فيه الكلام مكتوبًا[(١)].

قال: يا رسول الله، لا تعجل عليَّ -أَيْ: اصبر حتىٰ تسمع مني- إنِّي كنت امرءًا ملصقًا في قريشٍ، ولم أكن من أَنْفسها، وكان مَن معك من المهاجرين لهم قراباتٌ بمكة، يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببتُ إذ فاتني ذلك من النَّسَب فيهم أن أتَّخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلت كفرًا، ولا ارتدادًا، ولا رضًا بالكفر بعد

= أول الأمر، وكذلك لما قتل حرقوص بن زهير ذو الثدية يوم النهروان الذي كان بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبين مَن كفروه، قال علي بن أبي طالب: ابحثوا عن ذي الثدية. قالوا: يا أمير المؤمنين، ما وجدناه في القتلىٰ. قال: والله، ما كَذَبت، ولا كُذِّبت، ابحثوا عن ذي الثدية، فذهبوا ثلاث مراتٍ، ولم يجدوه. يقول ابن عباس: فكرب علي كربًا شديدًا، ونزل وأخذ يجول في أرض المعركة حتىٰ وصل إلىٰ خربةٍ فيها تسعة من القتلىٰ بعضهم فوق بعض، فأزاح الثمانية، فإذا بذي الثدية أسود منتن الرائحة بالعلامة التي قالها النبي ﷺ، فوقف علي وقال: صدق الله، وصدق رسوله. وهذا ناتج عن اعتقاد أيضًا، وكذلك لابد أن يكون المسلم، فمثلًا لما يأتينا الخبر الصادق بأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، فلابد ألا نقلق، وألا نخاف، ومعلوم أن لوازم شهادة أن محمدًا رسول الله، تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما عنه نهىٰ وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع، ولذلك سميت بالشهادة مع كونها من القول، والشهادة لا تطلق إلا علىٰ الرؤية، فأنت تقول: أشهد أن محمدًا رسول الله، وأنت لم تره، ولكن من شدة يقينك بالخبر تكون كأنك رأيته.

(١) وهذا يؤخذ منه أنك إذا رأيت فعلًا منكرًا من مكلف، فاسأله أولًا: ماذا تفعل؟ لعله لا يعلم مثلًا.

الإسلام[(١)]، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد صدقكم**».

قال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق[(٢)]. قال: «**إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع علىٰ أهل بدرٍ، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم**».

وفي روايةٍ: فأنزل الله السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ٢ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣﴾ [الممتحنة: ١-٣].

وَالخطابُ هنا في الآيات لحَاطِبٍ، وقد صدَّره الله ﷻ بلفظ الإيمان، وإن كان سبب النُّزول قد جاء عامًّا، فمن باب أَوْلَىٰ يدخل فيه السبب، فلا يخرج منه حاطب بن أبي بلتعة، أي أنَّ الله تعالىٰ خاطبه بلفظ الإيمان، فانتبه لذلك، فالفعل فعل نفاق، ولكنه تأول، أو معذور، أو يجهل، أو لأنه من أهل بدرٍ، والخطاب إلىٰ كل مسلمٍ كما ذكر الإمام الذهبي -عليه رحمة الله تعالىٰ- في ترجمة حاطب بن أبي بلتعة بعد ذكر هذه القصة المشهورة أن الزم غرسك، وإياك أن تنتقص أحدًا من الصحابة

---

(١) ولكن هذا لا يتفق مع الذي حدث -وهذا مثل الذي يدَّعي أن قلبه أبيض وهو يفعل ويفعل- لذلك تجده رضي الله عنه أنه كان امرءًا ملصقًا في قريش -أي: ليس منهم- وأن الذين مع النبي ﷺ لهم عندهم يدٌ، وأنه أراد أن يتخذ عند قريش يدًا، فهو في ذلك نظر إلىٰ أنه من المحتمل أن تكون الغلبة للكفار، فإن عدوا علىٰ المسلمين فلعثمان بن عفان -مثلًا- قرابة فيهم، وكذلك لأبي بكرٍ ولعمر وغيرهم رضي الله عنهم جميعًا، فهم بذلك يأمنون عند الغنيمة ألا يأسرهم أحد مثلًا، فأراد حاطب أن يتخذ عند قريش يدًا، ففعل هذا، بحيث لو تمكنوا منهم يكون هو الذي أخبَرهم بخبَر النبي ﷺ من قبل، فيأمنهم.

(٢) أي: نفاقًا عقديًّا، والنبي ﷺ أقرَّ عمر علىٰ كلامه مما يدل علىٰ أن الفعل فعل نفاقٍ بالفعل.

لزلةٍ صدرت منه، وإياك أن تنتقص من قدر حاطب بن أبي بلتعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما تسمع، فهو من أهل بدرٍ، والله قال لهم: «**اعملوا ما شئتم**».

ولكن الحق أنَّ زمن التشريع يقدر الله في الأزل أن تحدث فيه مثل هذه الأشياء؛ كالغامدية التي زنت، وماعز كذلك، والمخزومية التي سرقت، وكقصة حسان بن ثابت لما وقع في عائشة فجلد، وهكذا، هذا كله حتىٰ يعلم كل سفيهٍ في كل وقتٍ - كالعلمانيين الآن- أن الشريعة طبقت بالفعل، وليست كلامًا نظريًّا، بل هي واقعٌ عمليٌّ طبق علىٰ الصحابة، كما نقل لنا، كما أنَّ هذه الزلات لا بد ألَّا تحرك في قلوبنا شيئًا تجاه الصحابة الأكابر، فإنَّ شرف الصُّحبة لا تعادله طاعة من الطاعات؛ لأنه من الممكن أن يقول واحدٌ منَّا الآن: صحابي وتجسس! أمَّا أنا فلا أفعل مثل هذا، فيتعجَّب من هذه الأمور، ولسان حاله أنه أفضل من هؤلاء.

واعلم أنَّ كون حاطب من أهل بدرٍ منعت عنه القتل، لا إطلاق الحكم، فالفعلة فعلة كفر، ولكن النبي ﷺ حَالَ بين عمر وبين قتل الرجل؛ لأنه من أهل بدرٍ.

لذلك لمَّا تكلم العلماء رحمهم الله عن الجاسوس المسلم الذي يتجسس لصالح العدو[1]، كانت لهم ثلاثة أقوالٍ، والثلاثة الاستدلال فيها بقصة حاطب، والأقوال هي:

القتل: بأنه يقتل؛ لأن المانع الذي عند حاطب لا يوجد عند غيره.

المنع: وهؤلاء قالوا بذلك؛ لأن النبي ﷺ لم يقتل.

---

(١) العدو هو غير المسلمين، فالناس عندنا صنفان: صديقنا المسلم، وعدونا غير المسلم.

رد المرجعية إلىٰ وليِّ الأمر: وهذا هو الراجح، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية عليه رحمة الله، وهو أن الأمر يرجع إلىٰ رأي الإمام، فَإنْ رأىٰ القتل يقتل، وَإنْ رأىٰ أن يتركه ويُعزِّره، فله ذلك، والله -تبارك وتعالىٰ- أعلىٰ وأعلم.

وهذا التَّشهير بالعلماء والدعاة يكون ناتجًا عن مرض الحسد أيضًا -وقد مرَّ معنا- وهذا يُبيِّن قبح الحسد، وأنه صفةٌ من صفات النفاق الاعتقادي، فمثلًا: تجد العالِم أو الداعية قد وضَع الله له القبول عند الناس، فكلَّما ذهب إلىٰ مكانٍ، لقيته الآلاف المؤلفة، وهو ما رئي إلا صادعًا بالحق، رافعًا لراية السُّنة، ولكن له هنات شأنه شأن البشر، فتجد القوم يتلقفون هذه الزلات ينشرونها، ويخذلون عنه.

وقَدْ ذكرنا أنَّ الله ﷻ إذا أنعم علىٰ عبدٍ بنعمةٍ، فمَن حزن لهذا الإنعام من الله تعالىٰ علىٰ غيره، لا بد أن يسأل نفسه: لِمَ يحزن لذلك؟ ولو تدبرنا الأمر لوجدنا أن السبب الحقيقي لذلك إنما هو عدم الفهم الصحيح لما عند الله ﷻ، ويتَّضح المقصود من ذلك بمثالٍ: تصور أن لرجل رئيسًا في العمل، وهذا الرئيس بالطبع إمكانياته وعطاياه محدودة؛ لأنه من البشر، لذلك إِنْ نَافَسه أحدٌ عليه، فإنه ينافسه، وربما إذا تقرَّب منه، سعىٰ بينهما بالنميمة حتىٰ يوقع بينهما؛ لأن عطايا هذا الرئيس محدودة، وهو يخشىٰ أن يستأثر بها الآخر، ولكن هذا الكلام لا يكون مع الله ﷻ، فيَدَاه مبسوطتان، سحَّاء الليل والنهار، فلا تقلق، فهذا الذي يأخذ من ثواب الله لن ينقص من أجر عملك شيئًا، فخزائن الله تعالىٰ لا تنفد، والعاقل الكَيِّس لا يقلق علىٰ عطاءٍ غير محدودٍ.

رابعًا: من علامات النفاق الأكبر:

المسرَّة بانخفاض دِينِ الرسول ﷺ، أو الكراهية بانتصار دِينِ الرسول ﷺ.

أي: السرور والمحبة لضعف الإسلام والمسلمين، فإذا ضعف المسلمون، وانخفض دين الإسلام، فرح المنافق، واستبشر، وسرَّه ذلك.

قال شيخ الإسلام: فَمِنَ النفاق ما هو أكبَر، ويكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار، كنِفَاقِ عبد الله بن أُبَي وغيره بأن يظهر تكذيب الرسول، أو جحود بعض ما جاء به، أو بغضه، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه، أو المسرَّة بانخفاض دينه، أو المساءة بظهور دينه، ونحو ذلك، ممَّا لا يكون صاحبه إلا عدوًّا لله ورسوله.

وهذا القدر كان موجودًا في زمن رسول الله ﷺ، وما زال بعده، بل هو بعده أكثر منه علىٰ عهده؛ لكون موجبات الإيمان علىٰ عهده أقوىٰ، فإذا كانت مع قوتها وكان النفاق معها موجودًا، فوجوده فيما دون ذلك أَوْلَىٰ[(١)].

قال تعالىٰ: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١٢٠].

قال الطبريُّ: عن قتادة: قوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ﴾، فإذا رأوا من أهل الإسلام ألفةً وجماعةً وظهورًا علىٰ عدوهم، غاظهم ذلك وساءهم، وإذا رأوا من أهل الإسلام فرقةً واختلافًا، أو أصيب طرفٌ من أطراف المسلمين، سَرَّهم ذلك، وأُعْجبوا به، وابتهجوا به، فهم كلما خرج منهم قرنٌ، أكذب الله أحدوثته، وأوطأ محلَّته، وأبطل حُجَّته، وأظهر عورته، فذاك قضاء الله فيمَن مضىٰ

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ٤٣٤).

منهم، وفيمن بقي إلىٰ يوم القيامة[١].

قال ابن كثيرٍ: قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾، وهذه الحال دالَّة علىٰ شدة العداوة منهم للمؤمنين، وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصبٌ ونصرٌ وتأييدٌ، وكثروا وعزَّ أنصارهم، ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سَنةٌ (أي: جدب)، أو أُديل عليهم الأعداء؛ لِمَا لله في ذلك من الحكمة، كما جرىٰ يوم أُحُد- فرح المنافقون بذلك[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [التوبة: ٥٠].

قال الطبري: يقول -تعالىٰ ذِكْره- لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، إِنْ يُصبك سرورٌ بفتح الله عليك أرض الروم في غزاتك هذه، يسؤ الجد بن قيس ونظراءه وأشياعهم من المنافقين، وإن تصبك مصيبة بفلول جيشك فيها، يقول الجد ونظراؤه: «قد أخذنا أَمْرنا من قبل»، أي: قد أخذنا حِذْرنا بتخلُّفنا عن محمدٍ، وترك أتباعه إلىٰ عدوه ﴿مِن قَبْلُ﴾، يقول: من قبل أن تصيبه هذه المصيبة ﴿وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾، يقول: ويرتدوا عن مُحمَّدٍ وهم فرحون بما أصاب محمدًا وأصحابه من المصيبة بفلول أصحابه، وانهزامهم عنه، وقَتل مَن قُتِلَ منهم[٣].

وقال ابن كثيرٍ: يعلم -تبارك وتعالىٰ- نبيَّه بعداوة هؤلاء له؛ لأنه مهما أصابه من ﴿حَسَنَةٌ﴾، أي: فتح ونصر وظفر علىٰ الأعداء ممَّا يسرُّه ويسرُّ أصحابه، ساءهم

---

(١) «تفسير الطبري = جامع البيان»، ت: شاكر (٧/ ١٥٦).

(٢) «تفسير ابن كثير» ت: سلامة (٢/ ١٠٩).

(٣) «تفسير الطبري = جامع البيان»، ت: شاكر (١٤/ ٢٨٩).

ذلك، ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾، أي: قد احترزنا من متابعته من قبل هذا، ﴿وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝٥٠﴾، فأرشد الله تعالىٰ رسوله -صلوات الله وسلامه عليه- إلىٰ جوابهم في عداوتهم هذه التَّامَّة، فقال: ﴿قُل﴾، أي: لهم ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾، أي: نحن تحت مشيئة الله وقدره ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾، أي: سيِّدنا وملجؤنا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: ونحن مُتوكِّلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل[(١)].

قال الشوكانيُّ: قوله تعالىٰ: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾، أي حسنة كانت، بأيِّ سببٍ اتفق، كما يفيده وقوعها في حيِّز الشرط، وكذلك القول في المصيبة، وتدخل الحسنة والمصيبة الكائنة في القتال، كما يفيده السياق دخولًا أوليًّا، فمن جملة ما تصدق عليه الحسنة: الغنيمة والظفر، ومن جملة ما تصدق عليه المصيبة: الخيبة والانهزام، وهذا ذكر نوعٍ آخر من خبث ضمائر المنافقين، وسوء أفعالهم، والإخبار بعظيم عداوتهم لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، فإنَّ المساءة بالحسنة، والفرح بالمصيبة من أعظم ما يدلُّ علىٰ أنَّهم في العداوة قد بلغوا إلىٰ الغاية[(٢)].

وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ۝٤٨﴾ [التوبة: ٤٨].

قال ابن كثيرٍ: يقول تعالىٰ محرضًا لنبيه ﷺ علىٰ المنافقين: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾، أي: لقد أعملوا فِكْرهم، وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك، وخذلان دينك وإخماله مدةً طويلةً، وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة،

---

(١) «تفسير ابن كثير»، ت: سلامة (٤/ ١٦٢).

(٢) «تفسير ابن كثير»، ط: العلمية (٤/ ١٤١).

رَمَته العرب عن قوس واحدة، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها، فلمَّا نصره الله يوم بدرٍ، وأعلىٰ كلمته، قال عبد الله بن أُبي وأصحابه: هذا أمرٌ قد توجه، فدخلوا في الإسلام ظاهرًا، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله، غاظهم ذلك وساءهم، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾[1].

وما أكثرَ ما نلاحظ هذه الصفة في المنافقين المعاصرين من الساسة والإعلاميين والحداثيين والعقلانيين -كما يزعمون- وغيرهم، حيث يصيبهم الهمُّ والغمُّ والحزن، ويظهرون الكراهية حينما ينتصر المسلمون في بلدٍ من البلدان، وبالمقابل يظهرون الفرح والسرور والتَّشفِّي بما يصيب المؤمنين من هزيمةٍ ومصائب ومحنٍ، وقد يُبَرِّرون هذا السلوك بوجود انحرافاتٍ وأخطاءٍ لدىٰ بعض المسلمين، وهذا المبرر أو التأويل وإن عذر المتأولون المجتهدون، فلا عذر لكثيرٍ من هؤلاء؛ لأنه لا يعرف عنهم حرصٌ علىٰ التديُّن، أو غيرةٌ علىٰ الدين، وإنَّما يحرصون علىٰ ما يرضي أولياءهم الحقيقيين من اليهود والنصارىٰ ونحوهم، وهذا السلوك المشين يدل علىٰ فسادٍ في عمل القلب من الحب والفرح، أو البغض والكراهة.

ومن أمثال هؤلاء الرافضة قال عنهم شيخ الإسلام: فالرافضة يوالون مَن حارب أهل السنة والجماعة، ويوالون التتار، ويوالون النصارىٰ. وقد كان بالساحل بين الرافضة وبين الفرنج مهادنة حتىٰ صارت الرافضة تحمل إلىٰ قبرص خيل المسلمين وسلاحهم وغلمان السلطان وغيرهم من الجند والصبيان، وإذا انتصر المسلمون علىٰ التتار، أقاموا المآتم والحزن، وإذا انتصر التتار علىٰ المسلمين، أقاموا الفرح والسرور.

---

(١) «تفسير ابن كثير»، ت: سلامة (٤/ ١٦١).

وهم الذين أشاروا علىٰ التتار بقتل الخليفة، وقتل أهل بغداد، ووزير بغداد ابن العلقمي الرافضي هو الذي خامر علىٰ المسلمين، وكاتب التتار حتىٰ أدخلهم أرض العراق بالمكر والخديعة، ونهىٰ الناس عن قتالهم، وقد عرف العارفون بالإسلام أنَّ الرافضة تميل مع أعداء الدين[1]. انتهىٰ من «مجموع الفتاوىٰ».

فهل يعي المسلمون بعامَّة، والمنتسبون إلىٰ الدَّعوة وأهل العلم بخاصة- هذه الحقيقة؟

وهل يعي هذه الحقيقة مَنْ لايزالون يدافعون عن القوم، ويُحْسنون الظَّنَّ بهم، أو يتحالفون معهم، ويُعلِّقون عليهم الآمال لنصرة الدين؟

ويدخل في هذا مَن فرح بإسكات مَن يدعو لدين الله الحق دون إفراطٍ أو تفريطٍ، مستندًا في دعوته للكتاب والسُّنة بفهم سلف الأمة، ومن باب أَوْلَىٰ من أسكته، والله المستعان.

خامسًا: من علامات النفاق الأكبر:

بُغض النبي ﷺ، أو ما جاء به، أو بعض ما جاء به:

أي: كره النبي ﷺ، أو ما جاء به، أو بعض ما جاء به، حتىٰ لو عمل بهذا الأمر، فمثلًا: من يكره السواك ولكنه يتسوك، فهذا نفاق اعتقادي، والصحيح أن يحب المسلم الشرع؛ فرائضه ومستحباته، وإن لم يعمل ببعض ما فيه.

والدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾ [محمد: ٨، ٩].

---

(١) «مسألة في الكنائس» (ص١١٤).

قال ابن كثيرٍ: أَيْ: لا يريدونه، ولا يحبُّونه[(١)].

قال السعدي: قوله تعالىٰ: ﴿كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من القرآن الذي أنزله الله، صلاحًا للعباد، وفلاحًا لهم، فلم يقبلوه، بل أبغضوه وكرهوه ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾[(٢)].

في «صحيح مسلم»[(٣)]، باب الدليل علىٰ أن حب الأنصار وعليٍّ رضي الله عنهم من الإيمان وعلاماته، وبغضهم من علامات النفاق.

ثمَّ روىٰ بسنده عن عبد الله بن عبد الله بن جَبْر قال: سَمعتُ أنسًا قال: قال رسول الله ﷺ: «**آيةُ المنافق بُغْضُ الأنصار، وآيةُ المؤمن حبُّ الأنصار**»[(٤)].

وفي روايةٍ عن عدي بن ثابت، قال: سمعت البَراء يُحدِّث عن النبي ﷺ أنه قال في الأنصار: «**لا يُحبُّهم إلَّا مؤمنٌ، ولا يبغضهم إلا منافقٌ، مَن أحبَّهم أحبَّه الله، ومَن أبغضهم أبغضه الله**»[(٥)].

وفي روايةٍ: عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا يبغض الأنصار رجلٌ يؤمن بالله واليوم الآخر**»[(٦)].

وفي روايةٍ عن عدي بن ثابتٍ، عن زرٍّ، قال: قال عليٌّ: والذي فلق الحبة، وبَرَأ النسمة، إنه لعهد النبي الأمي ﷺ إليَّ: «**ألَّا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق**»[(٧)].

---

(١) «تفسير ابن كثير»، ت: سلامة (٧/ ٣١٠).
(٢) «تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن» (ص ٧٨٥).
(٣) «صحيح مسلم» (١/ ٨٥).
(٤) «صحيح مسلم» (٧٤).
(٥) «صحيح مسلم» (٧٥).
(٦) «صحيح مسلم» (٧٦).
(٧) «صحيح مسلم» (٧٨).

قال النووي: ومعنىٰ هذه الأحاديث أنَّ مَن عرف مرتبة الأنصار، وما كان منهم في نصرة دين الإسلام، والسعي في إظهاره، وإيواء المسلمين، وقيامهم في مهمات دين الإسلام حق القيام، وحبهم النبي ﷺ، وحبه إياهم، وبذلهم أموالهم وأنفسهم بين يديه، وقتالهم ومعاداتهم سائر الناس إيثارًا للإسلام، وعرف من عليِّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قُرْبه من رسول الله ﷺ، وحب النَّبيِّ ﷺ له، وما كان منه في نصرة الإسلام وسوابقه فيه، ثم أحب الأنصار وعليًّا، لهذا كان ذلك من دلائل صحة إيمانه وصدقه في إسلامه؛ لسروره بظهور الإسلام، والقيام بما يُرْضي الله ﷻ ورسوله ﷺ، ومَنْ أبغضهم كان بضدِّ ذلك، واستدلَّ به علىٰ نفاقه، وفساد سريرته، والله أعلم[(١)].

قال الحافظ: «الأنصار» هو جمع «ناصرٍ»؛ كأصحابٍ وصاحبٍ، أو جمع نصير كأشراف وشريف، واللام فيه للعهد، أي: أنصار رسول الله ﷺ، والمراد: الأوس والخزرج، وكانوا قبل ذلك يُعْرفون ببني قيلة، وهي الأم التي تجمع القبيلتين، فسماهم رسول الله ﷺ الأنصار، فَصار ذلك علمًا عليهم، وأطلق أيضًا علىٰ أولادهم وحلفائهم ومواليهم، وخصوا بهذه المنقبة العظمىٰ لما فازوا به دون غيرهم من القبائل من إيواء النَّبيِّ ﷺ ومَن معه، والقيام بأمرهم، ومواساتهم بأنفسهم وأموالهم وإيثارهم إيَّاهم في كثيرٍ من الأمور علىٰ أنفسهم، فكان صنيعهم لذلك موجبًا لمعاداتهم جميع الفرق الموجودين من عربٍ وعجمٍ، والعداوة تجرُّ البغض، ثم كان ما اختصوا به ممَّا ذكر موجبًا للحسد، والحسد يجر البغض، فلهذا جاء التحذير من بغضهم والترغيب في حبهم حتىٰ جعل ذلك آية الإيمان والنفاق تنويهًا بعظيم

---

(١) «شرح النووي علىٰ مسلم» (٢/ ٦٤).

فضلهم، وتنبيهًا علىٰ كريم فعلهم، وإن كان مَن شاركهم في معنىٰ ذلك مشاركًا لهم في الفضل المذكور، كلٌّ بقسطه[(١)].

وقال أيضًا: فمَن أبغضهم من جهة هذه الصفة وهي كونهم نصروا رسول الله ﷺ، أثَّر ذلك في تصديقه، فيصح أنه منافق[(٢)].

قال صاحب «المفهم»: وأما الحروب الواقعة بينهم، فإن وقع من بعضهم بغضٌ، فذاك من غير هذه الجهة، بل للأمر الطارئ الذي اقتضىٰ المخالفة، ولذلك لم يحكم بعضهم علىٰ بعضٍ بالنفاق، وإنَّما كان حالهم في ذاك حَالَ المجتهدين في الأحكام؛ للمصيب أجران، وللمخطئ أجر واحد، والله أعلم[(٣)].

والتَّفصيل في حب وبغض الأنصار المذكور في الحديث كالتفصيل الذي مرَّ في حُكْم سب الصحابة.

وأمَّا بُغْض ما جاء به النبي ﷺ، فهو في الحقيقة بُغْضٌ للدين، فلا بد من التفريق بين مَن يعمل بالدين وهو محبٌّ، ومَن يعمل بالدين وهو كارهٌ؛ كمَن يكره النقاب مثلًا، ويقول: أنا حين أرىٰ النقاب يضيق صدري، ولا أرتاح، فمثل هذا حكم علىٰ نفسه؛ لأنَّ النقاب لا يقلُّ عن درجة الاستحباب بإجماع العلماء، وكذلك أن يبغض الحكم بما أنزل الله تعالىٰ.

ولا بدَّ من التَّنبيه علىٰ أن المسلم من الممكن أن يفعل الطاعة والعبادة، وفيها ثقلٌ علىٰ النفس، وهذا ليس من البغض؛ كمَن يتأذىٰ ويتألم من طول القيام في الصلاة

---

(١) «فتح الباري» لابن حجر (١/ ٦٣).
(٢) «فتح الباري» لابن حجر (١/ ٦٣).
(٣) «فتح الباري» لابن حجر (١/ ٦٣).

مثلًا، أو من الصيام في شدة الحر، فهذا ليس بالبغض، ولكنه أثر طبعي للعبادة، فالبغض يكون من القلب.

سادسًا: من علامات النِّفاق الأكبر:

تكذيب النَّبيِّ ﷺ في كلِّ أو بعض ما جاء به:

فكما هو معلومٌ، وقرَّره المُتقدِّمون من العلماء: أنَّ النصوص الشرعية سواء من الكتاب، أو السنة- لا تخرج عن كونها خبرًا يصدق، أو أمرًا ينفذ، فإن كذب إنسان خبرًا من أخبار النبي ﷺ، فهو علىٰ نوعٍ من أنواع النفاق العقدي؛ سواء كان هذا الخبر في القرآن، أو صحيح السنة.

فأمَّا بالنسبة للقرآن، فالذين يسلكون هذا المسلك لا يجرؤ أحدٌ منهم أن يكذب شيئًا ممَّا في القرآن صراحةً، ولكن من الممكن أن يكذبه عن طريق التأويل، فمَن اشتبه عليه الأمر من هؤلاء، فلا بدَّ من بيان الأمر له وتوضيحه، فإن رجع فخيرٌ، وإلا فحكمُهُ كحكم مَن تقدَّم، أي: النفاق الاعتقادي، أما سنة النبي ﷺ ففيها الإشكال، فهي التي يكذبونها، وطريقة أهل البدع في تكذيب السُّنَّة المطهَّرة في عصرنا الحالي لا تخرج عن أمرين اثنين:

التكذيب الصَّريح: وهو قليلٌ، ولا شك أنه نفاق عقدي.

التكذيب بالتأويل: وهو مَن يتلاعب بالنص، أو تكون عنده شبهة، أو يفعل ذلك نتيجةً لمصادمة النَّصِّ لعقله، وهذا الصنف لا شك أنه من أهل البدع، ولكنه يعذر ويبين له الحق، فإن أصرَّ، فحكمه حكم المصرح[(١)].

---

(١) ولابد هنا من النظر فيمَن سيقيم الحجة ابتداءً، وأيضًا فيمن سيطبق الحد، فإقامة الحجة ليست مقصودةً لذاتها، وإنما هي مقصودة لتبعاتها، وهي إقامة الحد، فنحن في بعض مسائل الشريعة نتكلم،

فمثلًا: كل مَن كذب النبي ﷺ في مسألة عذاب القبر، ثم يقول: ائتوني بدليلٍ من القرآن، فأنا لا أعتَرف بالأحاديث التي بين أيديكم، فهذا يبين له، فإن أصرَّ فلا شك أنه منافق نفاقًا عقديًّا خرج عن الملة، يستتاب، فإن تاب وإلا يَضرب السلطان عنقه ولا كرامة.

المرجعيَّة لأهل الاختصاص في الحكم علىٰ الحديث:

ففي واقعنا الآن تجد الهجوم كله علىٰ السنة، وإن كان تحت مسميات متعددة، لذا فلكي ينضبط الأمر، ولا يُسمح لكل زنديقٍ أن يتكلم، لا بد أن نلتزم بأن الحكم بنسبة الحديث إلىٰ النَّبيِّ ﷺ من عدمها إنَّما تكون المرجعية فيها لأهل الاختصاص؛ كيحيىٰ بن معين، وعلي بن المديني، والإمام أحمد، والشيخ أحمد شاكر، وكالألبانيِّ وغيرهم من أهل هذا الفنِّ في زماننا، فإن أَيَّ أمرٍ إن لم يوضع له ضابط، صار سبهللةً.

ونذكر في هذا المقام قصةً طريفةً رواها ابن أبي حاتم في مقدمة «الجرح والتعديل»، قال محمد بن صالح الكيليني: سمعتُ أبا زرعة وقال له رجلٌ: ما الحجة في تعليلكم الحديث؟ قال: «الحُجَّة أن تسألني عن حَدِيثٍ له علة، فأذكر علَّته، ثم تقصد ابن وارة -يعني: محمد بن مسلم بن وارة- وتسأله عنه، ولا تُخْبره بأنك قد سألتني عنه، فيذكر علَّته، ثم تقصد أبا حاتم فيعلله، ثم تميز كلام كل منَّا علىٰ ذلك الحديث، فإن وجدت بيننا خلافًا في علَّته، فاعلم أن كلًّا منَّا تكلم علىٰ مراده، وإن وجدت الكلمة متفقةً، فاعلم حقيقة هذا العلم». قال: ففعل الرجل، فاتفقت كلمتهم عليه، فقال: أشهد أن هذا العلم إلهام[1].

= ثم نقف عند حدٍّ معين؛ لأنه ليس من اختصاصنا.

(١) «معرفة علوم الحديث - إحياء العلوم» (ص ١٧٥).

وقال أبو حاتمٍ الرازي: «مثل معرفة الحديث كمَثَل فصٍّ ثمنه مئة دينارٍ، وآخر مثله علىٰ لونه ثمنه عشرة دراهم»[(١)].

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتمٍ الرازي: سمعتُ أبي يقول: «جاءني رجل من جلة أصحاب الرأي -من أهل الفهم منهم- ومعه دفتر، فعرضه عليَّ، فقلت في بعضها: هذا حديث خطأ، قد دخل لصاحبه حديث في حديث، وقلت في بعضه: هذا حديث باطل، وقلت في بعضه: هذا حديث منكر، وقلت في بعضه: هذا حديث كذب، وسائر ذلك أحاديث صحاح، فقال: من أين علمت أنَّ هذا خطأ، وأن هذا باطل، وأن هذا كذب، أخبرك راوي هذا الكتاب بأنِّي غلطت، وأني كذبت في حديث كذا؟! فقلت: لا، ما أدري هذا الجزء من رواية مَنْ هو؟ غير أنِّي أعلم أن هذا خطأ، وأن هذا الحديث باطل، وأن هذا الحديث كذب، فقال: تدَّعي الغيب؟ قال: قلت: ما هذا ادِّعاء الغيب. قال: فما الدليل علىٰ ما تقول؟ قلت: سَلْ عمَّا قلت: مَن يحسن مثلما أحسن، فإن اتفقنا، علمت أنَّا لم نجازف، ولم نقله إلا بفهمٍ. قال: من هو الذي يحسن مثل ما تحسن؟ قلت: أبو زرعة. قال: ويقول أبو زرعة مثل ما قلت؟ قلت: نعم. قال: هذا عجب! فأخذ فكتب في كاغذ -الكاغذ بالذال المعجمة: لغة في الكاغد بالدال المهملة، وهو: القرطاس الذي يُكتب فيه- ألفاظي في تلك الأحاديث، ثم رجع إليَّ وقد كتب ألفاظ ما تكلم به أبو زرعة في تلك الأحاديث، فما قلت: إنه باطل. قال أبو زرعة: هو كذبٌ. قلت: الكذبُ والباطلُ واحدٌ، وما قلت: إنه كذبٌ. قال أبو زرعة: هو باطل، وما قلت: إنه منكر. قال: هو منكر، كما قلت، وما قلت: إنه صحاح، قال أبو زرعة: هو صحاح، فقال: ما أعجب هذا! تتفقان من غير مواطأةٍ فيما

(١) «جامع العلوم والحكم»، ط: المعرفة (ص ٢٥٦).

بينكما! فقلت: فَقَدْ بان لك أنَّا لم نجازف، وإنما قلناه بعلمٍ ومعرفةٍ قد أوتينا، والدليل علىٰ صحة ما نقوله: أن دينارًا نبهرجًا يحمل إلىٰ الناقد، فيقول: هذا دينار نبهرج، ويقول لدينارٍ: هو جيد، فإن قيل له: من أين قلت: إن هذا نبهرج، هل كنت حاضرًا حين بهرج هذا الدينار؟ قال: لا. فإن قيل له: فأخبَرك الرجل الذي بهرجه: إنِّي بهرجت هذا الدينار؟ قال: لا. قيل: فمن أين قلت: إنَّ هذا نبهرج؟ قال: علمًا رزقت، وكذلك نحن رزقنا معرفة ذلك.

قلت له: فتحمل فص ياقوت إلىٰ واحدٍ من البصراء من الجوهريين، فيقول: هذا زجاجٌ، ويقول لمثله: هذا ياقوت. فإن قيل له: من أين علمت أن هذا زجاج، وأن هذا ياقوت؟ هل حضرت الموضع الذي صنع فيه هذا الزجاج؟ قال: لا. قيل له: فهل أعلمك الذي صاغه بأنه صاغ هذا زجاجًا؟ قال: لا. قال: فمن أين علمت؟ قال: هذا علمٌ رزقت، وكذلك نحن رزقنا علمًا لا يتهيأ لنا أن نُخْبرك كيف علمنا بأنَّ هذا الحديث كذب، وهذا حديثٌ منكرٌ إلا بما نعرفه»[(١)].

قال ابن رجبٍ الحنبلي في «جامعه»: والقول في ذلك لأئمة أهل الحديث الجهابذة النقاد الذين كثرت ممارستهم لكلام النبي ﷺ، ولكلام غيره، ولحال رواة الأحاديث، ونَقَلة الأخبار، ومعرفتهم بصدقهم وكذبهم وحفظهم وضبطهم، فإنَّ هؤلاء لهم نقدٌ خاصٌّ في الحديث يختصُّون بمعرفته، كما يختصُّ الصيرفي الحاذق بمعرفة النقود جيدها ورديئها، وخالصها ومشوبها، والجوهري الحاذق في معرفة الجوهر بانتقاد الجواهر، وكل من هؤلاء لا يمكن أن يعبر عن سبب معرفته، ولا يقيم

(١) «الجرح والتعديل». ط: الهند (١/ ٣٤٩).

عليه دليلًا لغيره، وآية ذلك أنه يعرض الحديث الواحد علىٰ جماعةٍ ممن يعلم هذا العلم، فيتفقون علىٰ الجواب فيه من غير مواطأةٍ.

وقد امتحن هذا منهم غير مرةٍ في زمن أبي زرعة، وأبي حاتمٍ، فوجد الأمر علىٰ ذلك، فقال السائل: أشهد أن هذا العلم إلهام. قال الأعمش: كان إبراهيم النخعي صيرفيًّا في الحديث، كنت أسمع من الرجال، فأعرض عليه ما سمعته. وقال عمرو بن قيسٍ: ينبغي لصاحب الحديث أن يكون مثل الصيرفي الذي ينقد الدراهم، فإن الدراهم فيها الزائف والبهرج، وكذا الحديث.

وقال الأوزاعيُّ: كنا نسمع الحديث، فنعرضه علىٰ أصحابنا كما نعرض الدرهم الزائف علىٰ الصَّيارفة، فما عَرَفوا أَخَذنا، وما أنكروا تَرَكْنا.

وقيل لعبد الرحمن بن مهديٍّ: إنك تقول للشيء: هذا صحيح، وهذا لم يثبت، فعمَّن تقول ذلك؟ فقال: أرأيت لو أتيت الناقد فأريته دراهمك، فقال: هذا جيد، وهذا بهرج، أكنت تسأله عمن ذلك، أو تُسلِّم الأمر إليه؟ قال: لا، بل كُنْتُ أُسلِّم الأمر إليه. قال: فهذا كذلك لطول المجالسة والمناظرة، والخبَر به.

وقد رُوِيَ نحو هذا المعنىٰ عن الإمام أحمد أيضًا، وأنه قيل له: يا أبا عبد الله، تقول: هذا الحديث منكرٌ، فكيف علمت ولم تكتب الحديث كله؟ قال: مَثَلنا كَمَثل ناقد العين لم تقع بيده العين كلها، فإذا وقع بيده الدينار، يعلم بأنه جيد، أو أنه رديء.

وقال ابن مهدي: معرفة الحديث إلهام. وقال: إنكارنا الحديث عند الجهال كهانة.

وقال أبو حاتمٍ الرازي: مثل معرفة الحديث كمثل فصٍّ ثمنه مائة دينارٍ، وآخر مثله علىٰ لونه ثمنه عشرة دراهم، قال: وكما لا يتهيَّأ للناقد أن يخبر بسبب نقده، فكذلك نحن رزقنا علمًا لا يتهيأ لنا أن نخبر كيف علمنا بأن هذا حديث كذب، وأن

هذا حديث منكر إلا بما نعرفه. قال: وتعرف جودة الدينار بالقياس إلىٰ غيره، فإن تخلف عنه في الحمرة والصفاء، علم أنه مغشوش، ويعلم جنس الجوهر بالقياس إلىٰ غيره، فإن خالفه في المائية والصلابة، علم أنه زجاج، ويعلم صحة الحديث بعدالة ناقليه، وأن يكون كلامًا يصلح مثله أن يكون كلام النبوة، ويعرف سقمه وإنكاره بتفرُّد مَنْ لم تصحَّ عدالته بروايته، والله أعلم.

وبكل حالٍ، فالجهابذة النُّقَّاد العارفون بعلل الحديث أفراد قليل من أهل الحديث جدًّا، وأول من اشتهر في الكلام في نقد الحديث: ابن سيرين، ثم خلفه أيوب السختياني، وأخذ ذلك عنه شعبة، وأخذ عن شعبة يحيىٰ القطان وابن مهدي، وأخذ عنهما أحمد، وعلي بن المديني، وابن معين، وأخذ عنهم مثل: البخاري وأبي داود وأبي زرعة وأبي حاتم.

وكان أبو زرعة في زمانه يقول: قَلَّ مَن يفهم هذا، وما أعزَّه إذا دفعت هذا عن واحدٍ واثنين، فما أقلَّ مَن تجد مَن يحسن هذا! ولمَّا مات أبو زرعة، قال أبو حاتمٍ: ذهب الذي كان يُحْسن هذا -يعني: أبا زرعة- ما بقي بمصر ولا بالعراق واحد يحسن هذا.

وقيل له بعد موت أبي زرعة: تعرف اليوم واحدًا يعرف هذا؟ قال: لا.

وجاء بعد هؤلاء جماعةٌ، منهم: النسائي والعقيلي وابن عدي والدارقطني، وقَلَّ مَن جاء بعدهم مَن هو بارعٌ في معرفة ذلك حتىٰ قال أبو الفرج ابن الجوزي في أول كتابه «الموضوعات»: قد قَلَّ مَن يفهم هذا، بل عدم، والله أعلم[1].

---

(١) «جامع العلوم والحكم». ط: المعرفة (ص ٢٥٦).

فهذه هي صنعة علماء المصطلح، فمتىٰ سمع أحدهم الحديث، وحكم عليه، فلا نزيد عليه إلا بحجةٍ قويةٍ، فَهُمْ فقط الذين يُسْمح لهم بالتكلُّم في هذا الأمر، ولا يعدل عليهم، وهذا حق شرعي عقلي عرفي لهم؛ لأن كل الناس الآن يتشدقون بقولهم: هذا من أهل الاختصاص في الأمر الفلاني[(١)].

لذلك، إن قال أهل الاختصاص في الحديث والسنة بثبوت حديثٍ ما، فأمسك عليك لسانك، وقل بثبوته، وإن لم تستطع أن تستوعبه بعقلك، فدع الأمر لأصحاب العقول يتعاملون معه، فمثلًا في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ... فذكر أحاديث منها: وقال رسول الله ﷺ: «**جاء مَلَك الموت إلىٰ موسىٰ عليه السلام، فقال له: أجب ربك. قال: فلطم موسىٰ عليه السلام عين مَلَك الموت، ففقأها، قال: فرجع المَلَك إلىٰ الله تعالىٰ، فقال: إنك أرسلتني إلىٰ عبدٍ لك لا يريد الموت، وقد فقأ عيني. قال: فردَّ الله إليه عينه، وقال: ارجع إلىٰ عبدي، فقل: الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة، فضع يدك علىٰ متن ثورٍ، فما توارت يدك من شعرةٍ، فإنك تعيش بها سنةً، قال: ثم مَهْ؟ قال: ثم تموت. قال: فالآن من قريبٍ، ربِّ أَمِتْني من الأرض المقدسة، رميةً بحَجَرٍ**»، قال رسول الله ﷺ: «**والله، لو أنِّي عنده، لأريتكم قَبْره إلىٰ جانب الطريق عند الكثيب الأحمر**»[(٢)].

وقد شرح «صحيح البخاري» أكثر من ثلاثمائة عالِمٍ، لم يتكلم أحدٌ منهم في الحديث من ناحية الصناعة الحديثية، ولا بد من الرجوع إلىٰ كلام هؤلاء عند فَهم النص، فإذا جاء بعض مَن يريدون التكذيب، ولكن يغلفون ذلك بغلافِ الشرع

---

(١) وإن كانوا لو سألتهم: ما هو ضابط كون أحدٍ من أهل الاختصاص يسكتون ولا يجيبون، وإن أجابوا يقولون بأنه ينبغي أن تكون معه شهادة معتمدة، وهذا الكلام لا سند له بالطبع.

(٢) رواه البخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٣٧٢).

والذب عن السنة، فلا يلتف إلىٰ كلامهم، ومن هؤلاء محمد الغزالي السقا، قال في كتابه «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث»: وقد وقع لي وأنا بالجزائر أن طالبًا سألني: أصحيح أن موسىٰ عليه السلام فقأ عين مَلَك الموت عندما جاء لقبض روحه بعدما استوفىٰ أجله؟

فقلت للطالب وأنا ضائق الصدر: وماذا يفيدك هذا الحديث؟ إنه لا يتصل بعقيدةٍ، ولا يرتبط به عملٌ، والأمة الإسلامية اليوم تدور عليها الرَّحىٰ، وخصومها طامعون في إخماد أنفاسها، اشْتَغِلْ بما هو أهمُّ وأَجْدىٰ.

قال الطالب: أَحببتُ أن أعرف: هل الحديث صحيح أم لا؟

فقلتُ له مُتبَرِّمًا: الحديث مرويٌّ عن أبي هريرة، وقد جادل البعض في صحته، وعدت لنفسي أفكر: إن الحديث صحيح السند، لكن متنه يثير الريبة؛ إذ يفيد أنَّ موسىٰ يكره الموت، ولا يحب لقاء الله بعدما انتهىٰ أجله، وهذا المعنىٰ مرفوضٌ بالنسبة إلىٰ الصالحين من عباد الله، كما جاء في الحديث الآخر: «**مَن أحبَّ لقاء الله، أحبَّ الله لقاءه**»، فكيف بأنبياء الله؟ وكيف بواحدٍ من أولي العزم؟ إن كراهيته للموت بعدما جاء مَلَكه أمرٌ مستغرب، ثم هل الملائكة تعرض لها العاهات التي تعرض للبشر من عمًىٰ، أو عورٍ؟ ذلك بعيد.

قلت (أي: الغزالي): لعلَّ متن الحديث معلول، وأيًّا ما كان الأمر، فليس لدي ما يدفعني إلىٰ إطالة الفكر فيه، فلما رجعت إلىٰ الحديث في أحد مصادره، ساءني أن الشارح جعل رد الحديث إلحادًا، وشرع (أي: الشارح) يفند الشبهات الموجهة إليه، فلم يزدها إلا قوةً...

ثمَّ قال بعد ذلك (أي: الغزالي): هذا الدِّفاع كله خفيف الوزن، وهو دفاع تافه لا يساغ، ومن وصم منكر الحديث بالإلحاد، فهو يستطيل في أعراض المسلمين، والحق أن في متنه علة قادحة تنزل به عن مرتبة الصحة، ورفضه أو قبوله خلاف فكري وليس خلافًا عقائديًّا، والعلة في المتن يبصرها المحققون، وتخفىٰ علىٰ أصحاب الفكر السطحي[(١)]. اهـ.

تعليقٌ علىٰ ما قاله الغزالي:

قال ابن بطالٍ: قال أبو بكرٍ محمد بن إسحاق بن خزيمة: أنكر بعض أهل البدع والجهمية هذا الحديث ودفعوه، وقالوا: لا يخلو أن يكون موسىٰ عرف مَلَك الموت، أو لم يعرفه، فإن كان عرفه فقد ظلمه، واستخفَّ برسول الله، ومَن استخف برسول الله، فهو مستخف بالله، وإن كان لم يعرفه فرواية مَن روىٰ أنه كان يأتي موسىٰ عيانًا لا معنىٰ لها.

قال الجهمي: وزعمت الحشوية أن الله لم يقاصص المَلَك من اللطمة وفقء العين، والله تعالىٰ لا يظلم أحدًا.

قال ابن خزيمة: وهذا اعتراض من أعمىٰ الله بصيرته، ولم يبصره رشده، ومعنىٰ الحديث صحيح علىٰ غير ما ظنه الجهمي، وذلك أن موسىٰ ﷺ لم يبعث الله إليه مَلَك الموت وهو يريد قبض روحه حينئذٍ، وإنما بعثه إليه اختبارًا وابتلاءً، كما أمر الله خليله إبراهيم بذبح ابنه، ولم يُرِدْ تعالىٰ إمضاء الفعل، ولا قتل ابنه، ففَدَاه بذبحٍ عظيمٍ، قال تعالىٰ: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥]،

---

(١) «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» (ص٢٧-٢٩).

ولو أراد قَبْض روح موسىٰ حين ألهم مَلَك الموت، لكان ما أراد؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]، وكانت اللطمةُ مباحةً عند موسىٰ إذا رأىٰ شخصًا في صورة آدمي قد دخل عنده لا يعلم أنه مَلَك الموت، وقد أباح الرسول ﷺ فقء عين الناظر في دار المسلم بغير إذنٍ، رواه بشير بن نهيك، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**مَن اطَّلع في دار قومٍ بغير إذنٍ، ففقأ عينه، فلا دية، ولا قصاص**»، رواه النسائي بسندٍ صحيحٍ. ومحالٌ أن يعلم موسىٰ أنه مَلَك الموت، ويفقأ عينه، وكذلك لا ينظره إلا بعلمه، وقد جاءت الملائكة خليل الله إبراهيم ولم يعرفهم في الابتداء حتىٰ أعلموه أنهم رسل ربهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ [هود: ٦٩، ٧٠].

ولو علم إبراهيم في الابتداء أنهم ملائكة الله، لكان من المحال أن يقدم إليهم عجلًا؛ لأن الملائكة لا تطعم، فلما وجس منهم خيفةً، ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾، وقد أخبَر الله أن رسله جاءت لوطًا، فسيء بهم، وضاق بهم ذرعًا، ومحالٌ أن يعلم في الابتداء أنهم رسل الله ويضيق بهم ذرعًا، أو يسيء بهم.

وقد جاء المَلَك إلىٰ مريم فلم تعرفه، واستعاذت منه، ولو علمت مريم في الابتداء أنه مَلَكٌ جاء يبشرها بغلامٍ يبرئ الأكمه والأبرص، ويكون نبيًّا، ما استعاذت منه، فكيف يستنكر ألا يعرف موسىٰ مَلَك الموت حين دخل عليه.

وقد جاء جبريل النَّبيَّ ﷺ، وسأله عن الإيمان والإسلام في صورةٍ لم يعرفه النَّبيُّ ﷺ، ولا أحد من أصحابه، فلما ولَّىٰ، أخبر النبيُّ أنه جبريل. وكان يأتيه في بعض

الأوقات مرةً في صورةٍ، ومرةً في صورةٍ أخرىٰ، وأخبر ﷺ أنه لم يرَ جبريل في صورته التي خُلق عليها إلا مرتين.

وأمَّا قول الجهمي: إنَّ الله لم يقاصص مَلَك الموت من اللطمة، فهو دليلٌ علىٰ جهل قائله، ومَن أخبره أنَّ بين الملائكة وبين الآدميين قصاص؟ ومَن أخبره أن مَلَك الموت طلب القصاص من موسىٰ، فلم يقاصصه الله منه؟ وقد أخبرنا الله تعالىٰ أن موسىٰ قتل نفسًا ولم يقاصص الله منه لقتله. وقيل: إذا كانت اللطمة غير مباحةٍ، يكون حكمها علىٰ كل الأحوال حكم العمد، فيه القصاص، أو تكون في بعض الأحوال خطأ تجب فيه الدية علىٰ العاقلة، وما الدليل أن فقء عين مَلَك الموت كان عمدًا فيه القصاص دون أن يكون خطأً، وهل تَرْك القصاص من موسىٰ لمَلَك الموت لو كان فقأ عين الملك عمدًا، وكان حكم الملائكة مع بني آدم القصاص كحكم الآدميين إلا كتَرْك القصاص من موسىٰ لقتيله، وكتَرْك القصاص من أحد بني آدم لأخيه.

وقد يأمر النَّبيُّ ﷺ بالأمر علىٰ وجه الاختبار والابتلاء، لا علىٰ وجه الإمضاء لأمره، وهذا كأمر سليمان بن داود بقطع الصبي اثنين، وإنما أراد أن يختبر: مَن أُمُّ الصبي؛ لأن الأم أحنىٰ علىٰ ولدها وأشفق، فلما رضيت إحداهما بقطع الصبي، ورضيت الأخرىٰ بدفعه إلىٰ الثانية، بان عنده وظهر أن أُمَّ الصبي هي التي اختارت حياة ابنها، وكذلك بعث الله مَلَك الموت إلىٰ موسىٰ للابتلاء والاختبار.

وقد أَخْبَرنا نبيُّنا ﷺ أنَّ الله تعالىٰ لم يقبض نبيًّا قط حتىٰ يريه مقعده من الجنة ويُخيِّره، فلا يجوز أن يؤمر مَلَك الموت بقبض روحه قبل أن يريَه مقعده من الجنة، وقبل أن يُخيِّره، والله وليُّ التوفيق[1]. انتهىٰ كلام ابن خزيمة بتصرفٍ.

---

(١) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٣/ ٣٢٢-٣٢٥).

قال النووي: قال المازري: وقد أنكر بعض الملاحدة هذا الحديث، وأنكر تصوره، قالوا: كيف يجوز علىٰ موسىٰ فقء عين مَلَك الموت؟

قال: وأجاب العلماء عن هذا بأجوبةٍ:

أحدها: أنه لا يمتنع أن يكون موسىٰ ﷺ قد أَذِنَ الله تعالىٰ له في هذه اللطمة، ويكون ذلك امتحانًا للملطوم، والله ﷻ يفعل في خلقه ما شاء، ويمتحنهم بما أراد.

والثاني: أن هذا علىٰ المجاز، والمراد: أنَّ موسىٰ ناظره وحاجه، فغلبه بالحجة، ويقال: فقأ فلان عين فلان إذا غالبه بالحجة، ويقال: عورت الشيء إذا أدخلت فيه نقصًا، قال: وفي هذا ضعفٌ؛ لقوله ﷺ: «**فردَّ الله عينه**»، فإن قيل: أراد ردَّ حجته، كان بعيدًا.

والثالث: أنَّ موسىٰ ﷺ لم يعلم أنه مَلَكٌ من عند الله، وظن أنه رجل قصده يريد نفسه، فدافعه عنها، فأدَّت المدافعة إلىٰ فقء عينه لا أنه قَصَدها بالفقء، وتُؤيِّده رواية: «**صكَّه**»، وهذا جواب الإمام أبي بكر بن خزيمة وغيره من المتقدمين، واختاره المازري والقاضي عياض، قالوا: وليس في الحديث تصريحٌ بأنه تعمَّد فقء عينه.

فإن قيل: فقد اعترف موسىٰ حين جاءه ثانيًا بأنه مَلَك الموت، فالجواب: أنه أتاه في المرة الثانية بعلامةٍ علم بها أنه مَلَك الموت، فاستسلم بخلاف المرة الأولىٰ، والله أعلم[1]. انتهىٰ.

قال البغويُّ في «شرح السنة»: هذا الحديث يجب علىٰ المرء المسلم الإيمان به علىٰ ما جاء به من غير أن يعتبره بمَا جرىٰ عليه عُرف البشر، فيقع في الارتياب؛ لأنه أمرٌ مصدره عن قدرة الله ﷻ، وحكمه، وهو مجادلة بين مَلَك كريم، ونبي كليم، كل واحدٍ منهما مخصوص بصفةٍ خرج بها عن حكم عوام البشر، ومجاري عاداتهم في

---

(١) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٥/ ١٣٠).

المعنىٰ الذي خُصَّ به، فلا يعتبر حالهما بحال غيرهما، وقد اصطفىٰ الله ﷻ موسىٰ برسالاته وبكلامه، وأيَّده بالآيات الظاهرة، والمعجزات الباهرة؛ كاليد البيضاء، والعصا، وانفلاق البحر، وغيرها ممَّا نطق به القرآن، ودلت عليه الآثار، وكل ذلك إكرامٌ من الله ﷻ أكرمه بها، فلمَّا دنت وفاته وهو بشرٌ يكره الموت طبعًا، ويجد ألمه حسًّا، لطف له بأن لم يفاجئه به بغتةً، ولم يأمر المَلَك الموكل به أن يأخذه به قهرًا، لكن أرسله إليه منذرًا بالموت، وأمره بالتعرض له علىٰ سبيل الامتحان في صورة بشرٍ، فلما رآه موسىٰ، استنكر شأنه، واستوعر مكانه، فاحتجز منه دفعًا عن نفسه بما كان من صكِّه إياه، فأتىٰ ذلك علىٰ عينه التي ركبت في الصورة البشرية التي جاءه فيها دون صورة الملكية التي هو مجبولٌ عليها، وقد كان في طبع موسىٰ ﷺ حميةٌ وحدَّةٌ، علىٰ ما قص الله علينا من أمره في كتابه من وَكْزه القبطي، وإلقائه الألواح، وأَخْذه برأس أخيه يجرُّه إليه.

وروي أنه كان إذا غضب، اشتعلت قلنسوته نارًا، وقد جرت سُنَّة الدين بدفع مَن قصدك بسوءٍ، كما جاء في الحديث: «**مَن اطلع في بيت قومٍ بغير إذنهم، حلَّ لهم أن يفقئوا عينه**»، فلما نظر موسىٰ إلىٰ شخصٍ في صورة بشرٍ، هجم عليه يريد نفسه، ويقصد هلاكه، وهو لا يثبته، ولا يعرفه أنَّه رسول ربِّه، دفعه عن نفسه، فكان فيه ذهاب عينه، فلمَّا عاد المَلَك إلىٰ ربه، ردَّ الله إليه عينه، وأعاده رسولًا إليه، ليعلم نبي الله ﷺ إذا رأىٰ صحة عينه المفقوءة أنه رسول الله، بعثه لقبض روحه، فاستسلم حينئذٍ لأمره، وطاب نفسًا بقضائه، وكل ذلك رفقٌ من الله ﷻ، ولطفٌ منه في تسهيل ما لم يكن بدٌّ من لقائه، والانقياد لمورد قضائه، قال: وما أشبه معنىٰ قوله: «**ما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله تردُّدي عن نفس المؤمن**»، يكره الموت بترديده رسوله مَلَك

الموت إلىٰ نبيه موسىٰ عليه السلام فيما كرهه من نزول الموت به، وقد ذكر هذا المعنىٰ أبو سليمان الخطابي في كتابه ردًّا علىٰ مَن طعن في هذا الحديث، وأمثاله من أهل البدع والملحدين أبادهم الله، وكفىٰ المسلمين شرهم[(١)].

قال المعلمي اليماني في كتابه «الأنوار الكاشفة»: ثبت في الكتاب والسنة أنَّ الملائكة قد يتمثَّلون في صور الرجال، وقد يراهم كذلك بعض الأنبياء، فيظنهم من بني آدم، كما في قصتهم مع إبراهيم، ومع لوط عليهما السلام، وقال الله تعالىٰ في مريم عليها السلام [١٧ - ١٩]: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨﴾.

وفي السنة أشياء من ذلك، وأشهرها ما في حديث السؤال عن الإيمان والإسلام والإحسان، فمَن كان جاحدًا لهذا كله، أو مرتابًا فيه، فليس كلامنا معه، ومن كان مصدقًا، علم أنه لا مانع أن يتمثل مَلَك الموت رجلًا، ويأتي إلىٰ موسىٰ، فلا يعرفه موسىٰ[(٢)]. انتهىٰ.

قول الغزالي السقا: «لكن متنه يثير الريبة؛ إذ يفيد أن موسىٰ يكره الموت، ولا يحب لقاء الله تعالىٰ بعدما انتهىٰ أجلُهُ»، وهذا المعنىٰ مرفوضٌ بالنسبة إلىٰ عباد الله الصالحين... إلخ. كلامه.

لا بدَّ من التفريق بين كراهية الموت، وبين كراهية لقاء الله:

في «الصحيحين»، واللفظ لمسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَن أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه**»، فقلت: يا نبيَّ

---

(١) «شرح السنة» للبغوي (٥/ ٢٦٦-٢٦٨).

(٢) «الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء علىٰ السنة من الزلل والتضليل والمجازفة» (ص ٢١٩).

الله، أكراهية الموت؟ فكلُّنا نكره الموت، فقال: «**ليس كذلك، ولكن المؤمن إذا بُشِّر برحمة الله ورضوانه وجنَّته، أحبَّ لقاء الله، فأحبَّ الله لقاءه، وإن الكافر إذا بُشِّر بعذاب الله وسخطه، كره لقاء الله، وكره الله لقاءه**»(١).

دلَّ الحديث دلالةً صريحةً بإقرار النبي ﷺ لعائشة علىٰ قولها: «فكلنا نكره الموت»، علىٰ أننا جميعًا نكره الموت بحكم الجِبلَّةِ التي جبلنا عليها، أما بالنسبة لكراهية لقاء الله، فالجواب ما قاله النووي: هذا الحديث يفسر آخره أوله، ويبين المراد بباقي الأحاديث المطلقة: «مَن أحب لقاء الله، ومن كره لقاء الله»، ومعنىٰ الحديث أن الكراهة المعتبرة هي التي تكون عند النزع في حالةٍ لا تقبل توبته، ولا غيرها، فحينئذٍ يبشر كل إنسانٍ بما هو صائرٌ إليه، وما أُعدَّ له، ويكشف له عن ذلك، فأهل السعادة يحبُّون لقاء الله لينتقلوا إلىٰ ما أُعدَّ لهم، ويحب الله لقاءهم، فيجزل لهم العطاء والكرامة، وأهل الشقاوة يكرهون لقاءه لما علموا من سوء ما ينتقلون إليه، ويكره الله لقاءهم، فيبعدهم عن رحمته وكرامته، ولا يريد ذلك بهم، وهذا معنىٰ كراهته سبحانه لقاءهم، وليس معنىٰ الحديث أنَّ سبب كراهة الله تعالىٰ لقاءهم كراهتهم ذلك، ولا أنَّ حبه لقاء الآخرين حبهم ذلك، بل هو صفة لهم(٢).

ويزيد كلام النووي إيضاحًا ما رواه مسلم عن شريح بن هانئ، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومَن كره لقاء الله، كره الله لقاءه**»، قال: فأتيت عائشة، فقلت: يا أم المؤمنين، سمعت أبا هريرة يذكر عن رسول الله ﷺ حديثًا، إن كان كذلك، فقد هلكنا، فقالت: إن الهالك مَن هلك بقول

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٤).

(٢) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٧/ ١٠).

رسول الله ﷺ، وما ذاك؟ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه**»، وليس منَّا أحدٌ إلا وهو يكره الموت، فقالت: قد قاله رسول الله ﷺ، وليس بالذي تذهب إليه، ولكن إذا شخص البصر، وحشرج الصدر، واقشعرَّ الجلد، وتشنَّجت الأصابع، فعند ذلك مَن أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه[(١)].

وعليه، فلا تلازم بين كراهية الموت، وبين كراهية لقاء الله تعالىٰ.

قول الغزالي السقا: «ساءني أن الشارح جعل رد الحديث إلحادًا».

هذا القول من الغزالي تشنيعٌ علىٰ أئمة المسلمين غير مقبولٍ، وحمله علىٰ ذلك عدم التدقيق في كلام الأئمة، وإليك نص كلام الإمام المازري، قال: «وقَدْ أنكر بعض الملاحدة هذا الحديث»، فمقصد الإمام أنَّ هناك طائفةً من الملاحدة أنكرت هذا الحديث، وليس مقصده أنَّ مَن ردَّ الحديث فهو ملحدٌ، فتأمل.

العلامة السابعة من علامات النفاق العقدي:

إيذاء النَّبيِّ ﷺ بأي نوعٍ من أنواع الإيذاء المعنوي أو الحسي:

والدليل علىٰ هذه العلامة: قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة: ٦١]، فقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُمُ﴾، أي: من المنافقين.

قال ابن كثيرٍ: يقول تعالىٰ: «ومن المنافقين قومٌ يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه[(٢)]، ثم قال الله تعالىٰ بعد ذلك في الآيات: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ

(١) رواه مسلم (٢٦٨٥).

(٢) «تفسير ابن كثير». ت: سلامة (٤/ ١٧٠).

لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَآ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ [التوبة: ٦٣]، وهذا محل الشاهد.

لمَّا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ وَصْف المنافقين بأنهم يؤذون النبي ﷺ، أعقب ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾، فدلَّ علىٰ أن الإيذاء من المحادة.

ونحن نجد في مواقف كثيرة جاءتنا أن رجلًا يقوم فيتكلم بكلمةٍ ما ينبغي أن تُقَال للنبي ﷺ، فنجد أكثر من صحابيٍّ قال في مثل هذه المواقف: ائذن لي يا رسول الله أن أضرب عنقه، وذلك لأنه آذىٰ النبي ﷺ، كما أن السب والشتم والسخرية والاستهزاء -ولا شكَّ- يدخلون في الإيذاء من باب أَوْلَىٰ.

وأمَّا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾، فقد قال الإمام الجوهري -عليه رحمة الله- وغيره من أهل اللغة: إن معنىٰ: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أنه يسمع لكل ما يقال، ولا يميز بين غثٍّ وسمينٍ، أي أن المنافقين يعنون بهذا القول -كبرت كلمة تخرج من أفواههم- أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يستطيع أن يُميِّز بين ما يسمعه من كلامٍ طيبٍ، وكلامٍ خبيثٍ، وهذا لا شكَّ أنه من أكبر أنواع الإيذاء، فلا يوجد أحدٌ يقبل ذلك علىٰ نفسه.

وقال عزَّ من قائلٍ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وهذا أيضًا وعيدٌ بأن من آذىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ له العذاب المهين.

وجاء التشريع من قِبَلِ المولىٰ عَزَّوَجَلَّ بحرمة نكاح أي مسلمٍ من الصحابة أو غيرهم لإحدىٰ زوجات النبي ﷺ بعد موته ﷺ، أو بعد طلاقها، والدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فهذا محرمٌ، ففيه إيذاءٌ للنبي ﷺ.

قال ابن كثير: ولهذا، أجمع العلماء قاطبةً علىٰ أن مَن تُوفِّي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم علىٰ غيره تزويجها من بعده؛ لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة، وأمهات المؤمنين كما تقدم. واختلفوا فيمَنْ دخل بها، ثمَّ طلقها في حياته: هل يحلُّ لغيره أن يتزوجها؟ علىٰ قولين، مأخذهما: هل دخلت هذه في عموم قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾، أم لا؟ فأمَّا من تزوجها، ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فما نعلم في حلها لغيره -والحالة هذه- نزاعًا، والله أعلم[1].

حكم التعدُّد إذا آذىٰ والد الزوجة الأولىٰ:

يتفرَّع من هذه العلامة المذكورة حكمٌ فقهيٌّ شرعيٌّ استلَّه العلماء، وهو حكم منع تعدد الزوجات بحجة أن والد الزوجة القديمة سيؤذىٰ من زواج الرجل علىٰ ابنته.

بدايةً، ولا شك أن زواج الرجل لامرأةٍ أخرىٰ لا بد أنه سيسبب لزوجته القديمة ولأهلها إيذاءً، ولا يستطيع أحد أن يقول غير هذا، ولكن الشريعة عند النظر في مثل هذه الأشياء تأخذ في الاعتبار عظم المصلحة المترتبة علىٰ هذا الأمر مع قلة المفسدة الناتجة عنه، فقال العلماء: إنَّ المصلحة المترتبة علىٰ التعدُّد -بضوابطه الشرعية، والاستطاعة المعنويَّة والحسِّيَّة- كبيرة جدًّا، أمَّا الإيذاء الذي سيترتب علىٰ ذلك للزوجة القديمة ولأهلها، فلا يعتبر بجوار هذه المصلحة.

ولذلك، استدلال كثيرٍ من الناس بأنَّ النبيَّ ﷺ منع علي بن أبي طالب من أن يتزوج علىٰ فاطمة؛ لأن هذا سيؤذيه ﷺ - استدلالٌ في غير محله؛ لأن الحكم

---

(١) «تفسير ابن كثير». ت: سلامة (٦/ ٤٥٥).

الشرعي هنا خاصٌّ بالنبي ﷺ؛ لأن الأذىٰ بأيِّ نوعٍ من أنواعه في حقه ﷺ محرمٌ، بل كبيرة من الكبائر، بل من أفعال المنافقين.

ومن أجل هذا -كما في «الصحيحين» من حديث المسور بن مخرمة- لما أراد عليُّ بن أبي طالبٍ -رضي الله عنه وأرضاه- أن يتزوَّج علىٰ فاطمة رضي الله عنها ابنة أبي جهل، ووصل الخبر النبي ﷺ، كان ممَّا قال ﷺ: «**وَإِنِّي لستُ أُحرِّم حلالًا، ولا أُحلُّ حرامًا، ولكن -والله- لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدوِّ الله أبدًا**»(١).

وفي روايةٍ: «**إن بني هشام بن المغيرة استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب، فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي، وينكح ابنتهم، فإنما هي بضعةٌ مني، يريبني ما أرابها، ويؤذيني ما آذاها**»(٢).

قال الحافظ: لكنه منعه النبي ﷺ؛ رعايةً لخاطر فاطمة، وقبل هو ذلك امتثالًا لأمر النبي ﷺ، والذي يظهر لي أنه لا يبعد أن يعد في خصائص النبي ﷺ ألَّا يتزوج علىٰ بناته، ويحتمل أن يكون ذلك خاصًّا بفاطمة عليها السلام(٣).

ومن أجل هذا، قال العلماء بألَّا حجة لمن قال بمنع التعدُّد عند حصول الإيذاء؛ استدلالًا بواقعة النبي ﷺ مع علي بن أبي طالبٍ وفاطمة رضي الله عنها؛ لأن هذه من خصوصيات النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١١٠)، ومسلم (٢٤٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٣٠).

(٣) «فتح الباري» لابن حجر (٩/ ٣٢٩).

العلامة الثامنة من علامات النفاق العقدي:

عدم اعتقاد وجوب تصديق النبي ﷺ في كلِّ ما أخبر:

فعلىٰ كلِّ مسلمٍ أن يصدق النبي ﷺ في كلِّ ما أخبَر، وأن يعتقد ذلك، وهذه الأمور مهمة جدًّا في وقتنا الحالي، فإن تزلزلت الجبال، لا يتزلزل هذا الاعتقاد في قلبك؛ لأنه إنْ حدث شيءٌ في هذا الاعتقاد، فهذا نفاق عقدي، والعياذ بالله، فالإيمان خبَر لازم له التصديق، والأمرُ لازمٌ له التنفيذ علىٰ قدر الاستطاعة، وتصديق النبي ﷺ في كلِّ ما أخبَر من لوازم ومقتضيات قول العبد: «وأشهد أن محمدًا رسول الله».

ومن أمثلة وقوع المنافقين علىٰ عهد النبي ﷺ في هذا الأمر: أنه ﷺ قال - والحديث عند مسلمٍ من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لتفتحن عصابةٌ من المسلمين** -أو: من المؤمنين- **كنز آل كسرىٰ الذي في الأبيض**»، أي: في قصره الأبيض[(١)(٢)]، ولكن في غزوة الخندق التي وصف الله عَزَّوَجَلَّ فيها الصحابة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ١١ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ١٢﴾ [الأحزاب: ٩ - ١٢] - ظهر أثرُ النفاق في قلوب المنافقين من هذا الباب، فقال أحد المنافقين: ألَا تعجبون من محمدٍ، يعدنا أن نطوف بالبيت العتيق، وأن نقسم كنوز فارس والروم، ونحن ها هنا لا يأمن أحدنا أن

---

(١) وقد تحقَّق ذلك في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب علىٰ يد قائده الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩١٩).

يذهب إلىٰ الغائط، أي: يخاف أن يقوم ليقضي حاجته حتىٰ لا يقتل وهو ذاهبٌ، واللهِ لما يعدنا إلا غرورًا.

وهذا بلا شكٍّ طعنٌ في الخبر، فخبر النبي ﷺ لا بد أن يصدق وإن لم نره.

موقف المسلم من العلم التجريبي الحديث:

بدايةً، لا بد من تدبُّر ما حدث في أوائل القرن التاسع عشر في بلاد الكافرين، ففي هذه الفترة فرضت الكنيسة في أوروبا -بالباطل- سيطرتها علىٰ جميع مناحي الحياة، وأصبح القساوسة يصدرون صكوك الغفران، ويبيعون أراضي من الجنة، وغير ذلك من الضلال، فلما جاء العلم التجريبي -وهذا العلم ما استلُّوه إلَّا من الحضارة الإسلامية- وبدأ الناس يثبتون أشياء، ويتأكَّدون منها، وكانت هذه الأشياء إذا ظهرت، تنقدها الكنيسة وتحاربها.

من أجل هذا كله حدث صدام شديد جدًّا بين العلم التجريبي والكنيسة، سحق فيه كثير من علماء الكون من قِبَلِ الكنيسة، وعلىٰ أيدي رجالها، بل من هؤلاء العلماء من دفن حيًّا، وذلك بحجة أن هؤلاء أتوا بأشياء تناقض النصَّ الكَنَسي، ومع استمرار الضغط من الكنيسة، ثار العلم التجريبي كالمارد الذي انتفض، وقامت ثورة العلم علىٰ الكنيسة، ثم اجتمع القوم علىٰ تقليص دور الكنيسة، وحصر نشاطها داخل جدرانها فقط، وفصل العلم الكَنَسي عن الحياة الخارجية بحجة أن علم الكنيسة يتصادم مع العلم الكوني.

هذا ما حدث عندهم، ولكن الإشكال الآن أنَّهم يريدون تطبيق هذه النظرية علىٰ بلاد الإسلام، وهذا ما يُدَندن حوله العلمانيُّون الخبثاء، وهو الفصل بين العلم الديني، والعلم الكوني، وبدأوا -من أجل تحقيق مرادهم- يبحثون عن بعض

النصوص الشرعية التي تؤيد وجهة نظرهم، فبدأ هؤلاء الخبثاء يطعنون في النُّصوص الشرعية بزعم مناقضتها للعلم التجريبي الحديث، وتكذيب العلم لها، حتىٰ بدأ يهتز اعتقاد المسلم في وجوب تصديق النبي ﷺ في كل ما أخبر؛ سواء كان هذا الاعتقاد حقيقةً كونيةً أو شرعيةً، أو من أمور الغيب وما في الآخرة.

والحقُّ الذي يلزم كل مسلمٍ: أن يصدق النبي ﷺ في كلِّ ما أخبَر، أما دعاة العلم التجريبي، فنقف معهم وقفةً عقلانيةً؛ لأنهم أحقر وأذلُّ من أن نقف معهم بالشرع، فالشبهة التي يُلْقونها، والصدام الحاصل بيننا وبينهم أنهم وجدوا بعض النصوص الشرعية لا تتوافَق مع العلم التجريبي علىٰ حَدِّ زعمهم، فعلىٰ سبيل المثال: جاءت الأخبار بوجود المسيح الدَّجَّال علىٰ وجه الأرض مُكبَّلًا محبوسًا في جزيرةٍ، وأيضًا بوجود يأجوج ومأجوج خلف سَدٍّ ينقبونه، وغير ذلك من الأخبار، فَهُمْ يُشكِّكون في هذه النصوص، فيقولون: ما رأيكم في أننا بحثنا في الأرض فلم نجده[(١)]؟ وهذا كلام غير صحيحٍ، وهذه الشبهة العقلية المقيتة من هوانها وضعفها لا تثبت أمام النقد العلمي، فهناك أصل عند العقلاء أن عدم المعرفة لا يدل علىٰ عدم الوجود، فعدم رؤية الشيء، وعدم العلم به لا يدل علىٰ عدم وجوده، وهذا أصلٌ لا يخالف فيه عاقلٌ.

---

(١) حتىٰ جعلوا الأستاذ الإمام محمد عبده -وهذا من القرن التاسع عشر- يشكك في أحاديث المسيح الدجال بحجة أن حديث فاطمة بنت قيس الذي عند مسلم -وفيه ذكر أن المسيح الدجال في جزيرةٍ مسجون في سجن، وعليه حراس- من أحاديث الآحاد، وقد لف أهل الأرض الأرض شبرًا شبرًا -بل الآن صوَّروا الأرض بالأقمار الصناعية- ولم يجدوا هذه الجزيرة، فهذا جعل الأستاذ الإمام ينكر القول بالمسيح الدجال، ويقول بأن النصوص الواردة في المسيح الدجال له فيها نظر؛ لأنها من أحاديث الآحاد، فلا يؤخذ بها في الاعتقاد. فلما رد عليه علماء الحديث بأن أحاديث المسيح الدجال متواترة، وليست من أحاديث الآحاد، أقر بذلك، ولكن استمر في عدم التصديق بوجود المسيح الدجال، وقال بأن النبي ﷺ إنما عبَّر بالمسيح الدجال كرمزٍ للشرِّ والخرافة، فأوَّلَ النص لأجل العلم التجريبي الذي يدَّعونه.

ولذلك، لمَّا ردَّ الشيخ الشنقيطي -عليه رحمة الله تعالىٰ- في كتابه «أضواء البيان» علىٰ مَن أنكر المسيح الدجال ويأجوج ومأجوج، قال: فقولكم: لو كانوا موجودين وراء السد إلىٰ الآن لاطلع عليهم الناس، غير صحيحٍ؛ لإمكان أن يكونوا موجودين والله يخفي مكانهم علىٰ عامة الناس حتىٰ يأتي الوقت المحدد لإخراجهم علىٰ الناس.

وممَّا يؤيد إمكان هذا -وأتىٰ باستدلالٍ عجيبٍ جدًّا من القرآن- ما ذكره الله تعالىٰ في سورة المائدة من أنه جعل بني إسرائيل يتيهون في الأرض أربعين سنةً، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٦]، وهم في فراسخ قليلة من الأرض، يمشون ليلهم ونهارهم ولم يطلع عليهم الناس حتىٰ انتهىٰ أَمدُ التِّيه؛ لأنهم لو اجتمعوا بالناس لبيَّنوا لهم الطريق، وعلىٰ كلِّ حالٍ، فربُّك فعَّال لما يريد.

لذلك، تجد كثيرًا من الحقائق الكونية ما اكتشفت إلا حديثًا، وهي موجودة في الكون منذ خلق السماوات والأرض؛ كاكتشاف الجاذبية الأرضية مثلًا، وغير ذلك، وهذا دليلٌ بَيِّن علىٰ أن عدم العلم بالشيء لا يدل علىٰ عدم وجوده، وأيُّ خبيثٍ يطعن في أصلٍ ثابتٍ ما هو إلا ذنب له كبار يتبعهم، هم الذين يطعنون في الثوابت الشرعية والأخبار.

ملحوظة مهمَّة:

يجب علىٰ المسلم ألَّا ينبهر بما يُسمَّىٰ بالاكتشافات العلمية في شتىٰ مناحي الحياة، ويحمله ذلك علىٰ الشك في بعض الأخبار الواردة في الكتاب، أو صحيح السنة، وليحذر كل مسلمٍ من الحرص علىٰ الربط بين بعض النصوص الشرعية وبين

الاكتشافات الحديثة فيما يسمىٰ بالإعجاز العلمي للقرآن، فأغلب الاكتشافات تخرصات وتوهمات، قليل منها له نصيبٌ من الصحة.

وليعلم المسلم أنَّ الذي خلق الكون بما فيه هو الذي أنزل القرآن والسنة، قال تعالىٰ: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤].

العلامة التاسعة من علامات النفاق العقدي:

عدم اعتقاد وجوب طاعة النبي ﷺ في كل ما أمر:

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [النساء: ١٣، ١٤].

فالمسلم لا بد أن يكون عنده اعتقادٌ بوجوب طاعة النبي ﷺ في كلِّ ما أمر، بِغَضِّ النظر أطاعه بعد ذلك بالفعل أم لم يُطعه، ففرقٌ كبيرٌ بين مَنْ يقرُّ بأنه يجب عليه أن يطيع النبي ﷺ في كلِّ ما أمر، ثم يعجز، أو يتكاسل، أو تغلب عليه شهوته، أو تتحكم فيه شبهة، فيترك شيئًا ممَّا أمر به النبي ﷺ، وبين مَن لا يعتقد وجوب طاعة النبي ﷺ أصلًا.



الفصل الثالث

علامات النفاق الأصغر

مقدمة عن علامات النفاق الأصغر:

علامات النفاق الأصغر، أو النفاق العملي: هي أمورٌ تظهر من بعض المكلفين، ووَصَفها الشارع بالنفاق، بينما أطبقت كلمة علماء أهل السنة علىٰ أنها لا تُخرج مَن تلبَّس بشيءٍ منها من الملة إلا إذا استحلها، وهذا لا يعني أنها أمرٌ هينٌ، وقد أطبق العلماء أن العبد إذا تلبَّس بعلامةٍ من علامات النفاق الأصغر يخشىٰ عليه من الوقوع في النفاق الأكبر، وكأن النِّفاقَ الأصغر خطوة علىٰ طريق النفاق الأكبر، وكأنه عياذًا بالله هو بَريده، لذا لا بد من السعي جاهدين أن نتخلص من علامات النفاق العملي، وإن وقع أحدٌ في شيء منها لبشريته، فلا بد أن يبادر بالتوبة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وفيما يلي ذِكرٌ لبعض هذه العلامات أعاذنا الله عَزَّوَجَلَّ منها:

أولًا: تأخير الصلاة عن وقتها بغير عذرٍ:

والمعني بالوقت: هو وقت أدائها بعد الأذان في مسجد الحيِّ، بِغَضِّ النظر عن الوقت المستغرق حتىٰ يقيم هذا المسجد الصلاة.

والدليل علىٰ ذلك كما في «صحيح مسلمٍ»، من حديث أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتىٰ إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقرها أربعًا لا يذكر الله فيها إلا قليلًا**»[(١)].

---

(١) أخرجه مسلم (٦٢٢).

فالنبي ﷺ شرح في هذا الحديث المعنيَّ بصلاة المنافق، فإنه يجلس يرقب الشمس -أي: الوقت- وليس عنده أي عذرٍ، حتىٰ إذا كانت بين قرني شيطانٍ، قام فنقرها، أي: إذا أشرفت الشمس علىٰ الغروب -كما في الحديث عند مسلمٍ: «**فإنَّها تغرب بين قرني شيطانٍ**»[(١)] - قام فصلَّاها عجلًا، كما ينقر الغراب، وأعذار التخلف عن الصلاة هي النوم والنسيان فقط.

وفي الأثر المشهور عند مسلمٍ: عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه أنه قال: «**مَنْ سَرَّه أن يَلْقىٰ الله غدًا مسلمًا، فليحافظ علىٰ هؤلاء الصلوات حيث ينادىٰ بهنَّ، فإن الله شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدىٰ، وإنهن من سنن الهدىٰ، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته، لتَركتم سُنَّة نبيكم، ولو تركتم سُنَّة نبيكم لضللتم، وما من رجلٍ يتطهر فيحسن الطهور، ثم يعمد إلىٰ مسجدٍ من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوةٍ يخطوها حسنةً، ويرفعه بها درجةً، ويحط عنه بها سيئةً، ولقد رأيتنا** -أي: علىٰ عهد النبي ﷺ، فهذا من السنة العملية، أي: دليل شرعي- **وما يتخلف عنها** -أي: عن الجماعة- **إلا منافق معلوم النفاق** -كعبد الله بن سلول مثلًا- **ولقد كان الرجل يؤتىٰ به يهاديٰ بين الرجلين حتىٰ يُقَام في الصف**»، أي: ليصلي الجماعة[(٢)].

ومما يدلُّ علىٰ فضل الصلاة في الوقت: ما رواه مسلم عن عبد الله بن مسعودٍ أنه سأل النبي ﷺ: أي العمل أحب إلىٰ الله؟ قال: «**الصلاة علىٰ وقتها**». قال:، ثم أي؟ قال: «**ثمَّ بر الوالدين**». قال: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم (٨٣٢).

(٢) أخرجه مسلم (٦٥٤)، باب صلاة الجماعة من سنن الهدىٰ.

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٨٢)، ومسلم (٨٥).

كيف تحافظ علىٰ الصلاة في وقتها:

اعلم أنَّ الحرص علىٰ الصلاة في جماعةٍ -وغيره من أفعال المُكلَّفين- لا يتأتىٰ إلا من اعتقادٍ من الشخص في هذه التكليفات الشرعية، فإن كنت -مثلًا- تعتقد، واستقر في قلبك أن الصلاة في جماعةٍ وغيرها من التكليفات والتشريعات إنما شرعها الله ﷻ لأجل سعادتك في الدارين، فإن النفس البشرية السوية تفعل دائمًا ما يحقق لها السعادة والخير، ولأجل ذلك لن تتأخَّر عن الصلاة أبدًا إلَّا لعذرٍ، وهذا ليس فيه نزاعٌ، فالاعتقاد دائمًا هو المحرك، وهذا الاعتقاد لا يتولَّد عند المكلف إلا إذا تعرف علىٰ ربه ﷻ بحقٍّ، فالله ﷻ شرع من منطلق كونه غنيًّا حكيمًا رحيمًا بنا ﷻ، فأيُّ تشريعٍ -حتىٰ وإن ظهر لنا أنَّ فيه شيئًا من القسوة أو الحرمان- فهو الخير لنا، فمثلًا: غض البصر قد يخيل إلينا أن فيه شيئًا من الحرمان، ولكنه بالنظر الدقيق نجد أن فيه السعادة، فالإنسان إن نظر إلىٰ ما حرم الله ﷻ، لن يقف عند هذا الحد، بل ستأتي التبعات حتىٰ يصل الأمر إلىٰ الفاحشة، والعياذ بالله تعالىٰ، فكان إغلاق الباب من البداية هو الخير.

ومن هذا كله، تفهم قول النبي ﷺ لبلالٍ كما عند أبي داود: «**يا بلال، أقم الصلاة، أرحنا بها**»[(١)]، وعند النسائي وصحَّحه الألبانيُّ من حديث أنسٍ أن النبي ﷺ قال: «**وجُعلَتْ قُرَّة عيني في الصلاة**»[(٢)].

وهذه المعاني لا بد أن تكون عندنا[(٣)]، أمَّا المنافق فهو علىٰ خلاف ذلك،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥)، وصحَّحه الألباني في «المشكاة» (١٢٥٣).

(٢) أخرجه النسائي (٣٩٤٠)، وأحمد (١٤٠٣٧)، وصححه الألباني في «المشكاة» (٥٢٦١).

(٣) فلابد من الموازنة في بناء الشخصية الإسلامية، فلا تغلب جانبًا علىٰ جانب، ولا تستغرق في طلب العلم حتىٰ تترك الواجبات، وكذلك في النوافل، فإن طلب العلم مُقدَّم علىٰ النوافل، ولكن إن تعارضا =

فلسان حاله: «أرحنا منها يا بلال»، فالمسألة عنده حركات تُؤدَّىٰ، ثم لا تؤثر فيه، وهذا الذي بالكاد يحافظ علىٰ الصلوات إنما هو منافقٌ، كما ذكر النبي ﷺ في حديث صلاة المنافق المذكور آنفًا(١).

التخلُّف عن صلاة الفجر وصلاة العشاء:

والدليل علىٰ ذلك ما ثبت في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ أثقل صلاةٍ علىٰ المنافقين: صلاة العشاء، وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتَوهما ولو حبوًا**»(٢)، لذلك ضع لنفسك مقياسًا علىٰ قدر التزامك بصلاة الفجر بالذات، فهذه هي المحكُّ الذي يظهر المتمسك بدينه من غيره.

وهناك مَن يحتج علىٰ تفويته صلاة الفجر بحديث صفوان بن المعطل السلمي، ثم الذكواني(٣) الذي عند أبي داود، وصحَّحه الألبانيُّ عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال: جاءت امرأةٌ إلىٰ النبي ﷺ ونحن عنده، فقالت: يا رسول الله، إنَّ زوجي

= من كل وجهٍ، ولكن الواقع أنها قد تتعارض معه في بعض الأحيان، ولا تتعارض في أحيان أخرىٰ، فلا يصح أن تضيع قيام الليل بالكلية من أجل طلب العلم، ولكن من الممكن أن تقلل كم القيام مثلًا؛ لأن التضرع لله عز وجل والتنسك والعبادة تُولِّد في القلب الخشوع والمهابة، وهذا الذي نريده، فأنت تجد المرء أحيانًا عنده من العلم الكثير، ولكن في قلبه جفاء شديد، وذلك لأنه اهتمَّ بجانبٍ علىٰ حساب جانبٍ آخر.

(١) ولذلك: إن كنت صاحب عملٍ حرٍّ، فاضبط عملك علىٰ أوقات الصلوات الخمس، وكذلك ينبغي علىٰ ولاة الأمور أن ينظموا أعمال الناس بحيث لا تتعارض مع الصلوات، وهذا في غير حالات الضرورة، فمثلًا: إن كان العمل مستمرًّا طوال اليوم -كأعمال الحراسة مثلًا- يقسم الناس، فيصلي بعضهم أولًا، ويحرس الباقون، ثم يصلي مَن لم يصلِّ، ويحرس مَن صلىٰ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧)، ومسلم (٦٥١).

(٣) وهذا العبد الصالح الصحابي البدري هو الذي اتهمه المنافقون في السيدة عائشة رضي الله عنها، وبرَّأهما الله عز وجل في التنزيل.

صفوان بن المعطل يضربني إذا صلَّيت، ويفطرني إذا صمت، ولا يصلي صلاة الفجر حتىٰ تطلع الشمس. قال: وصفوان عنده. قال: فسأله عمَّا قالت، فقال: يا رسول الله، أما قولها: يضربني إذا صليت، فإنها تقرأ بسورتين وقد نهيتها. قال: فقال: «**لو كانت سورةً واحدةً لكفت النَّاس**»، وأما قولها: «يفطرني»، فإنها تنطلق فتصوم، وأنا رجل شاب فلا أصبر، فقال رسول الله ﷺ يومئذٍ: «**لا تصوم امرأةٌ إلا بإذن زوجها**»[(١)]، وأما قولها: إنِّي لا أصلي حتىٰ تطلع الشمس، فإنَّا أهل بيتٍ قد عرف لنا ذاك -أي: أنَّ هذا من طبيعتهم- لا نكاد نستيقظ حتىٰ تطلع الشمس. قال: «**فإذا استيقظت فَصلِّ**»[(٢)].

وليس في هذا الحديث حُجَّة، وإنما يؤخذ منه أنه لا بد من الأخذ بالأسباب الكونية والشرعية؛ كالنوم مبكرًا، والنوم علىٰ وضوءٍ، واستقبال القبلة عند أول الرقاد، والأذكار، وضبط المنبه، والاستعانة بالله قبل كل شيءٍ علىٰ فعل هذا، ثم إن لم تستيقظ بعد كل هذا، فرحمة الله واسعة، وهذا الذي يُقَاس علىٰ الحالة التي في الحديث المذكور، أما غير ذلك فليس في الحديث حُجَّة، مع مراعاة أنَّ هذا يختلف من شخصٍ لآخر، فطبائع الناس في النوم تختلف.

واعلم أَنَّ النَّبيَّ ﷺ الذي قال مثل هذا الحديث هو بنفسه الذي كان يكره وينهىٰ عن السَّمَر بعد العشاء، وغير ذلك مما ينافي الأخذ بأسباب القيام لصلاة الفجر، لذلك

---

(١) وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا تصوم المرأة وبعلها شاهد إلا بإذنه**». وعند أبي داود: «**غير رمضان**»، لذلك لأهل العلم في هذا الحديث قولان معتبران، الراجح منهما أنَّ الحديث علىٰ ظاهره، وليس معلولًا بعلةٍ، فالحضور هنا المعنيُّ به الحضور بجسده، وليس رغبة الإتيان، فحتىٰ لو كان الزوج مريضًا، أو غير قادرٍ لأي سببٍ، فعلىٰ المرأة أن تستأذنه، وهذا يدلُّ علىٰ عمق الشريعة، ودقة تشريعها، فمن الممكن أن يعتري الإنسان أي عارضٍ، فيريد أن يأتي أهله.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٤٥٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢١٧٢).

قال العلماء: لو أن إنسانًا انشغل بعد العشاء بطلب العلم الواجب، وأدَّىٰ ذلك إلىٰ تخلُّفه عن صلاة الفجر، فإنه يأثم لذلك، ويوافق ذلك الأثر المشهور -وهو عند البخاري- وحاصلها: أنَّ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صلىٰ الفجر، ثم خرج، فقابل امرأةً اسمها: أم ابن أبي حثمة، فسألها عن ابن أبي حثمة لِمَ لَمْ يُصلِّ الفجر معهم[(١)]، فقالت: يا أمير المؤمنين، وقف طوال الليل يصلِّي، فغلبته عيناه قرب الفجر، فنام فتخلَّف، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لأنْ أشهد الفجر في جماعةٍ أحب إليَّ من أن أقوم الليل كله، وهذا قيام الليل دأب الصالحين وسمتهم، فلا يصح أن يطغىٰ شيء علىٰ شيء آخر.

ثانيًا: التردد، والتذبذب، وعدم الاستقرار، وعدم وضوح المنهج:

وهي علامة خطيرة جدًّا، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء: ١٤٢، ١٤٣].

وفي «صحيح مسلم» من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «**مَثَل المنافق كمَثَل الشَّاة العائرة** -أي: المتردِّدة- **بين الغنمين، تعير إلىٰ هذه مرة، وإلىٰ هذه مرة**»[(٢)].

والنبيُّ ﷺ عندما يضرب المَثَل، يضربه من واقع الحياة -كمَا مرَّ معنا في حديث: «ما ذئبان»، بحيث يقرب المعنىٰ أكثر، فالعرب كانوا يعيشون بين الغنم، ويعرفون ذلك جيدًا، وهذا المَثَل يدل علىٰ أن المنافق متردد متذبذب.

---

(١) فهذه ليست من عادته، لذلك شعر عمر بن الخطاب بتخلفه؛ لأنه اعتاد علىٰ رؤيته، وهكذا لابد أن تكون العادة بيننا، فإذا تخلف أحدنا عن صلاةٍ، أو درس علمٍ، أو غير ذلك من الخير، لابد أن يسأل عنه إخوانه لرابط الأخوة الذي بينهم.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٨٤).

ورَوىٰ الإمام ابن أبي حاتمٍ بسندٍ صحيحٍ موقوفًا علىٰ ابن مسعودٍ، وله حكم الرفع أنه قال: «**مَثَلُ المؤمن والمنافق والكافر مثل ثلاثة نفرٍ انتهوا إلىٰ وادٍ، فوقع أحدهم فعبر، ثم وقع الآخر حتىٰ أتىٰ علىٰ نصف الوادي، ناداه الذي علىٰ شفير الوادي: ويلك، أين تذهب؟ إلىٰ الهلكة؟ ارجع عودك علىٰ بدئك، وناداه الذي عبَر: هَلُمَّ النجاة، فجعل ينظر إلىٰ هذا مرة، وإلىٰ هذا مرة، قال: فجاء سيلٌ فأغرقه، والذي عبر المؤمن، والذي غرق المنافق، ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [النساء: ١٤٣]، والذي مكث الكافر**»[(١)].

ولذلك، انظر بمصداقيةٍ إلىٰ اعتقادك وسلوكك ومنهجك، هل أنت في ذلك مستقيمٌ أم تتقلب؟ ولِمَ تتقلَّب؟ ولِمَ تستقر؟ فلا بد أن يكون وضوح منهجك أشد من وضوح شمس النهار، وأن يكون ظاهرًا معلنًا، فهذا يجلي الكثير من الحقائق، وإن كان موقفك محددًا، ثم أنت تبحث فيه وتنظر، فإن شاء الله بحسن نيتك وإخلاصك في البحث عن الحقِّ ستصل إليه، فإذا وجدت جماعةً يتناجون دون الناس في أمرٍ من أمور دينهم، فاعلم أنهم علىٰ تأسيس ضلالةٍ.

ومن الطرائف في هذا المعنىٰ: قصَّة ذكَرها الإمام اللالكائي في «أصول أهل السنة»: أن خارجيين -وهم كالتكفيريين في عصرنا- كانا يطوفان بالكعبة، فقال أحدهما للآخر: تدري، هذه الجنة لن يدخلها إلا أنا وأنت -فهو يعتبر كل الناس كفرةً- فقال له الآخر: جنة عرضها السماوات والأرض لا يدخلها إلا أنا وأنت؟! تركتها لك[(٢)]، وكانت هذه الواقعة سببًا لتوبته ورجوعه إلىٰ الحق، وكأنه انتبه لما في ذلك من ضلالٍ لما صرح الآخر بمنهجه ووضحه.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦١٤٤).

(٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة برقم (١٩٨٤) ط. دار النصيحة؛ المدينة المنورة؛ تحقيق الرياشي... والأثر صحيح.

ومما نراه الآن أنك تجد المرء علىٰ غير منهج الشيخ، ثم يذهب ليأخذ عنه أصول الفقه مثلًا، أو أي علمٍ آخر ليُؤصِّل لبدعته، وهذا -بلا شكٍّ- من الخيانة، وهذا هو النفاق بعينه، فالواجب علىٰ المسلم أن يُسْدي لأخيه النصيحة، فلعلَّ هذا الشيخ بالفعل علىٰ الباطل والطالب هو الذي علىٰ الحق.

التَّحذير من الدُّخول علىٰ السلطان:

عند البيهقي وأحمد، وصحَّحه الألبانيُّ -ومثله عند البخاريِّ- أن عبد الله بن عمر لقي ناسًا -أي: من التابعين- خرجوا من عند مروان -أي: الأمير مروان بن الحكم- فقال: من أين جاء هؤلاء؟ قالوا: خرجنا من عند الأمير مروان. قال: وكل حقٍّ رأيتموه تكلمتم به، وأعنتم عليه، وكل منكرٍ رأيتموه أنكرتموه، ورددتموه عليه؟ قالوا: لا والله، بل يقول ما ينكر، فنقول: قد أصبتَ، أصلحك الله، فإذا خرجنا من عنده قلنا: قاتله الله، ما أظلمه وأفجره!

قال عبد الله: كنَّا بعهد رسول الله ﷺ نعدُّ هذا نفاقًا لمَن كان هكذا[(١)].

وهذا الذي يحدث الآن أيضًا، فلا بدَّ أن يكون واضحًا عندك أن طريقك غير طريق أهل الدنيا، ويستحيل أن نلتقي، وهذا الذي لا يريد أن يفهمه كثيرٌ من الناس، ولا بدَّ من التَّصادم يومًا ما بينك وبين أهل الدنيا، وعند الصدام إما أن تتم المفارقة، وإما أن نداهن، لذا كانت هذه الضوابط المذكورة في الأثر السابق ضوابط الدخول علىٰ الأمراء، وهي الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإلا فلا تدخل، فالابتعاد عنهم أفضل؛ لما جاء في السنن وعند أحمد، وَصَحَّحه الألبانيُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما

(١) أخرجه أحمد (٥٣٧٣)، والبخاري (٧١٧٨).

أن النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ سكن البادية جفا، ومن اتَّبع الصيد** -أي: لهىٰ في الدنيا- **غفل، ومَن أتىٰ السلطان افتتن**»(١).

وهذا الكلام يسري أيضًا علىٰ العلماء الكبار، فمن الناس مَن يلازمهم لا لطلب العلم علىٰ يديهم وسؤالهم، ومثل ذلك، وإنما ليفتخر أنه كان مع فلانٍ، وسار معه وذهب وجاء وهكذا، ثم هو لا يردُّه إن أخطأ، ولا ينصحه، بل يغضُّ الطرف إنْ رأىٰ منه بدعةً أو خطأً.

فمجرد الدخول علىٰ السلطان له بريق وصولجان يؤثر في أعظم القلوب، فابق بعيدًا لضعفك، واعلم أنه طالما كان الإنسان عفيفًا، كانت كلمته حرةً يقول ما يشاء، أما الذي يدخل علىٰ السلطان، فإنه يفتتن، فلا يأمره بمعروفٍ، ولا ينهاه عن منكرٍ.

ومما يُذْكر في هذا أن الإمام العَلَم أبا حازم سلمة بن دينار أرسل إليه الأمير سليمان بن عبد الملك، فدار بينهما حوار طويل -ذكره أبو نعيم في «الحلية» - في نهايته أن الأمير قال له: يا أبا حازم، ارفع إلينا حوائجك. قال: ليس لي. فقال: عزمتُ عليك أن تطلب حاجتك. قال: وتُلبِّيها يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم. قال: لا ترسل إليَّ حتىٰ آتيك، ولا تعطني حتىٰ أسألك. ومعنىٰ الكلام: أنِّي لا أريد منك شيئًا، ولا أريد أن أراك.

وممَّا نراه ونسمعه في زماننا: كلمة «مصلحة الدعوة»، حيث أصبحت هذه الكلمة صنمًا يُعْبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ، وبالفعل أصبحت الآن مصلحة الدعوة تكأةً يتكئ عليها كل مَنْ يريد أن يخالف النَّصَّ؛ كالَّذي نراه من الذين يُرشِّحون أنفسهم للمجالس النيابيَّة بحُجَّة مصلحة الدعوة، ويغضُّ الطرف عن النصوص الشرعية

(١) أخرجه أحمد (٣٣٦١)، وصححه الشيخ أحمد شاكر والترمذي (٢٢٥٦)، وأبو داود (٢٨٥٩).

وينساها، وهذا لا يصح؛ لأن سلامة الدين مقدمة علىٰ كل شيءٍ، وكذلك مدح مَن لا يستحق المدح أمر مرفوض، فلا تجامل الناس، ولا تصدع بالحق، وكذلك الحرص علىٰ التعرف علىٰ الأكابر بحجة أن ذلك يخدم الدعوة هو أمرٌ مرفوضٌ أيضًا، ومسلكٌ غير شرعيٍّ؛ لأن الشارع حذَّر من ذلك، كما مرَّ معنا، وهؤلاء القوم يعرفون جيدًا مَنْ يريد الله والدار الآخرة ممَّن يريد غير ذلك، فلا تحاول أن تستغفلهم.

وبالطبع، شتان بين أن تخلص النية لله عَزَّوَجَلَّ، وتأخذ بالأسباب، ثم يرقق الله عَزَّوَجَلَّ لك القلوب، أو يطلبك السلطان فتذهب من منطلق طاعة ولي الأمر، وبين هذا المسلك.

ثالثًا: فعل الخير، وإرادة خلاف ذلك:

وهذه من أخطر علامات النفاق، والخطيرُ فيها أنها تصدر من بعض المكلفين، فيزينها لهم الشيطان في صورة طاعةٍ، وهي أن يفعل الرجل فعلةً يظهر منها الخير وهو يريد منها خلاف ما أظهر.

وهذا حدث من المنافقين علىٰ عهد النبي ﷺ، يقول عز من قائلٍ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾ [التوبة: ١٠٧، ١٠٨].

فحادثة مسجد الضرار مبنيةٌ أصلًا علىٰ هذه العلامة التي نذكرها الآن، فالمنافقون علىٰ عهد النبي ﷺ -كما يقول أهل التفسير- بنوا مسجدًا لهم بعيدًا عن مسجد النبي ﷺ، ثم ذهبوا إلىٰ النبي ﷺ، وأرادوا منه أن يأتي ليصلي في هذا المسجد،

فيكون ذلك إقرارًا منه لهم، وادَّعوا أنهم بَنوْه لذوي الحاجة والضعفاء، ومن أجل الليلة المظلمة والليلة المطيرة والليلة الباردة، ولكن بتقدير الله ﷻ[1] كان ذهاب المنافقين إلىٰ النبي ﷺ أثناء استعداده لغزوة تبوك، فقال لهم النبي ﷺ: «**إنَّا علىٰ سفرٍ، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله**»، ومضىٰ النبي ﷺ في سفره، ثمَّ لما قفل وقبل أن يصل إلىٰ المدينة، أنزل الله ﷻ عليه جبريل بخبَر هؤلاء القوم في هذه الآيات السابقة.

فأهل النفاق فعلوا هذا الأمر وظاهره الخير، ولكنهم أرادوا من هذا المسجد -بنص التنزيل- أن يتَّخذوا مسجدًا ضرارًا، وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين، وإرصادًا لمَن حارب الله ورسوله من قبل، وهم أقسموا أنهم ما أرادوا من هذه الفعلة إلا الحسنىٰ.

التحذير من الوقوع في التفريق بين المسلمين:

فالَّذي يصدر من كثيرٍ ممَّن يتصدَّون للدعوة الآن، ويرفعون لواء الدعوة ورايتها خاصةً في الديار المصرية، أنَّه -وهو لا يشعر- يطعن في الدين، ويفرق بين المسلمين، ويدمر الإسلام والشرع إلا ما يعتقد هو أنَّه الحق، وهذا كثيرٌ بيننا الآن، وله صور عديدة.

ومن جملة هذه الصور: أن يفرضَ علىٰ الناس ألَّا يسمعوا لفلانٍ وفلانٍ، وألَّا ينصاعوا ولا يقرؤوا إلا له، وألا يعتقدوا إلا ما يملي عليهم، وهكذا، وهو يقول: إنه بهذه الفعلة ينصر الإسلام، ويرفع راية السنة، ولكن هذا -ولا شكَّ- خطأ كبير، وما حدث ذلك إلا بعد أن صرنا في وقتٍ غاب فيه القائد المتبع، وغابت القدوة في التربية، وغاب العلم والحشمة والخبرة حتىٰ ظهرت رؤوس كثيرة، كلٌّ منهم يدَّعي الرياسة،

---

(١) فهو سبحانه الذي عصم نبيه ﷺ من كل صغيرة وكبيرة بعد البعثة وقبلها.

ويطلب من الناس طاعته، ولئن قومت هؤلاء بالمقاييس الشرعية لا تجدهم شيئًا، ونحن -من باب حُسْن الظن- إنما نقول: إنَّ هؤلاء لبس عليهم، ولم يتعمد أحدٌ منهم التفريق بين المسلمين، أو الطعن في الإسلام، كما صدر من المنافقين، وإنما يفعلون ذلك يقصدون به الخير فعلًا.

لذلك، إذا كنت في طريق الدعوة، والعمل لدين الله عَزَّوَجَلَّ، فَسلْ نفسك بين الحين والحين هل أنت حقًّا متجرد للحق؟ وهل تريد شيئًا إلا الحق؟ وهل غاب عن قلبك حظ نفسك؟ واحذر أن يلبس عليك الشيطان الباطل في ثوب الحق، فإنَّك ستقف أمام الله غدًا بمفردك، ولن تجد مَن يدافع عنك، وسَلْ نفسك أيضًا: أتريد أن ينشر الحق أم تريد أن ينشر الحق علىٰ لسانك؟ فالصحيح -كما أصل أهل العلم- أن تريد نشر الحق وإن لم يكن لك دخلٌ بذلك، فمثلًا: إن كنت في مجال الدعوة يأتيك -مثلًا- عشرة رجالٍ يحضرون مجلسك، ثم إنك دعوت أحد الدعاة -مثلًا- ليأتي مسجدك، فإذا بالمسجد قد امتلأ عن آخره، فإن تحرك في صدرك حينئذٍ شيء من الحقد والحسد والغل، فاعلم أنك مصابٌ، ولا تراوغ وتكتم حرصًا علىٰ السُّمعة حتَّىٰ يتضخَّم الأمر، ولكن سارع بالعلاج، أمَّا إن حققت بالفعل أنك تريد نشر الحقِّ فقط، فَثِقْ تمامًا أنك علىٰ خيرٍ[1].

وهذا الذي نقول إن لم يكن واضحًا عندك، فلا شك أنه سيؤثر علىٰ عملك الدعوي والديني حتىٰ تصبح في مرحلةٍ من عدم الاتزان والتفلُّت، وعدم الثقة في أي

(١) وأهم شيء: المصداقية مع النفس، لذلك كان الشيخ ابن باز -عليه رحمة الله- دائمًا ما يوصينا بمتابعة قلوبنا باستمرارٍ، وألا يغرنا العلم؛ لأن العلم إن لم يؤثر في السلوك، ويخرج إلىٰ حيِّز العمل، فلا فائدة منه، لذلك تابع قلبك باستمرارٍ، وإياك أن يغلف لك الشيطان المعصية في غلاف الطاعة، كما يحدث الآن.

أحدٍ، فتكون فريسةً وصيدًا سهلًا لأعداء الأمة، فإن هذه الكلمات التي تصدر بيننا لا يستفيد منها إلا العلمانيون وأهل البدع، فهم يخزنونها حتىٰ يحاربوا بها الإسلام والدين، كما أنَّ هذه المسألة خطيرةٌ جدًّا؛ إذ تتحقق فيها شهوة وشبهة، وأخطر ذنبٍ يقع فيه المكلف هو الذي يأتيه من قبل الشهوة والشبهة معًا، والشهوة التي في هذا الأمر هي الغيبة والنميمة، وهذه الأشياء يشتهيها أي أحدٍ؛ لأن الكلام والقدح في الغير يشعر المرء بالكمال، أما الشبهة فهي الدفاع عن الدين، ونشر السنة، والدفاع عن السلف الأخيار، ويكون مثل هذا في الحقيقة إلىٰ آذانه في النفاق، والعياذ بالله.

كذلك من صور التَّفريق بين المسلمين: ما يُزيِّنه الشيطان لبعض الناس من الطعن في العلماء والمشايخ والدعاة في ثوب الحسبة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتحذير من أهل الضلال، حتَّىٰ صار الآن في كل بلدٍ جماعة من المتشرذمين لا يسمعون لأحدٍ، ولا يقرؤون لأحدٍ، ولا يقبلون من أحدٍ، بل يتهمون غيرهم بعدم الانضباط، وبخدشٍ في الاعتقاد، ويدَّعون أنهم يريدون من وراء ذلك الخير، وما ذلك إلا تفريق الأمة، وتشتيت لجماعتها وشملها، وأمثال هؤلاء تنقضي أعمارهم ولم يحصلوا شيئًا، وأمثال هؤلاء يطبق عليهم قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾، فإن وجدتَ الرجل ليس له هَمٌّ إلا التشنيع علىٰ الناس، والانتقاص منهم، وإسقاط منازلهم، فلا تقعد معه أبدًا، فَمَا الذي يمنعهم قبل أن ينشروا كتابًا يبينون فيه خطأ فلانٍ أن يذهبوا إليه، ويُكلِّموه، ويُوضِّحوا له. وحتىٰ إن كلمت الشيخ ولم يقتنع بكلامك، فليس الحق حكرًا عليك، وهذا التشنيع لم يَرِد عن أحدٍ من السلف قط إلا ما كان علىٰ أهل البدع حين يظهرون بدعهم وينشرونها، فيكون لا بد من الرد عليهم، أما في خلافاتٍ مثل التي تحدث الآن، فلا يصح.

وكذلك مما يفرق الأمة: التعصُّب للمشايخ، والتقليد الأعمىٰ، لذلك لا تجعل لأحدٍ عليك سلطانًا، أو حكرًا علىٰ عقلك أيًّا كان هذا الرجل، ولا يستثنىٰ من ذلك إلا النبي ﷺ، فحدد هدفك وطريقك، ثم اعمل، ولا تطعن وتقدح في العلماء بحجة أنك تريد معرفة من أين تأخذ الدين، فعندك الأصول والضوابط التي تسير عليها، وتتبعها، وتزن بها أي أحدٍ تسمعه، فإن خالفها أحد، ترك قوله فيما خالف فيه، وإن كان عنده حق، أخذ منه.

وهؤلاء الذين ذكرنا نسوا جميعًا أن كل من يتصدىٰ إلىٰ الدعوة إنما هو بشرٌ من طبيعته الزلل والخطأ، وأنه ليس من الدين، ولا من العرف، ولا من العقل أن يتصيَّد بعضنا لبعضٍ الأخطاء وينشرها، وليس معنىٰ هذا أن نرىٰ الأخطاء، ثم نغض الطرف عنها، ولكن شتان بين رجلٍ ديدنه والأصل عنده الذب عن الشريعة، والدفاع عن السنة، ونشر مذهب أهل الحق، ثم هو يزل في مسألةٍ من المسائل، وبين أهل البدع وأهل الباطل الذين الأصلُ فيهم العَوارُ والاعوجاج، ولا يتكلمون إلا بشرٍّ، وهم مستأجرون لتمييع القضايا الدينية، فكلاهما إن زل لا يستويان أبدًا، فزلة العالم -كما مرَّ معنا- أمرٌ طبعيٌّ، والموقف الصحيح منها ألَّا نُروِّجها، ولا ننشرها، ونلتمس له العذر، أمَّا الذي الأصل فيه العجر والبجر، فلا يسكت عنه، فهدفنا هو لَمُّ شمل المسلمين علىٰ الكتاب والسنة(١).

والأمثلةُ علىٰ ذلك ممَّا فعل المتقدمون كثيرةٌ، فالحافظ ابن حجر -عليه رحمة الله- وهو من علماء القرن الثامن الهجري، وكذلك الإمام النووي -عليه رحمة الله-

---

(١) ولابد من هذا القيد: «علىٰ الكتاب والسنة»، أما لَمُّ الشمل هكذا فضفاضة، فقد قال الله تعالىٰ في معرض الذم لليهود: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر: ١٤].

وقَعا في تأويل بعض الصِّفات، وهذا -عياذًا بالله- من أشنع البدع، ولكنهما وغيرهم مجتهدون أخطأوا، فلهم أجرٌ إن شاء الله تعالىٰ، وما سمعنا أحدًا قط نال منهم، أو قلَّل من شأنهم، بل راعوا أن هناك احتمالات تنفي عنه الإثم والمؤاخذة، وراعوا زلة العالم، وسبق اللسان عند الكلام، فأنت -مثلًا- تجد الرجل يتكلم في أمرٍ، فيشتد انفعاله، فتصدر منه بعض الكلمات من سبق اللسان هو بعيدٌ عنها كل البعد، وليست من اعتقاده، ولا مذهبه، فكيف يتصيَّد له ذلك؟!

واعلم أنَّ أئمَّة الجرح والتعديل ما جرحوا إلا مَن اشتهر عنه أنه كذا وكذا، أمَّا ما يحدث الآن من تصيُّد الأخطاء لعلماء ودعاة أهل السنة مخالفٌ ولا شكَّ، كما أن علم الجرح والتعديل كان قديمًا يعتني به علماء الحديث من أجل النظر في الرواة، هل يؤخذ بروايتهم أم لا، ووضعوا لذلك ضوابط، فمثلًا: إن كان الراوي صاحب بدعة، ولكن لا يكذب، أخذ بروايته ما لم يدعُ إلىٰ بدعته، وهذا كله غير الذي يحدث الآن، فالدعاة والعلماء اليوم ليسوا من رواة الحديث -مثلًا- حتىٰ يطبق عليهم هذا الكلام، وإنما الأمر أنه أراد أن يُشغِّب عليهم، ويصرف الناس عنهم، وظاهره أنه ما يبغي إلا الحق، ولكن الحقيقة أنه لِحَسدٍ وهوًىٰ في نفسه، ولكن ليست عنده الشجاعة والجرأة أن يصارح نفسه بما فيه.

نماذج من التماس المتقدمين العذر لعلمائهم:

إذا نظرنا إلىٰ الأكابر الفحول، تجد كلامًا موافقًا تمامًا لما ذكرنا، فمثلًا يقول محمد بن سيرين: ظلمك لأخيك أن تذكر عنه أسوأ ما تعلم، وتكتم خير ما تعلم.

وتجد -مثلًا- ما حدث من الإمام أحمد بن حنبل -عليه رحمة الله- حين ذهب رجل إلىٰ حسين الكرابيسي بعد فتنة خَلق القرآن، فسأله رجلٌ قال: هل لفظي بالقرآن

مخلوق؟ فقال له: سأكتبها لك، ثم تذهب بها إلىٰ أحمد بن حنبل، فكتبها وذهب إلىٰ الإمام، فقرأ الإمام أحمد المكتوب، فإذا هو: لفظي بالقرآن مخلوق. فقال له: هذا جهميٌّ، فرجع الرجل إلىٰ الكرابيسي، فقال له ما قال الإمام، فكتب له: لفظي بالقرآن غير مخلوقٍ، وذهب بها إلىٰ الإمام أحمد، فقال: هذا مبتدعٌ[(١)]، فقال الكرابيسي: وماذا أصنع لهذا الصبي؟ يعني الإمام أحمد عليه رحمة الله.

فالطبيعيُّ أن تكون إحدىٰ العبارتين صحيحة ولا بد، فهذا الكلام من الإمام أحمد لا يصحُّ بالطبع، ولكن دافع عنه العلماء كابن قتيبة وشيخ الإسلام وغيرهم الكثير، وقالوا بتوجيه كلامه، فقالوا: إنَّ هناك فرقًا بين اللفظ والملفوظ، فمثلًا: الفرق بين الأكل والمأكول أن الأكل هو حركة الأضراس، وغير ذلك، بينما المأكول هو الطعام نفسه؛ كالخبز ونحوه، لذا فكلمة: «لفظي بالقرآن» تشمل اللفظ والملفوظ معًا، فلو قلنا: لفظي بالقرآن مخلوق، فمن الممكن أن تصل إلىٰ الملفوظ، فيكون قولًا بأن القرآن مخلوق، وإن قلنا: لفظي بالقرآن غير مخلوقٍ، فقد تحتمل اللفظ أيضًا، فيكون قولًا بأن أفعال العباد غير مخلوقةٍ، وهذه مصيبة أيضًا، فأغلق الإمام أحمد الباب نهائيًّا خاصةً أن الناس كانوا قريبي عهدٍ بمحنة خَلْق القرآن، وكان هذا في منتهىٰ الذكاء منه.

كذلك في عهد محمد بن إسماعيل البخاري -عليه رحمة الله- لمَّا ذهب إلىٰ محمد بن يحيىٰ الذهلي في نيسابور، فإنَّ محمد بن يحيىٰ لمَّا أخبر طلابه بقدوم البخاري، طلب منهم ألَّا يسألوه في شيءٍ من علم الكلام حتىٰ لا يقول البخاري

(١) فقد أُثِرَ عن الإمام أحمد أنه قال: «من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، فهو جهمي، ومن قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق، فهو مبتدع».

بخلاف ما يقول الذهلي، فتقع بينهما وحشةٌ، فيشمت في أهل الحديث كل حروري ورافضي وجهمي وقدري، فلما جاء محمد بن إسماعيل، وأخذوا يسألونه في الأسانيد والحديث، وغير ذلك، قام رجل فقال: يا إمام، ما تقول في لفظي بالقرآن؟ - وهذا بالطبع يعكر صفو المجلس- فأعرض عنه محمد بن إسماعيل، فكرَّر عليه السؤال مرتين وثلاثة حتىٰ أجابه، فقال: ألفاظنا من أفعالنا، وأفعالنا مخلوقة.

وهذا كلام دقيق حكيم، فهو لم يقل: لفظي بالقرآن مخلوق، ولكن نقل الناس إلىٰ محمد بن يحيىٰ أن البخاري يقول: لفظي بالقرآن مخلوق، فقاطعه وقال بألَّا يؤخذ منه علم، ولا حديث، وكان ذلك إشكالًا كبيرًا، وكان الإمام مسلم ملازمًا للاثنين، فذات يوم وهو عند محمد بن يحيىٰ -وكان يعلم أن مسلمًا ملازم للبخاري- انفعل محمد بن يحيىٰ، فقال: مَن قال بقول محمد بن إسماعيل، فلا يحضر لنا مجلسًا، فقام الإمام مسلم، ولفَّ رداءه علىٰ رأسه، وذهب إلىٰ بيته، فأتىٰ بكلِّ الأحاديث التي روَاها عن محمد بن إسماعيل، فتخلص منها، بل ذكر الإمام الذهبي في «السير» أنه لشدةٍ في الإمام مسلم ترك الرواية عن محمد بن يحيىٰ، وعن محمد بن إسماعيل أيضًا[1].

وكذلك كان أبو حاتمٍ الرازي وأبو زرعة الرازي ملاصقين لمحمد بن يحيىٰ، فلما خالفه محمد بن إسماعيل في هذه القضية، نالا منه.

ولكن انظر إلىٰ تعليق العلماء علىٰ هذه الواقعة، فقد علق الإمام أبو زرعة الرازي علىٰ فعل الإمام مسلم، فقال: هذا لا عقل له، ولو دارىٰ الإمام لكان نِعم الرجل، أي: لو كان تجاوز عن هذا الكلام، واستمرَّ في السماع من محمد بن يحيىٰ،

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ١١٤).

لكان خيرًا له، وليس هذا فقط، فأنت تجد في هذه المحنة أن محمد بن إسماعيل البخاري روىٰ عن محمد بن يحيىٰ الذهلي أربعةً وثلاثين حديثًا، ولكنه كان يقول: «حدثنا محمد» فقط.

كذلك يعلق الإمام الذهبي علىٰ فعل الإمامين أبي حاتم وأبي زرعة، فيقول: تكلموا أو لم يتكلموا، نالوا أو لم ينالوا، فهو البخاري، فإذا كان الأمر بين الكبار، فلا دخل لأمثالنا به.

وكذلك ما حدَث حين روت السيدة عائشة حديث مرض موت النبي ﷺ أنه لما شعر بشيءٍ من العافية خرج، تقول عائشة: فخرج بين رجلين تخط رجلاه الأرض، وكان بين العباس ورجلٍ آخر[1]، وهذا الرجل هو علي بن أبي طالبٍ، كما قال ابن عباسٍ، ولا شكَّ أنَّ السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت تراه، ولكنها لم تذكر اسمه، فهذه طبيعة البشر، ولا بد أن يكون عندنا شيءٌ من الإنصاف.

حكم الاستشهاد بكلام أهل البدع، وذكرهم، والترحُّم عليهم:

فهذا الأمر ممَّا يتكئ عليه الكثيرون حين يطعنون في العلماء والدعاة، وهو أن العالِم أو الداعية يذكر المبتدعة فيثني عليهم خيرًا، أو ينقل من كلامهم، ولكن لا بد من فَهْم أنَّ هؤلاء الذين يذكرون المبتدعة لا يذكرونهم حبًّا فيهم، ولا لأنهم يروجون لبدعتهم وينشرونها وينتصرون لها، فأنتَ إنْ خاطبت هذا العالِم، ستجده ينكر بدع هذا الذي ينقل عنه غاية الإنكار، ويستقبح فعله، وإنما يذكر ذلك بناءً علىٰ وجهة نظرٍ له عنده فيها نصوص وأدلة شرعية؛ كالاحتجاج -مثلًا- بأن الحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها أخذها، أو أن الله عَزَّوَجَلَّ صدق كلمة بلقيس لمَّا قالت: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا

(١) أخرجه البخاري (٢٥٨٨)، ومسلم (٤١٨).

دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾، فقال بعدها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٤]، فهذا من كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وغير ذلك مما يدلُّ علىٰ أن الأمر لهم فيه وجهة وإن كانت مرجوحةً، والأَوْلَىٰ تَرْكها، ولكنه في النهاية لا يسير بهَوَاه، ونحن قد تكلَّمنا عن سوء الظن، وقلنا: إنك إن رأيت من أخيك أمرًا له وجهةٌ في الخير، فلزامًا عليك أن تحمل فِعله علىٰ هذه الوجهة حتىٰ ولو كانت معشارًا في المئة، أما هذا التربص، فهو -عياذًا بالله- مسلك لا يأتي من ورائه إلا الشَّر، ويؤثر علىٰ مسيرة العمل والدعوة، ويؤثر علىٰ رفع راية أهل السنة.

ونحن نقول بأنَّ ذكر كلام المبتدعة دون التنبيه عليه خلاف الأَوْلَىٰ بلا شكٍّ؛ لأنه لا بد من مراعاة الواقع الذي نعيش فيه، فمثلًا: الإمام محمد بن جرير الطبري -عليه رحمة الله- في كتابه «تاريخ الأمم والملوك» -وليس في التفسير- جمع رواياتٍ لأحداثٍ سمع بها، فأرَّخ لها، وكان يرويها عن أي أحدٍ ممن حضروا الواقعة، ولكنه قال في المقدمة: ولعلَّ قارئًا يستهجن ما ذكرناه، أو يستنكر ما قلناه، وليس هذا من قبلنا، ولكن حدثنا بما روينا، فمثلًا: إن روىٰ الطبري عن خيرٍ أخذ منه، وَإِنْ روىٰ عن غير ذلك، فلا يؤخذ، ففرقٌ كبيرٌ بين المتقدمين عندما يستدلُّون بكلام المبتدعة، وبيننا في الوقت الحاضر، فمثلًا: الإمام أبو داود قال في مقدمة «سننه»: وكل حديثٍ فيه شيء بيَّنته، وما سكت عنه، فهو صحيحٌ للاحتجاج، فمثلًا: يروي عن فلانٍ وفلانٍ وفلانٍ، ثم يقول: لا تأخذ عنهم حديثًا، وإنما ذكرهم لأن يخاطب عصره ويعلم ما هم عليه من فهمٍ، أما الآن فذكر الرجل من أهل البدع والاستدلال بكلامه، وقد كان في وقتٍ من الأوقات يُضْرب به المثل، فيه نظرٌ، فكثير من الناس لا يعلمون أن هذا الرجل عنده كثير من الخلط في بعض الأصول الشرعية وإن كان عن غير قصدٍ، بل تجد ناسًا يتبعونه في بدعه.

لذلك، فالأَوْلَىٰ وأفضل شيءٍ أنك إِنْ نقلتَ عن رجلٍ مشهورٍ ببدعته، والكل يعلم أنه مبتدع، ألا تذكر اسم مَن تنقل عنه أصلًا، وإنما تقرأ أنت كلام الرجل وتفهمه، ثم تصيغه وتذكره أنت من عندك، حتىٰ لا يفهم العامة أنَّك تحتجُّ بأهل البدع، فإن ذكرت الاسم، فلا بد أن تُنبِّه علىٰ أخطائه؛ كأن يقال: قال فلان كلمة حقٍّ، وإن كان عنده خدوش في الاعتقاد مثلًا، ثم يذكر كلامه، وهذا لا ينقص من قَدْر الرجل شيئًا.



الفصل الرابع

أصول النفاق العملي

في «الصَّحيحين»، من حديث عبد الله بن عمرٍو أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**أربعٌ مَنْ كُنَّ فيه، كان منافقًا** -وفي روايةٍ: كان منافقًا خالصًا- **أو كانت فيه خصلةٌ من أربعةٍ، كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتىٰ يدعها: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فَجَر**»[(١)]، وفي «الصحيحين» أيضًا من رواية أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»[(٢)].

وهذه المعلومات قد لا تكون جديدةً علىٰ الكثيرين، ولكننا نذكرها من باب التذكرة، فربما المرء إذا انشغل في طلب العلم، زلَّ وتمادىٰ في الزلل ظنًّا منه أن عنده حسنات ماحية حتىٰ تجد المرء يبالغ ويكثر وينشط في جانبٍ من الطاعات، ثم تجده مُتَدنٍّ في بعض الرذائل، ولسان حاله يقول: هذه بتلك، بل حسناتي أكثر، فانتبه لهذا المبدأ الخطير، فالشارع الحكيم لمَّا أخبرنا أن الحسنات تذهب السيئات، كان ذلك عامًّا، ولم يحدد ما هي الحسنة التي تكفر سيئةً معينةً، فمثلًا: لم يأت أن الحجَّ يكفر درهمًا من الربا، أو أن صلاة الفجر تكفر غيبةً، أو أن العمرة تكفر زنيةً، أو غير ذلك، وإنما كان الكلام عامًّا.

ولذلك، قال الحافظ ابن حجر عليه رحمة الله: وينبغي علىٰ المكلف ألَّا يستقل حسنةً، ولا يحتقر سيئةً، فإنه لا يدري ما الحسنة التي يثقل بها ميزانه، وما السَّيئة التي

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٩)، ومسلم (٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

يخفُّ بها ميزانه، فميزان الآخرة أدقُّ من الشعرة، وأخفُّ من الذرة، فرُبَّ حسنةٍ تستقلها اليوم يقف عليها الميزان يوم القيامة، وعندها لن ينفعك شيء، وكذلك السيئة التي تحتقرها قد يكون قدر الله عَزَّوَجَلَّ لك في الأزل أن تموت وأنت مُتلبِّسٌ بها، أو تكون كفَّتا ميزانك يوم القيامة متعادلتين، فتأتي هذه السَّيئة، فتثقل كفة السيئات فتهلك، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾ [الزمر: ١٥].

ويمثِّل ابن القيِّم هذا المعنىٰ فيقول: الذنوب جراحات، ورب جرحٍ جاء في مقتلٍ[(١)].

فإن جاء في مقتلٍ، فالعاقبة شديدة، فانتبه لهذا الأمر جيدًا، خاصةً إن كنتَ طالب عِلْمٍ، فتأثير الذنوب في منتهىٰ الخطورة علىٰ الطلب، ومن الممكن بشيءٍ من التقوىٰ والإخلاص والبعد عن المعاصي أن تحصل ما لم يحصله أحدٌ، وهذا يتَّضح إن قرأت في سِيَرِ المتقدمين، فإنك تجد كلامًا عجيبًا، فمثلًا: يُحْكىٰ أن محمد بن شهاب الزهري كان إذا سار في الطريق سدَّ أذنيه حتىٰ لا يسمع شيئًا، وذلك أنه ما كان يسمع شيئًا إلا ويحفظه، وهذا كله من نقاء السريرة، وطهر القلب، والتزكية، والبعد عن المعاصي، فحاول بقَدر المستطاع أن تُقلِّل من معاصيك، وإن أصبت شيئًا، فأظهر الافتقار إلىٰ الله، واللجوء إليه، واستعن به، فمنه العون والمدد أن يقيك هذا الذنب، ويتوب عليك منه، ولا تركنن إلىٰ علمك، أو استقامتك، أو عبادتك، أو شيءٍ من هذا، فإنَّ المعاصي تلو المعاصي يجعل الطلب صعبًا.

وممَّا ذُكِرَ في ذلك: أن أحد طلبة العلم بينما هو داخلٌ علىٰ شيخه ذي النون

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (١/ ٤١).

المصري، لمحه الشيخ ينظر إلىٰ صبيٍّ أمرد -أي: ليس له لحيةٌ- فلمَّا دخل علىٰ الشيخ قال له: أنظرت إليه بإعجابٍ وشهوةٍ، لتجدن غِبَّها ولو بعد حينٍ. قال: فنسيت القرآن بعد عشرين سنةً.

ومن حصَّل الصفات التي نذكرها الآن، قد حصَّل أصول النفاق الأصغر، ويخشىٰ عليه من تحصيل فروعه، ثم الوقوع في النفاق الأكبر، فيخرج عن الملة عياذًا بالله، فلكي يسلم القلب من النفاق الأكبر، لا بد أن يبتعد عن هذه الأشياء، ولعلَّ قائلًا يقول: كيف هذا والنفاق الأكبر إبطان الرجل الكفر، وإظهاره الإيمان؟ فكيف توصل هذه الأعمال إلىٰ هذا الاعتقاد؟!

وتفسير ذلك أنَّ مسألة الذُّنوب والمعاصي، ومدىٰ تأثيرها علىٰ الشخص قضية خاصة، فعند الترمذي بسندٍ صحيحٍ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النَّبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ العبد إذا أخطأ خطيئةً، نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب، صقل قلبه** -أي: مُحِيَ أثر هذه النكتة- **وإن عاد** -أي: عاد ولم يتب- **زِيدَ فيها حتىٰ تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله:** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]».

وثبت عند مسلمٍ من حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**تُعرض الفتن** -أي: الذنوب والابتلاءات- **علىٰ القلوب كالحصير عودًا عودًا** -وفي رواية: عودًا عودًا- **فأيُّ قلبٍ أشربها** -أي: أحبها وتعلق بها- **نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلبٍ أنكرها، نكت فيه نكتة بيضاء حتىٰ تصير علىٰ قلبين، علىٰ أبيض مثل الصفا** -نسأل الله أن يجعل قلوبنا جميعًا منه- **فلا تضرُّه فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادًّا كالكوز مُجخِّيًا لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه**»[(١)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٤٦٩).

فذنبٌ مع ذنبٍ مع ذنبٍ يظلم القلب، وإذا أظلم القلب، وكان عليه الران، حجب عن كلِّ خيرٍ، حتىٰ إذا تَمكَّنت الفتن منه، وأحبها، وأشربها، صار قلبه لا يميز بين الحسن والقبيح، وفي هذه المرحلة أصبح قاب قوسين أو أدنىٰ من النفاق العقدي، أو النفاق الأكبر، فمن الممكن أن يرىٰ ما أمرت به الشريعة قبيحًا، فيقبح ما حسنه الشرع، ويحسن ما قبحه الشرع، وهذه -مثلًا- من العلامات التسعة التي ذكرناها للنفاق العقدي، ومن الممكن أن يصل إلىٰ مرحلةٍ يعتقد فيها عدم صدق النبي ﷺ، وهذه أيضًا من العلامات التسعة، فلا تستهن بهذه العلامات.

وبتجميع ما في هذين الحديثين من علاماتٍ، تتحصل لنا خمس صفات مذمومة كلها من السلوك، ووصف بها النبي ﷺ المنافقين، وهذه الصفات سمَّاها العلماء الأصول الخمسة للنفاق العملي، وهي كالآتي:

الأولىٰ: من صفات النفاق الأصغر: «إذا حدَّث كذب»:

والكذب هو الإخبار بغير الحقِّ، فلا بد دائمًا أن يكون ما تخبر به علىٰ وجه الحق، وإلا وقعت في هذا المحظور، وهذا الكلام وإن كان معلومًا، فلا بد من تنفيذه في واقع الحياة، وقد قسَّم العلماء الكذب باعتبار ما يكذب عليه إلىٰ أربعة أقسامٍ:

١. الكذب علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا أعظم أنواع الكذب، وهو أنواع:

- أن ينسب العبد إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ما لم يثبت، وهذا يدخل فيه الفتوىٰ بغير علمٍ، فإذا استفتاك أحدٌ، فلا تأخذك العزة بالإثم، فتحلل وتحرم بغير علمٍ، فأنت تنسب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ هذا الكلام، فلا بد أن تكون علىٰ ثقةٍ تامةٍ منه.

- أن ينسب العبد إلىٰ الله ﷻ ما لم ينسبه لنفسه، وهذا يدخل فيه أن يصف العبد ربَّه بما لم يصف الله به نفسه، أو يصفه به رسوله ﷺ، كمَنْ يقول: إن الله مهندس الكون، أو أنه سهران ينتظرك، فهذا كلُّه من الكذب علىٰ الله ﷻ.

- أن يُسمِّي العبد ربَّه بما لم يسم الله به نفسه، أو يسمه به رسوله ﷺ، فنحن نقف في هذا الباب أيضًا علىٰ النص الوارد.

وعقوبة الكذب علىٰ الله بنصِّ التنزيل: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر: ٦٠]، قال العلماء: فعلامة الكاذب علىٰ الله يوم القيامة أن يكون أسود الوجه(١).

٢. الكذب علىٰ النبي ﷺ، ومعناه أن ينسب إلىٰ النبي ﷺ ما لم يثبت من قولٍ، أو فعلٍ، أو تقريرٍ، وقد قال النبي ﷺ كما عند البخاري من حديث المغيرة رضي الله عنه: «**إنَّ كذبًا عليَّ ليس ككذبٍ علىٰ أحدٍ، مَن كذب عليَّ متعمدًا، فليتبوأ مقعده من النار**»(٢). لذلك، فنحن في أيامنا هذه لا يصح أن يعتلي أحدنا المنبر، فيقول: قال رسول الله ﷺ كذا وكذا، هكذا متجردةً، ولكن لابد من تبيين مصدر هذا القول؛ لأنَّ الحفظ بيننا الآن قليل، فلا بد أن تذكر مَن خرَّجه، ومَن رواه، ومَن أثبت صحته، وذلك لنفسك وللناس، فقد أصبح الدينُ في أيامنا هذه كَلأً مباحًا لكلِّ أحدٍ يريد أن يتكلم، والجالس يستمع وينصت لأيِّ أحدٍ يتكلم، فإن أتىٰ الكلام علىٰ هواه، قَبِلَهُ، وإن لم يأت لم يقبل، لذلك لا بد من تأصيل علومنا.

---

(١) وهذا يحدث يوم القيامة، أن تجد لبعض الأصناف من الناس علامات؛ كعلامة الكافر -مثلًا- أنه يسير علىٰ وجهه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء: ٩٧].

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٤).

٣. الكذب علىٰ الناس: عند الإمام أحمد عن نواس بن سمعان أن النبي ﷺ قال: «**كبرت خيانة تُحدِّث أخاك حديثًا هو لك مصدق، وأنت به كاذب**»(١).

٤. أن يكذب الإنسان علىٰ نفسه: وهذه أخطرهم، إذ يستمر المرء في إقناع نفسه أنه جيدٌ وصالحٌ حتىٰ يصدق نفسه، لذلك اعلم أن الطريق الوحيد الذي لا غير له لتربية النفس علىٰ كل فضيلةٍ، والبعد عن كل رذيلةٍ: هو المصداقية مع النفس، فكن صادقًا مع نفسك، واعرف حقيقة نفسك لنفسك، ولا تهتم بالناس، فإنهم لن ينفعوك، ولن يضروك بشيءٍ، لذلك لا بد علىٰ سبيل الحتم والإلزام أن تجلس مع نفسك بصفةٍ يوميةٍ -أو حتىٰ كل يومين- فتعريها، وتكشف مصائبها بينك وبين نفسك، وأن تكون صادقًا مع نفسك، واعلم أن الاعتراف بالذنب أول طريق التوبة، كما قال الله تعالىٰ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣].

الثانية: من صفات النفاق الأصغر: «وإذا وعد أخلف»:

والوعد المقصود هنا يكون في أيِّ شيءٍ داخل نطاق الإباحة، أو الاستحباب، أو الفرضية، أمَّا المحرم فلا يفي به، وقد قسم العلماء -كما ذكر الحافظ ابن رجبٍ في «جامع العلوم والحكم» - الوعد باعتبار الوفاء وعدمه إلىٰ ثلاثة أقسامٍ:

- أن يعد وفي نيَّته ألَّا يفي، وهذا الذي في الحديث بالضبط، كمَن يعطي الميعاد لشخصٍ وفي نيَّته أنه لن يذهب إليه، وهذا مذمومٌ حتىٰ لو علق الوفاء علىٰ المشيئة، فقال مثلًا: سآتي إن شاء الله، فالاستثناء هنا مجرد كلام، أما العبرة فبما أضمر لا ما أظهر.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٣٥)، وإسناده ضعيف جدًّا.

- أن يعد وفي نيَّته أن يفي، ثم بدا له ألَّا يفي وبدون عذرٍ، وهذا مذموم أيضًا، ويوصف بالنفاق أيضًا.

- أن يعد وفي نيته أن يفي، ثم جاءه عذرٌ حال بينه وبين الوفاء، فإن وفَّىٰ، ترتب علىٰ ذلك مفسدةٌ، وهذه الحالة هي التي يُعْذر فيه المكلف، فالذي حال بينه وبين المجيء ظروفٌ بتقدير المولىٰ عَزَّوَجَلَّ.

الثالثة: من صفات النفاق الأصغر: «وإذا اؤتمن خان»:

أي: إذا ائتمنه الناس علىٰ شيءٍ، لم يوف بما استأمنوه، وهذه خيانة؛ سواء كان ذلك في المحسوسات، أو في المعنويات، فمثلًا: إن استأمنك إنسانٌ علىٰ معلومةٍ معينةٍ، فلا بد أن تكون أهلًا لذلك، أما المحسوسات فهي الماديات.

وهنا مسألة لا بد أن نُجلِّيها علىٰ وجه الاختصار، وهي مشهورةٌ عند الفقهاء باسم مسألة الظفر، وخلاصتها: أنه إن كان لك عند إنسانٍ حقٌّ فجحده، ثم استطعت أنت أن تظفر بحقك رغم أنفه، أو دون علمه، فهل يجوز لك أَخْذ ما ظفرت به أم لا؟ فمثلًا: إن كان رجل يعمل في شركةٍ، فطرده صاحب الشركة، ومنع عنه حقه في أجر شهرين مثلًا، وكان هذا الرجل يعمل أمينًا للمخازن، فأخذ شيئًا مما كان تحت يديه يكافئ ما منعه عنه صاحب الشركة، فهل يجوز له ذلك؟

وكثيرٌ من الناس يفتون في هذه المسألة بالجواز، ولكن هذا خطأٌ، فهم يستدلون ببعض النصوص الشرعية التي لا تؤخذ علىٰ إطلاقها في مثل هذه المسائل؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورىٰ: ٤٠]، ونصوص أخرىٰ علىٰ هذا المنوال، وهذه النُّصُوص

ليست علىٰ الإطلاق، وإنَّما هي مقيدةٌ بقيودٍ ثقالٍ، فمثلًا: هل يجوز إن سب رجل رجلًا بأمه أن يرد عليه بالمثل؟ أو إن اتهم رجل رجلًا بالفاحشة أن يردَّ بنفس الكلام؟ هذا لم يَقُلْ به أحدٌ، كما أن مسألة الظفر لا بد أن يكون الحكم فيها بالمنع سدًّا للذريعة، وإلا لتمرد كل واحدٍ علىٰ عمله، وأعطىٰ لنفسه الحق في أخذ أي شيءٍ، لذا المنع هو الأَوْلَىٰ والأبرأ من كل شبهةٍ، والأسلم للدين.

ومما يدلُّ علىٰ ذلك: ما عند أبي داود والترمذي وأحمد، وسندُ الحديث حسنٌ، عن يوسف بن ماهك المكي، قال: كنت أكتب لفلانٍ نفقة أيتام كان وليهم -أي: كالمحاسب في أيامنا- فغالطوه بألف درهمٍ، فأداها إليهم -أي: أثناء الحساب زعم اليتامىٰ أن ألفي درهم من مالهم لم تصلهم، فأسقطها الأنصاري من الحساب، وكان الكاتب يعلم أن المبلغ وصلهم، فأدركت لهم من مالهم مثليها. قال: قلت: أقبض الألف الذي ذهبوا به منك؟

قال: لا، حدَّثني أبي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**أَدِّ الأمانةَ إلىٰ مَن ائتمنك، ولا تَخُنْ مَنْ خانك**»(١)، وهذا الحديث ضعَّفه بعض أهل العلم، ولكن صححه الشيخ أحمد شاكر، وصححه الشيخ الألبانيُّ أيضًا.

كذلك مَن أمنك علىٰ أي أمانةٍ، فلا يحل لك أن تستغلها في الضغط عليه ليرد مظلمةً ظلم فيها غيرك مثلًا، والعقل قد يجيز مثل هذا علىٰ أنه مجرد تهديدٍ لرد مظلمةٍ، ولكن حكم الشرع أن هذه أمانة لا يجوز لك أن تستغلها هكذا، فلا تخلط بين الأمور، فكثيرٌ من المقاييس العقلية تتعارض مع النُّصوص، فلا بد من التقيُّد بالضوابط الشرعية لا بالعواطف، فالشرع حكم علىٰ الجميع، وأمَّا مسألة المصلحة

(١) أخرجه أحمد (١٥٤٢٤)، وأبو داود (٣٥٣٤)، وصححه الألباني.

والمفسدة، ورفع الظلم عن الناس، ومثل هذه الأمور، فلا يتعامل معها المرء وقَدْ صار طرفًا فيها وخصمًا، فلا يصحُّ أن يكون الخصم والحكم في نفس الوقت.

وهذا كله يعود إلىٰ القاعدة الأصوليَّة: «الوسائل لها أحكام المقاصد»، فإذا كان المقصد شرعيًّا، فلا بد أن تكون الوسيلة التي اتخذتها أيضًا شرعية، والخيانة محرمة ولا شكَّ، بل هي خصلة من خصال النِّفاق الأصغر التي تؤدي إلىٰ النفاق الأكبر.

كذلك قال بعض أهل العلم: إنَّ المراد من قوله: «**وإذا اؤتمن خان**»، هو خيانة التكليفات الشرعية، واستأنسوا لصحة قولهم بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وهذا قولٌ لا بأس به، ويدخل فيه أيضًا من باب أَوْلَىٰ ما ائتمن الناس بعضهم بعضًا عليه.

الرابعة: من صفات النفاق الأصغر: «وإذا خاصم فجر»:

الخصومة هي الاحتكام إلىٰ الغير، فإن حَدثَتْ بينك وبين أحدٍ خصومة؛ سواء في أمر الدنيا، أو أمر الدين، فلا بدَّ أن تتقي الله ربك، ولا تفجر، والفُجْر هنا يكون بتغيير الحقائق والكذب، وادِّعاء الباطل والتدليس والتزوير، ولكن إن تخاصمت مع أحدٍ، فتبين أنه علىٰ حق وأنك مخطئ، فلا يحزنك ذلك، ولا إشكال في ذلك علىٰ الإطلاق؛ لأننا بشرٌ، الأصلُ فينا الخطأ.

واعلم أن حكم القاضي، وفتوىٰ المفتي، والعرف الذي تحتكم إليه، لا يُغيِّر من حقيقة الأمر شيئًا، فأنت من الممكن أن تقلب الحقائق بمعسول الكلام، وبالشهود، وغير ذلك، فتصير منصورًا نصرًا مؤزرًا بعد أن كنت مذنبًا مخطئًا، ولكن هذا لن ينفعك أمام الله عَزَّوَجَلَّ.

فعند البخاري عن أُمِّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّما أنا بشرٌ، وإنكم تختصمون إليَّ** -أي: تحتكمون إليَّ- **ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحن بحُجَّته من بعضٍ، فأقضي نحو ما أسمع، فمَن قضيت له بحق أخيه شيئًا، فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار**»(١).

لذلك -كما ذكرنا في هذه العلامات- مرجعية هذه الأفعال إلىٰ القلب، فالرجل الذي في الخصومة لم يراقب الله عَزَّوَجَلَّ، وضعف وازع التقوىٰ في قلبه، ففعل ما فعل.

وقوله ﷺ: «**وإذا خاصم فَجَر**»، لم يحدد نوعية الخصومة، ولا مع مَن تختصم حتىٰ لو كان مع زوجك، وأنت إذا نظرتَ إلىٰ الواقع، وإلىٰ ما في المحاكم الآن، وإلىٰ الوقت الَّذي يبذل، وإلىٰ الأوراق والتكليفات، وغير ذلك، ستُصَاب بصدمةٍ، والحقُّ أننا لو طبَّقنا هذا المبدأ بيننا لارتحنا، فإنك إذا صدقت، فستجبر خصمك أن يصدق هو أيضًا، وأما إن كذبت، فإنه سيكذب، وكذلك إن أيقنت أن خصمك فَجَر، لا يحل لك أن تفجر، فهذا سلوك غير مرضيٍّ.

وكذلك عند الخصومة في بعض القضايا الشرعية، فإن تخاصمت مع أحدٍ في مسألة شرعية، فلا بد أن تكون في أضيق نطاقٍ، وأن تكون محاطةً بالرفق، وأن تكون الألفاظ التي تستخدمها مناسبةً لمن أمامك.

الخامسة: من صفات النفاق الأصغر: «وإذا عاهد غدر»:

قال عزَّ من قائل: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: ٣٤]، والعهد فيه شيء من التشابه مع الوعد، وفرق

(١) أخرجه البخاري (٦٩٦٧).

بينهما بعض العلماء، فجعلوا الوعد يكون بالإتيان -مثلًا- لمكانٍ ما، بينما العهد في البيوع والنكاح وما شاكل ذلك.

لذلك، عند مسلم أنَّ عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في أواخر حياته لمَّا شعر بدُنُو أجله، قال لبنيه: زوجوا فلانة ابنتي لفلانٍ، فإنِّي أعطيته شبه عهدٍ -كالَّذي يقول للمتقدم: وهل هناك أفضل منك؟ مثلًا، فابن عمر رأىٰ أن هذا كأنه عهد- فإنِّي سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «**لكلِّ غادرٍ لواء يوم القيامة يُعْرف به، يُقَال: هذه غدرة فلان**»(١)، وفي روايةٍ عن أبي سعيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لكل غادرٍ لواء عند استه يوم القيامة**»(٢)، حتىٰ يفضح علىٰ رؤوس الخلائق، فاللِّواء هو العلم، أي: عصا عليها قطعة قماشٍ.

ونُذكِّر بأنَّ هذه الأمور المذكورة هي من الكبائر باتفاق أهل العلم، والكبائر عند أهل السنة والجماعة لا تخرج عن الملة إلا إذا دلَّ النص علىٰ ذلك، فإن لم يوجد نصٌّ في ذلك، فلا يزال العبد في دائرة الإيمان والإسلام ولكن ينقص إيمانه، فلا نخرجه من الملة بفعلةٍ من هذه الأشياء المذكورة، فمثلها صدَر من كثيرٍ من الناس علىٰ عهد النبي ﷺ، ولم يحكم عليهم بالكفر الأكبَر المخرج عن الملة، ولم يقم عليهم حد الرِّدة، وإنما نحذر أنفسنا من التلبس بشيءٍ من هذه الأمور، ثم إذا تلبس العبد بشيءٍ منها، فينبغي عليه أن يعجل بالتوبة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.



(١) أخرجه البخاري (٦٩٦٦)، ومسلم (١٧٣٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٣٨).

الباب العاشر

مرض الوسوسة

وفيه ستة فصولٍ:

الفصل الأول: مقدمة عن مرض الوسوسة.

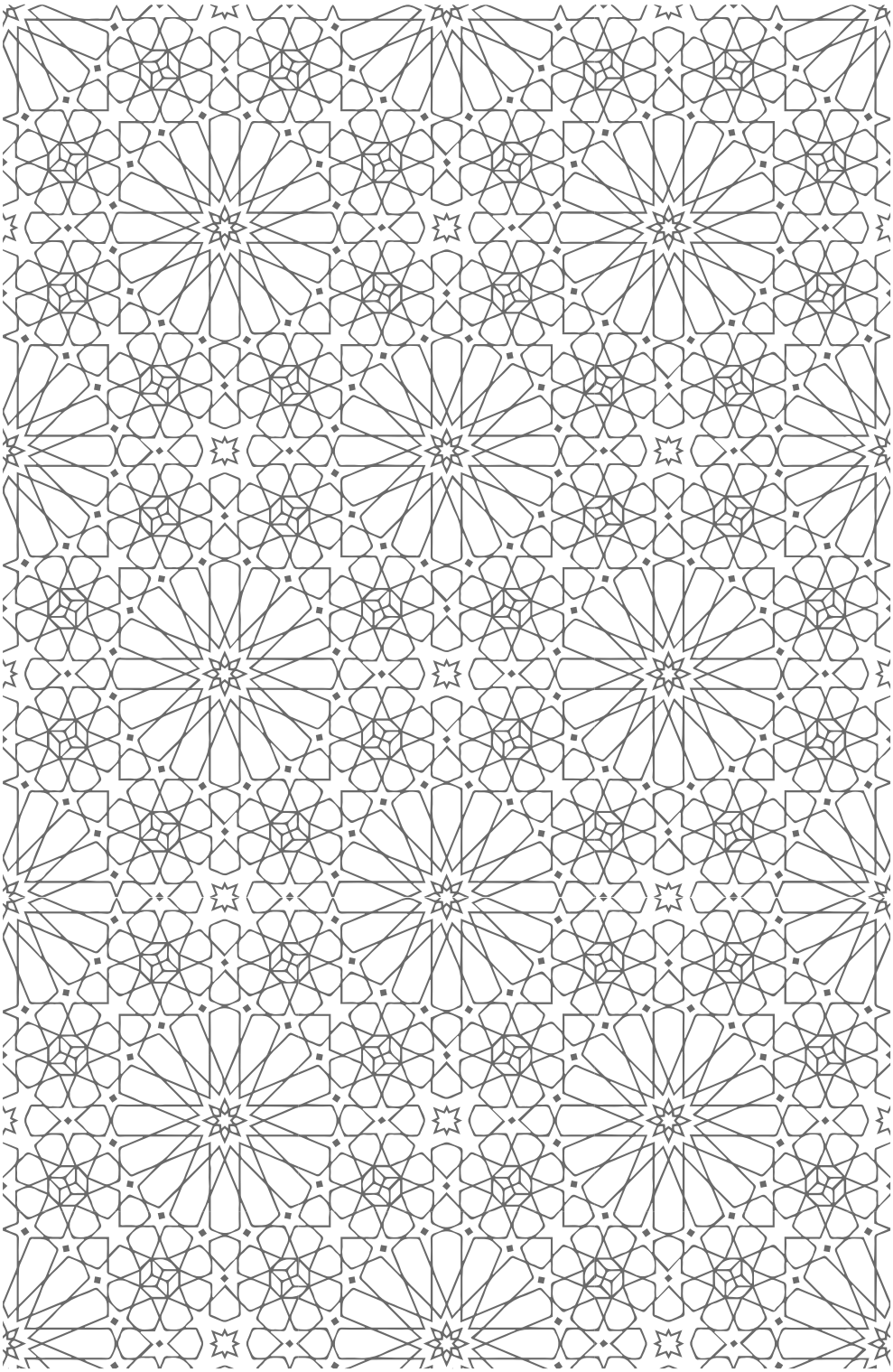
الفصل الثاني: أقسام الوسوسة باعتبار مصدرها.

الفصل الثالث: أسباب مرض الوسوسة، ومدخل الشيطان علىٰ الإنسان.

الفصل الرابع: بعض شبهات المبتلين بالوسوسة، والرد عليهم.

الفصل الخامس: هدي النبي ﷺ في إزالة النجاسات، والرد علىٰ الموسوسين.

الفصل السادس: علاج مرض الوسوسة.



الفصل الأول

مقدمة عن مرض الوسوسة

مرضُ الوسوسة مرضٌ خطيرٌ يترتب عليه انحرافٌ كبيرٌ في الفكر والسلوك، وخطره ليس -كما يخطر ببال الكثيرين- خاصًّا بمسائل الطهارة والصلاة وفقط، فالوسوسة -وإن كانت غالبًا تكون في هذه الأمور- (الطهارة والصلاة) إلا أنها تكون أيضًا في سلوك العبد واعتقاده، وغير ذلك من الأمور المهمَّة الخطيرة.

تعريف مرض الوسوسة:

الوسوسةُ مرضٌ من أمراض القلوب بنَصِّ القرآن الكريم، كما في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس: ١ - ٦].

ومن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أن قال: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾، ولم يقل: في قلوب الناس، فالقلب بالنسبة للصدر كالبيت الذي أمامه أرض واسعة، فالبيت هو القلب، والأرض هي الصدر، والوسوسة تقع في الأرض -أي: الصدر- فإن وجدت ما يمنعها من دخول البيت -أي: القلب- لم تدخل ورجعت، وإلا دخلت القلب وأثرت فيه، لذلك كان من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أَنْ جعل الوسوسة في الصدر، لا في القلب، لذلك قيل: إنَّ الصدر فناء القلب.

معنىٰ الوسوسة في اللغة والاصطلاح:

في اللغة: الوسوسة مصدر وسوس يوسوس، المشتقة من الواو والسين المضاعفة (وسس)، وأصلها الصوت الخفي، ويقال عن صوت الحلي إذا ارتطم بعضها ببعضٍ: وسواسًا[(١)].

واصطلاحًا: هو القولُ الخفيُّ إلىٰ القلب. وقيل: إنه الإلقاء الخفي بصوتٍ غير مسموع إلىٰ النفس، فلا يسمعه إلا مَن وسوس إليه، أو يكون بغير صوتٍ أصلًا، والوسوسة مرض ومحرم باتفاق العلماء.

قال أبو عبيدة: الوسوسة في التنزيل: هو ما يلقيه الشيطان في القلب[(٢)].

والوسوسة: الكلام الخفي في اختلاطٍ[(٣)].

وقال الراغب: الوسوسة: الخطرة الرديئة[(٤)].

وقال الكفوي: الوسوسة: القول الخفي لقصد الإضلال[(٥)].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: الوسوسة: الإلقاء الخفي في النفس؛ إما بصوتٍ خفيٍّ لا يسمعه إلا مَنْ أُلْقي عليه، وإما بغير صوتٍ، كما يوسوس الشيطان إلىٰ العبد[(٦)].

---

(١) «نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم» (١١/ ٥٧٠١).
(٢) «البصائر» (٥/ ٢٠٨).
(٣) «نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم» (١١/ ٥٧٠١).
(٤) «المفردات» للراغب (٥٢٢)، وانظر «التوقيف» (٣٣٧).
(٥) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١١/ ٥٧٠٢).
(٦) «نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم» (١١/ ٥٧٠٢).

الفصل الثاني

أقسام الوسوسة باعتبار مصدرها

قسَّم العلماء الوسواس باعتبار مصدره إلىٰ قسمين: من الجن، أو من الإنس، أو كليهما، وذكرهما الله عَزَّوَجَلَّ في قوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾، فالوسواس يأتي من الإنس بصوتٍ مسموعٍ، ويأتي من الجن بصوتٍ غير مسموعٍ، وكما أنهما اشتركا في الوسوسة، اشتركا في الوحي الشيطاني، كما قال ابن القيِّم عليه رحمة الله، قال الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝١١٢﴾ [الأنعام: ١١٢].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس: ٦]: يعني أن الوسواس نوعان: إنس وجن، فإنَّ الوسوسة: الإلقاء الخفي، لكن الإلقاء الإنسي بواسطة الأذن، والجني لا يحتاج إليها.

ونظير اشتراكهما في الوسوسة: اشتراكهما في الوحي الشيطاني في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝١١٢﴾ [الأنعام: ١١٢][(١)].

قال تعالىٰ: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾، وقال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠﴾ [الأعراف: ٢٠].

---

(١) «نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم» (١١/ ٥٧٠٢).

وقال تعالىٰ: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: ١٢٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦].

وفي الآية دلالة صريحة علىٰ أن النفس البشرية توسوس لصاحبها، والله يعلم ذلك، وفيها إشارةٌ إلىٰ أنه لا يخفىٰ عليه خافيةٌ، ويعلم ذوات صدورهم.

الأدلَّة من السنة علىٰ وقوع الوسوسة من الشيطان:

روىٰ مسلمٌ من حديث جابرٍ قال: سَمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**إنَّ الشيطان إذا سمع النداء بالصلاة، ذهب حتىٰ يكون مكان الروحاء**». قال سليمان -هو الأعمش سليمان بن مهران، والمسئول أبو سفيان طلحة بن نافع- فسألته عن الروحاء، فقال: «هي من المدينة ستة وثلاثون ميلًا»[(١)].

وفي روايةٍ عند مسلمٍ من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ الشَّيطان إذا سَمِعَ النِّداء بالصلاة، أحال له ضراطٌ حتىٰ لا يسمع صوته، فإذا سكت رجع فوسوس، فإذا سمع الإقامة ذهب حتىٰ لا يسمع صوته، فإذا سكت رجع فوسوس**»[(٢)].

وفي روايةٍ عند مسلم أيضًا، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أذَّن المؤذِّن، أدبر الشَّيطان وله حصاصٌ**»[(٣)].

وفي رِوَايةٍ عند مسلمٍ عن أبي هريرة، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إذا نودي للصلاة، أدبر**

---

(١) «صحيح مسلم» (٣٨٨).
(٢) «صحيح مسلم» (٣٨٩).
(٣) «صحيح مسلم» (٣٨٩).

الشيطان له ضراطٌ حتىٰ لا يسمع التأذين، فإذا قضي التأذين أقبل، حتىٰ إذا ثوب بالصلاة أدبر، حتىٰ إذا قضي التثويب، أقبل حتىٰ يخطر بين المرء ونفسه، يقول له: اذكر كذا، واذكر كذا، لما لم يكن يذكر من قبل حتىٰ يظلَّ الرجل ما يدري كَمْ صلَّىٰ»[(١)].

قال النووي: قوله ﷺ: «**إذا سمع الشيطان الأذان أحال**»، أي: ذهب هاربًا. قوله ﷺ: «**وله حصاص**»، أي: ضراط. وقيل: الحصاص: شدة العَدْو.

ويُدْبر الشيطان عند سماع الأذان لعظم أمر الأذان؛ لما اشتمل عليه من قواعد التوحيد، وإظهار شعائر الإسلام وإعلانه. وقيل: يدبر ليأسه من وسوسة الإنسان عند الإعلان بالتوحيد.

قوله ﷺ: «**حتىٰ إذا ثوب بالصلاة**»، المراد بالتثويب: الإقامة.

قوله ﷺ: «**حتىٰ يخطر بين المرء ونفسه**»، معناه: يوسوس من السلوك والمرور، أي: يدنو منه، فيمر بينه وبين قلبه، فيشغله عمَّا هو فيه. انتهىٰ.

قوله ﷺ: «**حتىٰ يظل الرجل ما يدري كيف صلىٰ**»، «إن» هنا بمعنىٰ «ما»، والمراد: لا يدري المصلي كم صلىٰ من الركعات[(٢)].

ولا ينجو من وسوسة الشيطان في الصلاة أحدٌ:

روىٰ مسلم من حديث أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ عفريتًا من الجنِّ جعل يفتك عليَّ البارحة، ليقطع عليَّ الصلاة، وإنَّ الله أمكنني منه فذعته، فلقد هممتُ أن أربطه إلىٰ جنب ساريةٍ من سواري المسجد حتىٰ تصبحوا تنظرون إليه أجمعون**

---

(١) «صحيح مسلم» (٣٨٩).

(٢) «شرح النووي علىٰ مسلم» (٤/ ٩٢).

-أو: كلكم- **ثم ذكرتُ قول أخي سليمان:** ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾، **فردَّه الله خاسئًا»**(١).

قال النووي: قوله ﷺ: «**إن عفريتًا من الجن جعل يفتك عليَّ البارحة ليقطع عليَّ صلاتي**».

في رواية البخاري: «**يفلت**»، وهما صحيحان. والفتك: الأخذ في غفلةٍ وخديعةٍ. والعفريت: العاتي المارد من الجن.

قوله ﷺ: «**فذعته**»، هو بذال معجمة، وتخفيف العين المهملة، أي: خنقته.

وفي روايةٍ: «**فدعته**»، يعني: بالدال المهملة، وهو صحيح أيضًا، ومعناه: دفعته دفعًا شديدًا. والدعت والدع: الدفع الشديد.

قوله ﷺ: «**فلَقَدْ هَممتُ أن أربطه حتَّىٰ تصبحوا تنظرون إليه أجمعون**»، أو «**كلكم**»، فيه دليل علىٰ أن الجن موجودون، وأنهم قد يراهم بعض الآدميين، وأما قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾، فمحمولٌ علىٰ الغالب، فلو كانت رؤيتهم محالًا، لَمَا قال النبيُّ ﷺ ما قال من رؤيته إياه، ومن أنه كان يربطه لينظروا كلهم إليه، ويلعب به ولدان أهل المدينة.

قوله ﷺ: «**ثم ذكرتُ قول أخي سليمان**»، صلاة الله وسلامه عليه.

قال القاضي: معناه أنَّه مختصٌّ بهذا، فامتنع نبيُّنا ﷺ من ربطه؛ إما أنه لم يقدر عليه لذلك، وإما لكونه لمَّا تذكَّر ذلك، لم يتعاطَ ذلك؛ لظنه أنه لم يقدر عليه، أو تواضعًا وتأدبًا.

---

(١) «صحيح مسلم» (٥٤١).

قوله ﷺ: «**فردَّه الله خاسئًا**»، أي: ذليلًا صاغرًا مطرودًا مُبْعدًا[(١)].

وروىٰ الإمام أحمد بسندٍ صحيحٍ من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ يصلِّي، فسمعناه يقول: «**أعوذ بالله منك**»، ثم قال: «**ألعنك بلعنة الله، ألعنك بلعنة الله، ألعنك بلعنة الله**»، وبسط يده كأنه يتناول شيئًا، فلمَّا فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله، قد سمعناك تقول في الصلاة شيئًا لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك، قال: «**إنَّ عدو الله إبليس جاء بشهابٍ من نارٍ ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة ثلاث مرات، فلم يستأخر، فأخذت بحلقه فخنقته، فما زلت أخنقه حتىٰ وجدت بردَ لُعَابه بين إصبعي هاتين الإبهام والتي تليها، ثم أردتُ أن آخذه، فوالله لولا دعوة أخينا سليمان عليه السلام لأصبح مربوطًا بساريةٍ من سواري المسجد يلعب به ولدان أهل المدينة، فَمَن استطاع منكم ألَّا يحولَ بينه وبين القبلة أحدٌ، فليفعل**»[(٢)].

قال ابن رجبٍ الحنبلي: وفي هذا الحديث من العلم: أَنَّ دفع المؤذي في الصلاة جائزٌ، وإن لم يندفع إلا بعنفٍ وشدة دفعٍ، جاز دفعه بذلك[(٣)].

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾ [الناس: ٤]، قال: الشيطان جاثمٌ علىٰ قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر خنس[(٤)].

---

(١) «شرح النووي علىٰ مسلم» (٥/ ٢٩).

(٢) «مسند أحمد» مخرجًا (١١٧٨٠) بإسناد حسن.

(٣) «فتح الباري» لابن رجب (٩/ ٣٣٢).

(٤) «الوابل الصيب» (٥٦).

الفرق بين الوسوسة والإلهام، وما أشبههما ممَّا يقع في النفس:

تُقَال الوسوسة لِمَا يقع في النفس من الشر، أما الإلهام فهو لما يقع فيها من الخير، ولما يقع فيها من الخوف إيجاسٌ، ولما يقع من تقدير نيل الخير أملٌ، ولما يقع من تقديرٍ لا علىٰ الإنسان، ولا له خاطر.



الفصل الثالث

أسباب مرض الوسوسة ومدخل الشيطان على الإنسان

لابد -كما قال المتقدمون من أهل العلم، وكما ذكرنا من قبل- أن أعرف سبب الوسوسة، فما من إنسانٍ يقع في انحرافٍ عن أمور الشريعة؛ سواء في العقائد، أو السلوك، أو العبادات إلا وله سببٌ، ولزامًا عليه حتىٰ يرجع إلىٰ الجادة، ويقلع عن هذا الانحراف أن يعرف سببه ابتداءً.

يقع الإنسان في الوسوسة لسببين لا ثالث لهما، هما:

السبب الأول: خلل بالعقل، فأما هذا فله وضع خاص، ومبحثه في الكلام عن عوارض الأهلية في علم أصول الفقه.

السبب الثاني: جهل بالشرع، وهنا الإشكال، فترىٰ الرجل عقله سليم مائة بالمائة، ولكن لجهله بالشرع يقع في هذا المرض، وهو محل كلامنا.

مدخل الشيطان علىٰ الإنسان من خلال قوتين:

يجب أن نعلم أن الشيطان يستغل جهل المرء بالشرع ليدخل عليه من مدخلين كبيرين ذكرهما الإمام ابن القيِّم -عليه رحمة الله- حين تكلم في مبحث الوسوسة من كتابه الماتع «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان»، ويا ليت كل أحدٍ منَّا يقرأ هذا الكلام، فقد تكلَّم الإمام كلامَ فقيهٍ عالِمٍ خبيرٍ بأغوار النفس حقًّا، وكان من كلامه أن الشيطان يشام النفس البشرية -أي: يتفقَّد أحوالها، ويعرف أغوارها، ويقف علىٰ ما بداخلها[(١)] - ثم ذكر أن في كل نفسٍ علىٰ وجه الأرض قوتين، هما:

---

(١) وهذا لا يعني أن الشيطان يعلم الغيب، ولكن الله ﷻ أعطاه هذه الأشياء؛ ابتلاءً لنا معشر المكلفين، =

١. قوة إقدامٍ وشجاعةٍ.

٢. قوة إحجامٍ ومهانةٍ.

وعمل هاتين القوتين عند المرء يختلف من حالةٍ لأخرىٰ، والشيطان يعلم عن كل امرئٍ قدر ما عنده من هاتين القوتين، ويستغلُّ ذلك.

لذلك، مَنْ علم ما عنده من هاتين القوتين، علم مداخل الشيطان عليه حين يأتيه.

قال ابن القيِّم(١): ومن كيده العجيب -أي: كيد الشيطان للمكلفين- أنه يشام النفس، حتىٰ يعلم أي القوتين تغلب عليها: قوة الإقدام والشجاعة، أم قوة الانكفاف والإحجام والمهانة؟

فإن رأىٰ الغالب علىٰ النفس المهانة والإحجام، أخَذ في تثبيطه، وإضعاف همَّته وإرادته عن المأمور به، وثقله عليه، وهون عليه تركه حتىٰ يتركه جملةً، أو يقصر فيه، ويتهاون به.

وإن رأىٰ الغالب عليه قوة الإقدام وعلو الهمة، أخذ يقلل عنده المأمور به، ويوهمه أنه لا يكفيه، وأنه يحتاج معه إلىٰ مبالغةٍ وزيادةٍ، فيقصر بالأوَّل، ويتجاوز بالثاني، كما قال بعض السلف: «ما أمَر الله سبحانه بأمرٍ إلا وللشيطان فيه نزعتان: إما إلىٰ تفريطٍ وتقصيرٍ، وإما إلىٰ مجاوزةٍ وغلوٍّ، ولا يبالي بأيهما ظفر».

وقد اقتطع أكثر الناس إلا أقل القليل في هذين الواديين: وادي التقصير، ووادي

= فأنت -مثلًا- إن حذرك الجميع من رجلٍ أنه عدو لك، وصرت علىٰ يقينٍ من ذلك لكون الذين أخبروك بذلك مصدر ثقةٍ وصدقٍ، ثم علمت أن هذا العدو قريب منك يعلم الأخبار عنك حتىٰ التفاصيل الدقيقة، فلابد أنك ستأخذ حِذْرَك منه جدًّا جدًّا.

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ١١٥).

المجاوزة والتعدي، والقليل منهم جدًّا الثابت علىٰ الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه.

١) فقومٌ قصر بهم عن الإتيان بواجبات الطهارة، وقومٌ تجاوز بهم إلىٰ مجاوزة الحد بالوسواس.

٢) وقومٌ قصر بهم عن إخراج الواجب من المال، وقومٌ تجاوز بهم حتىٰ أخرجوا جميع ما في أيديهم، وقعدوا كلًّا علىٰ الناس، مستشرفين إلىٰ ما بأيديهم.

٣) وقومٌ قصر بهم عن تناول ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب واللباس، حتىٰ أضرُّوا بأبدانهم وقلوبهم، وقومٌ تجاوز بهم حتىٰ أخذوا فوق الحاجة، فأضرُّوا بقلوبهم وأبدانهم.

٤) وكذلك قصر بقومٍ في حق الأنبياء وورثتهم حتىٰ قتلوهم، وتجاوز بآخرين حتىٰ عبدوهم.

٥) وقصر بقومٍ حتَّىٰ امتنعوا من ذبح عصفورٍ أو شاةٍ ليأكله، وتجاوز بآخرين حتىٰ جرَّأهم علىٰ الدماء المعصومة.

٦) وكذلك قصر بقومٍ حتىٰ منعهم من الاشتغال بالعلم الذي ينفعهم، وتجاوز بآخرين حتىٰ جعلوا العلم وحده هو غايتهم دون العمل به.

٧) وقصر بقومٍ حتىٰ أطعمهم من العشب ونبات البرية دون غذاء بني آدم، وتجاوز بآخرين حتىٰ أطعمهم الحرام الخالص.

٨) وقصر بقومٍ حتىٰ زيَّن لهم ترك سُنَّة رسول الله ﷺ من النكاح، فرغبوا عنه بالكلية، وتجاوز بآخرين حتىٰ ارتكبوا ما وصلوا إليه من الحرام.

٩) وقصر بقومٍ حتىٰ جفوا الشيوخ من أهل الدين والصلاح، وأعرضوا عنهم، ولم يقوموا بحقهم، وتجاوز بآخرين حتىٰ عبدوهم مع الله.

١٠) وكذلك قصر بقومٍ حتىٰ منعهم قبول أقوال أهل العلم والالتفات إليها بالكلية، وتجاوز بآخرين حتىٰ جعلوا الحلال ما حللوه، والحرام ما حرموه، وقدموا أقوالهم علىٰ سُنَّة رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة.

١١) وقصر بقومٍ في خلطة الناس حتىٰ اعتزلوهم في الطاعات؛ كالجمعة والجماعات والجهاد وتعلم العلم، وتجاوز بقومٍ حتىٰ خالطوهم في الظلم والمعاصي والآثام.

١٢) وقصر بقومٍ حتىٰ قالوا: إنَّ الله سبحانه لا يقدر علىٰ أفعال عباده، ولا شاءها منهم، ولكنهم يعملونها بدون مشيئته وقدرته، وتجاوز بآخرين حتىٰ قالوا: إنهم لا يفعلون شيئًا البتة، وإنما الله سبحانه هو فاعل تلك الأفعال حقيقةً، فهي نفس فعله لا أفعالهم، والعبيد ليس لهم قدرةٌ ولا فعلٌ البتة.

١٣) وقصر بقومٍ حتىٰ قالوا: إن رب العالمين ليس داخلًا في خلقه، ولا بائنًا عنهم، ولا هو فوقهم، ولا تحتهم، ولا خلفهم، ولا أمامهم، ولا عن أيمانهم، ولا عن شمائلهم، وتجاوز بآخرين حتىٰ قالوا: هو في كلِّ مكانٍ بذاته؛ كالهواء الذي هو داخلٌ في كل مكان.

١٤) وقصر بقومٍ حتىٰ قالوا: لم يتكلم الرَّبُّ سبحانه بكلمةٍ واحدةٍ البتة، وتجاوز بآخرين حتىٰ قالوا: لم يزل أزلًا وأبدًا يقول: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥]، ويقول لموسىٰ: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ [النازعات: ١٧]، فلا يزال هذا الخطاب قائمًا به، ومسموعًا منه؛ كقيام صفة الحياة به.

١٥) وقصر بقومٍ حتىٰ قالوا: إن الله سبحانه لا يشفع أحدًا في أحدٍ البتة، ولا يرحم أحدًا بشفاعة أحدٍ، وتجاوز بآخرين حتىٰ زعموا أن المخلوق يشفع عنده بغير إذنه، كما يشفع ذو الجاه عند الملوك ونحوهم.

١٦) وقصر بقومٍ حتىٰ قالوا: إيمان أفسق الناس وأظلمهم كإيمان جبريل وميكائيل، فضلًا عن أبي بكرٍ وعمر، وتجاوز بآخرين حتىٰ أخرجوا من الإسلام بالكبيرة الواحدة.

١٧) وقصر بقومٍ حتىٰ نفوا حقائق أسماء الرب تعالىٰ وصفاته، وعطَّلوه منها، وتجاوز بآخرين حتىٰ شبَّهوه بخلقه، ومثَّلوه بهم.

١٨) وقصر بقومٍ حتىٰ عادوا أهل بيتِ رسول الله ﷺ، وقاتلوهم، واستحلُّوا من حرمتهم، وتجاوز بقومٍ حتىٰ ادَّعوا فيهم خصائص النبوة من العصمة وغيرها، وربما ادَّعوا فيهم الإلهية.

١٩) كذا قصر باليهود في المسيح حتىٰ كذبوه، ورموه وأمه بما برَّأهما الله منه، وتجاوز بالنَّصارىٰ حتىٰ جعلوه ابن الله، وجعلوه إلهًا يُعْبد مع الله.

٢٠) وقصر بقومٍ حتىٰ نفوا الأسباب والقوىٰ والطبائع والغرائز، وتجاوز بآخرين حتىٰ جعلوها أمرًا لازمًا لا يمكن تغييره، ولا تبديله، وربما جعلها بعضهم مستقلةً بالتأثير.

٢١) وقصر بقومٍ حتىٰ تعبدوا بالنجاسات، وهم النصارىٰ وأشباههم، وتجاوز بقومٍ حتىٰ أفضىٰ بهم الوسواس إلىٰ الآصار والأغلال، وهم أشباه اليهود.

٢٢) وقصر بقومٍ حتىٰ تزينوا للناس، وأظهروا لهم من الأعمال والعبادات ما يحمدونهم عليه، وتجاوز بقومٍ حتىٰ أظهروا لهم من القبائح ومن الأعمال السيئة ما يسقطون به جاههم عندهم، وسمَّوا أنفسهم: الملامتية.

٢٣) وقصر بقومٍ حتىٰ أهملوا أعمال القلوب، ولم يلتفتوا إليها، وعدوها فضلًا، أو فضولًا، وتجاوز بآخرين حتىٰ قصروا نظرهم وعملهم عليها، ولم يلتفتوا إلىٰ كثيرٍ من أعمال الجوارح، وقالوا: العارف لا يسقط وارده لورده.

ثمَّ قال ابن القيِّم بعد أن ذكر ما ذكر من الأمثلة السابقة: وهذا باب واسع جدًّا، لو تتبعناه لبلغ مبلغًا كثيرًا، وإنما أشرنا إليه أدنىٰ إشارة، فرحمه الله تعالىٰ، وجزاه الله خيرًا[(١)].

فعلىٰ سبيل المثال: يمكن أن يستغل الشيطان مَن كانت عنده قوة إقدام وشجاعة ليضله ويوقعه في الوسوسة من خلال التقليل له من شأن ما أمر به الشارع، وتحقيره في عين المرء، فيوهمه أنه غير كافٍ، فمثلًا: يقلل في عينيه ضوابط الطهارة الواردة في الشرع[(٢)]؛ كغسل اليد ثلاث مرات، فتجده يريد الزيادة إلىٰ أربعٍ، أو خمس مراتٍ مثلًا.

كذلك ما ورد عند مسلمٍ عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النَّبيُّ ﷺ يتوضأ بالمُدِّ، ويغتسل بالصاع إلىٰ خمسة أمدادٍ، فتجده يغمر جسده كله بالماء، ثم يرىٰ أن هذا لا يكفي، وهذا موجودٌ بكثرة عند كثيرٍ من أصحاب الحماس الذين تلقَّوا علوم الشريعة من وحي الواقع، لا من أفواه العلماء، فهؤلاء يستغل الشيطان غَيرتهم علىٰ الدين، ويأتيه بالحجج تلو الحجج حتىٰ يوقعهم في مخالفة الشرع[(٣)].

كذلك من مداخل الشيطان علىٰ الأُسَر ليُفكِّكها ويهدمها: قوة الإقدام والشجاعة، فإنها تفسد كثيرًا من العلاقات الزوجية، فتكون هذه الصفة عند الزوج مثلًا، فتحدث بينه وبين زوجته شحناء أو بغضاء بسبب سرعة انفعاله، وقد يتطوَّر

---

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ١١٨).

(٢) وأعظم وسواس يبتلىٰ به الإنسان ما يكون في أمور الطهارة، وإزالة النجاسات، والصلاة.

(٣) ومن ذلك مَنْ إذا رأىٰ المنكرات الكثيرة التي ليس فيها خلافٌ منتشرة في المجتمع جعله الشيطان لا يسكن إلا إذا ضرب صاحب المنكر مثلًا لما عنده من قوة إقدام وشجاعة، ولا يلتفت لما ضبط به الشرع إنكار المنكر؛ إما لأنه جاهل به أصلًا، أو لاعتقاده أن ما أمر به الشرع غير كافٍ.

ذلك إلىٰ هدم العلاقة بينهما بالكامل، وإنما ينبغي دائمًا أن يكون الاحتكام إلىٰ شريعة الله ﷻ، فكل ما وقع من قصورٍ من أيٍّ من الزوجين لابد أن يرد إلىٰ شريعة الله ﷻ، لا إلىٰ الأعراف والأهواء؛ لأنها تزيد الأمر سوءًا[(١)]، وكذلك إن تقابلت مع سفيهٍ فأغضبك بكلمةٍ، أو فعلةٍ، أو إشارةٍ، أو غير ذلك، فاحكم قوة الإقدام والشجاعة عندك، فإن الله ﷻ قال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ [الفرقان: ٦٣].

أما مَن كانت عنده قوة إحجام ومهانة، فيستغل الشيطان ذلك من خلال تثبيط عزيمته، وتقليل همَّته، وتثقيل العمل عليه حتىٰ يترك العمل بالكليَّة، كما يحدث -مثلًا- في تقليل الهمة عن صلاة الجماعة.

الإفراط أو التَّفريط كلاهما هدفٌ للشيطان:

قال بعض السلف: وما أمر الله ﷻ بأمرٍ إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما تقصير وتفريط، وإما إفراط وغلو، ولا يبالي -أي: الشيطان- بما ظفر من العبد من الخطيئتين[(٢)].

فالمهم عنده أن تنحرف عن الجادَّة، لذلك قبل أن تفعل الفعلة، فانظر ما الخاطر الذي جاء إليك يأمرك بفعلها، ولا تنخدع؛ لأنَّ وسوسة الشيطان أحيانًا تكون في قلب المرء من طرفٍ خفيٍّ لا يشعر بها، وأحيانًا يغلف له الباطل بثوب الحق وهو لا يدري.

---

(١) ومما ينتشر بين الناس الآن من هذه الوسوسة: أن الشيطان قد يستغل بعض المشاكل، فيلقي علىٰ لسان الزوجة قولها: إن كنت رجلًا طلِّقني، فتعلق طلاقها علىٰ كونه رجلًا، وهي تعلم أنه رجلٌ، بل لا يعرف كون الرجل رجلًا حقًّا إلا امرأته، فيصدق هو أيضًا كلامها ويطلقها، وهذا كله من وسوسة الشيطان.

(٢) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ١١٦).

التأثير المحسوس للشيطان للمكلفين في الصلاة وغيرها:

ممَّا يندرج تحت أمر الوسوسة، ويوقع كثيرًا من الناس فيها: أن الله عَزَّوَجَلَّ أعطىٰ إبليس تأثيرًا محسوسًا يظهر علىٰ البشر -أي: تدركه حواسهم- أو يخيل إليهم أنه موجودٌ، فمن ذلك:

روىٰ الشَّيخان من حديث عباد بن تميمٍ، عن عمِّه، أنه شكا إلىٰ رسول الله ﷺ الرجل الذي يخيل إليه أنه يجد الشيء في الصلاة؟ فقال: «**لا ينفتل** -أو: لا ينصرف- **حتىٰ يسمع صوتًا، أو يجد ريحًا**»(١).

روىٰ أحمد وغيره بسندٍ صحيحٍ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أحدَكم إذا كان في الصلاة، جاءه الشيطان، فأبس به** -أبس: زجر دابَّته لتسرع المشي- **كما يأبس الرجل بدابته، فإذا سكن له، أضرط بين أليتيه ليفتنه عن صلاته، فإذا وجد أحدكم شيئًا من ذلك، فلا ينصرف حتىٰ يسمع صوتًا، أو يجد ريحًا لا يشك فيه**»(٢).

وما ذكر في آخر الحديث هو العلاج، أي: لا يتأثر المصلي بما حدث، ويستمر في الصلاة حتىٰ يسمع بأذنه، ويشم بأنفه.

ورَوىٰ الطبرانيُّ عن قيس بن السكن، قال: قال ابن مسعودٍ: «**إنَّ الشيطان ليطيف بالرجل في صلاته ليقطع عليه صلاته، فإذا أعياه، نفخ في دُبُره، فإذا أحسَّ أحدكم من ذلك شيئًا، فلا ينصرفن حتىٰ يجد ريحًا، أو يسمع صوتًا**»(٣).

---

(١) رواه البخاري (١٣٧)، ومسلم (٣٦١).

(٢) رواه أحمد (٨٣٦٩).

(٣) «المعجم الكبير» (٩٢٣١).

وروىٰ أحمد بسندٍ حسنٍ من حديث أبي سعيدٍ الخدري، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الشَّيطان يأتي أحدكم وهو في صلاته، فيأخذ شعرةً من دبره، فيمدها، فيرىٰ أنه قد أحدث، فلا ينصرفن حتىٰ يسمع صوتًا، أو يجد ريحًا**»(١).

وروىٰ الطبرانيُّ بسندٍ حسنٍ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ سئل عن الرجل يخيل إليه في صلاته أنه أحدث في صلاته، ولم يحدث، فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الشيطان يأتي أحدكم وهو في صلاته حتىٰ يفتح مقعدته، فيُخيَّل إليه أنه أحدث، ولم يحدث، فإذا وجد أحدكم ذلك، فلا ينصرف حتىٰ يسمع صوت ذلك بأُذُنه، أو يجد ريح ذلك بأنفه**»(٢).

وروىٰ أحمد بسندٍ حسنٍ من حديث عثمان بن عفان، قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنِّي صليت، فلم أدرِ أشفعت أم أوترت، فقال رسول الله ﷺ: «**إيَّاي وأن يتلعب بكم الشيطان في صلاتكم، مَن صلىٰ منكم فلم يدرِ أشفع أو أوتر، فليسجد سجدتين، فإنهما تمام صلاته**»(٣).

لذلك، لابد من مراعاة هذه الإمكانيات جيدًا، فمثلًا: إن كنت تتوضَّأ، وتأكَّدت أنك غسلت أعضاءك جيدًا ودلكتها، وغير ذلك مما ورد في السنة، ثم خرجت فإذا بلمعةٍ في قدمك -أي: منطقة ليس عليها ماء- فلا تنشغل بهذا الأمر نهائيًّا، ولا تعول عليه، فإنه من الشيطان، مع مراعاة أن هذا يكون فقط في حالة كونك متأكدًا من دلكك أعضاءك جيدًا كما في السنة، وكذلك مَن يخرج -مثلًا- من دورة المياه، ثم يُخيَّل إليه

---

(١) رواه أحمد (١١٩١٢)، قال محققه: حديث حسن، وهذا إسناد ضعيف؛ لضعف علي بن زيد، وهو ابن جدعان، وبقية رجاله ثقات، رجال الصحيح.

(٢) «المعجم الكبير» (١١٥٥٦).

(٣) رواه أحمد (٤٥٠)، قال العلَّامة أحمد شاكر: إسناده منقطع، ورجاله ثقات، وسيأتي عقبه موصولًا.

أن قطرة بول نزلت في سرواله، فإذا رجع إلىٰ الحمام أحيانًا يجد شيئًا، وأحيانًا لا يجد، فهذا أيضًا من الشيطان، ولابد من غلق هذا الباب، فغلق باب الوسوسة من أصول الشريعة.

ومما يدخل في هذا الباب وهو من الوسوسة الحسية: ما رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: «**إنَّ في البحر شياطين مسجونة، أوثقها سليمان، يوشك أن تخرج، فتقرأ علىٰ الناس قرآنًا**»(١).

قوله: «**إن في البحر شياطين مسجونة، أوثقها سليمان...**»، الحديث. هذا ونحوه لا يتوصَّل إليه بالرأي والاجتهاد، بل بالسمع، والظاهر أنَّ الصَّحابة إنما تستند في هذا للنبي ﷺ، مع أنه يحتمل أن يحدث به عن بعض أهل الكتاب.

قوله: «**أوثقها**»، أي: أوثق تلك الشياطين وسجنها، «**سليمان**» بن داود، عليهما وعلىٰ نبينا أفضل الصلاة، وأزكىٰ السلام، أي: سجن في جزائره مَن أبىٰ وامتنع منهم من أشغاله، وكفر به «**يُوشِك**» بضم أوله، وكسر شينه، أي: يقرب في آخر الزمان «**أن تخرج**» من محبسها في البحر، وتنتشر في أنحاء الأرض وآفاقها «**فتقرأ**» تلك الشياطين «**علىٰ الناس**»، أي: علىٰ عوام الناس وأغبيائهم شيئًا ليس من القرآن، ويزعمونه «**قرآنًا**»، أي: يقولون للناس: إنه قرآن، فخذوه منا، وتمسكوا به، واعملوا بما فيه، فإنه قرآن أُنزل علىٰ نبيكم، فيضلونهم به ويفتنونهم.

قال السنوسي: «معناه: تقرأ شيئًا ليس بقرآنٍ، وتقول: إنه قرآن، لتغرَّ به عوام الناس، فلا يغترُّون؛ لحفظ الله ﷻ القرآن عن الزيادة والنقصان.

---

(١) «صحيح مسلم» (١/ ١٢).

ويحتمل أن يكون المراد بالقرآن: ما يجمعونه ويأتون به، إذ أصل القرآن الجمع»[(١)].

ومعنىٰ هذا الحديث: الإخبار بأن الشياطين المسجونة ستخرج، فتُموِّه علىٰ الجهلة بشيءٍ تقرؤه عليهم، وتلبس به حتىٰ يحسبوا أنه قرآن، كما فعله مسيلمة، أو تسرد عليهم أحاديث تُسْندها للنبي ﷺ كاذبة، وسُمِّيتْ قرآنًا؛ لما جمعوا فيها من الباطل. وعلىٰ هذا الوجه يُسْتفاد من الحديث التحذير من قبول حديث مَن لا يعرف[(٢)].

من مواقف الحازمين أمام وسوسة الشيطان:

ذكر أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه «تلبيس إبليس»، فقال: وقد بلغنا عن أبي حازمٍ أنه دخل المسجد، فوسوس إليه إبليس أنك تصلي بغير وضوءٍ، فقال: ما بلغ نصحك إلىٰ هذا[(٣)].

ووجه ذلك: أنَّ الشيطان يسعىٰ لإفساد أي عبادةٍ يقوم بها المكلف، فكيف يذكره أنه يصلي بغير وضوءٍ، فالمعقول والمقبول من الشيطان أن يتركه هكذا يصلي بغير وضوءٍ لتبطل صلاته.

ومن ذلك: ما ذكره أبو الفرج ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد: قال أبو بكرٍ المروذي: خرجت مع أبي عبد الله أحمد بن مُحمَّد بن حنبلٍ إلىٰ المسجد، فلمَّا دخل قام ليركع، فرأيتُهُ، وقد أخرج يده من كُمِّه، وقال هكذا -وأومأ بأصبعيه يُحرِّكهما- فلمَّا قضىٰ الصلاة، قلت: يا أبا عبد الله، رأيتُكَ تومئ بأصبعيك وأنت تصلي؟ قال: إن

---

(١) «الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم» (١/ ٢١١).

(٢) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (١/ ١٢١).

(٣) «تلبيس إبليس» - الكتاب العربي (ص ١٦٩).

الشيطان أتاني فقال: ما غسلت رجليك. قلت: بشاهدين عدلين[(١)].

من طرائف الموسوسين:

قال أبو الفرج ابن الجوزي: وقد حكىٰ لي بعض الأشياخ عن ابن عقيلٍ حكايةً عجيبةً أن رجلًا لقيه، فقال: إنِّي أغسل العضو، وأقول: ما غسلته، وأُكبِّر وأقول: ما كبَّرت، فقال له ابن عقيلٍ: دع الصلاة، فإنها ما تجب عليك، فقال قومٌ لابن عقيل: كيف تقول هذا؟ فقال لهم: قال النبي ﷺ: «**رُفِعَ القلم عن المجنون حتىٰ يُفيق**»، ومَن يُكبِّر ويقول: ما كَبَّرتُ، فليس بعاقلٍ، والمجنون لا تجب عليه الصلاة[(٢)].

وقال ابن الجوزي في كتابه «الأذكياء»: وبلغنا أن رجلًا جاء إلىٰ أبي حازمٍ، فقال له: إنَّ الشيطان يأتيني، فيقول: إنك قد طلَّقت زوجتك، فيُشكِّكني، فقال له: أَوَ ليس قد طلقتها؟ قال: لا. قال: ألم تأتيني أمس فطلقتها عندي؟ فقال: واللهِ، ما جئتك إلا اليوم، ولا طلقتها بوجهٍ من الوجوه. قال: فاحلف للشيطان إذا جاءك، كما حلفت لي وأنت في عافيةٍ[(٣)].

وقال أبو محمد المقدسي: قال لي إنسانٌ منهم -أي: من الموسوسين: قد عجزت عن قول: «السلام عليكم»، فقلت له: قُلْ مثل ما قد قلتَ الآن، وقد استرحت[(٤)].

---

(١) «مناقب الإمام أحمد» (ص ٢٤٥).

(٢) «تلبيس إبليس» (ص ١٢٤).

(٣) «أخبار الظراف والمتماجنين» (ص ٧٨).

(٤) «ذخيرة العقبىٰ في شرح المجتبىٰ» (١/ ٥٧٤).

الفصل الرابع

بعض شبهات المبتلين بالوسوسة والرد عليهم

بعض مَن أصيبوا بمرض الوسوسة يأتون بأدلة شرعية يعتقدون أنها تُبرهن علىٰ صحة فعلهم وكلامهم.

قال الشاطبيُّ في «الموافقات»: لذلك لا تجد فرقةً من الفرق الضالة، ولا أحدًا من المختلفين في الأحكام؛ لا الفروعية، ولا الأصولية، يعجز عن الاستدلال علىٰ مذهبه بظواهر من الأدلة، فلهذا كلِّه يجب علىٰ كل ناظرٍ في الدليل الشرعي مراعاة ما فهم منه الأوَّلون، وما كانوا عليه في العمل به، فهو أَحْرَىٰ بالصواب، وأَقْوَم في العلم والعمل[(١)].

ثمَّ ذكر -رحمه الله تعالىٰ- بعض الأمثلة علىٰ هذا الانحراف في كتابه «الاعتصام»، فقال: فقد رأينا وسمعنا عن بعض الكفار أنه استدل علىٰ كفره بآيات القرآن، كما استدل بعض النصارىٰ علىٰ تشريك عيسىٰ بقوله تعالىٰ: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

واستدل بعض اليهود علىٰ تفضيلهم علينا بقوله سبحانه: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: ٤٧].

واستدلَّ علىٰ أن الكفار من أهل الجنة بإطلاق قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢].

---

(١) «الموافقات» (٣/ ٢٨٨).

واستدل مَن قال بالحلول علىٰ صحة قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنرُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩].

وكذلك كل مَن اتبع المتشابهات، أو حرف المناطات، أو حمل الآيات ما لا تحمله عند السلف الصالح، أو تمسَّك بالأحاديث الواهية، أو أخذ الأدلة ببادي الرأي، له أن يستدل علىٰ كل فعلٍ، أو قولٍ، أو اعتقادٍ وافق غرضه بآيةٍ، أو حديثٍ لا يفوز بذلك أصلًا[(١)]. انتهىٰ كلام الشاطبيِّ من «الموافقات»، ومن «الاعتصام».

ومن هذه الأدلة الشرعية الصحيحة التي استدلَّ الموسوسون علىٰ صحة ومشروعية ما يفعلون، بل علىٰ استحبابه: ما وراه الترمذي بسندٍ صحيحٍ من حديث أبي الحوراء السعدي، قال: قلت للحسن بن عليٍّ: ما حفظت من رسول الله ﷺ؟ قال: حفظت من رسول الله ﷺ: «**دَعْ ما يَريبك إلىٰ ما لا يَريبك، فإن الصدق طُمَأنينة، وإن الكذب ريبة**»، وأبو الحوراء السعدي اسمه: ربيعة بن شيبان[(٢)].

وروىٰ الشيخان من حديث النعمان بن بشيرٍ يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**الحلال بيِّن، والحرام بيِّن، وبينهما مشبهاتٌ لا يعلمها كثيرٌ من الناس، فمَن اتَّقىٰ المشبهات، استَبْرأ لدينه وعِرْضِهِ، ومَن وقَع في الشُّبهات كراعٍ يرعىٰ حول الحمىٰ، يوشك أن يُوَاقعه، ألَا وإن لكل ملكٍ حمىٰ، ألا إنَّ حمىٰ الله في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[(٣)].

وروىٰ مسلم من حديث النواس بن سمعان الأنصاري، قال: سألتُ رسول الله

---

(١) «الاعتصام» للشاطبي. ت: الشقير والحميد والصيني (٢/ ١٣٩).

(٢) «سنن الترمذي». ت: بشار (٢٥١٨)، وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (١٢).

(٣) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

ﷺ عن البرِّ والإثم، فقال: «**البِرُّ حسن الخُلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس**»(١).

وروىٰ البخاري من حديث أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: مرَّ رسول الله ﷺ بتمرةٍ في الطريق، فقال: «**لولا أنِّي أخاف أن تكون من الصدقة، لأكلتُهَا**»(٢). قال أهل الوسواس: أفلا ترىٰ أنه ترك أكلها احتياطًا؟

وروىٰ مسلم من حديث عدي بن حاتم، قال: قلت: يا رسول الله، إنِّي أرسل الكلاب المُعلَّمة، فيمسكن عليَّ، وأذكر اسم الله عليه، فقال: «**إذا أرسلتَ كلبك المُعلَّم، وذكرت اسم الله عليه، فَكُلْ**». قلت: وإن قتلن؟ قال: «**وَإن قتلن، ما لم يشركها كلبٌ ليس معها**».

قلت له: فإنِّي أرمي بالمعراض الصيد، فأصيب، فقال: «**إذا رميتَ بالمعراض فخزق، فكُلْه، وإن أصابه بعرضه، فلا تأكله**»(٣).

وفي رِوَايةٍ عن عدي بن حاتمٍ، قال: سألتُ رسول الله ﷺ، قلت: إنا قومٌ نصيد بهذه الكلاب، فقال: «**إذا أرسلتَ كلابك المُعلَّمة، وذكرت اسم الله عليها، فكُلْ مما أمسكن عليك وإن قتلن، إلا أن يأكل الكلب، فإن أكل فلا تأكل، فإنِّي أخاف أن يكون إنما أمسك علىٰ نفسه، وإن خالطها كلاب من غيرها، فلا تأكل**»(٤).

وفي روايةٍ أيضًا عن عدي بن حاتم، قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن المعراض، فقال: «**إذا أصاب بحدِّه فَكُلْ، وإذا أصاب بعرضه فقتل، فإنه وقيذٌ، فلا تأكل**»،

---

(١) رواه مسلم (٢٥٥٣).

(٢) رواه البخاري (٢٠٥٥).

(٣) رواه مسلم (١٩٢٩).

(٤) رواه مسلم (١٩٢٩).

وسألتُ رسول الله ﷺ عن الكلب، فقال: «**إذا أرسلت كلبك، وذكرت اسم الله، فكُلْ، فإن أكل منه فلا تأكل، فإنه إنما أمسك علىٰ نفسه**». قلت: فإن وجدت مع كلبي كلبًا آخر، فلا أدري أيهما أخذه؟ قال: «**فلا تأكل، فَإِنَّما سَمَّيتَ علىٰ كلبك، ولم تُسمِّ علىٰ غيره**»(١).

ملحوظة مهمة:

أباح الله سبحانه صيد الكلب وأطلق، ولم يأمر بغسل مَوْضِعِ فِيهِ من الصيد ومعضه، ولا تقويره، ولا أمر به رسوله، ولا أفتىٰ به أحدٌ من الصحابة.

قال أصحاب الوسواس: إنَّما حملنا علىٰ ذلك الاحتياط لديننا، فالاحتياط والأخذ باليقين غير مستنكرٍ في الشرع، وإن سمَّيتموه وسواسًا، فنحن إذا احتطنا لأنفسنا، وأخذنا باليقين، وتركنا ما يريب إلىٰ ما لا يريب، وتركنا المشكوك فيه للمتيقن المعلوم، وتَجنَّبنا محل الاشتباه، لم نكن بذلك عن الشريعة خارجين، ولا في البدعة والجين -أي: داخلين- وهل هذا إلا خير من التَّسهيل والاسترسال؟ حتىٰ لا يبالي العبد بدينه، ولا يحتاط له، بل يسهل الأشياء، ويمشي حالها، ولا يبالي كيف توضأ؟ ولا بأيِّ ماءٍ توضأ؟ ولا بأيِّ مكانٍ صلَّىٰ؟ ولا يبالي ما أصاب ذيله وثوبه، ولا يسأل عما عهد، بل يتغافل، ويحسن ظنه، فهو مهمل لدينه لا يبالي ما شك فيه، ويحمل الأمور علىٰ الطهارة، وربما كانت أفحش النجاسة، ويدخل بالشك ويخرج بالشك، فأين هذا ممَّن استقصىٰ في فعل ما أمر به، واجتهد فيه حتىٰ لا يخلَّ بشيءٍ منه، وإن زاد علىٰ المأمور، فإنما قصده بالزيادة تكميل المأمور، وألَّا ينقص منه شيئًا!

---

(١) رواه مسلم (١٩٢٩).

وقالوا أيضًا: وجماع ما ينكرونه علينا: احتياط في فعل مأمور، أو احتياط في تجنب محظور، وذلك خيرٌ وأحسن عاقبة من التهاون بهذين، فإنه يُفضي -غالبًا- إلىٰ النقص من الواجب، والدخول في المحرم، وإذا وازنَّا بين هذه المفسدة ومفسدة الوسواس، كانت مفسدة الوسواس أخف، هذا إنْ ساعدناكم علىٰ تسميته وسواسًا، وإنما نُسمِّيه احتياطًا واستظهارًا، فلستم بأسعد منَّا بالسنة، ونحن حولها ندندن، وتكميلها نريد[1]. انتهىٰ كلام ابن القيِّم ناقلًا لشبهات الموسوسين.

الرد علىٰ أهل الوسواس إجمالًا:

قال الله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهذا الصِّراط المستقيم الذي وصَّانا باتِّباعه: هو الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وهو قصد السبيل، وما خرج عنه فهو من السبل الجائرة، قاله مَن قاله، فالميزان الذي يعرف به الاستقامة علىٰ الطريق، والجور عنه: هو ما كان رسول الله ﷺ وأصحابه عليه، والجائر عنه إما مفرطٌ ظالمٌ، أو مجتهدٌ متأولٌ، أو مقلدٌ جاهلٌ، فمنهم المستحقُّ للعقوبة، ومنهم المغفور له، ومنهم المأجور أجرًا واحدًا بحسَب نيَّاتهم ومقاصدهم، واجتهادهم في طاعة الله ورسوله، أو تفريطهم.

---

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ١٣٠).

الرَّد علىٰ أهل الوسواس مفصلًا:

أولًا: أصل لابد منه، وهو ما أجمع عليه العلماء أن خير الهدي هدي النبي ﷺ.

والمعنيُّ بهديه ﷺ: طريقته وسلوكه وحياته وكل شؤونه، فهَدْيه هو الخير المطلق الذي ليس فيه دخنٌ قط، فلننظر لهديه الصحيح الثابت عنه من الكتاب والسنة حتىٰ نقف علىٰ سهولة الإسلام ويُسْره، لا كما يزعم أهل الوسواس وإنْ سمَّوه احتياطًا، وهل من المشروع، أو من المعقول، أو من المقبول أن يحتاط علىٰ فعل رسول الله ﷺ؟

الجواب: لا احتياط، ومن احتاط، يطعن في دينه.

قال تعالىٰ ناهيًا أهل الكتاب، ومحذرًا لغيرهم من سلوك مسلكهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء: ١٧١]، ثم قال سبحانه بعدها مباشرةً: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧٢﴾ [النساء: ١٧٢].

وضابط الغلو: مجاوزة حدود ما شرعه الله تعالىٰ بقولٍ، أو فعلٍ، أو اعتقادٍ، فمن جاوز حدود المشروع، وقع في الغلو، ولا عذر له في تسمية ما وقع فيه احتياط وَإنْ حمله علىٰ ذلك التقرُّب إلىٰ الله تعالىٰ.

وروىٰ النسائي بسندٍ صحيحٍ من حديث ابن عباس، قال رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو واقفٌ علىٰ راحلته: «**هات الْقِط لي**»، فلقطتُ له حصيات، وهي حصىٰ الخذف، فلمَّا وضعتهن في يده، قال: «**نعم، بأمثال هؤلاء، بأمثال هؤلاء، وإياكم والغلو في الدين، فإنَّما أهلك مَن كان قبلكم الغلو في الدين**»[(١)].

---

(١) «السنن الكبرىٰ» للنسائي (٤٠٤٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٢١٣).

وعليه، فمَن رمىٰ الجمار بحصًىٰ أكبر من حصىٰ الخذف، أو رمىٰ بغيره من نعالٍ ونحوها، فقد وقع في كبيرة الغلو.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام: ١٤١]، جاءت بعد الأمر بالأكل المباح، وإخراج الزَّكاة، وهي ركنٌ في الدين.

وقال سبحانه: ﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف: ٣١]، فَيقَع الإسراف في أَخْذ الزينة، وفي الأكل، وفي الشرب، ولا فرق، والإسراف مجاوزة الحد.

روىٰ الحاكم بسندٍ صحيحٍ من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنَّا عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجلٌ بمثل بيضةٍ من ذهب، فقال: يا رسول الله، أصبتُ هذه من معدن (هو: ما استخرج من باطن الأرض)، فخذها، فهي صدقة، ما أملك غيرها، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثمَّ أتاه من قِبَلِ ركنه الأيمن، فقال مثل ذلك، فأعرض عنه، ثمَّ أتاه من قِبَلِ ركنه الأيسر، فأعرض عنه، ثم أتاه من خلفه، فأخذها رسول الله ﷺ، فخذفه بها، فلو أصابته لأوجعته ولعقرته، فقال رسول الله ﷺ: «**يأتي أحدكم بما يملك فيقول: هذه صدقة، ثم يقعد يستكف الناس، خيرُ الصدقة ما كان عن ظهر غنًىٰ**»(١).

قال الخطابي في «معالم السنن»: وفي الحديث من الفقه أن الاختيار للمرء أن يستبقي لنفسه قوتًا، وألَّا ينخلع من ملكه أجمع مرةً واحدةً؛ لما يخاف عليه من فتنة

---

(١) «المستدرك علىٰ الصحيحين» للحاكم (١/ ٥٧٣)، قال الحاكم: «صحيح علىٰ شرط مسلم»، ووافقه الذهبي. قلت (أي: الألباني): وليس كذلك، فإن ابن إسحاق إنما أخرج له مسلم مقرونًا بآخر، ثم هو مدلس، وقد عنعنه، فلا يحتج به. انظر: «إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل» (٣/ ٤١٦).

الفقر، وشدة نزاع النفس إلىٰ ما خرج من يده، فيندم، فيذهب ماله، ويبطل أجره، ويصير كلًّا علىٰ الناس[(١)].

روىٰ أحمد بسندٍ حسنٍ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، أن النبي ﷺ مر بسعدٍ وهو يتوضأ، فقال: «**ما هذا السرف يا سعد؟**». قال: أفي الوضوء سرف؟ قال: «**نَعمْ، وَإنْ كنت علىٰ نهرٍ جارٍ**»[(٢)].

وروىٰ الحاكم بسندٍ صحيحٍ من حديث جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجزئ من الوضوء المُدُّ، ومن الجنابة الصاع**»، فقال له رجل: لا يكفينا ذلك يا جابر، فقال: قد كفىٰ مَنْ هو خيرٌ منك، وأكثر شعرًا، يعني بذلك جابرٌ رسولَ الله ﷺ[(٣)].

قال البخاري: باب ما جاء في الوضوء، وقول الله تعالىٰ: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾، قال أبو عبد الله: وبين النَّبي ﷺ أَنْ فرض الوضوء مرةً مرةً، وتوضأ أيضًا مرتين وثلاثًا، ولم يزد علىٰ ثلاثٍ، وكره أهل العلم الإسراف فيه، وأن يجاوزوا فعل النَّبيِّ ﷺ[(٤)].

وعليه، فمن زاد في الوضوء علىٰ الثلاث، فقد تعدَّىٰ وأساء وظلم.

في «صحيح مسلم»، باب القَدْر المستحب من الماء في غسل الجنابة، وغسل الرجل والمرأة -أي: الزوجة- في إناءٍ واحدٍ في حالةٍ واحدةٍ، وغسل أحدهما بفضل الآخر[(٥)].

---

(١) «معالم السنن» (٢/ ٧٧).

(٢) أخرجه أحمد (٧٠٦٥)، وصححه العلامة أحمد شاكر.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٥٧٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٩٩١ و٢٤٤٧).

(٤) «صحيح البخاري» (١/ ٣٩).

(٥) «صحيح مسلم» (١/ ٢٥٥).

ثم روىٰ من حديث عائشة، قالت: «كان رسول الله ﷺ يغتسل في القدح -وهو الفرق- وكنت أغتسل أنا وهو في الإناء الواحد»، وفي حديث سفيان: من إناءٍ واحدٍ. قال قتيبة: قال سفيان: «والفرق ثلاثة آصعٍ»(١).

وفي روايةٍ: قالت عائشة: إنَّ رسول الله ﷺ كان يغتسل من إناءٍ -هو الفرق- من الجنابة(٢).

قال النوويُّ: أجمع المسلمون علىٰ أنَّ الماء الذي يجزئ في الوضوء والغسل غير مقدرٍ، بل يكفي فيه القليل والكثير إذا وجد شرط الغسل، وهو جَرَيان الماء علىٰ الأعضاء، وأجمع العلماء علىٰ النهي عن الإسراف في الماء ولو كان علىٰ شاطئ البحر(٣). انتهىٰ.

وروىٰ أبو داود في «سننه»: عن عمرو بن شعيبٍ، عن أبيه، عن جده «أن رجلًا أتىٰ النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف الطهور؟ فدعا بماءٍ في إناءٍ، فغسل كفَّيه ثلاثًا، ثم غسل وجهه ثلاثًا، ثم غسل ذراعيه ثلاثًا، ثم مسح برأسه، فأدخل أصبعيه السباحتين في أُذُنيه، ومسح بإبهاميه ظاهر أذنيه، وبالسباحتين باطن أذنيه، ثم غسل رجليه ثلاثًا ثلاثًا، ثم قال: «**هكذا الوضوء، فمَن زاد علىٰ هذا أو نقص، فقد أساء وظلم**»، أو: «**ظلم وأساء**»(٤).

وروىٰ أبو داود بسندٍ صحيحٍ من حديث عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول:

---

(١) رواه مسلم (٣١٩).

(٢) رواه مسلم (٣١٩).

(٣) «شرح النووي علىٰ مسلم» (٤/ ٢).

(٤) «سنن أبي داود» (١٣٥)، قال الألباني في «صحيح وضعيف سنن أبي داود»: حسن صحيح، دون قوله: «**أو نقص**»، فإنه شاذ.

اللهم إنِّي أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: أي بني، سل الله الجنة، وتعوذ به من النار، فإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنه سيكون في هذه الأمة قومٌ يعتدون في الطهور والدعاء**»(١).

فإذا قرنت هذا الحديث بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: ٥٥]، وعلمتَ أن الله يحب عبادته، أنتج لك من هذا أنَّ وضوء الموسوس ليس بعِبَادةٍ يقبلها الله، وإن أسقطت الفرض عنه، فلا تفتح أبواب الجنة الثمانية لوضوئه يدخل من أيها شاء!

قال ابن المبارك: لا آمَنُ إذا زاد في الوضوء علىٰ الثلاث أن يأثم(٢).

وقال أحمد وإسحاق: «لا يزيد علىٰ الثلاث إلا رجل مبتلىٰ»(٣).

وقال الإمام أحمد: «من فقه الرجل: قلة وُلُوعه بالماء»(٤).

وقال المروذي: «وضَّأت أبا عبد الله بالعسكر، فسترته من الناس؛ لئلَّا يقولوا: إنه لا يحسن الوضوء؛ لقلة صبه الماء»(٥).

وكان أحمد يتوضأ، فلا يكاد يبل الثرىٰ(٦).

وقال زين العابدين يومًا لابنه: «يا بني، اتخذ لي ثوبًا ألبسه عند قضاء الحاجة، فإنِّي رأيتُ الذباب يسقط علىٰ الشيء، ثم يقع علىٰ الثوب»، ثم انتبه فقال: «ما كان

---

(١) «سنن أبي داود». ت (٩٦)، قال الألباني في «صحيح وضعيف سنن أبي داود»: صحيح.
(٢) «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٢/ ٤١٦).
(٣) «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٢/ ٤١٦).
(٤) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ١٢٨).
(٥) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ١٢٨).
(٦) المصدر السابق.

للنبي ﷺ وأصحابه إلا ثوب واحد»، فتركه[(١)].

فلو كانت الوسوسة فضيلة، لَمَا ادخرها الله عن رسوله وصحابته، وهم خير الخَلق وأفضلهم.

عجيبة وفضيلة وفضل الله يؤتيه مَنْ يشاء:

قال ابن الجوزيِّ بسنده إلىٰ أبي يوسف القاضي، قال: كنَّا عند أسود بن سالم وقد كان يستعمل من الماء شيئًا كثيرًا، ثم ترك ذاك، فجاء رجلٌ فسأله عن ذلك، فقال: هيهات ذهب ذاك، كنت ليلة باردة قد قمت في السَّحَر، فأنا أستعمل ما كنت أستعمله، فإذا هاتفٌ هتف بي فقال: يا أسود، ما هذا؟ يحيىٰ بن سعيد الأنصاري حدَّثنا عن سعيد بن المسيب: «إذا جاوز الوضوء ثلاثًا، لم يرتفع إلىٰ السماء». قال: قلت: أجنيٌّ؟ ويحك! مَن تكون؟ قال: ما هو إلا ما تسمع.

فقلت: مَن أنت عافاك الله؟ قال: يحيىٰ بن سعيد الأنصاري. قال: حدثنا عن سعيد بن المسيب: إذا جاوز الوضوء ثلاثًا، لم يرتفع إلىٰ السماء. قال: قلت: لا أعود، لا أعود، فالتفتُّ فلم أرَ أحدًا، فأنا اليوم يكفيني كفٌّ من ماءٍ[(٢)].

---

(١) «ذم الموسوسين» (ص ١٣).

(٢) «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (١٠/ ٢٥٣).

الفصل الخامس

هدي النبي ﷺ في إزالة النجاسات والرد على الموسوسين

روىٰ الشيخان واللفظ لمسلمٍ من حديث أنس بن مالكٍ -وهو عم إسحاق- قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ، إذ جاء أعرابيٌّ، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَهْ مَهْ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تُزْرموه، دَعُوه**»، فتَركوه حتىٰ بال، ثم إنَّ رسول الله ﷺ دعاه، فقال له: «**إن هذه المساجد لا تصلح لشيءٍ من هذا البول، ولا القذر، إنما هي لذِكْرِ الله عَزَّوَجَلَّ، والصلاة، وقراءة القرآن**»، أو كما قال رسول الله ﷺ. قال: فأمر رجلًا من القوم، فجاء بدلوٍ من ماءٍ، فشنَّه عليه[(١)].

قال النووي: «**لا تزرموه**»، معناه: لا تقطعوا[(٢)].

روىٰ أحمد بسندٍ صحيحٍ من حديث أبي سعيدٍ الخدريِّ: أنَّ رسول الله ﷺ صلَّىٰ، فخلع نعليه، فخلع الناس نعالهم، فلمَّا انصرف، قال: «**لِمَ خلعتم نعالكم؟**». فقالوا: يا رسول الله، رأيناك خلعت فخلعنا. قال: «**إنَّ جبريل أتاني، فأخبرني أنَّ بهما خبثًا، فإذا جاء أحدُكُم المسجد، فليُقلِّب نعله، فلينظر فيها، فإن رأىٰ بها خَبَثًا، فليمسَّه بالأرض، ثم ليُصلِّ فيهما**»[(٣)].

وروىٰ الشَّيخان من حديث أبي قتادة الأنصاري «أنَّ رسول الله ﷺ كان يصلي وهو حاملٌ أُمَامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ، ولأبي العاص بن ربيعة بن عبد

---

(١) رواه مسلم (٢٨٥).

(٢) «شرح النووي علىٰ مسلم» (٣/ ١٩٠).

(٣) رواه أحمد (١١١٥٣)، وصححه محققه، دار الرسالة.

شمس، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها»[(١)].

قال الحافظ: وقال النوويُّ: ادَّعىٰ بعض المالكية أن هذا الحديث منسوخ، وبعضهم أنه من الخصائص، وبعضهم أنه كان لضرورةٍ، وكل ذلك دعاوىٰ باطلة مردودة لا دليل عليها، وليس في الحديث ما يخالف قواعد الشرع؛ لأنَّ الآدمي طاهر، وما في جوفه معفوٌّ عنه، وثياب الأطفال وأجسادهم محمولة علىٰ الطهارة حتَّىٰ تتبيَّن النجاسة، والأعمال في الصلاة لا تبطلها إذا قلت أو تفرقت، ودلائل الشرع متظاهرة علىٰ ذلك، وإنما فعل النبي ﷺ ذلك لبيان الجواز.

وقال الفاكهاني: وكأن السرَّ في حمله أُمَامة في الصلاة دفعًا لما كانت العرب تألفه من كراهة البنات وحملهن، فخالفهم في ذلك حتىٰ في الصلاة؛ للمبالغة في ردعهم، والبيان بالفعل قد يكون أقوىٰ من القول[(٢)].

وروىٰ مسلمٌ من حديث عائشة قالت: كان النَّبيُّ ﷺ «يصلي من الليل وأنا إلىٰ جنبه، وأنا حائضٌ، وعليَّ مرطٌ، وعليه بعضه إلىٰ جنبه»[(٣)].

قال النووي: وفيه أن ثياب الحائض طاهرة إلا موضعًا ترىٰ عليه دمًا، أو نجاسة أخرىٰ، وفيه جواز الصلاة بحضرة الحائض، وجواز الصلاة في ثوبٍ بعضه علىٰ المصلي، وبعضه علىٰ حائضٍ، أو غيرها[(٤)].

روىٰ الشَّيخان من حديث المغيرة بن شعبة قال: كنت مع النَّبيِّ ﷺ في سفرٍ، فقال: «**يا مغيرة، خذ الإداوة**»، فأخذتها، فانطلق رسول الله ﷺ حتىٰ توارَىٰ عنِّي، فقضىٰ

---

(١) رواه البخاري (٥١٦)، ومسلم (٥٤٣).

(٢) «فتح الباري» لابن حجر (١/ ٥٩٢).

(٣) رواه مسلم (٥١٤).

(٤) «شرح النووي علىٰ مسلم» (٤/ ٢٣٠).

حاجته، وعليه جُبَّة شأمية، فذهب ليخرج يده من كُمِّها فضاقت، فأخرج يده من أسفلها، فصببت عليه، فتوضأ وضوءه للصلاة، ومسح علىٰ خُفَّيه، ثم صلَّىٰ»[(١)].

«الجبة الشامية»، أي: من نسج الكفار الذين في الشام.

وروىٰ عبد الرزَّاق بسندٍ حسنٍ من حديث الحسن قال: قال عمر: «لو نهينا عن هذا العصب، فإنه يصبغ بالبول»، فقال أُبَي بن كعبٍ: والله، ما ذلك لك. قال: ما؟ قال: «إنا لبسناها علىٰ عهد رسول الله ﷺ، والقرآن ينزل، وكفن فيه رسول الله ﷺ»، فقال عمر: صدقت»[(٢)].

ومن ذلك: أنَّه لو سقط عليه شيءٌ من ميزابٍ، لا يدري: هل هو ماء أو بول؟ لم يجب عليه أن يسأل عنه، فلو سأل، لم يجب علىٰ المسؤول أن يجيبه -ولو علم أنه نجسٌ- ولا يجب عليه غسل ذلك.

فقد مرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومًا، فسقط عليه شيءٌ من ميزابٍ، ومعه صاحبٌ له، فقال: يا صاحب الميزاب، ماؤك طاهر أو نجس؟ فقال عمر: يا صاحب الميزاب، لا تُخبرنا، ومضىٰ[(٣)].

وروىٰ أحمد بسندٍ صحيحٍ من حديث نافعٍ، عن صفية بنت أبي عبيدٍ، عن أُمِّ سلمة زوج النَّبيِّ ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ذيول النساء شبر**»، قلت: إذن، تبدو أقدامهنَّ يا رسول الله؟ قال: «**فذراعٌ، لا تزدن عليه**»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٣٦٣)، ومسلم (٢٧٤).

(٢) «مصنف عبد الرزاق الصنعاني» (١٤٩٥).

(٣) «مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام» (٢١/ ٥٧).

(٤) رواه أحمد (٢٦٥٣٢).

وفي روايةٍ عن أُمِّ سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت حين ذكر الإزار: فالمرأة يا رسول الله؟ قال: «**تُرْخيه شبرًا**». قالت أُمُّ سلمة: إذن، ينكشف عنها. قال: «**فذراعًا لا تزيد عليه**»(١).

روىٰ أبو داود بسندٍ صحيحٍ من حديث أُمِّ ولدٍ لإبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف أنها سألت أُمَّ سلمة زوج النبي ﷺ، فقالت: إني امرأةٌ أُطِيلُ ذيلي، وأمشي في المكان القذر، فقالت أُمُّ سلمة: قال رسول الله ﷺ: «**يطهره ما بعده**»(٢).

وأجمع المسلمون علىٰ ما سَنَّه لهم النبي ﷺ من جواز الاستجمار بالأحجار في زمن الشتاء والصيف مع أنَّ المحل يعرق، فينضح إلىٰ الثوب، ولم يأمر بغسله، ولا تتبعه.

قال أبو البركات ابن تيمية: «وهذا كله يقوي طهارة الأرض بالجفاف؛ لأن الإنسان في العادة لا يزال يشاهد النجاسات في بقعةٍ من طرقاته التي يكثر فيها تردُّده إلىٰ سوقه ومسجده وغيرهما، فلو لم تطهر إذا أذهب الجفاف أثرها، للزمه تجنُّب ما شاهده من بقاع النجاسة بعد ذهَاب أثَرها، ولَمَا جاز له التحفي بعد ذلك، وقد علم أن السلف الصالح لم يحترزوا من ذلك، ويُعضِّده أمره ﷺ بمسح النعلين بالأرض لمَن أتىٰ المسجد، ورأىٰ فيهما خبثًا، ولو نجست الأرض بذلك نجاسةً لا تطهر بالجفاف لأَمَر بصيانة طريق المسجد عن ذلك؛ لأنه يسلكه الحافي وغيره»(٣).

وكان من هَدْيه ﷺ إذا دخل وقت الصلاة: يصلي حيث كان، وفي أي مكانٍ اتفق، سوىٰ ما نهىٰ عنه من المقبرة والحمام وأعطان الإبل، فصح عنه ﷺ أنه قال:

---

(١) «سنن أبي داود» (٤١١٧)، وصححه الألباني.

(٢) «سنن أبي داود» (٤١١٧)، وصححه الألباني.

(٣) «إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان». ط: عالم الفوائد (١/ ٢٧٠).

«**جُعلَت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فحيثما أدركت رجلًا من أمتي الصلاة فليُصلِّ**»، رواه الشيخان من حديث جابر. وكان يصلي في مرابض الغنم، وأمَر بذلك، ولم يشترط حائلًا.

بوَّب البخاري، فقال: باب الصلاة في مرابض الغنم، ثم روىٰ بسنده عن أنس بن مالك، قال: كان النَّبيُّ ﷺ يُصلِّي في مرابض الغنم، ثم سمعته بعد يقول: «كان يصلي في مرابض الغنم قبل أن يبنىٰ المسجد»[(١)].

وفي روايةٍ عند مسلم من حديث جابر بن سمرة، أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ: أأتوضَّأ من لحوم الغنم؟ قال: «**إن شئت فتوضَّأ، وإن شئت فلا توضَّأ**». قال: أتوضأ من لحوم الإبل؟ قال: «**نعم، فتوضَّأ من لحوم الإبل**». قال: أصلي في مرابض الغنم؟ قال: «**نعم**». قال: أُصلِّي في مبارك الإبل؟ قال: «**لا**»[(٢)].

«مرابض الغنم»، أي: في مآويها جمع «مربض» علىٰ وزن «مجلس». قال أهل اللغة: هي مباركها، ومواضع مبيتها، ووضعها أجسادها علىٰ الأرض.

وروىٰ الشيخان من حديث أنس بن مالك أن جدته مليكة دعت رسول الله ﷺ لطعامٍ صنعته، فأكل منه، ثم قال: «**قوموا فأصلي لكم**»، قال أنس بن مالكٍ: فقمت إلىٰ حصيرٍ لنا قد اسودَّ من طول ما لبس، فنضحته بماءٍ، فقام عليه رسول الله ﷺ وصففت أنا واليتيم وراءه، والعجوز من ورائنا، فصلىٰ لنا رسول الله ﷺ ركعتين، ثم انصرف[(٣)].

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٢٩).

(٢) «صحيح مسلم» (٣٦٠).

(٣) «صحيح مسلم» (٦٥٨).

قوله: «من طول ما لبس»: من كثرة ما استعمل. «فنضحته»: رششته بالماء تليينًا، أو تنظيفًا.

فأين هذا الهدي من فعل مَن لا يصلي إلا علىٰ سجادةٍ تفرش فوق البساط فوق الحصير، ويُوضَع عليها المنديل، ولا يمشي علىٰ الحصير، ولا علىٰ البساط، بل يمشي عليها قفزًا كالعصفور؟

وبعد ما سبق ذِكره -وهو غيض من فيض، وقليل من كثير- من السنة، ومَن له اطلاع علىٰ ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه لا تخفىٰ عليه حقيقة الحال.

فيُقَال للموسوس: هل تشكُّ أنَّ رسول الله ﷺ كان علىٰ الصراط المستقيم، حتمًا سيقول: نعم؛ لأن مَن شكَّ في هذا فليس بمسلمٍ.

ويقول الموسوس لنفسه: ألستِ تعلمين أن طريقة رسول الله ﷺ هي الصراط المستقيم؟ فإذا قالت: بلىٰ. قال لها: فهل كان يفعل هذا؟ فستقول: لا، فقل لها: فماذا بعد الحقِّ إلا الضلال؟ وهل بعد طريق الجنة إلا طريق النار؟ وهل بعد سبيل الله وسبيل رسوله إلا سبيل الشيطان؟ فإن اتبعت سبيله -أَيْ: سبيل الشيطان- كنت قرينه، وستقولين: ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ٣٨﴾ [الزخرف: ٣٨]، وعنده لا ينفع.

روىٰ ابن أبي بطة: قال عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَن كان منكم مستنًّا، فليستن بمَن قد مات، فإن الحيَّ لا تُؤمَن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمدٍ، كانوا أفضل هذه الأمة: أبرها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم علىٰ أثرهم وسيرتهم، فإنهم كانوا علىٰ الهدي المستقيم»[(١)].

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٨١٠).

روىٰ الآجري في «الشريعة»: سَمعتُ مالك بن أنسٍ إذا ذكر عنده الزائغون في الدين يقول: قال عمر بن عبد العزيز: «سَنَّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننًا، الأخذ بها اتباعٌ لكتاب الله تعالىٰ، واستكمالٌ لطاعة الله تعالىٰ، وقوةٌ علىٰ دين الله، ليس لأحدٍ من الخَلق تغييرها، ولا تبديلها، ولا النظر في شيءٍ خالفها، مَن اهتدىٰ بها فهو مهتدٍ، ومَن استنصر بها، فهو منصورٌ، ومَن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولَّاه الله ما تولَّىٰ، وأصلاه جهنَّم، وساءت مصيرًا»(١).

ومن الرد علىٰ أهل الوسواس أيضًا بعد ما ذكر:

أمَّا قولهم: «إن ما نفعله احتياط لا وسواس».

يُقَال لهم: سموه ما شئتم، فنحن نسألكم: هل هذا الذي تفعلون في طهارتكم وصلاتكم موافقٌ لفعل رسول الله ﷺ وأمره، وما كان عليه أصحابه، أو مخالفٌ؟

فَإنْ زعمتم أنه موافقٌ، فبهتٌ وكذبٌ صريحٌ؛ إذ يلزمكم الأدلة علىٰ ذلك، وأنَّىٰ لكم ذلك، فإذن لا بد من الإقرار بعدم موافقته، وأنه مخالفٌ له، فلا ينفعكم تسمية ذلك احتياطًا، وهذا نظير مَن ارتكب محظورًا، وسمَّاه بغير اسمه، كما تسمىٰ الخمر بغير اسمها، والربا معاملةً، والتحليل الذي لعن رسول الله ﷺ فاعله: نكاحًا، ونَقْر الصلاة الذي أخبر رسول الله ﷺ أنَّ فاعله لم يُصلِّ، وأنه لا تجزئه صلاته، ولا يقبلها الله منه تخفيفًا! فهكذا تسمية الغلو في الدين والتنطع احتياطًا.

وينبغي أن يعلم أن الاحتياط الذي ينفع صاحبه، ويثيبه الله عليه: الاحتياط في موافقة السنة، وترك مخالفتها، والاحتياط كل الاحتياط في ذلك، وإلا فَمَا احتاط لنفسه مَن خرج عن السنة، بل ترك حقيقة الاحتياط في ذلك.

---

(١) «الشريعة» للآجري (٩٢)، قال الدكتور عبد الله الدميجي: إسناده صحيح.

قال شيخ الإسلام: والاحتياط حسنٌ ما لم يُفْضِ بصاحبه إلىٰ مخالفة السنة، فإذا أفضىٰ إلىٰ ذلك، فالاحتياط ترك هذا الاحتياط(١).

أما التمرة التي ترك رسول الله ﷺ أَكْلها، وقال: «**أخشىٰ أن تكونَ من الصدقة**»، فذلك من باب اتِّقاء الشبهات، وترك ما اشتبه فيه الحلال بالحرام، فإنَّ التمرة كانت قد وجدها في بيته، وكان يؤتىٰ بتمر الصدقة، يقسمه علىٰ مَن تحلُّ له الصدقة، ويدخل بيته تمر يقتات منه أهله، فكان في بيته النوعان، فلمَّا وجد تلك التمرة، لم يدر ﷺ من أي النوعين هي؟ فأمسك عن أكلها، فهذا الحديث أصلٌ في الورع واتقاء الشبهات، فما لأهل الوسواس، وما له؟

وليس في الأحاديث المذكورة استدلالٌ أصلًا، وكمثالٍ لذلك قول النبي ﷺ: «**فمَن اتَّقىٰ الشُّبهات، فقد استَبْرأ لدينه وعرضه**»، فالشُّبهات هي ما أشكل علىٰ المرء، فما استطاع أن يستبين وجه الحل من الحرمة، ويشهد لذلك قول النبي ﷺ في نفس الحديث: «**إن الحلال بيِّن، وإن الحرام بيِّن، وبينهما مشتبهاتٌ لا يعلمهن كثير من الناس**»، فإنه لم يقل: لا يعلمهن كل الناس، فمن الممكن أن يكون الأمر مشتبهًا عندي، وعند غيري غير مشتبهٍ، وكل إنسانٍ يعمل بما وصل إليه من اجتهادٍ إن كان أهلًا أن يجتهد، لا أن يكون يتكلم بهواه، فإن كانت عنده آليات الاجتهاد، ثم اشتبه عليه الأمر، فلم يعلم الحل من الحرمة، فهنا يعمل بالاحتياط، ويتقي الشبهات، أما مَن كان الأمر عنده واضحًا كشمس النهار، فلا يعمل إلا بهذا الحكم الشرعي الواضح.

---

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ١٦٣).

وكذلك ينبغي أن تفهم باقي هذه الأحاديث فهمًا صحيحًا في ضوء العلاقة بين الاتباع والاحتياط، كما سيأتي، فالأمور لا تحسب هكذا بالهوىٰ، فالشريعة بأدلَّتها وضوابطها وأصولها كلٌّ لا يتجزأ، لا يصحُّ أن يؤخذ منها جزء، ويترك آخر[(١)].



(١) تمامًا مثل مَنْ عنده قوة إقدام وشجاعة، فيأتي علىٰ المنكرات يغيرها بيده مباشرة دون النظر إلىٰ المصلحة، ولا المفسدة، ولا ضوابط الشريعة، ولا غير ذلك، ويحمله علىٰ ذلك قول النبي ﷺ الذي عند مسلمٍ عن أبي سعيد رضي الله عنه: «**فليغيره بيده**»، ولا ينظر إلىٰ الفهم الصحيح لهذا النص الشرعي.

الفصل السادس

علاج مرض الوسوسة

علاج مرض الوسوسة يكون بمعرفة مجموعةٍ من الضوابط التي تحكم هذه المسألة، وتنفي الجهل بالشرع فيها، ومن ذلك: التفريق بين الاحتياط والاتباع، فالاحتياط في الدين واجب، والاتباع أيضًا واجب، والفرق بينهما في منتهىٰ الدقة، كذلك لابد من فَهم الفرق بين الاتباع والاحتياط من جانبٍ، والوسوسة من جانبٍ آخر، كما سيأتي.

الحذر من تسمية الأشياء بغير اسمها:

بدايةً، ينبغي أن نعلم أن الله ﷻ قد أعلمنا بمسلك خطير سلكه الشيطان مع أبينا آدم من قبل، وهو تسمية الأشياء المحرمة بمسمياتٍ محببةٍ إلىٰ النفس، وهذا يستخدمه الشيطان أيضًا في مرض الوسوسة، فمثلًا: مَن يغسل يده في الوضوء عشرين مرةً إنما يسمي فعله هذا احتياطًا، بينما سمَّاه االشارع وسوسةً، كما سبق، كذلك سمىٰ الشيطان الخبيث لأبينا آدم الشجرة المحرمة بشجرة الخلد، قال الله تعالىٰ: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: ١٢٠]، وكذلك ما يحدث الآن من تسمية الربا بالفوائد مثلًا، والمضاربة التي في البنوك بالوديعة مع كونها مغايرةً للوديعة تمامًا، وكذلك تسمية الخلوة بالمرأة والاختلاط المحرم بالزمالة في العمل والصحبة.

لذلك، مهما سمَّىٰ المرء فعله، لا يعول علىٰ ذلك، وإنما لابد أن ينطبق الاسم علىٰ المسمىٰ الذي جاء في الشرع، أو في لغة العرب.

علاج الوسوسة في التقيُّد بالاتباع: ولا تصادم بين الاحتياط والاتباع:

- فالاتباع هو اقتفاء آثار النبي ﷺ في قوله وفعله، وهو واجب كما تقدم.

- أمَّا الاحتياط، فهو أن تشكل مسألة علىٰ رجلٍ، فلا يستطيع أن يميز بين جانب الحل وجانب الحرمة فيها، فيحتاط ويأخذ بالأَسْلَم لدينه.

ومن أمثلة الاحتياط في الشرع: ما ورد في «الصحيحين» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إنِّي لأنقلب إلىٰ أهلي، فأجد التمرة ساقطةً علىٰ فراشي، ثم أرفعها لآكلها، ثم أخشىٰ أن تكون صدقةً، فألقيها**»(١).

فمصادر التمر في بيت النبوة اثنان: إمَّا أن تكون هديةً، أو تكون صدقةً، فالاحتمالان قائمان، ولمَّا لم يستطع النبي ﷺ أن يُميِّز: أهي من الصدقة أم لا، أخذ بالأحوط وهو الترك، ففي مثل هذه الحالات التي يكون الأمر فيها قد أشكل، يكون تصرف المرء هو الاحتياط، كما فَعلَ النبيُّ ﷺ، وكذلك ينبغي أن يكون له سلفٌ في هذا الاحتياط؛ كمن كانت عنده شاتان؛ ذبح إحداهما مشرك، وذبح الأخرىٰ مسلم، ولا يدري أيهما ذبح المسلم، وأيهما ذبح المشرك، فالاحتياط هنا أن يتركهما جميعًا، أما إن ذبحها مسلم، ثمَّ تطرق إليه خاطر مثلًا: هل سمَّىٰ عليها أم لا؟ فهذا من الوسوسة، وهكذا، فالأمر إن كان واضحًا جليًّا، وفعله النبي ﷺ، فلا يجوز بحالٍ أن أحتاط عليه؛ لأن هذا يكون احتياطًا علىٰ فعل النبي ﷺ، وأخطر ما يقع فيه العبد أن يحتاط علىٰ فعل النَّبيِّ ﷺ؛ لأنه بذلك يخشىٰ عليه أن يكون طاعنًا في الشريعة، لذلك: مَنْ مدَّ يديه تحت الصنبور فدلكهما تحت الماء ثلاث مراتٍ، ثم قال: احتياطًا أفعلها أربع أو خمس مراتٍ، فإنه ليس محتاطًا بذلك، وإنما هو واقعٌ في الوسوسة.

---

(١) رواه البخاري (٢٤٣١)، ومسلم (١٠٧٠).

ضابط الاحتياط:

ضابط الاحتياط الذي ينبغي أن تردَّ إليه النصوص التي يحتج بها أهل الوسوسة، ويرد إليها كلامهم: أن ننظر إلىٰ فِعْلِ النبي ﷺ أولًا، فإن لم يكن فعل هذا الأمر، فعلينا بالاتباع، وعدم التعدِّي، وأن نقف علىٰ حدودنا، فلا يحتاط علىٰ فعل النبي ﷺ.

فمثلًا: في مسألة النية -وأكثر مَن يبتلىٰ بها الرجال- لم يرد عن النبي ﷺ قط ولو في أثرٍ ضعيفٍ أنه كان يجهر بالنية في الصلاة مثلًا، أو غيرها، فإذا أراد إنسان أن يفعل هذا من باب الاحتياط، ويدعي أن الشارع الحكيم أمر بذلك، يرد عليه بأن النبي ﷺ الذي أمرنا باتباعه لم يتلفظ بالنية، فمَن تلفظ بها، فقد احتاط علىٰ فعل النبي ﷺ، ووقع في محظورٍ شرعيٍّ.

كذلك من توضأ وضوءًا صحيحًا، وغسل أعضاءه ودلكها، كما في السنة، ثم بعد أن انتهىٰ، أتاه الوسواس أن يزيد علىٰ ذلك، أو يعيد الوضوء من باب الاحتياط، فإنَّما هذا من الوسوسة؛ لأنَّ المسلم إذا أتاه خاطرٌ في نفسه، فشك في عبادةٍ فعلها بعد الانتهاء منها، كما فعل النَّبيُّ ﷺ قدر الاستطاعة، لا يُعوَّل علىٰ شكه هذا، ولا يحمله ذلك علىٰ إعادة العبادة، فإن استجاب لهذه الخواطر، وقَع في الوسوسة[1].

---

(١) وينبغي هنا أن ننتبه لقول السيدة عائشة رضي الله عنها الذي مرَّ معنا أن النبي ﷺ كان يتوضأ بالمُدِّ، ويغتسل بالصاع إلىٰ خمسة أمدادٍ، فهذا الكلام بالطبع ضابط، مَن حاد عنه يسأل عن فعله من أين أتىٰ به، ولكن ليس معناه أن الإنسان إذا توضأ بأكثر من مُدٍّ، أو اغتسل بأكثر من صاعٍ أنه يقع في الوسوسة، وإنما الحديث يبين أقل شيءٍ يصح به الوضوء أو الغسل، ويجوز أن يستخدم أكثر من هذا، ولكن حين يزيد المرء عما في الحديث ينظر إلىٰ الذي دفعه لفعل هذا الأمر، هل من الوسوسة أم لا.

ضابط الغلو:

لمَّا وضع العلماء ضابطًا للاحتياط، وضعوا أيضًا ضابطًا للغلو حتىٰ لا يغلو أحد في العبادة نتيجةً لقوة الإقدام والشجاعة التي عنده، ولابد من معرفة هذا الضابط حتىٰ لا يستمر المرء في المغالاة والتعدي وهو يظن أنه علىٰ شيء.

ضابط الغلو: هو مجاوزة حدود ما شرعه الله ﷻ بقولٍ أو بفعلٍ، أو باعتقادٍ، وعلاجه في الاتباع أيضًا.

فأمَّا التجاوز بالفعل، فمثاله في الحديث المتفق عليه عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه يقول: جاء ثلاثة رهطٍ إلىٰ بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلمَّا أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإنِّي أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «**أنتم الَّذين قلتم كذا وكذا، أما والله إنِّي لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكنِّي أصوم وأُفْطر، وأُصلِّي وأرقد، وأتزوَّج النساء، فمَن رغب عن سُنَّتي فليس منِّي**»[(١)]، فهؤلاء جاء كلٌّ منهم بعبادةٍ لم يفعلها النبي ﷺ، وهذا الفعل ناتج عن قوة إقدام وشجاعة، وعرفنا ذلك؛ لأنها جاوزت حدود ما شرع الله ﷻ.

وأما التجاوز بالقول، فمثاله ما جاء في «المسند»، وصححه الألبانيُّ عن أنس بن مالك أيضًا رضي الله عنه أن رجلًا قال: يا محمد، يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا، فأنكر النبي ﷺ عليه قوله هذا. وكما جاء في البخاري: جاء النبي ﷺ، فدخل حين بنىٰ عليٌّ، فجلس علىٰ فراشي كمجلسك مني، فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف،

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

ويندبن من قُتِلَ من آبائي يوم بدرٍ، إذ قالت إحداهن: وفينا نبيٌّ يعلم ما في غدٍ، فقال: «**دعي هذه، وقولي بالذي كنت تقولين**»(١).

وأمَّا المجاوزة بالاعتقاد، فكما فعل أهل الكتابين، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النساء: ١٧١].

ومجاوزة هذه الحدود تدلُّ علىٰ عدم السير علىٰ الطريق المستقيم، بل السير بقوة الإقدام والشجاعة التي عرفها إبليس في المرء، فبدأ يثمرها، ويقلل من المأمور، فانحرف المرء بذلك، فأيُّ انحرافٍ فكريٍّ أو سلوكيٍّ يصدر من المكلفين يزعم صاحبه أنه يتقرب إلىٰ الله به إنَّما يكون ناشئًا عن معرفة الشيطان للقوتين المذكورتين من قبل في هذا العبد، كما ذكرنا.

فلكي تضبط القوتين المذكورتين، وتتخلَّص من مرض الوسوسة، عليك بالاتباع، ولا تسر وراء الحماس والانفعالات، أو وراء النصوص المبتورة، أو محبة رجلٍ دون شريعة الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا كله مخالف، ويترتب عليه فساد كبير.

وأيضًا، مما يعين -بعد عون الله تعالىٰ- علىٰ التخلُّص من مرض الوسوسة: الوقوف والتأمل في أضرارها، ومنها:

(١) طريق إلىٰ الشك، والشك في الله كفر.

---

(١) «صحيح البخاري» (٥١٤٧).

(٢) تفقد الإنسان ثقته بنفسه وبغيره.

(٣) ينفر الناس من صاحب الوسواس، ويبتعدون عنه.

(٤) الموسوس لا تكمل له عبادة، ولا يستقرُّ له فكرٌ.

(٥) يشدد علىٰ نفسه حتىٰ يدخل في دائرة المحظور.

(٦) قد يصل الأمر بالموسوس إلىٰ الهلوسة، ثم الجنون[١].

(١) «نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم» (١١/ ٥٧٠٩).

الباب الحادي عشر

مرض اتباع الهوى

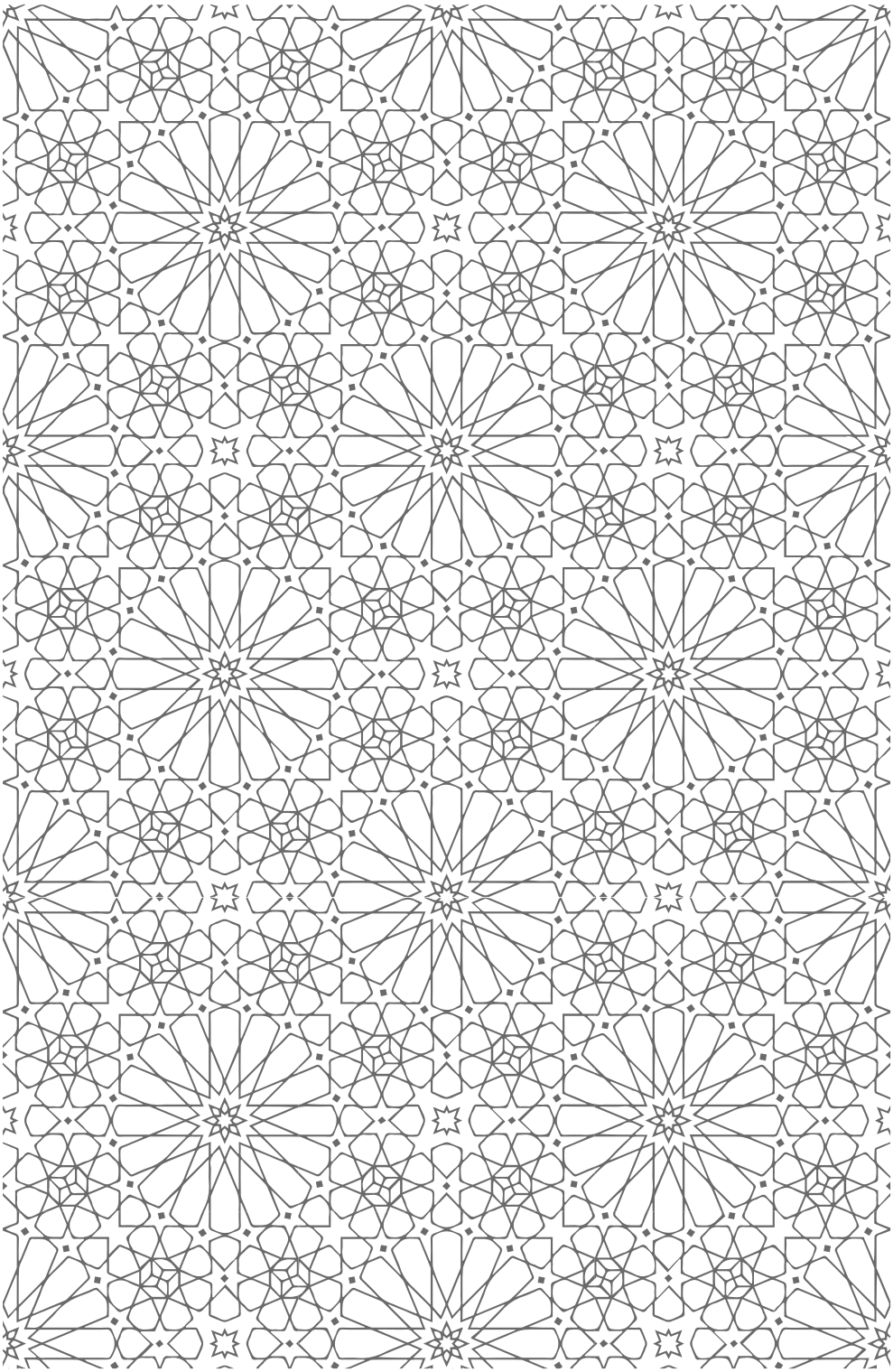
وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: تعريف مرض اتباع الهوىٰ وخطورته.

الفصل الثاني: النصوص الشرعية الواردة في التحذير من اتباع الهوىٰ.

الفصل الثالث: أسباب مرض اتباع الهوىٰ.

الفصل الرابع: علاج اتباع الهوىٰ.



الفصل الأول

تعريف مرض اتباع الهوى وخطورته

الهوىٰ لغةً:

مصدر قولهم: هوىٰ يهوي، وتدل المادة التي اشتق منها علىٰ «الخلو والسقوط... ومن ذلك: الهواء بين السماء والأرض، سُمِّي بذلك لخُلوِّه، وكل خالٍ هواء، قال تعالىٰ: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٣]، أي: خالية لا تعي شيئًا، ويقال: هوىٰ الشيء يهوي، أي: سقط، والهاوية جهنم؛ لأن الكافر يسقط فيها. والهوة: الوهدة العميقة، وهوىٰ النفس مأخوذ من المعنيين جميعًا -أي: من الخلو والسقوط- لأنه خالٍ من كل شيءٍ، ويهوي بصاحبه فيما لا ينبغي[(١)].

الهوىٰ اصطلاحًا: الهوىٰ هو مَيل النفس البشرية إلىٰ ما تستلذ به من غير إذن الشرع[(٢)].

قال الراغب: هو مَيل النفس إلىٰ الشهوة[(٣)].

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالىٰ: مَيل الطبع إلىٰ ما يلائمه[(٤)].

---

(١) «مقاييس اللغة» (٦/ ١٦).

(٢) وقد قيد العلماء التعريف بقولهم: «من غير إذن الشرع»؛ لأن النفس البشرية أحيانًا تستلذ بأشياء أمَر بها الشرع، كما سيأتي ذكره، ومن ذلك قول عتبة الغلام وثابت البناني: «كابدنا العبادة عشرين سنةً، ثم تلذذنا بها عشرين سنة»، فأمثال هؤلاء وصلوا إلىٰ مرحلةٍ مالت فيها أنفسهم وتلذذت بشيءٍ مما أمر به الشرع، وهذه قمة الاستقامة، وإذا وصل عبدٌ إليها، فعليه أن يحمد الله كثيرًا.

(٣) «المفردات» (٥٤٨).

(٤) «ذم الهوىٰ» (١٢)، نسخة مصطفىٰ عبد الواحد.

وعليه، فاتِّباع الهوىٰ هو إيثار مَيل النفس إلىٰ الشهوة، والانقياد لها فيما تدعو إليه من معاصي الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد دلت النصوص الشرعية علىٰ أن الهوىٰ منه المحمود، وَإِنْ كان الأصل في إطلاق الهوىٰ الذم.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ الهوىٰ في موضعٍ من كتاب إلا ذمَّه»(١).

فمن ذلك:

بوَّب البخاري، فقال: باب قوله: ﴿۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ﴾، قال ابن عباس: ﴿تُرْجِي﴾: تؤخر، أرجئه: أخره(٢).

ثم روىٰ بسنده إلىٰ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كنتُ أغار علىٰ اللَّاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، وأقول: أتهب المرأة نفسها؟»، فلما أنزل الله تعالىٰ: ﴿۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ﴾، قلت: ما أرىٰ ربَّك إلا يسارع في هواك(٣).

قال النووي: قولها: «ما أرىٰ ربك إلا يسارع لك في هواك»، معناه: يخفف عنك، ويوسع عليك في الأمور، ولهذا خيَّرك.

قول عائشة: «كنتُ أغار علىٰ اللاتي...»، قال الطيبي: أي: أعيب عليهن؛ لأن مَن غار عاب، ويدل عليه قولها: «أَوَ تهب المرأة نفسها للرجل؟»، وهو هنا تقبيح وتنفير؛ لئلَّا تهب النساء أنفسهن له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤).

---

(١) «ذم الهوىٰ» لابن الجوزي (١٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٦/ ١١٧).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٧٨٨).

(٤) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٠/ ٥٠).

الفرق بين الهوىٰ والشهوة:

يقول الإمام الماوردي: فرق ما بين الهوىٰ والشهوة: أن الهوىٰ مختصٌّ بالآراء والاعتقادات، والشهوة مختصَّة بنَيل المستلذات، فصارت الشهوة من نتائج الهوىٰ، والهوىٰ أصلٌ، وهو أعمُّ[(١)].

وتبعًا للتعريف السابق: الهوىٰ: هو الميل إلىٰ ما يستلذ به، ومن الممكن أن يكون ما يستلذ به معنويًّا، أو محسوسًا، وبالتالي فالهوىٰ عام، والشهوة فرعٌ منه، وعند التفصيل فقط نجعل الهوىٰ في المعنويات، والشهوة في المحسوسات.

الفرق بين ما يسومه العقل، وما يسومه الهوىٰ:

١. من شأن العقل أن يرىٰ ويختار أبدًا الأصلح في العواقب، وإن كان في المبدإ علىٰ النفس مشقة، والهوىٰ علىٰ الضد من ذلك، فإنه يؤثر ما يدفع به المؤذي في الوقت العاجل وإن كان يعقبه مضرَّة في الآجل، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات**».

٢. الهوىٰ يري الإنسان ما له دون ما عليه، ويُعمي عليه ما يعقبه من المكروه، أما العقل فإنه يري الإنسان ما له، وما عليه، وما يريه العقل يتقوَّىٰ إذا فزع فيه المرء إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بالاستخارة.

٣. العقل يري ما يري بحجةٍ وعذرٍ، والهوىٰ يري ما يري بشهوةٍ وميلٍ[(٢)].

---

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص ٣٨).

(٢) «الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة» (ص ٤٣-٤٥) بتصريف.

خطورة مرض اتباع الهوىٰ:

إنَّ انقياد الإنسان واتباعه للشهوة يجعله في مصافِّ الحيوانات، ويجلب له الخزي في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

يقول الجاحظ: إذا تمكنت الشهوة من الإنسان وملكته، وانقاد لها، كان بالبهائم أشبه منه بالناس؛ لأنَّ أغراضه ومطلوباته وهمته تصير أبدًا مصروفةً إلىٰ الشهوات واللذات فقط، وهذه هي عادة البهائم، ومَن يكون بهذه الصفة يقلُّ حياؤه، ويكثر خرقه، ويستوحش من أهل الفضل، ويبغض أهل العلم، ويودُّ أصحاب الفجور، ويستحب الفواحش، ويسرُّ بمعاشرة السخفاء، ويغلب عليه الهزل وكثرة اللهو، وقد يصير من هذه الحالة إلىٰ الفجور وارتكاب الفواحش، والتعرض للمحظورات، وربما دعته محبة اللَّذَّات إلىٰ اكتساب الأموال من أقبح وجوهها، وربما حملته علىٰ الغضب، والتلصُّص والخيانة، وأخذ ما ليس له بحقٍّ، فإن اللذات لا تتمُّ إلا بالأموال والأعراض، فمحب اللذة إذا تعذرت عليه الأموال من وجوهها، جسرته شهوته إلىٰ اكتسابها من غير وجوهها، ومَن تنتهي به شهواته إلىٰ هذا الحد، فهو أسوأ الناس حالًا، ويصبح من الأشرار الَّذين يخاف خبثهم، ويصير واجبًا علىٰ متولِّي السياسات تقويمهم وتأديبهم، وإبعادهم ونفيهم حتىٰ لا يختلطوا بالناس، فإنَّ اختلاط مَن هذه صفته بالناس مضرَّة لهم، وبخاصة الأحداث منهم؛ لأنَّ الحدث (صغير السن) سريع الانطباع، ونفسه مجبولة علىٰ الميل إلىٰ الشهوات، فإذا شاهد غيره مرتكبًا لها، مستحسنًا للانهماك فيها، مَالَ هو أيضًا إلىٰ الاقتداء به[(١)].

---

(١) باختصار وتصرف يسير عن «تهذيب الأخلاق» (١٥، ١٦).

ويُضَاف إلىٰ ما سبق: أنَّ مرض اتباع الهوىٰ من أخطر ما يُبْتلىٰ به الناس في قلوبهم؛ سواء في ذلك الرجال والنساء -وخاصةً طلبة العلم في وقتنا الحاضر (١٤٤١هـ) - وقد كان النبي ﷺ يستعيذ بالله عَزَّوَجَلَّ من مضلات الفتن، ومن الأهواء.



الفصل الثاني

النصوص الشرعية الواردة في التحذير من اتباع الهوى

قد تفرَّد هذا المرض عن بقية أمراض القلوب أن الله عَزَّوَجَلَّ سمَّاه في موضعين من التنزيل: إلهًا يُعبد من دون الله سبحانه، وهذا لم يأتِ في أي مرضٍ آخر، قال الله تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

قال ابن كثير: أي: مهما استحسن من شيءٍ، ورآه حسنًا في هوىٰ نفسه، كان دينه ومذهبه، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ﴾ [فاطر: ٨]، ولهذا قال هاهنا: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾. قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانًا، فإذا رأىٰ غيره أحسن منه، عبد الثاني، وترك الأول.

ثم قال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾، أي: أسوأ حالًا من الأنعام السارحة، فإنَّ تلك تعقل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، وهم يعبدون غيره، ويُشْركون به مع قيام الحجة عليهم، وإرسال الرسل إليهم[(١)].

قال ابن أبي حاتمٍ: عن الحسن: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، قال: لا يهوىٰ شيئًا إلا تبعه.

---

(١) «تفسير ابن كثير». ت: سلامة (٦/ ١١٣).

قال ابن القيِّم: قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤]، فشبه أكثر الناس بالأنعام، والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدىٰ والانقياد له، وجعل الأكثرين أضل سبيلًا من الأنعام؛ لأنَّ البهيمة يهديها سائقها، فتهتدي، وتتبع الطريق، فلا تحيد عنها يمينًا، ولا شمالًا، والأكثرون يدعوهم الرسل، ويهدونهم السبيل، فلا يستجيبون، ولا يهتدون، ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم، والأنعام تفرق بين ما يُضرُّها من النبات والطريق فتجتنبه، وما ينفعها فتؤثره، والله تعالىٰ لم يخلق للأنعام قلوبًا تعقل بها، ولا ألسنةً تنطق بها، وأعطىٰ ذلك لهؤلاء، ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار، فهم أضل من البهائم، فإن مَن لا يهتدي إلىٰ الرشد، وإلىٰ الطريق مع الدليل إليه، أضل وأسوأ حالًا ممَّن لا يهتدي حيث لا دليل معه[(١)].

وقال أيضًا: قال أبو جعفرٍ الباقر: والله، ما اقتصر علىٰ تشبيههم بالأنعام حتىٰ جعلهم أضل سبيلًا منها[(٢)].

وروىٰ الطبرانيُّ بسندٍ فيه ضعف قد يَنْجَبر بشواهده عن أبي أُمَامة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما تحت ظلِّ السَّماء من إِلَهٍ يُعْبد من دون الله أعظم عند الله من هوىً متبع**»[(٣)].

قال الشنقيطي: الواجب الذي يلزم العمل به هو أن يكون جميع أفعال المكلف مطابقةً لما أمره به معبوده جلَّ وعلا، فإذا كانت جميع أفعاله تابعةً لما يهواه، فقد

---

(١) «إعلام الموقعين عن رب العالمين». ت: مشهور (٢/ ٢٨١).

(٢) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (ص ٧٥).

(٣) «المعجم الكبير» للطبراني (٨/ ١٠٣).

صرف جميع ما يستحقُّه عليه خالقه من العبادة والطاعة إلىٰ هواه، وإذن فكونه اتخذ إلهه هواه في غاية الوضوح[(١)].

ثم قال الشنقيطي أيضًا: وإذا علمت هذا المعنىٰ الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، فاعلم أن الله -جلَّ وعلا- بيَّنه في غير هذا الموضع، في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ الآية [فاطر: ٨].

وقوله تعالىٰ في هذه الآية الكريمة: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾، استفهام إنكار فيه معنىٰ النفي.

والمعنىٰ: أن مَن أضله الله، فاتخذ إلهه هواه، لا تكون أنت عليه وكيلًا، أي: حفيظًا تهديه، وتصرف عنه الضلال الذي قدَّره الله عليه؛ لأنَّ الهدىٰ بِيَدِ الله وحده لا بيدك، والذي عليك إنَّما هو البلاغ، وقد بلغت[(٢)].

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

قال ابن كثير: أي: إنَّما يأتمر بهواه، فمهما رآه حسنًا فعله، ومهما رآه قبيحًا تركه.

قوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، يحتمل قولين:

أحدها: وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك.

والآخر: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه.

---

(١) «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» (٦/ ٥٨).

(٢) «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» (٦/ ٥٩).

والثاني يستلزم الأول، ولا ينعكس.

وقد حذَّر الله عَزَّوَجَلَّ نبيًّا من أنبيائه من هذا المسلك، فقال عز من قائل: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦].

قال الحسن رحمه الله تعالىٰ: أخذ الله علىٰ الحكام ألَّا يتبعوا الهوىٰ، ولا يخشوا الناس، ولا يشتروا بآياتي ثمنًا قليلًا، ثم قرأ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦][(١)].

قال ابن كثير: هذه وصية من الله عَزَّوَجَلَّ لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالىٰ، ولا يعدلوا عنه، فيضلوا عن سبيله، وقد توعَّد الله تعالىٰ مَن ضلَّ عن سبيله، وتناسىٰ يوم الحساب، بالوعيد الأكيد، والعذاب الشديد.

فسَيْر الإنسان وراء هواه وهو يعلم أن الحق خلاف ذلك- مرض عضال، وداء فتاك في القلب[(٢)].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٤٧ - ٥٠].

---

(١) «تفسير ابن كثير». ت: سلامة (٧/ ٢٦٨).

(٢) «تفسير ابن كثير». ت: سلامة (٧/ ٦٢).

قال العلَّامة السعدي: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾، أي: فأرسلناك يا محمد لدفع حجتهم، وقطع مقالتهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ وهو القرآن الذي أوحيناه إليك ﴿قَالُوا۟﴾ مكذبين له، ومعترضين بما ليس يعترض به: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾، أي: أنزل عليه كتاب من السماء جملة واحدة، أي: فأمَّا ما دام ينزل متفرقًا، فإنه ليس من عند الله، وأي دليلٍ في هذا؟ وأي شبهةٍ أنه ليس من عند الله حين نزل مفرقًا؟ بل من كمال هذا القرآن، واعتناء الله بمَن أنزل عليه: أن نزل متفرقًا؛ ليثبت الله به فؤاد رسوله، ويحصل زيادة الإيمان للمؤمنين ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ وأيضًا فإن قياسهم علىٰ كتاب موسىٰ قياس قد نقضوه، فكيف يقيسونه علىٰ كتابٍ كفروا به، ولم يؤمنوا؟ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾، أي: القرآن والتوراة، تعاونا في سحرهما، وإضلال الناس ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾، فثبت بهذا أن القوم يريدون إبطال الحق بما ليس ببرهانٍ، وينقضونه بما لا ينقض، ويقولون الأقوال المتناقضة المختلفة، وهذا شأن كل كافرٍ.

ولهذا، صرح أنهم كفروا بالكتابين والرسولين، ولكن هل كفرهم بهما كان طلبًا للحق، واتباعًا لأمرٍ عندهم خير منهما، أَمْ مجرد هوىٰ؟ قال تعالىٰ ملزمًا لهم بذلك: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾، أي: من التوراة والقرآن ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾، ولا سبيل لهم ولا لغيرهم أَنْ يأتوا بمثلهما، فإنَّه ما طرق العالم منذ خلقه الله مثل هذين الكتابين، علمًا وهدًى، وبيانًا، ورحمةً للخَلق، وهذا من كمال الإنصاف من الداعي أن قال: أنا مقصودي الحق والهدىٰ والرشد، وقد جئتكم بهذا

الكتاب المشتمل على ذلك، الموافق لكتاب موسى، فيجب علينا جميعًا الإذعان لهما واتباعهما، من حيث كونهما هدًى وحقًّا، فإن جئتموني بكتابٍ من عند الله هو أهدى منهما، اتبعته، وإلا فلا أترك هدًى وحقًّا قد علمته لغير هدًى وحقٍّ ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾، فلم يأتوا بكتابٍ أهدى منهما ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾، أي: فاعلم أن تركهم اتباعك، ليسوا ذاهبين إلى حقٍّ يعرفونه، ولا إلى هدًى، وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فهذا من أضل الناس، حيث عرض عليه الهدى، والصراط المستقيم الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته، فلم يلتفت إليه ولم يُقبل عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء فاتبعه، وترك الهدى، فهل أحد أضل ممن هذا وصفه؟ ولكن ظلمه وعدوانه، وعدم محبته للحق هو الذي أوجب له أن يبقى على ضلاله، ولا يهديه الله، فلهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: الذين صار الظلم لهم وصفًا، والعناد لهم نعتًا، جاءهم الهدى فرفضوه، وعرض لهم الهوى فتبعوه، سدوا على أنفسهم أبواب الهداية وطرقها، وفتحوا عليهم أبواب الغواية وسبلها، فهم في غيِّهم وظلمهم يعمهون، وفي شقائهم وهلاكهم يترددون.

وفي قوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾، دليل على أن كل مَن لم يستجب للرسول، وذهب إلى قولٍ مخالفٍ لقول الرسول، فإنه لم يذهب إلى هدًى، وإنما ذهب إلى هوًى[(١)].

وضرب الله تعالى مثلًا لرجلٍ آتاه الله من الآيات الكثير، فتركها ميلًا للدنيا، ومتبعًا لهواه، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ

(١) «تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن» (ص ٦١٨).

فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

[الأعراف: ١٧٥ - ١٧٧].

قال العلامة السعدي: يقول تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾، أي: علمناه كتاب الله، فصار العالِم الكبير، والحبر النِّحرير.

﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، أي: انسلخ من الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله، فإن العلم بذلك، يُصيِّر صاحبه متصفًا بمكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ويرقىٰ إلىٰ أعلىٰ الدرجات، وأرفع المقامات، فترك هذا كتاب الله وراء ظهره، ونَبذَ الأخلاق التي يأمر بها الكتاب، وخلعها كما يخلع اللباس.

فلمَّا انسلخ منها، أتبعه الشيطان -أي: تسلط عليه حين خرج من الحصن الحصين- وصار إلىٰ أسفل سافلين، فأزَّه إلىٰ المعاصي أزًّا.

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾، بعد أَنْ كان من الراشدين المرشدين.

وهذا؛ لأنَّ الله تعالىٰ خذله ووكله إلىٰ نفسه، فلهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ بأن نُوفِّقه للعمل بها، فيرتفع في الدنيا والآخرة، فيتحصَّن من أعدائه.

﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ﴾ فعل ما يقتضي الخذلان، فأخلد إلىٰ الأرض، أي: إلىٰ الشهوات السفلية، والمقاصد الدنيوية ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، وترك طاعة مولاه، ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ في شدة حرصه علىٰ الدنيا، وانقطاع قلبه إليها، ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾، أي: لا يزال لاهثًا في كل حالٍ، وهذا لا يزال حريصًا حرصًا قاطعًا قلبه، لا يسدُّ فاقته شيء من الدنيا.

﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ﴾ بعد أن ساقها الله إليهم، فلم ينقادوا لها، بل كذبوا بها وردُّوها؛ لهوانهم علىٰ الله، واتباعهم لأهوائهم بغير هدًىٰ من الله.

﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ في ضرب الأمثال، وفي العِبَرِ والآيات، فإذا تفكَّروا علموا، وإذا علموا عملوا(١).

قال ابن القيم: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]، فشبَّه سبحانه مَنْ آتاه كتابه، وعلمه العلم الذي منعه غيره، فترك العمل به، واتَّبع هواه، وآثر سخط الله علىٰ رضاه، ودنياه علىٰ آخرته، والمخلوق علىٰ الخالق بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات، وأوضعها قدرًا، وأخسها نفسًا، وهمَّته لا تتعدَّىٰ بطنه، وأشدها شَرَهًا وحرصًا، ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم ويستروح حرصًا وشَرهًا، ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزائه، وإذا رميت إليه بحجرٍ، رجع إليه ليعضه من فرط نهمته، وهو من أمهن الحيوانات، وأحملها للهوان، وأرضاها بالدنايا، والجيف القذرة المروحة أحب إليه من اللَّحم الطَّريِّ، والعذرة أحب إليه من الحلوىٰ، وإذا ظفر بميتةٍ تكفي مائة كلبٍ، لم يدع كلبًا واحدًا يتناول منها شيئًا إلا هر عليه، وقهره؛ لحرصه وبخله وشَرَهه.

ومن عجيب أمره وحرصه أنه إذا رأىٰ ذا هيئةٍ رثةٍ، وثيابٍ دنيةٍ، وحالٍ زريةٍ، نبحه وحمل عليه، كأنه يتصور مشاركته له، ومنازعته في قوته، وإذا رأىٰ ذا هيئةٍ حسنةٍ،

---

(١) «تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن» (ص ٣٠٩).

وثيابٍ جميلةٍ، ورياسةٍ، وضع له خطمه بالأرض، وخضع له، ولم يرفع إليه رأسه، وفي تشبيه مَن آثر الدنيا وعاجلها علىٰ الله والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب في حال لهثه- سرٌّ بديعٌ، وهو أن هذا الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته، واتباعه هواه، إنَّما كان لشدة لَهَفه علىٰ الدنيا؛ لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة، فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه، واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنىٰ.

قال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد، لا فؤاد له، إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث، فهو مثل الذي يترك الهدىٰ، لا فؤاد له، إنما فؤاده منقطع.

قلت: مراده بانقطاع فؤاده: أنه ليس له فؤاد يحمله علىٰ الصبر، وترك اللهث، وهكذا الذي انسلخ من آيات الله، لم يبقَ معه فؤاد يحمله علىٰ الصبر عن الدنيا، وترك اللهف عليها، فهذا يلهف علىٰ الدنيا من قلَّة صبره عنها، وهذا يلهث من قلة صبره عن الماء، فالكلب من أقل الحيوانات صبرًا عن الماء، وإذا عطش أكل الثرىٰ من العطش، وإن كان فيه صبر علىٰ الجوع.

وعلىٰ كلِّ حالٍ، فهو من أشد الحيوانات لهثًا، يلهث قائمًا وقاعدًا وماشيًا وواقفًا، وذلك لشدَّة حرصه، فحرارة الحرص في كبده توجب له دوام اللهث، فهكذا مشبهه شدة الحرص، وحرارة الشهوة في قلبه، توجب له دوام اللَّهف، فإن حملت عليه الموعظة والنصيحة، فهو يلهف، وإن تركته ولم تعظه فهو يلهف.

قال مجاهد: وذلك مَثَل الذي أُوتِيَ الكتاب، ولم يعمل به.

وقال ابن عبَّاس: إِنْ تحمل عليه الحكمة، لم يحملها، وإن تركته لم يهتدِ إلىٰ خيرٍ، كالكلب إن كان رابضًا لهث، وإن طرد لهث. وقال الحسن: هو المنافق لا يثبت علىٰ الحق، دعي أو لم يدع، وعظ أو لم يوعظ، كالكلب يلهث طرد أو ترك.

وقال عطاء: ينبح إن حملت عليه، أو لم تحمل عليه. وقال أبو محمد بن قتيبة: كل شيءٍ يلهث، فإنما يلهث من إعياءٍ أو عطشٍ إلا الكلب، فإنه يلهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال الصحة، وحال المرض والعطش، فضربه الله مثلًا لمن كذب بآياته، وقال: إن وعظته فهو ضالٌّ، وإن تركته فهو ضالٌّ؛ كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته علىٰ حاله لهث.

إلىٰ أَنْ قال: وتأمَّل ما في هذا المثل من الحكم والمعنىٰ، فمنها قوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]، فأخبر سبحانه أنه هو الذي آتاه آياته، فإنها نعمةٌ، والله هو الذي أنعم بها عليه، فأضافها إلىٰ نفسه، ثم قال: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]، أَيْ: خرج منها، كما تنسلخ الحيَّة من جلدها، وفارقها فراق الجلد يسلخ عن اللَّحم، ولم يقل: فسلخناه منها؛ لأنه هو الذي تسبَّب إلىٰ انسلاخه منها باتباع هواه.

ومنها قوله سبحانه: ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الأعراف: ١٧٥]، أي: لحقه وأدركه، وكان محفوظًا محروسًا بآيات الله، محميَّ الجانب بها من الشيطان، لا ينال منه شيئًا إلا علىٰ غِرَّةٍ وخطفةٍ، فلمَّا انسلخ من آيات الله، ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته، فكان من الغاوين العاملين بخلاف عملهم الذين يعرفون الحقَّ، ويعملون بخلافه؛ كعلماء السُّوء، ومنها أنه سبحانه قال: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٦]، فأَخْبَر سبحانه أنَّ الرفعة عنده ليست بمُجرَّد العلم، فإن هذا كان من العلماء، وإنما هي باتِّباع الحقِّ وإيثاره وقصد مرضاة الله.

قلت: والعمل بالعلم، فإنَّ هذا كله من أعلم أهل زمانه، ولم يرفعه الله بعلمه، ولم ينفعه به، فنعوذ بالله من عِلْمٍ لا ينفع، وأخبَر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم، وَإِنْ لم يرفعه الله، فهو موضوعٌ لا يرفع أحد به رأسًا، فإن

الخافض الرافع سبحانه، خفضه ولم يرفعه، والمعنىٰ: لو شئنا فضَّلناه وشرفناه، ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناه.

قال ابن عبَّاس: ولو شئنا لرفعناه بعمله بها. وقالت طائفةٌ: الضمير في قوله: ﴿لَرَفَعۡنَٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦] عائدٌ علىٰ الكفر، والمعنىٰ: لو شئنا لرفعنا عنه الكفر بما معَه من آياتنا. قال مجاهد وعطاء: لرفعنا عنه الكفر بالإيمان وعصمناه، وهذا المعنىٰ حقٌّ، والأول هو مراد الآية، وهذا من لوازم المراد، وقد تقدَّم أنَّ السلف كثيرًا ما يُنبِّهون علىٰ لازم معنىٰ الآية، فيظن الظان أنَّ ذلك هو المراد منها[(١)].

وقال أيضًا رحمه الله تعالىٰ: وتأمَّل ما تضمَّنته هذه الآية من ذمِّه، وذلك من وجوهٍ:

أحدها: أنه ضلَّ بعد العلم، واختار الكفر علىٰ الإيمان عمدًا، لا جهلًا.

وثانيها: أنه فارق الإيمان مفارقة مَنْ لا يعود إليه أبدًا، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة، كما تنسلخ الحيَّة من قشرها، ولو بقي معه منها شيءٌ، لم ينسلخ منها.

وثالثها: أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال: ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، ولم يقل: تبعه، فإنَّ في معنىٰ «أتبعه»: أدركه ولحقه، وهو أبلغ من «تبعه» لفظًا ومعنًىٰ.

ورابعها: أنه غوي بعد الرشد، والغي الضلال في العلم والقصد، وهو أخص بفساد القصد والعمل، كما أنَّ الضلال أخص فساد العلم والاعتقاد، فإذا أفرد أحدهما، دخل فيه الآخر، وإن اقتَرنا، فالفرق ما ذكر.

وخامسها: أنَّه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم، فكان سبب هلاكه؛ لأنه لم يرفع به، فصار وبالًا عليه، فلو لم يكن عالمًا، كان خيرًا له، وأخف لعذابه.

---

(١) «إعلام الموقعين عن رب العالمين». ت: مشهور (٢/ ٢٨٩-٢٩٣).

وسادسها: أنه سبحانه أخبَر عن خِسَّةِ همَّته، وأنه اختار الأسفل الأدنىٰ علىٰ الأشرف الأعلىٰ.

وسابعها: أنَّ اختياره للأدنىٰ لم يكن عن خاطرٍ وحديث نفسٍ، ولكنه كان عن إخلادٍ إلىٰ الأرض، وميلٍ بكُلِّيَّته إلىٰ ما هناك، وأصلُ الإخلاد اللزومُ علىٰ الدوام؛ كأنه قيل: لزم الميل إلىٰ الأرض، ومن هذا يقال: أخلد فلان بالمكان إذا لزم الإقامة به، وعبَّر عن ميله إلىٰ الدنيا بإخلاده إلىٰ الأرض؛ لأن الدنيا هي الأرض وما فيها، وما يستخرج منها من الزينة والمتاع.

وثامنها: أنه رغب عن هداه، واتبع هواه، فجعل هواه إمامًا له يقتدي به ويتبعه.

وتاسعها: أنه شبَّهه بالكلب الذي هو أخسُّ الحيوانات همةً، وأسقطها نفسًا، وأبخلها وأشدها كلبًا، ولهذا سُمِّي كلبًا.

وعاشرها: أنه شبَّه لهثه علىٰ الدنيا، وعدم صبره عنها، وجزعه لفقدها، وحرصه علىٰ تحصيلها، بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد، وهكذا هذا إن ترك فهو لهثان علىٰ الدنيا، وإن وعظ وزجر فهو كذلك، فاللهث لا يفارقه في كل حالٍ كلهث الكلب[(١)].

روىٰ الإمام أحمد بسندٍ حسنٍ من حديث أبي برزة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ ممَّا أخشىٰ عليكم، شهوات الغي في بطونكم وفروجكم، ومضلات الهوىٰ**»[(٢)].

روىٰ البزار بسندٍ صحيحٍ من حديث أنسٍ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ثلاث كفارات، وثلاث درجات، وثلاث منجيات، وثلاث مهلكات، فأما الكفارات: فإسباغ**

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص ١٠٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٩٧٨٧)، وصححه الألباني في «الترغيب» (٥٢).

الوضوء في السبرات، وانتظار الصلوات بعد الصلوات، ونقل الأقدام إلىٰ الجمعات، وأما الدرجات: فإطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام، وأما المنجيات: فالعدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنىٰ، وخشية الله في السر والعلانية، وأما المهلكات: فشُحٌّ مطاع، وهوىً متبع، وإعجاب المرء بنفسه»[(١)].

اتباع الهوىٰ من أسباب تَرْك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر:

روىٰ الترمذي وأبو داود عن أبي أُميَّة الشعباني قال: أتيتُ أبا ثعلبة الخشني، فقلت له: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ [المائدة: ١٠٥]. قال: أما والله، لقد سألتُ عنها خبيرًا، سألتُ عنها رسول الله ﷺ، فقال: «**بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتىٰ إذا رأيت شحًّا مطاعًا، وهوًىً متبعًا، ودنيا مؤثرةً، وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه، فعليك بخاصَّة نفسك، ودع العوام، فإنَّ من ورائكم أيامًا، الصبرُ فيهن مثل القبض علىٰ الجمر، للعامل فيهنَّ مثل أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عملكم**»[(٢)]، فعلق النبي ﷺ اهتمام كل امرئٍ بخاصة نفسه، وترك غيره علىٰ انتشار الهوىٰ المتبع، أي: الميل لغير الحق[(٣)].

---

(١) رواه البزار في «مسنده» (٦٤٩١)، قال الألباني في «الترغيب»: رواه البزار واللفظ له، والبيهقي وغيرهما، وهو مروي عن جماعة من الصحابة، وأسانيده وإن كان لا يَسلم شيء منها من مقالٍ، فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالىٰ.

«السبرات» جمع «سبرة»، وهي شدة البرد.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٤)، والترمذي (٣٠٥٨) ضعيف، لكن فقرة: «أيام الصبر» ثابتة.

(٣) رواه الترمذي (٣٠٥٨)، وقال الألباني: ضعيف، لكن بعضه صحيح، فانظر الحديث المتقدم (٢٣٦١)، نقد الكتاني (٢٧ / ٢٧)، «المشكاة» (٥١٤٤)، «صحيح أبي داود» - باختصار السند (١٨٤٤ - ٢٣٧٥)، «الصحيحة» (٥٩٤)، «ضعيف الجامع الصغير» (٢٣٤٤).

قال الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ: «الهوىٰ شر داء خالط قلبًا»[(١)].

وقال أيضًا: «أفضل الجهاد: جهاد الهوىٰ»[(٢)].

قال الشافعيُّ رحمه الله تعالىٰ: «لأَنْ يلقىٰ الله العبد بكل ذنبٍ ما خلا الشرك، خيرٌ له من أن يلقاه بشيءٍ من الأهواء»[(٣)].

قال مالك رحمه الله تعالىٰ: «لا يؤخذ العلم عن أربعةٍ: سفيهٍ يعلن السفه، وإن كان أروىٰ الناس، وصاحبِ بدعةٍ يدعو إلىٰ هواه، ومَن يكذب في حديث الناس وإن كنت لا أتَّهمه في الحديث، وصالحٍ عابدٍ فاضلٍ إذا كان لا يحفظ ما يُحدِّث به»[(٤)].

قال ابن رجب رحمه الله تعالىٰ: «إن جميع المعاصي تنشأ من تقديم هوىٰ النفوس علىٰ محبة الله ورسوله، وقد وصف الله المشركين باتباع الهوىٰ في مواضعَ من كتابه، وكذلك البدع تنشأ من تقديم الهوىٰ علىٰ الشرع، ولهذا يُسمَّىٰ أهلها أهل الأهواء، ومَن كان حبه وبغضه وعطاؤه ومنعه لهوىٰ نفسه، كان ذلك نقصًا في إيمانه الواجب، فيجب عليه حِينَئِذٍ التوبة من ذلك، والرُّجوع إلىٰ اتِّباع ما جاء به الرسول ﷺ من تقديم محبَّة الله ورسوله، وما فيه رضا الله ورسوله علىٰ هوىٰ النفس ومراداتها كلها»[(٥)].

قال الماوردي رحمه الله تعالىٰ: إنَّ الهوىٰ والشهوة يجتمعان في العلة والمعلول، ويتفقان في الدلالة والمدلول، لكن الهوىٰ مختصٌّ بالآراء والاعتقادات، والشهوة مختصة بنَيل المستلذات.

---

(١) «السنة» لعبد الله بن أحمد (١/ ١٣٨) رقم (١٠٥).

(٢) «أدب الدنيا والدين» (٤١).

(٣) «حلية الأولياء» (٩/ ١١١) و«شرح السنة» (١/ ٢١٧).

(٤) «نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم» (٩/ ٣٧٦٧).

(٥) «جامع العلوم والحكم» (٣٦٦، ٣٦٧) بتصرف يسير جدًّا.

فصارت الشهوة من نتائج الهوىٰ، ولذلك فإنَّ الهوىٰ عن الخير صادٌّ، وللعقل مضادٌّ؛ لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها، ويظهر من الأفعال فضائحها، ويجعل ستر المروءة مهتوكًا، ومدخل الشر مسلوكًا. ولما كان الهوىٰ غالبًا، وإلىٰ سبيل المهالك موردًا، جعل العقل عليه رقيبًا مجاهدًا، يلاحظ عثرته، ويدفع بادرة سطوته، ويدفع خداع حيلته، وذلك لأن سلطان الهوىٰ قوي، ومدخل مكره خفي»[(١)].

قال بعض أهل العلم: «كُنْ لهواك مسوفًا[(٢)]، ولعقلك مسعفًا[(٣)]، وانظر إلىٰ ما تسوء عاقبته، فوَطِّنْ نفسك[(٤)] علىٰ مجانبته، فإن ترك النفس وما تهوىٰ داؤها، وترك ما تهوىٰ دواؤها، فَاصْبِرْ علىٰ الدواء كما تخاف من الداء»[(٥)].

وقال آخر: الهوىٰ مَطيَّة الفتنة، والدنيا دار المحنة، فانزل عن الهوىٰ تَسلم، وأعرض عن الدنيا تَغنم، ولا يغرنك هواك بطيب الملاهي، ولا تفتنك دنياك بحسن العواري، فمدة اللهو تنقطع، وعاريَّة الدهر ترتجع، ويبقىٰ عليك ما ترتكبه من المحارم، وتكتسبه من المآثم»[(٦)].



(١) «أدب الدنيا والدين» (٣٨- ٤٥)، بتصرف يسير جدًّا.

(٢) «مسوفًا»: مماطلًا، ولا تجبه إلىٰ ما يريد.

(٣) مسعفًا مسرعًا إلىٰ إجابة طلبه.

(٤) وَطِّن نفسك: هيئها واجعلها مستعدةً للبعد عمَّا تكون نتيجته غير مستحبة.

(٥) «أدب الدنيا والدين» (٣٦).

(٦) «أدب الدنيا والدين» (٤١).

الفصل الثالث

أسباب مرض اتباع الهوى وعلاجه

١. التعصب الأعمىٰ يؤدي إلىٰ اتباع الهوىٰ:

فَمِنْ مظاهر اتباع الهوىٰ التي نراها الآن من بعض الناس: أَنْ ترىٰ الواحد منهم متذبذبًا غير ثابتٍ من فرقةٍ إلىٰ فرقةٍ، يسير مع هؤلاء مرةً، ومع هؤلاء مرةً، أو يكون النص أمامه واضحًا بَيِّنًا، أو يكون الإجماع منعقدًا علىٰ مسألةٍ ما، ثم لا يتبع ذلك، وهذا بلا شكٍّ من اتباع الهوىٰ، بل إِنْ لم يكن هذا هو اتباع الهوىٰ، فلا ندري ما اتباع الهوىٰ! ولذلك سمىٰ أئمتنا أهل البدعة بأهل الأهواء؛ لأنهم يتبعون هواهم.

ومن أكبَر الأسباب التي تُوقِعُ المرء في ذلك، وتجعله لا يتجرَّد للحق: ما يكون في قلبه من محبَّة لبعض الأشخاص من أهل العلم، ونحن لا ندعو إلىٰ كره المشايخ؛ لأنهم بالفعل أهلٌ أن يحبوا، ولكن يجب التفريق بين محبة الشيخ، وبين ترك اتباعه عند مخالفته الحق، ولابد من عدم تقديم اتباعهم علىٰ اتباع الشرع، فالذي أوقع الأمة في بدعة التعصب المذهبي المقيتة هو مثل هذه الأمور، فمَن قال: «إن الحب يعمي ويصم»، صدق بالفعل، وهذا الذي نجده في الساحة المصرية الآن، فتجد المرء -مثلًا- يسمع للشيخ، وقلبه مُفعمٌ بحبه، أو بكرهه، فيصبح الذي يوجهه في هذه الحالة ما في قلبه من حبٍّ أو كُرْهٍ، لا ما يقوله هذا المرء من كلام الله عَزَّوَجَلَّ، أو كلام رسوله ﷺ، أو تجد المرء -مثلًا- من فرط محبته للشيخ، يغلف اتباع الهوىٰ بغلاف الشريعة، فيقول: شيخي أعلم بالدليل مني، أو يقول: شيخي نقل كذا وكذا عن شيخ الإسلام ابن تيمية. ويكون نقل شيخه عن شيخ الإسلام -مثلًا- غير أمينٍ، وخالف

كل الضوابط التي وضَعها أهل العلم للنقل، وصاحبنا هذا يعلم، ومع ذلك يظل يتبعه في ذلك، ويسير وراء هواه من أجل شيخه، وهذه ظاهرةٌ مستفحلةٌ بيننا الآن، وفيها من الخطورة الكثير والكثير.

لذلك، لما يحدث نقاشٌ بيننا في بعض المسائل العقدية مثلًا، تجد اتباع الهوىٰ أوضح من شمس النهار، فتجد -مثلًا- مسألة أنَّ الإيمان قول وعمل فيها إجماعٌ من أهل السنة والجماعة نقله أكثر من واحدٍ من أكابر أهل العلم، ثم يأتي مَن ينافح ويدافع عن أن العمل خارجٌ عن مُسمَّىٰ الإيمان، ومجرد كلامه أصلًا في المسألة لا يصح، كذلك بعض القضايا العقدية أيضًا عند المؤسسات الرسمية، تجد إجماع السلف -أي: أهل القرون الثلاثة المفضلة حتىٰ سنة ٢١٨ من الهجرة- علىٰ أنَّ صفات المولىٰ ﷻ نثبتها، كما أثبتها لنفسه جلَّ وعلا، وأثبتها له نبيُّه ﷺ في السنة الصحيحة من غير تكييفٍ، ولا تمثيلٍ، ومن غير تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، ومع ذلك تجد مَن يتكلم في أنها لابد أن تؤول حتىٰ ننزه المولىٰ ﷻ كما ينبغي، وهذا -بلا شكٍّ- اتباع للهوىٰ.

وكذلك أيضًا حينما يأتي كلام المتقدمين كابن حجر والسفيانين وابن حزم وغيرهم من أهل العلم ومن أهل القرون الثلاثة المفضلة، ويجمعون علىٰ أن أسماء الله ﷻ توقيفية علىٰ النص، ولا يجوز الاشتقاق بحالٍ، لا من الصفة، ولا من الفعل، ومع ذلك تجد مَنْ يُصِرُّ علىٰ الاشتقاق، وهذا أيضًا -بلا شكٍّ- من اتباع الهوىٰ.

لذلك، هذا المرض دقيق جدًّا، ولكي يكتشفه الإنسان، لابدَّ أن يتحلىٰ بمصداقيةٍ عاليةٍ، فإذا عرضت عليه القضية، وقد درسها عند العالِم الفلاني الحَبْر الفهامة، وحيد عصره، وفريد زمانه، ناصر السنة، وقامع البدعة، وسمع أدلةً أخرىٰ

من شيخٍ آخر لا يحبه، هنا يظهر أثر الهوىٰ، هل سينظر في أدلة المخالف بإنصافٍ أم سيعميه الهوىٰ ويصمه، بالذات في الأمور الخلافية التي تُثَار بين الحين والحين، ولن يستطيع أحدٌ أن يحكم علىٰ المرء إلا نفسه.

لذلك، لابدَّ أن يختلي كلٌّ منَّا بنفسه بين الحين والحين لينظر: هل عنده ميلٌ واتباعٌ للهوىٰ أم لا، والفرقُ بين الأمرين دقيقٌ، لن يعرفه إلا الشخص نفسه، فاتهم نفسك قبل فوات الأوان؛ لأن الإشكال أن يكون المرء متلبسًا بهذا المرض الخطير، ثم يأتي الشيطان فيغلفه بغلاف الشريعة، فإن أعانك الله واستطعت أن تتجرد، وتفرق بين الحق والباطل، فستفلح إن شاء الله تعالىٰ؛ لأنَّ الواقع الآن في مصر أنه قَلَّ مَن يَسلم من اتباع الهوىٰ.

٢. الحرص علىٰ الدنيا يؤدي إلىٰ اتباع الهوىٰ:

قال الله ﷻ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

وقد اتَّفقت كلمة أهل التفسير علىٰ أن هذا الرجل الذي قصَّ علينا ربُّنا حكايته هو من بني إسرائيل، وأنَّ الله ﷻ قد آتاه من الآيات الواضحات والبينات ما يجعله يعبد الله ﷻ، ويقرُّ له ﷻ بالوحدانية والربوبية. وقال بعض أهل التفسير: إنه علم اسم الله الأعظم، وسمَّاه ابن عباس وغيره: بلعام بن باعوراء، وإن كان الاسم غير مُهمٍّ لنا.

وقصَّة هذا الرجل أنه كان من بلاد كنعان التي أمَر الله ﷻ نبيه وكليمه موسىٰ بن

عمران أن يدخلها، كما جاء في قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾ [المائدة: ٢١]، فلمَّا كان نبي الله موسىٰ علىٰ مشارف البلد، علم أهلها بذلك، فاستغاثوا بهذا الرجل، وطلبوا منه بأنه رجل صالح بينهم أن يدعو علىٰ موسىٰ، فلمَّا اطلع هذا الخبيث الهالك علىٰ ما عنده من علمٍ، عَلِمَ أن هذا لا يمكن أن يحدث؛ لأن موسىٰ نبي ورسول مكلف من عند الله، ومؤيد بالوحي، ولا يحل لأحدٍ أن يدعو عليه، ولا أن يصده عمَّا أمره به ربه، فأخبر قومه بذلك، وكان بذلك الأمر قد أصبح واضحًا لهذا الرجل، والأدلة عنده صريحة صحيحة دالَّة علىٰ أن موسىٰ علىٰ حقٍّ، ونبي مرسل من الله عَزَّوَجَلَّ، فكان ينبغي عليه حينئذٍ أن يخضع للحقِّ، بل أن يكون مع موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ في صفوفه، ولكن قومه لمَّا أخبَرهم بما عنده من عِلْمٍ، تعاملوا معه بطريقةٍ أخرىٰ، فعرضوا عليه شيئًا من متاع الدنيا، وكان هو من الداخل عنده القابلية لذلك، فرَكَن إلىٰ الدنيا، وحدث ما حدث[1]، فكل مَن يتبع الهوىٰ يفعل ذلك طلبًا لحظوظ النفس، وحبًّا في الدنيا، ولأنه مال وركن إلىٰ الأرض، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾، فجعل خلوده إلىٰ الأرض سببًا في اتباعه الهوىٰ.

٣. تعلق القلب بالإجازات الشرعية قد يُوقِعُ المرء في المحظور:

فمن الملاحظ في أيامنا هذه: ظهور موجة قد تُوقِعُ المرء فيما نتحدث عنه من محظوراتٍ، وهي الحرص علىٰ طلب الإجازات من المشايخ، وهذا وإن كان

---

(١) لذلك نحذر الإخوة في الجهات الرسمية والأوقاف أنهم لابد أن ينسوا أي منصب دنيوي، وألا يضعوه أمام أعينهم أبدًا، فإن طريقنا غير هذا الطريق، وبالطبع ليس معنىٰ هذا الكلام الطعن في الآخرين، وأن مَن تصدر للفتوىٰ مقابل راتبٍ من الدولة ليس من أهل الصلاح، بل نحن نقول: إنه يؤجر إن شاء الله، وله الخير كله، ولكن لا ينبغي الحرص علىٰ هذه المناصب، والسعي إليها.

مشروعًا علىٰ الجملة، ومما تثبت به قدمُ المرء في العلم، وأيضًا له أصل عند السلف إلا إنه قد تغيَّر في زماننا هذا وازداد، مع أنه ليس الأساس، ثم إنَّ هذا الأمر يوقع كثيرًا ممن يطلبه في محظوراتٍ، والهدف من هذا الكلام فقط ألا يحمل المرء حرصه علىٰ الإجازة أن يداهن في دينه، وهذا الكلام من خلال الواقع، فينبغي علىٰ المرء أن يعلم القدر الحقيقي لهذه الإجازة، فإنها لن تدخلنا الجنة مثلًا، كما أنَّ هذه الإجازة إنما هي ورقةٌ فاعليتها وقت إعطاء الشيخ لها، ولا يكون لها وزنٌ بعد ذلك، فمثلًا: إذا أعطاك الشيخ إجازةً في تدريس «سنن أبي داود»، ثم بعدها بلحظاتٍ أنساك الله عَزَّوَجَلَّ هذه المعلومات، فلن تنفعك الورقة حينئذٍ، فالإجازة التي مرَّ عليها عشر سنين مثلًا، لا ندري ما حدث لصاحبها في هذه الفترة، لذلك عند التدقيق في الأمر ينبغي ألَّا يكون شغلك الشاغل طلب هذه الإجازات، وأن يكون هدفك أعلىٰ وأسمىٰ من ذلك، فالمسلم الصادق يريد أن يتعلم ليعمل، فإن تعلم بإخلاصٍ في النية لله عَزَّوَجَلَّ، ثم ظهر أثر هذا العلم علىٰ سلوكه، فسيوضع له القبول في الأرض إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ، وإخلاصه وإتقانه للمادة العلمية سيفرضه علىٰ رأس كل موجودٍ من أهل الأرض، ولنا أسوةٌ في ذلك وهو العلَّامة الألبانيُّ عليه رحمة الله، فهذا الرجل نحسبه -والله حسيبه- قد وُضِعَ له القبول في الأرض لرسوخه في العلم، وإخلاصه لله عَزَّوَجَلَّ، نحسبه كذلك، فنحسب أنه لا يبغضه إلا حاقدٌ أو حاسدٌ مهما كان الاختلاف معه في المسائل، رحمه الله تعالىٰ، ونضَّر وجهه.



الفصل الرابع

علاج اتباع الهوى

الخطوة الأولىٰ -كما هو معلومٌ- للتخلُّص من أي مرضٍ: التخلص من أسبابه، فالتخلص من السبب الأول يكون بتجريد المتابعة للنبي ﷺ، والاعتقاد الجازم أن المسلم ليس له متبوع بإطلاق إلا النبي ﷺ.

أيضًا، مما يجب اعتقاده: هو أن الحق لا يُعرَف بالرجال، ولكن اعرف الحقَّ، تعرف أهله.

نهض الحارث بن حوط الليثي بعد الجمل إلىٰ عليِّ بن أبي طالب وهو علىٰ المنبر، فقال: أتظن أنَّا نظن أن طلحة والزبير كانا علىٰ ضلالٍ؟! فقال علي: يا حار، إنه ملبوسٌ عليك، إن الحق لا يُعرَف بالرجال، فاعرف الحقَّ، تعرف أهله[(١)].

ومما يُعِينُ علىٰ التخلُّص من مرض اتباع الهوىٰ:

١- التفكر في أن الإنسان لم يُخْلق للهوىٰ، وإنما هيئ للنظر في العواقب والعمل للآجل، فلو كان نَيل المشتهىٰ فضيلة، لَما بخس الإنسان -وهو سرف في حظه- منه، وزاد عن حظ البهائم، وفي توفير حظ الآدمي من العقل، وبخس حظه من الهوىٰ، دليلٌ علىٰ فضل هذا وذاك.

٢- التفكر في عواقب الهوىٰ، فَكَمْ فَوَّت من فضيلةٍ، وكم قد أوقع في رذيلةٍ، وكم من زلةٍ أوجبت انكسارَ جاهٍ، وقبحَ ذكرٍ مع إثمٍ، غير أن صاحب الهوىٰ لا يرىٰ إلا الهوىٰ.

---

(١) تلبيس إبليس - الكتاب العربي (ص١٠١).

٣- تصور العاقل لانقضاء غرضه من هواه، ثم يتصور مدىٰ الأذىٰ الذي يحصل له عقب اللَّذَّة، فإنه حينئذٍ سيرىٰ أنَّ ما حصل له من الأذىٰ يربو علىٰ الهوىٰ أضعافًا مضاعفةً.

٤- تصور عاقبة ذلك في حقِّ غيره، فعندئذٍ سيرىٰ ما يعلم به عيب نفسه إن هو وقف في ذلك المقام، وارتكس في هذه الآثام.

٥- التفكر في حقيقة ما يناله باتباعه هواه من اللذَّات والشهوات، فإنَّ العقل سيخبره أنه ليس بشيءٍ، وإنما عين الهوىٰ عمياء.

٦- التدبُّر لما يحصل له من عز الغلبة إن ملك نفسه، وذل القهر إن غلبته، فما من أحدٍ غلب هواه إلا أحسَّ بقوة العزِّ، وما من أحدٍ غلبه هواه إلا وخز في نفسه ذل القهر.

٧- التفكر في فائدة مخالفة الهوىٰ من اكتساب الذِّكر الجميل في الدنيا، وسلامة النفس والعرض والأجر في الآخرة، ثم يعكس فيتفكر لو وافق هواه في حصول عكس ذلك علىٰ الأبد، مَنْ كان، يكون يوسف لو نال تلك اللذة؟ فلمَّا تركها وصبر عنها بمجاهدة ساعةٍ، صار مَن قد عرفت[1].

ومما يُعِينُ علىٰ ذلك: ما يكون في قلب المرء من اعتقادٍ، ومعلومٌ أنَّ اعتقادنا لابد أن يؤثر في سلوكنا، فإن لم يتأثَّر السلوك، فليس لهذا الاعتقاد أي منفعةٍ أو بركةٍ، فمثلًا: نحن نعتقد أنَّ كلَّ ما قدَّره الله لنا سيكون، وأن أرزاقنا محددة كتبت لنا في الأزل، وأنه يستحيل أن يأتينا إلَّا ما قُدِّر لنا، ويستحيل أيضًا ألَّا يصيبنا ما قُدِّر لنا، وعند الطبراني بسندٍ صحيحٍ -نصَّ علىٰ ذلك الألبانيُّ في «صحيح الجامع» - عن

(١) «نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم» (٩/ ٣٧٥٥).

أبي أُمَامة الباهليِّ، أن رسول الله ﷺ، قال: «**نفث روح القدس** -أي: جبريل- **في روعي** -والنَّفث في الروع نوعٌ من أنواع الوحي- **أن نفسًا لن تخرج من الدنيا** -أي: تموت- **حتىٰ تستكمل أجلها، وتستوعب رزقها، فأَجْملوا في الطلب، ولا يحملنَّكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعصية الله، فإنَّ الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته**»[(١)].

فإذا اعتقدنا ذلك، فَلِمَ -إذًا- نعطي الدَّنيَّة في الدين، ونجامل في ديننا مثلًا، هل لأجل شيءٍ لن يأتي إلا بقدر الله عَزَّوَجَلَّ؟! فتذكَّر مثل هذه الأمور يكون فيه علاج هذا المرض الخطير إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ.



(١) أخرجه الطبراني (٧٦٩٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠٨٥).

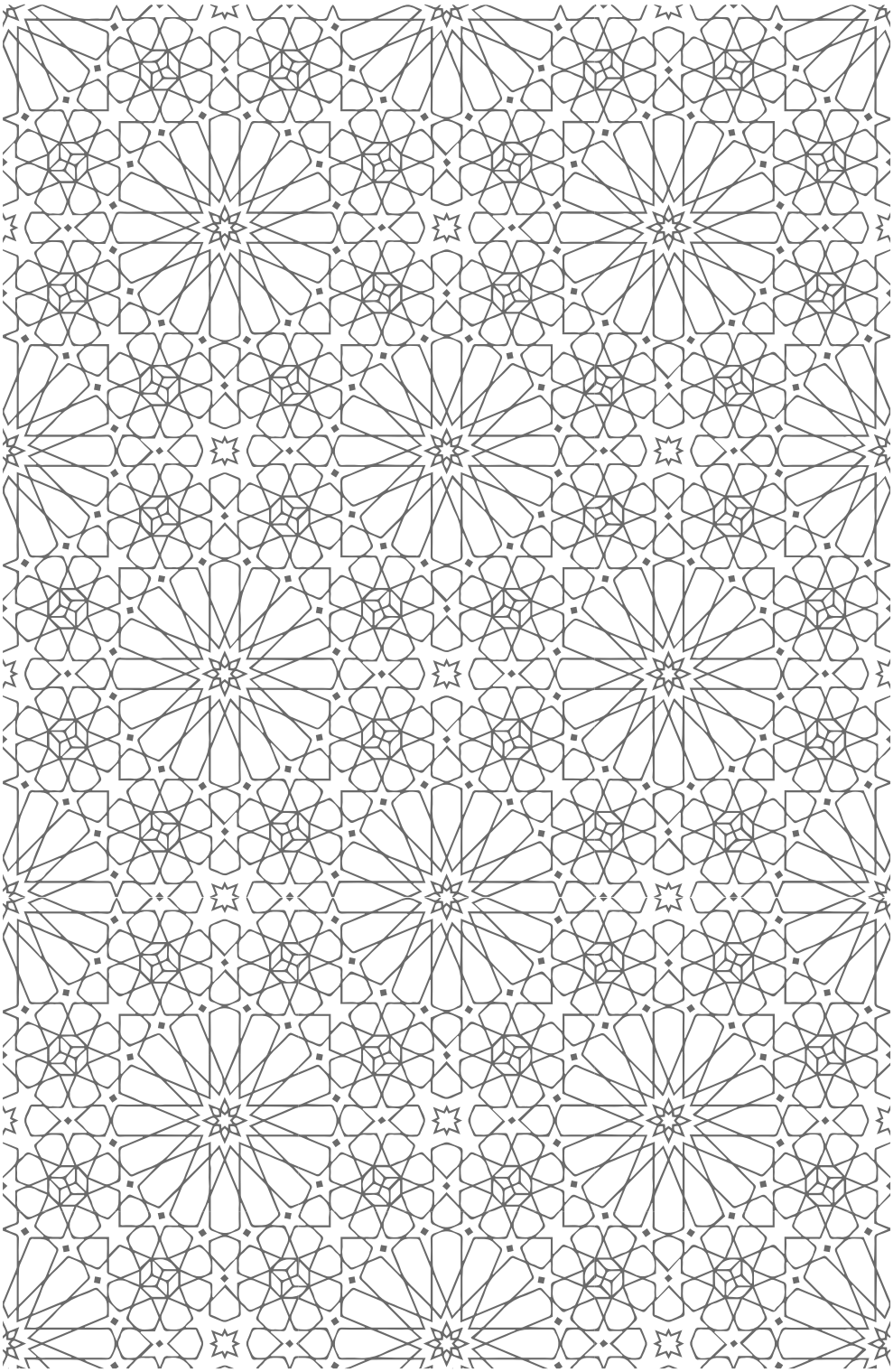
الباب الثانـي عشر

طول الأمل

وفيه فصلان:

الفصل الأول: تعريف طول الأمل وأسبابه.

الفصل الثاني: علاج مرض طول الأمل.





الفصل الأول

تعريف طول الأمل وأسبابه

أولًا: تعريف مرض طول الأمل:

عرَّف العلماء طول الأمل بأنه الاستمرار في الحرص علىٰ الدُّنيا، ومداومة الانكباب عليها مع كثرة الإعراض عن الآخرة، والمعنيُّ بالدنيا: هو ما يُحصِّله الإنسان من متاعها؛ سواء كان ذلك محسوسًا أو معنويًّا.

وكثيرٌ من الناس يهتمُّ بالمتاع المعنوي -كالمنزلة الاجتماعية، والمركز المرموق، وغير ذلك- أكثر من المتاع المحسوس، والسِّرُّ في ذلك أنَّ المرء بالمتاع المعنوي يتحصَّل علىٰ المتاع المحسوس، أمَّا العكس فقليل، فمثلًا: عند الكلام عن حرص المرء علىٰ المال والشرف، نجد أن الإنسان أشد حرصًا علىٰ الشرف؛ لأنه يتحصَّل منه علىٰ المال، أما الحصول علىٰ الشَّرف عن طريق المال، ففيه شيءٌ من الصُّعوبة.

طول الأمل منه المحمود، ومنه المذموم:

لا بدَّ من التَّمييز بين طول الأمل المحمود، وطول الأمل المذموم، وفي تبيين ذلك يقول الحافظ ابن حجر -عليه رحمة الله تعالىٰ- في «فتح الباري»: «وفي الأمل سرٌّ لطيف؛ لأنه لولا الأمل ما تهنَّىٰ أحدٌ بعيش، ولا طابت نفسه أن يشرع في عملٍ من أعمال الدنيا، وإنما المذموم منه الاسترسال فيه، وعدم الاستعداد لأمر الآخرة، فمن سَلِمَ من ذلك، لم يكلف بإزالته»[(١)].

---

(١) «فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٢٣٧).

وبالفعل، لولا الأملُ عند الواحد منَّا، لما اشترىٰ ثوبًا جديدًا، ولا سيارةً، ولا بنىٰ بيتًا، ولا تزوج، ولا عمل، ولا غير ذلك، فإن كان طول الأمل علىٰ هذا القدر الذي يُعِينُ المرء علىٰ فعل هذه الأشياء، فلا بأس به، ولكن المذموم أن يستمرَّ في طول الأمل، ويحرص عليه حتَّىٰ يكون الإعراض عن الآخرة، فلا بدَّ أن تسير الأمورُ متوازنةً، ففي نفس الوقت الذي يسعىٰ فيه المرء في دنياه، ويتمتَّع بمتاعها بالضوابط الشرعية، لا بدَّ ألَّا ينسىٰ الآخرة، ولا أن يُعرض عنها.

ونذكر في البداية قصةً تُبيِّن مدىٰ حذر السلف من طول الأمل، وحرصهم علىٰ التخلص منه، وهي «أنَّ محمد بن أبي توبة ذهب مرةً إلىٰ معروفٍ الكرخي زيارةً له، فحضرت الصلاة، فقال معروف الكرخي لأبي توبة: صَلِّ بنا. فقال بعد أن ألحَّ عليه وهو يتأبَّىٰ: إن صلَّيت بكم هذه الصلاة، لا أُصلِّي بكم الثانية.

فقال معروفٌ: نعوذ بالله من طول الأمل، فإنَّه يمنع خير العمل»[(١)]، فانظر كيف اعتبر تحديث النفس بالحياة حتىٰ تصلي صلاةً أخرىٰ طولَ أملٍ.

ثانيًا: أسباب مرض طول الأمل:

قرَّر العلماء أنَّ الأسباب الَّتي تؤدي إلىٰ إصابة العبد بمرض طول الأمل أمران اثنان:

حب الدنيا: فمَن تعلَّق قلبه بالدنيا وشهواتها وملذَّاتها ومتاعها، عزَّ عليه أن يفارقها، فيمتنع لأجل ذلك عن التفكير فيما يقطعه عنها، أو يَحُول بينه وبين هذا التمتُّع، أي: يمتنع عن التفكير في الموت والآخرة، لذلك لا بدَّ أن يكون تمتُّعك بالحياة الدنيا فيه شيءٌ من البصيرة والفطنة، وألَّا تنجرف وراء الشهوات دون النظر في العواقب حتىٰ لا يَحُول ذلك الحب بينك وبين التفكير في الموت والآخرة.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٣٦١).

الجهل: والمعنيُّ بالجهل هو عدم الوقوف علىٰ حقيقة متاع الدنيا، وحقيقة متاع الآخرة، فأنت ترىٰ في بعض الأحيان الرجل الكبير العاقل متعلقًا بشهوة لو كان عنده بعض عقلٍ، ما تعلَّق بمثلها، وهذا الأمر نتيجة لما عنده من الجهل، ولو أنه نظر إلىٰ المتاعين (متاع الدنيا ومتاع الآخرة) بشيءٍ من الإنصاف والعمق والبصيرة، لكان من المستحيل أن يُفكِّر في شيءٍ من متاع الدنيا، وَالوقوفُ علىٰ هذه الحقائق يحتاج إلىٰ بسطٍ شديدٍ كما سيأتي.

الفصل الثاني

علاج مرض طول الأمل

علاج طول الأمل في أمرين رئيسين، هما:

معرفة الفرق بين الغاية والوسيلة:

هذا الفرق بين الغاية والوسيلة إن اتَّضح عند الواحد منَّا، فسيستريح في الدنيا والآخرة إن شاء الله تعالىٰ، فأمَّا الغاية، فهي هدف محدد أسعىٰ إليه، لا يتغيَّر، ولا يتبدَّل، ويُوصَف وصفًا واحدًا؛ إما بحلٍّ أو بحرمةٍ، ولكي يحقق المرء هذا الهدف الذي يسعىٰ إليه، يستخدم وسائل معينة للوصول إليه، والعقل والمنطق يقضيان بأن أي وسيلةٍ لا تؤدي إلىٰ الهدف، لا ينبغي أن يضيع المرء فيها وقته، وعليه أن يبحث عن غيرها، كذلك إنْ أوصلته الوسيلة إلىٰ الهدف يَتْركها؛ لأنه لا يحتاج إليها بعد، فمثلًا: الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ الذي هو ذروة سنام الإسلام وسيلة -كما قال العلماء- وليس غايةً، وإنما الغاية هي إقامة شرع الله عَزَّوَجَلَّ، وتعبيد الناس لربِّهم، فلو تحقَّقت الغاية من الجهاد، توقَّف القتال، بالطبع مع كوننا علىٰ أُهْبة الاستعداد إذا اختلَّت الغاية في أيِّ وقتٍ.

كذلك أنا وأنت في حياتنا الدُّنيا لا بد أن نُحدِّد غايتنا وهدفنا فيها، وأيضًا الوسائل التي نستعين بها لنحقق تلك الغاية، والهدف الذي من أجله أتينا إلىٰ هذه الدنيا -كما لا يخفىٰ علىٰ أحدٍ- هو أَنْ نعبد الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّنا سنخرج من هذه الدنيا بقضاء الله وقدره، كما جئنا إليها بقضائه وقدره، أمَّا الوسائل المساعدة علىٰ تحقيق هذه العبادة، فمنها الزواج -مثلًا- والإنجاب والتعلُّم والعمل وبناء البيت والأكل

والشرب واللبس، وغير ذلك، فكلُّ هذا من الوسائل المشروعة، فمثلًا: إن قام رجلٌ بعمل مشروعٍ وهو في ذهنه أنَّ فعله هذا تمهيد لكي يعبد الله ﷻ متفرغ الذهن، فهذا جيد، فإن سقط المشروع فلا يحزن؛ لأنه كان مجرد وسيلةٍ، وإنما عليه أن يبحث عن وسيلةٍ غيرها.

وفي هذه القضية قصة عن رجلٍ من الأثرياء ميسوري الحال، وكان ممن لا يفهمون حقيقة الدنيا كما ذكرناها، فبينما هو يسير وشاطئ نهرٍ، وجد رجلًا فقيرًا معدمًا معه صنارة يصطاد بها، فسأله: ما الذي يفعله؟ فأخبره أنه يصطاد لكفِّ حاجة عياله، فأخذ هذا الثريُّ يُخْبره أنه علىٰ خطأ، وأنه عليه أن يُطوِّر من نفسه، فيشتري شبكةً مثلًا، ثم مركبًا، ثم سفينةً وثلاجات ومصانع، ثم يُصدِّر الأسماك إلىٰ الخارج، وغير ذلك، والفقير يسمع كل هذا ويقول: ثم ماذا؟، حتىٰ انتهىٰ الثري من اقتراحاته، فقال له: ثم تصبح سعيدًا. فقال له الفقير: فأنا الآن سعيد، فَلِمَ أفعل كل هذا؟

فالخلط بين الغاية والوسيلة، واعتبار الوسيلة غايةً، يأتي منه الخلل، فتجد مَن هدفه جَمْع المال، ومَنْ هدفه الأكل، ومَنْ هدفه الزواج والإنجاب، ومَنْ هدفه غير ذلك من أمور الدنيا، فهؤلاء يهتزُّون إنْ ضاع منهم شيءٌ من الدنيا، أما صاحب الهدف العالي فمهما سقط منه من الوسائل، أو حدث له مصيبةٌ، لا يهتز، ولا يحزن، فمَن تأثر بذهاب أي شيءٍ من الدنيا، لا يفهم الفرق بين الغاية والوسيلة، ولو فهم أن الغاية والهدف هي تحقيق العبودية لله عَزَّوَجَلَّ لاستراح، وهكذا كانت نظرة الصَّحابة للدُّنيا، فاستراحوا وأراحوا، أنهم أتوا إلىٰ الدنيا ليعبدوا الله عَزَّوَجَلَّ لفترةٍ محدودةٍ علىٰ أي حالٍ كانوا، ثم يرحلون، والمهمُّ أن يكون المرء في مراحل دنياه محققًا للغاية، وهي العبادة، أما الوسائل فإن تعطَّلت إحداها، أخذ بأخرىٰ، أما تعطل الهدف لأجل الانشغال بالوسائل، فهذا مسلكٌ خاطئٌ.

العلم بحقيقة متاع الدنيا، وحقيقة متاع الآخرة:

وهذا هو قُطْب الرحىٰ، فالعلاج الأمثل لمرض طول الأمل: أن نعقد مقارنةً بالأدلة الشرعية، وبأدلة الواقع، نُوضِّح فيها الفرق بين الدنيا والآخرة(١)، ثم نرىٰ بعد ذلك أي المتاعين ينبغي أن نسعىٰ خلفه ونطلبه، ولو أنك عرفت الدنيا ومتاعها علىٰ الحقيقة، لَمَا نظرت إليها مطلقًا إلا بقدر ما تسدُّ به الرمق، وتستعين به علىٰ الغاية التي من أجلها خُلقت، أما النظرة السطحية للشهوات دون النظر في العواقب والحقائق، فهي التي تُوقِعُ المرء.

لذلك، ينبغي علينا أن ندرك بعض الحقائق لنعلم حقيقة الدنيا، وحقيقة الآخرة، ثم نختار ما يُمْليه علينا العقل الصريح، فَإعمالُ العقل إنما يكون في مثل هذه الأمور(٢)، فإذا تبيَّن من هذه المقارنة الفرق الشاسع بين الدنيا والآخرة، وما عليه

---

(١) وهذا -بالطبع- إنما يقال لمَن عنده يقين واعتقاد جازم بالآخرة والجنة والنار والميزان والقنطرة ونشر الصحف وتطايرها، وغير ذلك.

(٢) فالله ﷻ خلق لنا العقل، وأمرنا أن نستخدمه في أمور معينة، وألا نستخدمه في أمورٍ أخرىٰ، فعلىٰ سبيل المثال قال الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩١]، بينما حظر علينا تتبع الغيب، والخوض في كيفيته، وجل البشرية يفعلون العكس، عياذًا بالله، فيستخدمون العقل فيما لَمْ يأمرهم الله بالتفكُّر فيه، ويتركونه فيما أمَرهم باستخدام العقل فيه، فتذكر دائمًا -كما قال العبد الصالح جعفر الصادق عليه رحمة الله- أن الله ﷻ أراد بنا أشياء، وأراد منا أشياء، فأما الذي أراده بنا فأخفاه عنا، وأما ما أراده منَّا، بيَّنه لنا، فإذا انشغل الإنسان بما أخفاه عمَّا بيَّنه، فإنه -ولا شك- علىٰ ضلالٍ، فإن ما أراده منَّا ليس لنا دخل به؛ لأنه في اللوح المحفوظ لا يطلع عليه أحدٌ، مثل ما كتب للمرء من الرزق، ومن العمر، وكونه كتب في الأشقياء أم في السعداء، والتفكير في هذا إنَّما هو من العبث حتىٰ وإن أعملت عقلك فيه بكلِّ ما أوتيت، فنحن -مثلًا- إذا بحثنا بكل ما أوتينا من العلوم الكونية عن وقت قيام الساعة، فلن نصل إلىٰ شيءٍ، ولكان هذا عبثًا، وكذلك أخفىٰ الله ﷻ عنَّا هذا الأمر، ولو =

هذه الدنيا من ذلٍّ ومهانةٍ، ثم ظل المرء منَّا مستمرًّا في وَحْلها، ولا ينتبه إلىٰ الآخرة، فهذا ليس له عقل أصلًا، بل إنَّه -كما سيتَّضح لنا- لا تصحُّ هذه المقارنة أصلًا؛ لأنها من باب ما قاله الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قلت إنَّ السيف أمضىٰ من العصا

وإليك هذه المقارنة بين الدنيا والآخرة فيما يأتي إن شاء الله تعالىٰ.

مقارنة بين الدنيا والآخرة:

أوجه هذه المقارنة علىٰ الإجمال هي:

١) الدنيا فانية، والآخرة باقية.

٢) الدنيا تُشتِّت الهمَّ، وتفرِّق الذهن، والآخرة علىٰ العكس.

٣) الدنيا حقيرة ذليلة مهينة، ومع ذلك لا يُحصِّل الإنسان منها ما يريد.

٤) نعيم الدنيا يشاركنا فيه البرُّ والفاجر حتىٰ البهائم العجماوات.

٥) الدنيا من شؤمها وبلائها أنك إن حصلت منها شيئًا -ولو من حلالٍ- أنقص من درجتك عند الله.

٦) لذائذ الدنيا مسبوقة بألمٍ وتعبٍ، ومتبوعة بأذًىٰ وقذرٍ.

أولًا: الدنيا فانية، والآخرة باقية:

ومجرد هذا العنوان يكفي لبيان المقصود، والمعنيُّ بالدنيا الفانية: إما دنياك أنت، أو الدنيا كلها، فكلاهما فانٍ، فأما دنياي فمتاعها فانٍ؛ إما بأن يتركني، أو أن أتركه أنا، شئت أم أبيت، وكذلك الدنيا كلها بأرضها وسمائها فانية حين تقوم الساعة، وأما الآخرة ففيها إمَّا إلىٰ الجنَّة -نسأل الله ذلك- أو إلىٰ السَّعير -نعوذ بالله من ذلك-

= كان فيه خيرًا لأطلعنا عليه.

وهي باقيةٌ خالدةٌ، وهذه الحقيقة لا ينكرها أحدٌ من أصحاب العقول الصريحة حتىٰ مَنْ لا يؤمنون بالرسل؛ لأنَّ دلالة العقول الصريحة تقتضي أن تكون بعد هذه الدنيا دار أخرىٰ يتمُّ فيها العدل والقصاص بين الناس، ويرىٰ فيها الناس جزاء هؤلاء الظالمين الذين خَرجوا من الدنيا ولم يستوفوا جزاءهم، أما تفاصيل هذا الغيب، فموقوفةٌ علىٰ النَّصِّ.

وسبب كون الآخرة باقية: هو انعدام الموت فيها الذي هو سبب فناء الدنيا، ففي الآخرة سيموت هذا الموت، ففي «الصحيحين»، وعند الإمام أحمد عن أبي سعيدٍ الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتىٰ بالموت كهيئة كبشٍ أملح**[(١)] -والأملح هو الرمادي القاتم، أو ما غلب السواد فيه، وفي روايةٍ عند مسلمٍ: فيُوقَف

(١) وإنما قولنا في مثل هذا الحديث أن نقول: هذا خبر يصدق، والله علىٰ كل شيء قادر، ولا نزيد، فالعقل الصريح لا يخوض في تفاصيل هذه الأمور؛ لأنه يعلم أنها من الغيب الذي لن يستطيع فهمه، لذلك تجد -مثلًا- القرضاوي قد اعترض علىٰ هذا الحديث بأن الموت عرض، وليس حسيًّا مع أن الحق أن نصدق ما أخبرنا به الشرع، وهذا القول تطرق للعقل إلىٰ ما ليس له الحق أن يتطرق إليه، والعجيب والمؤسف أن كل مَن يدعي أنه من أرباب العقول الذكية في عصرنا هذا يعطلون عقولهم في الأمور الكونية، ولا يحلوا لهم تحكيم العقل إلا في النصوص الشرعية، حتىٰ صرنا أذنابًا للغرب، ولو كانوا صادقين في دعواهم، لكان همُّهم نفع الناس، ونفع أنفسهم بإعمال عقولهم في الأبحاث والاختراعات الكونية بدلًا من الطعن في الدين، والاستماع إلىٰ وحي الشياطين، وهذا المنهج هو الفكر الاعتزالي الذي ينتشر بيننا تحت شعار العلم وإعمال العقل، كما قال طه حسين: لماذا أذم المعتزلة، وأمدح أهل السُّنة، والمعتزلة عندهم فكر؟ مع أن من يتتبع فكر الاعتزال يجد فيه تناقضًا كثيرًا، فهم لا يتبعون مسلكًا واحدًا، فيعملون عقولهم في أشياء، ويسلمون بأشياء أخرىٰ بهواهم، هذه الأمور ومثلها ينبغي علىٰ الواحد فينا أن يستغل الفرص للتنبيه عليه، فعلىٰ الواحد فينا أن يكون له هدف محدد في تثبيت أمرٍ ما، مثل: تعظيم النص الشرعي، أو توقيف العقل عند حدِّه، وهكذا، فإن كان يلقي درسًا، أو محاضرةً، يقحم الكلام عن هذا الأمر في الموضوع أيًّا كان -من خلال لباقته، وحسن تصرفه- فيتكلم فيه ولو من بعيدٍ، فالأساس هو تثبيت المنهج عندك وعند الناس.

بين الجنة والنار- **فينادي منادٍ: يا أهل الجنة، فيشرئبون** -أَيْ: يرفعون أعناقهم- **وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلُّهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلُّهم قد رآه، فيذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة، خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار، خلودٌ فلا موت»**، ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم: ٣٩][(١)].

وفي «صحيح مسلم»، وعند الإمام أحمد عن المستورد بن شداد أن النبي ﷺ قال: «**والله، ما الدُّنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدُكُم إصبعه هذه** -وأشار يحيىٰ وهو راوٍ من رواة الحديث بالسبَّابة- **في اليمِّ** -أي: في البحر- **فلينظر بِمَ يرجع**»[(٢)]، فإنه لا يرجع بشيءٍ، ونؤكد أنَّ هذا الحديث خبَر لا بد لاستقراره في القلب من آثارٍ علىٰ الجوارح.

وفي «مسند الإمام أحمد»، وصحَّحه الألبانيُّ عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ يدخل الجنَّة** -نسأل الله إياها- **ينعم ولا يبأس، لا تبلىٰ ثيابه، ولا يفنىٰ شبابه، إنَّ في الجنة ما لا عين رأت، ولا أُذُن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشرٍ**»[(٣)]، والأفعال المضارعة في الحديث للاستمرارية.

وقد ذكر أهل العلم أن كل المخلوقات تفنىٰ إلا ثمانيةً، هم: الجنة والنار، اللوح والقلم، الكرسي والعرش، الأرواح وعجب الذنب[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

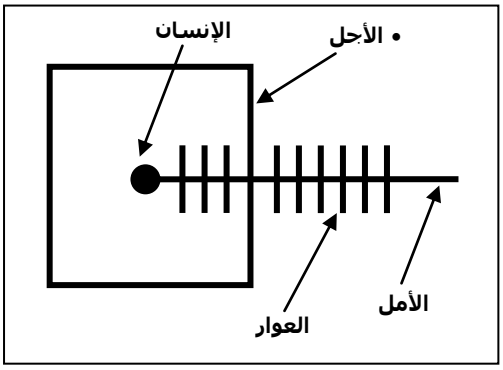
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٥٨).

(٣) أخرجه أحمد (٩٢٧٩)، إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم، وصححه الشيخ أحمد شاكر.

(٤) راجع «توضيح المقاصد شرح الكافية الشافية نونية ابن القيم» (١/ ٩٦).

وقال الإمام الطحاوي: والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدًا، ولا تبيدان، وقد قبل هذا الكلام أهل السنة بالإجماع[(١)].

أَجَلُ الإنسان أقرب إليه من أمله:



في «صحيح الإمام البخاري» من حديث عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: خطَّ النبي ﷺ خطًّا مربعًا -أي: مربع متساوي الأضلاع- وخط خطًّا في الوسط خارجًا منه، وخط خططًا صغارًا إلىٰ هذا الذي في الوسط، من جانبه الذي في الوسط -كما في الشكل التوضيحي- وقال: «**هذا الإنسان، وهذا أجلُهُ محيط به** -أو: قد أحاط به- **وهذا الذي هو خارج: أملُهُ** -فهو طويلٌ- **وهذه الخططُ الصغار: الأعراضُ** -أي: الابتلاءات في المجالات المختلفة- **فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا**»[(٢)].

وهذا الحديث لنفهم حقيقة ما نحن فيه، حتىٰ لا نحزن من أي شيءٍ قد يقع لنا في الدنيا، فالمرء يعيش في الدُّنيا بين أمرين: بين أجلٍ قد أحاط به، وأعراضٍ تنهش فيه، فإن أخطأته الأعراض كلها -وهذا مستحيلٌ- أتاه الأجل، وقد أجمع أهل العلم قاطبةً

---

(١) ويعجز عقل المرء إن أراد أن يتخيل حياة خلودٍ ليس لها نهاية إلىٰ أبد الآبدين، وهذا الذي حدث مع مصطفىٰ محمود، فتكلم بأن الجنة والنار موجودتان بالفعل، ولكن بإعمال الفكر -علىٰ حد تعبيره- نجدها مجرد مرحلةٍ بعدها يعيد ربُّنا الكَرَّة من جديدٍ، فيخلق آدم من جديدٍ، وذرية له من جديدٍ، وهكذا تتعدد الآدمية، ولا أبدية للجنة أو للنار، وهذه هي عقيدة فناء الجنة والنار التي تخرب الأمة، وتزهدها في الآخرة؛ إذ إن كل ما يفنىٰ بسيط.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٧).

-كما ذكر الحافظ ابن حجرٍ- علىٰ أن أجَل الإنسان أقرب إليه من أمله؛ لأنَّ أمل الإنسان -في الغالب- لا حدَّ ينتهي إليه إلا مَن رحم الله، والمذموم من الأمل -كما مرَّ- هو ما يشغل الإنسان، ويكثر من إعراضه عن الآخرة.

وعند الترمذي بسندٍ صحيحٍ -نص علىٰ ذلك الألبانيُّ عليه رحمة الله- عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**هذا ابن آدم** -أي: عن نفسه ﷺ- **وهذا أجله**»، ووضع يده عند قفاه -أي: أنَّ أجله عند قفاه، أي: لا يبعد عنه كثيرًا- ثمَّ بسطها، فقال: «**وثم أمله، وثم أمله، وثم أمله**»[(١)]، أي: بسط النبي ﷺ يده، وأشار ليُبيِّن أنَّ أمل الإنسان بعيد جدًّا.

وعند الترمذي أيضًا بسند صحيح، وعند الإمام أحمد عن أبي سعيدٍ الخدري أن النبي ﷺ غرز بين يديه غرزًا -أي: عودًا- ثم غرز إلىٰ جنبه آخر، ثم غرز الثالث، فأبعده، ثم قال: «**هل تدرون ما هذا؟**». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**هذا الإنسان، وهذا أجلُهُ، وهذا أملُهُ، يتعاطىٰ الأمل يختلجه دون ذلك**»[(٢)].

فكل هذه النصوص الشرعية تدلُّ علىٰ أن أجل الإنسان أقرب إليه من أمله، ومعنىٰ ذلك: أن العاقل الكيِّس الفطن لا بد أن يهتم بما سيقع بعد أجله لا بأمله؛ لأن الأجل محدد سيأتي قبل الأمل.

الخوف من الأجل يدعو إلىٰ قصر الأمل:

كثيرٌ من الناس يعتقد أن الموت بعيد عنه لصغر سنه، أو شبابه، أو قوة بدنه، أو صحته، ويؤثر هذا الاعتقاد فيه مع كونه خطأً، وهذا خلل كبير ولا شك، والأدلة

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٣٤)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٣٤٦).

(٢) أخرجه أحمد (١١١٣٢)، إسناده جيد، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٤٢٨).

الشرعية والواقع حكموا بغير ذلك، لذلك لا بدَّ من تعديل هذه المعلومة، ومعرفة أنَّ الموت قد يأتي في أي وقتٍ، فإن استحضرت هذه المعلومات، وتصرفت من خلالها، انضبط سلوكك.

وهَذَا الذي أشار إليه نبيُّنا ﷺ في الحديث الذي عند الإمام البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أَخَذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: «**كُنْ في الدُّنيا كأنَّك غريب، أو عابر سبيل**»(١)، فإن اعتبر المرء نفسه في دار غربة -طالت مدة مكوثه فيها أم قصرت- فإنَّ تصرُّفاته ستتناسب مع هذه المدة، وكلما قصرت المدة، كانت تصرُّفاته محسوبةً أكثر، فمثلًا: من يذهب إلىٰ العمرة أو الحج من الممكن أن يقضي أيامه هناك علىٰ سفح جبل مثلًا؛ لأنها بعض أيام معدودة، ثم يعود إلىٰ بلده، وكذلك من يذهب إلىٰ العمل في بلدٍ آخر، يُحْكم أمر معيشته علىٰ قدر الفترة التي سيقضيها في هذه البلاد طالت أم قصرت، وقد يحرم نفسه شيئًا من الدنيا في سبيل الهناء بالمعيشة بعد أن يرجع إلىٰ بلده، ومَن لم يفعل ذلك، فذَهب إلىٰ دار الغربة، فدقَّ أوتاده، ووطن أموره، يوصف بأنه غير طبيعيٍّ؛ لأن كل هذا العمل سيتركه بعد عدة سنوات مثلًا، وفي النهاية كل هذه وسائل لا غايات، فقول النبي ﷺ في هذا الحديث معناه أنك كما تفعل وأنت في دار الغربة، افعل وأنت في الدنيا؛ لأنها علىٰ الحقيقة دار غربةٍ، وبنفس المنظور قِسْ حياتك في الدنيا علىٰ الحياة الأبدية السرمدية في الآخرة، فحتىٰ لو عشت مئة سنةٍ، فنسبة المئة إلىٰ ما لا نهاية له هي الصفر، لذلك مَن تعلق بشيءٍ من متاع الدنيا، دلَّ علىٰ جهلٍ مفرطٍ، وعدمِ بصيرةٍ، وعدمِ فقهٍ، فقد قيل لبعض السلف: لماذا ثقلت الحسنة، وخفت المعصية؟ قال: لأن مرارة الحسنة حاضرة، وحلاوتها غائبة -أي: في الآخرة- وحلاوة المعصية حاضرة، ومرارتها غائبة.

---

(١) أخرج البخاري (٦٤١٦).

وعند الإمام أحمد، وَحسَّنه الشيخ ناصر في «صحيح الجامع»، من حديث جابر بن عبد الله أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**أتاني جبريل، فقال: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميتٌ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنَّك مجزيٌّ به، واعلم أنَّ شرف المؤمن قيامه باللَّيل، وعزه استغناؤه عن الناس**[(١)]»[(٢)].

وفي هذا المعنىٰ قصةٌ عن الفضيل بن عياضٍ أنَّه قال لرجلٍ: كم أتت عليك؟ قال: ستون سنةً. قال: فأنت منذ ستين سنةً تسير إلىٰ ربك، يوشك أن تبلغ. فقال الرجل: إنا لله، وإنا إليه راجعون. فقال الفضيل: أتعرف تفسيره، تقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، فمَن عرف أنه لله عبدٌ، وأنه إليه راجعٌ، فليعلم أنه موقوف، ومن علم أنه موقوف، فليعلم أنه مسئول، ومن علم أنه مسئول، فليعدَّ للسؤال جوابًا. فقال الرجل: فما الحيلة؟ قال: يسيرة. قال: ما هي؟ قال: تحسن فيما بقي، يغفر لك ما مضىٰ، فإنك إن أسأت فيما بقي، أخذت بما مضىٰ وما بقي[(٣)].

وهذا المعنىٰ الَّذي في القصة موجود في أذهاننا، ولكن ليس له تأثير علىٰ القلب والسلوك والعمل، فنحن علىٰ يقينٍ أننا لا نعلم متىٰ أجلنا، ولكنه محدد، لا نستأخر عنه ساعةً، ولا نستقدم، ونحن علىٰ يقينٍ أيضًا أننا قد بدأنا السير في الطريق إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ منذ أن نزل الواحد من بطن أمه، ولا ندري متىٰ سينتهي الأمر، وكلما انقضىٰ يوم، اقتربنا من هذا الأجل، كما قال الحسن البصري عليه رحمة الله: ابن آدم، إنما أنت أيامٌ، كلما ذهب يومٌ، ذهب بعضك[(٤)].

---

(١) أخرجه الحاكم (٧٩٢١)، وصحَّحه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٨٣١).

(٢) فمَن أراد العز، عليه أن يستغني عن الناس لا أن يذهب إلىٰ مجلس الشعب ومجلس الشورىٰ، ومن أراد الشرف فعليه بقيام الليل، وهذا الذي كان متوفرًا عند السلف، فأدركوا به غايتهم.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ١١٣).

(٤) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (٢/ ١٤٨).

لذلك، لكي تستقيم الأمور، ولا تستحوذ علينا الدنيا، حاول أن تختلي بنفسك ولو عشرة دقائق علىٰ الفراش تتخيَّل فيها أنك علىٰ فراش الموت، وتنظر كيف سيكون حالك حينئذٍ، وهذا كلام مجرب، ودلت عليه الأدلة الشرعية.

ومن القصص الطريفة والواقعية أيضًا في هذا الباب: أن ملكًا في زمنٍ من الأزمان ظلَّ يأكل حتىٰ بشم وصار لا يستطيع أن يتحرك من ثقل وزنه، فلما أحس بخطر ما هو فيه، استدعىٰ أطباء مملكته ليحلُّوا له هذه المشكلة، فكلما جاءه طبيبٌ، ووصف له دواءً، لا يبرأ الملك؛ لأنه يريد أن يعالج زيادة وزنه دون أن يقلل من طعامه، فيضع الطبيب في السجن؛ لأنه فشل في هذا الأمر[1]، حتىٰ لم يبق أحدٌ من الأطباء إلا وهو في السجن، فأشار عليه وزيره حينئذٍ برجلٍ عالِمٍ فقيهٍ طبيبٍ -يجمع بين العلم الشرعي والطب- فلما أتوا به، ودخل علىٰ الملك، ورأىٰ ما هو فيه، وسمع طلبه، وما وصفه له الأطباء، وأنهم كلهم في السجن الآن؛ لأنهم لم ينجحوا في تحقيق طلب الملك، وقد وجد ما كتبه الأطباء للملك صحيحًا تمامًا من ناحية الطب، فعلم بذلك هذا العالِم أن هذا الملك لن ينجح معه أي دواءٍ، ولا بد أن يحتال له، فقال له: أيها الملك، أنا علىٰ علمٍ بالنجوم -أي: يدَّعي أنه يعلم الغيب- فأمهلني حتىٰ أنظر في نجمك، فإن بقي من عمرك الكثير، كتبت لك العلاج لتَبْرأ، وأما إن لم يبقَ من عمرك إلا القليل، فتمتع ما بقي لك، فمكث ثلاثة أيام، ثم رجع، فطلب من الملك الأمان قبل أن يتكلم، ثم قال: اطلعتُ علىٰ النجوم، فرأيتُ أنَّك ستموت بعد شهرٍ، وإن لم تصدقني، فاحبسني عندك، فإذا مرَّ الشهر ولم تمت، فاقتلني. فقالت بطانة الملك

---

(١) ومستحيل أن تتحقق هذه المعادلة، وانظر إلىٰ هذا الملك، يأكل بأمواله ثم يخرج الطعام، ويخفض وزنه بأمواله أيضًا، وليس هناك أسوأ من ذلك، لذلك قيل لابن عمر: ألا نأتيك بجوارج؟ قال: وما الجوارج؟ قالوا: شيئًا يهضم الطعام. قال: وعلام يشبعون؟!

للملك: قد أنصفك، فأصبح بذلك الملك علىٰ اعتقادٍ كاملٍ ويقينٍ أنه سيموت بعد شهرٍ، وبدأ يفكر في حاله وأفعاله، واستحضر أنه سيقف بين يدي الله ﷻ، ومع هذا التفكير الشديد، نسي الملك الأكل والشرب، حتىٰ إذا بقي علىٰ انقضاء الشهر ثلاثة أيامٍ، طلب العالِم أن يقابل الملك، فلما دخل عليه، وجده غير ما كان تمامًا، فقد نزل وزنه كما أراد من قبل وزيادة، فقال له الطبيب: لم يبقَ إلا ثلاثة أيامٍ. قال: نعم، فضحك الطبيب، فسأله الملك عن الذي يضحكه، فقال: أيها الملك، لا يعلم الغيب إلا الله ﷻ، ولكنِّي أردت أن أُدخل الهمَّ والحزن عليك حتىٰ تدع الأكل والشرب، فتفقد وزنك كما كنت ترجو.

وبالفعل، مَن انشغل بالتفكير فيما سيلقاه عند لقاء ربه ﷻ، سيعيد النظر في أفعاله مرات ومرات، كما قال النبي ﷺ، والحديث متفقٌ عليه عن عائشة وغيرها، رضي الله عن الصحابة أجمعين: «**يا أُمَّة محمدٍ، واللهِ، لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا**»(١).

ويقول سفيان عليه رحمة الله: «ما فعلت فعلةً، ولا قلت مقولةً إلا وأعددتُ لها جوابًا بين يدي الله ﷻ»(٢)، وهذا لأنه يعلم أنه سيموت، وبالفعل لولا طول الأمل غير المذموم، لَمَا تهنَّىٰ رجلٌ بأكلٍ، ولا بشربٍ، ولا بمعيشةٍ، ولكن الإشكال أن يزيد، فيطغىٰ علىٰ الآخرة، لذلك أمرنا الشرع بذكر الموت، وما بعد الموت، وتذكر قصر الأجل.

ويُرْوىٰ أن الحسن البصري رحمه الله كان مع تلامذته في جنازةٍ، فقال لبعضهم: أرأيت هذا الذي مات إن رد الله عليه روحه، أكان يعصاه؟ قال: لا. قال: فَكُنْ أنت هو.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).

(٢) «طبقات الشافعية الكبرىٰ» للسبكي (٩/ ٢١٢).

وهذه المعاني لا بد أن نستحضرها بين الحين والحين؛ أخذًا بأسباب الثبات علىٰ الحقِّ، فإن القدم إن زلَّت، لن يأخذ أحدٌ بيدك.

ومن خلال هذه المقارنة، وبإعمال العقل الصريح فيها، يتبيَّن ضلال مَن تعلَّق بالدنيا مع يقينه أنها فانيةٌ، وآثرها علىٰ الآخرة مع يقينه أنها باقيةٌ، فإن طبيعة البشر أنهم دائمًا ينظرون إلىٰ ديمومة النعيم، وهذا الذي عَنَاه الفضيل بن عياض حين قال: لو كانت الدنيا من ذهبٍ يفنىٰ، والآخرة من خزفٍ يبقىٰ، لكان ينبغي لنا أن نختار خزفًا يبقىٰ، فكيف نختار خزفًا يفنىٰ علىٰ ذهبٍ يبقىٰ؟!

وهذا يورث أيضًا استغناءً عن الناس، فأنت مهما طلبت من آدميٍّ، فإنما تطلب منه دنيا، ولن تطلب منه الجنة، أو النار، أو المغفرة، أو ما شابه ذلك؛ لأنه لا يستطيع أن يعطيك إيَّاها، كما أنَّ معرفة قصر الدُّنيا وفنائها وقرب الأجل يورث قصر الأمل، ويعالج مرض طول الأمل.

ثانيًا: الدنيا تُشتِّت الهمَّ، وتفرِّق الذهن، والآخرة علىٰ العكس:

عند ابن ماجة وأحمد، وصححه الألبانيُّ عن زيد بن ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**مَن كانت الدنيا همه، فرَّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأتِهِ من الدنيا إلا ما كتب له، ومَن كانت الآخرة نيته، جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمةٌ**»[(١)].

فكُلَّما ازداد المرء في الدنيا من عملٍ وزواجٍ وأبناءٍ، وغير ذلك، انشغل عقله، لذلك صح عن أبي الدرداء[(٢)] في السنن وغيرها أنه كان يقول: اللهم إنِّي أعوذ بك

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٥٠).

(٢) وهو عويمر حكيم هذه الأمة، وفي هذا اللقب حديث، وإن كان سنده مخدوشًا، وضعفه الألباني، وهو:

من تفرقة القلب. قيل له: وما تفرقة القلب؟ قال: أن يكون لي بكل وادٍ مال؛ كالذي عنده مشروع في البلد الفلاني، وآخر في البلد الفلاني، وهكذا، وليس معنىٰ هذا أن هذه الأمور ممنوعة، ولكن للأمل حدٌّ معينٌ، لا ينبغي أن يُزَاد عليه، كما ذكرنا مرارًا، وهذا هو الفرق بيننا وبين السلف، فمثلًا: الزبير بن العوام مات عن ستةٍ وسبعين مليونًا وستمائة ألفٍ، ونحسبه مات شهيدًا، وكذلك عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم الكثير، ولكن هؤلاء كانت الدنيا في أيديهم، لا قلوبهم، فإذا ذهبت لا يحزنون عليها، وإذا أتت لا يفرحون بها، أما نحن فإذا ضاع منا شيءٌ حقيرٌ من الدنيا، فعلنا الأفاعيل، ولو لم تكن الدنيا في قلوبنا، لَمَا اهتزت، ولاسترجعنا ونحن كالجبال، أما الآخرة، فقال فيها الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر: ٣٤].

لذلك، تجد مَن فهم هذا، يعيش مرتاحًا في حياته، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إنَّ حبسي خلوة، وقَتْلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة[(١)].

وقال بعضهم: إنه لتمرُّ عليَّ الساعات من انشراح الصدر، وطُمَأنينة النفس، أقول: لو أنَّ أهل الجنة في مثل ما أنا فيه، إنهم لفي نعيم مقيم.

ثالثًا: الدنيا حقيرة ذليلة مهينة، ومع ذلك لا يحصل الإنسان منها ما يريد:

فلا يوجد أحدٌ من الناس خرج من الدنيا وقد اكتفىٰ بما حصل ووصل إلىٰ حدِّ أن قال: أنا اكتفيت من هذه الدنيا، ولا أريد منها شيئًا مطلقًا، ففي الحديث المتفق

= «حكيم أمتي عويمر».

(١) «الوابل الصيب» (ص ٤٨)، «الذيل علىٰ طبقات الحنابلة» (٤/ ٤٠٢).

عليه عن أنس بن مالكٍ أن رسول الله ﷺ قال: «**لو أنَّ لابن آدم واديًا من ذَهَبٍ، أحبَّ أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التُّراب، ويتوب الله علىٰ مَن تاب**[(١)]»[(٢)].

وقال عيسىٰ ابن مريم عليه الصلاة والسلام: مَثَل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شربًا، ازداد عطشًا حتىٰ يقتله.

ومع ذلك، فإن هذه الدنيا حقيرة ذليلة، كما عند الترمذي بسند صحيح -نص علىٰ ذلك الألبانيُّ عليه رحمة الله- عن سهل بن سعدٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لو كانت الدُّنيا تعدل عند الله جَناح بعوضةٍ، ما سقىٰ كافرًا منها شربة ماءٍ**»[(٣)]، وهذه من أشد الأوصاف خِسَّةً للدنيا.

وقال الإمام الشبلي رَحِمَهُ اللَّهُ: مَن أراد أن ينظر إلىٰ الدنيا، فلينظر إلىٰ مزبلةٍ من المزابل، ومَن أراد أن ينظر إلىٰ نفسه، فليأخذ حفنةً من ترابٍ، ومَن أراد أن ينظر إلىٰ شأنه، فلينظر إلىٰ ما يخرج منه في الخلاء.

وقد ضرب النَّبيُّ ﷺ للدنيا مثلًا بالطعام الذي نأكله، فعند الطبراني في «الكبير» بسند حسن -وصححه الألبانيُّ- عن الضحاك بن سفيان الكلابي أن رسول الله ﷺ قال له: «**يا ضحَّاك، ما طعامك؟**». قال: يا رسول الله، اللحم واللبن. قال: «**ثم يصير إلىٰ ماذا؟**». قال: إلىٰ ما قد علمت. قال: «**فإنَّ الله -تبارك وتعالىٰ- ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلًا للدنيا**»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٣٦)، ومسلم (١٠٤٩).

(٢) ولا تخلط بين رضاك بما أنت عليه -نسأل الله الرضا بما قدر- وبين طمعك وتمنيك من داخلك لما هو أكثر، فمع رضا المرء بما هو عليه، يطمع في المزيد، وهذا أمر طبعي.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٢٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦٨٦).

(٤) أخرجه الطبراني (٨١٣٨)، وأحمد (١٥٧٤٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» =

وروىٰ الطبرانيُّ في «الكبير» أيضًا، وصحَّحه الألبانيُّ عن سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء قومٌ إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال لهم: «**ألكم طعامٌ؟**». قالوا: نعم. قال: «**فلكم شرابٌ؟**». قالوا: نعم. فقال: «**فتصفونه؟**». قالوا: نعم. قال: «**وتبردونه؟**». قالوا: نعم. قال: «**فإنَّ معادَهما كمعاد الدُّنيا، يقوم أحدكم إلىٰ خلف بيته، فيمسك علىٰ أنفه من نتنه**»[(١)].

وروىٰ الطبرانيُّ في «الكبير» أيضًا، وصححه الألبانيُّ، عن أُبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ مطعم ابن آدم قد ضرب للدنيا مثلًا، فانظر ما يخرج من ابن آدم، وإن قزَّحه وملَّحه قد علم إلىٰ ما يصير**»[(٢)].

و«قزح»، أي: توبل، وهو وضع التوابل؛ كالكمون والكزبرة، ونحو ذلك.

والإشكال: أن هذه المعاني تخفىٰ علينا، فترىٰ الرجل -مثلًا- يتمنَّىٰ نوعًا معينًا من الطعام، وإذا تحصل عليه، أخذ يتغزل فيه قبل أن يأكله، وهو إن تدبر في الأمر، عَلِمَ أنَّ متعة هذا الطعام تكون فقط أثناء وجود الطعام إلىٰ الفم -وهي فترة قصيرة- وبعد ذلك تستوي كل أنواع الأطعمة، وأمَّا عن الفائدة من الطعام مثلًا، فتجد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد جعل الفوائد الأساسية من الأطعمة في أرخص أنواعها؛ كالبصل والثوم والخس، وهذا من عطاءات الربوبية حتىٰ يستوي الجميع، فسبحان الله جلَّ وعلا! وهكذا في كل المتع، فإن هذا التدبر يمنع المرء من أن يسترسل في المُتَع دون أن يشعر، والغفلة عن هذا عواقبها غير سليمةٍ.

ومع هذا كلِّه، لو أنَّ المرء حصل ما يريد من هذه الدنيا، لكان لفعله وجهٌ من القبول، ولكن الواقع غير ذلك، فهو لا يحصل منها ما يريد؛ كالذي تزوج امرأةً دميمةً

= (٢١٥١).

(١) أخرجه الطبراني (٦١١٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١/ ٧٣٣).

(٢) أخرجه الطبراني (٥٣١)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٨٢).

سليطة اللسان، قصيرة القامة، سوداء عرجاء، ومع هذا كله لا تعطيه حقه الشرعي، فهذه مثل الدنيا.

أما الآخرة، ففي «الصحيحين»، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشرٍ، فاقرءوا إن شئتم:** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]»[(١)]، وهذا خبر علينا أن نصدقه، وأمتع ما في الحديث قوله ﷺ: «**ولا خطَر علىٰ قلب بشرٍ**»، فمعناه أنَّ ما في الجنة أعظم من أن يفكر فيه أحدٌ أصلًا، أو يتخيل أن يكون فيه.

وفي «الصحيحين»، وعند أحمد عن أنسٍ أن رسول الله ﷺ قال: «**لغدوة في سبيل الله، أو روحة** -أي: الذهاب والرجوع من الجهاد- **خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولَقاب قوس أحدكم، أو موضع قده** -يعني: سوطه، أو القيد الذي يربط به فرسه- **من الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولو اطلعت امرأةٌ من نساء أهل الجنة إلىٰ الأرض، لملأت ما بينهما ريحًا، ولَطاب ما بينهما، ولَنصيفها علىٰ رأسها** -أي: الخمار- **خيرٌ من الدنيا وما فيها**»[(٢)]، فقارن بين هذا النعيم، وبين ما سَبق من أحاديث في الدنيا، وأعمل العقل لتدرك الفرق بين المتاعين.

رابعًا: نعيم الدنيا يشاركنا فيه البرُّ والفاجر حتىٰ البهائم العجماوات:

الإنسان بطبعه يحب أن يكون متفردًا ليس له نظير، وهذا شيء كامن في نفس كل واحدٍ فينا، وأنت إذا نظرت في متاع الدنيا، تجد أخس خَلق الله يتمتع به، كما تتمتع أنت به، بل ربما أكثر.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٩٦)، ومسلم (١٨٨٠).

لذلك، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

قال ابن كثيرٍ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي: لولا أن يعتقد كثيرٌ من الناس الجَهَلة أن إعطاءنا المال -وسائر متاع الدنيا- دليل علىٰ محبَّتنا لمَن أعطيناه، فيجتمعوا علىٰ الكفر لأجل المال ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾، أي: سلالم ودرجًا من فضةٍ ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾، أي: يصعدون ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا﴾، أي: أغلاقًا علىٰ أبوابهم ﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾﴾، أي: جميع ذلك يكون فضةً، ﴿وَزُخْرُفًا ۚ﴾، أي: وذهبًا.

وهذه الآية ينبغي أن نفهمها كما فهمها السلف، فإن كان ذلك، شعرت براحة عجيبة إذا قرأتها، أو قرأت تفسيرها؛ لأنَّ هذا القلق والتعب في الدنيا إنَّما يأتي من عدم فَهم حقيقتها، ومَن أخطأ في فَهم حقيقة الدنيا، يكون كالكلب يجري وراء الجيفة، فأنت من هذه الآية تدرك أنَّ متاع الدنيا لا ينبغي أن يفرح به؛ لأنَّ هناك مَن يشاركني إياه ويساويني، أما إن تفردت أنا بهذا المتاع حتىٰ لا يساويني فيه أحدٌ إلا مَن هم علىٰ شاكلتي، فهذا الذي يجعلني أسعد وأتفاخر وأشمخ بأنفي، وهذا لا يكون إلَّا في الآخرة، فالذين معك في النعيم إنما هم الذين علىٰ شاكلتك، أي: علىٰ نفس المنهج، نسأل الله الاستقامة علىٰ دين الله عَزَّوَجَلَّ، فلا تشغل نفسك بلذائذ الدنيا ومتاعها.

في «صحيح الإمام مسلم»، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر**»(١)، فطالما أن النبي ﷺ حكم عليها بأنها سجن، فطبيعة السجن ألَّا تنتظر فيه متاعًا.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٦).

خامسًا: الدنيا من شؤمها وبلائها أنك إن حصلت منها شيئًا -ولو من حلال- أنقص من درجتك عند الله:

فما يُحصِّله المرء من الدنيا، ينقص من درجته في الآخرة وإن كان هذا المرء علىٰ الله كريمًا، أي: منزلته عالية، وهذا خطير جدًّا بالطبع[(١)]، والأدلة علىٰ ذلك كثيرة، منها:

في مسلم عن عبد الله بن عمرٍو، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من غازيةٍ، أو سريةٍ تغزو** -أي: في سبيل الله- **فتَغنم وتَسلم** -أي: تصيب من الغنائم، ولا يصيبها مكروه- **إلا كانوا قد تعجَّلوا ثلثي أجورهم، وما من غازيةٍ، أو سريةٍ تخفق وتصاب** -أي: لا يصيبون شيئًا من الغنائم، ويصابون بالأذىٰ- **إلا تمَّ أجورهم**»[(٢)].

ويُعلِّق الإمام النووي علىٰ الحديث، فيقول: وأمَّا معنىٰ الحديث، فالصَّواب الذي لا يجوز غيره أنَّ الغزاة إذا سلموا أو غنموا، يكون أجرهم أقلَّ من أجر من لم يسلم، أو سلم ولم يغنم، وأن الغنيمة هي في مقابلة جزءٍ من أجر غزوهم، وهذا -بالطبع- تشريعٌ ونصٌّ[(٣)].

وهذا الذي فهمه خباب بن الأرت، ففي الحديث الذي عند البخاري أنه قال: هاجرنا مع النبي ﷺ نلتمس وجه الله، فوقع أجرنا علىٰ الله، فمنَّا من مات لم يأكل من أجره شيئًا، منهم مصعب بن عمير، ومنَّا من أينعت له ثمرته، فهو يهدبها، وكان هذا

---

(١) فلكي يكون الأمر واضحًا عندك، إن أردت العلم والدعوة والمنزلة في الآخرة، فعليك أن تنسىٰ الآخرة، لذلك تجد السِّمة الغالبة لأهل العلم هي الفقر إلَّا أن يكون وارثًا، وإن كنت تريد الدنيا، فدعك من طريق الدين، أما إن أردت الجمع بين الاثنين، فعلىٰ قدر ما تعمل سيكون أجرك في الآخرة إن شاء الله تعالىٰ.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٠٦).

(٣) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٢/ ٥٢).

الكلام قبيل موته حين نظر إلىٰ بيته، فوجد فيه من النعم الكثيرة. قُتِلَ يوم أُحُد -أي: مصعب- فلم نجد ما نُكفِّنه -أي: عند أي أحدٍ من المسلمين- إلا بردة، إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطينا رجليه خرج رأسه، فأمرنا النبي ﷺ أن نغطي رأسه، وأن نجعل علىٰ رجليه من الإذخر[(١)].

وهَذا الذي أشار إليه نبيُّنا ﷺ، كما في الحديث الذي عند الإمام أحمد، وسنده صحيح -نصَّ علىٰ ذلك الألبانيُّ في «صحيح الجامع»، وفي «السلسلة» - عن شريح بن عبيد الحضرمي أن أبا مالكٍ الأشعري لمَّا حضرته الوفاة قال: يا سامع الأشعريين، ليبلغ الشاهد منكم الغائب -فهذه وصيةٌ عند الموت- إنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**حلوة الدنيا، مرة الآخرة، ومرة الدنيا، حلوة الآخرة**»[(٢)].

وفي حديث النبي ﷺ وهو عند الإمام أحمد والترمذي، وصححه الألبانيُّ، عن كعب بن مالكٍ الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ذئبان جائعان** -وفي روايةٍ: ضاريان- **أُرسلا في غنمٍ** -وفي روايةٍ: قد غاب عنها رعاؤه- **بأفسدَ لها من حرص المرء علىٰ المال والشرف لدينه**»[(٣)]، وهذا الحديث من أمتع الأحاديث في التَّزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، وقد مرَّ شرحه.

ورَوىٰ الإمام ابن أبي الدُّنيا بسندٍ صحيحٍ موقوفًا علىٰ ابن عمر، قال: «**لا يصيب عبدٌ من الدنيا شيئًا إلا نقص من درجاته عند الله تعالىٰ، وإن كان عليه كريمًا**»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٧٦) (٣٩١٣)، ومسلم (٤٠٨٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٨٩٩)، وصححه الألباني (١٨١٧).

(٣) أخرجه أحمد (١٥٧٨٤)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٧١٠).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٢٩٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٢٢٠).

وسبب هذا النقص في الآخرة يُفْهم من أن الله عَزَّوَجَلَّ أوجب علينا أشياء، واستحبَّ لنا أشياء، وحرَّم أشياء، وكره أشياء، وأباح أشياء، والمطلوب منَّا شرعًا أن نفعل الواجبات والمستحبات، وأن نترك المُحرَّمات والمكروهات، وأن نترك فضول المباحات، وهذا يستحيل إلَّا علىٰ حساب متاع الدنيا بالطبع، وبالتالي إن أراد رجلٌ أن يجمع المال من حلالٍ، فإنه يحتاج إلىٰ وقتٍ بالطبع، وحتمًا سيجعله ذلك يقتصر علىٰ الفرائض دون المستحبات، والفرائض حتمًا سيعتريها الخلل، فيكون المال الذي جمعه من حلالٍ تسبب في ضياع الكثير من النوافل، ودروس العلم، وقراءة القرآن، وغير ذلك، لذلك إن أتتك الدنيا ولو من حلالٍ فلا تفرح؛ لأنَّ ذلك خصم من درجاتك، وإذا فاتتك لا تحزن، فإنها مخبوءة ومكتوبة لك عند ربك، فالنعم في الدنيا إنما هي علىٰ حساب الآخرة، فلا تحزن عليها.

وهذا كله إن فهمته جيدًا، تولَّد عنه أمران مهمان، مَن فعل غيرهما، دلَّ علىٰ أنه لم يفهم الكلام جيدًا، وهما:

- السعي في الدنيا بنيةٍ مضبوطةٍ كما سيأتي.
- إن فات المرء شيء من الدنيا، لا يحزن عليه.

فهذا الذي ذكرناه لا يعني الإعراض عن الدنيا، والسعي فيها -من الحلال طبعًا- ولكن توجيه الأحاديث السَّابقة أنه ينبغي علىٰ المرء ألَّا يكون تحصيله للدنيا من أجل التمتُّع، ولكن من أجل هدفٍ أُخرويٍّ، وهذا الذي كان عليه السلف.

فعند الإمام أحمد والترمذي بسندٍ صحيحٍ، عن محمود بن لبيد -واختلف في سماعه من النبي ﷺ، والراجح أنه سمع- أن النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يحمي** -أي: يمنع- **عبده الدنيا وهو يحبه، كما تحمون مرضاكم الطعام والشراب تخوفًا له**

عليه»[١]، كمن أصابته حروق كثيرة -عافانا الله من ذلك- إن سقيته الماء مات، فيكون منعك إيَّاه الماء مع طلبه لها علامة محبتك له، ولو رقَّ قلبك وأعطيته الماء، لكان ذلك كرهًا له.

وفي «صحيح البخاري»، من حديث إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف أن أباه عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُتِيَ بطعامٍ، وكان صائمًا، فقال: قتل مصعب بن عمير وهو خيرٌ مني[٢]، كفن في بردةٍ؛ إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه -وأراه قال: -وقُتِلَ حمزة وهو خير مني، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط- أو قال: أعطينا من الدنيا ما أعطينا- وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجِّلت لنا، ثم جعل يبكي حتىٰ ترك الطعام[٣].

وفي «مستدرك الحاكم»، ولكن ضعَّفه الألبانيُّ، عن زيد بن أرقم قال: كنَّا مع أبي بكرٍ الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فدعا بشرابٍ، فأُتِيَ بماءٍ وعسلٍ، فلما أدناه من فيه، بكىٰ وبكىٰ حتىٰ أبكىٰ أصحابه، فسكتوا وما سكت، ثم عاد فبكىٰ حتىٰ ظنوا أنهم لن يقدروا علىٰ مسألته، قال: ثم مسح عينيه، فقالوا: يا خليفة رسول الله ﷺ، ما أبكاك؟ قال: كنت مع رسول الله ﷺ، فرأيته يدفع عن نفسه شيئًا، ولم أرَ معه أحدًا، فقلت: يا رسول الله، ما الذي تدفع عن نفسك؟ قال: «**هذه الدنيا، مثلت لي، فقلت لها: إليكِ عنِّي، ثم رجعت فقالت: إن أفلت مني، فلن ينفلت مني من بعدك**»[٤].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٦٣٢) بسند صحيح.

(٢) فعبد الرحمن بن عوف يقيس نفسه علىٰ أنداده، ويذكر أنهم خير منه، هضمًا لحظ نفسه، وإلا فهو من العشرة، بينما مصعب شهيد.

(٣) أخرجه البخاري (١٢٧٥).

(٤) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (٦/ ١٦٤)، «المستدرك علىٰ الصحيحين» للحاكم. ت: مقبل

وفي «مسند الإمام أحمد»، وضعَّفه الألبانيُّ أيضًا، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الدنيا دار مَن لا دار له، ومال مَن لا مال له، ولها يجمع مَن لا عقل له**»(١).

ولذلك، ينبغي علىٰ المسلم الفَطِنِ لكي يخرج من هذه المشكلة أن يحتسب جَمْعه للمال، أو شراءه للسيارة مثلًا، أو طعامه، أو شرابه، أو غير ذلك من أمور الدنيا، يحتسبها لله عَزَّوَجَلَّ، كأن تكون نيته أن يستعين بهذه الأمور علىٰ الدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وعلىٰ العبادة، وغير ذلك من الطاعات، فإنَّه في هذه الحالة يزيد بهذه الأفعال من درجتِهِ عند الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا ضبط النيَّة الذي ذكرناه.

سادسًا: لذائذ الدنيا مسبوقة بألمٍ وتعبٍ، ومتبوعة بأذًىٰ وقذرٍ:

فأيُّ نعيمٍ في الدنيا ليس كذلك؟!، فمثلًا: الأكل يتعب العبد في شرائه، وجمع المال له، ثم بعد لذة أكله يكون الأذىٰ والقذر في الخلاء.

بل ذكر أبو الفرج ابن الجوزي -عليه رحمة الله- أنه ليس في الدنيا لذة، إنما هي راحة من مؤلمٍ، فمثلًا: الجوعان هو الذي يتلذذ بالطعام، أما الشبعان فلا يقبل علىٰ الطعام أصلًا، وكذلك مَن يقبل علىٰ زوجته يكون لماءٍ كثر يريد أن يخرجه(٢)، وهكذا.

= (٤/ ٤٥١)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، وقال الشيخ مقبل عبد الصمد بن عبد الوارث: تركه البخاري وغيره (الذهبي).

(١) أخرجه أحمد (٢٤٤١٩)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (١٩٣٣).

(٢) ومن الكلام الماتع لابن الجوزي قال: تأملت في مقاصد النكاح، فوجدت أن مقصده الأساسي هو الحفاظ علىٰ النسل، ولمَّا كان هذا لا يتحقق إلا بالإتيان -وهو أمر تستقبحه النفوس- أودع الله فينا الشهوة لنفعله.

أمَّا نعيم الجنة -نسأل الله الجنة- فليس فيه هذه العوارض التي يرسلها الله لنا في الدُّنيا لنتعظ ونستعد من مرضٍ وغيره، بل هو نعيم خالص ليس فيه أي تعبٍ، أو قذرٍ، فعند الإمام أحمد -وَصحَّحه الألبانيُّ- عن زيد بن أرقم قال: أتىٰ النبيَّ ﷺ رجلٌ من اليهود، فقال: يا أبا القاسم، ألست تزعم أنَّ أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون؟ وقال لأصحابه: إن أقر لي بهذه خصمته. قال: فقال رسول الله ﷺ: «**بلىٰ، والذي نفسي بيده، إن أحدهم ليُعْطىٰ قوة مائة رجلٍ في المطعم والمشرب والشهوة والجماع**». قال: فقال له اليهودي: فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة -أي: والجنة ليس فيها قذرٌ، وهذا غباءٌ؛ لأنه يريد أن يقيس الآخرة علىٰ مقاييس الدنيا- قال: فقال رسول الله ﷺ: «**حاجة أحدهم عرقٌ يفيض من جلودهم مثل ريح المسك، فإذا البطن قد ضمر**»(١).

لذلك، قال يحيىٰ بن معاذٍ عليه رحمة الله: في طلب الدنيا ذلُّ النفوس، وفي طلب الآخرة عزُّ النفوس، فيا عجبًا لمَن يختار المذلَّة في طلب ما يفنىٰ، ويَترك العزَّ في طلب ما يبقىٰ(٢).

فمثلًا: أي: إنسانٍ يطلب من آخر شيئًا، لا بد أن يكون في ذلك ذل ولو من بعيدٍ، فإنه أثناء طلبها يشعر بشيءٍ من النقص، وإلا لما طلبها.

لوازم معرفة حقيقة الدنيا، وحقيقة الآخرة:

إنْ تعلَّم المسلم الأمور الستَّة السابقة، ورسخن في قلبه، فلا بد أن تظهر -كنتيجةٍ لذلك- علامات علىٰ هذا المرء تدل علىٰ العلم واليقين الذي عنده، وهذا ما نُسمِّيه

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٢٦٩)، وصححه الألباني.

(٢) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٥٤٣).

بلوازم معرفة حقيقة الدنيا، وحقيقة الآخرة، فهذه المعلومات التي ذكرناها أتت من مصدرٍ يقينيٍّ، ولابد لأي معلومةٍ في القلب من لوازم وتأثيرات، وهي خمس نقاطٍ لازمة للأمور الستة المذكورة سابقًا، نُدلِّل عليها بالأدلة الشرعية، وهي علىٰ الجملة كالآتي، ثم نُفصِّلها:

١. الرغبة في الآخرة، والحرص عليها، والإعراض عن الدنيا، وعدم الاهتمام بيد مَن كانت.
٢. إيثار عمل الآخرة، وتقديمه علىٰ عمل الدنيا عند التعارض.
٣. القيام إلىٰ أعمال الآخرة بعجلٍ وسرعةٍ، أما إلىٰ أعمال الدنيا فبتؤدةٍ وتمهلٍ.
٤. التسابق فيما بيننا علىٰ أعمال الآخرة، أما الدنيا فمَن نافسنا فيها، تركناها له.
٥. الفرح بأعمال الآخرة، أما الدنيا فلا نفرح بها، ولا نحزن عليها.
٦. الرغبة في الآخرة، والحرص عليها، والإعراض عن الدنيا، وعدم الاهتمام بيد مَن كانت.

وهذا بالطبع مترتبٌ علىٰ معرفة حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة كما ذكرنا، فمثلًا: مَن يلقي ما لا يحتاج إليه في القمامة، لا يهتم مَن سيأخذه من القمامة بعد ذلك؛ لأنه لم يعد ذا قيمةٍ عنده، ولم يعد يصلح لأي عملٍ، وكذلك الدنيا إن عرفت قيمتها، لا تهتم بيد مَن كانت، وفي هذه الحالة يستحيل أن يصاب المرء بمرض الحسد[(١)]؛ لأنه لن ينافس أحدًا علىٰ هذه الدنيا، وإن أخذها أحدٌ غيره لن يحزنه ذلك؛ لأنها عنده ذليلة مهينة لا قيمة لها.

---

(١) فالحرص علىٰ الدنيا يولد الحسد، وهذا الذي ذكرناه من أن أمراض القلوب بعضها يولد بعضًا، وهذا من خطرها.

وعند ابن ماجة وأحمد، وصحَّحه الألبانيُّ -والحديث مرَّ معنا- عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**مَن كانت الدنيا همه، فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه** -أي: لا يثق فيما عنده من مال ودنيا، ويخشىٰ أن يذهب ذلك كله- **ولم يأته من الدُّنيا إلا ما كتب له، ومَن كانت الآخرة نيته، جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأَتَته الدنيا وهي راغمة**»(١).

فمَن يستيقظ من نومه يُفكِّر في تحصيل المال، وفي الطعام، وغير ذلك، ولا يفكر فيما وصل إليه المسلمون من ذلٍّ ومهانةٍ، ولا في هَمِّ الدعوة، ولا طلب العلم، ولا الصلاة، ولا تكفير السيئات، ولا في القدس، ولا في الخوف من سوء الخاتمة، ولا غير ذلك من أمور الآخرة، وغابت عنه هذه المعاني، فمثلًا: تجده إذا جلس مع أخيه، تكلم في الدنيا، واسترسل في الحديث، ولم يتكلم في الآخرة(٢).

وعند ابن ماجه بسندٍ صحيحٍ -نص علىٰ ذلك الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» - عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورىٰ: ٢٠]، ثم قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ابن آدم، تَفرَّغ لعبادتي، أملأ صدرك غنًىٰ، وأسد فقرك، وإلَّا تفعل، ملأت صدرك شغلًا، ولم أسد فقرك**»(٣).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٥٠).

(٢) ولا بأس أن تكون بيننا معاملة وتجارة وأعمال، وغير ذلك، ولكن كوسيلة وعون علىٰ أمور الآخرة، لا أن يكون الكلام كله في الدنيا، وهذا السلوك والاستغراق في الكلام عن الدنيا تولد نتيجة عنه حبها مع كراهية الموت وهو الوهن الذي ذكره النبي ﷺ، ومن آثار الوهن أن نزعت المهابة من صدور أعدائنا.

(٣) وأخرجه الترمذي (٢٤٦٦)، وابن ماجة (٤١٠٦)، و«مسند أحمد». ت: شاكر (٨٦٨١)، قال العلَّامة أحمد شاكر: إسناده صحيح.

فالصَّواب أن تكون حياة المسلم كلها عبادة لله بالنية الصالحة، وبهذا يتحقَّق الحديث السابق، ويتحقَّق التفرُّغ لعبادة الله عَزَّوَجَلَّ، فلو حقق المسلم النية الصالحة في عمله وأكله وشربه وجميع أفعاله في حياته بأنها من أَجْل الإعانة علىٰ عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، لكان ذلك كله في ميزان حسناته، وهذا هو الفرق بيننا وبين غيرنا، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾ [محمد: ١٢]، وفرق كبير بين مَن يأكل ليعيش ويتقوَّىٰ علىٰ طاعة ربه، وبين مَن يعيش ليأكل.

ومثال هذا الإعراض عن الدنيا: أنك إن كنت تسير مع أخيك، فرأيت رجلًا تعرفه يركب سيارةً فارهةً، فسألت أخاك: متىٰ اشترىٰ فلان هذه السيارة؟ فعليه أن يقول لك: قال رسول الله ﷺ: «**مِن حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»، وعليك حينئذ أن تقول له: جزاك الله خيرًا، وأن تحمد الله تعالىٰ علىٰ هذه النصيحة، أمَّا إن سألته فأجابك، وأخذتما في الكلام في هذه المواضيع، فقد زللتما أنتما الاثنان، كما ورد أن حسان بن أبي سنان مرَّ بغرفةٍ، فقال: متىٰ بُنِيَت هذه؟ ثم أقبل علىٰ نفسه، فقال: تسألين عمَّا لا يعنيكِ؟ لأعاقبنك بصوم سنةٍ، فصامها، ومثل هذه المواقف البسيطة انتبه إليها هؤلاء؛ لأنهم كانوا يريدون تربية أنفسهم، والنجاة من الدنيا.

إيثار عمل الآخرة، وتقديمه علىٰ عمل الدنيا عند التعارض:

فمثلًا: إذا نوىٰ الرجل الذهاب إلىٰ درس علمٍ، ثم جاءه عملٌ دنيويٌّ وهو في الطريق إلىٰ الدرس، فعليه أن يقدم عمل الآخرة علىٰ عمل الدنيا، فيذهب إلىٰ درس العلم، وكذلك إن خرجت في أمرٍ خاصٍّ بك، ثم أُذِّن للصلاة، فيجب أن تؤجل كل شيءٍ، وتُقدِّم عمل الآخرة، فتأتي الصلاة -بالطبع إلَّا إن كان هناك عذر شرعي من

سفرٍ، أو مرضٍ- وهكذا، وهذا كله إنما يكون عند التعارض، وهذا التقديم لا يأتي إلا بعد تحقيق النقطة السابقة، أي: إرادة الآخرة، والرغبة فيها، والحرص عليها، وهنا تأتيك الدنيا وهي راغمة.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢].

ومبحث تقديم الأهمِّ علىٰ المهم مبحث دقيق يحتاج إلىٰ فقهٍ عالٍ، فمثلًا: إذا تعارض الذهاب إلىٰ درس علمٍ مع حضور جنازةٍ، والصلاة علىٰ الميت ودفنه، أيهما تفعل؟ هنا نقول: إنَّ طلب العلم ليس له نظيرٌ[(١)].

فالمرء في حياته منشغلٌ في كل لحظةٍ بأمرٍ ما، فإن كنت في طاعةٍ، وتريد أن تتركها، سَلْ نفسك أولًا: إلىٰ أي شيءٍ تذهب بعدها؟ فلا تترك طاعة لشيءٍ غير ذي قيمةٍ، أو غير مهمٍّ، ثم من خلال متابعتك لنفسك ستُرَبيها بنفسك إن شاء الله تعالىٰ.

وعند الترمذي بسند حسن[(٢)] -نصَّ علىٰ ذلك الشيخ أحمد شاكر- عن أبي أُميَّة الشعباني قال: أتيتُ أبا ثعلبة الخشني[(٣)]، فقلت له: كيف تصنع في هذه

---

(١) فقد قال الله تعالىٰ: {ومن أحسن قولا ممن دعا إلىٰ الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين} [فصلت: ٣٣]، أي: دعوة علىٰ بصيرةٍ وعلمٍ. وقال الشافعي: لأن أجلس ليلةً في مسألةٍ واحدةٍ أحب إليَّ من أن أقوم الليل كله. وهذا كله يرجع إلىٰ أن الطاعات منها ما هو قاصر، ومنها ما هو متعدٍّ، فالطاعات القاصرة هي التي نفعها قاصر علىٰ المرء؛ كالصلاة والصيام وغير ذلك، والطاعات المتعدية؛ كطلب العلم والدعوة مثلًا، نفعها يتعدىٰ إلىٰ الغير، ودعك من الحذلقة الفقهية عند من يقولون: إن طلب العلم سنة، وشهود الجنازة فرض كفاية، فإن هذا لا يصدر إلا من أخزم.

(٢) وجدت الشيخ الألباني ضعفه إلا جزءًا منه، كما مر.

(٣) وهو جرثوم بن ناشر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد اشتهر هذا الصحابي بكنيته أكثر من اسمه، وبالمناسبة نذكر هذه =

الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ [المائدة: ١٠٥]، قال: أما والله لقد سألت عنها خبيرًا، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «**بل ائتمروا بالمعروف، وتَنَاهوا عن المنكر، حتَّىٰ إذا رأيت شحًّا مطاعًا، وهوًىٰ متبعًا، ودنيا مؤثرة** -وهذا هو الشَّاهد- **وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه، فعليك بخاصَّة نفسك، ودع العوام، فإنَّ من ورائكم أيامًا، الصبر فيهن مثل القبض علىٰ الجمر، للعامل فيهنَّ مثل أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عملكم**»(١)، وقد مر معنا الحديث من قبل.

لذَلكَ، إنْ شغلك الله بطاعته، وبطلب العلم، وبالدعوة إليه، لا بد أن تفرح وينشرح صدرك بهذان وتخرُّ لله ساجدًا، وإيَّاك أن تظنَّ أنَّ انشغالك بالدعوة عن الدنيا سيضرك، فنصيبك من الدنيا سيأتيك، ولكن لا نعني بذلك ترك العمل بالكلية، بل لا بد أن يكون الواحد منا عصاميًّا شامخًا حتىٰ لا يؤثر أحد علىٰ لسانه، أو يضغط عليه؛ كي لا يصدع بالحق.

القيام إلىٰ أعمال الآخرة بعجلٍ وسرعةٍ، أما إلىٰ أعمال الدنيا، فبِتُؤَدَةٍ وتَمهُّلٍ:

فَاللهُ عَزَّوَجَلَّ قدَّر الأرزاق، وغيَّب الأوقات، ورزقك سيأتيك لا محالة، ولكننا لا نعلم متىٰ يكون ذلك، لذلك إن أردت -مثلًا- عمل مشروعٍ، فخذ وقتك في التفكير،

= الطرفة، وهي أن أعرابيًّا سئل: لم نجد أسماءكم صعبةً وأسماء غلمانكم فيها رقة؟ قال: نسمي أنفسنا لأعدائنا، ونسمي غلماننا لنا. ومما يستحق أن يذكر من سيرة هذا العبد الصالح جرثوم بن ناشر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما ذكره الإمام الذهبي في ترجمته عن كيفية موته، أنه بينا هو يُصلِّي في جوف الليل، قبض وهو ساجد، فرأت بنته -أي: في رؤيا- أنَّ أباها قد مات، فاستيقظت فزعةً، فنادت أمها: أين أبي؟ قالت: في مصلاه، فإنه إن لم يكن معهم، فهو في مصلاه، فنادته فلم يجبها، فأنبهته، فوجدته ميتًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٤)، والترمذي (٣٠٥٨)، ضعيف، لكن فقرة «أيام الصبر» ثابتة.

واستخر ربك، ثم انتهز الفرصة المناسبة لعمله، أما أمور الآخرة، فلا بد من المسارعة فيها بدون تفكيرٍ، أما نحن الآن، فوَضْعنا الأليم علىٰ عكس ذلك.

قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالىٰ: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وعند الحاكم في «المستدرك» بسند صحيح -والحديث عند أبي داود أيضًا، وصححه الشيخ ناصر- من حديث سعد بن أبي وقاص، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**التُّؤدة في كل شيءٍ خير إلا في عمل الآخرة**»(١).

وعند الترمذي بسند حسن عن علي بن أبي طالبٍ أن النبي ﷺ قال له: «**يا علي، ثلاثٌ لا تؤخرها: الصلاة إذا آنت، والجنازة إذا حضرت، والأيِّم إذا وجدت لها كفؤًا**»(٢).

---

(١) أخرجه الحاكم (٢١٣)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٣٥٦).

(٢) و«**الأيم**»، كما في الآية الكريمة: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢] هو -كما قال الزجاج- مَن لا زوج له، رجلًا كان أو امرأةً، ففي الحديث أن تأخير الزواج بدون عذر شرعي لا يصح أبدًا.

التَّسابق فيما بيننا علىٰ أعمال الآخرة، أما الدنيا فمَنْ نافسنا فيها، تركناها له:

قال تعالىٰ: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ [المطففين: ٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٤٨﴾ [البقرة: ١٤٨]، فإذا وصلتك معلومة -مثلًا- كالتي في ترجمة محمد بن شهاب الزهري أنَّ ابن أخيه ذكر عنه أنه حبس نفسه ثمانين ليلةً، فخرج حافظًا للقرآن، إذا علمت هذا، لا بد أن يتحرَّك قلبك بالحثِّ علىٰ هذه الطاعة، وكذلك أي طاعةٍ إن سمعت عنها، تحثُّ نفسك علىٰ الإتيان بمثلها بعكس التنافس علىٰ الدنيا؛ كالسيارات والعمارات والوظائف، وما شابه ذلك.

ذكر الواقدي في المغازي: أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا خرج إلىٰ أُحُدٍ -في شهر شوالٍ في السنة الثالثة من الهجرة- وعرض أصحابه، فردَّ مَن استصغر، رد سمرة بن جندب، وأجاز رافع بن خديج -أو خديج- حين قالوا عنه: إنه رامٍ جيد، فقال سمرة بن جندب لربيبه -أي: زوج أمه: يا أبتِ، أجاز رسول الله ﷺ رافع بن خديج، وردَّني وأنا أصرع رافع بن خديج -أي: أغلبه، وهذا هو أثر التربية الذي ننشده- فقال: يا رسول الله، رددت ابني، وأجزت رافع بن خديج، وابني يصرعه، فقال النبي ﷺ لرافع وسمرة: «**تصارعا**»، فصرع سمرة رافعًا، فأجازه رسول الله ﷺ، فشهدها مع المسلمين[(١)].

أمَّا في أمور الدنيا، فعند مسلمٍ عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**قَدْ أفلح مَنْ أسلم، ورزق كفافًا، وقنَّعه الله بما آتاه**»[(٢)]، والكفاف أن يأتي

---

(١) «مغازي الواقدي» (١/ ٢١٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٥٤).

الرِّزق من الله تعالىٰ علىٰ قدر الحاجة فقط، وكان من دعائه ﷺ والحديث عند مسلمٍ عن أبي هريرة: «**اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا**»(١)، وفي روايةٍ: «**كفافًا**»، فهذه هي قيمة الدنيا، وإلَّا لما حبسها الله ﷻ عن نبيِّنا ﷺ؛ لأنَّ قدر النبي ﷺ عالٍ، وهذه الدنيا حقيرة ذليلة لا تليق به.

وعند الإمام أحمد بسند حسن -نص علىٰ ذلك الألبانيُّ في «السلسلة» - من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: كان رسول الله ﷺ لا يزال يسمر -والسمر بعد العشاء- عند أبي بكرٍ الليلة كذاك في الأمر من أمر المسلمين، وإنه سمر عنده ذات ليلةٍ وأنا معه، فخرج رسول الله ﷺ، وخرجنا معه، فإذا رجل قائم يصلي في المسجد، فقام رسول الله ﷺ يستمع قراءته، فلمَّا كدنا أن نعرفه، قال رسول الله ﷺ: «**مَن سرَّه أن يقرأ القرآن رطبًا كما أنزل، فليقرأه علىٰ قراءة ابن أُمِّ عبدٍ**».

قال: ثم جلس الرجل يدعو، فجعل رسول الله ﷺ يقول له: «**سَلْ تُعْطه، سَل تُعْطه**». قال عمر: قلت: واللهِ، لأغدونَّ إليه فلأبشرنَّه. قال: فغدوت إليه لأُبشِّره، فوجدت أبا بكرٍ قد سبقني إليه فبَشَّره، ولا والله، ما سبقته إلىٰ خيرٍ قط إلا سبقني إليه(٢).

وعند أبي داود، وحسَّنه الألبانيُّ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ يومًا أن نتصدَّق، فوافق ذلك مالًا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكرٍ إن سبقته يومًا، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أبقيتَ لأهلك؟**». قلت:

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٥٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٣٠١).

مثله. قال: وأتىٰ أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**». قال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسابقك إلىٰ شيءٍ أبدًا[(١)].

فهذا هو المسلك الصحيح، وهؤلاء هم الأكابر، فمن العجب أن هؤلاء الصحب كانوا علىٰ يقينٍ أنهم من أهل الجنة، ومع ذلك انظر إلىٰ أفعالهم وطاعاتهم، ثم انظر إلينا نحن وإلىٰ أفعالنا.

الفرح بأعمال الآخرة، أما الدُّنيا فلا نفرح بها، ولا نحزن عليها:

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨]، فإذا حفظت شيئًا من كتاب الله، أو حضرت درس علمٍ مثلًا، لا بد أن يسعد ويفرح قلبك بذلك، وعلىٰ الجانب الآخر تستوي عندك أمور الدنيا، فلا يؤثر كثيرًا إن ارتقيت في عملك درجةً، كما أنه لا يؤثر إن فُصلت منه، وفرقٌ بين الفرح الفطري والحزن الفطري، فهما ليسا بإشكالٍ[(٢)]، ولكن الكلام عن الفرح الذي يدل علىٰ تعلق القلب بهذه الدنيا، وأنه لا يزال في القلب شيء تجاهها.

وعند البخاري عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال لأبي: «**إنَّ الله أمرني أن أقرأ عليك**: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ [البينة: ١]». قال: وسمَّاني؟ قال: «**نعم**»، فبكىٰ[(٣)]، فهذا الذي يسعد الإنسان فعلًا.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٧٨).

(٢) وهذا مبني علىٰ الفرق بين الرضا بالقضاء والرضا بالمقضي، فالرضا بالقضاء فرض، أما عدم الرضا بالمقضي، فليس بإشكالٍ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٠٩).

الباب الثالث عشر

مرض البخل والشح

وفيه ستة فصول:

الفصل الأول: تعريف البخل والشح.

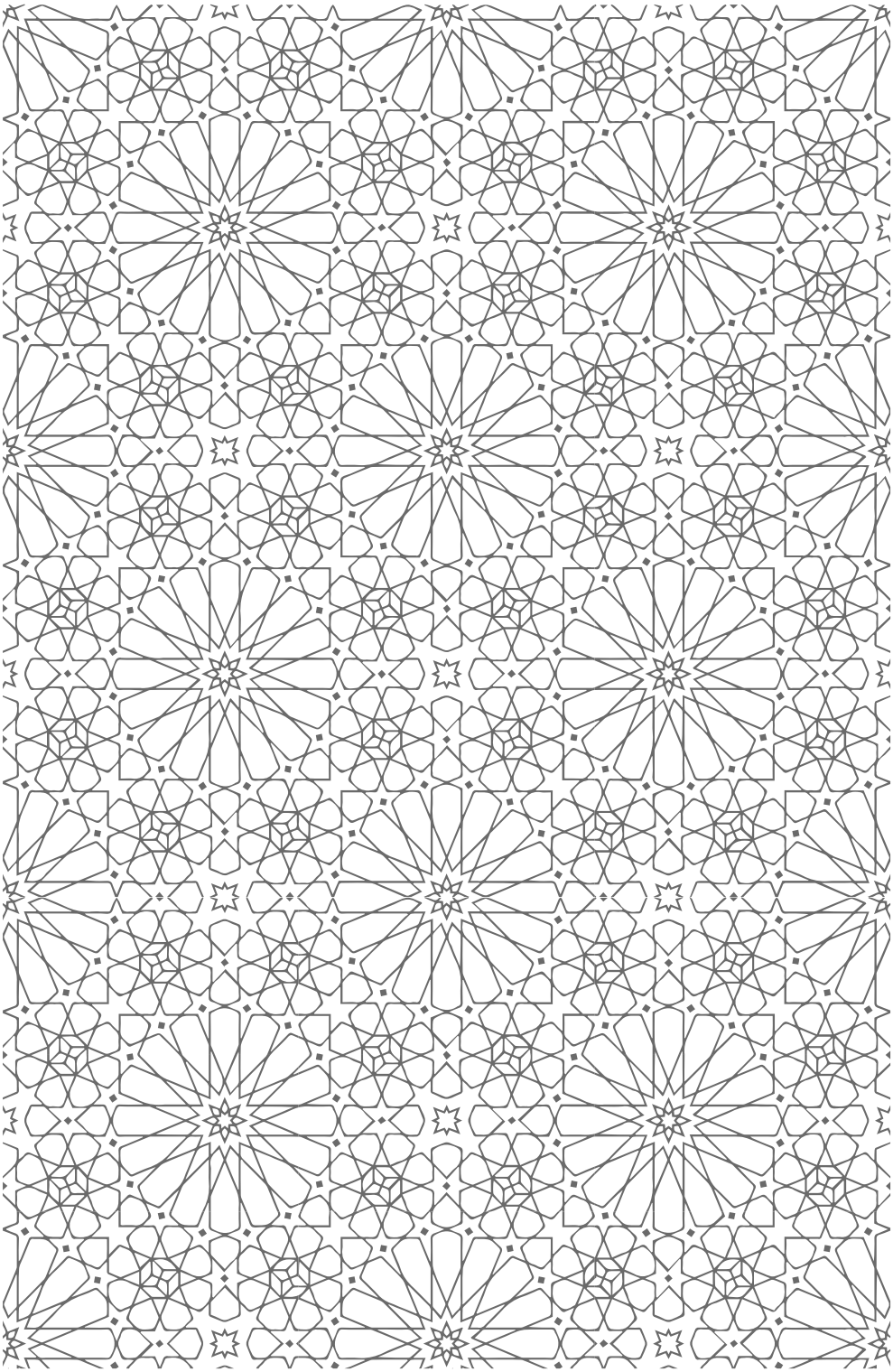
الفصل الثاني: أنواع البخل ودرجاته.

الفصل الثالث: الأدلة الشرعية علىٰ ذم البخل.

الفصل الرابع: أسباب البخل والشح.

الفصل الخامس: شيء من قبائح وعجائب البخلاء.

الفصل السادس: علاج البخل والشح.



الفصل الأول

تعريف البخل والشح

تعريف البخل في اللغة:

مصدر قولهم: بخل بالشيء يبخل به، وهو مأخوذ من مادة (ب خ ل) التي تدل علىٰ خلاف الكرم[(١)].

أما الشح: فهو الاسم من قولهم: شح يشح شَحًّا، وشُحًّا، والضم أعلىٰ، وهو مأخوذ من مادة (ش ح ح) التي تدل علىٰ المنع[(٢)].

البخل اصطلاحًا:

قال الجرجاني في «التعريفات»: البخل: هو المنع من مال نفسه، والشح: هو بخل الرجل من مال غيره[(٣)].

وقال ابن حجر في «الفتح»: البخل: منع ما يطلب مما يُقْتنىٰ، وشره ما كان طالبه مستحقًّا، ولا سيما إن كان من غير مال المسئول[(٤)].

وقال القرطبي: البخل المذموم في الشرع: هو امتناع المرء عن أداء ما أوجب الله تعالىٰ عليه[(٥)].

---

(١) «نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم» (٩/ ٤٠٢٩).
(٢) «نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم» (١٠/ ٤٦٨٥).
(٣) «التعريفات» (٤٢، ٤٣).
(٤) «الفتح» (١٠/ ٤٥٧).
(٥) «تفسير القرطبي» (٥/ ١٢٦).

أما الشح، قال ابن رجب رحمه الله تعالىٰ: هو تشوُّق النفس إلىٰ ما حرم الله، ومنع منه، وعدم قناعة الإنسان بما أحله الله له من مالٍ، أو فرجٍ، أو غيرهما.

أو: هو تناول ما ليس للإنسان ظلمًا وعدوانًا من مالٍ أو غيره[(١)].

بين البخل والشح:

قال الكفوي: البخل هو المنع نفسه، والشحُّ هو الحالة النفسية التي تقتضي ذلك المنع[(٢)].

وقال القرطبي: اختلف في البخل والشح، هل هما بمعنًىٰ واحدٍ أو معنيين؟

فقيل: البخل: الامتناع من إخراج ما حصل عندك. والشح: الحرص علىٰ تحصيل ما ليس عندك. وقيل: الشح هو البخل مع حرصٍ، وهو الصحيح؛ لما روي عنه ﷺ من قوله: «**اتقوا الشح، فإن الشح أهلك مَن كان قبلكم، حَمَلهم علىٰ أن سفكوا دماءهم، واستحلُّوا محارمهم**»، وهذا يرد قول مَن قال: إن البخل منع الواجب، والشح منع المستحب، إِذْ لو كان الشح منع المستحبَّ، لما دخل تحت هذا الوعيد العظيم[(٣)].

وقال الفيروز آبادي: البخل ثمرة الشُّح، والشُّح يأمر بالبخل[(٤)].

قال ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: البخل: أن تمنع ما تقدر عليه. والشح: أن تأخذ مال أخيك بغير حقه[(٥)].

---

(١) «شرح حديث: ما ذئبان جائعان» (٣١).

(٢) «نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم» (٩/ ٤٠٣٠).

(٣) «تفسير القرطبي» (٤/ ١٨٢).

(٤) «بصائر ذوي التمييز» (٢/ ٢٢٧).

(٥) «تفسير الطبري = جامع البيان». ت: شاكر (٢٣/ ٢٨٦).

قال ابن عمر رضي الله عنهما لجلسائه يومًا: أيهما أشد: البخل أو الشح؟ فاختلفوا، فقال لهم: الشح أشد من البخل؛ لأن الشحيح يشح علىٰ ما في يديه فيحبسه، ويشح علىٰ ما في أيدي الناس حتىٰ يأخذه، وأما البخيل فهو يبخل علىٰ ما في يديه[(١)].

(١) «مساوئ الأخلاق ومذمومها» للخرائطي (١٤١) بتصرف.

الفصل الثاني

أنواع البخل ودرجاته

أولًا: أنواع البخل: البخل ضربان:

أحدهما: بخل الإنسان بقنيات نفسه:

والآخر: بخل بقنيات غيره، وهو أكثرهما ذمًّا بدليل قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧﴾ [النساء: ٣٧].

قال ابن القيِّم رحمه الله تعالىٰ: الفرق بين الشح والبخل أن الشح هو شدة الحرص علىٰ الشيء، والإحفاء في طلبه، والاستقصاء في تحصيله، وجشع النفس عليه. والبخل: منع إنفاقه بعد حصوله، وحبه وإمساكه، فهو شحيح قبل حصوله، بخيل بعد حصوله، فالبخل ثمرة الشح، والشح يدعو إلىٰ البخل، والشح كامنٌ في النفس، فمَن بخل فقد أطاع شُحَّه، ومن لم يبخل، فقد عصىٰ شُحَّه، ووُقِيَ شرَّه، وذلك هو المفلح.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ [الحشر: ٩][(١)].

قال النووي: قال جماعة: الشح أشد البخل، وأبلغ في المنع من البخل. وقيل: هو البخل مع الحرص. وقيل: البخل في أفراد الأمور، والشح عام. وقيل: الشح: الحرص علىٰ ما ليس عنده، والبخل بما عنده[(٢)].

---

(١) «الوابل الصيب» - الكتاب العربي (ص ٤٩).

(٢) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٦/ ١٣٤).

البخل أصل لكلِّ خُلُقٍ مذمومٍ:

قال الماورديُّ رحمه الله تعالىٰ: قد يحدث عن البخل من الأخلاق المذمومة - وإن كان ذريعةً إلىٰ كل مذمَّة- أربعة أخلاق، ناهيك بها ذمًّا، وهي:

الحرص، والشَّره، وسوء الظن، ومنع الحقوق، وإذا آل البخيل إلىٰ ما وصفنا من هذه الأخلاق المذمومة، والشيم اللئيمة، لم يبق معه خيرٌ موجودٌ، ولا صلاحٌ مأمولٌ(١).

ثانيًا: درجات البخل:

قال ابن قدامة المقدسي رحمه الله تعالىٰ: اعلم أنَّ السخاء والبخل درجات: فأرفع درجات السخاء: الإيثار، وهو أن تجود بالمال مع الحاجة إليه، وأشد درجات البخل أن يبخل الإنسان علىٰ نفسه مع الحاجة إليه، فكم من بخيلٍ يمسك المال ويمرض، فلا يتداوىٰ، ويشتهي الشهوة، فيمنعه منها البخل، فكم بين مَن بخل علىٰ نفسه مع الحاجة، وبين مَن يؤثر علىٰ نفسه مع الحاجة(٢).

أبخل الناس:

روىٰ السخاوي في «القول البديع» من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: خرجت ذات يومٍ، فأتيت رسول الله ﷺ، فقال: «**ألا أخبركم بأبخل الناس؟**». قالوا: بلىٰ يا

---

(١) «أدب الدنيا والدين» (٢٢٨).

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (٢٠٥، ٢٠٦) باختصار.

رسول الله. قال: «**مَن ذُكرتُ عنده، فلم يُصلِّ عليَّ، فذاك أبخل الناس**»[(١)]، فالأخلاق عطايا، يضعها الله عَزَّوَجَلَّ حيث يشاء.

حدُّ البخل:

الإمساك حيث يجب البذل بخل، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير[(٢)].



(١) ذكره السخاوي في «القول البديع في الصلاة علىٰ الحبيب الشفيع»، وعزاه لابن أبي عاصم في الصلاة، وقال مخرجه (بشير عيون): قال الألباني في تخريجه: حديث صحيح.

(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٥٩).

الفصل الثالث

الأدلة الشرعية على ذم البخل

أولًا: الآيات الواردة في ذم البخل:

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: ١٨٠].

يقول ابن كثير: أي: لا يحسبن البخيل أنَّ جمعه المال ينفعه، بل هو مضرَّة عليه في دينه، وربما كان في دنياه.

ثم أخبر بمآل أَمْر ماله يوم القيامة، فقال: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[(١)].

وقال تعالىٰ عن المنافقين: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٧].

يقول ابن كثير: يقول تعالىٰ: وَمِنَ المنافقين مَن أعطىٰ الله عهده وميثاقه: لئن أغناه من فضله، ليصدقن من ماله، وليكونن من الصالحين، فما وفَّىٰ بما قال، ولا صَدَق فيما ادعىٰ، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقًا سكن في قلوبهم إلىٰ يوم يلقون الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة، عياذًا بالله من ذلك[(٢)].

---

(١) «تفسير ابن كثير». ت: سلامة (٢/ ١٧٤).

(٢) «تفسير ابن كثير». ت: سلامة (٤/ ١٨٣).

وقال تعالىٰ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨].

يقول ابن كثيرٍ: قوله تعالىٰ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾، أي: لا يجيب إلىٰ ذلك ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، أي: إنَّما نقص نفسه من الأجر، وإنَّما يعود وَبالُ ذلك عليه، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾، أي: عن كل ما سواه، وكل شيءٍ فقير إليه دائمًا، ولهذا قال: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾، أي: بالذات إليه، فوَصْفه بالغنىٰ وصفٌ لازمٌ له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم، أي: لا ينفكون عنه.

وقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾، أي: عن طاعته، واتباع شرعه ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾، أي: ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره[(١)].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [الليل: ٨-١١].

قال ابن كثيرٍ: قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾، أي: بما عنده، ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾، أي: بخل بماله، واستغنىٰ عن ربه عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾﴾، أي: بالجزاء في الدار الآخرة.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾، أي: لطريق الشرِّ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، والآيات في هذا

(١) «تفسير ابن كثير». ت: سلامة (٧/ ٣٢٤).

المعنىٰ كثيرةٌ دالةٌ علىٰ أن الله ﷻ يُجَازي مَن قصد الخير بالتوفيق له، ومَن قصد الشر بالخذلان، وكلٌّ ذلك بقدرٍ مقدرٍ[(١)].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التغابن: ١٤ - ١٦].

ثانيًا: النصوص من السُّنة المحذرة من البخل:

روىٰ البخاري من حديث أنس بن مالكٍ قال: كان النبي ﷺ يقول: «**اللهم إنِّي أعوذ بك من الهمِّ والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضَلَع الدين، وغَلَبة الرجال**»[(٢)].

وروىٰ الطبرانيُّ في «الكبير» من حديث ابن عباسٍ، قال رسول الله ﷺ: «**خلَق الله جنَّة عدنٍ بيده، ودلَّىٰ فيها ثمارها، وشق فيها أنهارها، ثم نظر فيها فقال: قد أَفْلَح المؤمنون، قال: وعزَّتي، لا يجاورني فيكِ بخيل**»[(٣)].

بوَّب البخاري، فقال: باب مثل المتصدق والبخيل[(٤)]، قال الزين بن المنير: قام التمثيل في خبَر الباب مقام الدليل علىٰ تفضيل المتصدق علىٰ البخيل -ثم ساق بسنده- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَثَل البخيل والمنفق كمَثَل رجلين عليهما جُبَّتان من حديدٍ من ثديهما إلىٰ تراقيهما، فأما المنفق، فلا ينفق إلا**

---

(١) «تفسير ابن كثير». ت: سلامة (٨/ ٤١٧).

(٢) رواه البخاري (٢٨٩٣).

(٣) الطبراني في «الكبير» (١١/ ١٨٤) رقم (١١٤٣٩)، وقال مخرجه: رواه في «الأوسط»، وإسناده جيد.

(٤) «صحيح البخاري» (٢/ ١١٥).

سبغت أو وفرت علىٰ جلده حتىٰ تخفي بنانه، وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقةٍ مكانها، فهو يوسعها ولا تتسع»[(١)].

قال الحافظ: قال الخطابي وغيره: وهذا مَثَل ضربه النبي ﷺ للبخيل والمتصدق، فشبههما برجلين أراد كل واحدٍ منهما أن يلبس درعًا يستتر به من سلاح عدوه، فصبها علىٰ رأسه ليلبسها، والدروع أول ما تقع علىٰ الصدر والثديين إلىٰ أن يُدخل الإنسان يديه في كميها، فجعل المنفق كمَن لبس درعًا سابغةً، فاسترسلت عليه حتىٰ سترت جميع بدنه، وهو معنىٰ قوله: «**حتىٰ تعفو أثره**»، أي: تستر جميع بدنه، وجعل البخيل كمثل رجلٍ غلت يداه إلىٰ عنقه، كلما أراد لبسها، اجتمعت في عنقه، فلزمت ترقوته، وهو معنىٰ قوله: «قلصت»، أي: تضامَّت واجتمعت، والمراد أن الجواد إذا هَمَّ بالصدقة، انفسح لها صدره، وطابت نفسه، فتوسَّعت في الإنفاق، والبخيل إذا حدَّث نفسه بالصدقة، شحت نفسه، فضاق صدره، وانقبضت يداه، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾، وقال المهلب: المراد أن الله يستر المنفق في الدنيا والآخرة بخلاف البخيل، فإنه يفضحه[(٢)].

روىٰ البزار من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سيِّدكم يا بني سلمة؟**». قالوا: الجد بن قيس، وإنا لنبخله. قال: «**وأيُّ دَاءٍ أدوأ من البخل؟ بل سيِّدكم بشر بن البراء بن معرور**»[(٣)].

روىٰ مسلم من حديث جابر بن عبد الله أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**اتَّقوا الظلم، فإن**

---

(١) رواه البخاري (١٤٤٣).

(٢) «فتح الباري» لابن حجر (٣/ ٣٠٦).

(٣) «مسند البزار = البحر الزخار» (١٤/ ٣٣٣) برقم (٨٠٠٨).

الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشُّح، فإن الشُّح أهلك مَن كان قبلكم، حملهم علىٰ أَنْ سفكوا دماءهم، واستحلُّوا محارمهم»[(١)].

وروىٰ البزار بسند حسن من حديث أنسٍ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ثلاث كفَّارات، وثلاث درجات، وثلاث منجيات، وثلاث مهلكات؛ فأمَّا الكفارات: فإسباغ الوضوء في السبرات، وانتظار الصلوات بعد الصلوات، ونقل الأقدام إلىٰ الجمعات، وأما الدرجات: فإطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام، وأما المنجيات: فالعدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنىٰ، وخشية الله في السِّرِّ والعلانية، وأما المهلكات فشُحٌّ مطاع، وهوىً متبع، وإعجاب المرء بنفسه**»[(٢)].

بوَّب البخاري، فقال: باب ظهور الفتن[(٣)]، ثم روىٰ بسنده إلىٰ أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**يتقارب الزمان، وينقص العمل، ويلقىٰ الشُّح، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج**». قالوا: يا رسول الله، أيم هو؟ قال: «**القتل القتل**»، دل الحديث علىٰ أن الشح من الفتن، وكفىٰ بهذا شرًّا[(٤)].

روىٰ أحمد بسند حسن من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم في منخري رجل مسلم، ولا يجتمع شحٌّ وإيمان في قلب رجل مسلم**»[(٥)].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٨).

(٢) «كشف الأستار عن زوائد البزار» (١/ ٥٩، ٦٠)، وذكره الألباني في «صحيح الجامع» (٢/ ٦٧)، (٣٠٤١)، وقال: حسن من حديث ابن عمر، وهو في «الصحيحة» (٤/ ٤١٢) (١٨٠٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٩/ ٤٨).

(٤) «صحيح البخاري» (٧٠٦١).

(٥) رواه أحمد (٧٤٧٤)، وصححه العلامة أحمد شاكر.

وروَىٰ أحمد بسندٍ صحيحٍ من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**شرُّ ما في الرجل: شح هالع، وجبن خالع**»[(١)].

والمعنىٰ المراد في قوله ﷺ: «**شر ما في رجل**»، أي: شر مساوي أخلاقه «**شح هالع**»، أي: جازع، أي: شح يحمل علىٰ الحرص علىٰ المال، والجزع علىٰ ذهابه «**وجبن خالع**»، أي: شديد، فكأنه يخلع فؤاده من شدة خوفه، فالشح والبخل كلٌّ منهما مذموم علىٰ انفراده، فإذا اجتمعا فهو النهاية في القبح، وإنما قال: «**شر ما في الرجل**» دون الإنسان؛ لأن الشح والجبن مما تحمد عليه المرأة، ويذم به الرجل، أو لأن الخصلتين تقعان موقعًا في الذَّمِّ من الرجال فوق ما تقعان في النساء[(٢)].



(١) رواه أحمد (٧٩٩٧)، وصححه العلامة أحمد شاكر.

(٢) «التيسير بشرح الجامع الصغير» (٢/ ٧٧).

الفصل الرابع

أسباب البخل والشح

- اعلم أن السبب الأصلي للبخل هو حبُّ المال لذاته.

ويتفرَّع من هذا السبب أسبابٌ؛ منها: غلبة الشهوات، وطول الأمل، ورحمة الولد، وخوف الفقر، وقلة الثقة بمجيء الرزق، وعشق المال لذاته، فالبخيل يتعب نفسه ويحرمها، وينفع غيره.

ولكي يتم التخلُّص من مرض البخل والشح لا بد من التخلص من أسبابه.

فنقول: حب المال له سببان:

الأول: حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل، فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يومٍ، ربما أنه كان لا يبخل بماله؛ إذ القدر الذي يحتاج إليه في يومٍ، أو في شهرٍ، أو في سنةٍ قريب، وإن كان قصير الأمل، ولكن كان له أولادٌ أقام الولد مقام طول الأمل، فإنه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه، فيمسك لأجلهم.

روىٰ ابن ماجه وغيره بسند صحيح من حديث يعلىٰ بن منبه الثقفي قال: جاء الحسن والحسين يستبقان إلىٰ رسول الله ﷺ، فَضمَّهما إليه، ثم قال: «**إنَّ الولدَ مبخلةٌ مجبنةٌ محزنةٌ**»(١).

وفي روايةٍ صحيحةٍ: قال ﷺ: «**الولد مبخلة مجبنة، مجهلة محزنة**»(٢).

---

(١) ابن ماجة (٣٦٦٦)، وفي «الزوائد»: إسناده صحيح، رجاله ثقات. والحاكم (٣/ ١٦٤)، واللفظ له، وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم، ولم يخرجاه، وسكت الذهبي. وأحمد (٤/ ١٧٢)، وذكره الألباني في «صحيح الجامع»، وعزاه كذلك للطبراني من حديث خولة بنت حكيم (١٩٨٦).

(٢) «صحيح الجامع» (١٩٩٠)، واللفظ له، وعزاه للحاكم، والطبراني من حديث خولة بنت حكيم،

قوله ﷺ: «**مبخلة مجبنة**»، أي: مظنة البخل والجبن؛ لأجله يبخل الإنسان ويجبن[(١)]، وينشغل بولده، فيهمل في طلب العلم النافع، ويموت، فيحزن عليه، فإذا انضاف إلىٰ ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بمجيء الرزق، قوي البخل لا محالة.

الثاني: أن يحب عين المال، فمن الناس مَن معه ما يكفيه لبقية عمره إذا اقتصر علىٰ ما جرت به عادته بنفقته، وتفضل آلاف، وهو شيخ بلا ولد، ومعه أموال كثيرة، ولا تسمح نفسه بإخراج الزكاة، ولا بمداواة نفسه عند المرض، بل صار محبًّا للدنانير، عاشقًا لها، يلتذ بوجودها في يده، وبقدرته عليها، فيكنزها تحت الأرض وهو يعلم أنه يموت فتضيع، أو يأخذها أعداؤه، هذا فلا تسمح نفسه بأن يأكل، أو يتصدق منها بحبة واحدة، وهذا مرض للقلب عظيم، عسير العلاج، لا سيما في كِبَرِ السن، وهو مرض مزمن لا يرجىٰ علاجه.

قال الغزالي في «الإحياء»: مثال مَنْ أحبَّ المال لذاته مثال رجلٍ عشق شخصًا، فأحب رسوله لنفسه، ثم نسي محبوبه، واشتغل برسوله، فإن الدنانير رسول يبلغ إلىٰ الحاجات، فصارت محبوبة لذلك؛ لأنَّ الموصل إلىٰ اللذيذ لذيذ، ثم قد تنسىٰ الحاجات، ويصير الذهب عنده كأنه محبوب في نفسه، وهو غاية الضلال، بل مَن رأىٰ بينه وبين الحجر فرقًا، فهو جاهل إلا من حيث قضاء حاجته به، فالفاضل عن قدر حاجته والحجر بمثابة واحدة[(٢)].

= وبعضه في «المشكاة» من حديث عائشة (٣/ ١٣٢٩) رقم (٤٦٩٢) وقال: إسناده جيد، وله شواهد من حديث خولة بنت حكيم عند الحاكم، ومن حديث يعلىٰ عند ابن ماجه وأحمد بأسانيد صحيحة.

(١) «حاشية السندي علىٰ سنن ابن ماجه» (٢/ ٣٩٠).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٦١).

الفصل الخامس

شيء من قبائح وعجائب البخلاء

ذكر الخطيب البغدادي في كتابه «البخلاء»:

مرَّ أعرابي برجلٍ قد وضع بين يديه غداءه وهو يأكل -وكان الرجل بخيلًا- فقال الأعرابي: لو تعرضتُ له، لعلَّه يدعوني إلىٰ الغداء.

فقال: السلام عليكم.

فقال: كلمة مقولة.

ثمَّ طأطأ رأسه يأكل، فقال له الأعرابي: أما إنِّي مررت بأهلك.

قال: عليهم كان طريقك.

قال: وهم صالحون.

قال: كذلك خلفتهم.

قال: إن امرأتك حبلىٰ.

قال: كذلك عهدتها.

قال: إنها ولدت غلامين.

قال: كذلك كانت أمها.

قال: مات أحدهما.

قال: ما كانت لتقوىٰ علىٰ رضاع اثنين.

قال: ثم مات الآخر.

قال: ما كان ليبقىٰ بعد أخيه.

قال: ثم ماتت الأم.

قال: ما كانت لتبقىٰ بعد ولديها.

قال: ما أطيب طعامك.

قال: نفعه لغيرك.

قال: أُفٍّ لك.

قال: اللئيم سباب[(١)].

قال الجاحظ: قال رجلٌ من البخلاء لغلامه: هاتِ الطعام، وأغلق الباب.

فقال الغلام: هذا خطأ، بل أغلق الباب، وائت بالطعام.

قال: أنت حرٌّ لعلمك بالحزم[(٢)].

قال الخطيب البغدادي: قيل لأبي الحارث جمين: تغديت عند فلان، وكان شديد البخل؟ قال: لا، ولكنني مررتُ ببابه وهو يتغدىٰ.

قيل: وكيف علمت ذلك؟ قال: رأيت غلمانه بأيديهم قسي البنادق يرمون بها الذباب في الهواء؛ لئلَّا يقترب الذباب من البيت[(٣)].

قيل لبخيلٍ: مَن أشجع الناس؟ فقال: من يسمع وقع أضراس الناس علىٰ طعامه، ولا تنشق مرارته.

---

(١) «البخلاء» للخطيب البغدادي (ص ١٦٨).

(٢) «البخلاء» للخطيب البغدادي (ص ١٠٢).

(٣) «البخلاء» للخطيب البغدادي (ص ١١٥).

وقال الخطيب أيضًا: «كتب بعض الأدباء إلىٰ بعض إخوانه يشاوره في قصد بعض الرؤساء تأميلًا له، واستدعاءً لنائله، وكان معروفًا بالبخل، فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم، كتبت إليَّ تسألني عن فلانٍ، وذكرت أنك هممت بزيارته، وحدثتك نفسك بالقدوم عليه، فلا تفعل أمتع الله بك، فإن حسن الظن به لا يقع إلا بخذلانٍ من الله، وإن الطمع فيما عنده لا يخطر علىٰ القلوب إلا من سوء التوكل علىٰ الله، والرجاء لما في يديه لا ينبغي إلا بعد اليأس من روح الله؛ لأنه رجلٌ يرىٰ التقتير الذي نهىٰ الله عنه هو التبذير الذي يعاقب عليه، وأن الاقتصاد الذي أمَر الله به هو الإسراف الذي يعذب عليه، وإن بني إسرائيل لم يستبدلوا العدس بالمن، والبصل بالسلوىٰ إلا لفضل أحلامهم، وقديم علمٍ توارثوه عن آبائهم، وأن الضيافة مدفوعة، والهبة مكروهة، وأن الصدقة منسوخة، وأن التوسع ضلالة، والجود فسق، والسخاء من همزات الشياطين، كأنه لم يسمع بالمعروف إلا في الجاهلية الأولىٰ التي قطع الله أخبارها، ونهىٰ عن اتباع آثارها، وكأنَّ الرجفة لم تأخذ أهل مدين إلا لسخاءٍ كان فيهم، ولا أهلكت الريح العقيم عادًا إلا بجود أفضالٍ كان معهم، وهل يخشىٰ العقاب إلا علىٰ الإنفاق، ويرجو العفو إلا علىٰ الإمساك، ويعد نفسه بالفقر، ويأمرها بالبخل خيفة أن تنزل به قوارع الظالمين، ويصيبه ما أصاب الأوَّلين، فأقم -رحمك الله- بمكانك، واصبر علىٰ عضِّ زمانك، وامضِ علىٰ عسرتك، عسىٰ الله أن يبدل لك خيرًا منه زكاةً، وأقرب رحمًا»[(١)].

(١) «البخلاء» للخطيب البغدادي (ص ١١٦).

الفصل السادس

علاج البخل والشح

قال الغزالي: وإنما علاج كل عِلَّةٍ بمضادة سببها، فتعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر، وتعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت، والنظر في موت الأقران، وطول تعبهم في جمع المال وضياعه بعدهم، وتعالج التفات القلب إلىٰ الولد بأنَّ خالقه خلق معه رزقه، وكم من ولدٍ ولم يرث من أبيه مالًا، وحاله أحسن ممن ورث، وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخيرٍ، وينقلب هو إلىٰ شرٍّ، وأن ولده إن كان تقيًّا صالحًا فالله كافيه، وإن كان فاسقًا، فيستعين بماله علىٰ المعصية، وترجع مظلمته إليه.

ويعالج أيضًا قلبه بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذمِّ البخل ومدح السخاء، وما توعد الله به علىٰ البخل من العقاب العظيم.

ومن الأدوية النافعة: كثرة التأمل في أحوال البخلاء، ونفرة الطبع عنهم، واستقباحهم له، فإنَّه ما من بخيلٍ إلا ويستقبح البخل من غيره، ويستثقل كل بخيلٍ من أصحابه، فيعلم أنه مستثقلٌ ومستقذرٌ في قلوب الناس مثل سائر البخلاء في قلبه.

ويعالج أيضًا قلبه بأن يتفكَّر في مقاصد المال، وأنه لماذا خلق، ولا يحفظ من المال إلا بقدر حاجته إليه، والباقي يدخره لنفسه في الآخرة بأن يحصل له ثواب بذله.

فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم، فإذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الإمساك في الدنيا والآخرة، هاجت رغبته في البذل إن كان عاقلًا، فإن تحركت

الشهوة، فينبغي أن يجيب الخاطر الأول، ولا يتوقف، فإن الشيطان يعده الفقر، ويخوفه، ويصده عنه[(١)].

ومن وسائل علاج البخل والشُّح: الوقوف علىٰ مضارِّهما؛ فمنها:

أولًا: من مضارِّ البخل:

(١) البخل لا يجتمع مع الإيمان.

(٢) أصل لنقائص كثيرة، ويدعو إلىٰ خصال ذميمة.

(٣) البخيل مكروهٌ من الله عَزَّوَجَلَّ، ومبغوض من الناس.

(٤) دليل علىٰ سوء الظن بالله عَزَّوَجَلَّ.

(٥) دليل علىٰ قلة العقل، وسوء التدبير.

(٦) مهلك للإنسان، ومدمر للأخلاق.

(٧) يضع السَّيد، ويؤخر السابق.

(٨) ليس من صفات الأنبياء الأصفياء، ولا السادة الشرفاء.

(٩) البخيل محروم في الدنيا، مؤاخذ في الآخرة[(٢)].

ثانيًا: من مضارِّ الشُّح:

١- يورث قطيعة الرحم، وانفصام عرىٰ المحبة.

٢- من أسباب الظلم والبغي والعدوان وسفك الدماء.

٣- بغض الناس للشحيح، وبُعْدهم عن شرِّه.

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٦٢).

(٢) «نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم» (٩/ ٤٠٤٦).

٤- يجرئ علىٰ المعاصي، وفعل السيئات.

٥- ينافي الإيمان، ويغضب الرحمن.

٦- من أسباب هلاك الخَلق.

٧- من أعظم الموبقات التي أمَر الشارع باجتنابها.

٨- الشحيح محروم، والمنفق مرزوق.

٩- يستوجب عذاب الله[(١)].

قال أبو الفرج بن الجوزي: «علاج البخل أن يتفكَّر، فيرىٰ أن فقراء بني آدم إخوانه، وقد أُوثِرَ عليهم، وأحوجوا إليه، فليجعل شكر المنعم مواساة الإخوان».

ومن هنا لابد أن يعلم الإنسان البخيل أن أُخوَّته للناس جميعًا أُخوَّة إيمان وإسلام؛ لقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، ولهذه الأُخوَّة الإسلامية حقوق وواجبات كثيرة، منها ما يتمثل في قول الرسول ﷺ: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، مَنْ كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومَن فرَّج عن مسلمٍ كربةً، فرَّج الله عنه بها كربةً من كُرَب يوم القيامة، ومَن ستَر مسلمًا، ستره الله يوم القيامة**»[(٢)].

ولينظر في شرف الكرم، وليعلم أنه يسترقُّ الأحرار إذا أسدىٰ إليهم معروفًا، وينهب عِرضه الأشرار إذا بخل، وليتيقن أنه سيترك ما في يديه ذميمًا، فليخرج منه قبل أن يخرج عنه، وهذا معناه أن الإنسان البخيل إذا علم مصير ماله الذي جمعه، وأنه سيكون لغيره من الناس بعده، فإنه -لا شك- سينفقه في سبيل الله قبل أن يُبدِّده ورثته،

---

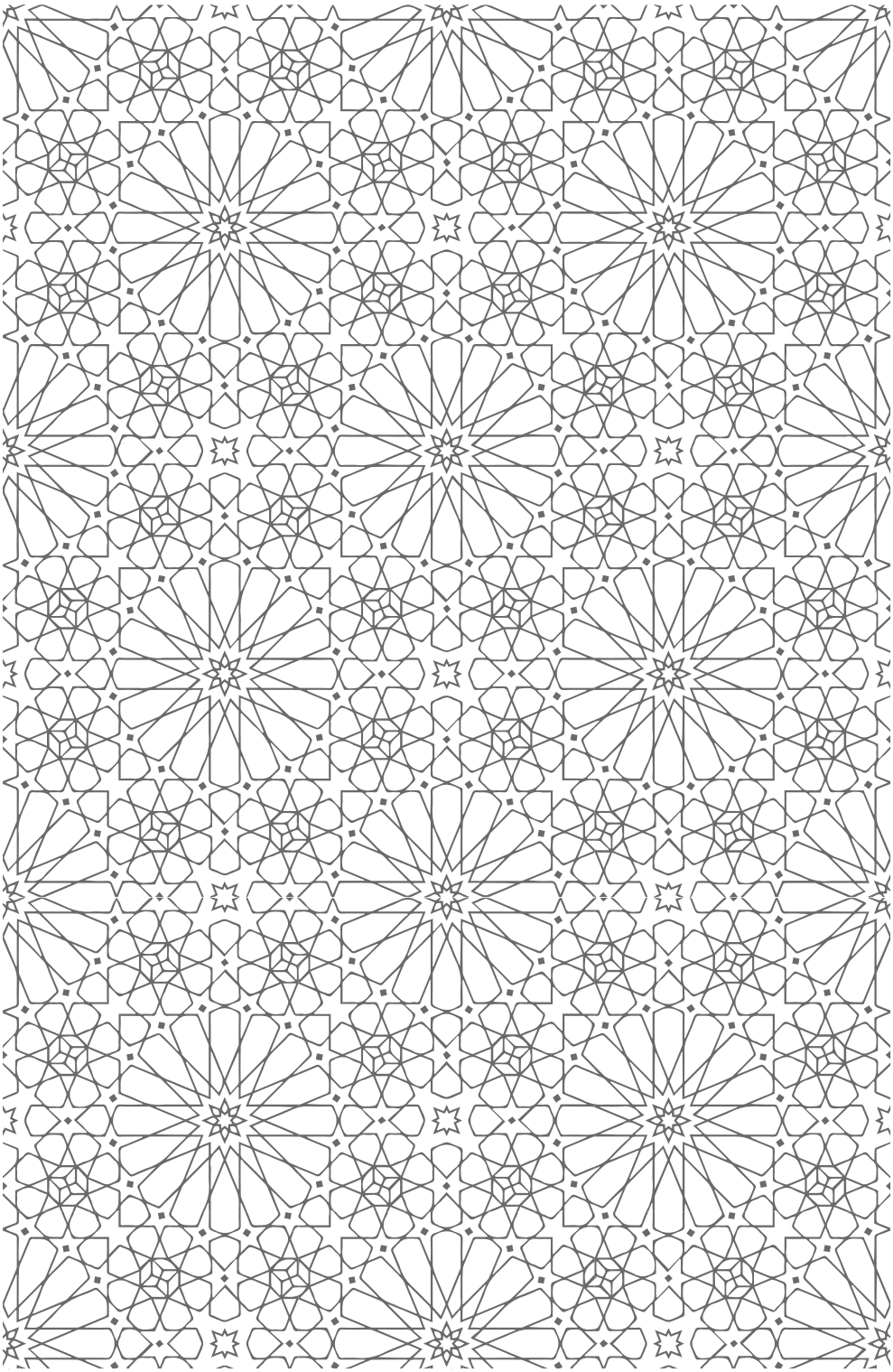
(١) «نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم» (١٠/ ٤٦٩٤).

(٢) «آراء ابن الجوزي التربوية» (ص ١٣٩).

وذلك مصداق لقول الرسول ﷺ: «**يقول العبدُ: مالي، مالي، إنَّما له من مالِهِ ثلاثٌ: ما أكل فأفنىٰ، أو لبس فأبلىٰ، أو أعطىٰ فاقتنىٰ، وما سوىٰ ذلك، فهو ذاهبٌ وتاركه للناس**»(١).

ومن ذلك أيضًا: أن يتدبَّر عقاب الله -تبارك وتعالىٰ- لمَن يمنع ماله من إنفاقه في سبيله، فإنَّه سيتَّعظ، وينفق بسخاءٍ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

(١) «آراء ابن الجوزي التربوية» (ص ١٣٩).



الباب الرابع عشر

مرض التطير

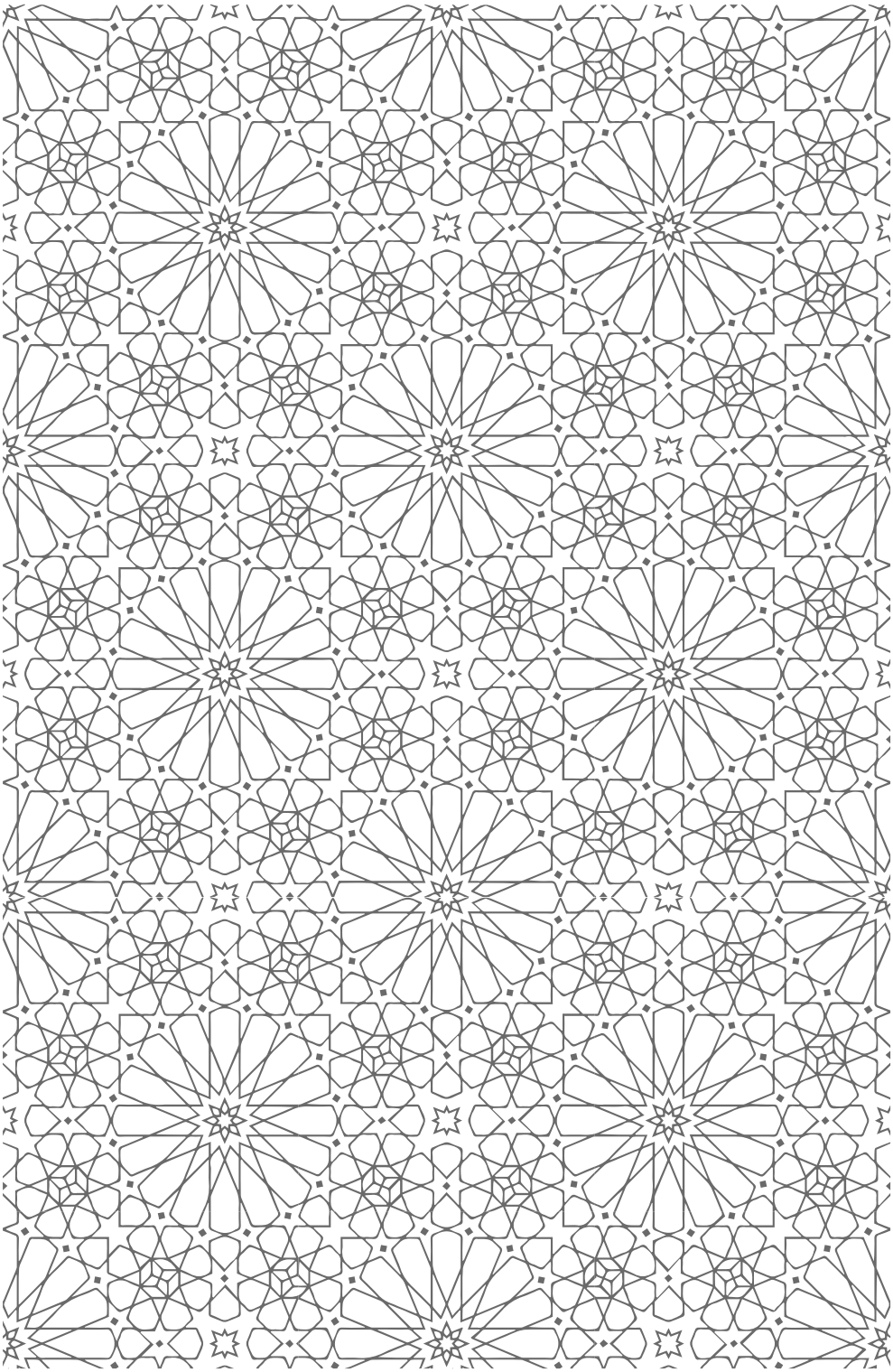
وفيه أربعة فصولٍ:

الفصل الأول: تعريف التطير.

الفصل الثاني: التطير حكمه وضرره.

الفصل الثالث: النصوص المحذرة من التطير.

الفصل الرابع: علاج التطير.



الفصل الأول

تعريف التطير

التطيُّر في اللغة:

مصدر قولهم: تطير من الشيء، وهو مأخوذٌ من مادة (ط ي ر)، «الطاء والياء والراء أصل واحد يدل علىٰ خفة الشيء في الهواء»[(١)].

قال الراغب: «وتطير فلان، واطير: أصله التفاؤل بالطير، ثم يستعمل في كل ما يتفاءل به ويتشاءم»[(٢)].

وكانت العرب إذا أرادت المضي لمُهمٍّ، مرَّت بمجاثم الطير وأثارتها لتستفيد، هل تمضي، أو ترجع، فنهىٰ الشارع عن ذلك»[(٣)].

التطيُّر في الاصطلاح:

التطيُّر هو التَّشاؤم بما يرىٰ من مجيء الطير والظباء ونحو ذلك ناحية الشمال، أو بما يسمع من صوت طائرٍ، كائنًا ما كان، وعلىٰ أي حالٍ كان، هذا هو التطيُّر عند العرب[(٤)].

قال النووي: وكانوا يتطيَّرون بالسوانح والبوارح، فينفرون الظباء والطيور، فإن أخذت ذات اليمين، تَبَرَّكوا به، ومضوا في سفرهم وحوائجهم، وإن أخذت ذات

---

(١) «المقاييس» (٣/ ٤٤٦).

(٢) «المفردات» (٣٢٢).

(٣) «المصباح» (٣/ ٣٨٢).

(٤) «نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم» (٩/ ٤١٩١).

الشمال، رجعوا عن سفرهم وحاجتهم، وتشاءموا بها، فكانت تصدُّهم في كثيرٍ من الأوقات عن مصالحهم، فنفىٰ الشرع ذلك وأبطله، ونهىٰ عنه، وأخبر أنه ليس له تأثيرٌ بنفعٍ ولا ضُرٍّ، فهذا معنىٰ قوله ﷺ: «**لا طيرة**»، وفي حديثٍ آخر: «**الطيرة شرك**»، أي: اعتقاد أنها تنفع أو تضر إذا عملوا بمقتضاها معتقدين تأثيرها، فهو شرك؛ لأنهم جعلوا لها أثرًا في الفعل والإيجاد[(١)].

قال الحافظ رحمه الله تعالىٰ: إنهم كانوا في الجاهلية يعتمدون علىٰ الطير، فإذا خرج أحدهم لأمرٍ، فإن رأىٰ الطير طار يمنةً، تيمن به واستمر، وإن رآه طار يسرةً، تشاءم به ورجع، وربما كان أحدهم يهيج الطير ليطير فيعتمدها، فجاء الشرع بالنهي عن ذلك، وكانوا يسمونه السانح، ويتيمنون به إذا ولَّاك ميامنه بأن يمر عن يسارك إلىٰ يمينك، والبارح بالعكس من ذلك، وليس في شيء من سنوح الطير وبروحها ما يقتضي ما اعتقدوه، وإنما هو تكلُّف بتعاطي ما لا أصل له، إذ لا نطق للطير ولا تمييز، فيستدل بفعله علىٰ مضمون معنًىٰ فيه، وطلب العلم من غير مكانه جهلٌ من فاعله»[(٢)].

---

(١) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٤/ ٢١٩).

(٢) «الفتح» (١٠/ ٢١٢، ٢١٣) بتصرفٍ يسيرٍ.

الفصل الثاني

التطير حكمه وضرره

أولًا: حكم التطير: محرم، وعدَّه العلماء من كبائر الذنوب.

قال ابن حجر الهيتمي في «الزواجر»: الكبيرة الحادية بعد المائة: ترك السفر، والرجوع منه تطيرًا[(١)].

ثانيًا: ضرر التطير: علىٰ مَن تطير في الدنيا قبل الآخرة:

قال ابن القيِّم رحمه الله تعالىٰ: التطيُّر إنما يضرُّ مَن أشفق منه وخاف، وأما مَنْ لم يبالِ به، ولم يعبأ به شيئًا، لم يضره ألبتة، ولا سيما إِنْ قال عند رؤية ما يتطير به أو سماعه: «**اللَّهمَّ لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك، اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**»، وذلك لأن الطيرة بابٌ من أبواب الشرك، وإلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته، وهذا يعظم شأنه علىٰ مَن أتبعها نفسه، واشتغل بها، وأكثر العناية بها، فتكون إليه أسرع من السَّيل إلىٰ منحدره، وتفتَّحت له أبواب الوساوس فيما يسمعه ويراه ويُعْطاه، فيفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنىٰ ما يفسد عليه دينه، وينكد عليه عيشه، فإذا سمع كلمة سفرجل، أو أهدي إليه، تطير به، وقال: سفر وجلاء، وإذا رأىٰ ياسمينًا، أو أهدي إليه، أو سمع اسمه، تطير به وقال: يأس ومين، وإذا خرج من داره فاستقبله أعور، أو أشل، أو أعمىٰ، أو صاحب آفةٍ، تطير به وتشاءم

---

(١) «الزواجر عن اقتراف الكبائر» (١/ ٢٤٨).

بيومه، وعلىٰ هذا فإن المتطير متعب القلب، منكد الصدر، كاسف البال، سيئ الخُلُق، يتخوَّف من كل ما يراه ويسمعه، فيصير أشد الناس وجلًا، وأنكدهم عيشًا، وأضيقهم صدرًا، وأحزنهم قلبًا، وكم قد حرم نفسه بذلك من حظٍّ، ومنعها من رزقٍ، وقطع عليها من فائدةٍ.

وأما مَن لم يلتفت إليها، ولم يُلْقِ إليها باله، ولم يشغل نفسه بها، ولا فكره، فإن ذلك يذهب عنه ويضمحل، وقد شفىٰ النبي ﷺ أُمَّته في الطيرة حيث سئل عنها، فقال: «**ذلك شيءٌ يجده أحدُكُم، فلا يصدنه**»[1].



(١) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (٢/ ٢٣٠).

الفصل الثالث

النصوص المحذرة من التطير

النصوص المحذرة من التطير:

قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٩ - ١٣١].

قال ابن كثيرٍ: يقول تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾، أي: اختبرناهم وامتحناهم وابتليناهم ﴿ بِٱلسِّنِينَ ﴾، وهي سني الجوع بسبب قلة الزروع ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ ﴾، أي: من الخصب والرزق ﴿ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ ﴾، أي: هذا لنا بما نستحقُّه ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾، أي: جدب وقحط ﴿ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥ ﴾، أي: هذا بسببهم وما جاؤوا به[1].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النمل: ٤٥ - ٤٧].

قال ابن كثيرٍ: يخبر تعالىٰ عن ثمود، وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام حين بعثه الله إليهم، فدعاهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ

(١) «تفسير ابن كثير». ت: سلامة (٣/ ٤٦١).

﴿يَخۡتَصِمُونَ ٤٥﴾، قال مجاهد: مؤمن وكافر ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾، أي: لِمَ تدعون بحضور العذاب، ولا تطلبون من الله رحمته؟ ولهذا قال: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٦ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾، أي: ما رأينا على وجهك، ووجوه مَن اتبعك خيرًا، وذلك أنهم -لشقائهم- كان لا يصيب أحدًا منهم سوء إلا قال: هذا من قِبَلِ صالح وأصحابه.

وقوله تعالىٰ: ﴿تُفۡتَنُونَ﴾، أي: تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال[(١)].

روىٰ ابن حبَّان بسندٍ حسنٍ من حديث أُمِّ كرز الكعبية أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «**أقرُّوا الطير علىٰ مكناتها**»[(٢)].

قال أبو حاتمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قوله ﷺ: «**أقرُّوا الطير علىٰ مكناتها**»، لفظة أمر مقرونة بتَرْك ضده، وهو ألَّا ينفروا الطيور عن مكناتها، والقصد من هذا: الزجر عن شيءٍ ثالثٍ، وهو أن العرب كانت إذا أرادت أمرًا، جاءت إلىٰ وكر الطير فنفرته، فإن تيامن مضت للأمر الذي عزمت عليه، وإن تياسر أغضت عنه، وتشاءمت به، فزجرهم النبي ﷺ عن استعمال هذا الفعل بقوله: «**أقرُّوا الطير علىٰ مكناتها**»[(٣)].

وروىٰ مسلمٌ من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال: بينا أنا أُصلِّي مع رسول الله ﷺ، إذ عطس رجلٌ من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أُمَّياه، ما شأنكم تنظرون إليَّ؟! فجعلوا يضربون بأيديهم علىٰ أفخاذهم، فلما رأيتهم يُصْمتونني، لكني سكت، فلمَّا صلىٰ رسول الله ﷺ،

---

(١) «تفسير ابن كثير». ت: سلامة (٦/ ١٩٨).

(٢) «صحيح ابن حبان» - مخرجًا (١٣/ ٤٩٦)، تعليق شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

(٣) «صحيح ابن حبان» - محققًا (١٣/ ٤٩٦).

فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلمًا قبله، ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله، ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: «**إنَّ هذه الصلاة لا يصلح فيها شيءٌ من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**»، أو كما قال رسول الله ﷺ.

قلت: يا رسول الله، إنِّي حديث عهدٍ بجاهليةٍ، وقد جاء الله بالإسلام، وإن منا رجالًا يأتون الكهان، قال: «**فلا تأتهم**». قال: ومنا رجال يتطيرون. قال: «**ذاك شيء يجدونه في صدورهم، فلا يصدنهم**»، وفي روايةٍ: «**فلا يصدنكم**».

قال: قلت: ومنا رجال يخطون. قال: «**كان نبيٌّ من الأنبياء يخط، فمَن وافق خطه فذاك**». قال: وكانت لي جاريةٌ ترعىٰ غنمًا لي قبل أُحُد والجوانية، فاطلعت ذات يومٍ، فإذا الذيب قد ذهب بشاةٍ من غنمها، وأنا رجل من بني آدم، آسف كما يأسفون، لكني صككتها صكةً، فأتيت رسول الله ﷺ، فعظم ذلك عليَّ، قلت: يا رسول الله، أفلا أعتقها؟ قال: «**ائتني بها**»، فأتيته بها، فقال لها: «**أين الله؟**». قالت: في السماء. قال: «**مَن أنا؟**». قالت: أنت رسول الله. قال: «**أَعْتقها، فإنها مؤمنةٌ**»(١).

قال النووي: قول معاوية: «ومنا رجال يتطيرون»، قال ﷺ: «**ذلك شيء يجدونه في صدورهم، فلا يصدنَّهم**»، وفي روايةٍ: «**فلا يصدنَّكم**». قال العلماء: معناه: إنَّ الطيرة شيء تجدونه في نفوسكم ضرورة، ولا عتب عليكم في ذلك، فإنَّه غير مكتسبٍ لكم، فلا تكليف به، ولكن لا تمتنعوا بسببه من التصرُّف في أموركم، فهذا هو الذي تقدرون عليه، وهو مكتسبٌ لكم، فيقع به التكليف، فنهاهم ﷺ عن العمل بالطيرة، والامتناع من تصرفاتهم بسببها، والطيرة محمولة علىٰ العمل بها، لا علىٰ ما يوجد في

(١) «صحيح مسلم» (٥٣٧).

النفس من غير عملٍ علىٰ مقتضاه عندهم[(١)].

روىٰ أبو داود بسند صحيح من حديث عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «**الطيرة شرك، الطيرة شرك** -ثلاثًا- **وما منَّا إلَّا، ولكن الله يذهبه بالتوكُّل**»[(٢)].

قال البيهقي في «الشعب»: قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: يريد، والله تعالىٰ أعلم: الطيرة شرك علىٰ ما كان أهل الجاهلية يعتقدون فيها، ثم قال: «**وما منَّا إلَّا...**»، يقال: هذا من قول عبد الله بن مسعودٍ، وليس من قول النَّبيِّ ﷺ. وقوله: وما منَّا إلَّا وقع في قلبه شيء عند ذلك علىٰ ما جرت به العادة، وقضت به التجارب، لكنه لا يقرُّ فيه، بل يحسن اعتقاده أَنْ لا مدبر سوىٰ الله تعالىٰ، فيسأل الله الخير، ويستعيذ به من الشر، ويمضي علىٰ وجهه متوكلًا علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ[(٣)].

وروىٰ أحمد بسندٍ صحيحٍ من حديث عبد الله بن عمرٍو، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن ردَّته الطيرة من حاجةٍ، فقد أشرك**»، قالوا: يا رسول الله، ما كفارة ذلك؟ قال: «**أن يقول أحدُهُم: اللَّهمَّ لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك**»[(٤)].

وروىٰ الطبراني بسندٍ حسنٍ من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لن يلج الدرجات العلىٰ مَن تكهَّن، أو استقسم، أو رجع من سفر تطيرًا**»[(٥)].

ووجه كون الطيرة من الشرك: هو أنَّه أشرك من حيث إنه اعتمد علىٰ هذا السبب الذي لم يجعله الله سببًا، وهذا يُضْعف التوكُّل علىٰ الله، ويوهن العزيمة، وبذلك يعتبر

---

(١) «شرح النووي علىٰ مسلم» (٥/ ٢٢).

(٢) «سنن أبي داود» (٣٩١٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم (٤٢٩).

(٣) «شعب الإيمان» (٢/ ٣٩٧).

(٤) أخرجه أحمد (٧٠٤٥)، وصححه العلامة أحمد شاكر.

(٥) «فتح الباري» لابن حجر (١٠/ ٢١٣)، وقال الألباني في «الترغيب» (٣٠٤٥): حسن لغيره.

شركًا من هذه الناحية، والقاعدة: «إن كل مَن اعتقد في شيءٍ أنه سبب، ولم يثبت أنه سبب؛ لا كونًا، ولا شرعًا، فشركه شرك أصغر؛ لأنه ليس لنا أن نثبت أن هذا سبب إلا إذا كان الله قد جعله سببًا؛ كونًا أو شرعًا، فالشرعي: كالقراءة والدعاء، والكوني: كالأدوية التي جرب نفعها».

يستفاد من هذا الحديث:

١- أنه لا يجوز للإنسان أن ترده الطيرة عن حاجته، وإنما يتوكل علىٰ الله، ولا يبالي بما رأىٰ أو سمع، أو حدث له عند مباشرته للفعل أول مرة، فإن بعض الناس إذا حصل له ما يكره في أول مباشرته الفعل، تشاءم، وهذا خطأٌ؛ لأنه ما دامت هناك مصلحة دنيوية أو دينية، فلا تهتم بما حدث.

٢- أن الطيرة نوع من الشرك؛ لقوله ﷺ: «**مَنْ ردَّته الطِّيرة عن حاجته، فقد أشرك**».

٣- أنَّ مَنْ وقع في قلبه التطيُّر، ولم ترده الطيرة، فإنَّ ذلك لا يضرُّ، كما سبق في حديث ابن مسعودٍ: «**وما منَّا إلَّا... ولكن الله يذهبه بالتوكل**».

٤- أن الأمور بيد الله؛ خيرها وشرها.

٥- انفراد الله بالألوهية، كما انفرد بالخَلق والتدبير.

ذكر ابن القيِّم في «مفتاح دار السعادة»: «قال عكرمة رحمه الله تعالىٰ: كنا جلوسًا عند ابن عباس، فمر طائر يصيح، فقال رجلٌ من القوم: خير خير، فقال له ابن عباس: «لا خير، ولا شر»، مبادرةً منه بالإنكار عليه؛ لئلا يعتقد أن له تأثيرًا في الخير أو الشر.

وخرج طاوس مع صاحبٍ له في سفرٍ، فصاح غراب، فقال الرجل: خير، فقال طاوس: وأي خيرٍ عنده، واللهِ لا تصحبني[(١)].

---

(١) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (٢/ ٢٣٥).

حقيقة التطير، وحد الطيرة:

روىٰ أحمد بسند حسن من حديث الفضل بن العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: خرجت مع رسول الله ﷺ يومًا، فبرح ظبي، فمال في شقه، فاحتضنته، فقلت: يا رسول الله، تطيرت؟ قال: «**إنَّما الطيرة ما أمضاك أو ردك**»(١).

قوله: «فبرح ظبي»، المراد: أي: من البارح ضد السانح، فالسانح ما مرَّ من الطير والوحش بين يديك من جهة يسارك إلىٰ يمينك، والعرب تتطير به؛ لأنه أمكن للرمي والصيد، والبارح ما مرَّ من يمينك إلىٰ يسارك، والعرب تتطير به؛ لأنه لا يمكنك أن ترميه حتىٰ تنحرف.

قوله صلىٰ الله عليه وسلم: «**ما أمضاك، أو ردَّك**»، أي: ما أثَّر عليك، فحَمَلك علىٰ الإقدام أو النكوص(٢).

فَحدُّ الطِّيرة المنهي عنها فسَّرها رسول الله ﷺ بقاعدةٍ كلِّيَّةٍ، وهي ما يحمل الإنسان علىٰ المُضيِّ فيما أراده، أو يمنعه من المضي فيه، فتلك الطيرة، ومَن مضىٰ أو امتنع بسببها، فقد أشرك.

وعلىٰ الجملة:

إذا عزم المرء علىٰ فعل شيءٍ من الأمور النافعة في الدين أو في الدنيا، فيرىٰ أو يسمع ما يكره، أثَّر في قلبه أحد أمرين، أحدهما أعظم من الآخر:

الأول: أن يستجيب لذلك الداعي، فيترك ما كان عازمًا علىٰ فعله، ويتطير بذلك، وينكص عن الأمر الذي كان عازمًا عليه، فهذا -كما ترىٰ- قد علق قلبه بذلك

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٢٤)، وضعفه العلامة أحمد شاكر.

(٢) «الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني» (١٧/ ١٩٩).

المكروه غاية التعليق، وعمل عليه، وتصرف ذلك المكروه في إرادته وعزمه وعمله، فلا شكَّ أنه علىٰ هذا الوجه أثر علىٰ إيمانه، وأخلَّ بتوحيده وتوكُّله.

الثاني: ألَّا يستجيب لذلك الداعي، ولكنه يؤثر في قلبه حزنًا وهمًّا وغمًّا، فهذا وإن كان دون الأول، لكنه شرٌّ وضرر علىٰ العبد، وضعف لقلبه، وموهن لتوكله، وربما أصابه مكروه، فظن أنه من ذلك الأمر، فقوي تطيره، وربما تدرج إلىٰ الأمر الأول.

فهذا التفصيل يبين لك وجه كراهة الشارع للطيرة وذمها، ووجه منافاتها للتوحيد والتوكل، وينبغي لمَن وجد شيئًا من ذلك، وخاف أن تغلبه الدواعي الطبيعية: أن يجاهد نفسه علىٰ دَفْعها، ويستعين بالله علىٰ ذلك، ولا يركن إليها بوجهٍ ليندفع الشَّرُّ عنه.



الفصل الرابع

علاج التطير

وعلاج التطير يكون من خلال محورين:

الأول: الجانب العلمي:

الاعتقاد الجازم بأن الأمور كلها بيد الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يقع في كونه إلا ما يشاء ولحكمةٍ، وأن من سننه الكونية إجراء المسببات علىٰ وَفق الأسباب، وأن ما يقع به أو منه التطير لا ينتظم مع السنن الكونية، ويدخل في الجانب العلمي الوقوف علىٰ أضرار التطير، ومنها:

(١) ينافي الإيمان، ويضاد التوكل.

(٢) لا يدفع مكروهًا، ولا يجلب محبوبًا.

(٣) دليل قلة العقل، وذهاب الحِلم.

(٤) اضطراب النفس، وبلبلة الفكر.

(٥) الفشل في الحياة.

(٦) دعوة إلىٰ تعطيل المصالح، وترك السعي.

(٧) صفة من صفات الجاهلية، وعادة مذمومة من عاداتهم.

(٨) دعوة صريحة للكفر بالقضاء والقدر.

(٩) تجعل الإنسان عبدًا للخزعبلات والدجل.

(١٠) فيها مخالفة صريحة لأمر الرسول ﷺ[(١)].

---

(١) «نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم» (٩/ ٤١٩٩).

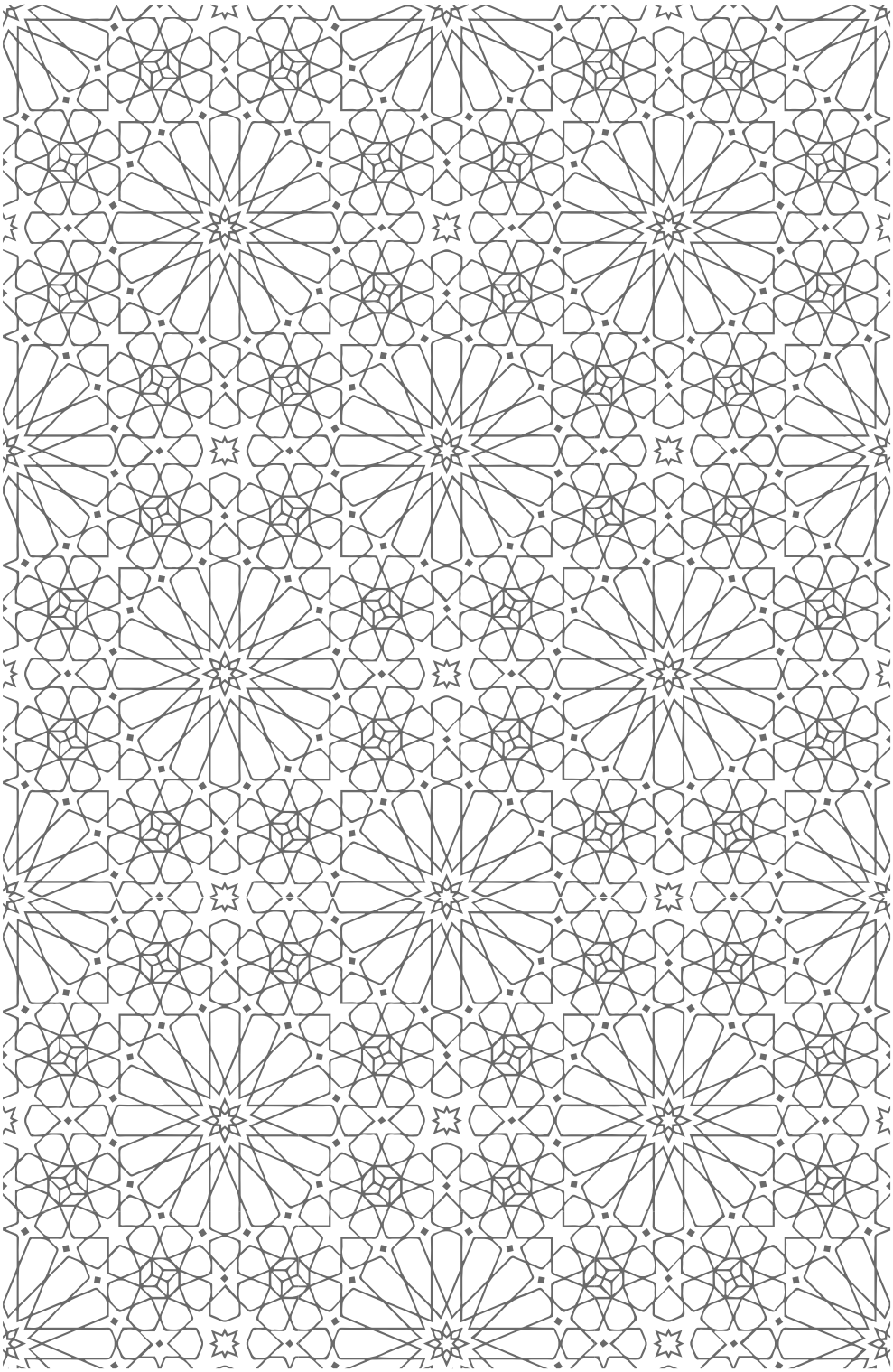
قال الماوردي: يجب علىٰ مَن ابتلي بالتطير أن يصرف عن نفسه دواعي الخيبة، وذرائع الحرمان، ولا يجعل للشيطان سلطانًا في نقض عزائمه، ومعارضة خالقه، ويعلم أن قضاء الله تعالىٰ عليه غالبٌ، وأن رزقه له طالب، إلا أن الحركة سبب، فلا يُثْنيه عنها ما لا يضير مخلوقًا، ولا يدفع مقدورًا، وَلْيَمض في عزائمه واثقًا بالله تعالىٰ إن أعطىٰ، وراضيًا به وإن منع[(١)].

الثاني: الجانب العملي:

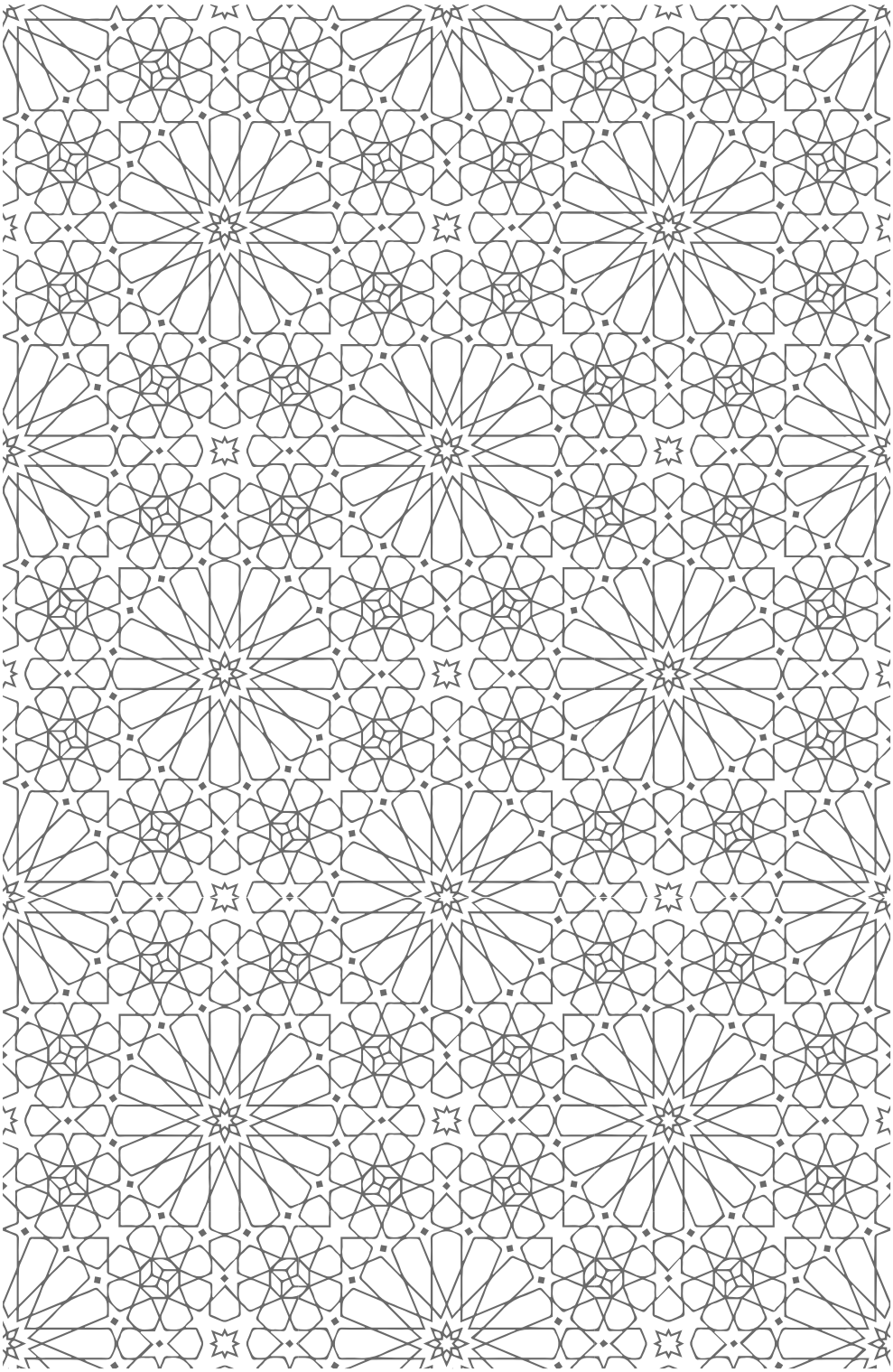
وذلك بألَّا يؤثر التطير عليه، فيصده عما عزم عليه، ويجاهد نفسه، ويمضي في شئونه.



(١) «أدب الدنيا والدين» (٣٠٢) للماوردي.



المحتويات





فهرس الموضوعات

مقدمة ٥

القسم الأول مقدمة حول أمراض القلوب ١٧

الفصل الأول خطة البحث..... ١٩

الفصل الثاني..... ٢٠

الفصل الثالث أنواع القلوب ٢٣

الفصل الرابع أنواع مرض القلب..... ٣٢

الفصل الخامس العلاقة بين مرض البدن ومرض القلب ٣٤

الفصل السادس ذكر مرض القلب ٤٤

الفصل السابع علاقة القلب بالجوارح ٤٥

الفصل الثامن أسباب مرض القلب علىٰ العموم..... ٤٨

الفصل التاسع تقسيم أمراض القلوب باعتبار الشعور بها ٥٥

الفصل العاشر أسباب صحة القلب وعلامات صحته وسلامته ٥٧

الفصل الحادي عشر أصول مهمة قبل دراسة أمراض القلوب يجب مراعاتها ... ٦٥

القسم الثاني ذكر أمراض القلوب وعلاجها ٧٧

الباب الأول مرض الكبر ٧٩

مرض الكبر..... ٨١

الفصل الثالث تعريف مرض الكبر ٨٢
الفصل الثاني التحذير من مرض الكبر ٨٤
الفصل الثالث الآثار المترتبة علىٰ تلبس العبد بالكبر في الدنيا وفي الآخرة ... ٩٩
الفصل الرابع كيف يتطرق الكبر إلىٰ قلب العبد؟ ١٠٢
الفصل الخامس أركان الكبر ١٠٥
الفصل السادس أنواع المتكبر به..... ١٠٩
الفصل السابع التكبر بالكمال الديني، وعلامته، وعلاج ذلك ١١١
الفصل الثامن التكبُّر بالأسباب الدنيوية..... ١٤٧
الفصل التاسع التواضع من الأدوية النافعة لعلاج الكبر ١٦٦
الفصل العاشر خاتمة الكلام عن الكبر..... ١٧٢
الباب الثاني: مرض العجب ١٧٣
الفصل الأول تعريف مرض العجب، وذكر الأدلة الشرعية علىٰ ذمِّه ١٧٥
الفصل الثاني خطورة العجب..... ١٨٦
الفصل الثالث سبب العجب وعلاج تلك الأسباب ١٨٩
الباب الثالث مرض الغرور..... ١٩٣
الفصل الأول الغرور في الاصطلاح..... ١٩٥
الفصل الثاني النصوص الشرعية الواردة في ذم الغرور ١٩٦
الفصل الثالث الأسباب التي تؤدي إلىٰ المعصية ومن ثَمَّ إلىٰ الغفلة ١٩٩

الفصل الرابع أسباب تخلُّف العبد عن العمل ٢١٠
الفصل الخامس ذكر أمثلة لبعض المغترين وشبههم ٢١٢
الفصل السادس ما يكون به الغرور وذكر بعض أصناف المغترين ٢١٤
الفصل السابع بم ينجو العبد من الغرور؟ ٢٢٠
الفصل الثامن كيف يتخلص العبد من الغرور؟ ٢٢١
الباب الرابع مرض سوء الظن ٢٢٣
الفصل الأول مقدمة عن مرض سوء الظن ٢٢٥
الفصل الثاني أركان سوء الظن ٢٢٧
الفصل الثالث التحذير من مرض سوء الظن ٢٣٧
الفصل الرابع أمثلة علىٰ سوء الظن ٢٤٣
الفصل الخامس أسباب سوء الظن ٢٦٦
الفصل السادس علاج مرض سوء الظَّنِّ ٢٦٧
الفصل السابع خطر إساءة الظن بالعلماء والدعاة ٢٧٧
الباب الخامس مرض الحسد ٢٨٣
الفصل الأول تعريف مرض الحسد ٢٨٥
الفصل الثاني كيف يتطرق الحسد إلىٰ القلب؟ ٢٩٠
الفصل الثالث التحذير من مرض الحسد ٢٩٥
الفصل الرابع أمثلة علىٰ وقوع الحسد من البعض، وكيف كانت العاقبة ... ٣٠٢

الفصل الخامس أسباب مرض الحسد..... ٣٠٨
الفصل السادس علاج مرض الحسد ٣١٧
الفصل السابع العين..... ٣٢٢
الفصل الثامن أقسام العائن ٣٢٥
الفصل التاسع كيف يقع الحسد من صاحب النفس الطيبة؟ ٣٢٦
الفصل العاشر الأدلة الشرعية علىٰ وجود العين ٣٣١
الفصل الحادي عشر علاج العين والوقاية منها ٣٤٧
الفصل الثاني عشر شروط الرقية الشرعية ٣٥٨
الفصل الثالث عشر مسائل في الرقية والعلاج بالقرآن ٣٦٢
الباب السادس مرض الرياء..... ٣٧١
الفصل الأول تعريف الرياء..... ٣٧٣
الفصل الثاني التحذير من مرض الرياء ٣٧٨
الفصل الثالث إحباط الرياء للعمل ٤٠٩
الفصل الرابع شرح حديث: «ما ذئبان...» ٤١٣
الفصل الخامس أقسام الناس في تحصيل الأموال..... ٤١٨
الفصل السادس أسباب الرياء وعلاجها ٤٣٠
الباب السابع مرض الغضب ٤٥٧
الفصل الأول تعريف الغضب..... ٤٥٩

الفصل الثاني ثبوت صفة الغضب لله عَزَّوَجَلَّ ٤٦٠
الفصل الثالث الفرق بين الحزن والغضب وأنواع الغضب ٤٦٥
الفصل الرابع النصوص الشرعية الواردة في ذم الغضب ٤٧٠
الفصل الخامس علاج الغضب..... ٤٨٠
الفصل السادس أمثلة لكظم الغيظ من حياة النَّبيِّ ﷺ وحياة السلف ٤٨٦
الفصل السابع ثانيًا: علاج مرض الغضب عن طريق العمل ٤٩٥
الفصل الثامن بعض الأحكام الشرعية المتعلقة بالغضبان ٤٩٩
الباب الثامن مرض الحقد.....٥٠٥
الفصل الأول تعريف الحقد..... ٥٠٧
الفصل الثاني كيفية تولُّد مرض الحقد في القلب وثمراته..... ٥٠٩
الفصل الثالث بعض أسباب الحقد..... ٥١٢
الفصل الرابع علامة الحقد وحكمه..... ٥١٣
الفصل الخامس النصوص الشرعية الواردة في ذم الحقد والغل..... ٥١٦
الفصل السادس علاج الحقد..... ٥١٨
الباب التاسع مرض النفاق.....٥٢٩
الفصل الأول مرض النفاق (تعريفه، أقسامه، حكمه) ٥٣١
الفصل الثاني علامات النفاق الأكبر..... ٥٣٥
الفصل الثالث علامات النفاق الأصغر..... ٦٣٦

الفصل الرابع أصول النفاق العملي ٦٥٦
الباب العاشر مرض الوسوسة ٦٦٧
الفصل الأول مقدمة عن مرض الوسوسة ٦٦٨
الفصل الثاني أقسام الوسوسة باعتبار مصدرها ٦٧٠
الفصل الثالث أسباب مرض الوسوسة ومدخل الشيطان على الإنسان ٦٧٦
الفصل الرابع بعض شبهات المبتلين بالوسوسة والرد عليهم ٦٨٨
الفصل الخامس هدي النبي ﷺ في إزالة النجاسات والرد على الموسوسين ... ٦٩٩
الفصل السادس علاج مرض الوسوسة ٧٠٨
الباب الحادي عشر مرض اتباع الهوى ٧١٥
الفصل الأول تعريف مرض اتباع الهوى وخطورته ٧١٧
الفصل الثاني النصوص الشرعية الواردة في التحذير من اتباع الهوى ٧٢٢
الفصل الثالث أسباب مرض اتباع الهوى وعلاجه ٧٣٧
الفصل الرابع علاج اتباع الهوى ٧٤٢
الباب الثاني عشر طول الأمل ٧٤٥
الفصل الأول تعريف طول الأمل وأسبابه ٧٤٧
الفصل الثاني علاج مرض طول الأمل ٧٥٠
الباب الثالث عشر مرض البخل والشح ٧٨٣
الفصل الأول تعريف البخل والشح ٧٨٥

الفصل الثاني أنواع البخل ودرجاته..... ٧٨٨
الفصل الثالث الأدلة الشرعية علىٰ ذم البخل..... ٧٩١
الفصل الرابع أسباب البخل والشح..... ٧٩٧
الفصل الخامس شيء من قبائح وعجائب البخلاء ٧٩٩
الفصل السادس علاج البخل والشح..... ٨٠٢
الباب الرابع عشر مرض التطير ٨٠٧
الفصل الأول تعريف التطير ٨٠٩
الفصل الثاني التطير حكمه وضرره..... ٨١١
الفصل الثالث النصوص المحذرة من التطير..... ٨١٣
الفصل الرابع علاج التطير..... ٨٢٠
فهرس الموضوعات ٨٢٥



